التفسير التربوي للقرآن الكريم

أنور الباز

المجلد الأول



دار النشر للجامعات - مصر

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الباز ، أنور
التفسير التربوي للقرآن الكريم/ أنور الباز - ط١ - القاهرة
دار النشر للجامعات، ٢٠٠٧.
٣مج ٢٤سم.
تدمك ٦ ٢٠٣ ٣١٦ ٩٧٧
١ - القرآن - تفسير
أ- العنوان ٢٢٧

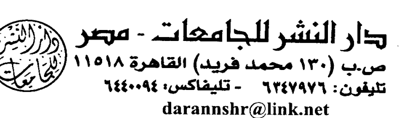
تاريخ الإصدار: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

حقوق الطبع: محفوظة للناشر

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٥٤٨٨

الترقيم الدولي: ISBN: 977-316-203-6

الكود: ٢/١٩٥



دار النشر للجامعات - مصر
ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨
تليفون: ٦٣٤٧٩٧٦ - تليفاكس: ٦٤٤٠٠٩٤
darannshr@link.net

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأنزل إليه الكتب السماوية لتأخذ بيده إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر) والقائل : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء) .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، الذى كان قرآنا يمشى على الأرض ، صلاة وسلاما عليه وعلى آله وصحبه الذين تعلموا القرآن وعملوا به ، فكانوا بذلك خير القرون ، ونالوا شرف الذكر والثناء فى قرآن يتلى إلى يوم يبعثون . اللهم وارض عن كل من اقتفى أثرهم وسلك طريقهم إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن الإنسان مهما اتخذ من التدابير واستخدم من الوسائل لفهم القرآن ، فإنه لا يصل إلى جوهر القرآن وروحه كما ينبغى ، ما دام هو لا يعمل وفق ما جاء به القرآن .

والقرآن لم يَحْوِ نظريات مجردة وأفكارًا محضة حتى ندرسه جالسين على الأريكة ، ثم نفهم جميع مطالبه !! كما أنه ليس بكتاب يبحث فى اللاهوت فتحلّ جميع أسراره ومكنوناته فى المعاهد والزوايا !!

كلا .. إنه كتاب دعوة وحركة، وبمجرد نزوله أخرج ـ كما يقول العلامة المودودى ـ رجلا وادعا دمثا ، سليم الفطرة ، كريم الشيم ، ومحبا للسكوت ، من زاوية الانعزال ، وأوقفه فى مواجهة العالم الذى كان قد انصرف عن الحق ، وجعله يقارع الباطل ، ويحارب أئمة الكفر ، وقادة الفسق ، ورواد الضلال .

إن هذا القرآن هو الذى قام بتوجيه حركة الجماعة المسلمة الهائلة خلال مدة ثلاث وعشرين سنة ، والتى بدأ عملها من صرخة فرد واحد ، وانتهت فى نهاية المطاف إلى إقامة الخلافة فى الأرض .. وهذا القرآن هو الذى تولّى مشاريع البناء فى كل مرحلة من المراحل، وفى كل خطوة من الخطوات خلال المعركة المديدة الضارية بين الحق والباطل .

إننا نؤكد على أنه لا نستطيع أن نفهم مطالب القرآن ومعانيه البعيدة الغور إلا عندما نحكّم هذا القرآن ، ونبدأ بالدعوة إلى الله ، ونخطو جميع خطواتنا في هداه ، كما أنه ـ ووفقا لنفس المبدأ ـ لا يستطيع الإنسان أن يدرك مغزى أحكام القرآن وتعاليمه الخلقية وتوجيهاته الاقتصادية والمدنية ، ومبادئه ونظمه فى مختلف مناحى الحياة ما دام لا يطبقها فى الحياة ، ولا يدرك مغزاها فرد يعيش فى حِلٍّ منها فى حياته الفردية ، ولا تدركه أمة تسلك جميع مؤسساتها الاجتماعية مسلكا يخالف منهجها .

القرآن .. والتربية :

ويمكن القول : إن القرآن نزل كله للتربية والتوجيه لبناء الأمة الراشدة التى تقوم بمهمة الخلافة الراشدة فى الأرض ، ويربى النفس البشرية من جميع جوانبها ، وينفذ إليها من جميع منافذها ، مهما كانت مستوياتها النفسية والروحية والاجتماعية والحضارية، وأن كل مستوى من البشر يجد فيه حاجته ، ويجد انعكاس نفسه فيه كما ينظر فى المرآة ، ويتفاعل معه بقدر ما يفتح قلبه وبصيرته إليه .

وهو ـ أى القرآن ـ ينظر للحياة الإنسانية على أنها المجال الأنسب لعبادة الله تعالى وفق ما شرع ، ويعتبرها دار عمل واختبار ، من نجح فيها باتباع المنهج القرآنى حظى برضا الله تعالى ، ونال ثواب جنته فى الآخرة ، ولا تستقيم هذه الحياة الدنيا مع الإنسان لتحقيق سعادة الدارين إلا إذا ربّى الإنسان تربية قرآنية إسلامية صحيحة .

والذى يراجع عهد الدعوة الأول بشقيه ـ المكى والمدنى ـ يعلم كيف تربى الجيل الأول من مكونات المجتمع المسلم بالقرآن ، ويعلم علم اليقين أن ربهم الذى خلقهم أنزل على عبده ورسوله هذا القرآن ، أنزله من عنده ليربى هذا الجيل الذى سوف يكون النموذج القدوة الذى يُقصد عندما ينحرف المجتمع المسلم عن جادة الصواب ويتيه هنا وهناك ، سواء بأسباب هى من عمل يده أو خارجة عنه .

فالقرآن فى مكة كان فترة تربية وإعدادًا ، تربية بالعقيدة وإعداداً لحمل الأمانة الكبرى التى لم تحملها أمة أخرى من قبل ، وهى تحقيق منهج الله فى واقع الأرض .

وقد آتت التربية ثمارها بالفعل فى نفوس الفئة المختارة التى رباها على عينه رسول الله ﷺ خلال ثلاثة عشر عاما فى مكة ، كانت لا إله لا الله قد تعمقت فى نفوسهم حتى أصبحت واقعهم الذى يعيشونه ، وزادهم الذى يتقوتون به .

كانت فترة التربية التى عاشوها فى مكة يطوف بهم القرآن فى آيات الله فى الكون ، فى الدقة المعجزة والضخامة المعجزة ، فى الحياة والموت ، فى عجائب الرزق ، فى تدبير الكون، فى علم الله الشامل للغيب ، فى قدرته التى لا تحدّ ، فى إملائه للكفار ثم تدميره عليهم ، فى مشاهد القيامة بنعيمها وعذابها ، وحشرها وحسابها .

ومن خلال التربية بالعقيدة كان يتم الإعداد لحمل الأمانة الكبرى ، وهل كان يمكن لها - قبل أن تتربى تلك التربية الفذة بلا إله إلا الله - أن تبقى على مستواها الرفيع ذلك حين تمكن فى الأرض ؟ ومن أين لها أن تعطى تلك النماذج الفريدة من الوفاء بالعهد ، ومن الصدق ، ومن معاملة الأمم المفتوحة معاملة أخلاقية لا تقوم على السلب والنهب والسيطرة والتحكم ، إنما تقوم على إعطاء النموذج المحبب الذى يقود - فى رفق - إلى التخلى عن الجاهلية الوثنية والدخول فى طاعة الله ، وكانت العقيدة هى الركيزة التى قام عليها البناء كله من خلال التربية القرآنية .

وكانت النقلة الثانية فى العهد المدنى من فترة الابتلاء والتمحيص ، والاستضعاف والتشريد ، إلى التمكين فى الأرض والاستخلاف . كما كان القرآن - وتعاليم الرسول ﷺ - هو أداة النقلة الأولى من الكفر إلى الإيمان ، فكذلك كان هو أداة النقلة الثانية إلى التمكين والاستخلاف .

وإذا كان ذلك كذلك،فلا بد أن لمنهج القرآن سمات فى التربية لأتباعه تختلف عن كل سمات المناهج الأرضية، حيث استطاع فى فترة وجيزة أن يربى هذه الأمة تربية استحقت أن توصف من خلالها بأنها خير أمة أخرجت للناس.

سمات منهج التربية فى القرآن :

هذا ، ولمنهج التربية فى القرآن سمات نشير إليها بإيجاز فيما يلى :

١ - الربانية :

فالبشرية - وهى من صنع الله - لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ، ولا تعالج عللها وأمراضها إلا بالدواء الذى يخرج من يده - سبحانه - وقد جعل عز وجل فى منهجه وحده مفاتيح كل مغلق . وشفاء كل داء: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء: ٨٢) ، ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء : ٩) . ولن تجد البشرية الرشد ولا الهدى ولا الراحة ولا السعادة إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى خالقها .

لقد تسلم الإسلام قيادة البشرية بعدما فسدت الأرض ، وأسنت الحياة ، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ (الروم: ٤١) ، تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن ، وبالتصور الجديد الذى جاء به القرآن ، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور ، فكان ذلك مولدا جديدا للإنسان أعظم فى حقيقته من المولد الذى كانت به نشأته .

فلقد أنشأ القرآن للبشرية تصورا جديدا عن الوجود والحياة والقيم والنظم، كما حقق لها واقعا اجتماعيا فريدا ، كان يعز على خيالها تصوره - مجرد تصور - قبل أن ينشئه لها القرآن .

فلقد سقطت كل المناهج التى وضعها الإنسان لتربية الإنسان ، على مر الدهور والعصور ، أيام الرومان واليونان ثم عصور أوربا المظلمة ، وقريبا تلك المناهج القائمة على الاشتراكية أو الشيوعية أو ما شابه ذلك ، وسوف يظل منهج القرآن المتميز فى شكله وموضوعه هو القادر على إصلاح الناس ؛ لأن رب الناس - جل وعلا - هو أدرى بما يصلح عباده وخلقه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك) .

٢ - الشمولية والتكامل :

ولكل إنسان حياته الدنيوية ، وكذلك حياته الأخروية - باعتبار ما سوف يصير إليه - وهى ولا شك تحدد بما اكتسبه فى حياته الدنيا ، ومن رحمة الإسلام أنه لم يتركه سدى ، بل أوجب له ما يصلح هذه الحياة أو تلك ، فى حدود قدراته وإمكاناته ، ودون أن يسبب له إحراجا أو مشقة ، فالإنسان فى كل تصرفاته ، وحركاته وسكناته ، وكل ما يصدر عنه قد وضعت له التربية القرآنية ما يصلحه ، وما فيه سعادته فى دنياه وآخرته .

وإذا كانت هذه التربية من الشمولية لحياتى الإنسان ، فإنها كذلك ذات منهج متكامل فى كل مناحى الحياة ؛ اجتماعية ، أو سياسية أو اقتصادية ... وهذا التكامل إنما يحقق التوازن والانسجام بين الإنسان ونفسه ، وبينه وبين المجتمع الذى يعيش فيه ، فلا صراع ولا عناد إنما هو الوئام ليس إلّا .

٣ - التوازن :

وإذا كان الإنسان يتكون من جسم وروح، ولكل منهما حاجاته ومتطلباته، فإن منهج التربية القرآنية قد راعى ذلك بشكل متوازن ، بحيث لا يطغى جانب على آخر ، فى ظل

الشرعية التى رسم الإسلام حدودها ووضع قواعدها بما يتناسب وتكريم الله - عز وجل - له : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠) .

وهذا التوازن إنما هو الاعتدال والوسطية التى ينبغى أن تتصف به الأمة القائدة الرائدة، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة:١٤٣) ، وكلمة (وسط) تحمل فى طياتها معان كثيرة ، فالوسط هو الأفضل وهو المعتدل وهو المتوسط بين الأطراف ، وكل هذه المعانى توفرت فى تلك الأمة القائدة الرائدة لتكون شهيدة على الناس ، يوم أن أخذت نفسها بالقرآن ، فطبيعة الإسلام هى التوازن والاعتدال بين مطالب الجسم والروح .

٤ - الإيجابية العملية :

كما أن منهج القرآن لا يكتفى بأن يتعلم الإنسان العلم - دينيا كان أو دنيويا - وحسبه ذلك ، وإنما طلب منه ترجمة هذا العلم إلى الواقع: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (الصف) . فكل من يتربى على منهج القرآن لا بد وأن يكون إيجابيا وفاعلا مع نفسه ، ومع مجتمعه . فلا بد أن يعمل العمل الصالح الذى يترجم به عن إيمانه ، فلا إيمان فى ظل التربية الإسلامية بغير عمل صالح ، والعمل الصالح هو العمل الذى أو جبه الله أو ندب إليه ، قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة : ١٠٥) ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل: ٩٧) ، ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ (سبأ : ١٣) .

واعتبر الإسلام أن القعود والكسل عن العمل من السلبيات التى تضر بالفرد والمجتمع ، ولذا نهى عن ذلك أشد النهى فى أكثر من آية وحديث .

إن السكوت عن مناصرة الحق وترك الضلال ينفرد بزمام الحياة ينتهى حتما بضربة من القدر لا تبقى ولا تذر: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝ ﴾ (هود) . ولنتدبر الجملة الأخيرة فى الآية ، إنه قال : ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ولم يقل : وأهلها صالحون ؛ لأن الصلاح الشخصى المنزوى بعيدا لا يأسى لضعف الإيمان ، ولا يبالى بهزيمة الخير ، صلاح لا قيمة له ولا خير فيه !! فالتربية القرآنية تتطلب من الفرد أن يكون صالحا مصلحا ، وراشدا مرشدًا .

٥ ـ الواقعية :

وأيضا ، فمنهج القرآن فى تربية الفرد إنما يصل به إلى أن يكون ذلك المؤمن الذى يجده الله ـ عز وجل ـ حيث أمره ، ويفتقده حيث نهاه ، عبدٌ يعمل الصالحات ويتعاون على البر والتقوى ، ولا يتعاون على الإثم والعدوان ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويعمل على إعلاء كلمة الله ، ويضحى بكل ما يملك من نفس ونفيس فى سبيل دينه وعزة أمته : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (الصف) .

والإنسان المسلم وهو يُربَّى على تلك القيم إنما يعترف له الإسلام بواقعه الذى يعيش فيه ، وما يشتمل عليه هذا الواقع من مطالب مادية يجب أن يستجيب لها الإنسان فى حدود ما شرع الله عز وجل ، بعيدا عن تلك المثالية التى تتطلب الكمال أو تعنيه ، فالكمال لا يكون إلا لله وحده ، أما البشر فيخطئون ويصيبون ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

ومما سبق يتبين لنا أهمية تناول آيات القرآن كمنهج تربوى ـ بالمفهوم والسمات التى ذكرناها ، أو بعبارة أخرى : كيف يمكن عرض آيات القرآن بأسلوب ومنهج تربوى يسهّل على القارئ ترجمة هذا القرآن إلى واقع عملى ، اقتداء بالنبى ﷺ الذى كان قرآنا يمشى على الأرض ، وهذا ما جعل الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ يقول : إن السنة هى فهم النبى ﷺ للقرآن ، فهو مرتبط به ارتباطا تاما فى حياته ، فى ظاهره وباطنه . وهذا هو ما نهدف إليه ـ تناول القرآن الكريم تحت هذا العنوان :

« التفسير التربوى للقرآن الكريم »

وإنه لما تفخر به المكتبة الإسلامية التراث التفسيرى للقرآن ، على تنوع مدارسه ، واختلاف مناهجه ، وهذا التراث قد أثرى حياة المسلمين ، ومضت الأجيال تسعد وترضى وهى تقتطف منه ما تريد ، إلا أنه جدّت شؤون ، وتغيرت أحوال ، وتجددت أفهام ، فكان التفكير فى وضع تفسير يتناسب ونمط سرعة العصر الذى نعيش فيه ، بأن نتناول تفسير الآيات بطريقة ومنهج يعين على المعايشة والتفاعل معها ، تيسيرا على من أراد أن يأخذ نفسه وغيره بالقرآن ، بطريقة ميسرة ، محددة المعالم والأهداف ، وصولا إلى الاستفادات التربوية ، حيث يصل القارئ إلى بغيته بأقل مجهود ، ودونما عناء ، دون الدخول فى قضايا لغوية ، أو مسائل فقهية ، أو مماحكات كلامية أو غير ذلك مما يبعد

الإنسان عن روح القرآن واستنباط المعانى التربوية التى هى مقصود الوحى وإنزال القرآن .

منهجنا فى التفسير :

أما منهجنا فى التفسير فنوضحه فى النقاط التالية :

١ ـ حرصنا على أن نبقى على الشكل المصحفى للقرآن الكريم على طبعته المعروفة بمصحف المدينة المنورة ، وهو بهذا الشكل يجمع بين كونه مصحفا وكونه تفسيرا ، مما يستفاد منه فى القراءة أو الحفظ .

٢ ـ قمنا ببيان معانى المفردات أو الكلمات القرآنية التى يصعب على القارئ غير المتخصص معرفتها ، وبطريقة مختصرة وكافية .

٣ ـ ذكرنا الأهداف الإجرائية لكل مقطع، وذلك بأبعادها الثلاثة المعروفة ؛ المعرفية (١) والوجدانية (٢) والسلوكية (٣) باعتبار أن القرآن يخاطب العقل ، وينمى الوجدان ، ويهذب إلى السلوك ، فنتناول بعضها ـ أو كلها ـ فى نقاط حسب طبيعة الآيات وقبل الدخول فى بيان المحتوى التربوى . وذلك بجعلها فى نقاط حتى يسهل تحصيلها وتذكرها واستدعاؤها دونما عناء .

٤ ـ ذكرنا المحتوى التربوى للآيات ، وهو شرح يتناسب والأهداف التربوية التى نسعى إلى إبرازها وربطها بالواقع ، والتركيز على التناول التربوى دون إسهاب أو تفريط .

وقد حرصنا أن نُضَمِّن هذا التفسير خلاصة التفاسير التى هى أقرب إلى موضوعنا ، ولها اهتمام فى هذا الشأن كثر أو قل ، بحيث يُشَكِّل فى مجمله خلاصة ما حوته هذه التفاسير فى هذا الموضوع ، أمثال « فى ظلال القرآن » لشهيد الدعوة والعقيدة سيد قطب ، « والأساس فى التفسير » للداعية الربانى سعيد حوى ، « ومقاصد القرآن الكريم » للإمام الداعية المجدد حسن البنا ، « وزهرة التفاسير » للإمام محمد أبى زهرة ، وتفسير المنار للشيخ العلامة محمد رشيد رضا ، بالإضافة إلى أمهات كتب التفسير أمثال : تفسير الطبرى ، وتفسير القرطبى ، وتفسير ابن كثير وغيرها .

---

(١) الأهداف المعرفية : هى التى تبدأ بأفعال : يعرف ، يدرك ، يفهم ونحوها .

(٢) الأهداف الوجدانية : هى التى تبدأ بأفعال : يحب ، يؤمن ، يعتقد ، ونحوها .

(٣) الأهداف السلوكية : هى التى تبدأ عامة بأفعال : يعمل ، يكسب ، يسلك ، ونحوها .

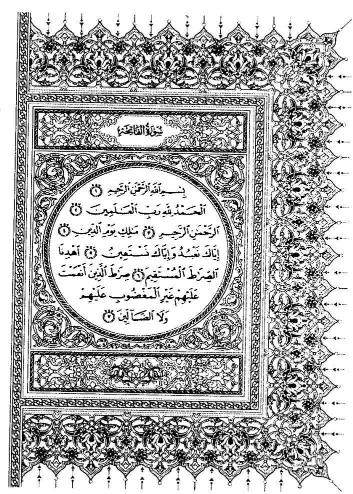
٥ ـ وأخيرا قمنا ببيان ما ترشد إليه الآيات تربويا ، وذلك فى نقاط واضحة محددة ، يستطيع القارئ أن يضعها مستهدفا له خلال فترة زمنية ليقوم بتحقيقها فى واقعه الحياتى ، وتكون مقياسا على مدى عمله بما تَعلَّمه من القرآن ، اقتداء بما كان عليه سلفنا الصالح صحابة رسول الله ﷺ الذين كانوا لا يتجاوزون العشر آيات حتى يتعلموها ويعملوا بما فيها ، فتعلموا العلم والعمل .

والله نسأل أن ينفع بهذا العمل الذى اجتهدنا أن تكون الوجهة فيه خالصة له عز وجل، وأن يعفو عن كل تقصير لا يخلو عنه بشر ، وما توفيقنا إلا بالله ، والحمد لله رب العالمين، وصلى اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين[1] .

المؤلف

---

(١) استفدنا فى هذه المقدمة من المراجع التالية :
ـ فى ظلال القرآن لسيد قطب .
ـ دراسات قرآنية لمحمد قطب .
ـ زهرة التفاسير لأبى زهرة .
ـ التربية الإسلامية فى سورة المائدة للدكتور على عبد الحليم محمود .
ـ كيف نتعامل مع القرآن لمحمد الغزالى .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة

معانى الكلمات :

معنى البسملة : أبتدئ قراءتى متبركا باسم الله الرحمن الرحيم ، مستعينا به عز وجل. **الحمد لله** : الوصف بالثناء والمدح والشكر على المحمود ذى الفضائل والمنن .

رب العالمين : مُرِبِّيهِمْ ومالكهم ومدبر أمورهم . **مالك** : صاحب الملك المتصرف كيف يشاء بلا ممانع ولا منازع .

يوم الدين : يوم الجزاء وهو يوم القيامة والحساب . **إياك نعبد** : نطيعك مع غاية الذل لك والتعظيم والحب ، وندعو الناس لعبادتك .**نستعين** : نطلب عونك لنا على طاعتك . **اهدنا الصراط المستقيم**: أرشدنا إلى الطريق الموصل لرضاك وجنتك وهو الإسلام لك. **الذين أنعمت عليهم** : النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، أنعم عليهم بالإيمان ، والتوفيق لفعل المحاب وترك المكاره . **المغضوب عليهم** : اليهود . **الضالين** : النصارى ، وأشباههم فى الضلال . و(آمين) ليست من السورة إجماعاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم كيف يكون الأدب مع الله عز وجل .

٢ ـ أن نتعرف على حقيقة العلاقة بين الله تعالى والعباد .

٣ ـ أن نعلم أن العناية الأولى للرسالة كانت موجهة إلى تحرير أمر العقيدة ، والتطبيق العملى فى التوجه إلى الله .

المحتوى التربوى :

إن هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية ، وكليات المشاعر والتوجهات ، ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار فى كل ركعة ، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها .

والبدء باسم الله هو الأدب الذى أوحى الله لنبيه ﷺ ، وهو الذى يتفق مع قاعدة التصور الكبرى من أن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، فهو سبحانه الموجود الحق الذى يستمد منه كل موجود وجوده ، ويبدأ كل مبدوء بدأه . فباسمه إذن يكون كل ابتداء . وباسمه إذن تكون كل حركة وكل اتجاه .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ هو الشعور الذى يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكر الله ، فإن وجوده ابتداء ليس إلا فيضاً من فيوضات النعمة الإلهية التى تستجيش الحمد والثناء أوفى كل لمحة ، وفى كل لحظة، وفى كل خطوة تتوالى آلاء الله ، وتتواكب وتتجمع ، وتغمر خلائقه كلها ، وبخاصة هذا الإنسان ومن ثم كان الحمد لله ابتداء .

﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ شطر الآية الأخير التى بدأت باستجاشة شعور المؤمن بالحمد لمجرد ذكر الله تعالى ، وتمثل قاعدة التصور الإسلامى ، فالرب هو المالك المتصرف ، والتصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين أى جميع الخلائق ، والله ـ سبحانه ـ لم يخلق الكون ثم يتركه هملاً . إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربِّيه .

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ : هذه الصفة تستغرق كل معانى الرحمة وحالاتها ومجالاتها ؛ لتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الرب ومربوبيه ، وبين الخالق ومخلوقاته ، إنها صلة الرحمة والرعاية التى تستجيش الحمد والثناء ، إنها الصلة التى تقوم على الطمأنينة ، وتنبض بالمودة ، فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية .

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ : تمثل كلية الاعتقاد بالآخرة ، والملك أقصى درجات الاستيلاء والسيطرة ، ويوم الدين هو يوم الجزاء فى الآخرة، وهى كلية ذات قيمة فى تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض ؛ فلا تستبد بهم ضرورات الأرض ، وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات ، ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم فى عمرهم القصير المحدود ، وعندئذ يملكون العمل لوجه الله ، وانتظار الجزاء حيث يقدره الله ، فى الأرض أو فى الدار الآخرة سواء ، فى طمأنينة بالله ، وفى ثقة بالخير ، وفى إصرار على الحق ، وفى سعة وسماحة ويقين .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ : فلا عبادة إلا لله ، ولا استعانة إلا بالله . وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشرى الكامل الشامل ، التحرر من عبودية الأوهام ، والتحرر من عبودية

النظم ، والتحرر من عبودية الأوضاع ، وإذا كان الله وحده هو الذى يُعبد ، والله وحده هو الذى يُستعان، فقد تخلص الضمير البشرى من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص ، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات .

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ : وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل ، ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته ، فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته ، والتوجه إلى الله فى هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين ، وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلبه المؤمن من ربه .

فالهداية إلى الطريق المستقيم هى ضمان السعادة فى الدنيا والآخرة عن يقين ، ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم .

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ : فهو طريق الذى قَسَم لهم نعمته ، لا طريق الذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه ، أو الذين ضلوا عن الحق، فلم يهتدوا أصلاً إليه ، إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

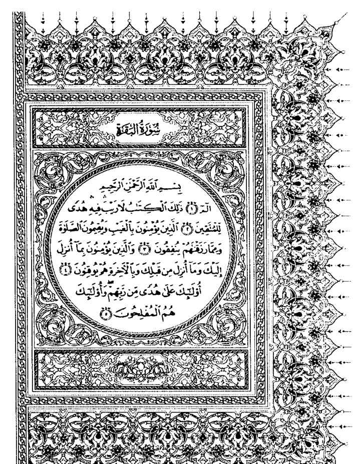
١ـ إن الله يحب الحمد ، فلذا حمد تعالى نفسه وأمر عباده به ، والحمد رأس الشكر وما شكر اللهَ عبدٌ لم يحمده .

٢ ـ إن من آداب الدعاء ؛ أن يقدم السائل بين يدى دعائه الحمد لله والثناء عليه وتمجيده وزادت السنة الصلاة على النبى ﷺ ، ثم يسأل حاجته فإنه يستجاب له .

٣ ـ ألا يعبد غير ربه ، وألا يستعين إلا به سبحانه وتعالى . يؤيده قول النبى ﷺ : « وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » .

٤ ـ إن الاعتراف بالنعمة يقتضى طلب حُسن القدوة بالصالحين والمُنعَم عليهم .

٥ ـ إن المبالغة فى طلب الهداية إلى الحق يُرغّب فى سلوك سبيل الصالحين ، ويرهّبُ من سلوك سبيل الغاوين ، والخوف من الغواية يتطلب مخالفة طريق اليهود والنصارى وغيرهم من الضالين .



سُورَةُ البَقَرَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سورة البقرة

معانى الكلمات :

ذلك الكتاب : القرآن العظيم .

لا ريب فيه : لا شك فى أنه حق من عند الله . **هُدًى :** هادٍ من الضلالة .

للمتقين : الذين تجنبوا المعاصى ، وأدّوا الفرائض فوَقَوْا أنفسهم العذاب .

على هُدًى : على رشاد ونور ويقين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مقومات الإيمان التى تمثل صفة المؤمنين إطلاقاً .

٢ ـ أن نعلم صفات المتقين كما وردت .

٣ ـ أن نعرف أن اليقين بالآخرة هو الذى يشعر الإنسان أنه لم يخلق عبثاً ، ولن يترك سدى.

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة بهذه الأحرف الثلاثة المقطعة ﴿ الٓمٓ ﴾ يليها الحديث عن كتاب الله ، ومثل هذه الأحرف تجيء فى مقدمة بعض السور القرآنية ، وقد ورد فى تفسيرها وجوه كثيرة . نختار منها وجها . إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ، وهى فى متناول المخاطبين به من العرب . ولكنهم ـ مع هذا ـ لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ :ومن أين يكون ريب أو شك، ودلالة الصدق واليقين كامنة فى هذا المطلع ، ظاهرة فى عجزهم عن صياغة مثله ، ولكن لمن يكون ذلك الكتاب هدى ونوراً ودليلاً ناصحاً مبيناً ؟ للمتقين، فالتقوى فى القلب هى التى تؤهله للانتفاع بهذا الكتاب .

لابد لمن يريد الهدى أن يجده فى القرآن .

أى يجيء إليه بقلب سليم ، يخشى ويتوقى ، ويحذر أن يكون على ضلالة ، أو أن تستهويه ضلالة وعندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره ، ويسكبها فى هذا القلب الذى جاء إليه متقياً ، خائفاً ، حساساً ، ومهيأً للتلقى .

ورد أن عمر بن الخطاب ﷺ ـ سأل أبى بن كعب عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال : بلى! قال : فما عملتَ ؟ قال : شمرتُ واجتهدتُ . قال : فذلك التقوى .

وللتقوى حساسية فى الضمير ، وشفافية فى الشعور ، وخشية مستمرة ، وحذر دائم ، وتوقى الأشواك طريق الحياة ، الذى تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات ، وأشواك المطامح ، وأشواك المخاوف والهواجس ، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء ، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً . وعشرات غيرها من الأشواك .

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ : إن السمة الأولى للمتقين هى الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة . الوحدة التى تجمع فى نفوسهم بين الإيمان بالغيب ، والقيام بالفرائض ، والإيمان بالرسل كافة ، واليقين بعد ذلك بالآخرة ، هذا التكامل الذى تمتاز به العقيدة الإسلامية ، وتمتاز به النفس المؤمنة بهذه العقيدة ، والجدير بأن تكون مكية العقيدة الأخيرة التى جاءت ؛ ليلتقى عليها الناس جميعاً ؛ ولتهيمن على البشرية جميعاً ؛ وليعيش الناس فى ظلالها بمشاعرهم وبمنهج حياتهم حياة متكاملة ، شاملة للشعور والعمل، والإيمان والنظام .

يقول صاحب الظلال : « والإيمان بالغيب هو العتبة التى يجتازها الإنسان ، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذى لا يدرك إلا ما تدركه حواسه ، إلى مرتبة الإنسان الذى يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذى تدركه الحواس -وهى نقلة بعيدة الأثر فى تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ، ولحقيقة وجوده الذاتى ، ولحقيقة القوى المنطلقة فى كيان هذا الوجود ، وفى إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير ، كما أنها بعيدة الأثر فى حياته على الأرض ، فليس من يعيش فى الحيز الصغير الذى تدركه حواسه كمن يعيش فى الكون الكبير الذى تدركه بدهيته وبصيرته ؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته فى أطوائه وأعماقه ، ويشعر أن مداه أوسع فى الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه فى عمره القصير المحدود ، وأن وراء الكون ظاهرة خافية ، حقيقة أكبر من الكون ،هى التى صدر عنها ، واستمد من وجودها وجوده ، حقيقة الذات الإلهية التى لا تدركها الأبصار ، ولا تحيط بها العقول » .

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ : فيتجهون بالعبادة لله وحده ، ويرتفع بهذا عن عبادة العباد ، وعبادة الأشياء ، والقلب الذى يسجد لله حقاً ، ويتصل به على مدار الليل والنهار ، يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود، ويجد لحياته غاية أعلى من أن يستغرق فى الأرض وحاجات الأرض ، ويحس أنه أقوى من المخاليق ؛ لأنه موصول بخالق المخاليق ، وهذا كله مصدر قوة للضمير، وعامل هام من عوامل تربية الشخصية ، وجعلها ربانية التصور والشعور والسلوك .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ : فهم يعترفون ابتداء بأن المال الذى فى أيديهم هو من رزق الله لهم ، لا من خلق أنفسهم ، ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق ، والتضامن بين عيال الخالق ، والشعور بالآصرة الإنسانية ، وبالأخوة بالبشرية .

وقيمتها أنها ترد للحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن ، وأنها تؤمن العاجز والضعيف والقاصر ، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ، ووجوه ونفوس ، لا بين أظفار مخالب ونيوب !

والإنفاق يشمل الزكاة والصدقة ، وسائر ما ينفق فى وجوه البر ، وقد شرع الإنفاق قبل أن تشرع الزكاة ؛ لأنه الأصل الشامل الذى تخصصه نصوص الزكاة ولا تستوعبه .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ : وهى الصفة اللائقة بالأمة المسلمة وارثة العقائد السماوية ، ووارثة النبوات منذ فجر التاريخ ، وحادية موكب الإيمان فى الأرض إلى آخر الزمان ، وقيمة هذه الصفة هى الشعور بوحدة البشرية ، ووحدة دينها ، ووحدة رسلها ، ووحدة معبودها ، قيمتها هى الاطمئنان إلى رعاية الله للبشرية على تطاول أجيالها وأحقابها ، هذه الرعاية البادية فى توالى الرسل والرسالات بدين واحد وهدى واحد .

﴿ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ : وهذه خاتمة السمات . التى تربط الدنيا بالآخرة ، والمبدأ بالمصير ، والعمل بالجزاء ، والتى تشعر الإنسان أنه ليس مهملاً ، وأنه لم يخلق عبثاً ، ولن يترك سدى ؛ وأن العدالة المطلقة فى انتظاره ؛ ليطمئن قلبه ، وتستقر بلابله ، ويفىء إلى العمل الصالح ، وإلى عدل الله ورحمته فى نهاية المطاف .

واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ، ومن يعيش فى الوجود المديد الرحيب ، بين من يشعر أن حياته على الأرض هى كل ما له فى هذا الوجود ، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء ، وأن الحياة الحقيقية إنما هى هنالك ، وراء هذا الحيز الصغير المحدود .

والآيات رسمت صورة الجماعة المسلمة التى قامت فى المدينة يوم ذاك ، مؤلفة من المهاجرين والأنصار وكانت هذه الجماعة بهذه الصفات شيئاً عظيماً حقاً بتمثل هذه الحقيقة الإيمانية فيها ، ومن ثم صنع الله بهذه الجماعة أشياء عظيمة فى الأرض ؛ وفى حياة البشر جميعاً ومن ثم كان هذا التقرير : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وكذلك اهتدوا ، وكذلك أفلحوا . والطريق للهدى والفلاح هو هذا الطريق المرسوم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لابد لمن يريد الهدى أن يجىء الله بقلب سليم يخشى ويتوقى ، ويحذر أن يكون على ضلالة.

٢ ـ التقوى تجعل صاحبها فى حذر دائم وتوقٍ لأشواك الحياة وملذات الدنيا .

٣ ـ الإيمان بالغيب مبعث الطمأنينة فى قلب المؤمن .

٤ ـ بإقامة الصلاة يصبح المخلوق موصول السبب بواجب الوجود وهو الله .

٥ ـ الإنفاق فى سبيل الله يطهر النفس من الشح ، ويزكيها بالبر .

الجزء الأول — سورة البقرة

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ
أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ
بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

٣

معانى الكلمات :

كفروا : الكفر لُغة : التغطية والجحود ، وشرعاً : التكذيب بالله وبما جاءت به رسلُه عنه كلا أو بعضاً .

سواء : بمعنى مُسْتَوٍ إنذارهم وعدمه إذ لا فائدة منه لحكم الله بعدم هدايتهم . **ختم الله :** طبع الله . **غشاوة :** الغطاء يغشى به ما يراد منع وصول شىء إليه . **يخادعون:** يعملون عمل المخادع بإظهارهم الإيمان وإخفائهم الكفر . **مرض :** شك ونفاق أو تكذيب وجحود . **السفهاء :** السفيه هو الجاهل ضعيف الرأى . **يمدهم :** يزيدهم أو يمهلهم . **طغيانهم :** مجاوزتهم الحد وغلوهم فى الكفر . **يعمهون :** يعمون عن الرشد والصواب أو يتحيرون . **اشتروا الضلالة بالهدى :** استبدلوا الكفر بالإيمان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على الكافرين ومقومات الكافرين فى كل أرض .

٢ ـ أن نعلم المنافقين ونطلع على صفاتهم .

٣ ـ أن نؤمن بأن الله عز وجل يتولى المعركة التى يراد بها المؤمنون .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن الصورة الثانية وهى صورة الكافرين ومقومات الكفر فى كل أرض وفى كل حين، فإذا كان الكتاب بذاته هدى للمتقين، فإن الإنذار وعدمه سواء بالقياس إلى الكافرين، فالنوافذ المفتوحة فى أرواح المتقين ، والوشائج التى تربطهم بالوجود وخالق الوجود مغلقة عند الكافرين ، ومقطوعة هناك ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ فلا نور يصل لها ولا هدى !

وطبع الله على قلوبهم وسمعهم وغشى على أبصارهم جزاء وفاقاً على استهتارهم بإنذارات الله .

وينتقل السياق ليرسم صورة واقعة فى المدينة هذه الصورة تتلوى فى الحس ، وتروغ من البصر ، وتخفى وتبين ، إنها صورة المنافقين ، وهى صورة مكررة فى أجيال البشرية جميعاً ،صورة المنافقين الذين لا يجدون فى أنفسهم الشجاعة ؛ ليواجهوا الحق بالإيمان الصريح ، ويدَّعون الإيمان ، وهم فى الحقيقة ليسوا مؤمنين ، ويظنون فى أنفسهم الذكاء والدهاء والقدرة على خداع البسطاء ، ولكن الله يخادعهم ، ويتفضل على عباده المؤمنين ويضمهم إلى صفه ، ويتولى هو خداع الكافرين ، فمعركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم وإنما هى مع الله القوى الجبار القهار ، وإنهم إنما يحاربون الله حين يحاربون أولياءه ، وإنما يتصدون لنقمة الله حين يحاولون هذه المحاولة اللئيمة .

والمرض الذى فى قلوبهم ينشئ مرضاً ، وتنفرج زاوية الانحراف فى كل خطوة وتزداد ، سنة لا تتخلف فى الأشياء والأوضاع ، فهم صائرون إذن إلى مصير معلوم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ .

وأصحاب هذه النفوس المريضة مردوا على النفاق والخداع والإفساد ، ويقولون إنهم مصلحون لأن الموازين مختلة فى أيديهم ، ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد فى النفس اختلت سائر الموازين والقيم ؛ لأنه يتأرجح فى نفوسهم مع الأهواء الذاتية ، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية ، ليس هذا فحسب ، بل يتطاولون على بسطاء الناس ؛ ليكسبوا لأنفسهم مقاماً زائفاً فى أعين الناس : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وواضح أن الدعوة التى كانت موجهة إليهم فى المدينة هى أن يؤمنوا الإيمان الخالص المستقيم المتجرد من الأهواء ، إيمان المخلصين الذين دخلوا فى السلم كافة ، وأسلموا وجوههم لله ، وفتحوا صدورهم لرسول الله ﷺ يوجههم فيستجيبون بكليتهم مخلصين متجردين ، هؤلاء هم الناس الذين كانوا المنافقون يدعون ليؤمنوا مثلهم .

والواضح أن المنافقين كانوا يأنفون من هذا الاستسلام للرسول ﷺ ويرونه خاصاً بالفقراء غير لائق بالعلية ذوى المقام ، ومن ثم قالوا قولتهم هذه : ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ ومن ثم جاءهم الرد الحاسم ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ومتى علم السفيه أنه سفيه، ومتى استشعر المنحرف أنه بعيد عن المسلك القويم .

ثم تجيء السمة الأخيرة التى تكشف مدى ارتباطهم باليهود ، ولا يقف المنافقون عند حد الكذب والخداع والسفه والادعاء ، وإنما يضيفون إليها اللؤم والتآمر فى الظلام : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، وبعض الناس يحسب اللؤم قوة ، والمكر السيئ براعة ، وهو فى حقيقته ضعف وخسة ، فالقوى ليس لئيما ولا خبيثاً، ولا خادعاً ولا متآمرا، ولا غمازا فى الخفاء . وما يكاد القرآن يحكى فعلتهم هذه وقولتهم ، حتى يصب عليهم من التهديد ما يهد الرواسى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

فيدعهم يتخبطون على غير هدى فى طريق لا يعرفون غايته ، واليد الجبارة تتلقفهم فى نهايته ، كالفئران الهزيلة تتواثب فى الفخ ، غافلة عن المقبض المكين ، وهذا هو الاستهزاء الرعيب ، لا كاستهزائهم الهزيل الصغير .

يقول صاحب الظلال : « وهنا .. تبدو تلك الحقيقة .. حقيقة تولى الله ـ سبحانه ـ للمعركة التى يراد بها المؤمنون ، وما وراء هذا التولى من طمأنينة كاملة لأولياء الله ، ومصير رعيب بشع لأعداء الله الغافلين ، المروكين فى عماهم يخبطون ، المخدوعين بمد الله لهم فى طغيانهم ، وإمهالهم بعض الوقت عدوانهم ، والمصير الرعيب ينتظرهم هنالك وهم غافلون يعمهون » .

والكلمة الأخيرة التى تصور حقيقة حالهم ومدى خسرانهم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قلب الكافر مطبوع عليه ، فلا يصل نور الحق إليه ، إلا إذا تاب ورجع إلى ربه .

٢ ـ المنافقون أشد الناس خطراً على الإسلام والمسلمين ؛ لأنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .

٣ ـ الإصلاح فى الأرض يكون بالعمل بطاعة الله ورسوله ، والإفساد فيها يكون بمعصية الله ورسوله ﷺ .

٤ ـ سلعة الله غالية ، والمتاجر بدين الله خاسر ، وباذل الهدى بالضلال تجارته فاسدة وعاقبتها الخسران المبين .

٥ ـ الذى يدير المعركة مع اليهود والمنافقين هو الله وليس المؤمنون ، والله عز وجل ناصر دينه ، ومعز أولياءه .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

معانى الكلمات :

استوقد ناراً : أوقد ناراً . **الصيب** : المطر .

الظلمات : ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر .

الرعد : الصوت القاصف يُسمع حال تراكم السحاب ونزول المطر . **البرق** : نار تنزل من السماء أثناء قصف الرعد . **الأرض فراشاً** : وطاء للجلوس عليها والنوم فوقها والاستقرار عليها . **السماء بناء** : سقفاً مرفوعة أو كالقبة المضروبة .

أنداداً : أمثالاً وشركاء من الأوثان تعبدونها . **الريب** : الشك مع اضطراب النفس وقلقها . **شهداءكم** : أنصاركم ، وآلهتكم التى تدعون أنها تشهد لكم عند الله وتشفع .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حالة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التى يعيش فيها المنافقون .

٢ ـ أن نؤمن بوحدة الخالق لكل الخلائق ، وأنه يجب إخلاص التوحيد له .

٣ ـ أن نتعرف على التحدى الإلهى للناس ، والتهديد المخيف للعاجز الذى لا يؤمن .

المحتوى التربوى :

لخطورة الدور الذى يمكن أن يقوم به المنافقون فى كل وقت داخل الصف المسلم، ومدى الحاجة للكشف عن ألاعيبهم يمضى السياق يضرب الأمثال لهذه الطائفة،ويكشف عن طبيعتها، وتقلباتها وتأرجحها ليزيد هذه الطبيعة جلاء وإيضاحاً ، فيقول : إنهم لم يعرضوا عن الهدى ابتداء ، ولم يصموا آذانهم عن السماع ، وعيونهم عن الرؤية وقلوبهم عن الإدراك ، كما صنع الذين كفروا ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعدما استوضحوا الأمر وتبينوه ، لقد استوقدوا النار وطلبوا الهداية ، فلما أضاء لهم نورها لم ينتفعوا بها وهم طالبوها عندئذ ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ الذى طلبوه ثم تركوه:﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ جزاء إعراضهم عن النور !

وصور الله حالهم المضطربة عندما يظهر لهم الحق تارة ويشكون فيه تارة أخرى ، فشبه الله دين الاسلام فى المثل بالصيب أى : بالمطر ؛لأن القلوب تحيا به ، حياة الأرض بالمطر ، والشبهات

والشكوك فى قلب هذا الضرب من المنافقين شبهها بالظلمات ، والوعيد الموجود فى دين الله سواء كان الوعيد بالفضيحة أو بالعذاب الأخروى ، أو بانتصار المؤمنين بالرعد ، وبقايا الفطرة فى قلوب هؤلاء بالبرق ، وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا بالصواعق .

ومثل المنافقين كمثل أصحاب مطر نزل من السماء فيحال ظلمات ، وهى الشكوك والشبهات، ورعد ، وهو ما يزعج القلوب من الخوف ، وبرق وهو ما يلمع فى قلوب ذلك الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان من نور الإيمان ، فهم يسدون آذانهم ، فلا يرغبون فى أن يسمعوا التهديد والوعيد وأخبار أيام الله ، ولكن ذلك لا يجديهم فإن سد الأذن لا يغنى من الصاعقة شيئاً ، ومع شدة لمعان البرق فينقدح فى قلوبهم نور إضافى ، فإنهم لا يستفيدون منه إلا قليلاً ، لما يعقبه من ظلام ، فهؤلاء إذا ظهر لهم شىء من الإيمان استأنسوا به واتبعوه ، ثم تَعْرض لهم الشكوك فتُظلم قلوبهم ، فيقفون حائرين ، وقد حذر الله المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير .

ويتحول السياق لنداء الناس كافة ، وأمر البشرية جمعاء ، أن تختار الصورة الكريمة المستقيمة. الصورة النقية الخالصة . صورة المتقين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . إنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذى خلقهم والذين من قبلهم ، ربهم الذى تفرد بالخلق ، فوجب أن يتفرد بالعبادة ، وللعبادة هدف لعلهم ينتهون إليه ويحققوه : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لعلكم تصيرون إلى تلك الصورة المختارة من صور البشرية صورة العابدين لله . المتقين لله ، الذين أدوا حق الربوبية الخالقة ، فعبدوا الخالق وحده ، رب الحاضرين والغابرين، وخالق الناس أجمعين ، ورازقهم كذلك من الأرض والسماء بلا ند ولا شريك .

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ : وهو تعبير يشى باليسر فى حياة البشر على هذه الأرض ، وفى إعدادها لهم لتكون لهم سكناً مريحاً . ولكن الناس ينسون هذا الفراش لطول ما ألفوه . ينسون هذا التوافق الذى جعله الله فى الأرض ؛ لتكون مهداً ، وما سخره من وسائل الراحة والمتعة ، ولولا هذا التوافق ما قامت حياتهم على هذا الكوكب فى مثل هذا اليسر والطمأنينة .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ : والسماء ذات علاقة وثيقة بحياة الناس فى الأرض ، وبسهولة هذه الحياة ، فلا عجب أن نذكر فى معرض تذكير الناس بقدرة الخالق وهى بتناسقها وأجرامها وشموسها تمهد الحياة على الأرض وتعين عليها . ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ : ما يفتأ يتردد هذا فى مواضع شتى من القرآن فى معرض التذكير بقدرة الله ، والتذكير بنعمته كذلك ، والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء فى الأرض جميعاً ، وهو أمر لا يقبل المماحكة ، فتحكى الإشارة إليه ، والتذكير به ، فى معرض الدعوة إلى عبادة الخالق الرازق الوهاب .﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : فالشرك به بعد العلم به تصرف لا يليق ، والأنداد المنهى عنها قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذى كان يزاوله المشركون ،

فقد تكون فى تعليق الرجاء بغير الله فى أى صورة ، أو فى الخوف من غير الله ، وفى الاعتقاد بنفع أو ضر فى غير الله .

عن ابن عباس قال : « الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صخرة سوداء فى ظلمة الليل » ، وهو أن يقول : والله ، وحياتك يا فلان ، وحياتى ، ويقول : لولا كلبة فلان لأتانا اللصوص البارحة ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ! وقول الرجل : لولا الله وفلان، هذا كله به شرك » .

وفى الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ ما شاء الله وشئت . قال : « أجعلتنى لله نداً »؟!

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ : يبدأ هذا التحدى بوصف الرسول بالعبودية كتشريف له ، وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى ، ودلالة على أن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر ، ويدعى به كذلك . أما التحدى فمنظور فيه إلى مطلع السورة بقوله : ﴿ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴾ وهذا التحدى ظل قائماً فى حياة الرسول ﷺ وبعدها ، وسيظل كذلك أبداً . لقول الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ والتحدى هنا عجيب ، والجزم بعدم إمكانه أعجب ، ولو كان فى الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة ، فالقرآن معجزة لا سبيل إلى المماراة فيها . ولقد كان المجال أمامهم مفتوحاً : فلو أنهم جاؤوا بها ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجية القرآن .

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾: ولم الجمع بين الناس والحجارة ؟ لقد أعدت هذه النار للكافرين الذين سبق فى أول السورة وصفهم بأنهم ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾ والذين يتحداهم القرآن هنا فيعجزون ، ثم لا يستجيبون ، فهم إذن حجارة من الحجارة ! وإن تبدوا فى صورة آدمية من الوجهة الشكلية ، فهذا الجمع بين الحجارة من الحجر ، والحجارة من الناس هو الأمر المنتظر !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ استحسان ضرب الأمثال لتقريب المعنى للأذهان .

٢ ـ النفوس تحيا بالقرآن كما تحيا الأرض بماء المطر .

٣ ـ وجوب عبادة الله تعالى ، إذ هى غاية الحياة كلها .

٤ ـ وجوب معرفة الله بأسمائه وصفاته .

٥ ـ الحذر من الشرك صغيره وكبيره ظاهره وخفيه .

٦ ـ النار تتقى بالإيمان والعمل الصالح ففى الحديث الصحيح : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ».

الجزء الأول — سورة البقرة

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

٥

معانى الكلمات :

بشر : التبشير : الإخبار السَّار وذلك بالمحبوب للنفس . **أتوا به متشابهاً** : أعطوا الثمار ، وقدم لهم يشبه بعضه بعضاً فى اللون ولكنه مختلف فى الطعم . **مطهرة** : من دم الحيض والنفاس وسائر المعايب والنقائص . **لا يستحيى** : لا يمنعه الحياء من ضرب الأمثال وإن صغرت كالبعوض . **الفاسقون** : الفسق : الخروج عن الطاعة ، والفاسقون : هم التاركون لأمر الله تعالى . **ينقضون** : النقض الحلّ بعد الإبرام : أى : يخالفون ما عاهدوا الله عليه . **عهد الله** : ما عهد به إلى الناس من الإيمان والطاعة له ولرسوله . **يقطعون ما أمر الله به أن يوصل** : من إدامة الإيمان والتوحيد والطاعة وصلة الأرحام .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على النعيم الذى ينتظر المؤمنين .

٢ ـ أن نعلم حكمة الله تعالى من وراء ضرب الأمثال .

٣ ـ أن نؤمن بقدرة الله تعالى القادرة .

المحتوى التربوى :

فى مقابل المشهد المفزع السابق ، يأتى مشهد النعيم الذى ينتظر المؤمنين ، وهى ألوان من النعيم تستوقف النظر ، تشابه الأكل الظاهرى ، ملمح الدعابة الحلوة ، والرضا السابغ ، والتفكر الجميل ، بتقديم المفاجأة بعد المفاجاة ، وفى كل مرة ينكشف التشابه الظاهرى عن شيء جديد ! وهذا التشابه فى الشكل ، والتنوع فى المزية ، سمة واضحة فى صنعة البارئ تعالى ، تجعل الوجود أكبر فى حقيقته من مظهره ، فمن ذا الذى لا يعبد الله وحده ، وهذه آثار صنعته ، وآيات قدرته ؟ ومن ذا الذى يجعل لله أنداداً ، ويد الإعجاز واضحة الآثار ، فيما تراه الأبصار ، وفيما لا تدركه الأبصار ؟

وهذه الآيات تشى بأن المنافقين ـ وربما كان اليهود والمشركون ـ قد وجدوا فى هذه المناسبة منفذاً للتشكيك فى صدق الوحى بهذا القرآن ؛ بحجة أن ضرب الأمثال بما فيها من تصغير لهم وسخرية منهم لا تصدر عن الله ، وأن الله لا يذكر هذه الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت فى كلامه !.وكان هذا طرفاً من حملة التشكيك والبلبلة التى يقوم بها المنافقون واليهود فى المدينة، كما كان يقوم بها المشركون فى مكة، فجاءت دفعاً لهذا الدس ، وبياناً لحكم الله فى ضرب الأمثال. فالله رب الصغير والكبير ، وخالق البعوضة والفيل ، والمعجزة فى البعوضة هى ذاتها المعجزة فى الفيل ، إنها معجزة الحياة . معجزة السر المغلق الذى لا يعلمه إلا الله ، على أن ضرب الأمثال الله ـ جلت حكمته ـ يريد بها اختبار القلوب ، وامتحان النفوس . فأما الذين آمنوا فيتلقون بإيمانهم كل ما يصدر عن الله بما يليق من جلاله ، وبما يعرفون من حكمته ، والذين كفروا يطرحون سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ لأنهم مقطعوا الصلة عن سنة الله وتدبيره وهو سؤال من لا يرجو لله وقاراً ، ولا يتأدب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرفات الرب .

ويأتى الجواب فى صورة التهديد والتحذير بما وراء هذا المثل من تقدير وتدبير : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فالله سبحانه يطلق الابتلاءات تمضى فى طريقها ، ويتلقاها عباده ، كل وفق طبيعته واستعداده ، فالابتلاء واحد ولكن آثاره فى النفوس تختلف ، فأما المؤمن الواثق بالله وحكمته ورحمته فتزيده التجاء إلى الله وتضرعاً وخشية ، وأما الفاسق أو المنافق فتزلزله وتزيده من الله بُعداً.

ويمضى السياق يفصّل صفات هؤلاء الفاسقين ، فيصفهم بأنهم يقطعون عهد الله من بعد ميثاقه ، وعهد الله المعقود مع البشر يتمثل فى عهود كثيرة ، إنه عهد الفطرة المركوز فى طبيعة كل حى،أن يعرف خالقه، وأن يتجه إليه بالعبادة ، وما تزال فى الفطرة هذه الحاجة المُلحة للاعتقاد بالله ، ولكنها تضل وتنحرف فتتخذ من دون الله أنداداً وشركاء ، وهو عهد الاستخلاف فى الأرض الذى أخذه الله على آدم ـ كما سيجىء .

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ، وهو عهوده الكثيرة فى الرسالات، لكل قوم أن يعبدوا الله وحده ، وأن يحكموا فى حياتهم منهجه وشريعته ، وهذه العهود كلها هى التى ينقضها الفاسقون . وإذا نقض عهد الله من بعد ميثاقه ، فكل عهد دون الله منقوض . فالذى يجرؤ على نقض عهد لله لا يحترم بعده عهداً من العهود .

﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ : والله أمر بصلات كثيرة كصلة الرحم والقربى ، وأمر قبل هذا كله بالعقيدة والأخوة الإيمانية ، التى لا تقوم صلة ولا وشيجة إلا معها ، وإذا قطع ما

أمر الله به أن يوصل ، فقد تفككت العرى ، وانحلت الروابط ، ووقع الفساد فى الأرض وعمت الفوضى .

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ : والفساد فى الأرض ألوان شتى ، تنبع كلها من الفسوق عن كلمة الله ، ونقض عهد الله ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، ورأس الفساد فى الأرض هو الحيدة عن منهجه الذى اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها ، هذا مفرق الطريق الذى ينتهى إلى الفساد حتما ، وإذا انقطعت العروة بين الناس وربهم على هذا النحو ، فهو الفساد الشامل للنفوس والأحوال ، والفساد حصيلة الفسوق عن طريق الله ، ومن ثم يستحق أهله أن يضلهم الله بما يهدى به عباده المؤمنين .

والكفر بالله فى مواجهة آلائه كفر قبيح بشع ، والقرآن يواجه البشر بما لابد لهم من مواجهته ، والاعتراف به ، والتسليم بمقتضياته يواجههم بموكب حياتهم وأطوار وجودهم ، لقد كانوا أمواتاً فأحياهم ، فمن الذى أنشأ لهم هذه الحياة ؟ وهكذا تتوالى الآيات بين فتح سجل الحياة وطيها ، وتعرض فى ومضة صورة البشرية فى قبضة البارئ : ينشرها من همود الموت أول مرة ، ثم يقبضها بيد الموت فى الأولى ، ثم يحييها كرة أخرى ، وإليه مرجعها فى الآخرة ، كما كانت منه نشأتها فى الأولى .

ويمتن الله عز وجل بنعمة الإنعام عليهم بما فى الأرض جميعاً ، ليس هذا فحسب ، بل وسيادتهم على ما فيها ، وأجزل العطاء ، فاستخلفهم ، فأضاف إلى الانتفاع نعمة الملك ، وبعد خلق الأرض عمد تعالى إلى خلق السموات فسواهن ، وعدل خلقهن وتقويمها ، وإخلائها من العوج والفطور أو إتمام خلقهن ، ومن فعل هذا كله كان علمه محيطاً، وهذا حافز من حوافز الإيمان به وحده ، وإفراد الرازق المنعم بالعبادة اعترافاً بالجميل . وهكذا تنتهى هذه الآيات مركزة على الإيمان ، داعية إلى اختيار موكب المؤمنين المتقين.

ما ترشد نا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الحياء لا ينبغى أن يمنع من فعل المعروف وقوله والأمر به .

٢ ـ يستحسن ضرب الأمثلة لتقريب المعانى إلى الأذهان .

٣ ـ رأس الفساد الحيدة عن منهج الله الذى اختاره ليحكم البشر .

٤ ـ الذى يجرؤ على نقض عهد الله لا يحترم بعده عهداً من العهود .

٥ ـ يقع البلاء لتحقيق الإيمان وبيان المؤمن من الفاسق .

٦ ـ إذا قطع الإنسان علاقته بربه انفصمت كل علاقاته وتفككت كل العرى وعم الفساد.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

معانى الكلمات :

الملائكة : جمع ملئك ويخفف فيقال : مَلَك، وهم خلق من عالم الغيب ، خلقهم الله من نور. **الخليفة :** من يخلف غيره ، والمراد هنا آدم عليه السلام . **يفسد فيها :** الإفساد فى الأرض يكون بالكفر وارتكاب المعاصى . **يسفك :** يسيل الدماء بالقتل والحرب .

نسبح بحمدك : نقول : سبحان الله وبحمده ، والتسبيح : التنزيه عما لا يليق بالله تعالى . **الأسماء :** أسماء الأجناس كلها كالماء والنبات والحيوان واللغات ...إلخ . **غيب السموات :** ما غاب عن الأنظار والإدراك فى السموات والأرض .

الحكيم : الذى يضع الشىء فى موضعه . **أبى :** رفض وامتنع عن السجود لآدم . **استكبر :** تعاظم فى نفسه فمنعه الاستكبار والحسد من الطاعة بالسجود لآدم . **رغداً :** العيش الهنىء الواسع . **فأزلهما :** أوقعهما فى الزلل ، وهو مخالفتهما لنهى الله تعالى لهما عن الأكل من الشجرة . **كلمات :** هى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حكمة ذكر قصص الأنبياء فى القرآن من عرض قصة الدعوة إلى الله ، وعرض طبيعة الإيمان فى نفوس الأنبياء .

٢ ـ أن نتعرف على قصة الاستخلاف لآدم عليه السلام .

٣ ـ أن نعلم قيمة الإنسان فى الأرض والمعركة القائمة بين إبليس وآدم وذريته .

المحتوى التربوى :

قصص الأنبياء فى القرآن يمثل موكب الإيمان فى طريقه الممتد الواصل الطويل . ويعرض قصة الدعوة إلى الله ، واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل ؛ كما يعرض طبيعة الإيمان فى نفوس

هذه النخبة المختارة من البشر ، وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذى خصصهم بهذا الفضل العظيم .

والآيات تحكى قصة موكب الوجود كله ، وقرار الله باستخلاف آدم فى الأرض ، وإعطائه المعرفة التى يعالج بها هذه الخلافة . ومنحه مقاليدها ، على عهد من الله وشرط، وحكمة الله ومشيئته فى خلق آدم تخفى على الملائكة ، فلا يعلمون ما الحكمة فى بناء هذه الأرض وعمارتها ، وفى تنمية الحياة وتنويعها ، وفى تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود فى تطويرها وترقيها وتعديلها على يد خليفة الله فى أرضه هذا الذى قد يفسد أحيانا ، وقد يسفك الدماء أحيانا ليتم من وراء هذا الشرط الجزئى الظاهر خير أكبر وأشمل ، خير النمو الدائم والرقى الدائم ، خير المحاولة التى لا تكلف ، والتطلع الذى لا يقف والتعبير والتطوير فى هذا الملك الكبير . عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شىء ، والخبير بمصائر الأمور : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يعرض الله للملائكة صورًا من السر الإلهى العظيم الذى أودعه هذا الكائن البشرى ، وهو يسلمه مقاليد الخلافة ، سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات. إنه التكريم فى أعلى صوره ، لهذا المخلوق الذي يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، وهى قيمة كبرى فى الحياة ، حين يحتاج كل فرد لكى يتفاهم مع الآخرين على شىء أن يستحضر هذا الشىء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه ! الشأن شأن نخلة فلا سبيل إلى التفاهم عليها إلا باستحضار جسم النخلة ! الشأن شأن الجبل فلا سبيل إلى التفاهم عليه إلا بالذهاب إليه ! إنها مشقة هائلة لا تتصور معها حياة إن الحياة ما كانت لتمضى فى طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسميات وتصورها فى الذهن وهى غائبة وحاضرة .

ثم يكرمه تكريماً فى أعلى صوره ، بوهبه الأسرار ما يرفعه على الملائكة ، لقد وهبه سر المعرفة ، كما وهبه سر الإرادة المستقلة التى تختار الطريق وأمر بعد ذلك الملائكة بالسجود ، فسجدوا امتثالاً للأمر العلوى الجليل إلا إبليس أبى استكبارا عن معرفة الفضل لأهله ، بالعزة بالإثم ، والاستغلاق عن الفهم ، وانكشف ميدان المعركة الخالدة بين خليفة الشر فى إبليس ، وخليفة الله فى الأرض ، المعركة التى ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الإنسان بإرادته وعهده مع ربه ، وينتصر فيها الشر بمقدار ما يستسلم الإنسان لشهوته ويبعد عن ربه .

وزاد العطاء وسكن آدم وزوجه الجنة ومع العطاء كان البلاء ، لتتم التجربة ويدخل آدم طور الامتحان ، فأبيحت لهما كل ثمار الجنة إلا شجرة ـ شجرة واحدة ـ ربما كانت ترمز للمحظور الذى لابد منه فى حياة الأرض ، فبغير محظور لا تنبت الإرادة ، ولا يتميز الإنسان المريد من

الحيوان المسوق ، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد والتقيد بالشرط ، فالإرادة هى مفرق الطريق ، والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة ، ولو بدوا فى شكل الآدميين !

ولكن عدوهما لم يتركهما بل أزلهما فأخرجهما مما كانا فيه ، وعندئذ تمت التجربة : نسى آدم عهده ، وضعف أمام الغواية ، وعندئذ حقت كلمة الله وصرح قضاؤه : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وكان هذا إنذاراً بانطلاق المعركة الخالدة فى مكانها المقدر لها بين الشيطان والإنسان إلى آخر الزمان .

ونهض آدم من عثرته ، بما ركب فى فطرته ، وأدركته رحمة ربه التى تدركه دائماً عندما يثوب إليها ، ويلوذ بها ، ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وتمت كلمة الله الأخيرة ، وعهده الدائم مع آدم وذريته ، عهد الاستخلاف فى هذه الأرض ، وشرط الفلاح فيها أو البوار . وانتقلت المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل ، وانطلقت من عقالها ما تهدأ لحظة وما تفتر ، وعرف الإنسان فى فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار ، وكيف ينكسر إذا اختار لنفسه الخسار .

وهكذا مرت التجربة التى كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً ، كانت إيقاظاً للقوى المذخورة فى كيانه ، فكانت تدريباً له على تلقى الغواية ، وتذوق العقبة ، وتجرع الندامة ، ومعرفة العدو والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الإنسان سيد هذه الأرض ، ومن أجله خلق كل شىء ، فلا يجوز أن يستعبد أو يستذل لشىء مادى فيها .

٢ ـ دور الإنسان فى الأرض أن يكون قائداً لا مقودًا ومتبوعاً لا تابعاً ، وعابداً لله ليس لغيره.

٣ ـ بغير المحظور لا تنبت الإرادة ، ولا يتميز الإنسان المريد من الإنسان المسوق .

٤ ـ الحسد والكبر من صفات إبليس ـ لعنه الله ـ فلا يجوز أن يتخلق بهما مؤمن بالله ورسوله .

٥ ـ التوبة طريق الخلاص من الخطيئة ، والله يقبل التوبة إذا ندم العبد وأقلع عن ذنوبه .

٦ ـ عقد الاستخلاف قائم على تلقى الهدى من الله ، والتقيد بمنهجه فى الحياة ، فإما الله أو الشيطان ، وإما الهدى أو الضلال ؛ وإما الفلاح أو الخسران .

الجزء الأول — سورة البقرة

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾
يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ
أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى
ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ
وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ
وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ
﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾
يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ
عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا
يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

نصف الحزب ١

٧

معانى الكلمات :

اتبع هداى : أخذ بشرعى فلم يخالفه ولم يحد عنه .**إسرائيل:** هو يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم وبنوه هم اليهود . **ارهبون** : اخشونى ولا تخشوا غيرى . **ثمناً قليلاً** : متاع الحياة الدنيا.**لا تلبسوا الحق بالباطل:** وذلك قولهم : محمد نبىّ ولكنه مبعوث إلى العرب لا إلى بنى إسرائيل . **البر** : لفظ جامع لكل خير والمراد هنا : الإيمان بالله ورسوله ﷺ والدخول فى الإسلام . **الصبر**: حبس النفس على ما تكره وتغليب باعث الدين على باعث الهوى . **يظنون** : يوقنون [ابن جرير فى تفسيره] . **ملاقوا ربهم** : بالموت ، راجعون إليه يوم القيامة . **لا تجزى نفس** : لا تغنى نفس عن نفس أخرى أى غنى ما دامت كافرة . **ولا يؤخذ منها عدل**: على فرض أنها تقدمت بعدل وهو الفداء، فإنه لا يؤخذ منها . **ولاهم ينصرون** : بدفع العذاب عنهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف كيف ينصر من شاء الانتصار ، وكيف ينكسر من اختار لنفسه الخسار .

٢ ـ أن نتعرف على حقيقة اليهود ودوافعهم فى الكيد للإسلام والمسلمين .

٣ ـ أن نذكر النعم بشكر الله عز وجل علينا .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيقرر القاعدة الكلية التى سيكون عليها مدار فعل الله جل جلاله بهم ، وهى : إنه فى أى وقت وزمان جاءكم منى ـ يا معشر الثقلين ـ هدى ، أى رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم منى ويدنيكم من رضائى ، فمن تبع هداى منكم ، بأن آمن برسلى وكتبى واهتدى بهم ، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب ، والامتثال للأمر ، والاجتناب للنهى ، فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ، ولاهم يحزنون على ما فاتهم من أمر الدنيا ، والذين كفروا وجحدوا الهدى ، وكذبوا أهله مع مجيئهم بالآيات ، هؤلاء أهل النار ومستحقوها وهم مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص ، وإن المستعرض لتاريخ بنى إسرائيل ليأخذه العجب من فيض

الآلاء التى أفاضها الله عليهم ، ومن الجحود المنكر المتكرر الذى قابلوا به هذا الفيض المدرار ، وهنا يذكرهم بنعمته التى أنعمها عليهم إجمالاً، ليدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ـ سبحانه ـ كى يُتم عليهم النعمة ويمد لهم فى الآلاء ، والعهد المشار إليه هو العهد الكونى السابق المعقود بين فطرة الإنسان وبارئه : أن يعرفه ويعبده وحده لا شريك له ، وكذلك العهد الذى قطعه الله لإبراهيم جد إسرائيل فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهو العهد الخاص الذى قطعه الله عليهم وقد رفع فوقهم الطور وأمرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة ، وهذه العهود جميعاً إن هى إلا عهد واحد فى صميمها . إنه العهد بين البارئ وعباده أن يضعوا قلوبهم إليه ، وأن يسلموا أنفسهم كلها له ، وهذا هو الدين الواحد ، وهذا هو الإسلام الذى جاء به الرسل جميعاً ، وسار موكب الإيمان يحمله شعاراً له على مدار القرون .

ووفاء بهذا العهد كذلك يدعو بنى إسرائيل أن يخافوه وأن يفردوه بالخشية، ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾

وكذلك يدعو بنى إسرائيل أن يؤمنوا بما أنزله على رسوله ، مصدقاً لما معهم فما الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ إلا الدين الواحد الخالد ، جاء به فى صورته الأخيرة ، وهو امتداد لرسالة الله ، ولعهد الله منذ البشرية الأولى ، يضم جناحيه على ما مضى ، ويأخذ بيد البشرية فيما سيأتى ، وينهى بنى إسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله مصدقاً لما معهم ، شراء للدنيا بالآخرة .

ويمضى السياق ويحذرهم الله ما كانوا يزاولونه من تلبيس الحق بالباطل ، وكتمان الحق وهم يعلمون ، بقصد بلبلة الأفكار فى المجتمع المسلم ، ثم يدعوهم إلى الاندماج فى موكب الإيمان ، والدخول فى الصف ، وأداء عباداته المفروضة ، وترك هذه العزلة والتعصب الذميم ، وهو ما عرفت به يهود من قديم : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ .

وهنا ينكر الله عليهم ـ وبخاصة أحبارهم ـ أن يكونوا من الدعاة إلى الإيمان بحكم أنهم أهل كتاب بين مشركين وهم فى الوقت ذاته يصدون قومهم عن الإيمان بدين الله ، وهنا تظهر آفة رجال الدين ، حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة ، إنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، ويدعون إلى البر ويهملونه ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، والدعوة إلى البر والمخالفة عنه فى سلوك الداعين إليه ، هى الآفة التى تصيب النفوس بلا شك لا فى الدعاة وحدهم ، ولكن فى الدعوات ذاتها . لذا فإن المطابقة بين القول والفعل ، وبين العقيدة والسلوك ، ليست أمراً هيناً ولا طريقاً مُعبداً . إنها بحاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة ، وإلى صلة بالله ، واستمداد منه ، واستعانة بهديه .

ومن ثم يوجه القرآن اليهود الذين كان يواجههم أولاً ، ويوجه الناس كلهم إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، فهما الزاد الذى لابد منه لمواجهة كل مشقة والنزول عن القيادة والرياسة والنفع والكسب ، احتراماً للحق وإيثاراً له ، واعترافاً بالحقيقة وخضوعاً لها . فالصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب ، صلة يستمد منها القلب قوة ، وتحس فيها الروح صلة وتجد فيها النفس زاداً أنفس من أعراض الحياة الدنيا ، ولقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى

الصلاة ، وهو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح بالوحى والإلهام وما يزال هذا الينبوع الدافق فى متناول كل مؤمن يريد زاداً للطريق ، ورياً فى الهجير . ومددًا حين ينقطع المدد .

وهنا يوضح الله عز وجل لهم مناط الصبر والاحتمال ، وهو اليقين بالرجعة إليه وحده فى كل الأمور ، فهو مناط التقوى والحساسية ، والوزن الصحيح لقيم الدنيا والآخرة ، فتبدو الدنيا كلها عرضاً زائلاً هزيلاً فى مقابل الآخرة التى هى سلعة الله الغالية والتى لا يتردد عاقل فى اختيارها وإيثارها. ومن ثم عودة إلى نداء بنى إسرائيل ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ، وتخويفهم ذلك اليوم المخيف ،ويذكرهم بتفضيلهم على العالمين ،وهو تفضيل موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعدما عتوا عن أمر ربهم ، وعصوا أنبياءهم ، وجحدوا نعمة الله عليهم ، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم ، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة وقضى عليهم بالتشديد ، وحق عليهم الوعيد .

وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين ، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده ، وإطماع لهم ؛ لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدى الدعوة الإسلامية ، فيعودوا إلى موكب الإيمان . وإلى عهد الله ، شكراً على تفضيله لآبائهم ، ورغبة فى العودة إلى مقام التكريم الذى يناله المؤمنون ويحذرهم من ذلك اليوم الذى تكون كل نفس مسؤولة عن نفسها ، ولا تغنى نفس عن نفس شيئاً ، وهذا هو المبدأ الإسلامى العظيم ، مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان ، وعلى العدل المطلق من الله ، وهو أقوم المبادئ التى تشعر الإنسان بكرامته ، والتى تستجيش اليقظة الدائمة فى ضميره ، وكلاهما عامل من عوامل التربية ، فى هذا اليوم لا تنفع شفاعة من لم يُقدم إيماناً وعملاً صالحاً ؛ ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته ، ولا ناصر يعصُمهم من الله ، وينجيهم من عذابه .. وقد عبر بالجمع باعتبار مجموع النفوس التى لا تجزى نفس منها عن نفس ، ولا يصل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولأن هذا مبدأ كلى ينال المخاطبين وغير المخاطبين من الناس

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التأكيد على أهمية الصلاة ، وفضلها على سائر العبادات .

٢ ـ على الدعاة إلى الله أن يعملوا بما يقولون ؛ ليكونوا قدوة بالعمل والسلوك .

٣ ـ ليس لليهود عهد ولا ميثاق ، وعداؤهم للمسلمين أبدىٌّ لا يزول .

٤ ـ وجوب اتقاء عذاب يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح بعد ترك الشرك والمعاصى .

٥ ـ تقرير أن الشفاعة لا تكون لنفس كافرة . وأن الفداء يوم القيامة لا يقبل أبداً .

٦ ـ التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله ، وأن تترك معصية الله خوفا من عقابه .

الجزء الأول — سورة البقرة

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ
وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ
(٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)
وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
(٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

٨

معانى الكلمات :

يسومونكم سوء العذاب : يبغونكم سوء العذاب وهو أشده وأفظعه.

يستحيون نساءكم : يتركون ذبح البنات ليكبرن للخدمة ، ويذبحون الأولاد خوفاً منهم إذا كبروا . **فرقنا بكم البحر** : صيرناه فرقتين.**اتخذتم العجل**:هو عجل من ذهب صاغه لهم السامرى ، ودعاهم لعبادته فعبده أكثرهم.**فاقتلوا أنفسكم**:أمرهم أن يقتل من لم يعبد العجل من عبده منهم وجعل ذلك توبتهم .

الصاعقة : نار محرقة كالتى تكون مع السحب والأمطار والرعود . **الغمام** : سحاب رقيق أبيض . **المن والسلوى**:المنّ : مادة لزجة حلوة كالعسل ، والسلوى : طائر يقال له : السُّمانى .**الطيبات** : الحلال .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم نعم الله على بنى إسرائيل ، وكفرهم بهذه النعم .

٢ ـ أن نؤمن بأن الابتلاء سنة من سنن الله الكونية .

٣ ـ أن نعرف أن الله تعالى ـ عظيم المغفرة واسع التوبة ، يقبل من أناب إليه .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يعيد الله عز وجل على خيالهم ، ويستحيى فى مشاعرهم صورة الكرب الذى كانوا فيه ، ويرسم أمامهم مشهد النجاة كما رسم أمامهم مشاهد العذاب ، ويذكرهم بعد ذكر النجاة أن التعذيب كان فيه بلاء من ربهم عظيم ، ليُلقى فى حسهم ـ وحس كل من يصادف شدة ـ يفيد من الشدة ، ويعتبر من البلاء ، ويكسب من ورائها حين ينتبه ، والألم لا يذهب ضياعاً إذا عاش صاحبه بهذا التصور والألم يهون حين يلمح فجر الأجر باحتسابها عند الله ،

وبالتضرع لله وبانتظار الفرج من عنده وعدم اليأس من رحمته،ويذكرهم بمشهد النجاة؛ ليتأثروا بهذا التصور ، فتذكروا نعمة الله عليكم حين نصركم على عدوكم مناً وفضلاً .

يقول صاحب زهرة التفاسير : « نجا بنو إسرائيل ، وظهرت آيتان :

إحداهما : أن موسى عليه السلام ضرب البحر بعصاه ، فانشق وانفلق ، وكان كل فرق من أقسامه ، كأنه الجبل العظيم من الماء .

والثانية : أن هذا كان على قدر مسير بنى إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام ، وظن فرعون وآله أن الطريق مفتوح لهم ، كما فتحى لبنى إسرائيل ، فساروا وراءهم فانطبق البحر عليهم ، وكانوا مغرقين .

كانت هذه النجاة بمعجزة من الله تعالى كافية لإيمان الكافر حتى إن فرعون قال : آمنت بالذى آمن به بنو إسرائيل ، وإن كان لم ينفعه إيمانه » .

وفى هذه الآيات يمضى السياق قدماً مع رحلة بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر ناجين ، وقصة اتخاذ بنى إسرائيل للعجل ، وعبادته فى غيبة موسى عليه السلام عندما ذهب إلى ميقات ربه عند الجبل ، فصَّل هذه القصة فى سورة طه وهنا فقط يذكرهم بها ، يذكرهم بانحدارهم إلى عبادة العجل بمجرد غيبة نبيهم ، الذى أنقذهم منذ قليل باسم الله ، من آل فرعون الذين يسومونهم سوء العذاب .

ويصف حقيقة موقفهم الظالم حيث تركوا عبادة الله ووصية نبيهم، ليعبدوا عجلاً جسداً ، وقد أنقذهم ممن كانوا يقدسون العجل ! ورغم هذا العصيان المقيت والانحدار النكد فقد عفا عنهم ، وآتى نبيهم الكتاب ـ التوراة ـ فيه فرقان الحق والباطل عسى أن يهتدوا إلى الحق المبين بعد الضلال .

ويقول صاحب الظلال : « وتأتى التربية الإيمانية ، لتجتث المعصية من جذورها فلابد من التطهير القاسى ، فهذه الطبيعة المنهارة الخاوية لا تقّومها إلا كفارة صارمة ، وتربية عنيفة ، وتأديب حازم ، فليقتل الطائع منكم العاصى ؛ ليطهره ويطهر نفسه ، وإنه لتكليف مرهق شاق ، أن يقتل الأخ أخاه ، فكأنما يقتل نفسه برضاه ، وذلك تربية للنفوس الشاردة التى لا تتماسك عن شر ، ولا تتناهى عن منكر . ولو تناهوا عن المنكر فى غيبة نبيهم ، ما عبدوا العجل ، وإذا لم يتناهوا بالكلام فليتناهوا بالحسام ، ولتكون ضريبة فادحة تطهر النفوس ، وترضى البارئ ،

ليتوب عليهم بعد هذا العصيان المقيت ، وهنا تدركهم رحمة الله ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

تصور هذه الآيات طبيعة أخرى لهذه النفوس التى تعلوها كثافة الحس ، ومادية الفكر ، والاحتجاب عن مسارب الغيب ،فإسرائيل هى إسرائيل تظل تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، مما يوحى أن فترة الإذلال التى قضوها تحت حكم فرعون الطاغية، قد أفسدت فطرتهم إفساداً عميقاً ، وليس أشد فساداً ممن تردى عن الفطرة وتنشأ على الإذلال الذى ينشئه الطغيان الطويل ، فالذل يحطم فضائل النفس البشرية ، ويحلل مقوماتها ، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد : استخذاء تحت سوط الجلاد ، وتمرداً حين يُرفع عنها السوط ، وتبطرًا حين يُتاح لها شيء من النعمة والقوة . وهذه هى طبيعة بنى إسرائيل دائماً وأبداً .

يطلبون أن يروا الله جهرة فتأخذهم الصاعقة جزاء هذا التجديف ، ومرة أخرى تدركهم رحمة الله ، وتوهب لهم فرصة الحياة عسى أن يذكروا الله ويشكروه وتكلؤهم رعاية الله فى الصحراء الجرداء ، وييسر لهم طعاماً شهياً لا يجهدون فيه ولا يكدون ، ويقيهم هجير الصحراء ، وحر الشمس المحرق بتدبيره اللطيف ، فسخر لهم المن والسلوى وأحل لها الطيبات ، ولكن أتراهم شكروا واهتدوا ، إن التعقيب الأخير فى الآية يوحى بأنهم ظلموا وجحدوا ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ذكر النعم يحمل على شكرها ، والشكر هو الغاية من ذكر النعمة .

٢ ـ إن الله يبتلى عباده ، ليمحصهم فلا يجوز التبرم بالبلاء لأنه خط أصيل فى الدعوات ، وسنة من سنن الله .

٣ ـ الشرك ظلم عظيم ؛ لأنه وضع العبادة فى غير موضعها فلا معبود بحق يستحق العبادة إلا الله وحده ، لا شريك له .

٤ ـ إرسال الرسل ، وإنزال الكتب إنما يكون لهداية البشر لمعرفة ربهم ، وطريقه التقرب إليه: ليسعدوا فى الدنيا والآخرة .

٥ ـ مشروعية قتال المرتدين ، ففى الحديث : « من بدّل دينه فاقتلوه » ، ولكن بعد استتابته .

٦ ـ الغاية من الحياة كلها شكر المنعم عز وجل بعبادته وحده .

٧ ـ طبيعة اليهود الجحود ، والتمرد ، والعصيان ، وعلى هذا نشأت فطرتهم الخبيثة .

الجزء الأول سورة البقرة

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

٩

معانى الكلمات :

القرية : مدينة القدس . **رغداً** : عيشاً واسعاً هنيئاً . **سجداً** : ساجدين لله شكراً على خلاصكم من التيه .**قولوا حطة** : قولوا:مسألتنا ياربنا أن تحط عنا خطايانا.

فبدل: غيروا القول الذى قيل لهم ، فقالوا: حنطة وهو الشعير . **رجزاً** : عذاباً وبلاءً وقيل : هو (الطاعون) . **استسقى** : طلب لهم من الله تعالى السقيا أى : الماء للشرب وغيره .**فانفجرت**:انشقت وسالت بكثرة. **مشربهم** : موضع شربهم . **ولا تعثوا** : ولا تفسدوا ، والعَثَىّ والعِثِىّ : أكبر الفساد . **البقل** : وجمعه البقول سائر أنواع الخضر كالجزر والبطاطس ونحوها . **القثاء** : الخيار ونحوه . **الفوم** : الحنطة ، وقيل : الثوم لذكر البصل بعده . **أدنى** : أقل صلاحاً ومنافع كاستبدال المن والسلوى بالفوم والبقل . **مصراً** : بلداً من البلاد وهم فى التيه ، وهى من البيت المقدس إلى قنسرين ، أو مصر فرعون . **ضربت عليهم الذلة** : أحاطت بهم ولازمتهم الذلة، وهى الصغار . **المسكنة** : فقر النفس وشحها .**باؤوا بغضب**: رجعوا بغضب الله وسخطه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن صحائف التاريخ درس الحياة الكبير فى العظة والاعتبار .

٢ ـ أن نؤمن بأن الظلم سبب هلاك الأمم ودمارها .

٣ ـ أن نعلم كذب اليهود فى دعواهم بأنهم شعب الله المختار .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يواجه القرآن بنى إسرائيل بما كان منهم من انحراف ومعصية وجحود فالله سبحانه وتعالى أمرهم أن يدخلوا بيت المقدس ، ويخرجوا منه العمالقة الذين كانوا يسكنونها ،

والتى نكس بنو إسرائيل عنها ، وقالوا : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ ، ومردوا على العصيان وأبوا الدخول ، ومن ثم كتب الله عليهم التيه أربعين سنة ، حتى نشأ جيل جديد بقيادة يوشع بن نون، فتح المدينة ودخلها .

وفى هذه الآيات يذكرهم الله عز وجل بنعمه الوفيرة التى اختصهم بها ، ولم يؤت مثلها أحداً من العالمين ! الأمر الذى كان ـ بطبيعة الحال ـ يقتضى ؛ لأن يكونوا شاكرين لنعم الله عز وجل ، ولكنهم أتوا بما هو نقيض ذلك تماماً .

فمن جليل نعمه عليهم أن سخر لهم بلدة بيت المقدس تحت سيطرتهم ، وأمرهم أن يدخلوها خاضعين متواضعين لجنابه عز وجل ، ومستغفرين لذنوبهم ، فدخلوها ساخرين ، فجاءهم رجز من السماء بما كانوا يفسقون ، والرجز : العذاب جزاء خروجهم على أمر الله ، ومخالفتهم توجيه خالقهم عز وجل ، وكانت هذه واحدة من أفاعيل بنى إسرائيل !

يقول صاحب الأساس : « فى الآيتين إشعار بأن النعمة ينبغى أن يقابلها شكر ، والشكر قول وعمل ، وفيهما إشعار أن الأمر بالقول والفعل ينبغى أن يكون تنفيذه حرفيا لا تبديل ولا تتغير ، وأن المعصية لا تمر بلا عقوبة ، والملاحظ أن السياق كلما تقدم يوضح لنا طبيعة جديدة من طبائع يهود ، ليكون ذلك تأسيسا لفهم مواقفهم من الدعوة الجديدة ، ولتعتبر هذه الأمة فلا تقع فيما وقع به غيرها » .

تتحدث هذه الآيات عن نعم الله عز وجل أن تتنزل على بنى إسرائيل تترى وتقدير الله لبنى إسرائيل الطعام فى الصحراء ، والظل فى الهاجرة ، وأفاض عليهم الماء والرى بخارقة من الخوارق العديدة التى أجراها الله على يدى نبيه موسى عليه السلام .

والقرآن يذكرهم بنعمة الله عليهم فى هذا المقام، وكيف كان مسلكهم بعد الإفضال والإنعام .

فالله أنعم عليهم من الحجر باثنتى عشرة عينا تنبع ماء ، حجرٌ ينبع ماءً ، وسماء تنزل المنَّ والسلوى : عسلاً وطيرا ، ولكن البنية النفسية المنحرفة ، والجبلة المرتكسة فى حمئة الضلال والمتداعية نحو الكفر بالنعم وجحودها أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التى من أجلها أخرجوا من مصر ، ومن أجلها ضربوا فى الصحراء .

قال صاحب الأساس : « قال تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ثم علل جل جلاله هذه العقوبة : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ فالكفر بالآيات وقتل الأنبياء والعصيان

والاعتداء ، هى سبب استحقاقهم للذلة والمسكنة والغضب من الله بعد سير تاريخى طويل ، وبعد إنعام كثير ، وبعد تفضيل الله إياهم على عالم زمانهم .

لقد قص الله أنباءهم ليهيئ أذهاننا لنصل إلى نتيجة ما استحقوه من عقاب مثل التيه والأسر البابلى وغير ذلك من العقوبات .

إن بذور الأخلاق الفاسدة الكبرى التى أدت إلى عقوبتهم كانت موجودة حتى فى العصر الأول عصر موسى ويوشع عليهما السلام .

لقد أخرجهم الله ـ على يدى نبيهم موسى ﷺ من الذل والهوان ؛ ليورثهم الأرض المقدسة ، ويرفعهم من الذلة والمهانة ، وللحرية ثمن ، وللعزة تكاليف ، وللأمانة الكبرى التى ناطهم الله بها فدية ، ولكنهم ضنوا فلا أدَّوا الثمن ، ولا نهضوا بالتكاليف ولا بذلوا الفدية ، حتى هذه الحياة الهنية التى يسرها الله لهم تركوها كبراً وبطراً وعناداً، فأرادوا الأدنى واستبدلوا به الأفضل، بدعوى عدم الصبر على طعام واحد فردهم إلى حياتهم الدارجة المألوفة ، الخانعة الذليلة حيث يجدون العدس والبصل والثوم والقثاء ! آمراً إياهم بالهبوط الشامل من الأفضل إلى الأدنى من طريق الحرية والعزة ، والاستعلاء إلى المسكنة ، والذلة والغضب ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وذلك نتيجة قسوتهم وجحودهم ، واعتدائهم على أنبياء الله ، وتنكرهم للهداة فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم ـ وهى أشنع فعلة تصدر من أمة تجاه دعاة الحق المخلصين ، وهكذا كان دائماً بنو إسرائيل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ممارسة الحياة على أساس من الشكر والصبر والتواضع والقناعة ، معناه إصلاح الأرض وتعميرها .

٢ ـ على الدعاة إنكار المنكر دائماً ، وتذكير المجتمع بعاقبة الأخلاق السيئة من قصص السابقين للعظة والاعتبار .

٣ ـ ترك الجهاد سبب ذل الأمة ، وهوانها على الله .

٤ ـ حرمة تأويل النصوص الشرعية ؛ للخروج بها عن مراد الشارع منها .

٥ ـ الإحسان فى القول والعمل سبب المزيد فى النعم .

٦ ـ الطاعة سبب المغفرة ، والتواضع والسجود لله قمة الإحسان .

الجزء الأول — سورة البقرة

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

١٠

معانى الكلمات :

الذين هادوا : هم اليهود سُموا يهوداً لقولهم : إنا هدنا إليك أى تبنا ورجعنا . **النصارى** : سُموا نصارى ؛ إما لأنهم يناصرون ، أو لنزول مريم بولدها عيسى قرية الناصرة . **الصابئون** : عبدة الكواكب أو الملائكة . **الميثاق** : العهد المؤكد باليمين .

الطور : الجبل الذى ناجى الله تعالى عليه موسى عليه السلام . **اعتدوا فى السبت** : تجاوزا الحدَّ فيه حيث حرمَّ عليهم الصيد فيه فصادوا . **نكالاً**: عقوبة شديدة تمنع من رآها أو علمها من فعل ما كانت سبباً فيه .

الذبح : قطع الودجين والمارن . **الهزؤ** : السخرية واللعب . **الفارض** : المسنة . **البكر** : الصغيرة التى لم تلد بعد. **العوان** : النَّصَفُ وسط بين المسنةوالصغيرة . **فاقع** : يقال : أصفر فاقع شديدة الصفرة كأحمر قانٍ وأبيض ناصع .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نؤمن أن العبرة بحقيقة العقيدة لا بعصبية جنس أو قوم .

٢ ـ أن نتعرف على موقف بنى إسرائيل ، وما أمروا به من أخذ ما فى الميثاق بقوة .

٣ ـ أن نتعرف على بنى إسرائيل ، ومظهر من مظاهر النكث والنكسة عندهم .

المحتوى التربوى :

تقرر هذه الآيات أن من آمن بالله واليوم الآخر من الذين آمنوا ومن اليهود والنصارى والصابئين وعمل صالحاً ، فإن لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، فالعبرة بحقيقة الإيمان ، والعقيدة ، لا بعصبية جنس أو قوم ، وذلك طبعاً قبل البعثة المحمدية ، أما بعدها فقد تتحدد شكل الإيمان .

وتتحدث عن مشهد استحضار قوة دفع الصخرة فوق رؤوسهم وقوة أخذ العهد، وأمر الله لهم أن يأخذوا ما فيه بقوة، وأن يعزموا فيه عزيمة، فأمر التربية فى مجال العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميع، ولا يقبل أنصاف الحلول؛ إنه عهد الله مع المؤمنين، وهو جد وحق وله تكاليف شاقة وهذه طبيعته، وليعلم صاحب هذا الأمر أنه إنما يودع حياة الدعة والرخاء والرفاهية، كما قال رسول الله ﷺ وقد نودى للتكليف: « مضى عهد النوم يا خديجة » وكما قال له ربه: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل: ٥) كما قال لبنى إسرائيل: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

إن الإيمان بالله يعنى أن المرء قد أخذ على نفسه عهداً بأن حياته ومماته ستمضى وفق منهاج الله عز وجل، إن هذا العهد خطير للغاية؛ حيث إنه يتم التعاقد فيه بين طرفين أحدهما العبد الذى هو فى منتهى الضعف والقصور والعجز، وأما الطرف الآخر فهو الله العزيز الذى يملك كل طاقات السماء والأرض.

وإن العبد إذا التزم فعلاً بكل مقتضيات هذا العهد وأحسن الوفاء به، فقد استحق عند الله نعيمًا خالدًا لا يزول، ولا يفنى أبدًا، وأما إذا أخلف عهده ذاك، ورفض الالتزام الفعلى بمقتضياته فقد عرض نفسه لمصير غاية فى الخطورة؛ وذلك أن يقذف به الله فى نار جهنم، ولا يجد إلى الخروج منها من سبيل.

إن المشاعر والكيفيات التى طرأت على قوم موسى عليه السلام، فى أثناء أخذهم الميثاق الإيمانى هى نفسها مطلوبة من كل عبد مؤمن، فينبغى لكل من يربط نفسه بالله برباط الإيمان أن يهتز كيانه وترتعد فرائصه، استشعاراً لمدى خطورة الأمر، وكأنه لئن همّ بنقض هذا العهد، فإن الأرض تنشق من تحته، والسموات يتفطرن من فوقه !!

وفى الآيات يواجههم الله مرة أخرى بمظاهر نكثهم بالعهد، وتحللهم منه، والعجز عن الاستمساك به، والضعف عن احتمال تكاليفه، فلقد أُمِرَ اليهود بأن يُخِصّوا يوم السبت بالذكر والعبادة والصيام دون الصيد والعمل، ولكنهم لم يراعوا هذه الحرمة الإلهية حق رعايتها، حيث أخذوا يتشاغلون بأمورهم الدنيوية فى يوم السبت، ودَأَبُوا على اختلاق أنواع من التبريرات والتأويلات اللفظية لكى يخدعوا الناس بأن الذى يفعلونه ليس خلافاً للشريعة، بل هو عين ما أمر الله به إيّاهم .. فغضب الله عليهم لدرجة أنهم مُسخوا قردة خاسئين.

فليحذر الذين ينحرفون عن الشريعة الانحطاط إلى مستوى البهائم؛ لأنه فعلها فهى غير ملزمة بأى ضابط أو قانون أخلاقى: فليحذروا أن يأخذهم القانون الإلهى؛ فينزل بهم ذلك إلى

الدرك من الذل الحيوانى المهين الذى وقع فيه اليهود من قبل ؛ لما رواه أحمد بإسناد جيد عن رسول الله ﷺ مخاطباً أمتنا : « لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » .

وقد بيَّن لنا ما مَّر من هذه الآيات خلقين جديدين من أخلاق اليهود وطبائعهم :

ـ إعراضهم عن الوحى المنزل إليهم مع كثرة المؤكدات ، وقوة الدواعى للإقبال .

ـ تحُيلهم على التخلص من الأوامر والنواهى بمراعاتها ظاهراً ومخالفتها باطناً ، والواجب المراعاة الظاهرة والباطنة .

ويقول صاحب الظلال : لقد حق عليهم جزاء النكول عن عهدهم مع الله ، والنكوص عن مقام الإنسان ذى الإرادة ، فانتكسوا بهذا إلى عالم الحيوان والبهيمة .. وليس من الضرورى أن يستحيلوا قردة بأجسامهم ، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم ، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات تؤثر فى السحنة وتلقى ظلها العميق .

وهذه الآيات تختم الدرس بقصة البقرة ، تجيء مفصلة ، وفى صورة حكاية لترسم صورة اللجاجة والتعنت والتلكؤ فى الاستجابة لأوامر الله ، وتمحل المعاذير التى يقسم بها بنو إسرائيل ، وسماتهم تبدو واضحة فى قصة البقرة هذه : انقطاع الصلة بين قلوبهم وذلك النبع الشفيف الرقراق : نبع الإيمان بالغيب والثقة بالله ، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل ، ثم التلكؤ فى الاستجابة للتكاليف والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان ! ليس هذا فحسب، بل ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار .

وكانوا من الأمر فى سعة ـ فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن مجرد بقرة » بل عن بقرة متوسطة السن ، لا عجوز ولا صغيرة ، وهى بعد صفراء فاقع لونها ؛ وهى بعد هذا وذلك ليست هزيلة ولا شوهاء : ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ حرمة الاعتراض على الشارع ووجوب التسليم لأمره ونهيه ، ولو لم تعرف حكمة الأمر والنهى وعلتها .

٢ ـ الندب إلى الأخذ بالمتيسر وكراهة التشدد فى الأمور .

٣ ـ إن أهل الإيمان والعمل الصالح لهم السعادة الأبدية ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلون، ولاهم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه .

الجزء الأول — سورة البقرة

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا
الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ
قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا
وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ
اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

الحزب ٢

١١

معانى الكلمات :

الذلول : الرّيضّة التى زالت صعوبتها فأصبحت سهلة منقادة . **تثير الأرض** : تقلبها بالمحراث فيثور غبارها بمعنى أنها لم تستعمل فى الحرث ، ولا فى سقاية الزرع أى : لم يُسن عليها ، وذلك لصغرها .

الحرث : الزرع أو الأرض المُهيَّأة له . **مسلّمة** : أى سليمة من العيوب كالعور والعرج . **لا شية فيها** : الشية العلامة ، أى لايوجد فيها لون غير لونها من سوادٍ أو بياض . **ادارأتم** : تدافعتم أمر قتلها كل قبيل يتهم القبيل الآخر بقتلها .

يحرفونه : التحريف الميل بالكلام على وجه لا يدل على معناه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على طبيعة بنى إسرائيل وجبلتهم الموروثة .

٢ ـ أن نعلم حقيقة البعث ، وأن الله ـ تعالى ـ قادر على إحياء الموتى .

٣ ـ أن نؤمن أن الدين يسر ، ومن شدد شدد الله عليه .

المحتوى التربوى :

يسرد القرآن فى هذه الآيات مضاء بنى إسرائيل فى اللجاجة ، وتعقيد الأمور ، والتشديد على أنفسهم ، فشدد الله عليهم ، فزاد الأمر مشقة وعناءً ، وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر ، صفراء فاقعاً لونها فارهة فحسب ، بل لم يعد بد من أن تكون ـ مع هذا ـ بقرة غير مذللة ، ولا مدربة على حرث الأرض أو سقى الزرع ! وأنها خالصة لا تشوبها علامة .

وبعد كل هذا التضاعف فى الشروط ، وضيق مجال الاختيار ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾

الآن ! كأنما كان كل ما مضى ليس حقا ، أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة ! ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ !!

وهنا فى هذه الآيات ـ وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف ـ كشف الله لهم الغاية منه : فلقد كشف الله لبنى إسرائيل عن الحكمة من ذبح البقرة ، فلقد كانوا قد قتلوا نفساً منهم ؛ ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه ، ولم يكن ثمة شاهد ؛ فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته ، وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه وبهذا الحادث أراد الله أن يكون وسيلة لتحطيم ذلك الاعتقاد المستقر فى أذهانهم عن قداسة البقرة ، ومن هنا فقد اتخذ من ذبح البقرة وسيلة لاطلاعهم على شخصية القاتل المتنازع فيها ، وكذلك إشعارهم بأن الحياة الثانية هى حياة ممكنة ؛ شأنها شأن الحياة الأولى ، وأن الله سيحيى كل إنسان بعد موته ، وسيبعثه ثانياً فى عالم جديد .

ويقول صاحب الظلال : إن المسافة بين طبيعة الموت وطبيعة الحياة مسافة هائلة تدير الرؤوس ، ولكنها فى حساب القدرة الإلهية أمر يسير ، كيف ؟ هذا ما لا أحد يدريه ، وما لا يمكن لأحد إدراكه ، إن إدراك الماهية والكيفية هنا سرمن أسرار الألوهية ، ولا سبيل إليه فى عالم الفانين ! وإن يكن فى طوق العقل البشرى إدراك دلالته والاتعاظ بها .

والمشهد الأخير من القصة كان من شأنه أن يستجيش فى قلوب بنى إسرائيل الحساسية والخشية والتقوى ، ولكن قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وذلك لإثارتهم المناقشات اللفظية حول الحكم الإلهى ، واللجاجة فى الحق ، فأصيبوا بمرض الجمود وبلادة الإحساس ، فقست قلوبهم وتحجرت شيئاً فشيئا .

إن اسم الله هو اسم لذات أعظم وأسمى فى الوجود ، .. وإن المرء إذا كان فى داخله معمورًا بالإيمان الحى ، فإن فؤاده يرتجف عند ذكر الله ، ـ يجد نفسه أميل إلى الصمت والسكون، غير أن القلوب حين تُصاب بالجمود والبلادة الحسية ؟؟

وإن عملاً كعمل بنى إسرائيل لا يزيدهم إلا قسوة وتحجراً وبلادة إحساس ، حتى تصير قلوبهم وكأنها الحجارة أو أشد منها قسوة وصلابة ، وبالتالى فلا يعود ذكر الله واستحضاره يذيب قلوبهم ، ولا هو يُلهب مشاعرهم وأحاسيسهم .

وبعد أن استعرض القرآن بعضًا من صفات اليهود ، يخاطب الأمة الإسلامية مصححاً المفاهيم والتصورات أنه لا مطمع ولا رجاء فى أن يؤمن أمثال هؤلاء . فللإيمان طبيعة أخرى ، واستعداد آخر ، إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة ، مفتحة المنافذ للأضواء ، مستعدة للاتصال بالنبع الأزلى الخالد بما فيه من نداوة الوحى ، وشفافية التقوى والخشية من الله ، هذه التقوى التى تمنع النفس المؤمنة أن تسمع كلام الله ثم تحرفه من بعد تعقله ؛ تحرفه عن علم وإصرار ، فالطبيعة المؤمنة مستقيمة ، تتحرج من هذا التحريف والالتواء بفعل الخشية والإيمان .

والمقصود هنا هم أعلم اليهود وأعرفهم بالحقيقة المنزلة عليهم فى كتابهم وهم الأحبار والربانيون ، فإذا كان هذا حالهم مع هدى موسى ! فمن باب أولى ينحرفون عن الحق الذى جاء به محمد ﷺ ، وإصرارهم على الباطل جدير أن يصرفهم عن الحق ، ورفض الإسلام والروغان من شريعته والافتراء عليه .

فالله يقول للمؤمنين : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ ، وهم يضيفون إلى خراب الذمة وقسوة القلوب ، وكتمان الحق ، وتحريف الكلم عن مواضعه الرياء والنفاق والخداع والمراوغة .

فالله يبصر الأمة بأساليب الكيد والفتنة عند اليهود ؛ ويحذرهم كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلتهم ، فلا تنخدع بأقوالهم ودعاويهم ، ووسائلهم الماكرة فى الفتنة والتضليل ، ويدل طول هذا الحديث كما يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ وتنوع أساليبه على ضخامة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من الكيد المنصوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود .

ويقول صاحب الأساس فى التفسير: ولأول مرة يتوجه الخطاب إلينا بشكل مباشر بقوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ وذلك بعد مجموعة من الدروس الماضية التى أخذتها الأمة فى سورة البقرة، وكأن الدروس الماضية كافية لإيجاد نضج خاص فى الذات العامة للأمة ، والخطاب فى هذه الفقرة هو فى حقيقته درس فى المواجهة بين هذه الأمة واليهود ، بعد أن اتضحت إلى حد كبير صورة اليهود ؛ لتضع الأمة قدمها حيث ينبغى أن تُوضع فى آرائها بالآخرين ، وفى مواقفها ،وفى معرفة أعدائها وتحليل مواقفهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قبح إنكار الحق بعد معرفته .

٢ ـ بيان طبائع اليهود الذين هم أبعد الناس عن قبول الحق والإذعان له ، لتحذرهم الأمة وتنتبه لكيدهم ومكرهم .

٣ ـ اليهود من أقسى البشر قلوباً إلى اليوم وحتى يوم القيامة ، لإثارتهم الفتن ولجاجتهم فى الحق ، وتحريفهم كتاب الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

٤ ـ من علامات الشقاء قساوة القلوب ، وفى الحديث : « من لا يرحم لا يُرحم »

٥ ـ ما كل من يقرأ الكتاب يفهم معانيه فضلاً عن معرفة حكمه وأسراره ، وواقع أكثر المسلمين اليوم شاهد على هذا ، فإن ممن حفظ القرآن من لا يعرف معانيه فضلاً عن غير الحافظين له .

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

معانى الكلمات :

فتح الله عليكم : حكم به أو قَصَّهُ عليكم .

أُمِيُّونَ : جـهـلـة بـكتابـهـم « التوراة » .

أمانىَّ : أكاذيب تلقوها عن أحبارهم .

فويلٌ : هَلَكَة أو حسرة ، أو شدَّة عذاب أو وادٍ عميق فى جهنم . **كسب سيئةً** : هى هُنا الكفر. **وأحاطت به** : أحدقت به واستولت عليه . **أياماً معدودة** :أربعين يوماً،وهذا من كذبهم وتضليلهم للعوام منهم، ليصرفوهم عن الإسلام . **الخلود** : البقاء الدائم الذى لا تحول معه ولا ارتحال . **الميثاق**: العهد المؤكد باليمين . **توليتم**: رجعتم عما التزمتم به مصممين على ألا تتوبوا.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم قبح الجهل بالله وبصفاته العلا وأسمائه الحسنى .

٢ ـ أن نستعرض جدال اليهود مع المسلمين وأدلتهم الباطلة .

٣ ـ أن نعلم ما أخذه الله من العهد والميثاق على بنى إسرائيل

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن أمانى اليهود التى لا تستقيم مع عدل الله ، ولا تتفق مع نواميسه ، ولا تتفق مع التصور الصحيح للعمل والجزاء ، أن يحسبوا أنهم ناجون من العذاب مهما فعلوا ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات يخرجون بعدها إلى النعيم ، ويعتمدون فى هذه الأمانى الكاذبة على الأميين الجهال وأكاذيب المحتالين من الأحبار يلجؤون إليها لجوء المنحرفين عن العقيدة الصحيحة حين يطول بهم الأمد ، وينقطع ما بينهم وبين حقيقة دينهم ، فلا يبقى إلا اسمه ورسمه ، دون موضوعه وحقيقته، ويرد الله عز وجل بالحجة الدامغة الفاضحة للأمانى الكاذبة: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ فأين هو هذا العهد ؟

﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا هو الواقع ، فالاستفهام هنا للتقرير ، ويحمل كذلك معنى الإنكار والتوبيخ .

ويعلق صاحب الأساس فيقول : وعلينا أن ندرك هنا بعمق كيف أن تصور الإنسان عن اليوم الآخر يؤثر تأثيرًا كاملاً فى مواقفه ، فإذا كانت هذه المواقف اليهودية الفظيعة أثراً من آثار هذه العقيدة التى رأيناها ، وذلك شىء منصوص عليه فى سورة آل عمران : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ .

فكيف تكون مواقف الذين لا يؤمنون باليوم الآخر أصلاً ! فكيف تكون مواقف الذين يتصورون أن الله لا يعذبهم أبداً ! وللأسف فإن كثيرين من عامة المسلمين وعلمائهم يستشعرون الأمن من النار ومن عقاب الله ، وذلك أقل ما يقال فيه أنه من الكبائر كما نص عليه الفقهاء .

وهنا فى هذه الآيات يأتيهم الجواب القاطع والقول الفصل فى أمانيهم الكاذبة فى صورة كلية من كليات التصور الإسلامى : إن الجزاء من جنس العمل ، فالخطيئة كسب ، والحالة النفسية لهم عند اجتراح هذه الخطيئة ، والتلذذ بها يومئ بالرضا عنها ، ولو أنها كانت كريهة فى حسه ما اجترحها ، ولو كان يحس أنها خسارة ما أقدم عليها متحمساً ، لذا فإنها أحاطت به ولو كرهها ما اندفع لارتكابها ولاستغفر منها ، وعندما تغلق منافذ التوبة على النفس فى سجن الخطيئة ، وتحيط السيئة المكتسبة بصاحبها عندئذ يحق الجزاء العادل الحاسم : ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الأساس : « ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون ، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته ، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة ، بل جميع أعماله سيئات ، فهذا من أهل النار ، والخطيئة هنا الشرك كما هو المأثور عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة ، فهم من أهل الجنة إذ إنهم آمنوا بما كفر به الآخرون ، وعملوا بما ترك الناس من دين الله .. »

وقال النسفى : بلى من كسب شركا ، وسدت عليه مسالك النجاة بأن مات على شركه (أى: فهذا الذى أحاطت به خطيئته) ، فأما إذا مات مؤمنا فأعظم الطاعات ، وهو الإيمان معه فلا يكون الذنب محيطا به ، وعلى كل حال فإن الخطايا وإن تكن كفراً ، فإنها بريد الكفر ، فإذا سار الإنسان فى طريق الخطايا ، فإنه بذلك يجنى على قلبه شيئاً فشيئا حتى يصل إلى الكفر عندما تحيط به الخطايا .

وفى المقابل يقول الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « فمن مقتضيات الإيمان أن ينبثق من القلب فى صورة العمل الصالح ، وهذا ما يجب أن يدركه من يدعون الإيمان ، وما أحوجنا ـ نحن الذين نقول : إنا مسلمون ـ أن نستيقن أن الإيمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح . فأما الذين يقولون : إنهم مسلمون ، ثم يفسدون فى الأرض ، ويحاربون إقرار منهج الله فى الأرض ، وشريعته فى الحياة ، فهؤلاء ليس لهم من الإيمان شىء ، وليس لهم من ثواب الله شىء ، وليس لهم من عذابه واق ولو تعلقوا بأمانىّ كأمانىّ اليهود ... » .

وتمضى الآيات تحدث الجماعة المسلمة عن حال اليهود ، ومواقفهم التى يتجلى فيها الالتواء والانحراف والنكوث عن العهد والميثاق ، وهذا الميثاق تضمن القواعد الثابتة لدين الله فتنكروا لها وأنكروها ، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وبهذا أمر جميع خلقه ، ولذلك خلقهم ، وهذا هو أعلى الحقوق ، وأعظمها ، ثم بعده حق المخلوقين وأكبرها وأولاها بذلك حق الوالدين ، والأقربين ، ثم اليتامى والمساكين ، أما كل الناس فلهم الكلمة الطيبة ولين الجانب ، قال الحسن البصرى : « فالحسن من القول يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحلم ويعفو ويصفح ، ويقول للناس حسناً » ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ولكنهم تولوا عن ذلك كله وتركوه وراء ظهورهم : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ التحذير الشديد من الفتاوى الباطلة التى تحرم ما أحل الله ، أو تحل ما حرم الله لغرض دنيوى .

٢ ـ إبطال الانتفاع بالنسب والانتساب ، والسعادة مصدرها الإيمان والعمل الصالح ، والشقاء سببه الشرك والمعاصى .

٣ ـ التنبيه إلى خطر الذنوب صغيرها وكبيرها . وإلى العمل على تكفيرها بالتوبة قبل المات، والعياذ بالله .

٤ ـ مشروعية تذكير الناس ودعوتهم بما يكون سبباً لهدايتهم .

٥ ـ وجوب عبادة الله وتوحيده ، والإحسان للوالدين ولذوى القربى واليتامى والمساكين ، ولين الكلام مع الناس .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن
بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ
اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا
قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

معانى الكلمات :

سفك الدماء : إراقتها وصبها بالقتل والجراحات . **تظاهرون** : قرئ تظَّاهرون ، وتظاهرون بتاءٍ واحدة أى : تتعاونون .

بالإثم والعدوان : الإثم : الضار الموجب للعقوبة ، والعدوان الظلم . **أسارى** : جمع أسير : من أخذ فى الحرب . **تُفادوهم** : تخرجوهم من الأسر بإعطاء الفدية . **الخزى** : الذل والمهانة . **قفينا** : أرسلناهم يَقْفُو بعضهم بعضاً، أى واحدًا بعد واحد. **البينات**: المعجزات وآيات الله فى الإنجيل. **روح القدس** : جبريل عليه السلام . **غُلف** : عليها غلاف يمنعها من الفهم لما تدعونا إليه ، أو هى أوعية للعلم فلا نحتاج معها إلى أن نتعلم عنك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نؤمن بأن يهود اليوم هم يهود الأمس بكل ما فيهم .

٢ـ أن نعلم الحكمة من وراء ما جاء عن بنى إسرائيل وقصصهم .

٣ـ أن نعلم كفر من يتخير أحكام الشرع،فيعمل ما يوافق مصالحه،ويهمل ما لا يوافق هواه .

المحتوى التربوى :

تقول هذه الآيات إنه كانت هناك ثلاث قبائل من اليهود تقطن نواحى يثرب (المدينة) ، وهى : بنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو قينقاع .. وكان هؤلاء جميعاً يؤمنون بالشريعة الموسوية ، غير أن التعصبات الجاهلية أدّت بهم إلى أن فرقوا دينهم فصاروا شيعاً وأحزاباً متناقضة ، وكونوا أحلافًا سياسية من أجل الحفاظ على مصالحهم . فانضموا إلى جيرانهم المشركين ـ قبيلتى الأوس والخزرج ـ بالمدينة إذ ذاك .

فانضوى بنو النضير وبنو قريظه تحت لواء الأوس ، أما بنو قينقاع فكانوا حلفاء الخزرج ، وجراء هذه الانقسامات كانت تقوم بينهم حروب دامية ، وكان اليهود ينقسمون جبهتين فى هذه الحروب ، بانحياز كل فريق منهم إلى حلفائهم من المشركين ، وبالتالى يقتتلون كأنباء عمومة واحدة ، ويخرجون أبناء عمومتهم من اليهود من ديارهم .

ثم إذا وضعت الحرب أوزارها يأخذون فى مناشدة إخوانهم من اليهود أن يفادوا أسراهم من القبائل الوثنية ، وهذا الانفصام النكد الذى كان يحياه اليهود والتعاطف الكاذب مع الذين صاروا ضحايا سياستهم العدوانية الظالمة ، لكى يزعموا أنهم متمسكون بدينهم . وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها : إنك لا تجد مملوكاً من بنى إسرائيل إلا أخذته فأعتقه .

هذا التناقض هو الذى يواجههم به القرآن ، ويسألهم فى استنكار : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ؟!

لقد أخذ الله على هذه الأمة ما أخذ على بنى إسرائيل فى وجوب إقامة أحكام القرآن ، فطبقت فى عصورها المتأخرة بعضاً وتركت بعضاً ؛ فابتلاها الله بما ابتلاها به من الذلة ، والهوان ولعذاب الآخرة أشد .

وها نحن الآن فى القرن الخامس عشر الهجرى نعانى من الذِّلة والهوان ، بأن سلط الله علينا أمم الكفر ، حتى سلط علينا اليهود أذلّ الخلق ، وتلك عقوبة نسيان جزء من كتاب الله، ولا خلاص لنا مما نحن فيه بالدنيا ، ولا نجاة لنا فى الآخرة ، إلا بالعودة الكاملة لكتاب الله ، بتطبيقه كله ، فى محيط الفرد والأسرة والدولة والأمة ، وإلا فإن الذِّلة مستمرة ، وكل محاولة للخروج منها من غير هذا الطريق محاولة فاشلة قال عمر ﷺ : « نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فمهما ابتغينا العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله » .

ويقول صاحب الأساس : « وقد رأينا أن سبب التطبيق الجزئى هو استحباب الدنيا على الآخرة ، فبداية الدواء إذن أن نغرس فى قلب المسلم تفضيل الآخرة على الدنيا ، وأن نغرس فى قلبه حب الآخرة ، وطريق ذلك العلم بالكتاب والسّنة ، والعمل ، ومجالسة الصالحين من عباد الله » .

وتتحدث الآيات عن صورة أخرى من صور عتو وعناد ومخالفة بنى إسرائيل واستكبارهم على الأنبياء ، واتباعهم لأهوائهم ، آتى الله موسى الكتاب فحرفوه وبدّلوه ، وخالفوا أوامره ،

وأوّلوها ، وأرسل الرسل بعده يحكمون بشريعته فكانوا يعاملونهم أسوأ المعاملة ، من التكذيب إلى القتل ثم ختم الله أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ﷺ ، فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام ، وأعطاه الله من المعجزات الكثير وأيده بجبريل ، فاشتد تكذيب بنى إسرائيل له ، وصدهم وعنادهم ، وكل هذه المواقف من الأنبياء سببه أن الأنبياء يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم .

يقول صاحب الأساس : وما أشبه حال الكثيرين من أبناء عصرنا بهذا الذى عليه اليهود : إذا حدثتهم عن الإسلام بما يوافق هواهم قبلوا وإلا كذبوا ، وإن كان لهم سلطان قتلوا ، وما أكثر من يجعل الإسلام تابعاً لأهواء الناس حتى صعب على أهل الإخلاص والعلم أن يبينوا الإسلام للناس كما هو لكثرة مسايرة الأهواء فأين هذا من حديث . « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

وعللوا ذلك بقولهم ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أى مخلوقة مغشّاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد ﷺ ، ولا تفقهه، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره، وقولهم هذا يدل على طبيعة متبجحة بالكفر، ومفتخرة بقسوة القلب ، وليس هذا موضع افتخار ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ وطردهم وأبعدهم بسبب كفرهم الذى اختاروه لأنفسهم ، وهذا ردٌ من الله عليهم أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك ؛ لأنها خلقت على الفطرة ، والتمكن من قبول الحق ، وإنما طردهم بكفرهم وزيغهم ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ . بسبب هذا العناد والتبجح والإصرار المقيت على الكفر واتباع الأهواء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا .

١ـ تعرض أمة الإسلام لخزى الدنيا وعذاب الآخرة بتطبيقها بعض أحكام الشريعة ، وإهمالها البعض الآخر .

٢ـ كفر من يتخير أحكام الشرع ، فيعمل ما يوافق مصالحه وهواه ، ويهمل ما لا يوافقها .

٣ـ كفر من لا يقيم دين الله إعراضاً عنه.

٤ـ حق النعمة الشكر ، وتكفير الذنب بالتوبة .

٥ـ قبح رد الحق لعدم موافقته لهوى النفس .

٦ـ سوء عاقبة التبجح بالعلم ، وادعاء عدم الحاجة إلى المزيد منه كبراً وصلفاً .

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

ربع الحزب ٢

معانى الكلمات :

يستفتحون : يستنصرون ببعثة النبى ﷺ .

اشتروا به أنفسهم : باعوا به أنفسهم .

بغياً : حسداً . **فباؤوا بغضب** : فرجعوا به مستحقين له . **اتخذتم العجل** : جَعلتُموهُ إلها معبوداً. **بما أنزل الله** : القرآن .

بما أُنزل علينا : التوراة . **وأشربوا فى قلوبهم العجل** : أى حب العجل الذى عبدوه بدعوة السامرى لهم بذلك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعلم طبيعة الكنود والأثرة الضيقة لليهود .

٢ـ أن نعرف أن الواقع العملى هو الذى يمنح القول الشفوى دلالته .

٣ـ أن نعلم أن الله يصطفى من خلقه من يشاء ، وينزل الوحى على من يشاء ، ويتصرف فى ملكه كيف يشاء .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن حلقة جديدة من حلقات التمادى المقيت والكفر البواح من اليهود لما جاءهم القرآن المصدق للتوراة ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أى على المشركين، ذكر ابن كثير عن ابن عباس : « أن اليهود كان يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون به ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، وداود بن سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكر لكم ، فأنزل الله فى ذلك من قولهم ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ .

وحملهم على ذلك الحسد لرسول الله ﷺ أن يختاره الله للرسالة التى انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، وكان هذا بغياً منهم وظلماً ؛ فعادوا من هذا

الظلم بغضب على غضب ؛ وهناك ينتظرهم عذاب مهين ، جزاء الاستكبار والحسد والبغى الذميم ، وذمهم الله : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا ﴾ ..

يقول صاحب الظلال : لكأنما هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم ! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما ، يكثر أو يقل ، أما أن يعادلها بالكفر ، فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ، ولكن هذا هو الواقع وإن بدا تمثيلاً وتصويراً ، لقد خسروا أنفسهم فى الدنيا فلم ينضموا إلى موكب الكريم العزيز ، ولقد خسروا أنفسهم فى الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين ، وبماذا خرجوا فى النهاية؟ خرجوا بالكفر ، هو وحده الذى كسبوه وأخذوه ! ..

وهذه الطبيعة التى تبدو هنا فى يهود هى الطبيعة الكنود ، طبيعة الأثرة الضيقة التى تحيا فى نطاق من التعصب شديد ، ولا تحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها ؛ ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى ، التى تربط البشرية جميعاً ، وهكذا عاش اليهود فى عزلة ما يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة ؛ ويتربصون بالبشرية الدوائر ؛ فيكنون للناس البغضاء ، ويعلنون عذاب الأحقاد والضغائن ، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتناً ، يوقدونها بين الشعوب وبعض ، وحروباً يثيرونها ليجنوا من ورائها المغانم ، ويروون بها أحقادهم التى لا تنطفى ، وهلاكا يسلطونه على الناس ، ويسلطه عليهم الناس ، وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة .

ويأتى ردهم المقيت الذى يقولونه إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام كانوا يقولون : ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ ففيه الكفاية ، وهو وحده الحق ، ويكفرون بما وراءه . سواء ما جاءهم به عيسى عليه السلام ، وما جاءهم به محمد خاتم النبيين ، والقرآن يعجب من موقفهم ، ومن كفرهم بما وراء الذى معهم ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ .

ويلقن الله نبيه ﷺ أن يجابههم بحقيقة أخرى ، كشفاً لموقفهم وفضحاً لدعواهم : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاؤوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به ؟ ! ليس هذا فحسب ، بل إنهم كفروا بما جاء به موسى عليه السلام ، وهل اتخاذهم العجل من بعد ما جاءهم موسى بالبينات كان من وحى الإيمان ؟! وهل يتفق مع دعواهم أنهم آمنوا بما أنزل إليهم ؟!

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة ، بل كان هنالك الميثاق تحت الصخرة ، وكان هناك التمرد والعصيان ؛ فلقد قالوا بأفواههم : سمعنا وعصينا ، والواقع العملى هو الذى يمنح القول الشفوى دلالته ، وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق ، فلا قيمة لقول بلا عمل ، إن العمل هو المعتبر .

ويقول صاحب الأساس : هم يدَّعون الإيمان ، والإيمان يقتضى طاعة ، وهم يعصون ، هم يدَّعون الإيمان بالتوراة وليس فى التوراة عبادة عجل ، فأى إيمان هذا الذى يأمرهم بعبادة العجل وبمحبته ؟ فإذا كان هذا هو إيمانهم الذى سَوَّل لهم مثل هذه القبائح ، فإنه هو هو نفس الإيمان الذى يسوِّل لهم أفظع قبيح ، وهو عدم الإيمان بالقرآن ، ويتهكم عليهم المولى عز وجل ؛ لأن الأصل فى الإيمان ألا يأمر صاحبه بمثل هذا فقال تعالى : ﴿ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

وتوضح الآيات أن قضية اليهود ليست فى جوهرها قضية الولاء للحق ، والدليل على ذلك هو ما نجد فى تاريخهم أنفسهم أنهم قتلوا الأنبياء المبعوثين فى طائفتهم بالذات ؛ مثل يحيى عليه السلام ولم يكن ذلك إلا لأنه تناول حياتهم بالنقد والتوجيه .

يضاف إلى ذلك أن ما أظهره الله على يد موسى عليه السلام من المعجزات والخوارق لم يُبق أى مجال للشك والارتياب فى نبوته ، ولكن فى أثناء فترة إقامته بجبل الطور التى استغرقت أربعين يوماً ما لبثوا أن اتخذوا العجل معبوداً لهم ، إذ لم يعد نفوذه الشخصى ماثلاً أمامهم ، وقد رُفع فوق رؤوسهم الجبل ، ومع ذلك لم يُقروا بالعهد إلا إقراراً لسانياً مؤقتاً ، ولمجرد النجاة بأنفسهم من الهلاك ، وقد ظلت حياة أكثرهم بعد ذلك تسير على خط المعصية والفجور كما كانت تسير من قبل .

يقول صاحب الظلال : « والقرآن يعجب من موقفهم ، وكفرهم بالحق ، رغم أن هذا الحق مصدق لما معهم ، هم لا يشغلهم الحق . وما لهم وللحق ؛ وما لهم أن يكون مصدقا لما معهم ما داموا لم يستأثروا هم به ؛ إنهم يعبدون أنفسهم ، ويتعبدون لعصبيتهم ، لا بل إنهم يعبدون هواهم فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ مشروعية توبيخ أهل الجرائم على جرائمهم إذا أظهروها .

٢ ـ وجوب أخذ أمور الشرع بالحزم والعزم والقوة .

٣ ـ الإيمان الحق لا يأمر صاحبه إلا بالمعروف ، والإيمان الباطل المزيف يأمر صاحبه بالمنكر .

٤ ـ ادعاء الإيمان وحده لا يكفى ، فلا قيمة لقول بلا عمل ، ومقتضى الإيمان هو الطاعة لله ولرسوله .

٥ ـ اليهود هم اليهود قتلوا الأنبياء وخانوا العهود .

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

١٥

معانى الكلمات :

لو يُعمَّرُ : لو يطول عُمُرهُ . **الدار الآخرة** : المراد منها نعيمها وما أعد الله تعالى فيها لأوليائه .

يودّ : يحب .

بمزحزحه : بمبعده من العذاب .

جبريل: روح القدس الموكل بالوحى يتنزل به على رسول الله ﷺ . **مصدقاً لما بين يديه** : القرآن مصدقاً لما فى الكتب السابقة من نعت الرسول ﷺ والبشارة به ، ومن التوحيد ووجوب الإسلام لله تعالى .

ميكال : وميكائيل : ملك من أعاظم الملائكة ، وقيل معناه: عبيد الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق .

٢ ـ أن نتعرف على عداوة اليهود لمحمد ﷺ ، التى بلغت مرتبة الحقد والغيظ.

٣ ـ أن نعلم أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون المنحرفون .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يتحدى الله اليهود ويقول لهم : إن كنتم تعتقدون أن الدار الآخرة لكم دون الناس فتمنوا الموت ، إن كنتم صادقين فيما تقولون ، لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها، تخلصاً من الدار ذات الشوائب ، وهذه الآيات كما احتج الله سبحانه لنبيه ﷺ على اليهود ، فضح بها أحبارهم وعلماءهم ، وذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺأن يدعوهم إلى قضية عادلة فيما كان بينه وبينهم من خلاف ، فقال لفريق اليهود : إن كنتم مُحقين فتمنوا الموت ، فامتنعت اليهود من ذلك؛ لعلمها أنها إذا تمنت الموت هلكت ، فذهبت دنياها ، وصارت إلى خزى الأبد فى آخرتها .

قال ابن كثير : فالمعنى : أى ادعوا على أى الفريقين أكذب فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ : بل قيل لهم كلام نصَف: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه،

وأنكم من أهل الجنة، ومن عداكم من أهل النار، فباهلوا على ذلك، وادعوا على الكاذبين منكم، أو من غيركم لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ورسالته ، فعلم كل أحد باطلهم وضلالهم ، وسميت هذه المباهلة تمنياً ؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل بالموت ؛لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة؛ لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت .

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ هذه تتمة الحجة عليهم فى أنهم أهل باطل ، ظهور هذا الحرص العظيم عندهم على الحياة ، فلو كان إيمانهم بالله واليوم الآخر سليماً ، واستقامتهم موجودة لما كانوا كذلك ، والتنكير فى لفظ ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ يدل على أنهم يرغبون بالحياة المتطاولة مهما كان نوع هذه الحياة ؛ لما يعلمون من مآلهم السيئ ، وعاقبتهم الخاسرة ؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم ، وهم أحرص من المشركين عليها ؛ حتى إن أحدهم يتمنى لو عُمِّر ألف عام ، وإنما زاد حرصهم على الذين أشركوا؛ لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار ، والمشركون لا يعلمون ذلك .

قال مجاهد : (حببت إليهم الخطيئة طول العمر) ويعقب الله على هذه الأمانى الباطلة بأن تعميرهم ليس بمغيثهم من العذاب ولا مزحزحهم منه ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ من خير وشر ، وسيجازى عليه .

ويقول صاحب الظلال : يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله ، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة ، وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها ، حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها ، ولا تطمع فى غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة ، إن الإيمان بالحياة الآخرة نعمة ، نعمة يفيضها الإيمان على القلب ، نعمة يهبها الله للفرد الفانى العانى ، المحدود الأجل الواسع الأمل ، ولا يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود ، إلا وحقيقة الحياة فى روحه ناقصة مطموسة .

ويمتد السياق فى هذه الآيات يكمل قصة التحدى ويطلعنا على سمة أخرى من سمات اليهود، فلقد بلغ هؤلاء القوم من الحقد والغيظ من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كل حد ، لما علموا أن جبريل عدوهم ؛ لأنه ينزل بالوحى على الرسول ﷺ وتجاوز الحقد فى صدورهم كل الحدود ، وأن هذا هو الذى يمنعهم من الإيمان بمحمدٍ من جراء صاحبه جبريل !

ولو كان ينزل إليه بالوحى هو ميكائيل لآمنوا ، فميكائيل ينزل بالرخاء والمطر والخصب !

ويقول صاحب الأساس ـ معلقاً : إن دين الله واحد ، ومن أحب الله أحب ملائكته كلهم ، وأحب رسله كلهم ، فوالى الجميع ، ولم يعاد أحداً منهم ، واليهود ليسوا كذلك ، فهم يوالون ـ فى زعمهم ـ رسولاً ، ويعادون رسولاً ، ويوالون ملكاً ، ويعادون مَلَكاً ، فأى طبيعة طبيعتهم ؟ وأى تناقض عندهم ، وإذا كانوا كذلك ، فذلك دليل على أنهم أناس منحرفون عن الحق ، وعن الربانية الخالصة ، فما هم بأهل الله ، وليسوا على دينه .

ورد الله عليهم بأكثر من رد : أنه لا وجه لمعاداة جبريل ، حيث نَزَّل كتاباً مصدقاً للكتب بين يديه ، فلو أنصفوا لأحبوه ، وشكروا له صنيعه فى إنزاله ما ينفعهم ، ويصحح المنزل عليهم ، وكذلك فى الآية ردّ عليهم من حيث إنهم حاربوا جبريل ؛ لأنه ينزل بالحرب والشدة فقيل ؛ فإنه ينزل بالهدى والبشرى أيضاً ، ولكن للمؤمنين ، فالمؤمنون يحبونه.

ويتجه الخطاب إلى الرسول ﷺ يثبته على ما أنزل عليه من الحق، وما آتاه من الآيات البينات، مقرراً أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون المنحرفون ، ويندد ببنى إسرائيل الذين لا يستقيمون على عهد ، سواء عهودهم مع ربهم وأنبيائهم من قبل ، أو عهودهم مع رسول الله ﷺ كما يندد بنبذهم للكتاب الأخير الذى جاء مصدقاً لما معهم ، قال الحسن البصرى : « نعم ليس فى الأرض عهد يعاهدونه عليه إلا نقضوه ونبذوه يعاهدون اليوم وينقضون غداً » .

وقال ابن كثير : « قلت : فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها ، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، الذى فى كتبهم نعته ووصفه وأخباره ، وقد أمروا فيها باتِّباعه ومؤازرته ونصرته ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المؤمن الحق يحب الآخرة أكثر من الدنيا ، ويحب الموت أكثر من الحياة ، وقد أدبنا رسولنا ﷺ بألا نتمنى الموت لضر أصابنا بل نقول : « اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وأمتنى ما كان الموت خيراً لى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر ، وإذا أردت بالناس فتنة ، فاقبضنى إليك غير مفتون » .

٢ ـ الفسق العام ينتج الكفر ، إن العبد إذا فسق ، وواصل الفسق عن أوامر الله ورسوله، سيؤدى به ذلك إلى أن ينكر ما حرم الله ، وما أوجب ، فيكفر لذلك ، والعياذ بالله .

٣ ـ اليهود لا يلتزمون بوعد ، ولا يوفون بعهد ، فيجب ألا يوثق فى عهودهم أبداً .

٤ ـ قُبح جريمة من تنكَّر للحق بعد معرفته ، ويصبح وكأنه جاهل به .

٥ ـ عداوة الله تعالى للكافرين ، ولذا وجب على المؤمن معاداة أهل الكفر لمعاداتهم لله ، ومعاداة الله تعالى لهم .

الجزء الأول — سورة البقرة

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ
السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ
وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ
وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ
مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ
مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا
وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
(١٠٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا
انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)
مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

١٦

معانى الكلمات :

ما تتلوا الشياطين : الذى تتبعه ، وتقول به الشياطين من كلمات السحر . **على ملك سليمان** : على عهد ملك سليمان ووقت حكمه. **نحن فتنة** : ابتلاء واختبار من الله تعالى . **السحر**: هو كل ما لطف مأخذه وخفى سببه مما له تأثير على أعين الناس أو نفوسهم أو أبدانهم . **هاروت وماروت**: ملكان وجدا للفتنة . **فلا تكفر** : لا تتعلم منّا السحر لتضر به فتكفر بذلك . **اشتراه** : اشترى السحر بتعلمه والعمل به. **الخلاق** : النصيب من الخير أو قَدْرٍ .**ما شروا** : ما باعوا به أنفسهم .**لمثوبة** : ثواب وجزاء . **راعنا** : كلمة سبّ وتنقيص من اليهود ، أو أمهلنا وأنظرنا حتى نعى ما نقول . **انظرنا** : تأنَّ علينا حتى نفهم ما تقول .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم ما كان من اليهود من تركهم كتاب الله ، وجريهم خلف الأساطير الغامضة .

٢ ـ أن نعلم كفر الساحر ، وحرمة تعلم السحر ، وحرمة استعماله ، وأنه لا يقع شيء إلا بإذن الله .

٣ ـ أن نتعلم الأدب مع رسول الله ﷺ ، وألا نتشبه بأهل الكتاب .

المحتوى التربوى :

تحكى هذه الآيات فصلاً جديداً من تمادى اليهود فى الانحراف عن الجادة ، والتيه والتخبط فى التلقى وهاهم مرة أخرى يتركون ما أنزل الله مصدقاً لما معهم ، وراحوا يتتبعون ما تقصه الشياطين عن عهد سليمان ، وما يضللون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان ، إذ يقولون : إنه كان ساحراً وإنه سخر ما سخر عن طريق السحر الذى كان يعلمه ويستخدمه ، والقرآن ينفى عن سليمان ـ عليه السلام ـ أنه كان ساحراً ، فيقول : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ وعد القرآن الكريم السحر كفراً أثبته للشياطين ونفاه عن سليمان بقوله ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾

وقال ابن كثير : اتبعت اليهود ـ الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذى بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله ﷺ ﴿ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ أى ما ترويه وتخبر به عن ملك سليمان وعلى عهده ، ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾ .

ودار خلاف كبير بين المفسرين حول قصة هاروت وماروت ، لا نتعرض له ، ونكتفى بما **قاله صاحب الظلال** : إنه كانت هناك قصة معروفة عنهما ، وكان اليهود أو الشياطين يدعون أنهما كانا يعرفان السحر ويعلمانه للناس ، ويزعمان أن هذا السحر أنزل عليهما ! فنفى القرآن هذه الفرية . فرية تنزيل السحر على الملكين . ثم يبين الحقيقة ، وهى أن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس لحكمة مغيبة . وأنهما : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ .

يبدو أن اليهود لما أصيبوا بالانحطاط ، وبلغوا من البطالة وترك العمل ، والإيمان بالخرافات هذا المبلغ ، حتى ظهر بينهم ناس احترفوا السحر والكهانة ولكى تروج بضاعتهم ، وتنفق سوقهم لجأ هؤلاء الفجرة الخبثاء إلى أن نسَبُوا عملهم السيئ ذاك إلى سليمان عليه السلام فقالوا: إن القدرة غير العادية التى كان سليمان يسخر بها الشياطين والرياح إنما كانت ثمرة علمه بالسحر، وإننا تمكنا من العثور على أسرار هذا العلم بواسطة بعض الشياطين ، فنال الأمر قبولاً وانتشاراً واسعين بين اليهود لعنهم الله .. » .

ويصحح الله التصور للمؤمنين فينفى كفر سليمان ، ويثبت قاعدة أساسية لابد أن تستقر فى ضمير كل مؤمن وهى أنه لا يقع شىء فى هذا الوجود إلا بإذن الله ، وكل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله ، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء .

ثم يقرر لهم القرآن حقيقة ما يتعلم هؤلاء الأشرار ، وما يفرقون به بين المرء وزوجه ، إنه شر عليهم هم أنفسهم لا خير ، ويكفى وصفه كفرا ليكون ضرا خالصًا لا نفع فيه ، ويبالغ القرآن فى ذمهم ، ليؤجج شعور المؤمن بكراهية هذا العلم المقيت فيقول عز وجل : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فى هاتين الآيتين توجيه مباشر لبنى إسرائيل فى أقوالهم وأفعالهم فى قضية الإيمان بالقرآن ، ولتحدد لهذه الأمة طريقها فى العلاقة مع بنى إسرائيل ؛ وليعطى الأمة دروساً فى كيفية تعاملها مع الأوامر والنواهى ، فجاء الخطاب موجهاً للمؤمنين أن يتحرروا من أسر متابعة اليهود حتى فى التعابير ؛ ومحذراً من سوء الأدب مع الله ، ومعرفاً أهل الإيمان على العواطف الحقيقية للكافرين تجاه المسلمين .

قال ابن كثير : نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص ، عليهم لعائن الله ، فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا ، يقولون : راعنا ويورون بالرعونة .

ثم تأتى الآية التالية للآية الأولى لتؤكد أن الكافرين ـ سواء كانوا كتابيين أو مشركين ـ يكرهون أن يصيب المسلمين أى خير من ربهم ، فهى تكمل الآية ـ السابقة فكأنها تقول للمسلم: كيف تتابع أعداء الله وتقلدهم وتترك طاعة الله ورسوله ﷺ وأعداء الله يعادونك ، ويحاربونك ، ويكرهون لك الخير . وينبه بعد ذلك على أن ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذى شرعه لنبيهم محمد ﷺ هو فضل الله ورحمته ومنته العظيمة التى يختص بها من ما يشاء .

ويقول صاحب الظلال : وليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة ؛ وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه ، وفى هذا التلميح ما يستجيش فى قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل ، وفى التقرير الذى سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد .. وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف فى وجه حملة البلبلة والتشكيك التى قادها ـ ويقودها ـ اليهود ؛ لتوهين العقيدة فى نفوس المؤمنين ، وهى الخير الضخم الذى ينفسونه على المسلمين !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا يقع شىء فى الوجود إلا بإذن الله ، وكل مؤثر يُودعُ خاصية التأثير بإذن الله .

٢ ـ الله عز وجل يختبر عباده بما شاء من الأمور ليظهر إيمان المؤمنين وكفر الكافرين ، ويتميز الصادقون من الكاذبين .

٣ ـ وجوب الحذر من خداع الألفاظ التى يطلقها الكافرون ومن متابعتهم عليها والنهى عن التشبه باليهود لأن تقليدهم من أعظم الكوارث التى لحقت بالأمة .

٤ ـ النبوة والرسالة من أعظم النعم ، وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه ، فيجب على الأمة ألا تتابع أعداءها ممن لا خير عندهم ، ولا فضل ، ولا يريدون بهذه الأمة خيراً .

٥ ـ يربى القرآن المسلمين على ضوابط تربوية لابد من أخذها بعين الاعتبار دائماً وهى :

١ـ يجب أن يستخدموا أثناء الكلام عبارات صريحة واضحة الدلالة ، فلا يليق أن يستخدموا كلاماً ملتبساً ذا معنيين ، يمكن أن ينطوى على مفهوم شائن ممقوت .

٢ ـ أن الإكثار من السؤال من شأنه أن يضل المرء عن سواء السبيل ، ولذا فليكن همنا بما فيه العبرة والموعظة بدلاً من القيل والقال .

٣ ـ كذلك تحذرنا الآيات من الحسد ؛ لأنها آفةٌ سيئة تشى بالاعتراض على مشيئة الله فى خلقه، فهو تعالى لا يُسأل عما يفعل ، وهو العليم الحكيم .

الجزء الأول — سورة البقرة

۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ
كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟
وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
(١٠٩) وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم
مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
(١١٠) وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)

١٧

معانى الكلمات :

ننسخ : نبدّل أو نزيل . **من آية** : من آيات القرآن : جملة كلمات تحمل معنى صحيحاً كالتحريم أو الإباحة **ننسها** : نمحها من قلب النبى ﷺ . **ولىّ** : حافظ يحفظكم بتولى أموركم . **سواء السبيل** : قصد الطريق ووسطه . **ودّ** : أحبّ .
حسداً : الحسد تمنى زوال النعمة على من هى به .**فاعفوا واصفحوا** : لا تؤاخذوهم ولا تلوموهم،إذ العفو ترك العقاب، والصفح الإعراض عن المذنب .
حتى يأتى الله بأمره:أى يأذن بقتالهم والمراد بهم يهود المدينة .
أسلم وجهه : أخلص نفسه أو قصده أو عبادته لله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم ثبوت النسخ فى القرآن الكريم كما هو ثابت فى السنة .

٢ ـ أن نتعرف على اغترار الكفار من أهل الكتاب بما هم فيه .

٣ ـ أن نعلم أن الكفر كله ملة واحدة .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يبين القرآن هنا بياناً حاسماً فى شأن النسخ والتعديل ، وفى القضاء على تلك الشبهات التى آثارتها يهود ، على عادتها وخطتها فى محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب ، والمناسبة التى نزلت فيها الآيات لما قال المشركون أو اليهود : إن محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه ، ويرد الله عليهم بأن المقصود من نسخ الحكم السابق : تهُيُؤ النفوس لأرقى منه وهو معنى قوله تعالى ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى رَبَّى الأمة فى ثلاث وعشرين سنة تربية تدريجية لا تتم لغيرها ـ بواسطة الفواعل الاجتماعية ـ إلا فى قرون عديدة، لذلك شرع عليها الأحكام على حسب قابليتها ، ومتى ارتقت قابليتها بدّل الله لها ذلك الحكم بغيره . وهذه سنة الله فى الأفراد والأمم على حدٍّ سواء .

ويصحح السياق التصور العقدى بتقرير أن الله له ملك السموات والأرض فهو يملك الأمور ويدبرها ، وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ أو منسوخ .

قال ابن كثير : « يرشد تعالى عباده بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر وهو المتصرف ، فكما خلقهم كما يشاء ، يُسعد من يشاء ، ويشقى من يشاء ، ويصح ما يشاء ، ويمرض من يشاء ، ويوفق ما يشاء ، ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم فى عباده بما شاء فيحل ما يشاء ، ويحرم ما يشاء ، وهو الذى يحكم ما يريد ، لا معقِّب لحكمه ، ولا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون ، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ ، فيأمر بالشىء لما فيه من المصلحة التى يعلمها ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى ، فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره واتباعه رسله ، فى تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا ، وترك ما عنه زجروا ، وفى هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود، وتزييف شبهتهم ـ لعنهم الله ـ فى دعوى استحالة النسخ» .

ويحذر الله المؤمنين من أن يتبدلوا الكفر بالإيمان تشبهاً بقوم موسى فى تعنتهم ، وطلبهم للخوارق والبراهين ، وإعناتهم لرسولهم كلما أمرهم بأمر أو أبلغهم بتكليف ، على نحو ما حكى عنهم السياق فى مواقف كثيرة ، ويبصرهم بأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يوَّدون أن يردوا المسلمين ـ كفارًا من بعد إيمانهم ، وهى النهاية التى صار إليها بنو إسرائيل ويتمنوا أن لو قادوا إليها المسلمين حسداً من عند أنفسهم .

ويقول صاحب الظلال : والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذى فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين ، وما زالت تفيض ، وهو الذى انبعثت منه دسائسهم ، وتدبيراتهم كلها وما تزال ، وهو الذى يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه ، ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة فى نفوسهم ؛وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذى كانوا فيه ، والذى أنقذهم الله منه بالإيمان ، خصهم بهذا بأعظم الفضل ، وأجل النعمة التى تحسدهم عليها يهود!

ويطلب الله من المؤمنين أن يمضوا فى طريقهم الذى اختاره لهم ، ويدعوهم أن يرتفعوا عن مقابلة الحقد بالحقد ، والحسد بالحسد ، ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتى الله بأمره وقتما يريد ، ويعبدوا ربهم ويدخروا عنده الحسنات ، والقرآن بدعوته تلك يوقظ وعى الجماعة المسلمة ويركز على مصدر الخطر ، ومكمن الدسيسة ، ويعبئ مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم ، ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله ، ينتظرون أمره ، ويعقلون تصرفهم بإذنه ، وإلى أن يحين هذا الأمر يأمرهم بالعفو والسماحة ، لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة ، ويدعها طيبة فى انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة .

ويفند القرآن دعاوى أهل الكتاب عامة بقولهم : إنهم المهتدون وحدهم ، وإن الجنة وقف عليهم لا يدخلها سواهم ، على حين يتهم كل فريق منهم الآخر بأنه ليس على شىء ، وقولهم هذا بلا دليل ، ولا يعدو أن يكون مجرد ادعاء عريض ، والنص يواجه مقولات هؤلاء وهؤلاء ، وهذه حكاية قوليهم مزدوجة ، وإلا فقد كانت اليهود تقول : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ـ أى من يهود ـ وكانت النصارى تقول : لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى، وهذه المقولة كتلك ، لا تستند إلى دليل ، ومن ثم يلقن الله رسوله ﷺ أن يطالبهم بالدليل : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وهنا يُقرر قاعدة من قواعد التصور الإسلامى فى ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة أو طائفة ولا لفرد ، وإنما هو الإسلام والإحسان،لا الاسم والعنوان :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ومن قبل قرر هذه القاعدة فى العقاب رداً على قولهم : ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ فقال: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الأساس : ﴿ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور ، وأمّنهم مما يخافونه من المحذور ، فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولاهم يحزنون على مامضى مما يتركونه ، قال سعيد بن جبير: ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى: فى الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يعنى: لا يحزنون للموت، وهكذا رد الله المقولة الأولى لليهود والنصارى ، فالله ذو العدل الكامل والكمال المطلق ، يدخل جنته بالإسلام له والإخلاص له والعمل بشرعه ، وليس دخول الجنة بالأمانى والأمنيات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب التسليم والرضا بأحكامه ، وعدم الاعتراض عليه .

٢ ـ ذم التنطع فى الدين ، وطرح الأسئلة المحرجة والتحذير من ذلك .

٣ ـ فى الظرف الذى لم يكن مواتياً للجهاد على المسلمين ومحال بينهم وبينه ، على المسلمين أن يشتغلوا فيه بالإعداد للجهاد ، وذلك بتهذيب الأخلاق وتزكية النفوس بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات .

٤ ـ تقوية الشعور بمراقبة الله تعالى ليحسن العبد نيته وعمله .

٥ ـ الجزاء من جنس العمل ، ولا محاباة لفرد أو جماعة أو أمة ، وإنما الإحسان والإسلام لا الاسم والعنوان .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

معانى الكلمات :

ليس على شىء : أى من الدين الحق .

يتلون الكتاب : أى التوراة والإنجيل .

الذين من قبلهم : هذا اللفظ صادق على مشركى العرب ، وعلى غيرهم من أمم جاهلية سبقت . **سعى فى خرابها** : عمل فى هدمها وتخريبها حقيقة أو بمنع الصلاة، وصرف الناس عن التعبد فيها .

خزىٌ : ذل وصغار ، وقتل وأسر .

فثم وجْهُ الله : جهته التى رضيها وأمركم بها . **سبحانه** : تنزه وتقدس عن كل نقص ومنه أن يكون له ولد . **قانتون** : خاضعون مطيعون تجرى عليهم أقداره ، وتنفذ فيهم أحكامه . **بديع السموات** : مبدعها أى موجدها على غير مثال سابق . **قضى أمراً** : أراد شيئاً ،أو أحْكمه أو حَتّمه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نؤمن أن الإسلام الصحيح هو سبيل النجاة من النار والفوز بالجنة .

٢ ـ أن نعلم أهمية المساجد فى الإسلام .

٣ ـ أن نؤمن أن الله واحد ، لا والد له ولا ولد ، وليس كمثله شىء .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى هذه الآيات يوضح أنّ كل فئة من اليهود والنصارى تدّعى أنها على الحق ، وأن غيرها ليست على شىء ، والذين لا يعلمون هم الأميون العرب الذين لم يكن لهم كتاب ، وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من التقارب والاتهام ، ومن التمسك بخرافات وأساطير لا تختلف كثيراً عن خرافات العرب وأساطيرهم فى الشرك ، فكانوا يزهدون فى دين اليهود والنصارى ، ويقولون إنهم ليسوا على شىء !

والقرآن يسجل على الجميع ما يقوله بعضهم فى بعض ، عقب الرد عليهم فى دعواهم بملكية الجنة دون سواهم من الأمم ، ثم يرد أمر الخلاف بينهم إلى الله : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

ولقد قصّ الله علينا هذه المقولة لليهود والنصارى ليعمق مفهوم عدم المتابعة ، وتحسين الظن فى الطوائف الأخرى ، ومع أن كلا منها على باطل فهو لا يرى أن غيره على شىء ، وكذلك عدم الطمع بإيمان هؤلاء ما داموا على هذه السجية والطوية السيئة ، ورد الأمر إلى الله فى الحكم بينهم

يشى أنه لا أمل فى تزحزحهم عن مواقفهم ، وكانت هذه الآيات خاتمة الحديث عن بنى إسرائيل؛ لنحدد بذلك مواقفنا منهم ، ولنتبصر دقائق تكوينهم النفسى ، واتجاهاتهم الخطيرة فى معاملة الآخر .

وينتقل بنا السياق إلى ترذيل محاولتهم تشكيك المسلمين فى صحة الأوامر والتكاليف النبوية ، لا سيما تحويل القبلة ، ويَعدُها سعيًا فى منع ذكر الله فى مساجده ، والعمل على خرابها .

ويقول صاحب الأساس : تأتى هذه الآيات ـ ومن أظلم ممن منع مساجد الله .... ـ بعد الآية التى تعرض دعاوى أهل الباطل واتهاماتهم لبعضهم ، وكأنها تعطينا ميزاناً نتعرف به على كذبهم جميعاً . فأظلم الظالمين هو الذى يعطل المساجد ، فلا يُذكر فيها اسم الله ، ويسعى فى خرابها ، وهذه المجموعات الثلاث تخرب مساجد الله ولا تتوجه له بخالص العبادة فإذن دعاواها باطلة .

واختلف المفسرون فى قوله تعالى : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ ، ونورد ما قاله ابن كثير معرضين عن هذا الاختلاف حيث قال : هذا خبر معناه أى لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية ، وهذا يُفهم منه أن الله عز وجل أعطى الوصاية لحملة منهجه على هذه البشرية ، وكلفهم بالريادة ، وأن ينشروا منهجه وإعلاء شريعته بحيث يخاف غيرهم من سلطان الله بخوفهم منهم إذا أراد أن يدخل مساجد الله لا يدخلها إلا وهو خاضع خائف ، فكيف يصح أن يكون له سلطان عليها .

ويقول صاحب الظلال : ثم يرد الله على تضليل اليهود فى ادعائهم أن صلاة المسلمين إذن إلى بيت المقدس كانت باطلة ، وضائعة ولا حساب لها عند الله ! وتقرر الآيات أن كل اتجاه قبلة ، فثم وجه الله حيثما توجه عابد ، وإنما تخصيص قبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة ، لا أن وجه الله ـ سبحانه ـ فى جهة دون جهة . الله لا يضيق على عباده ، ولا ينقصهم ثوابهم ، وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاهاتهم ، وفى الأمر سعة . والنية لله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

ومن ثم يستطرد السياق لاستعراض ضلال تصورهم لحقيقة الألوهية ، وانحرافهم عن التوحيد الذى هو قاعدة دين الله ، وأساس التصور الصحيح فى كل رسالة ، ويقرن تصورهم المنحرف إلى تصورات الجاهلية عن ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته . ويقرر التشابه بين قلوب المشركين من العرب وقلوب المشركين من أهل الكتاب ، ويصحح للجميع انحرافهم إلى الشرك ، ويوضح لهم قاعدة التصور الإيمانى الصحيح .

إن الله سبحانه تعالى وتقدَّس وتنَزّه عما يقول المشركون واليهود والنصارى علوا كبيراً ، فمن عرف جلاله وعظمته نزهه عن ذلك ، ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء ، والجميع عبيد له وملك له ، فكيف يكون له ولد منهم ، وإنما يكون من شيئين متناسبين ، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك فى

عظمته وكبريائه ، ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد وهو العظيم الذى لا نظير له ولا شبيه له، وجميع الأشياء له مخلوقة مربوبة ، فالجميع مقرون قانتون له بالعبودية فلا يشذ أحدٌ عن ذلك، فمن كان هذا شأنه لا يكون أحد إلا عبدًا له سبحانه ، وهو الذى ابتدع السموات والأرض على غير مثال سبق ، فهو أجل من أن يكون له ولد .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » .

ويمضى السياق ليعرض نوعًا آخر من المطالب المتعنتة بأن يكلمهم الله ، كما يكلم الملائكة ، أو يكلمهم بنبوة النبى ﷺ ، أو يأتيهم بمعجزة تشهد على نبوته ﷺ ، وما قالوا ذلك إلا جحوداً واستهانة ؛ لأن يكون ما آتى الله عز وجل رسوله ﷺ من الآيات كافياً للإيمان ، ولكن ملة الكفر واحدة وعقلية الكافرين فى كل زمان جاحدة ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ فى العمى والجحود ، ويخاطب الله رسوله ﷺ ، بأنه مرسل بالحق بشيراً للمؤمنين بالثواب ، ونذيراً للكافرين بالعقاب ، ولن يُسئل ﷺ عن الكافرين ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغهم وبلغ جهده فى دعوتهم ، وهذه الآيات تجىء بعد مقولات الكافرين للإشارة إلى أن هذا الكفر مآله الجحيم ، وأن على الرسول أن يبشر ، وينذر ولا عليه من هؤلاء .

ما ترشد نا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إبطال تأثير النسب فى السعادة والشقاء ، وتقرير أن السعادة بدخول الجنة مردها إلى تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح ، وأن الشقاوة بدخول النار مردها إلى الشرك ، وارتكاب الذنوب ، فلا نسبة إلى يهودية أو نصرانية أو غيرهما تُغنى عن صاحبها .

٢ ـ الإسلام الصحيح القائم على أسسه الثلاثة الإيمان والإسلام والإحسان ،هو سبيل النجاة من النار ، والفوز بالجنة .

٣ ـ عظم جريمة من يتعرض للمساجد بأىّ أذىً أو إفساد .

٤ ـ صحة صلاة النافلة على المركوب فى السفر إلى القبلة وإلى غيرها .

٥ ـ وجوب استقبال القبلة إلا عند العجز ، فيسقط هذا الواجب .

٦ ـ العلم بإحاطة الله تعالى بالعوالم كلها قدرة وعلما ، فلا يخفى عليه من أمر العوالم شىء ، ولا يعجزه شىء .

٧ ـ لا ينتفع بالآيات إلا أهلُ اليقين لصحةِ عقولهم ، وسلامة قلوبهم .

٨ ـ على المؤمن أن يدعو إلى الله تعالى ، وليس عليه الهدى ، إذ الهداية بيد الله ، وأما الدعوة فهى واجبة على الداعى ، وهو مكلف بها .

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ
هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ
مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا
لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا
شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ
فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا
يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ
أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

معانى الكلمات :

ملتهم : دينهم الذى هم عليه من يهودية ونصرانية . **العالمين** : البشر الذين كانوا فى زمانهم . **لا تُجزى نَفسٌ** : لا تقضى ولا تُؤدىً نفس . **العدل** : الفدية والفداء . **شفاعة** :وساطة أحد. **ابتلى**: اختبر وامتحن. **بكلمات** : بأوامر ونواه . **فأتمهن** : أدّاهُنّ لله تعالى على الكمال . **مثابة للناس** : مرجعاً أو ملجأً أو مجمعاً أو موضع ثوابٍ لهم .

عهدنا : وصينا وأمرنا . **تطهر البيت** : تنزيه من الأقذار الحسية كالدماء وغيرها ومعنوية كالشرك والبدع والمفاسد .

أضطره : ألجئه مكرها إلى العذاب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن العقيدة هى حقيقة المعركة التى يشنها اليهود والنصارى ضد المسلمين .

٢ ـ أن نؤمن بأن هدى الله هو الهدى وما عداه ليس بهدى .

٣ ـ أن نتعرف على مكانة إبراهيم عليه السلام وتشريف الله له .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات بأن اليهود والنصارى سيظلون يحاربون الإسلام ، ويكيدون له ، ولا يسالمونه ولا يرضون عنه إلا أن يحيد أهله عنه ، وإلا أن يتركوا هذا الحق ، وبعد أن يتخلوا عن هذا اليقين إلى ما هم فيه من ضلال وشرك وسوء تصور ، فليس الذى ينقصهم هو البرهان أو الاقتناع بأن النبى ومن معه على الحق ، ولو قدم إليهم ما قدم ، ولو تودد إليهم ما تودد لن يرضيهم هذا كله . إلا أن يتبع المسلمون ملتهم ويتركوا ما معهم من الحق .

يقول صاحب الظلال : إنها العقدة الدائمة التى نرى مصداقها فى كل زمان ومكان ، إنها هى العقيدة ، هذه هى حقيقة المعركة التى يشنها اليهود والنصارى فى كل أرض وفى كل وقت ضد الجماعة المسلمة ، إنها معركة العقيدة هى المشبوبة بين المعسكر الإسلامى وبين هذين المعسكرين

اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما ، وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها ، ولكنها تلتقى دائماً فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين !

إنها معركة العقيدة . إنها ليست معركة الأرض ، ولا الغلة ، ولا المراكز العسكرية . ولا هذه الرايات المزيفة كلها ؛ إنهم يزيفونها علينا لغرض فى نفوسهم دفين . ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها ، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا ، ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه ﷺ ولأمته .

وفى هذه الآية من الوعيد الشديد الذى ترجف له القلوب وتنصدع منه الأفئدة ، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه ، والقائمين ببيان شرائعه ترك الرهان لتاركى العمل بالكتاب والسنة ، المؤثرين لمحض الرأى عليهما .

ويرد الله تعالى عليهم ويفند دعواهم الإيمان به ، بأن من أوتى الكتاب فتلاه حق تلاوته ، فذاك المؤمن به ، ومن تلاوته حق تلاوته الإيمان بأنه حق من ربهم ، وصبْرهم ودرؤهم بالحسنة السيئة ، وإنفاقهم وسجودهم له تعالى وعن ابن مسعود : « والذى نفسى بيده ! إن حق تلاوته أن يحلّ حلاله ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزل الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله » .

ويهتف الله سبحانه وتعالى ببنى إسرائيل بعد هذه المجابهة والجدل الطويل ، وبعد استعراض تاريخهم مع ربهم ومع أنبيائهم ، أن يتذكروا نعمة الله عليهم ، وتفضيله إياهم على جميع البشر فى عالمهم ، ويتقوا يوم القيامة يوم لا تغنى نفس عن نفس أن تشفع لها أو تفديها من عذاب الله ، ويأمر الله نبيه أن يذكر لهؤلاء المشركين،وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها، واذكرْ لهؤلاء وتذكرْ ابتلاء الله إبراهيم أى : اختباره بما كلفه به من الأوامر والنواهى ، فأتمّهُن : أى : قام بهن كلهن ، فاستحق بذلك منصب الإمامة جزاءً على ما فعل ، فكما قام بالأوامر وترك الزواجر ، جعله الله قدوة إماماً يُقتدى به فى الخير ، فرغب إلى الله أن تكون الإمامة فى بعض ذريته كذلك فأجيب لذلك ، لكنه أخبر بأن سيكون من ذريته ظالمون ، وأنه لا ينالهم عهد الله ، ولا يكونون أئمة ، فلا يقتدى بهم .

وتكريماً وتشريفاً لإبراهيم ودعوته أراد أن يكون هذا البيت ملتقى للشعوب ، كلها وللأجناس كلها ، يجتمعون فيه ، فيتعارفون وينتفعون ، قائمين بأمر الله ، عابدين له ، موِّحدين معظمين شعائره ، وأما كون البيت أمناً فمن حيث : إن من دخله كان آمناً ، وقد كانوا فى الجاهلية يتُخطَّف الناس من حولهم وهم آمنون ، وأمر الله بالعهد لإبراهيم وإسماعيل أن يُطهرا البيت من الشرك والريب ، وأن يبنياه خالصاً لله ، ومعقلاً للطائفين والعاكفين والراكعين الساجدين .

ويدعو سيدنا إبراهيم مولاه عز وجل بأن يجعل هذا البلد آمناً ، ويرزق المؤمنين بالله واليوم الآخر من أهله الثمرات ، فأخبره عز وجل أنه يرزق الكافرين ، كما يرزق المؤمنين ، وقاس

إبراهيم عليه السلام الرزق على الإمامة ، فإذا أعلمه الله بخصوصية الإمامة فى المؤمنين ، فإنه قطع كل عاطفة تربطه بغيرهم فلم يدعُ الله بالرزق إلا لهم ، فأخبره الله أنه يرزق الكافرين كما يرزق المؤمنين ، ولذلك لم يكن الرزق علامة على القرب من الله ؛ لأن الفاجر يُرزق ويضطره الله إلى عذاب النار وبئس المصير .

ويقول صاحب الظلال : إن التصور الإسلامى يقطع الوشائج والصلات التى لا تقوم على أساس العقيدة والعمل، ولا يعترف بقربى ولا رحم إذا انبتّت وشيجة العقيدة والعمل ، ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل ، وهو يفصل بين جيل من الأمة الواحدة ، وجيل إذا خالف أحد الجيلين الآخر فى عقيدته ، بل يفصل بين الوالد والولد ، والزوج والزوج إذا انقطع بينهما حبل العقيدة ، فعرب الشرك شىء وعرب الإسلام شىء آخر ، ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة ، والذين آمنوا من أهل الكتاب شىء ، والذين انحرفوا عن دين إبراهيم وموسى وعيسى شىء آخر ، ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة ، إن الأسرة ليست آباء وأبناء وأحفاداً ، إنما هى هؤلاء حين تجمعهم عقيدة واحدة . وإن الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس معين ، إنما هى مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم ، وهذا هو التصور الإيمانى ، الذى ينبثق من خلال البيان الربانى ، فى كتاب الله الكريم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا ينال المسلم رضا اليهود والنصارى إلا بالكفر بالإسلام واتباع دينهم الباطل .

٢ ـ لا دين حق إلا الإسلام ، فلا ينبغى أن يلتفت إلى غيره بالمرة .

٣ ـ من يوالى اليهود والنصارى باتباعهم على باطلهم يفقد ولاية الله تعالى ، ويحرم نصرته .

٤ ـ طريق الهداية فى تلاوة كتاب الله حق تلاوته بأن يجوده قراءة ، ويتدبره هداية ، ويؤمن بحكمه .

٥ ـ وجوب ذكر نعم الله على العبد ؛ ليجد بذلك دافعاً نفسياً لشكرها ، إذ غاية الذكر هى الشكر .

٦ـ وجوب اتقاء عذاب يوم القيامة بالإيمان والعمل الصالح بعد التخلى عن الشرك والعصيان بإخراجه من النار .

٧ ـ استحالة الفداء يوم القيامة، وتعذر وجود شافع لمن مات على الشرك بإخراجه من النار .

٨ ـ منة الله تعالى بجعل البيت مثابة للناس وأمناً توجب حمد الله على كل مؤمن .

٩ ـ الكافر لا يحرم الرزق لكفره ، بل له الحق فى الحياة إلا أن يحارب فيقتل أو يسلم .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

معانى الكلمات :

إذ : ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف ، تقديره : اذكر وقت كذا .

مسلمين : منقادين لك خاضعين لأمرك ونهيك راضين بحكمك . **أرنا مناسكنا** : علمنا كيف نحج بيتك،تنسكاً وتعبداً لك. **تب علينا** : وفقنا للتوبة إذا زللنا واقبلها منا . **يزكيهم** : يطهر أرواحهم ويكمل عقولهم ، ويهذب أخلاقهم بما يعلمهم من الكتاب والحكمة . **سفه نفسه** : جهل قدرها فأذلها وأهانها بترك سبيل عزها وهو الإسلام . **اصطفيناه** : اخترناه لرسالتنا والبلاغ عنا . **أمة خلت** : جماعة أمرها واحد ، **خلت** : مضت إلى الدار الآخرة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن ميزان الثواب عند الله هو الإيمان والأعمال الصالحة وليس الانتساب .

٢ ـ أن نعرف الأدب والإيمان والشعور الذى يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء فى التوجه إلى الله .

٣ ـ أن نؤمن أن الإسلام وصية جميع الأنبياء والمرسلين للبشرية كلها .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق ذاكراً مآثر إبراهيم ﵇ التى تشى بوضوح بكمال الإيمان والطاعة ، وعظيم الرغبة فى الخير والرحمة ، وتضمنت الآيات دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لله تعالى فى حالة رفعهما القواعد من البيت بأن يتقبل منهما عملهما ، متوسلين إليه بأسمائه وصفاته ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ويسألانه عز وجل أن يجعلهما مسلمين له ، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له مؤمنة به موحدة له ، ومنقادة لأمره ونهيه ، وأن يعلمهما مناسك حج بيته العتيق ؛ ليحجاه على علم ، ويتوب عليهما ، كما سألاه عز وجل أن يبعث فى ذريتهما رسولاً منهم يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم بالإيمان وصالح الأعمال ، وجميل الخلال وطيب الخصال .

وقد استجاب الله دعاءهما فبعث من ذريتهما من أولاد إسماعيل إمام المسلمين ، وقائد الغر المحجلين محمدًا ﷺ ، وقد قرر هذا ﷺ بقوله : وأنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى عليهما جميعاً السلام .

يقول صاحب الظلال : إنه طابع الأمة المسلمة ، التضامن ، تضامن الأجيال فى العقيدة : «ومن ذريتنا أمة مسلمة لك» ، وهى دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن ، إن أمر العقيدة هو شغله الشاغل ، وهو همه الأول ، وشعور إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بقيمة النعمة التى أسبغها الله عليهما ، نعمة الإيمان تدفعهما إلى الحرص عليها فى عقبهما ، وإلى دعاء الله ربهما ألا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذى لا يكافئه إنعام ، لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ، ولم ينسيا أن يداعوه ؛ ليرزقهم من الإيمان ، وأن يريهم جميعاً مناسكهم ، ويبين لهم عباداتهم ، وأن يتوب عليهم بها أنه هو التواب الرحيم أثم ألا يتركهم بلا هداية فى أجيالهم البعيدة ، ودعوا الله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يبعث فى أهل بيته رسولاً منهم ، فاستجاب الله لهما ، وأرسل من أهل البيت محمد بن عبد الله ، وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله الوارثة لدين الله .

ولما بين الله سبحانه وتعالى مواقف إبراهيم عليه السلام السليمة الصحيحة عقيدة وإخلاصاً وعملاً صالحاً ، قرر أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا عبد جهل قدر نفسه، ولم يعرف لها حقها فى الطهارة والصفاء والإكمال والإسعاد ؛ لذا ذكر إنعامه تعالى عليه ، وما تفضل به عليه من الاصطفاء فى الدنيا والإسعاد فى الخير فى جملة الصالحين ، وهذا الاصطفاء تم عند استجابته لأمر ربه بالإسلام حيث أسلم دون تردد ، وبعد عرض هذه الحقائق الدامغة يقيم الحجة على المشركين وأهل الكتاب معاً إذ ملة الإسلام القائمة على التوحيد وصى بها إبراهيم بنيه ، كما وصى بها يعقوب بنيه : لا تموتن إلا على الإسلام ، وبالتالى ينفى نسبة اليهود والنصارى إلى إبراهيم ، فأين الوثنية العربية واليهودية والنصرانية من ملة إبراهيم ، ألا فليثب العقلاء إلى رشدهم ، وينهاهم الله عز وجل عن هذا الجدل الفارغ قائلاً لهم : « تلك أمة قد خلت ، يعنى إبراهيم وأولاده ـ لها ما كسبت من الإيمان والعمل الصالح ، ولكم ما اكتسبتم من الكفر والمعاصى ، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمال غيركم وإنما تسألون عن أعمالكم وتجزون بها .

ويقول صاحب الأساس : ولقد احتج اليهود من قبل فى رفضهم الإيمان بالقرآن بأنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ، وتستكمل الحجة عليهم ، بأن وصية إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، الإسلام والتوحيد ، فعليهم أن يسلموا ، ولا ينفعهم انتسابهم للصالحين إن كانوا كافرين .

وقال ابن كثير فى تفسير وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام : « أى : أحسنوا فى حال الحياة ، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه ، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ، ويبعث على ما مات عليه ، ومن نوى صالحاً ثبت عليه ، وهذا لا يعارض ما جاء فى الحديث الصحيح : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع ـ أو ذراع ـ فيسبق عليه

الكتاب ؛ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع ـ أو ذراع ـ فيسبق عليه الكتاب ؛ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ؛ لأنه قد جاء فى بعض روايات هذا الحديث : « ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، ويعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس » ، وقد قال الله تعالى (فى سورة الليل) : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝ ﴾ انتهى كلام ابن كثير .

ويقول صاحب الظلال : إن المشهد بين يعقوب وبنيه فى لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، عميق التأثير، ميت يحتضر ـ فما هى القضية التى تشغل باله فى ساعة الاحتضار ؟ ما هو الشاغل الذى يعنى خاطره وهو فى سكرات الموت ؟ ما هو الأمر الجلل الذى يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ ما هى التركة التى يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم ، فيسلمها لهم فى محضر ، يسجل فيه كل التفصيلات ؟ إنها العقيدة ، هى التركة ، وهى الذخر ، وهى القضية الكبرى .. وهى الأمر الجلل ، الذى لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ .

ويطمئنون الوالد المحتضر ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ المؤمن البصير فى دينه يفعل الخير وهو خائف ألا يُقبل منه ، فيسأل الله تعالى ، ويتوسل إليه بأسمائه وصفاته أن يتقبله منه .

٢ ـ مشروعية سؤال الله للنفس وللذرية الثبات على الإسلام حتى الموت عليه .

٣ ـ وجوب تعلم مناسك الحج والعمرة على من أراد أن يحج أو يعتمر .

٤ ـ وجوب طلب تزكية النفس بالإيمان والعمل الصالح ، وتهذيب الأخلاق بالعلم والحكمة .

٥ ـ مشروعية التوسل إلى الله تعالى فى قبول الدعاء وذلك بأسمائه وصفاته لا بحق فلان كما هو شأن المبتدعة .

٦ ـ لا يرغب عن الإسلام بتركه أو طلب غيره من الأديان إلا سفيهٌ لا يعرف قدر نفسه .

٧ ـ إن الاستسلام لله رب العالمين هو ملة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فمهما أمر به الله، أو نهى عنه ، أو اختاره ، فعلى المسلم أن يستسلم له .

الجزء الأول — سورة البقرة

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

٢١

معانى الكلمات :

حنيفاً : مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق .

الأسباط : أولاد يعقوب أو أحفاده .

فى شقاق : خلاف وفراق وعداء لك وحرب عليك . **صبغة الله** : دينه الذى طهرنا به ظاهراً أو باطناً ، فظهرت آثاره علينا كما يظهر أثرالصبغ على الثوب المصبوغ . **أتحاجوننا** : أتجادلوننا فى دينه والإيمان به وبرسوله ، والاستفهام للإنكار

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ما قاله بعض اليهود والنصارى للرسول وللمسلمين عندما دعوهم إلى اليهودية والنصرانية .

٢ ـ أن نعلم أن دين الله واحد ودعوة الأنبياء واحدة .

٣ ـ أن اليهودية والنصرانية بدعة ابتدعها اليهود والنصارى .

المحتوى التربوى :

تُلقى الآيات بيانها التاريخى الحاسم ، لقصة العهد مع إبراهيم ، وحقيقة الوراثة وحقيقة الدين ، ويناقش ادعاءات أهل الكتاب المعاصرين ، ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم ، فيبدو هذا كله ضعيفاً شاحباً ، كما يبدو فيه العنت والادعاء بلا دليل ، ويرد على قول اليهود : كونوا يهوداً تهتدوا ؛ وكذلك قول النصارى : كونوا نصارى تهتدوا ، فجمع الله قوليهم ليوجه نبيه ﷺ أن يواجههم جميعاً بكلمة واحدة :

﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، قل : بل نرجع جميعاً ، نحن وأنتم ، إلى ملة إبراهيم ، أبينا وأبيكم ، وأصل ملة الإسلام ، وصاحب العهد مع ربه عليه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، بينما أنتم تشركون ، ثم يدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين ، من لدن إبراهيم أبى الأنبياء إلى عيسى ابن مريم ، إلى الإسلام الأخير ودعوة أهل الكتاب إلى هذا الدين الواحد .

ويقول صاحب الظلال : « والوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً ، وبين الرسل جميعاً ، وهى قاعدة التصور الإسلامى وهى التى تجعل من الأمة المسلمة ، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله فى الأرض ، الموصولة بهذا الأصل العريق ، السائرة فى الدرب على هدى ونور ، والتى تجعل من النظام الإسلامى العالمى الذى يملك الجميع الحياة فى ظله دون تعصب ولا اضطهاد ، والتى تجعل من المجتمع الإسلامى مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً فى مودة وسلام .

ومن ثم يقرر السياق الحقيقة الكبرى ، ويثبت عليها المؤمنين بهذه العقيدة ، حقيقة أن هذه العقيدة هى الهدى ، من اتبعها فقد اهتدى ، ومن أعرض عنها فلن يستقر على أصل ثابت ، ومن ثم يظل فى شقاق مع الشيع المختلفة التى لا تلتقى على قرار .

ويسكب القرآن فى قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه ، بشهادة الله عز وجل له بالهدى ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ فالمسلم بالله هو وحده المهتدى ومن لا يؤمن بما يؤمن ، فهو المشاق للحق ، المعادى للهدى ، ولا على المؤمن من شقاق من لا يهتدى ولا يؤمن ولا عليه من كيده ومكره ، ولا عليه من جداله ومعارضته ، فالله سيتولاهم عنه ، وهو كافيه وحسبه .

فما على المؤمن إلا أن يستقيم على طريقته ، وأن يعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه ، وبالصبغة التى وضعها الله على أوليائه ليُعرفوا بها فى الأرض ، إنها صبغة الله التى شاء لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر ؛ لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق ، لا تعصب فيها ولا حقد ، ولا أجناس فيها ولا ألوان .

ويرد القرآن على جدلهم فى وحدانية الله وربوبيته على لسان المؤمنين ، فيقولون للمشركين واليهود والنصارى : لامجال للجدال فى وحدانية الله ، فهو ربنا وربكم ، ونحن محاسبون بأعمالنا ، وعليكم وزر أعمالكم . ونحن متجردون له مخلصون لا نشرك به شيئاً ولا نرجو معه أحداً .. وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم ، وهو غير قابل للجدل والمحاجة واللجاج .

ويعرض السياق مجالًا آخر من مجالات الجدل . غير قابل للجاجة والمحال ، وهى ادعاؤهم أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟ وهم كانوا أسبق من موسى ، وأسبق من اليهودية والنصرانية ، والله يشهد بحقيقة دينهم ـ وهى الإسلام ـ والله سبحانه وتعالى أعلم منهم بدين أنبيائه . والله مطلع على ما يخفون من الشهادة التى ائتمنهم عليها.

يقول الإمام الرازى : « هذا هو الكلام الجامع لكل وعيد ، ومن تصور أن الله تعالى عالم بسره وإعلانه ، ولا تخفى عليه خافية ، وأنه من وراء ذلك مجازاته ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، لا

تمضى عليه طرفة عين إلا وهو خائن حذر ، ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة السلطان يعد عليه الأنفاس لكان دائم الحذر والوجل ، مع أن ذلك الرقيب لا يعرف إلا الظاهر ، فكيف بالرب الرقيب الذى يعلم السر وأخفى إذا هددو أوعد .

ويختتم هذا البيان الحاسم ، بعد محض ادعائهم بما اختتم به الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين .

يقول صاحب زهرة التفاسير : « إن الناس تعودوا اتباع الأسلاف ـ فالله ـ تعالى ـ يكرر أن كل امرئ بما كسب رهين ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولهم ما كسبوا وعليكم ما اكتسبتم ، وأن خير الماضين ليس خيرا لكم ، وأن شرهم ليس وزره عليكم » .

ويقول القاسمى : « لما ذكر تعالى حسن طريقة الأنبياء المتقدمين ، ولم يدع لهم متسكا من جهتهم ، أتبع ذلك الإشارة إلى أن الدين دائر مع أمره فى كل زمان ، وأنه لا ينفعهم إلا ما يستجدّونه بحكم ما تجدد من الـمُنَزّل المعجز لكافة أهل الأرض ، أحمرهم وأسوهم ، أى فعليكم بترك الكلام فى تلك الأمة ، فلها ما كسبت ، وانظروا فيما دعاكم إليه خاتم النبيين محمد ﷺ فإن ذلك أنفع لكم وأعود عليكم ، ولا تسألون إلا عن عملكم » .

فيقول عز وجل : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا:

١ ـ لا هداية إلا فى الإسلام ، ولا سعادة ولا كمال إلا بالإسلام .

٢ ـ الكفر برسول الله كفر بكل الرسل،فقد كفر اليهود بعيسى، وكفر النصارى بمحمد ﷺ، فأصبحوا بذلك كافرين ، وآمن المسلمون بكل الرسل فأصبحوا بذلك مؤمنين.

٣ ـ لا يزال اليهود والنصارى فى عداء للإسلام وحرباً على المسلمين ، والمسلمون يكفيهم الله تعالى شرهم إذا هم استقاموا على الإسلام عقيدة ، وعبادة ، وخلقاً ، وأدباً ، وحكماً .

٤ ـ كل امرئ يجزى بعمله ، وغير مسؤول عن عمل غيره ، إلا إذا كان سبباً فيه .

٥ ـ حرمة كتمان الشهادة لاسيما شهادة من الله .

٦ ـ عدم الاتكال على حَسَب الآباء والأجداد . ووجوب الإقبال على النفس لتزكيتها وتطهيرها بالإيمان الصحيح والعمل الصالح .

الجزء الثانى — سورة البقرة

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا
عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا
جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ
آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ
مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)

٢٢

معانى الكلمات :

السفهاء : جمع سفيه وهو من بت ضعف عقلى : اليهود ومن شاكلهم فى إنكار تحويل القبلة . **ما ولآهم** : ما صرفهم عن استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة .

القبلة : الجهة التى يستقبلها المرء وتكون قبالته فى صلاته .

أمة وسطا : خياراً ، أو متوسِّطِينَ مُعتَدلين.

ينقلب على عقبيه : يرجع إلى الكفر بعد الإيمان . **لكبيرة**: لشاقة ثقيلة على النفوس.

ليضيع إيمانكم: صلاتكم إلى بيت المقدس.

رؤوف رحيم: يدفع الضرر عنكم ويفيض الإحسان عليكم .

تقلب وجهك: تردده بالنظر إليها مرة بعد أخرى انتظاراً لنزول الوحى .

فلنولينك قبلة ترضاها : فلنحولنك إلى القبلة التى تحبها وهى الكعبة .

فول وجهك شطر المسجد : حوّل وجهك جهة المسجد الحرام بمكة . **الحرام** : بمعنى المحرم لا يُسفك فيه دم ، ولا يُقتل فيه أحد .

الشطر : هنا الجهة واستقبال الجهة يحصل به استقبال بعض البيت فى المسجد الحرام .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الأمة المسلمة لها شخصيتها المستقلة .

٢ ـ أن نعلم أنه يراد بهذه الأمة أن تكون أمة وسطاً أهلها شهداء على الناس .

٣ ـ أن نتعرف على الحكمة وراء تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى الكعبة المشرفة .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن تحويل القبلة ، والملابسات التى أحاطت به ، والدسائس التى حاولها اليهود فى الصف المسلم بمناسبته ، حيث إن المسلمين فى مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فرضت الصلاة ـ وليس فى هذا نص قرآنى ـ وأنهم بعد الهجرة وجهوا إلى بيت المقدس بأمر إلهى

للرسول ﷺ يرجح أنه أمر غير قرآنى ، ثم جاء الأمر القرآنى الأخير : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ . فنسخه .

ويقول صاحب الظلال : فإذا اتجه المسلمون فترة من الزمان إلى المسجد الأقصى ، الذى يتجه إليه اليهود والنصارى ، فقد كان هذا التوجه لحكمة خاصة ، والآن وقد شاء الله أن يعهد بالوراثة إلى الأمة المسلمة،وقد أبى أهل الكتاب أن يفيئوا إلى دين أبيهم إبراهيم ـ وهو الإسلام ـ فيشاركوا فى هذه الوراثة حسيها وشعوريها ، وراثة الدين ، ووراثة القبلة ، ووراثة الفضل من الله جميعاً .

إن الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة : الاختصاص والتميز فى التصور والاعتقاد ؛ والاختصاص والتميز فى القبلة والعبادة ، وهذه كتلك لابد من التميز فيها والاختصاص ، وقد يكون الأمر واضحاً فيما يختص بالتصور والاعتقاد ؛ ولكنه قد لا يكون بهذه الدرجة من الوضوح فيما يختص بالقبلة وشعائر العبادة .

والجماعة المسلمة التى تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه ، إن القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة فى الصلاة ، فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز للتميز والاختصاص ، تميز التصور .. الشخصية .. الهدف .. الاهتمامات .. الكيان .

ومن هنا كذلك كان النهى عن التشبه بمن دون المسلمين فى خصائصهم ، التى هى تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة ، كالنهى عن طريقتهم فى الشعور والسلوك سواء ، وليس هذا تعصباً ولا تمسكاً بمجرد شكليات .

ثم يتحدث السياق عن هذه الأمة وحقيقتها الكبرى فى هذا الكون ، ووظيفتها الضخمة فى هذه الأرض ، ودورها الأساسى فى حياة الناس ؛ مما يقتضى أن تكون لها قبلتها الخاصة ؛ وألا تسمع لأحد إلا لربها الذى اصطفاها لهذا الأمر العظيم وهو الشهادة على الناس ، فتقيم بينهم العدل والقسط ؛ وتضع لهم الموازين والقيم ؛ وتكون وسطاً بين الأمم فيكون منهجها الاعتدال والقصد ، والحسن والفضل ، وهى ﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ فى التصور والاعتقاد ، والتنظيم والتنسيق ، فلا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر ، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب .

﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ فى الارتباطات والعلاقات ، لا تلغى شخصية الفرد ومقوماته ، ولا تلاشى شخصيته فى شخصية الجماعة أو الدولة ، ولا تطلقه كذلك فرداً جشعاً لا هم له إلا ذاته ، وإنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدى إلى الحركة والنماء ، وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة ، والجماعة كافلة للفرد فى تناسق واتساق .

ويقول صاحب الظلال : وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذى وهبه الله لها ، إلا أنها تخلت عن منهج الله الذى اختاره لها ، واتخذت لها مناهج مختلفه ليست هى التى

اختارها الله لها ، واصطبغت بصبغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها ، والله يريد أن تصطبغ بصبغته وحدها .

وحُولت القبلة ليتربى الصف المسلم على اتباع الرسول ، ويعلم الله من ينقلب على عقبيه ، فالعقيدة الإسلامية لا تطيق لها فى القلب شريكاً ؛ ولا تقبل شعاراً غير شعارها المفرد الصريح ، إنها لا تقبل راسباً من رواسب الجاهلية فى أى صورة من الصور جل أم صغر ، والله يعلم كل ما يكون قبل أن يكون ، ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس حتى يحاسبهم عليه ، ويأخذهم به ، فهو لرحمته بهم ـ لا يحاسبهم على ما يعلمه من أمرهم،بل على ما يصدر عنهم ويقع بالفعل منهم.

ثم يطمئن المسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم ، فالله لا يعنت العباد ، ولا يشق عليهم فى تكليف يجاوز طاقتهم التى يضاعفها الإيمان ويقويها ، إنه يعرف طاقتهم المحدودة ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ؛ وإنه يهدى المؤمنين ، ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان ، حين تصدق منهم النية ، وتصح العزيمة ، وإذا كان البلاء مظهرًا لحكمته ، فاجتياز البلاء فضل رحمته : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وبعد أن استجاب الله لنبيه ﷺ وولاّه القبلة التى يرضاها ، وجعلها قبلة واحدة تتجه إليها الأمة جميعاً ، أينما كانت بكل ألوانها وألسنتها وأجناسها يقرر أن اليهود لن يقتنعوا بدليل ؛ لأن الذى ينقصهم ليس الدليل ، إنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى ، والاستعداد للتسليم بالحق الذى يعلمونه ، وفى مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الإعراض عن قبلة الإسلام ومنهجه يؤكد للنبى ﷺ حقيقة هامة وهى : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ ، وهم كذلك لن يتبع بعضهم قبلة بعض ، فهم ليسوا على وفاق ؛ لأن الأهواء تفرقهم ، ويأمر الله عز وجل نبيه بالاستقامة على الطريق المستقيم ، وعدم اتباع أهوائهم بعد ما جاءه من العلم وإلا صار من الظالمين ؛ لأن الطريق واضح ، إما العلم الذى جاء من عند الله ، وإما الهوى فى كل ما عداه . وليس لله ولأمته إلا أن يتلقوا عن الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ـ جواز النسخ فى القرآن ، فهذا نسخ بدل من الصلاة إلى بيت المقدس إلى الصلاة إلى الكعبة فى مكة المكرمة .

٢ـ الأراجيف وافتعال الأزمات وتهويل الأمور شأن الكفار إزاء المسلمين طوال الحياة فعلى المؤمنين أن يثبتوا ؛ حتى يظهر الحق ويكتشف الزيف ، وتنتهى الفتنة .

٣ ـ الابتلاء خط أصيل فى الدعوات للتمحيص ، وبيان الكاذبين من الصادقين .

٤ ـ صحة صلاة من صلى إلى غير القبلة وهو لا يعلم ذلك وله أجرها ، وليس عليه إعادتها .

٥ ـ وجوب استقبال القبلة فى الصلاة وفى أى مكان كان فعلى المصلى أن يتجه جهة مكة .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

معانى الكلمات :

يعرفونه : الضمير عائد إلى رسول الله ﷺ أى يعلمون أنه نبى الله ورسوله لما فى كتبهم من صفاته الواضحة القطعية .

الممترين:الشاكين والامتراء : الشك وعدم التصديق.

الخيرات:البر والطاعة لله ورسوله. **الحجة**: الدليل القوى الذى يظهر به صاحبه على من يخاصمه. **يزكيكم**: يطهركم من الشرك والمعاصى . **الكتاب والحكمة** : القرآن والسُّنن والفقه فى الدين . **الشكر** : إظهار النعمة بصرفها فيما من أجله وهبها الله تعالى لعباده . **الكفر** : جحد النعمة وإخفاؤها وصرفها فى غير ما يحب الله تعالى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على إصرار أهل الكتاب فى الإعراض عن الحق .

٢ ـ أن نعلم حجج أهل الكتاب وغيرهم ، وأن نقف على بطلانها .

٣ ـ أن نتعلم قيمة الصبر والصلاة على أداء تكاليف الدور العظيم المنوط بالأمة .

المحتوى التربوى :

وإن كثيرًا من طيبى القلوب ليظنون أن الذى يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لا يعرفونه ، أو لأنه لم يقدم إليهم فى صورة مقنعة ، وهذا وهم ؛ إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه ، فهم يخشونه على مصالحهم وسلطانهم ، ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذى لا يفتر ، بشتى الطرق ، وشتى الوسائل ، عن طريق مباشر ، وعن طرق أخرى غير مباشرة ، يحاربونه وجهاً لوجه، ويحاربونه من وراء ستار .

لذا يحذر الله النبى ﷺ أن يمترى فى هذا الحق أو يتأثر بأباطيل اليهود وأحابيلهم ، ومن يأتى بعدهم ممن تؤثر فيهم أباطيل اليهود وغير اليهود فى أمر دينهم .

يقول الألوسى : وليس المراد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك ، لأن النهى عن شىء يقتضى وقوعه أو ترقبه من المنهى عنه ، وذلك غير متوقع من ساحة حضرة النبى ﷺ . بل المراد إما تحقيق الأمر ، وأنه بحيث لا يشك فيه أحد كائنا من كان ، أو الأمر للأمة بتحصيل المعارف المزيلة لما نهى عنه ، فيجعل النهى مجازًا عن ذلك الأمر.

ويقول صاحب الظلال : وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير ، ونحن فى بلاهة منقطعة النظير ، نروح نستفتى المستشرقين ـ من اليهود والنصارى والشيوعيين الكفار ـ فى أمر ديننا ، ونتلقى عنهم تاريخنا ، ونأمنهم على القول فى تراثنا ، ونسمع لما يدسونه من شكوك فى دراساتهم لقرآننا وحديث نبينا ، وسيرة أوائلنا ، ونرسل إليهم بعثات من طلابنا يتعلمون عنهم علوم الإسلام ، ويتخرجون فى جامعاتهم ، ثم يعودون إلينا مدخولى العقل والضمير ، إن هذا القرآن قرآننا قرآن الأمة المسلمة ، وهو كتابها الخالد الذى يخاطبها فيه ربها بما تعمله وما تحذره ، وأهل الكتاب هم أهل الكتاب ؛ والكفار هم الكفار ، والدين هو الدين .

ونعود إلى السياق فنرى أن الله عز وجل يصرف المسلمين عن الاستماع لأهل الكتاب والانشغال بتوجيهاتهم ، ويوحى إليهم بالاستقامة على طريقهم الخاص ، ووجهتهم الخاصة، فلكل فريق وجهته ، وليستبق المسلمون إلى الخير لا يشغلهم عنه شاغل ، ومصيرهم جميعاً إلى الله القادر على جمعهم ، وعلى مجازاتهم فى نهاية المطاف ، ويؤكد الأمر بالاتجاه إلى القبلة الجديدة المختارة ، والتحذير الخفى من الميل عن هذا الحق .

ويبطل الله حجة أهل الكتاب مرة أخرى ، وحجة غيرهم ممن كانوا يريدون المسلمين يتوجهون إلى قبلة اليهود ، فيميلون إلى الاقتناع بما يذيعه اليهود من فضل دينهم على دين الإسلام ، وأصالة قبلتهم ومن ثم منهجهم ، أو من مشركى العرب الذين كانوا يجدون فى هذا التوجيه وسيلة لصد العرب الذين يقدسون مسجدهم ، وتنفيرهم من الإسلام الذى يتجه أهله شطر قبلة بنى إسرائيل !

ويأمر الله النبى ﷺ أن يولى وجهه شطر المسجد من حيث خرج ، وإلى المسلمين أن يولوا وجوههم شطره حيثما كانوا ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ ويهون من شأن اليهود والنصارى والمشركين ، ويحذر من بأسه عز وجل ، فلا سلطان للظالمين على المؤمنين ولا يملكون شيئاً من أمرهم ، فينبغى ألا يحفلوا بهم ولا يخشوهم ، فالله سبحانه وتعالى هو الذى يستحق الخشية بما يملك من أمر الدنيا والآخرة ، ويتم الله نعمته على عبادة المؤمنين بإخراجهم من ارتكاسة الجاهلية إلى نور الإيمان ، ومن التشرذم والضعف إلى الوحدة تحت راية كلها العقيدة ، وإلى الغايات الرفيعة ، والاهتمامات الكبيرة التى تتعلق بشأن البشرية كلها لا بشأن ثأر فى قبيلة ، فنعمة الله ماثلة أمامهم فى كل وقت وحين.

وبعد إتمام المنة والنعمة بإرسال الرسول ﷺ ، واصطفاؤهم بالرسالة ، وتعليم الرسول إياهم وتزكيتهم من لوثة الجاهلية ودنس الشرك ، والارتقاء والسمو بنظرتهم للأمور ، أرسل لهم رسولًا يعلمهم الحكمة التى هى ثمرة القرآن ، وهى ملكة وضع الأمور فى مواضعها الصحيحة ، ووزن الأمور بموازينها الصحيحة ، وفى آخر الدرس يتفضل عليهم تفضلا آخر ، وهو يدعوهم إلى شكره ، ويحذرهم من كفره ، يتفضل عليهم ، فيضمن لهم أن يذكرهم إذا هم ذكروه .

يقول صاحب الظلال معلقاً : « يا للتفضل الجليل الودود ! الله جل جلاله يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئا لذكرهم له فى عالمهم الصغير من أرضهم الصغيرة ، إن العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه فى هذه الأرض الصغيرة ، وهم أصغر من أرضهم الصغيرة ، والله حين يذكرهم فى هذا الكون وهوالله العلى الكبير .. أى تفضل ! وأى كرم ! وأى فيض فى السماحة والجود ! » .

ويقول فى تفسير الشكر : والشكر لله درجات ، تبدأ بالاعتراف بفضله والحياء من معصيته ، وتنتهى بالتجرد لشكره والقصد إلى هذا الشكر فى كل حركة بدن ، وفى كل لفظة لسان وفى كل خفقة قلب ، وفى كل خطرة جنان .

وبعد كل هذه التكاليف ، وضخامة العبء الملقى على كاهل الأمة الوسط ، وضخامة الجهد الذى تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع ، لا بد من الصبر فى هذا كله ، لابد من الصبر على الطاعات ، والصبر عن المعاصى ، والصبر على جهاد المشاقين لله ، والصبر على الكيد بشتى صنوفه ، والصبر على بطء النصر ، والصبر على بعد الشقة ، والصبر على انتفاش الباطل ، والصبر على قلة الناصر ، والصبر على طول الطريق الشائك ، والصبر على التواء النفوس ، وضلال القلوب ، وثقلة العناد ، ومضاضة الإعراض .

وحين يطول الأمد ، ويشق الجهد ، قد يضعف الصبر أو ينفد ، إذا لم يكن هناك زاد أو مدد ، ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر ، فهى المعين الذى لا ينضب ، والزاد الذى لا ينفد ، المعين الذى يجدد الطاقة ، والزاد الذى يزود القلوب ، فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع ، ثم يضيف إلى الصبر الرضا والبشاشة ، والطمأنينة ، والثقة واليقين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الإعراض عن جدل المعاندين ، والإقبال على الطاعات ، تنافسًا فيها وتسابقًا إليها إذ هو أنفع وأجدى من الجدل والخصومات مع من لا يُرجى رجوعه إلى الحق .

٢ ـ وجوب خشية الله ، والحذر من بأسه ، فلا سلطان على البشر إلا الله .

٣ ـ حق النعمة الشكر ، ومن طلب المزيد شكر المنعم عز وجل على ما أنعم به .

٤ ـ الاستعانة بالصبر والصلاة ضرورة دعوية وإيمانية ، وفى الحديث كان النبى ﷺ : إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

الجزء الثانى — سورة البقرة

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

ربع الحزب ٣

٢٤

معانى الكلمات :

ولنبلونكم : لنختبرنكم ونحن أعلم بأموركم . **مصيبة** : ما يصيب العبد من ضرر فى نفسه أو أهله أو ماله .

صلوات من ربهم:ثناء أو مغفرة منه تعالى.

شعائر الله: معالم دينه ، جمع شعيرة والمقصود شعائره فى الحج والعمرة .

الحج : قصد وزيارة بيت الله تعالى لأداء عبادات معينة تُسمى نسكاً.

العمرة : زيارة بيت الله تعالى للطواف به والسعى بين الصفا والمروة والتحلل بحلق شعر الرأس أو تقصيره . **الجناح** : الإثم ، وما يترتب على المخالفة بترك الواجب أو بفعل المنهى عنه . **يطوَّف** : يسعى بينهما ذاهبًا جائيًا . **يلعنهم الله** : يطرُدهُم من رحمته . **يُنظَرُون** : يؤخرون عن العذاب لحظة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على منزلة الشهداء عند الله تبارك وتعالى .

٢ ـ أن نعلم أن الابتلاء سنة من سنن الله الكونية ، يفوز فيه الصابر بأعظم نتيجة .

٣ ـ أن نعلم جزاء من كتم العلم النافع لسوء النية وخبث الطوية .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يأخذ القرآن اتجاهاً تربوياً فى تعبئة الصف المسلم تعبئة روحية لأنه مقُبل على جهاد شاق لإقرار منهج الله فى الأرض ، ويقوم تصوره لما يجرى فى أثناء هذا الجهاد من جذب ودفع ، وتضحيات وآلام ، فيقول الله عز وجل إن هناك قتلى سيخرون شهداء فى معركة الحق ، شهداء فى سبيل الله قتلى كراماً أذكياء ، ليسوا أمواتاً . إنهم أحياء فى الحس والشعور ولا يجوز أن يقال عنهم أموات باللسان ، إنهم أحياء بشهادة الله تعالى سبحانه .

ويمضى السياق فى التعبئة لمواجهة الأحداث ، وفى تقويم التصور لحقيقة الأحداث ، فيخبر المؤمنين بأنه لابد من تربية النفوس بالبلاء ، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد ، والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات .

يقول صاحب الظلال : « لابد من هذا البلاء ليؤدى المؤمنون تكاليف العقيدة ، كى تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا فى سبيلها من تكاليف ، والعقائد الرخيصة التى لا يؤدى أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلى عنها عند الصدمة الأولى .

فالتكاليف هنا هى الثمن النفسى الذى تعز به العقيدة فى نفوس أهلها قبل أن تعز فى نفوس الآخرين ، وكلما تألموا فى سبيلها ، وكلما بذلوا من أجلها كانت أعز عليهم وكانوا أضنّ بها .

كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها .

ولابد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى ، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة ، وتفتح فى القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن فى نفسه إلا تحت مطارق الشدائد . والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا فى جو المحنة التى تزيل الغبش عن العيون والران عن القلوب .

وأهم من هذا كله ، الالتجاء إلى الله وحده ، حين تهتز الأسناد كلها ، وتتوارى الأوهام وهى شتى ، ويخلو القلب إلى الله وحده ، لا يجد سنداً إلا سنده ، وفى هذه اللحظة فقط تنجلى الغشاوات ، وتتفتح البصيرة ، وينجلى الأفق على مد البصر ، لا شىء إلا الله ، لا قوة إلا قوته ، لا حول إلا حوله ، لا إرادة إلا إرادته ، لا ملجأ إلا إليه ، وعندئذ تلتقى الروح بالحقيقة الواحدة التى يقوم عليها تصور صحيح .

هذه هى التربية التى أخذ الله بها الصف المسلم ؛ ليعده ذلك الإعداد العجيب ، وهذا هو المنهج الإلهى فى التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين » .

ويمضى السياق إلى مثال جديد من المنهج التربوى العميق ، وينتقل من تربية المشاعر إلى التربية بالشعائر ، فالصفا والمروة كانتا من شعائر الجاهلية وكان فوقهما صنمان هما إساف ونائلة : فكره المسلمون أن يطوفوا كما كانوا يطوفون فى الجاهلية ، وكان هذا التحرج ثمرة وضوح التصور الإيمانى فى نفوسهم ، هذا الوضوح الذى جعلهم يتحرزون من كل أمر كانوا يزاولونه فى الجاهلية.

وتنتقل الآيات من بيان مشروعية الطواف بالصفا والمروة إلى الحملة على الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ، فهم يسكتون عن الحق وهم يعرفونه ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، ومع ذلك يفتح القرآن لهم نافذة ـ مضيئة ألا وهى نافذة التوبة .

يقول صاحب الظلال : هؤلاء يفتح القرآن لهم نافذة التوبة يفتحها فتنسم نسمة الأمل فى الصدور، وتقود القلوب إلى مصدر النور، فلا تيأس من رحمة الله، ولا تقنط من عفوه ، فمن شاء فليرجع إلى الحمى الآمن صادق النية . وآية صدقه التوبة وإصلاح العمل ، والتبيين فى القول ، وإعلان الحق والاعتراف به والعمل بمقتضاه ثم ليثق برحمة الله وقبوله للتوبة .

يقول صاحب الأساس : دلت هذه الآية على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه ، ويلاحظ أن التوبة من الكتمان يشترط لها : الإصلاح والبيان .

فمن كان يعرف الحق فى قضية ما ، فإن عليه أن يتوب ويصلح ويبين ، وعندئذ تقبل توبته ، وإلا فإنه يستحق اللعن من الله والملائكة والناس أجمعين ، فما أصعب هذا وأشده إلا على من وفقه الله ؟!!

وقال ابن كثير : (جاء فى هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون ، واللاعنون أيضًا ، وهم كل فصيح وأعجمى ، إما بلسان المقال أو الحال ، أو لو كان له عقل فى الدنيا يوم القيامة) .

وأما الذين يصرون ولا يتوبون حتى تفلت الفرصة وتنتهى المهلة ، فأولئك ملاقون ما أوعد الله من قبل به ، ولم يذكر السياق لهم عذابًا آخر غير هذه اللعنة المطبقة بل عدها عذابًا لا يخفف عنهم ، ولا يؤجل موعده ولا يمهلون فيه ، وإنه لعذاب دونه كل عذاب ، عذاب المطاردة والنبذ والجفوة ، فلا يتلقاهم صدر فيه حنان ، ولا عين فيها قبول ، ولا لسان فيه تحية ، إنهم ملعونون مطرودون منبوذون من العباد ، ومن رب العباد ، فى الأرض ، وفى الملأ الأعلى على السواء ، وهذا هو العذاب الأليم المهين .

ويمضى السياق فى إقامة التصور الإيمانى على قاعدته الكبيرة ، قاعدة التوحيد ، فلم يكن هناك جدل حول الاعتقاد بوجود إله ـ تختلف التصورات حول ذاته ، وحول صفاته ، وحول علاقاته بالخلق ، ولكنها لا تنفى وجوده ـ ومن وحدانية الألوهية التى يؤكدها هذا التأكيد، يتوحد المعبود الذى يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة ، وتتوحد الجهة التى يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك ، ويتوحد المصدر الذى يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين ، ويتوحد المنهج الذى يصرف حياة الخلق فى كل طريق ، ومن رحمة الله السابغة العميقة الدائمة تنبثق كل التشريعات والتكاليف فهو الرحمن الرحيم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب السعى بين الصفا والمروة لكل من طاف البيت حاجًا أو معتمرًا .

٢ ـ حرمة كتمان العلم وفى الحديث الصحيح : « من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار » .

٣ ـ يشترط لتوبة من أفسد فى ظلمه وجهله إصلاح ما أفسد ببيان.

٤ ـ من كفر ومات على كفره من سائر الناس يُلقى فى جهنم بعد موته خالداً فى العذاب.

٥ ـ جواز لعن المجاهرين بالمعاصى كشارب الخمر والمرابى ، والمتشبهين من الرجال بالنساء، ومن النساء بالرجال .

إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

معانى الكلمات :

بث فيها : فرق ونشر فيها بالتَّوالُد .

تصريف الرياح:تقليبها فى مهابّها وأحوالها.

أنداداً : أمثالاً من الأوثان يعبدونها .

التبرؤ : التنصل من الشىء والتباعد منه لكرهه. **الذين اتُّبعوا** : المعبودون والرؤساء المضلون . **تقطعت بهم الأسباب** : تفرقت الصلات التى كانت بينهم فى الدنيا من نسب وصداقة وعهود .

كرَّةً : عودة إلى الدنيا.

حسرات : ندامات شديدة .

خطوات الشيطان : طُرُقَه وآثارَهُ وأعماله .

يـأمُرُكُم بالسُّوء : بالمعاصى والذنوب .

والفحشاء : ما عظم قُبحُهُ من الذنوب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على الكون وأسراره فهو كتاب الله المنظور .

٢ ـ أن نتبين مواقف التبرؤ والتعادى والتخاصم بين التابعين والمتبوعين يوم القيامة .

٣ ـ أن نعلم أن الشيطان عدو للإنسان يجب الحذر من وسوسته .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذى يراه أول مرة مفتوح العين ، جياش المشاعر ، حى القلب ؛ ليشاهد بديع صنع الله فى الكون ؛ تلك السموات والأرض ، هذه الأبعاد الهائلة والأجرام الضخمة والآفاق المسحورة ، والعوالم المجهولة ، هذا التناسق فى مواقعها وجريانها فى ذلك الفضاء الهائل الذى يدير الرؤوس بحاجة إلى تأمل بالعقل وانفعال بها بالمشاعر.

ويقول صاحب الظلال : واختلاف الليل والنهار ، تعاقب النور والظلام ، توالى الإشراق والعتمة ، ذلك الفجر وذلك الغروب ، كم اهتزت المشاعر ، وكم وجفت لها قلوب ، وكم كانت أعجوبة الأعاجيب ، ثم فقد الإنسان وهلتها وروعتها مع التكرار ، إلا القلب المؤمن الذى تتجدد فى حسه هذه المشاهد ؛ ويظل أبدًا يذكر يد الله فيها ، فيتلقاها فى كل مرة بروعة الخلق الجديد .

وكل هذه الآيات البادية فى صفة الكون كتاب الله المشهود ، كفيلة بصنع الإيمان فى النفوس المتدبرة والعقول الواعية التى تتنسم روعة الإبداع الإلهى فى كل مشاهد الكون .

يقول صاحب الظلال : نعم لو ألقى الإنسان عن عقله بلادة الألفة والغفلة، فاستقبل مشاهد الكون بحس متجدد، ونظرة مستطلعة ، وقلب نَوره الإيمان . ولو سار فى هذا الكون كالرائد الذى يهبط إليه أول مرة تلفت عينه كل ومضة ، وتلفت سمعه كل نأمة ، وتلفت حسه كل حركة ، وتهز كيانه تلك الأعاجيب التى ما تنى تتوالى على الأبصار والقلوب والمشاعر .

إن هذا هو ما يصنعه الإيمان ، هذا التفتح ، هذا التقدير للجمال والتناسق والكمال ، إن الإيمان رؤية جديدة للكون ، وإدراك جديد للجمال ، وحياة على الأرض فى مهرجان من صنع الله ، آناء الليل وأطراف النهار .

ويمضى السياق متحدثاً عن حب المؤمنين لله فهم لا يحبون شيئاً حبهم لله ، لا أنفسهم ولا سواهم ، لا أشخاصاً ولا اعتبارات ولا شارات ولا قيما من قيم هذه الأرض التى يجرى وراءها الناس ، أشد حباً ، حباً مطلقاً من كل موازنة ، ومن كل قيد ، أشد حباً لله من كل حب يتجهون به إلى سواه .

ويقول صاحب الظلال : والتعبير بالحب تعبير جميل ، فوق أنه تعبيرٌ صادق ، فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله هى صلة الحب .

ومع المشهد الرفيق الودود المفعم بالحب بين المؤمنين وربهم ، وتجاذبهم الروحى العاطفى الإيمانى نحو الله ، يأتى تصوير القرآن للأوامر والعلاقات والأسباب المقطعة والتبرؤ بين أصحاب الأهواء ، ومتبعى أصحاب البدع والمشركين ، ويبدى السياق الحنق والغيظ من التابعين المخدوعين فى القيادات الضالة ، وتمنوا لو يردون لهم هذا الصنيع ! لو يعودون إلى الأرض فيتبرؤوا من تبعيتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة فى حقيقتها ، التى خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب .

ويقول صاحب الظلال : إنه مشهد مؤثر : مشهد التبرؤ والتعادى والتخاصم بين التابعين والمتبوعين ، وهنا يجىء التعقيب الممض المؤلم : ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ .

والفرق واضح بين مآل الحب والاتباع فى الحالتين، فحب الله مقتضى من مقتضيات الإيمان، وأثر عن الشعور بالنعمة ، ودلالة إحساس القلب المتحرر من أمراضه كالحسد والكبر والنفاق ، ومن ثم كانت ذروة السير إلى الله محبة الله ، وطريق ذلك الإقبال عليه بالفرائض والنوافل : « وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه » فإذا أحب الله المؤمن أعطاه ما يشعره بالمحبة :« فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن سألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذنى لأعيذَّنه » وعندئذ يفيض القلب بالمحبة لله بما لا يعرفه إلا أهله، وفى المقابل

تتضح عاقبه الحب والاتباع والموالاة لغير الله ، واقتفاء أثر الشيطان ، وارتكاب أعظم الذنوب كما ورد فى الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ قال : قلت يا رسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال : «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » ، تكون العاقبة الأليمة من معاينة العذاب ، وتمام اليقين أن القوة كلها لله ، وكفرهم بأوثانهم وشركائهم وزعمائهم وآلهتهم ، وتبرؤهم من التابعين ، وأمانيهم الباطلة بعد الندم ـ ولات حين ندم ـ أن تتاح لهم فرصة ليتبرؤوا من المتبوعين .

وينتقل سياق الآيات بعد ذلك لدعوة الناس إلى التمتع بفيض النعم من الطيبات التى رزقهم إياها فى الحياة ، والبعد عن خبائثها ، والتحذيرمن اتباع الشيطان ، الذى يأمرهم بالخبائث ، والادعاء على الله فى التحليل والتحريم بغير إذن منه ولا تشريع ، كما فى صحيح مسلم من حديث عياض ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : إنّ كلّ مالٍ منحته عبادى فهو لهم حلال » وفيه : « وإنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمتْ عليهم ما أحللت لهم » .

ومما يدخل فى خطوات الشيطان ! كل معصية لله ، ومنها النذ ور والمعاصى كما قال بعض السلف فى سياق الآيات ، قال الشعبى : نذر رجلٌ أن ينحر ابنه ، فأفتاه مسروق بذبح كبش ، وقال : هذا من خطوات الشياطين ، روى عبدُ بن حميد عن ابن عباس قال : « ما كان من يمينٍ أو نذر فى غضب، فهو من خطوات الشيطان ، وكفّارته كفارة يمين !» نقله الإمام ابن كثير الدمشقى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الآيات الكونية فى السموات والأرض تثبت وجود الله تعالى ربـاً وإلهـا موصوفاً بكل كمال، منزهًا عن كل نقصان .

٢ ـ من الشرك الحب مع الله تعالى ، ومن التوحيد إخلاص الحب الشديد لله تعالى .

٣ ـ العقلية المؤمنة متبعة للهدى المنزل ، أما العقلية الكافرة فعقلية مقلدة ، العقلية المؤمنة تزن الرجال بالحق ، والعقلية الكافرة تزن ما تؤمن به الرجال ، ولو كانوا على غير علم وعقل وفهم .

٤ ـ يوم القيامة تنحل جميع الروابط من صداقة ونسب ، ولم تبق إلا رابطة الإيمان والأخوة فيه.

٥ ـ تبرؤ رؤساء الشرك والضلال ودعاة الشر والفساد ممن أطاعوهم فى الدنيا واتبعوهم على الظلم والفساد ، وليس بنافعهم ذلك شيئًا .

٦ ـ وجوب طلب الحلال والاقتصاد على العيش منه ، ولو كان ضيقًا قليلًا .

٧ ـ حرمة اتباع مسالك الشيطان وهى كل معتقد أو قول أو عمل نهى الله تعالى عنه .

الجزء الثانى — سورة البقرة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

٢٦

معانى الكلمات :

ألفينا : وجدنا . **ينعق** : يُصَّوت ويصيح ، والاسم : النعيق . **الدعاء** : طلب القريب كدعاء المؤمن ربه يا رب . **النداء** : طلب البعيد كأذان الصلاة . **بُكمٌ** : خُرس عن النطق بالحق . **صُم**:جمع أصم فاقد حاسة ، السمع فهو مُعرض عن الحق. **الدم** : المسفوح وهو السائل . **وما أُهِّل به لغير الله** : ما ذكر عند ذبحه اسمُ غيره تعالى . **اضُطرَّ**:ألجأته الضرورة إلى التناول مما حُرِّم **غيرُ باغ** : غيرُ طالب للمُحَرمَّ للَذَّة أو استئثار على مُضطرٍّ آخر .

ولا عاد : ولا متجاوز ما يُسدُّ الرَّمق .

ثمنا قليلاً : عوضا يسيراً .

شقاق بعيد: خلاف ونزاع بعيد عن الحق.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على تنديد القرآن بالتقليد والجمود والدعوة إلى إحقاق الحق .

٢ ـ أن نعلم موقف الدعاة من الكافرين وإعراض هؤلاء الكافرين عنهم .

٣ ـ أن نتعلم أخذ الحلال والحرام من الخالق الرازق ، وكيف نشكره على نعمه .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يندد الله بالذين يدعون من دونه ما لا يعقل ولا يسمع . ويحذرهم من التقليد فى شأن العقيدة بغير هدى من الله وقد أخبر تعالى عن حال المشركين ، إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله رغبوا عن ذلك ، واكتفوا بتقليد الآباء ، وزهدوا فى الإيمان بالأنبياء ، ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس وأشدهم ضلالا ، وهذه شبهة لرد الحق واهية ، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه ، وعدم إنصافهم ، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم ، لكان الحق هو القصد ، ولكن مثلهم عند دعاء الداعى لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التى ينعق لها راعيها ، وليس لهم علم بما يقول راعيها ومناديها ، فهم يسمعون مجرد الصوت الذى تقوم به عليهم الحجة ، ولكنهم لا يفقهونه فقها ينفعهم ، فلهذا كانوا صما لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول ، عميا لا ينظرون نظر اعتبار ، بكما فلا ينطقون بما فيه خير لهم .

ويقول صاحب الظلال : إن الله ينادى الذين آمنوا بالصفة التى تربطهم به سبحانه ، وتوحى إليهم أن يتلقوا منه الشرائع ، وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام ، ويذكرهم بما رزقهم فهو وحده الرازق، ويبيح لهم مما رزقهم، فيشعرهم أنه لم يمنع عنهم طيباً من الطيبات، وأنه إذا حرَّم عليهم شيئاً فلأنه غير طيب ، لا لأنه يريد أن يحرمهم ويضيق عليهم ـ وهو الذى أفاض عليهم الرزق ابتداء ـ ويوجههم للشكر إن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلا شريك . فيوحى إليهم بأن الشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من عباده .

وينتقل السياق بعد تبيان ما حرَّمهُ الله من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، مقدراً الضرورات ، ومبيحاً للمحظورات ، ومحلاً للمحرمات بقدر ما تنتفى هذه الضرورات ، بغير تجاوز لها ، ولا تعد لحدودها ، فأيما ضرورة ملجئة يخشى منها على الحياة ، فلصاحبها أن يتفادى هذا الحرج بتناول المحظور فى الحدود التى تدفع هذه الضرورة ولا زيادة ـ على أن هناك خلافاً فقهياً حول مواضع الضرورة ، وينتقل السياق بعد هذا كله للتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب ، **ويقول صاحب الظلال** : « كان المقصود به أولاً أهل الكتاب ، ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة ، يكتمون الحق الذى يعلمونه ، ويشترون به ثمناً قليلاً » فأولئك الذين يشترون الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة يأكلون فى بطونهم ناراً ثمن هذا الكتمان والبهتان ، وتخسر الصفقة التى دفعوا فيها الهدى وقبضوا الضلالة ، فهؤلاء يحرمون المغفرة ، ويأخذون العذاب ، فيا لسوء ما ابتاعوا وما اختاروا ! وإنها لحقيقة . فقد كان الهدى مبذولاً لهم فتركوه وأخذوا الضلالة ، وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب .

وإنه لجزاء مكافىء لشناعة الجريمة . جريمة كتمان الكتاب الذى أنزله الله ليُعلن للناس ؛ وليحقق فى واقع الأرض ، وليكون شريعة ومنهاجًا ، فمن كتمه فقد عطله عن العمل ، وهو الحق الذى جاء للعمل به ، فمن فاء إليه فهو على الهدى ، وهو فى وفاق مع الحق ، وفى وفاق مع المهتدين من الخلق ، وفى وفاق مع فطرة الكون وناموسه الأصيل .

وفى هذا القرآن هدى لكل جوانب الحياة الإنسانية ، فى السياسة بفروعها جميعاً من الولاء إلى التجمع ، إلى مواضيع الأمة والقوم والإنسانية ، إلى قضايا الشورى ، إلى قضايا الرئاسة المتمثلة بالخلافة إلى غير ذلك ، وفى الاقتصاد من التملك إلى غيره وفى السلم والحرب ، من الجهاد إلى الإعداد ، وفى الاجتماع من قضايا الأسرة إلى غيرها وفى الأخلاق والتعليم وغير ذلك ، وقد دأب الكثير على المخاتلة وعدم البيان مراعاة للسلطان وغيره ، رغبة فى الجاه أو رهبة من موقف الحق، وكل ذلك داخل فى الوعيد إلا إذا كان للإنسان رخصة شرعية فذلك مستثنى ، وللخروج من الكتمان لابد من إشاعة حلقات العلم والفقه والتلاوة والتفسير وغيرها .

وقد يبدو لنا فى الظاهر أن إعلان الحق فيه خسارة فى الدنيا ، ولكن هذه الخسارة الظاهرة ربح فى الدنيا والآخرة، فعاقبة إظهار الحق فى الدنيا ، وإن أتت على الدنيا كلها فلم تبق منها

حجراً فوق حجر فالدنيا قليل ، ولكن من يصبر على النار يوم القيامة ، والله عز وجل أجج فى بطون الذين يكتمون الحق يوم القيامة نارًا يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال ،عياذًا بالله من ذلك ، فأى خسارة أفدح : إظهار الحق أم كتمانه !

ويقول صاحب الأساس : عندما نظهر الحق قد نخسر فى الظاهر قليلًا ، والدنيا كلها قليل ، ولكن هذه الخسارة الظاهرة ربح فى الدنيا والآخرة ، فهؤلاء اليهود فى عصر النبوة أول من تنطبق عليهم الآيات وأول من انطبقت عليهم ، كتموا صفة محمد ﷺ فى كتبهم التى بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة ، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا ـ لعنهم الله ـ إن أظهروا ذلك أن يتَّبعه الناس ويتركوهم ، فكتموا ذلك إبقاءً على ما يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير ، فباعوا أنفسهم بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا : فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه، وجعل معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات ، فصدقه الذين كانوا يخافون عليهم أن يتبعوه ، وصاروا عوناً له على قتالهم وباؤوا بغضب على غضب ، وفى الآخرة رأينا ما هو عذابهم بما خالفوا هذا الرسول الخاتم وكذبوه ، وجحدوا وكتموا صفته .

ويكون الختام الطبيعى بعد هذا الضلال والاختلاف فى الكتاب ، وكتمان الحق ، وما أنزل الله من الكتاب ، أن يكونوا فى شقاق بعيد ، يقول صاحب الظلال : « شقاق مع الحق ، وشقاق مع ناموس الفطرة ، وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولقد كانوا كذلك ، وما يزالون ، وتلحق بهم كل أمة تختلف فى كتابها . فلا تأخذ به جملة ، وتمزقه تفاريق ، وعد الله الذى يتحقق على مدار الزمان واختلاف الأقوام ، ونحن نرى مصداقه واقعاً فى هذا العالم الذى نعيش فيه » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الندب إلى أكل الطيبات من رزق الله تعالى فى غير إسراف .

٢ ـ وجوب شكر الله تعالى بالاعتراف بالنعمة له ، وحمده عليها ، وعدم صرفها فى معاصيه .

٣ ـ حرمة أكل الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله تعالى .

٤ ـ حرمة كتمان الحق ، لا سيما إذا كان للحصول على منافع دنيوية مالًا أو رياسة .

٥ ـ تحذير العلماء من سلوك مسلك علماء أهل الكتاب بكتمانهم الحق وإفتاء الناس بالباطل للحصول على منافع مادية أو رياسة .

٦ ـ التحذير من الاختلاف فى القرآن الكريم ؛ لما يفضى إليه من العداء والشقاق البعيد بين المسلمين .

نصف الحزب ٣

۞ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ
الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ
بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ
إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ
إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ
بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

٢٧

معانى الكلمات :

البر : التوسع فى الطاعات وأعمال الخير .

البأساء والضراء : ما يصيب الناس فى الأنفس كالمرض .

حين **البأس** : وقت القتال فى سبيل الله .

بالمعروف : بالعدل . قبل: تجاه.

عُفى له : ترك له .

إثمه : ذنب هذا التبديل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم قيمة الإيمان فى حياة البشرية .

٢ ـ أن نعلم تكاليف النفس والمال فى مجال البر .

٣ ـ أن نتعرف على جانب من التنظيمات الاجتماعية للمجتمع المسلم .

المحتوى التربوى :

لما أمر الله المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة ، كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب فى هذا الأمر ، فأنزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك ، وهو : أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس فى لزوم التوجه إلى جهة من المشرق والمغرب بر ولا طاعة ، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه .

ولكن البر : اسم لكل فعل مرضىّ ، ولا بر إلا بما ذكر الله عز وجل فى هذه الآية : من الإيمان بالله ؛ بوجوده ، وصفاته ، وأسمائه ، وتوحيده ، وربوبيته ، وألوهيته ، واليوم الآخر الذى هو يوم البعث ، وجنس الملائكة ، وجنس كتب الله أو القرآن ، والنبيين جميعًا بلا استثناء ، وهذا أول البر وأساسه ، وبدونه لا يكون براً ؛ إذ من لم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فإن البر لا يصدر منه ، وإذا صدر فإنه لا يكون دائماً ، ويكون معلولا بعلة ينتهى البر بانتهائها .

والبر : أن يخرج المال وهو محب له راغب فيه إلى الأقرباء ، واليتامى الذين لا كسب لهم ، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب ، والمساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تسد به حاجاتهم وخلتهم ، وإنما سمى مسكينا ؛ لأنه دائم السكون إلى الناس ؛ لأنه لا شىء له، وابن السبيل ، وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته ، والسائلين الذين يتعرضون للطلب ، فيعطون من الزكوات والصدقات أو هم المستطيعون ، والمكاتبون الذين يعانون حتى يفكوا رقابهم ، أو هم الأسارى الذين يعانون لفك رقابهم أو الرقيق مطلقاً يعتق ويحرر .

يقول صاحب الظلال : « وما قيمة إيتاء المال ـ على حبه والاعتزاز به ـ لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ؟

إن قيمته هى الانعتاق من ربقة الحرص والشح والضعف والأثرة ، انعتاق الروح من حب المال الذى يقبض الأيدى على الإنفاق ، ويقبض النفوس عن الأريحية ، ويقبض الأرواح عن الانطلاق ، فهى قيمة روحية يشير إليها ذلك النص على حب المال ، وقيمة شعور به أن يبسط الإنسان يده وروحه فيما يحب من مال، لا فى الرخيص منه ولا الخبيث، فيتحرر من عبودية المال، هذه العبودية التى تستذل النفوس ، وتنكس الرؤوس ، ويتحرر من الحرص، والحرص يذل أعناق الرجال ، وهى قيمة إنسانية كبرى فى حساب الإسلام الذى يحاول دائماً تحرير الإنسان من وساوس نفسه وحرصها وضعفها قبل أن يحاول تحريره من الخارج فى محيط الجماعة وارتباطاتها ، يقينا منه بأن عبيد أنفسهم هم عبيد الناس ، وأن أحرار النفوس من الشهوات هم أحرار الرؤوس فى المجتمعات ، ثم إنها بعد ذلك كله قيمة إنسانية فى محيط الجماعة » .

والبر : أن يقيم الصلاة المكتوبة فيتم أفعالها فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها، وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى ، ويؤتى الزكاة المفروضة ، والذى يوفى بالعهد إذا عاهد الله أو الناس ، فهو لا ينكث مع الله أو مع الناس ، وأن يصبر فى حال الفقر والشدة ، وفى حال المرض والأسقام والزمان ، وفى حال القتال والتقاء الأعداء .

وهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم ؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء الذين صدقوا ، وهم المتقون ؛ لأنهم حققوا التقوى حالا وعملا وسلوكا ، فاتقوا المحارم ، وفعلوا الطاعات ، وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد، وتكاليف النفس والمال ، وتجعلها كلا لا يتجزأ ، ووحدة لا تنفصم ، وتضع على هذا كله عنوانا واحدا هو البر .

ويتضمن السياق جانباً من التنظيمات الاجتماعية للمجتمع المسلم ، فيأتى النداء للذين آمنوا بهذه الصفة التى تقتضى التلقى من الله ، فيقول تعالى : فرض عليكم العدل فى القصاص ، حركم بحركم ، وعبدكم بعبدكم ، وأنثاكم بأنثاكم ، وفى شرع القصاص لكم ـ وهو قتل القاتل ـ حكمة عظيمة ، وهى بقاء المنهج وصونه ؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يُقتل انكفّ عن صنيعه ، فكان فى ذلك حياة النفوس ، ولا يسقط القصاص فى القتل العمد إلا فى حالة العفو وقبول الدية ، فإذا حدث العفو فلا يحل للقاتل أن يماطل فى الدية ، ولا يحل لأهل القتيل أن يثأروا ، وهذا العفو وأخذ الدية تخفيف من الله ورحمة عليكم وبكم ، فمن قتل وثأر بعد أخذ الدية أو قبولها ، فله عذاب موجع شديد فى الآخرة .

ويكشف السياق عن حكمة القصاص العميقة ، فهو ليس انتقامًا ، إنما هو للحياة ، فلكم فى هذا الجنس من الحكم الذى هو القصاص ، حياة عظيمة وأى حياة ؟ وذلك مما يؤدى إليه ـ القصاص بالقتل ـ من الردع عن القتل ، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يُقتل من القتل فكان فى شرع القصاص سبب حياة النفسين على الأقل ، فإذا أضفنا قضايا الثأر غير المعقول من قتل غير القاتل ثأراً كما هى عادتهم فى الجاهلية عرفنا كم فى القصاص من حياة يا أولى العقول والأفهام ، دل ذلك على أن غير أولى العقول الذين لا يرون القصاص ، وتالله إنهم لكذلك ، وما أكثرهم فى عصرنا ، وما أكثرهم فى بلادنا ، لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه ومنها القتل .

ثم يجىء تشريع الوصية عند الموت والمناسبة فى جوها وجو آيات القصاص حاضرة ، فيستحب لكم أن توصوا لمن لا يرث من الأقربين بشىء من أموالكم فى حدود الثلث ، أما الوارثون ، فإرثهم ضمن ما حدد الله فى سورة النساء واجب ، الوصية فى حدود ما تتقبله الأنفس ولا تجد منه تكرها واجبة على من يرجو لقاء الله ، ومن غير الإيصاء عن وجهه إن كان موافقًا للشرع من الأوصياء والشهود بعد ما وصل إليه وتحقق لديه ، فما إثم التبديل إلا على مبدله ، والأجر كامل للموصى ، والله سميعٌ عليمٌ بكل شىء ، وهذا وعيد شديد أكيد للمبدلين.

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ بيان أن البر : إيمان ، وإنفاق مما يحب ، وإقامة صلاة ، وإيتاء زكاة ، ووفاء عهد ، وصبر على كل حال ، وفى كل حال .

٢ ـ الحرص يذل أعناق الرجال ، والفكاك منه يكون بالإنفاق فى سبيل الله تعالى .

٣ ـ القصاص يكون لولىِّ الأمر، وليس أولياء القتيل؛ حتى لا يظلموا ولا يزيدوا عن حقهم، وتشريع القصاص فيه صلاح للمؤمنين وسعادة وأمن لهم وللمجتمع كله .

الجزء الثانى — سورة البقرة

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

٢٨

معانى الكلمات :

جنفاً أو إثماً : الجنف : الميل عن الحق خطأً، والإثم تعمد الخروج عن الحق والعدل .

كُتب : فُرض أو أثبت .

الصيام:لغةً :الإمساك،والمراد هنا: الامتناع عن الأكل والشرب وغشيان النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

يطيقونهُ: يستطيعونه،والحكم منسوخ بآية: ﴿ فَمَن شَهِدَ ﴾ .

تطوّع خيراً : زاد فى الفدية.

ولتكبروا الله : لتحمدوا الله وتثنوا عليه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن مراقبة الله فى كل حال هى الضمان للعدل والإنصاف .

٢ ـ أن نتعرف مهمة الصيام للفرد المسلم .

٣ ـ أن نعلم أن السهولة واليسر فى أخذ الحياة كلها هى القاعدة الكبرى فى تكاليف العقيدة كلها .

المحتوى التربوى :

يبرز السياقُ حالة واحدة يجوز فيها للوصىّ أن يبدل من وصية الموصى ، ذلك إذا عرف أن الموصى إنما يقصد بوصيته محاباة أحد ، أو النكاية بالوارث ، فعندئذ لا حرجَ على من يتولى تنفيذ الوصية أن يَعدل فيها بما يتلافى به ذلك الجنف وهو الحيفُ ، ويرد الأمر إلى العدل والنصف ، والأمر موكولٌ إلى مغفرة الله ورحمته لهذا ولذاك ، ومشدود إلى مراعاة الله فى كل حال ، فهى الضمانُ الأخيرُ للعدل والإنصاف ، والمراد بالوصية : وصية الله فى إيتاء ذوى الحقوق حقوقهم ، وعدم الغض منها ، والحذر من تبديلها ، لما يلحق المبدل من الوعيد الشديد .

ويأتى الحديثُ عن فرضِ الصومِ على الأمةِ التى فرضَ عليها الجهاد فى سبيل الله ؛ لتقرير منهجه فى الأرض وللقوامة به على البشرية ، فالصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة ،

ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد ؛ كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها ، واحتمال ضعفها وثقلها ، إيثاراً لما عند الله من الرضا والمتاع .

ويقول صاحب الظلال : « وهذه كلها عناصر لازمة فى إعداد النفوس واحتمال مشقات الطريق المفروش بالعقبات والأشواك ، والذى تتناثر على جوانبه الرغائب والشهوات ؛ والذى تهتف بسالكيه آلاف المُغريات ، والتقوى هى الغاية المنشودة من الصوم ، والتقوى هى التى تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية ، ولو تلك التى تهجس فى البال ، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله ، ووزنها فى ميزانه ، فهى غاية تتطلع إليها أرواحهم ، وهذا الصوم أداة من أدواتها ، وطريق موصل إليها » .

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام ، أخبر أنه أيام معدودات قليلة فى غاية السهولة ، ثم سهل تسهيلا آخر ، فمن كان مريضا أو مسافرا فله الفطر ، ولما كان لابد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن ، أمرهما أن يقضياه فى أيام أخر إذا زال المرض ، وانقضى السفر ، وحصلت الراحة ، وعلى الذين يطيقون الصيام فدية عن كل يوم يفطرونه طعام مسكين ، وهذا فى ابتداء فرض الصيام ، لما كانوا غير معتادين للصيام ، وكان فرضه حتما فيه مشقة عليهم ، درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق ، وخير المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم ، ثم بعد ذلك جعل الصيام حتما على المطيق ، وغير المطيق يفطر ويقضيه فى أيام أخر .

ويحبب الله الصوم لعباده ، لخصوصية نزول القرآن فيه ، وعن هذه اللفتة التربوية **يقول صاحب الظلال** : « والقرآن هو كتاب هذه الأمة الخالد ، الذى أخرجها من الظلمات إلى النور ، فأنشأها هذه النشأة ، وبدلها من خوفها أمناً ، ومكن لها فى الأرض ، ووهبها مقوماتها التى صارت بها أمة ، ولم تكن من قبل شيئاً ، وهى بدون هذه المقومات ليست أمة وليس لها مكان فى الأرض ولا ذكر فى السماء ، فلا أقل من شكر الله على نعمة هذا القرآن بالاستجابة إلى صوم الشهر الذى نزل فيه القرآن » .

وعلى حين فرض الله على هذه الأمة الصيام لم يردْ بها العسر ، وإنما أراد بها اليسر ، **ويقول صاحب الظلال** : « إن هذه هى القاعدة الكبرى فى تكاليف هذه العقيدة كلها ، فهى ميسرة لا عسر فيها ، وهى توحى للقلب الذى يتذوقها ، بالسهولة واليسر فى أخذ الحياة كلها ؛ وتطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة التى لا تكليف فيها ولا تعقيد ، سماحة تؤدى معها كل التكاليف وكل الفرائض وكل نشاط الحياة الجادة ، وكأنما هى مسيل الماء الجارى ، ونمو الشجرة المتصاعدة فى طمأنينة وثقة ورضاء ، مع الشعور الدائم برحمة الله وإرادته اليسر لا العسر بعباده المؤمنين » .

والصوم على هذا نعمة تستحق التكبير والشكر : وهذا غاية من غايات الفريضة كما **يقول صاحب الظلال** : « أن يشعر الذين آمنوا بقيمة الهدى الذى يسره الله لهم ، وهم يجدون هذا فى أنفسهم فى فترة الصيام أكثر من كل فترة ، وهم مكفوفو القلوب عن التفكير فى المعصية ، ومكفوفو الجوارح عن إتيانها ، وهم شاعرون بالهدى ملموساً محسوساً ، ليكبروا على هذه الهداية ، وليشكروه على هذه النعمة ، ولتفىء قلوبهم إليه بعد هذه الطاعة ، كما قال لهم فى مطلع الحديث عن الصيام : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، وهكذا تبدو منَّة الله فى هذا التكليف الذى يبدو شاقاً على الأبدان والنفوس وتتجلى الغاية التربوية منه ، والإعداد من ورائه للدور العظيم الذى أخرجت هذه الأمة لتؤديه ، أداء تحرسه التقوى ، ورقابة الله وحساسية الضمير » .

وبعد ذلك كله وقبل الحديث عن أحكام الصيام التفصيلية ، وحدود المتاع فيه وحدود الإمساك نجد لفتة عجيبة إلى أعماق النفس وخفايا السريرة ، نجد العوض الكامل الحبيب المرغوب عن مشقة الصوم ، والجزاء المُعجل على الاستجابة لله ، وهو استجابة الدعاء ، ليسكب فى النفس النداوة الحلوة ، والوُد المؤنس ، والرضا المطمئن ، والثقة واليقين ، والقربى الندية بالمناجاة ، والملاذ الأمين فى قرار مكين ، وفى ظل هذا الأنس الحبيب ، والقرب الودود ، يوجههم سبحانه إلى الاستجابة له ، والإيمان به ، لعل هذا أن يقودهم إلى الرشد والهداية والصلاح .

قال الإمام ابن القيم فى الجواب الكافى : « وكثيرًا ما نجد أدعية بها قوم فاستجيب لهم ، فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله ، أو حسنهة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرًا لحسنته ، أو صادف الدعاء وقت إجابة، ونحو ذلك فأجيبت دعوته ، فيظن الظان أن السر فى لفظ ذلك الدعاء فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى ، وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعا فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذى ينبغى فانتفع به ، فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف فى حصول المطلوب كان غالطا ، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ، ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب ، فيظن الجاهل أن السر للقبر ، ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله ، فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله كان أفضل وأحب » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن الوصية واجبة للحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ عن ابن عمر : « ما حقَّ امرئ مسلم له شىء يُوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيَّته مكتوبة عنده ».

٢ ـ الحكمة من الصيام الوصول إلى التقوى ، فمن صام رمضان ثم لم يحصِّلها فقد فرَّط .

٣ ـ الدعاء مخ العبادة ، وما من عبد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب حتى تُعجَّل له فى الدنيا ، أو تُؤَخر له فى الآخرة إذا لم يعجل ، أو يقنط .

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

ثلاثة أرباع الحزب ٣

معانى الكلمات :

الرَّفَثُ : الوِقَاعُ . **هُنَّ لباسٌ لكم** : سَكَنٌ أو ستر لكم عن الحرام . **تختانون أنفسكم** : بتعريضها للعقاب ، ونقصان حظها من الثواب بالجماع ليلة الصيام قبل أن يحل الله لكم ذلك . **باشروهن** : جامعوهن ، أباح لهم ذلك ليلاً. **عاكفون** : منقطعون إلى العبادة فى المسجد . **تدلوا بها** : تلقوا بالخصومة فيها ظُلماً وباطلاً . **الأهلة** : جمع هلال وهو القمر فى بداية ظهوره فى الشهور العربية . **المواقيت** : جمع ميقات وهو الوقت المحدد المعلوم للناس .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على حدود الله فى الصيام .

٢ ـ أن نعلم الغاية من إنزال الشرائع ووضع الحدود .

٣ ـ أن نتعلم السؤال عن مواقف الحياة حتى نعرف كيف نسلك الحياة وفق تصور الإسلام .

المحتوى التربوى :

تتناول الآيات بعض أحكام الصيام ، فتقرر للصائمين حل المباشرة للنساء فى ليلة الصوم ما بين المغرب إلى الفجر ، وحل الطعام والشراب كذلك ، كما يبين لهم مواعيد الصوم من الفجر إلى الغروب ، وحكم المباشرة فى فترة الاعتكاف فى المسجد ، والعلة فى ذلك أنه لما فرض الصوم كانت المباشرة والطعام والشراب تمتنع لو نام الصائم بعد إفطاره، فإذا صحا بعد نومه من الليل، ولو كان قبل الفجر لم تحل له المباشرة ولم يحل له الطعام والشراب ، وقد وقع أن بعضهم لم يجد طعاماً عند أهله وقت الإفطار ، فغلبه النوم ، ثم صحا فلم يحل له الطعام والشراب فواصل ، ثم جهد فى النهار التالى وبلغ أمره إلى النبى ﷺ . كما وقع أن بعضهم نام بعد الإفطار أو نامت امرأته، ثم وجد فى نفسه دفعة للمباشرة ففعل ، وبلغ أمره إلى النبى ﷺ وبدت المشقة فى أخذ المسلمين بهذا التكليف ، فردهم الله إلى اليسر وتجربتهم حاضرة فى نفوسهم ؛ ليحسوا بقيمة اليسر وبمدى الرحمة والاستجابة ، ونزلت الآيات تحل لهم المباشرة ما بين المغرب والفجر .

وهذا غاية للأكل والشرب والجماع ، ثم إذا طلع الفجر كان الإمساك عن المفطرات إلى غروب الشمس ، وهذه الإباحة ليست عامة لكل أحد ، فإن المعتكف لا يحل له ذلك ، ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف ، وأنه لا يصح إلا فى مسجد ، والوطء من مفسدات الاعتكاف ، وهذه المحرمات هى حدود الله التى حدها لعباده ونهاهم عنها وعن الوسائل الموصلة إليها ، وقد بين الله لعباده الأحكام السابقة أتم تبيين لعلهم يعرفون كيف يهتدون ويطيعون.

وفى معرض الحديث عن الصوم ، والامتناع عن المأكل والمشرب ، يرد تحذير من نوع آخر من الأكل ، أكل أموال الناس بالباطل ، عن طريق التقاضى بشأنها أمام الحكام اعتماداً على المغالطة فى القرائن والأسانيد ، واللحن بالقول والحجة ، حيث يقضى الحاكم بما يظهر له ، وتكون الحقيقة غير مابدا له ، ويجىء هذا التحذير عقب ذكر حدود الله ، والدعوة إلى تقواه ؛ ليظللها جو الخوف الرادع عن حرمات الله .

وقال ابن كثير فى تفسير الآية : « قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هذا فى الرجل يكون عليه مال ، وليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال ، ويخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام ، وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير ، وعكرمة وغيرهم ، أنهم قالوا:لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم ، وقد ورد فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال :« إنما أنا بشر، وإنما يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار ، فليحملها أو ليذرها ».

فحكم الحاكم لا يحل حراماً ، ولا يحرم حلالاً ، إنما هو ملزم فى الظاهر ، وإثمه على المحتال فيه .

وينتقل السياق ليعطى بيانا عن الأهلة ، وهو موضوع ضمن سلسلة من التساؤلات تشى بعده دلالات منها : أنها دليل على تفتح وحيوية ونمو فى صور الحياة وعلاقاتها وبروز أوضاع جديدة فى المجتمع الذى جعل يأخذ شخصيته الخاصة ، ويتعلق به الأفراد تعلقًا وثيقًا ، فلم يعودوا أولئك الأفراد المبعثرين ، إنما عادوا أمة لها كيان ونظام ، وهى تشى ثانياً بيقظة الحس الدينى ، وتغلغل العقيدة الجديدة وسيطرتها على النفوس ، مما يجعل كل فرد يتحرج أن يأتى أمرًا فى حياته اليومية قبل أن يستوثق من رأى العقيدة الجديدة فيه ، فلم تعد لهم مقررات سابقة فى الحياة يرجعون إليها ، وقد انخلعت قلوبهم من كل مألوفاتها فى الجاهلية ، وفقدوا ثقتهم بها ؛ ووقفوا ينتظرون التعليمات الجديدة فى كل أمر من أمور الحياة .

ويقول صاحب الظلال معلقاً على رد القرآن على السؤال عن الأهلة بأنها مواقيت للحج: إنه يحمل عدة دلالات فى صياغة الإجابة على هذا النحو ، وهى أنها عملية ، فعدل عن الإجابة النظرية البحتة التى تفصل الدورة الفلكية للقمر ووظيفته فى المجموعة الشمسية أو فى توازن حركة الأجرام السماوية ، وهى داخلة فى مضمون السؤال ؛ وذلك لأن هذه الإجابات لم تكن تهيأت لها البشرية بعد ، ولا تفيدها كثيراً فى المهمة الأولى التى جاء القرآن من أجلها ، وليس

مجالها على أية حال هو القرآن ، إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية ، فهذا الكتاب مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية ؛ وإن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان فى هذا الوجود وارتباطه بربه ، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظامًا للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته ومن بينها طاقته العقلية ، التى تقوم هى بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها لتعمل ـ بالبحث العلمى ـ فى الحدود المتاحة للإنسان ـ وبالتجربة والتطبيق ، وتصل إليه من نتائج ، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال.

وينتقل السياق ليصحح التصور الإيمانى للبر ، فالبر هو التقوى ، هو الشعور بالله ورقابته فى السر والعلن ، وليس شكلية من الشكليات التى لا ترمز إلى شيء من حقيقة الإيمان ، ولا تعنى أكثر من عادة جاهلية وهى إتيان البيوت من ظهورها ، ويأمر المؤمنين بإتيان البيوت من أبوابها ويكرر الإشارة إلى التقوى ، بوصفها سبيل الفلاح وبهذا ربط القلوب بحقيقة إيمانية أصيلة هى التقوى وربط هذه الحقيقة برجاء الفلاح المطلق فى الدنيا والآخرة ؛ وأبطل العادة الجاهلية الفارغة من الرصيد الإيمانى ، ووجه المؤمنين إلى إدراك نعمة الله عليهم فى الأهلة التى جعلها الله مواقيت للناس والحج .

وفى أول آية من آيات القتال نجد التحديد الحاسم لهدف القتال ، والراية التى تخاض تحتها المعركة فى وضوح ، إنه القتال لله لا لأى هدف آخر ، القتال فى سبيل الله لا فى سبيل الأمجاد والاستعلاء فى الأرض ، القتال لإعلاء كلمة الله فى الأرض ، وإقرار منهجه فى الحياة ، وما عدا هذه فهى حربٌ غيرُ مشروعة فى حكم الإسلام ، ومع تحديد الهدف تحديد المدى فلا تعتدوا فى القتال ، بارتكاب ما نهيتم عنه فى القتال ، من المثلة وقتل النساء ، والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع ، وتحريق الأشجار ، وقتل الحيوان لغير مصلحة ، والغلول ، فكل ذلك تجاوز لأمر الله فى القتال واعتداء ، والله لا يحب المعتدين الذين يتجاوزون حدوده .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إباحة الأكل والشرب والجماع فى ليالى الصيام من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

٢ ـ مشروعية الاعتكاف وخاصة فى رمضان ، وأن المعتكف لا يحلُّ له مخالطة امرأته وهو معتكف حتى تنتهى مدة اعتكافه التى عزم أن يعتكفها .

٣ ـ استعمال الكناية بدل التصريح فيما يستحيى من ذكره ، حيث كنى بالمباشرة عن الوطء .

٤ ـ حرمة انتهاك حرمات الشرع وتعدى حدوده .

٥ ـ حرمة أكل مال المسلم بغير حق سواء كان بسرقة أو بغصب أو غش،أو احتيال ومغالطة .

٦ ـ مال الكافر غير المحارب كمال المسلم فى الحرمة إلا أن مال المسلم أشد حرمة .

٧ ـ أن يسأل المرء عما ينفعه ويترك السؤال عما لا يعنيه .

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

معانى الكلمات :

ولا تعتدوا : لا تجاوزوا الحد فتقتلوا النساء والأطفال والشيوخ .

ثقفتموهم : وجدتموهم وأدركتموهم .

والفتنة : الشرك بالله وهم فى الحرم . **عند المسجد الحرام** : فى الحرم كله .

والحُرماتُ : ما تجب المحافظة عليه .

التهلكة : الهلاك بترك الجهاد والإنفاق فيه.

أُحصرتم : مُنعتم عن الإتمام بعد الإحرام.

مما استيسر : فعليكم ما تيسَّر وتسهَّل . **من الهدى** : مما يُهدى إلى البيت من الأنعام .

ولا تحلقوا رؤوسكم : لا تُحلُّوا من الإحرام بالحلق . **يبلغ الهَدىُ مِحِلَّهُ** : مكان وجوب ذبحه (الحرم) ، أو حيث أحصرتم (حلا أو حراماً) . **ففدية** : فعليه إذا حلق فدية . **نُسُكٍ** : ذبيحة ، والمراد هُنا شاةٌ .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما فى الحياة الإنسانية .

٢ ـ أن نعرف حكمة التوجيهات القرآنية والنبوية الكثيرة الداعية إلى الإنفاق .

٣ ـ أن نتعرف على شعائر الحج والعمرة .

المحتوى التربوى :

وتبدأ الآيات بأمر المسلمين بقتال هؤلاء الذين قاتلوهم وما يزالون يقاتلونهم ، وبقتال من يقاتلهم فى أى وقت وفى أى مكان ، ولكن دون اعتداء .

يقول صاحب الظلال : إنه القتال لله ، لا لأى هدف آخر من الأهداف التى عرفتها البشرية فى حروبها الطويلة القتال فى سبيل الله ، لا فى سبيل الأمجاد والاستعلاء فى الأرض ، ولا فى سبيل المغانم والمكاسب ولا فى سبيل الأسواق ؛ ولا فى سبيل تسويد طبقة أو جنس على جنس ، إنما هو القتال لإعلاء كلمة الله فى الأرض ، وإقرار منهجه فى الحياة ، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضلال والفساد، وما عدا هذه فهى حرب غير مشروعة فى حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام .

وهذه الحرب التى يقودها الإسلام واضحة الأهداف ، محددة المدى ، مرعية الآداب ، فأمرهم بعدم الاعتداء ، وجعله سبباً من أسباب النصر .

وفى هذا **يقول صاحب الظلال** : وقد كان المسلمون يعلمون أنهم لا يُنصرون بعددهم ـ فعددهم قليل ـ ولا ينصرون بعدتهم وعتادهم ـ فما معهم منه أقل مما مع أعدائهم ، إنما ينصرون بإيمانهم وطاعتهم وعون الله لهم ، فإذا هم تخلوا عن توجيه الله لهم ، وتوجيه رسول الله ﷺ فقد تخلوا عن سبب النصر الوحيد الذى يرتكنون إليه ، ومن ثم كانت تلك الآداب مرعية حتى مع أعدائهم الذين فتنوهم ومثلوا ببعضهم أشنع التمثيل .

ثم يمعن السياق فى توكيد القتال لهؤلاء الذين قاتلوا المسلمين ، وفتنوهم فى دينهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، والمضى فى القتال حتى يقتلوهم على أية حال ، وفى أى مكان وجدوهم باستثناء المسجد الحرام ، إلا أن يبدأ الكفار فيه بقتال ، وإلا أن يدخلوا فى دين الله ، فتكف أيدى المسلمين عنهم ، مهما كانوا قد آذوهم من قبل وقاتلوهم وفتنوهم.

ويقول صاحب الظلال : إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما فى الحياة الإنسانية ، ومن ثم فهى أشد من القتل ، أشد من قتل النفس وإزهاق الروح ، وإعدام الحياة ، ويستوى أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلى ، أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله ، وتزين لهم الكفر أو الإعراض عنه .

وغاية القتال هى ضمانة ألا يفتن الناس عن دين الله ، وألا يصرفوا عنه بالقوة أو ما يشبهها كقوة الوضع الذى يعيشون فيه بوجه عام، وتسلط عليهم فيه المغريات والمضللات، والمفسدات، وذلك بأن يعز دين الله ويقوى جانبه ، ويهابه أعداؤه ، فلا يجرؤوا على التعرض للناس بالأذى والفتنة ، ولا يخشى أحد يريد الإيمان أن تصده عنه قوة ، أو أن تلحق به الأذى والفتنة ، والجماعة المسلمة مكلفة بأن تظل تقاتل حتى تقضى على هذه القوى المعتدية الظالمة ، وحتى تصبح الغلبة لدين الله والمنعة ، فإذا انتهى الظالمون عن ظلمهم ، وكفوا عن الحيلولة بين الناس وربهم ، فلا عدوان عليهم ـ أى لا مناجزة لهم ، لأن الجهاد إنما يوجه إلى الظلم والظالمين .

والجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال ، ولقد كان المجاهد المسلم يجهز نفسه بعدة القتال ، ومركب القتال ، وزاد القتال ، لم تكن هناك رواتب يتناولها القادة والجند ، إنما كان هناك تطوع بالنفس وتطوع بالمال ، وهذا ما تصنعه العقيدة حين تقوم عليها النظم ، إنها لاتحتاج حينئذ أن تنفق لتحمى نفسها من أهلها أو من أعدائها ، إنما يتقدم الجند ويتقدم القادة متطوعين ينفقون هم عليها !

والإمساك عن الإنفاق فى سبيل الله تهلكة للنفس بالشح ، وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف والذلة ، وبخاصة فى نظام يقوم على التطوع ، كما كان يقوم الإسلام ، ويعقب هذا الإنفاق الإحسان فترتقى النفس فتفعل الطاعات كلها ، وتنتهى عن المعاصى كلها ، وتراقب الله فى

الصغيرة والكبيرة ، وفى السر والعلن على السواء ، وهذا التعقيب الذى ينهى آيات القتال والإنفاق ، فيكل النفس فى أمر الجهاد إلى الإحسان أعلى مراتب الإيمان .

وينتقل السياق إلى عرض موضوع المناسك والتسلسل واضح بين الحديث عن الأهلة ، وأنها مواقيت للناس والحج ، والحديث عن القتال فى الأشهرالحرم وعن المسجد الحرام ، والحديث عن الحج والعمرة ،وتتضمن الآية الأمر بأداء الحج والعمرة لله تعالى ؛ فيأتون بها على الوجه المطلوب وأن يريدوا بهما الله تعالى ، ويخبرهم أنهم إذا أحصروا فلم يتمكنوا من إتمامها ، فالواجب عليهم أن يذبحوا أو ينحروا ما تيسر لهم فإذا ذبحوا أو نحروا حلوا من إحرامهم ، وذلك بحلق شعر رؤوسهم أو تقصيره ، كما أعلمهم أن من كان منهم مريضًا أو به أذى من رأسه ، واضطر إلى حلق شعر رأسه ، أو لبس ثوب أو تغطية رأس ، فالواجب بعد أن يفعل ذلك فدية ، وهى واحد من ثلاثة على التخيير : صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين لكل مسكين حفنتان من طعام أو ذبح شاة .

كما أعلمهم أن من تمتع بالعمرة إلى الحج ، ولم يكن من سكان الحرم أن عليه ما استيسر من الهدى ـ شاة أو بقرة أو بعير ، فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيام فى الحج من أول شهر ذى الحجة إلى يوم التاسع منه ، وسبعة أيام إذا رجع إلى بلاده ، وأمرهم بتقواه ـ عز وجل ـ وهى امتثال أوامره والأخذ بتشريعه ، وحذرهم من إهمال أمره والاستخفاف بشرعه، فالله شديد العقاب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب الجهاد وهو فرض كفاية إذا وجد المؤمن مؤمنًا يُضطهد لإسلامه أويفتن فى دينه .

٢ ـ حرمة القتال عند المسجد الحرام ـ أى مكة والحرم ـ إلا أن يبدأ العدو بقتال فيه فيقاتل .

٣ ـ معيّة الله ـ تعالى ـ لأهل الإيمان والتقوى والإحسان .

٤ ـ وجوب إتمام الحج والعمرة لمن شرع فيهما بالإحرام من الميقات ، وإن كان الحج تطوعاً والعمرة فيه غير واجبة .

٥ ـ بيان حكم الإحصار وهو ذبح شاة من مكان الإحصار ، ثم التحلل بالحلق أو التقصير ، ثم القضاء من قابل إن تيسر ذلك للعبد .

٦ ـ بيان فدية الأذى وهى أن من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام بأن حلق ، أو لبس مخيطاً أو غطى رأسه لعذر ، وجب عليه فدية وهى صيام ، أو إطعام ، أو ذبح شاة .

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

معاني الكلمات :

فرض : ألزم نفسه بالإحرام . **فلا رفث** : فلا جماع ، أو لا إفحاش فى القول .

ولا جدال:لا خصام ولا مماراة ولا ملاحاة فيه . **جناح** : إثم وحرج . **فضلاً** : رزقاً بالتجارة والاكتساب فى الحج .

أفضتم : دفعتم أنفسكم بكثرة وسرتم .

المشعر الحرام : مزدلفة كلها أو جبل قُزح .

مناسككم : عباداتكم الحجية .

خَلاَق : نصيب من الخير أو قدر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على أحكام الحج وشعائره، ومدى أهميته .

٢ ـ أن نعلم أن الذكر هداية ، وهو مظهر الشكر على هذه الهداية .

٣ ـ أن نعلم أن ميزان التقوى هو الذى يزن مقادير الناس .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن بيان أحكام الحج الخاصة ، ومواعيده ، وآدابه ، وظاهر النص أن للحج وقتاً معلوماً ، وأن وقته أشهر معلومات ، هى شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذى الحجة ، وعلى هذا لا يصح الإحرام بالحج إلا فى هذه الأشهر المعلومات ، وإن كان بعض المذاهب يعتبر الإحرام صحيحاً على مدار السنة ، ويخصص هذه الأشهر المعلومات لأداء شعائر الحج فى مواعيدها المعروفه وقد ذهب إلى هذا الرأى الأئمة : أبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل .

يقول صاحب الظلال : نهى الله فى الحج عن كل ما ينافى حالة التحرج والتجرد لله فى هذه الفترة ، والارتفاع على دواعى الأرض ، والرياضة الروحية على التعلق بالله دون سواه ، والتأدب الواجب فى بيته الحرام لمن قصد إليه متجرداً حتى من مخيط الثياب !

وبعد النهى عن فعل القبيح ـ الرفث والفسوق والجدال ـ يحبب إليهم فعل الجميل : ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ ويكفى فى حس المؤمن أن يتذكر أن الله يعلم ما يفعله من خير ويطلع عليه ؛ ليكون هذا حافزاً على فعل الخير ؛ ليراه الله منه ويعلمه ، وهذا وحده جزاء ، قبل الجزاء،

وحثهم على التزود بالتقوى ـ زاد القلوب والأرواح ـ لتقتات منه ، وتتقوى وتشرق ، وعليه تستند فى الوصول والنجاة ، ولا يدرك هذا التوجيه الربانى للتقوى إلا أولو الألباب وهم خير من ينتفع بهذا الزاد .

فالإنسان الذى يكون عابداً لله فى حياته اليومية ، حين يقوم لتأدية عبادة ، فإن كيانه النفسى كله يتركز عليها ، فهو يمارس إذاً عبادة فى ظاهر أمرها مجموعة مؤلفة من عدد من الآداب والمناسك ، إلا أنها من حيث جوهرها وحقيقتها الداخلية تمثل جعل العبد نفسه أمام الله ـ عز وجل ، ذلك العبد الذى يخشى الله ـ تعالى ـ حق خشيته ، والذى تصبح قضية الحساب والمؤاخذة فى عالم الآخرة هى القضية الكبرى فى حياته الدنيا .

والمؤمن هو الإنسان الذى لا يعيش لأجل الشهوة والذى يجتنب معصية الله فى كل شؤونه ، ويظل بعيداً عن الخصومات والمنازعات فى مجال الحياة الاجتماعية ، وبما أن رحلة الحج هى فرصة ملائمة جداً لتربية هذه الصفات الخلقية ، تم فيها التأكيد على ذلك بصفة خاصة ، وبما أن الحج رحلة ، فيتركز كل اهتمام الناس ـ أو جُلّه ـ على أخذ أهبة السفر وزاد الطريق فقط ، بينما التقوى أفضل وأعظم ما يتخذ منه المسافر إلى الله زادًا ولا يمكن أن تتحد مشاعر الرجلين الداخلية خلال السفر ، فيما إذا كان أحدهما قد خرج آخذاً معه كل ما يحتاج إليه فى سفره من عُدةٍ ومتاع وكفى ، وأما الآخر خرج ورأس ماله هو تقوى الله وصدق التوجه إليه ـ جل شأنه .

إن التقوى هى الأصل والجوهر ، فإذا كانت هذه الحالة المطلوبة تتوافر فى نفس أحدٍ من الناس ، فلا يضيره معها أن يشتغل بالتجارة وكسب المعاش خلال أيام الحج ، أو أن يحدث تقديمًا أو تأخيرًا فى تأديته لبعض مناسك الحج ، والمشاعر التى ينبغى أن تكون سائدة فى الحج ، هى مشاعر الخشية الإلهية ، وذكر الله ، والشكر على آلاء الله ونعمه ، ومشاعر الخضوع والاستسلام لله ـ تبارك وتعالى ، ولا ينبغى أن يصدر خلال الحج أى عمل يناقض هذه الكيفيات السامية .

ويأمر الله ـ عز وجل ـ عباده بذكره وشكره على هذه الهداية بعد الضلال ، ويذكرهم بما كان من أمرهم قبل أن يهديهم : ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

يقول صاحب الظلال : كانت ـ ولا شك ـ تتواكب على خيالهم وذاكرتهم ومشاعرهم صور حياتهم الضالة الرزية الهابطة التى كانت تطبع تاريخهم كله ، ثم يتلفتون على أنفسهم ليروا مكانهم الجديد الذى رفعهم إليه الإسلام ، والذى هداهم الله إليه بهذا الدين ، فيدركون عمق هذه الحقيقة وأصالتها فى وجودهم كله بلا جدال .

وهذه الحقيقة ما تزال قائمة بالقياس إلى المسلمين من كل أمة ومن كل جيل من هم بغير الإسلام ؟ ومن هم بغير هذه العقيدة ؟ إنهم حين يهتدون إلى الإسلام ، وحين يصبح المنهج الإسلامى حقيقة فى حياتهم ، ينتقلون من طور وضيع صغير ضال مضطرب إلى طور آخر رفيع

عظيم مهتد مستقيم ، ولايدركون هذه النقلة إلا حين يصبحون مسلمين حقاً ؛ أى حين يقيمون حياتهم كلها على النهج الإسلامى ، وإن البشرية كلها لتتيه فى جاهلية عمياء ، ما لم تهتد إلى هذا النهج المهتدى ، ولا يدرك هذه الحقيقة إلا من يعيش فى الجاهلية البشرية التى تعج بها الأرض فى كل مكان ، ثم يحيا بعد ذلك بالتصور الإسلامى الرفيع للحياة ، ويدرك حقيقة المنهج الإسلامى الشامخة على كل ما حولها من مقاذر ومستنقعات وأوحال !

والحج هو مؤتمر المسلمين الجامع ، الذى يتلاقون فيه مجردين من كل آصرة سوى آصرة الإسلام ، متجردين من كل سمة إلا سمة الإسلام ، عرايا من كل شىء إلا من ثوب غير مخيط يستر العورة ، ولا يميز فرداً عن فرد ، ولا قبيلة عن قبيلة ، ولا جنساً عن جنس ، إن عقدة الإسلام هى وحدها العقدة ، ونسب الإسلام وحده هو النسب ، وصبغة الإسلام هى وحدها الصبغة ، وقد كانت قريش فى الجاهلية تسمى نفسها : « الحمس » ، ويتخذون لأنفسهم امتيازات تفرقهم عن سائر العرب ، ومن هذه الامتيازات : أنهم لا يقفون مع سائر الناس فى عرفات ، ولا يفيضون من حيث يفيض الناس ، فجاءهم الأمر ليردهم إلى المساواة التى أرادها الإسلام ، وإلى الاندماج الذى يلغى هذه الفوارق المصطنعة بين الناس ، وأن يستغفروا الله عن التقصير فالله غفور رحيم .

ثم أخبر ـ تعالى ـ عن أحوال الخلق ، وأن الجميع يسألونه مطالبهم ، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف ؛ فمنهم من يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته ، وليس له فى الآخرة من نصيب لرغبته عنها ، وقصر همته على الدنيا ، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين ، ويفتقر إليه فى مهمات دينه ودنياه ، وكل من هؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم ، وسيجازيهم ـ تعالى ـ على حسب أعمالهم وهمائمهم ونياتهم ، جزاء دائرا بين العدل والفضل ، يُحمد عليه أكمل حمد وأتمه ، ووصف ـ سبحانه ـ نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ؛ ليدل على كمال قدرته ، ووجوب الحذر من نقمته .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حرمة الرفث والفسوق والجدال فى الإحرام .

٢ ـ استحباب فعل الخيرات للحاج أثناء حجه ؛ ليعظم أجره ويبر حجه .

٣ ـ إباحة الاتجار والعمل للحاج ـ طلبًا للرزق ـ على ألا يحج لأجل ذلك .

٤ ـ وجوب شكر الله ـ تعالى ـ بذكره وطاعته على هدايته وإنعامه .

٥ ـ وجوب المساواة فى أداء المناسك بين سائر الحجاج ، فلا يتميز بعضهم عن بعض فى أى شىء من شعائر الحج .

٦ ـ فضيلة ذكر الله والرغبة فيه ؛ لأنه من محاب الله ـ تعالى .

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

معانى الكلمات :

ألدُّ الخصام : شديد المخاصمة فى الباطل . **الحَرْثَ** : الزَّرع . **أخذته العِزَّةُ بالإثم** : حملته الأنفه والحمَّية عليه . **فحسبه جهنم** : كافيه جزاءً نارُ جهنم . **ولبئس المهاد** : لبئس الفراش والمضجع جهنم . **يشرى نفسه** : يبيعها ببذلها فى طاعة الله . **فى السلم كافة** : فى الإسلام وشرائعه كلها . **خُطوات الشيطان** : طُرقهُ وآثاره وأعماله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نتعرف على نماذج من نفوس البشر واضحة الخصائص جاهرة السمات.

٢ ـ أن نعلم أن أول مفاهيم الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله ـ تعالى .

٣ ـ أن نعلم أن التكاليف التى يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة .

المحتوى التربوى :

تنتهى أيام الحج وشعائره ومناسكه بالتوجيه إلى ذكر الله فى الأيام المعدودات ، وهى أيام التشريق الثلاثة بعد العيد لمزيتها وشرفها ، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها ، ولكون الناس أضيافاً لله فيها ، ولهذا حرم صيامها ، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها ، ولهذا قال النبى ﷺ : «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله » ، ويدخل فى ذكر الله فيها ذكره عند رمى الجمار وعند الذبح ، والذكر المقيد عقب الفرائض ، بل قال بعض العلماء : إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر وليس ببعيد .

ومن خرج من منى ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثانى ، فلا إثم عليه بهذا التعجل ، ومن تأخر حتى رمى اليوم الثالث فلا يأثم بهذا التأخير ، فالمؤمن مخير فى التعجل والتأخر ، وإن كان التأخر أفضل ، ثم يذكرهم بمشهد الحشر بمناسبة مشهد الحج ، وهو يستجيش فى قلوبهم مشاعر التقوى أمام ذلك المشهد المخيف .

وفى ثنايا هذه الآيات والتوجيهات والتشريعات القرآنية ـ التى يتألف من مجموعها ذلك المنهج الربانى الكامل للحياة البشرية ـ يجد الناظر فى هذه التوجيهات كذلك منهجاً للتربية ، قائماً على الخبرة المطلقة بالنفس البشرية ، ومساربها الظاهرة والخفية ، يأخذ هذه النفس من أقطارها ،

كما يتضمن رسم نماذج من نفوس البشر جاهرة السمات، حتى ليخيل للإنسان وهو يتصفح خصائصها أنه يرى ذواتًا بعينها ، تدب فى الأرض، وتتحرك بين الناس ، ويكاد يضع يده عليها ، وهو يصيح : هذه هى بعينها التى عناها القرآن !

وأول هذه النماذج يتحدث عنه صاحب الظلال قائلاً : هذا المخلوق الذى يتحدث ، فيصور لك نفسه خلاصة من الخير ، ومن الإخلاص ، والتجرد ، والحب ، والترفع ، ومن الرغبة فى إفاضة الخير والبر والسعادة والطهارة على الناس ، هذا الذى يعجبك حديثه ، تعجبك ذلاقة لسانه ، يعجبك حديثه عن الخير والبر والصلاح ،﴿ وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ ﴾ زيادة فى التأثير والإيحاء ، وتوكيداً للتجرد والإخلاص ، وإظهارًا للتقوى وخشية الله ، ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ ! تزدحم نفسه باللدد والخصومة ، فلا ظل فيها للود والسماحة ، ولا موضع فيها للحب ، هذا الذى يناقض ظاهره باطنه ، ويتنافر مظهره ومخبره ، حتى إذا جاء دور العمل ظهر المخبوء ، وفضح بما فيه من حقيقة الشر والبغى والحقد والفساد .

وإذا انصرف إلى العمل ، كانت وجهته الشر والفساد ، فى قسوة وجفوة ولدد ، تتمثل فى إهلاك كل حى من الحرث الذى هو موضع الزرع والإنبات والإثمار ، ومن النسل الذى هو امتداد الحياة ، والله ـ عز وجل ـ لا يخفى عليه هذا الصنف من الناس ، ولا يجوز عليه الدهان والطلاء الذى قد يجوز على الناس فى الحياة الدنيا ، وهذا الصنف حسبه جهنم التى وقودها الناس والحجارة ، التى يكبكب فيها الغاوون وجنود إبليس أجمعون ؛ فتكون مهادهم بعد الاعتزاز والكبرياء !

ويقابل هذا النموذج النكد نموذج آخر من الناس ؛ يبيع نفسه كلها لله ؛ ويسلمها لا يستبقى منها بقية ، ولا يرجو من وراء أدائها وبيعها غاية إلا مرضاة الله ليس له فيها شىء ، وليس له من ورائها شىء ، بيعة كاملة لا تردد فيها ولا تلفت ولا تحصيل ثمن ، ولا استبقاء بقية لغير الله ، فهو يشترى نفسه بكل أعراض الحياة الدنيا ، ليعتقها ويقدمها خالصة لله ، لا يتعلق بها حق آخر إلا حق مولاه .

والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل فى عالم كله سلم وكله سلام ، والاعتقاد بالآخرة يؤدى دوره فى إفاضة هذا السلام على روح المؤمن وعالمه ؛ وينفى القلق والسخط والقنوط ، لأن الحساب الختامى ليس فى هذه الأرض ، والجزاء الأوفى ليس فى هذه العاجلة ، فالحساب الختامى هناك ، والعدالة المطلقة مضمونة فى هذا الحساب ، والاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المحموم المجنون الذى تُداس فيه القيم وتُداس فيه الحرمات بلا تحرج ولا حياء ، فهناك الآخرة فيها عطاء ، وفيها غناء ، وفيها عوض عما يفوت ، وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة فى الدنيا ، ويخلع التجمل على حركات المتسابقين ؛ وأن يخفف السعار الذى ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هى فرصة هذا العمر القصير المحدود !

ومعرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنسانى هى العبادة ، وأنه مخلوق ليعبد الله ـ من شأنها ـ ولا شك ـ أن ترفعه إلى هذا الأفق الوضىء ، ترفع شعوره وضميره ، وترفع نشاطه وعمله ، وتنظف وسائله وأدواته ، فهو يريد العبادة بنشاطه وعمله ؛ وهو يريد العبادة بكسبه وإنفاقه ؛ وهو يريد العبادة بالخلافة فى الأرض وتحقيق منهج الله فيها ، فأولى به ألا يغدر ولا يفجر ، وأولى به ألا يغش ولا يخدع ، وأولى به ألا يطغى ولا يتجبر ؛ وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ، ولا وسيلة خسيسة ، وأولى به كذلك ألا يستعجل المراحل ، وألا يعتسف الطريق ، وألا يركب الصعب من الأمور ، فهذا بالغ هدفه من العبادة بالنية الخالصة والعمل الدائب فى حدود الطاقة ، ومن شأن هذا كله ألا تثور فى نفسه المخاوف والمطامع ، وألا يستبد به القلق فى أية مرحلة من مراحل الطريق ، فهو يعبد فى كل خطوة ؛ وهو يحقق غاية وجوده فى كل خطرة ، وهو يرتقى صعداً إلى الله فى كل نشاط وفى كل مجال .

ويذكرهم أخيراً بأن الله عزيز ليلّوح بالقوة والقدرة والغلبة ، وليعلموا أنهم يتعرضون لقوة الله حين يخالفون عن توجيهه ، ويذكرهم بأنه حكيم ليعلموا أنه اختار لهم الخير ، وما نهاهم عنه هو الشر ، وأنهم يتعرضون للخسارة حين لا يتبعون أمره ولا ينتهون عما نهاهم عنه .

بعد ذلك يتخذ السياق أسلوبًا جديدًا فى التحذير من عاقبة الانحراف عن الدخول فى السلم واتباع خطوات الشيطان ، فيتحدث بطريق الغيبة بدلا من صيغة الخطاب ، ويأتى سؤال الاستنكار عن علة انتظار المترددين المتلكئين الذين لا يدخلون فى السلم كافة ، ما الذى يقعد بهم عن الاستجابة ؟ ماذا ينتظرون ؟ تراهم سيظلون هكذا فى موقفهم حتى يأتيهم الله ـ سبحانه ـ فى ظلل من الغمام وتأتيهم الملائكة ؟! وفجأة نجد أن اليوم قد جاء ، وأن كل شىء قد انتهى ، وطوى الزمان وأفلتت الفرصة ، وعزت النجاة ، ووقفوا وجها لوجه أمام الله الذى ترجع إليه وحده الأمور .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التحذير من الاغترار بفصاحة وبيان الرجل إذا لم يكن من أهل الإيمان والإخلاص .

٢ ـ شر الناس من يفسد فى الأرض بارتكاب الجرائم مما يسبب فساداً وهلاكاً للناس .

٣ ـ قول الرجل : يعلم الله ، ويشهد الله يعتبر يمينًا فليحذر المؤمن أن يقول ذلك ، وهو يعلم من نفسه أنه كاذب .

٤ ـ ما من مستحل حراماً ، أوتارك واجباً إلا وهو متبع للشيطان فى ذلك .

٥ ـ حرمة التسويف والمماطلة فى التوبة .

٦ ـ إثبات صفة المجىء لله ـ تعالى ـ لفصل القضاء يوم القيامة .

٧ ـ غاية الوجود الإنسانى هى العبادة لله ـ عز وجل .

الجزء الثاني — سورة البقرة

سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة
الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴿٢١١﴾ زين للذين
كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين
اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب
﴿٢١٢﴾ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين
ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس
فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد
ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا
لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى
صراط مستقيم ﴿٢١٣﴾ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما
يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء
وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله
ألا إن نصر الله قريب ﴿٢١٤﴾ يسألونك ماذا ينفقون قل
ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين
وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴿٢١٥﴾

٣٣

معانى الكلمات :

بغياً : البغى : الظلم والحسد .

الصراط المستقيم : الإسلام المفضى بصاحبه إلى السعادة والكمال فى الحياتين .

البأساء : الشدة من الحاجة وغيرها . **الضراء** : المرض والجراحات والقتل .

متى نصر الله : الاستفهام للاستبطاء .

من خير : من مال ؛ إذ المال يُطلق عليه لفظ الخير .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على حال الكافرين والمؤمنين ، والفرق بين ميزان من كفر ، وميزان الذين آمنوا .

٢ ـ أن نعلم قصة الاختلاف بين الناس فى التصورات والعقائد .

٣ ـ أن نتبين سنة الله ـ تعالى ـ فى تربية عباده المختارين .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن نموذج التلكؤ فى الاستجابة والذى نهجه بنو إسرائيل ، الذين لم يستجيبوا لله ، وبدلوا نعمة الله ، نعمة الإيمان والإسلام ، من بعد ما جاءتهم ، والعودة إلى بنى إسرائيل هنا طبيعة للتحذير من هذا النموذج النكد ، وموقف النشوز وعدم الدخول فى السلم كافة ؛ وموقف التعنت وسؤال الخوارق ، والاستمرار فى العناد والجحود ، وهذه مزالق الطريق إلى الله التى يحذر الله الجماعة المسلمة منها ، كى تنجو من عاقبة بنى إسرائيل المنكودة .

ويقول صاحب الظلال : وما بدلت البشرية هذه النعمة ـ أى قبول الإسلام ـ إلا أصابها العقاب الشديد فى حياتها على الأرض قبل عقاب الآخرة ، وها هى ذى البشرية المنكودة الطالع فى أنحاء الأرض كلها تعانى العقاب الشديد ، وتجد الشقوة النكدة ؛ وتعانى القلق والحيرة ؛ ويأكل بعضها بعضًا ؛ ويأكل الفرد منها نفسه وأعصابه ، ويطاردها وتطارده بالأشباح المطلقة، وبالخواء القاتل الذى يحاول المتحضرون أن يملؤوه تارة بالمسكرات والمخدرات ، وتارة بالحركات الحائرة التى يخيل إليك معها أنهم هاربون تطاردهم الأشباح ! وإن هو إلا عقاب الله ، لمن يحيد عن منهجه ، ولا يستمع لدعوته : ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة﴾ .

وقد يتساءل متسائل : ما أسباب الزلل والانحراف الذى تحياه البشرية ؟ وما أسباب استبدال نعمة الله بغيرها ؟ تجيب الآيات بأنها الحياة الدنيا ، وزينتها ، وشهواتها ، والكبر الموجود ، فى قلوب الكافرين،مما يجعلهم يحتقرون أهل الإيمان ويزدرونهم فيستكبرون بالتالى عن متابعتهم أو الكون منهم ، وذلك أول خطوة من خطوات الشيطان ، ولئن فات أهل الإيمان شىء من الدنيا وحظها بسبب الالتزام بشرع الله ، فإن الله يعوضهم عن ذلك فى الآخرة ، وقد يعطى الله عباده المؤمنين الدنيا والآخرة . والفارق الرئيسى بين أهل الكفر ، وأهل الإيمان فى الهدف أن الكافر ليس له هدف إلا فى الدنيا : مال ، شهوات، جاه ، أما المؤمن ، فليس له هدف إلا وجه الله ، ونيل رضوانه فى الآخرة ، والدنيا بالنسبة له طريق ومعبر وَمَمَرّ . وقد زينت الحياة الدنيا للكافرين عقوبة لهم فاستغرقوا فى شهواتها ، وتسلط عليهم الشيطان يحسنها فى أعينهم ، وهم يسخرون ممن لاحظ له فيها ، أو ممن يطلب غيرها وهم أهل الإيمان . والمتقون حالًا وعملًا فى يوم القيامة فى جنة عالية وهم فى نار هاوية ، الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله ، ولن تُنال إلا بمشيئة الله ، فهو المانح يمنح من يشاء ، ويفيض على من يشاء ولا خازن لعطائه ولا بواب .

وتتحدث الآيات عن الحقيقة الكبرى ، وهى اختلاف الناس ، بعد أن كانوا أمة واحدة ؛ لأن هذا الاختلاف أصل من أصول خلقتهم ، يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن فى الأرض ، إن هذه الخلافة تحتاج إلى وظائف متنوعة ، واستعدادات شتى من ألوان متعددة ؛ كى تتكامل جميعها وتتناسق ، وتؤدى دورها الكلى فى الخلافة والعمارة ، وفق التصميم المقدر فى علم الله ، فلا بد إذن من تنوع فى المواهب يقابل تنوع تلك الوظائف ؛ ولابد من اختلاف فى الاستعدادات يقابل ذلك الاختلاف فى الحاجات .

ومع هذا الاختلاف أرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وهذا التصور الإيمانى هو الأصل فى التلقى عن الله ومنهج رسله ، فلابد من ميزان ثابت يفىء إليه هذا الشتات من البشر ، وأن يكون هناك قول فصل ينتهون إليه ، ويجتمعون عليه مع هذا الاختلاف والتنوع والتمايز ، وكذلك لابد أن يكون هذا المصدر من صنع مصدر آخر غير المصدر الإنسانى يستعلى على النقص والفناء والفوت والجور والطمع والرغبة والرهبة وعلى الكون كله بما فيه ، وهذا المصدر هو الله رب العالمين لا أرب له ، ولا هوى ، ولا لذة ، ولا ضعف فى ذاته ـ سبحانه ـ ولا قصور !

وتردف الآيات بحقيقة أخرى وهى أن البغى والحسد ، وبغى الطمع والحرص والهوى هو الذى قاد الناس إلى المضى فى الاختلاف على أصل التصور والمنهج ، والمضى فى التفرق واللجاج والعناد ، وهذه حقيقة ، فما يختلف اثنان على أصل الحق الواضح فى هذا الكتاب ، القوى الصادع المشرق المنير ، ما يختلف اثنان على هذا الأصل إلا وفى نفس أحدهما بغى وهوى ، أو فى نفسيهما جميعًا ، فأما حين يكون هناك إيمان فلابد من التقاء واتفاق ، فأهل الإيمان هداهم الله بما فى نفوسهم من صفاء ، وبما فى أرواحهم من تجرد وبما فى قلوبهم من رغبة فى الوصول إلى الحق ، وما أيسر الوصول حينئذ والاستقامة ، فالله يهدى من يشاء إلى الصراط الذى يكشف عن ذلك الكتاب .

يقول صاحب الظلال : وتنتهى هذه التوجيهات التى تستهدف إنشاء تصور إيمانى كامل ناصع فى قلوب الجماعة المسلمة ، تنتهى بالتوجه إلى المؤمنين الذين كانوا يعانون فى واقعهم مشقة الاختلاف بينهم ، وبين أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب ، وما كان يجره هذا الخلاف من حروب ومتاعب وويلات ، يتوجه إليهم بأن هذه هى سنة الله فى تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة ، وليكونوا لها أهلًا : أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم ؛ وأن يلقوا فى سبيلها العنت والألم والشدة والضر ؛ وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة ، حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم ، لم تزعزعهم شدة ، فاستحقوا نصر الله ؛ لأنهم يومئذ أمناء على دين الله ، مأمونون على ما ائتمنوا عليه ، صالحون لصيانته والذود عنه ، ومن ثم ينكر الله ـ تعالى ـ على المؤمنين وهم فى أيام شدة ولأواء ظنهم أنهم يدخلون الجنة بدون امتحان وابتلاء فى النفس والمال ، بل وأن يصيبهم ما أصاب غيرهم من البأساء والضراء والزلازل ، وهو الاضطراب والقلق من الأهوال حتى يقول الرسول والمؤمنون معه ـ استبطاءً للنصر الذى وعدوا به: متى نصر الله؟ وعندما، تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة، عندئذ تمت كلمة الله، ويجيء النصر: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾

ويأتى جواب السؤال : ماذا يكون الإنفاق ؟ متضمناً بيان ما ينفقون وبيان المصرف ، فالإنفاق من كل خير ، والخير فى كثير من آيات القرآن يأتى بمعنى المال ، وهو هنا كذلك ، وطريق الإنفاق يأتى بيانه للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وكلهم يتضامنون فى رباط التكافل الاجتماعى الوثيق بين بنى الإنسان فى إطار العقيدة المتين ، ومهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه ، وسيجزيكم على ذلك أوفى الجزاء فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ التحذير من كفر النعم لما يترتب على ذلك من أليم العذاب وشديد العقاب ، ومن أجلِّ النعم نعمة الإسلام ، فمن كفر به أو أعرض عنه فقد تعرض لأشد العقوبات وأقساها .

٢ ـ الحسد سبب الاختلاف بين البشر ، فمن أراد الحق فعليه أن يتحرّر من الحسد ، ومن أراد الحق ، فليحقق الإيمان فى نفسه ، فإن الله ـ عز وجل ـ يهدى أهل الإيمان إلى الحق فيما اخُتلف فيه بإذنه .

٣ ـ من علامات خذلان الأمة وتعرضها للدمار أن تختلف فى كتاب ربها ودينها ، فيحرفون كلام الله ، ويقصون شرائعه ، ويعطلون منهجه ،وهذا الذى تعانى منه أمتنا اليوم .

٤ ـ الهداية بيد الله ، فليطلب العبد ـ دائمًا ـ الهداية من مولاه ـ تعالى ـ بسؤاله المتكرر أن يهديه دائماً إلى الحق .

٥ ـ الابتلاء خط أصيل فى الدعوات ، وتمحيص المؤمنين بالسراء والضراء طريق الجنة، والصبر عليهما سبيل الفوز برضوان الله وجنته .

الجزء الثاني — سورة البقرة

كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿٢١٦﴾ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٢١٧﴾ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم ﴿٢١٨﴾ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴿٢١٩﴾

٣٤

معانى الكلمات :

كتب : فُرض فرضاً مؤكداً . **القتال** : قتال الكافرين بجهادهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية .

كُرهٌ : مكروه فى نفوسكم .

وكفر به :كفر بالله ـ تعالى .

أهله : النبى ﷺ والمهاجرين . **الفتنة** : الشرك واضطهاد المؤمنين . **حبطت** : بطل أجرها فلا يثابون عليها . **الميسر**: القمار وسمى ميسرًا ؛ لأن صاحبه ينال المال بيسر وسهولة .

الإثم : كل ضار فاسد بالنفس أو العقل أو المال أو العرض.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم رغبة المؤمنين فى معرفة حكم العقيدة فى كل شأن من شؤون الحياة اليومية .

٢ ـ أن نتعرف على منهج الإسلام فى تربية النفس الإنسانية وقيادتها .

٣ ـ أن نعلم أن الإسلام منهج واقعى للحياة لا يقوم على مثاليات خيالية .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيحكى أن القتال فى سبيل الله فريضة شاقة ، ولكنها فريضة واجبة الأداء ؛ لأن فيها خيرًا كثيرًا للفرد المسلم ، وللجماعة المسلمة ، وللبشرية كلها ، وللحق وللخير والصلاح ، والإسلام يحسب حساب الفطرة ؛ فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ، ولا يهون من أمرها، ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطرى التى ليس إلى إنكارها من سبيل ، ولكن يعالج الأمر من جانب آخر له ، إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق .. ولكن وراءه حكمة تهون مشقته ، إنه من يدرى فلعل وراء المكروه خيراً . ووراء المحبوب شراً ، إن

العليم بالغايات البعيدة ، المطلع على العواقب المستورة ، هو الذى يعلم وحده ، حيث لا يعلم الناس شيئاً من الحقيقة .

إن هذا هو المنهج التربوى الذى يأخذ القرآن به النفس البشرية ؛ لتؤمن وتسلم وتستسلم فى أمر الغيب المخبوء ، بعد أن تعمل ما تستطيع فى محيط السعى المكشوف .

ومن قيادة الجماعة إلى السلم كانت الفتوى التالية فى أمر القتال فى الشهر الحرام .

فقد جاء وفد من مشركى قريش وسألوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : أيحل القتال فى الشهر الحرام؟ وجاء الجواب بأن قل لهم : القتال فيه وزر كبير بيد أن الصد عن دين الله والكفر به تعالى، وكذا أن الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وإخراج أهل المسجد الحرام منه ، والكفر بالله أكبر عند الله من القتل فى الشهر الحرام ، وتعذيب الكفار للمسلمين ليفتنوهم عن دينهم أشد قبحًا ، وأعظم من القتل فى الشهر الحرام ، وعداوة الكفار دائمة ، ولا يزالون يقاتلونكم ليردوكم عن دينكم إلى الكفر ، وإن استطاعوا فلن يقصروا ، ومن يرجع منكم عن الإسلام فيمت مرتداً ، فإن أعماله الصالحة كلها تبطل ، ويصبح من أهل النار الخالدين فيها أبدًا.

ويقول صاحب الظلال: « إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات ، ويشدد فى هذا المبدأ ويصونه ، ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات ، ويؤذون الطيبين ، ويقتلون الصالحين ، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر وهم فى منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التى يجب أن تصان !

ومع هذا يبقى الإسلام فى مستواه الرفيع لا يتدنى إلى مستوى الأشرار البغاة ، ولا إلى أسلحتهم الخبيثة ووسائلهم الخسيسة ، إنه ـ فقط ـ يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيديهم ، وإلى قتالهم وقتلهم ، وإلى تطهير جو الحياة منهم ، هكذا جهرة وفى وضح النهار وحين تكون القيادة فى الأيدى النظيفة الطيبة المؤمنة المستقيمة ، وحين يتطهر وجه الأرض ممن ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات ، حينئذٍ تصان للمقدسات حرمتها كاملة كما أرادها الله » .

وتوضح الآيات حقيقة أخرى فيكشف للمسلمين عن عمق الشر فى نفوس أعدائهم ، وأصالة العدوان فى نيتهم وخطتهم فى فتنة المسلمين عن دينهم ، وهو الهدف الذى لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة فى كل أرض وفى كل جيل ، ويحذر المسلمين من الارتداد عن الإسلام، فمن يرتدد عن الإسلام وقد ذاقه وعرفه ، تحت مطارق الأذى والفتنة ـ مهما بلغت ـ مصيره حبوط العمل فى الدنيا والآخرة ، ثم ملازمة العذاب فى النار خلودًا .

وهذا التحذير من الله قائم إلى آخر الزمان ، ليس لمسلم عذر فى أن يخنع للعذاب والفتنة فيترك دينه ويقينه ، ويرتد عن إيمانه وإسلامه ، ويرجع عن الحق الذى ذاقه وعرفه ، وهناك المجاهدة والمجالدة والصبر والثبات حتى يأذن الله ، والله لا يترك عباده الذين يؤمنون به ، ويصبرون على الأذى فى سبيله ، فهو معوضهم خيراً إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . وهناك رحمته التى يرجوها من يؤذون فى سبيله ؛ لا ييئس منها مؤمن عامر القلب بالإيمان .

وينتقل السياق ليبين للمسلمين حكم الخمر والقمار ، وهذه الآيات أول خطوة من خطوات التحريم ، فالأشياء والأعمال قد لا تكون شراً خالصاً ، فالخير يلتبس بالشر والعكس ، ولكن مدار الحل والحرمة هو غلبة الخير أو الشر ، فإذا كان الإثم فى الخمر والميسر أكبر من النفع ، فتلك علة تحريم ومنع ، وإن لم يصرح هنا بالتحريم والمنع .

وهنا يبدو طرف من منهج التربية الإسلامى القرآنى الحكيم عندما يتعلق الأمر أو النهى بعادة وتقليد ، أو وضع اجتماعى معقد ، فإن الإسلام يتريث به ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج ، ويهيئ الظروف الواقعية التى تيسر التنفيذ والطاعة ؛ ولكن إذا تعلق الأمر بمسألة اعتقادية ، فإن الإسلام يقضى فيها قضاءً حاسمًا منذ اللحظة الأولى ؛ لأن المسألة هنا مسألة قاعدة أساسية للتصور الإيمانى ، لا يصلح بدونها إيمان ولا يقام إسلام .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ « الجهاد واجب على كل أحد غزا ، أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استُعين ، أن يعين ، وإذا استُغيث أن يُغيث ، وإذا استُنفر أن ينفر ، وإن لم يحتج إليه ، قعد [قاله الزهرى] »

٢ ـ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فإذا كان قتال الكافرين حتى تكون كلمة الله هى العليا فى العالم فريضة ، فإن كل المقدمات اللازمة لذلك تكون من باب الفرائض ، من التكوين الجهادى ، إلى التنظيم المناسب الذى يقيم دولة الإسلام فى كل قطر إسلامى ، إلى وحدة الأقطار الإسلامية ، إلى التصنيع والتخطيط ، إلى التعبئة العامة .

٣ ـ المحن التى تتعرض لها الدعوة تمحص الدعاة إلى الله ، والصبر على المحن يسفر عن أولئك الذين ظلت ثقتهم بالله حية مع شدة البلاء ، وعن أولئك الذين فقدوا هذه الثقة بالله ـ تعالى ، ولم يستطيعوا الثبات .

٤ ـ مدار الحل والحرمة فى الأشياء هو غلبة الخير أو الشر ، وحكم الشرع فيها لا نظرة الإنسان للأشياء .

الجزء الثاني — سورة البقرة

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ
خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ
الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾
وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ
مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ
يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ
وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾
نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ
﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا
وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

٣٥

معانى الكلمات :

تخالطوهم: تخلطون مالهم مع مالكم ليكون سواء . **لأعنتكم**: العنت : المشقة الشديدة، والمعنى : لكلّفكم ما يشق عليكم .

ولا تنكحوا : ولا تتزوجوا .

الأمة : خلاف الحرة . **المحيض** : دم يخرج من الرحم إذا خلا من الجنين . **أذى** : ضرر يضر المجامع فى أيامه .

فأتوهن من حيث أمركم الله : أى جامعوهن فى قبلهن وهن طاهرات .

عُرضة : ما يوضع مانعاً من شىء : أى يحلف بالله ألا يفعل خيراً .

الأيمان : الحلف جمع يمين .

البر : الطاعة وفعل الخير .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعلم أن التكافل الاجتماعى هو قاعدة المجتمع الإسلامى .

٢ـ أن نتعرف على جانب من جوانب دستور الأسرة .

٣ـ أن نعلم أحكام الإسلام فى الزواج ، ومباشرة الحُيَّض ، واليمين التى تنعقد .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن إحدى قواعد المجتمع الإسلامى وهى التكافل الاجتماعى ، والجماعة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها ، واليتامى أولى برعاية الجماعة وحمايتها ، رعايتها لنفوسهم وحمايتها لأموالهم ، ولقد كان بعض الأوصياء يخلطون طعام اليتامى بطعامهم ، وأموالهم بأموالهم للتجارة فيها جميعاً ؛ وكان الغبن يقع أحيانا على اليتامى ، فنزلت الآيات فى التخويف من أكل مال الأيتام ، عندئذ تحرج الأتقياء حتى عزلوا طعام اليتامى من طعامهم ! وهذا تشدد ليس من طبيعة الإسلام ، فرد القرآن المسلمين إلى الاعتدال واليسر فى تناول الأمور، وإلى تحرى خير اليتيم ، والتصرف فى حدود مصلحته ، فالإصلاح لهم خير من اعتزالهم، والمخالطة لا حرج فيها إذا حققت الخير لليتيم ، فهم إخوان للأوصياء ، والله يعلم المفسد من المصلح .

وينتقل السياق ليتحدث عن الأسرة باعتبارها محضن التربية الذى يتولى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها ، وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها ؛ وفى ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل، وتنطبع بالطابع الذى يلازمها مدى الحياة ، وعلى هديه ونوره تتفتح للحياة وتتعامل معها .

ويقول صاحب الظلال : النكاح ـ وهو الزواج ـ أعمق وأقوى وأدوم رابطة بين اثنين من بنى الإنسان ؛ وتشمل أوسع الاستجابات التى يتبادلها فردان ، فلابد إذن من توحد القلوب ، والتقائها فى عقدة لا تحل ، ولكى تتوحد القلوب يجب أن يتوحد ما تنعقد عليه ، وما تتجه إليه ، والعقيدة الدينية هى أعمق وأشمل ما يعمر النفوس ، ويؤثر فيها ، ويكيف مشاعرها ، ويحدد تأثيراتها واستجاباتها ، ويعين طريقها فى الحياة كلها » .

لذا نظم النبى ﷺ المجتمع المسلم الجديد فى المدينة محرماً عليه إنشاء أى نكاح جديد بين المسلمين والمشركين ، فحرام أن يربط الزواج بين قلبين لا يجتمعان على عقيدة ، إنه فى هذه الحالة رباط زائف واهٍ ضعيف ، إنهما لا يلتقيان فى الله ، ولا تقوم على منهجه عقدة الحياة ، والله الذى كرم الإنسان ورفعه على الحيوان يريد لهذه الصلة ألا تكون ميلاً حيوانياً ولا اندفاعاً شهوانياً ، إنما يريد أن يرفعها حتى يصلها بالله فى علاه ، ويربط بينها وبين مشيئته ومنهجه فى نمو الحياة وطهارتها .

هنا نتذكر أن الله لم يحرم زواج المسلم من كتابية ـ مع اختلاف العقيدة ـ ولكن الأمر هنا يختلف،إن المسلم والكتابية يلتقيان فى أصل العقيدة فى الله ، وإن اختلفت التفصيلات التشريعية ، وهناك خلاف فقهى فى حالة الكتابية التى تعتقد أن الله ثالث ثلاثة ، أو أن الله هو المسيح ابن مريم ، أو أن العزير ابن الله ، أهى مشركة محرمة ، أم تعتبر من أهل الكتاب وتدخل فى النص الذى فى المائدة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ﴾ ، ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ، والجمهور على أنها تدخل فى هذا النص .

وينتقل السياق إلى لافتة أخرى إلى تلك العلاقة التى ترفعها إلى الله كما **يقول صاحب الظلال**: وتسمو بأهدافها عن لذة الجسد حتى فى أشد أجزائها علاقة بالجسد ، فى المباشرة ، إن المباشرة فى تلك العلاقة وسيلة لا غاية ؛ وسيلة لتحقيق هدف أعمق فى طبيعة الحياة ـ هدف النسل وامتداد الحياة ، ووصلها كلها بعد ذلك بالله ، والمباشرة فى المحيض قد تحقق اللذة الحيوانية ، مع ما ينشأ عنها من أذى ومن أضرار صحية مؤكدة للرجل والمرأة سواء ـ ولكنها لا تحقق الهدف الأسمى فضلًا عن انصراف الفطرة السليمة النظيفة عنها فى تلك الفترة ؛ ولأن المباشرة فى الطهر تحقق اللذة الطبيعية ، وتحقق معها الغاية الفطرية ، ومن ثم جاء ذلك النهى عن اعتزال النساء فى المحيض .

ثم تتناول الآيات جانباً من جوانب هذه العلاقة العميقة الكبيرة معبراً عنها بالحرث لا تساق السياق مع الإخصاب والتوالد والنماء ، وما دام حرثًا فأتوه بالطريقة التى تشاؤون ، ولكن فى

موضع الإخصاب الذى يحقق غاية الحرث ، وفى الوقت نفسه تذكروا الغاية والهدف ، واتجهوا إلى الله فيه بالعبادة والتقوى ؛ ليكون عملاً صالحاً تقدمونه لأنفسكم ، واستيقنوا من لقاء الله ، الذى يجزيكم بما قدمتم ، وتختتم الآية بتبشير المؤمنين .

ويقول صاحب الظلال : هنا نطلع على سماحة الإسلام ، الذى يقبل الإنسان كما هو ، بميوله وضروراته ؛ ولا يحاول أن يحطم فطرته باسم التسامى ، والتطهر ، ولا يحاول أن يستقذر ضروراته التى لا يد له فيها ، إنما هو مكلف إياها فى الحقيقة لحساب الحياة وامتدادها ونمائها ! إنما يحاول فقط أن يقرر إنسانيته ويرفعها ، ويصله بالله وهو يلبى دوافع الجسد ، يحاول أن يخلط دوافع الجسد بمشاعر إنسانية أولاً ، وبمشاعر دينية أخيراً ؛ فيربط بين نزوة الجسد العارضة وغايات الإنسان الدائمة ورفرفة الوجدان الدينى اللطيف ؛ ويمزج بينها جميعًا فى لحظة واحدة ، وحركة واحدة واتجاه واحد ، ذلك المزج القائم فى كيان الإنسان ذاته ، خليفة الله فى أرضه ، المستحق لهذه الخلافة بما ركب فى طبيعته من قوى وبما أودع فى كيانه من طاقات ، وهذا المنهج فى معاملة الإنسان هو الذى يلاحظ الفطرة كلها ، لأنه من صنع خالق هذه الفطرة ، وكل منهج آخر يخالف عنه فى قليل أو كثير يصطدم بالفطرة فيخفق ، ويشقى الإنسان ـ فردًا وجماعة : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ .

وينهاهم ـ أخيرًا ـ عن جعل الله عرضة لأيمانهم ألا يفعلوا الخير ، ولكن عليهم أن يكفروا عنها ويصنعوا الخير ، مصداقا لقوله ﷺ : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذى هو خير » رواه مسلم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ـ يجب أن تدور المعاملات المشتركة بين الناس فى الحياة العامة وفق أساليب مؤدية إلى الإصلاح ، بعيداً عن تلك الأساليب التى يمكن أن تتسبب فى حدوث أى نوع من الشر والفساد فى المجتمع .

٢ ـ الإنسان المسلم هو الذى يجعل الآخرة هدفه فى الحياة ، والذى يغدو ويروح وقلبه يحترق شوقاً ولهفة للحصول على رضوان ربه .

٣ ـ ينبغى أن يكون الإيمان العنصر الأول والأساسى الذى يتم عليه اختيار الزوج والزوجة .

٤ ـ أن يكون الاتصال الجنسى بين الزوج وزوجته جارياً وفق أسلوبه الفطرى السليم وفى إطار الحكم الشرعى .

٥ ـ ينبغى أن تكون مخافة الله وتقواه الصفة الغالبة على الإنسان فى كل مراحل حياته فلا يتخذ أى خطوة عملية إلا ويسبقها طول الأناة والتفكير فى أن مرجعه إلى الله .

لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم (٢٢٥) للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءو فإن الله غفور رحيم (٢٢٦) وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم (٢٢٧) والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم (٢٢٨) الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون (٢٢٩) فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون (٢٣٠)

٣٦

معانى الكلمات :

اللغو : الباطل ، وما لا خير فيه . ولغو اليمين أن يحلف العبد على شىء من غير إرادة الحلف . **كسبت قلوبكم** : ما تعمدتم وقصدتم من الأيمان .

يؤلون : الإيلاء : الحلف على عدم وطء الزوجة . **التربص** : الانتظار والتمهل . **فاؤوا** : رجعوا إلى وطء نسائهم بعد الامتناع عنه باليمين . **الطلاق** : فك رباط الزوجية بقوله : هى طالق أو مطلقة أو طلقتك . **قروء** : القرء إما مدة الطهر ، أو مدة الحيض .

وبعولتهن : أزواجهن .

فلا جناح عليهما : أى لا إثم ولا حرج عليهما .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف حكم العدول عن اليمين وحكم يمين اللغو .

٢ ـ أن نتعرف على حديث القرآن عن يمين الإيلاء وما فيه من أحكام .

٣ ـ أن نعلم أحكام الطلاق فى الإسلام وما وراءها من تبعات .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق فى هذه الآيات من الحديث عن أحكام الأسرة ـ السابق ذكرها آنفًا ـ إلى الحديث عن الأيمان ـ والسياق هنا مناسب ، لأن الأيمان تكثر فى الحياة الزوجية والعائلية ، والحياة الزوجية معرضة للفساد ومن ثَمَّ جاءت آيتان فى الأيمان ، ثم جاءت فقرة لاحقة ، تبدأ بكلام عن نوع من الأيمان يؤثر على الحياة الزوجية ، وهو الإيلاء .

ويقول صاحب الظلال « ... واليمين التى لا تنعقد النية على ما وراءها ، إنما يلغو بها اللسان ، لا كفارة فيها ، وأن اليمين التى ينوى الحالف الأخذ أو الترك لما حلف عليه هى التى تنعقد ، وهى التى تستوجب الكفارة عند الحنث بها ، وأنه يجب الحنث بها إن كان مؤداها الامتناع عن فعل الخير أو الإقدام على فعل الشر . فأما إذا حلف الإنسان على الشىء يستيقن أنه كذلك ، ثم

يوجد بخلافه فلا كفارة فيه ، والذى يحلف على الشىء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحداً ، ويقتطع به مالاً ، فهذا أعظم من أن تكون فيه كفارة ».

ويأتى الحديث عن الإيلاء ؛ لأن هناك حالات نفسية واقعة ، تلم بنفوس بعض الأزواج ، بسبب من الأسباب فى أثناء الحياة الزوجية وملابساتها الواقعية الكثيرة ، تدفعهم إلى الإيلاء بعدم المباشرة ، وفى هذا الهجران ما فيه من إيذاء لنفس الزوجة؛ومن إضرار بها نفسيًا وعصبيًا ؛ ومن إهدار لكرامتها كأنثى ، ومن تعطيل للحياة الزوجية ، ومن جفوة تمزق أوصال العشرة ، وتحطم بنيان الأسرة حين تطول عن أمد معقول .

ويقول صاحب الظلال : « ولم يعمد الإسلام إلى تحريم الإيلاء منذ البداية ؛ لأنه قد يكون علاجاً نافعاً فى بعض الحالات للزوجة الشامسة المستكبرة المختالة بفتنتها وقدرتها على إغراء الرجل وإذلاله أو إعناته . كما قد يكون فرصة للتنفيس عن عارض سأم ، أو ثورة غضب ، تعود بعده الحياة أنشط وأقوى ، ولكنه لم يترك الرجل مطلق الإرادة كذلك ، لأنه قد يكون باغياً فى بعض الحالات يريد إعنات المرأة وإذلالها ؛ أو يريد إيذاءها لتبقى معلقة ، لا تستمتع بحياة زوجية معه ، ولا تنطلق من عقالها هذا لتجد حياة زوجية أخرى .

فتوفيقاً بين الاحتمالات المتعددة ، ومواجهة للملابسات الواقعية فى الحياة ، جعل هناك حداً أقصى للإيلاء ، لا يتجاوز أربعة أشهر ، وهذا التحديد قد يكون منظوراً فيه إلى أقصى مدى احتمال كى لا تفسد المرأة ، فتتطلع تحت ضغط حاجتها الفطرية إلى غير رجلها الهاجر .

وينتقل السياق للحديث عن الطلاق وهو حادث غير عادى ، يحصل فى ظروف استثنائية غير عادية ، ولقد أوصى الإسلام بالإحسان فى المعاملة والالتزام بتقوى الله ـ عز وجل ـ فى هذه القضية العاطفية للغاية ، ويطالب الإسلام بأن تتم عملية إنهاء علاقة الزوجية تدريجياً فى مراحل ثلاث ، بدلاً من إنهائها مرةً واحدةً ، ولتقرير مثل هذا المنهج الجدى المتوازن فى شأن قضية متناهية فى الإثارة كالطلاق ، دلالته الواضحة على ذلك الموقف السلوكى الذى ينبغى أن يتخذه المؤمن عند نشوء الاختلاف والخصومة ، إذا المطلوب من المؤمن أن يكون موقفه تجاه خصمه موقفاً غير عاطفى ، مبنياً على طول التأنى والروية .

وهكذا جميع الآداب والشروط الأخرى المتصلة بالطلاق ، تتضمن كلها دروساً ومعانى عميقة للحياة الإنسانية الفاضلة . ما يتلخص فى أن تُتاح فترة من الزمن ملحوظة لا يزال المرء يفكر فيها فى إمكانية إعادة الوفاق والوحدة من جديد بعد تصميمه على المفارقة ، وألا يُعد انتهاء العلاقات والروابط الشرعية مرادفاً لانتهاء حقوقه الإنسانية ، فلابد من التزام الحدود التى رسمها الله ـ تبارك وتعالى ـ بالنسبة للتصرفات المتبادلة بين الناس ، وألا يُلغى حكم من الأحكام

الشرعية ببعض الحيل ، ولا يسترد الزوج بعد الفراق شيئاً مما كان قد أعطاه لزوجته قبل الفراق ، كما ينبغى أن تُقضى أيام الفصل والمفارقة بالمعروف كما قُضيت أيام التلاقى والارتباط .

وتلك الحدود أمر الله ألا يتعداها المسلمون لئلا يصبحوا من الظالمين ؛ لأن المحظورات المشتهاة شديدة الجاذبية ، كما يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : فمن الخير أن يكون التحذير من مجرد الاقتراب من حدود الله فيها ؛ اتقاء لضعف الإرادة أمام جاذبيتها إذا اقترب الإنسان من مجالها ووقع في نطاق حبائلها !

والمجال هنا مجال مكروهات واصطدامات وخلافات ، فالخشية هنا هى الخشية من تعدى الحدود فى دفعة من دفعات الخلاف ؛ وتجاوزها وعدم الوقوف عندها . فجاء التحذير من التعدى لا من المقاربة التى ذكرت فى حدود آية الصوم فتلك محظورات فقال ـ عز وجل : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ ، وهنا فى هذه المناسبة مكروهات وخلافات ، فقال ـ عز وجل : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ .

وهى دقة فى التعبير عن المقتضيات المختلفة عجيبة ! ونمضى مع السياق فى أحكام الطلاق ، فإن الزوج إذا طلقها مرة ثالثة بعد المرتين ، فلا تحل له من بعد التطليقة الثالثة حتى تنكح زوجاً غيره ، ويكون النكاح صحيحاً ويبنى بها الزوج الثانى فإن طلقها الثانى ، بعد البناء والخلوة والوطء ، أو مات عنها جاز لها أن تعود إلى الأول إن رغب هو فى ذلك ، وعلما من أنفسهما أنهما يقيمان حدود الله فيهما بإعطاء كل واحد حقوق صاحبه مع حسن العشرة ، وإلا فلا مراجعة تحل لهما ، ثم ينوه ـ تعالى ـ بشأن تلك الحدود وأنها شرائعه يبينها ـ سبحانه وتعالى ـ لقوم يعلمون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ينبغى أن يكون موقف المسلم تجاه خصمه محكومًا بالتأنى والرَّوية لا بالعاطفة ؛ حتى لايندم على مواقفه تجاه الآخرين .

٢ ـ الزواج رباط مقدس لا ينبغى أن تنفصم عروته لأوهى الأسباب ، أو فى ثورة الغضب، فإن أبغض الحلال عند الله الطلاق .

٣ ـ كراهية منع الخير بسبب اليمين ، وعليه فمن حلف ألا يفعل خيراً فليكفر عن يمينه، وليفعل الخير ، لما ورد فى الحديث : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ، فليكفر عن يمينه وليأت الذى هو خير » .

٤ ـ تحريم الظلم وهو ثلاثة أنواع : ظلم الشرك وهذا لا يغفر للعبد إلا بالتوبة منه ، وظلم العبد لأخيه الإنسان وهذا لابد من التحلل منه ، وظلم العبد لنفسه بتعدى حدود الله وهذا أمره إلى الله إن شاء غفره وإن شاء أخذ به .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)
وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ
مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ
حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ
وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ
فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ
أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا
آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

نصف الحزب ٤

معانى الكلمات :

أجلهن : أجل المطلقة مقاربة انتهاء أيام عدتها .سرحوهن: تسريح المطلقة تركها بلا مراجعة لها حتى تنقضى عدتها . **ضراراً** : مضارة لها وإضراراً بها . **هزواً** : لعباً بها بعدم التزامكم بتطبيق أحكامها .

فلا تعضلوهن : أى لا تمنعوهن من التزوج مرة أخرى بالعودة إلى الذى طلقها ولم يراجعها حتى انقضت عدتها .

حولين : عامين .وعلى **المولود له** : أى على الأب . وعلى **الوارث** : الرضيع نفسه .

فصالاً : فطاماً للولد قبل نهاية العامين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يتعلم الأزواج المعروف واليسر والحسنى بعد الطلاق فى جميع الأحوال .

٢ ـ أن نتعرف على توجيهات الإسلام فى تنظيم الحياة الزوجية وإقامتها على الجد والصدق .

٣ ـ أن نعلم توجيه الإسلام فى بيان علاقة الأزواج بعد الطلاق فيما يتعلق بالنسل وحق الرضاع .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن التوجيه الإلهى للأزواج المطلقين إلى المعروف واليسر والحسنى بعد الطلاق فى جميع الأحوال ، فالمعروف والجميل والحسنى يجب أن يسود جو هذه الحياة ، سواء اتصلت حبالها أو انفصمت عراها ، ولا يجوز أن تكون نيّة الإيذاء والإعنات عنصرًا من عناصرها . ولا يحقق هذا المستوى الرفيع من السماحة فى حالة الانفصال والطلاق التى تتأزم فيها النفوس ، إلا عنصر أعلى من ملابسات الحياة الأرضية ، عنصر يرفع النفوس عن الإحن والضغن ، ويوسع من آفاق الحياة ، ويمدها وراء الحاضر الواقع الصغير ، هو عنصر الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وتذكر نعمة الله فى شتى صورها ابتداء من نعمة الإيمان ـ أرفع النعم ـ إلى نعمة الصحة والرزق واستحضار تقوى الله والرجاء فى العوض منه عن الحياة الزوجية الفاشلة والنفقة الضائعة ، وهذا العنصر الذى تستحضره الآيتان اللتان تتحدثان هنا عن إيثار المعروف والجميل والحسنى ، سواء اتصلت حبال الزوجية أو انفصمت عراها .

ويقول صاحب الظلال : لقد كانت المرأة فى الجاهلية تلاقى من العنت ما يتفق وغلظة الجاهلية وانحرافها ، كانت تلقى هذا العنت طفلة توأد فى بعض الأحيان ، أو تعيش فى هوان ومشقة وإذلال ! وكانت تلقاه زوجة هى قطعة من المتاع للرجل ،أغلى منها الناقة والفرس وأعز! وكانت تلقاه مطلقة ، تعضل فتمنع من الزواج حتى يسمح مطلقها ويأذن ! أو يعضلها أهلها دون العودة إلى مطلقها ، إن أرادا أن يتراجعا ، وكانت النظرة إليها بصفة عامة نظرة هابطة زرية ؛ شأنها فى هذا الشأن سائر الجاهليات السائدة فى الأرض فى ذلك الأوان . ثم جاء الإسلام ، ينسم على حياة المرأة هذه النسمات الرخية التى نرى هنا نماذج منها ، وجاء يرفع النظرة إليها فيقرر ، أنها والرجل نفس واحدة من خلقة بارئها ، وجاء يرتفع بالعلاقات الزوجية إلى مرتبة العبادة عند الإحسان فيها . هذا ولم تطلب المرأة شيئًا من هذا ولا كانت تعرفه، ولم يطلب الرجل شيئًا من هذا ولا كان يتصوره ، إنما هى الكرامة التى أفاضها الله من رحمته للجنسين معاً ، على الحياة الإنسانية جميعاً .

وآيات الله التى تحدثت فى العشرة والطلاق واضحة مستقيمة جادة ؛ تقصد إلى تنظيم هذه الحياة وإقامتها على الجد والصدق ، فإذا هو استغلها فى إلحاق الإضرار والأذى بالمرأة ، متلاعباً بالرخص التى جعلها الله متنفساً وصمام أمن ، واستخدام حق الرجعة الذى جعله الله فرصة لاستعادة الحياة الزوجية وإصلاحها ، فى إمساك المرأة لإيذائها وإشقائها ، إذا فعل شيئًا من هذا فقد اتخذ آيات الله هزوًا ،فالله يأمر عباده المؤمنين إذا طلق أحدهم امرأته وقاربت نهاية عدتها أن يراجعها فيمسكها بمعروف ، والمعروف هو حسن عشرتها أو يتركها حتى تنقضى عدتها ويسرحها بمعروف ، فيعطيها كامل حقوقها ، ولا يذكرها إلا بخير ، ويتركها تذهب حيث شاءت ، وحرم على أحدهم أن يراجع امرأته من أجل أن يضر بها ، فلا هو يحسن إليها ، ولا يطلقها فتستريح منه ، ومن يفعل ذلك ، فقد عرض نفسه للعذاب الأخروى ، كما نهى ـ تعالى ـ عن التلاعب بالأحكام الشرعية ، وذلك بإهمالها وعدم تنفيذها ، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم حيث منَّ عليهم بالإسلام ـ دين الرحمة والعدالة والإحسان ، وذلك ليشكروه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، كما عليكم أن تذكروا ما أنزل الله عليكم من القرآن والسنة يذكركم به ويخوفكم ، وتذكر ذلك إنما يكون بالشكر بالقيام بالحق ، واتقوا الله فيما امتحنكم به ، والله لا يخفى عليه من أمركم شىء ، وإذا طلقتم النساء فانقضت عدتهن فلا تمنعوهن أن يتزوجن من أزواجهن الأول اللائى يرغبن فيهم ، ويصلحون لهن إذا تراضى الخطاب والنساء ضمن حدود المعروف ، وهذا ليتعظ به أهل الإيمان بالله واليوم الآخر فهم أهل الاستجابة والموعظة تنجح فيهم ، وترك العضل والضرار أفضل وأطيب لأنفسكم ، وأطهر لها من أدناس أهل الآثام ، والله هو العالم وأنتم لا تعلمون ، ومن ثم فهو الذى يحكم ، ويأمر وينهى ، ويشرع ، وليس لكم شىء من ذلك ، فما أجهل من نازع الله حق التشريع .

وبعد أن رفع الله الأمر كله إلى أفق العبادة ، وعلقه بعروة الله ، وطهره من شوائب الأرض ، وأدران الحياة ، وملابسات الشد والجذب التى تلازم جو الطلاق والفراق كفل للفراخ الناشئة

ضمانات دقيقة مفصلة ، تستوفى كل حالة من الحالات : فعلى الوالدة المطلقة واجبٌ تجاه طفلها الرضيع واجب يفرضه الله عليها ولا يتركها فيه ، لفطرتها وعاطفتها التى قد تفسدها الخلافات الزوجية ، فيقع الغرم على هذا الصغير . إذن يكفله الله ويفرض له فى عنق أمه ، فالله أولى بالناس من أنفسهم ، وأبر منهم وأرحم من والديهم ، والله يفرض للمولود على أمه أن ترضعه حولين كاملين ؛ لأنه ـ سبحانه ـ يعلم أن هذه الفترة هى المثلى من جميع الوجوه الصحية والنفسية للطفل: ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ ، وللوالدة فى مقابل ما فرضه الله عليها حق على والد الطفل ؛ أن يرزقها ويكسوها بالمعروف والحسنى ، فكلاهما شريك فى التبعية ، وكلاهما مسؤول تجاه الصغير الرضيع ، هى تمده باللبن والحضانة ، وأبوه يمدها بالغذاء والكساء لترعاه .

ولا ينبغى أن يتخذ أحد الوالدين من الطفل لمضارة الآخر فلا يستغل الأب عواطف الأم وحنانها ولهفتها على طفلها ، ليهددها فيه أوتقبل رضاعته بلا مقابل . ولا تستغل هى عطف الأب على ابنه وحبه له لتثقل كاهله بمطالبها والواجبات الملقاة على الوالد تنتقل فى حالة وفاته إلى وارثه الراشد ، فهو المكلف أن يرزق أمه ويكسوها بالمعروف والحسنى ـ تحقيقاً للتكافل العائلى الذى يتحقق طرفه بالإرث ، ويتحقق طرفه الآخر باحتمال تبعات المورث ، فإذا شاء الوالد والوالدة أوالوالدة والوارث ، أن يفطما الطفل قبل استيفاء العامين ؛ لأنهما يريان مصلحة للطفل فى ذلك الفطام ، لسبب صحى أو سواه ، فلا جناح عليهما ، إذا تم هذا بالرضا بينهما ، وبالتشاور فى مصلحة الرضيع الموكول إليهما رعايته ، المفروض عليهما حمايته ، كذلك إذا رغب الوالد فى أن يحضر لطفله مرضعاً مأجورة حين تحقق مصلحة الطفل ، فى هذه الرضاعة فله ذلك على شرط أن يوفى المرضع أجرها، وأن يحسن معاملتها ؛ فذلك ضمان لأن تكون للطفل ناصحة ، وله راعية وواعية . وفى النهاية يربط الأمر كله بذلك الرباط الإلهى .. بالتقوى، بذلك الشعور العميق اللطيف الذى يكل إليه ما لا سبيل لتحقيقه إلا به . ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حرمة التلاعب بالأحكام الشرعية بعدم مراعاتها أو التحايل عليها ، فالمؤمن لا يتعدى حدود الله ، ولا يتخذ آياته هزواً .

٢ ـ وجوب تقوى الله فى السر والعلن ، ومراقبة الله ـ تعالى ـ فى سائر شؤون الحياة لأنه بكل شىء عليم .

٣ ـ وجوب ذكر نعمة الله على العبد ، وذلك بذكرها باللسان ، والاعتراف بها بالجنان ، وحمده عليها آناء الليل وأطراف النهار .

٤ ـ الموعظة لا ينتفع بها إلا أهل الإيمان وأصحاب القلوب المخبتة لربها ، والنصيحة لا تقع عند كل الناس موضع الرضا والقبول بمجرد كونها مبنية على الحق ، بل يقبلها راسخ الإيمان بالله، المستشعر رقابة الله ـ عز وجل ـ على أعماله فى الدنيا ، والمجازى له بها فى الآخرة .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ
أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا
وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ
مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ
قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ
الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ
وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

معانى الكلمات :

يتوفون : يموتون . **يذرون أزواجاً** : يتركون زوجات لهم . **يتربصن بأنفسهن** : ينتظرن حتى انقضاء عدتهن وهى أربعة أشهر وعشر ليال . **بلغن أجلهن** : بلغن انتهاء العدة . **الجناح** : الإثم المترتب على المعصيّة . **ما لم تمسوهن** : ما لم تجامعوهنّ.

أو تفرضوا : تُقدّروا لهن مهراً . **المقتر** : الضيّق العيش . **الذى بيده عقدة النكاح** : هو الزوج .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتبين حكم المتوفى عنها زوجها فى عدتها ، وخطبتها بعد انقضاء العدة والتعريض بالخطبة فى أثنائها .

٢ ـ أن نعلم حكم المطلقة قبل الدخول بها .

٣ ـ أن نعرف أن الإحسان والمعروف فى العشرة عبادة لله ـ تعالى .

المحتوى التربوى :

يتواصل السياق برعايته للمرأة التى كانت تلقى العنت والمشقة بعد وفاة زوجها من الأهل وقرابة الزوج والمجتمع كله، وعند العرب كانت إذا مات زوجها دخلت مكانًا رديًا ، ولبست شر ثياب ، ولم تمس طيباً ولا شيئاً مدة سنة ، ثم تخرج فتقوم بعدة شعائر سخيفة تتفق مع سخف الجاهلية ، من أخذ بعرة وقذفها ومن ركوب دابة : حمارة أو شاة .. إلخ فلما جاء الإسلام خفف عنها هذا العنت ، بل رفعه كله عن كاهلها ، ولم يجمع عليها فقدان الزوج واضطهاد الأهل بعده، وإغلاق السبيل فى وجهها دون حياة شريفة ، وحياة عائلية مطمئنة . جعل عدتها أربعة أشهر وعشر ليال ـ ما لم تكن حاملاً فعدتها عدة الحامل ـ وهى أطول قليلاً من عدة المطلقة . تستبرئ فيها رحمها ، ولا تجرح أهل الزوج فى عواطفهم بخروجها لتوها ، وفى أثناء هذه العدة تلبس ثياباً محتشمة ، ولا تتزين للخطاب .

فأما بعد هذه العدة فلا سبيل لأحد عليها ، سواء من أهلها أو من أهل الزوج ، ولها مطلق حريتها فيما تتخذه لنفسها من سلوك شريف فى حدود المعروف من سنة الله وتشريعه ، فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات ، ولها أن تتلقى خطبة الخطاب ، ولها أن تزوج نفسها ممن ترتضى ، لا تقف فى سبيلها عادة بالية ، ولا كبرياء زائف . وليس عليها من رقيب إلا الله .

ويقول صاحب الظلال : هذا شأن المرأة ، ثم يلتفت السياق إلى الرجال الراغبين فيها فى فترة العدة فيوجههم توجيهاً قائماً على أدب النفس ، وأدب الاجتماع ، ورعاية المشاعر والعواطف مع رعاية الحاجات والمصالح ، فالمرأة ما تزال معلقة بذكرى لم تمت ، وبمشاعر أسرة الميت ، ومرتبطة كذلك بما قد يكون فى رحمها من حمل لم يتبين ، أو حمل تبين والعدة معلقة بوضعه ، وكل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة ؛ لأن الحديث لم يحن موعده ، ولأنه يجرح مشاعر ، ويخدش ذكريات .

ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض ـ لا التصريح ـ بخطبة النساء ، أبيحت الإشارة البعيدة التى تلمح منها المرأة أن هذا الرجل يريدها زوجة بعد انقضاء عدتها ، كذلك أبيحت الرغبة المكنونة التى لا يصرح بها لا تصريحًا ولا تلميحًا ، لأن الله يعلم أن هذه الرغبة لا سلطان لإرادة البشر عليها ؛ وقد أباحها الله لأنها تتعلق بميل فطرى حلال أصله ، مباح فى ذاته ، والإسلام يلحظ ألا يحطم الميول الفطرية إنما يهذبها ، ومن ثم ينهى فقط عما يخالف نظافة الشعور وطهارة الضمير ، فلا جناح أن تعرضوا بالخطبة أو تكنوا فى أنفسكم الرغبة . والمحظور هو المواعدة سراً على الزواج قبل انقضاء العدة ، ففى هذا مجانبة لأدب النفس ، ومخالسة لذكرى الزوج ، وقلة استحياء من الله الذى جعل العدة فاصلًا بين عهدين من الحياة ، إلا أن تقولوا قولا لا نكر فيه ولا فحش ولا مخالفة لحدود الله التى بينها فى هذا الموقف الدقيق ، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى تنقضى عدتها بأن يبلغ التربص المكتوب عليها غايته ، والله لا يخفى عليه شىء مما فى أنفسكم وتصرفاتكم فى العزم على ما لا يجوز ، فاحذروا أن تعزموا على ما حرم عليكم ، واعلموا أن الله لا يعاجل فى العقوبة ، ويتوب على من تاب ، ويعفو عن كثير ، فهو غفور حليم .

ثم يجىء حكمُ المطلقة قبل الدخول ، ولم يكن قد فُرض لها مهر معلوم ، والمهر فريضة ، فالواجب فى هذه الحالة على الزوج المطلق أن يمتعها ـ أى أن يمنحها عطية حسبما يستطيع ـ ولهذا العمل قيمته النفسية بجانب كونه نوعاً من التعويض ، إن انفصام العقدة من قبل ابتدائها ينشئ جفوة مُمضة فى نفس المرأة ، ويجعل الفراق طعنة عداء وخصومة ، ولكن التمتع يذهب بهذا الجو المكفهر ، وينسم فيه نسمات من الود والمعذرة ؛ ويخلع على الطلاق جو الأسف والأسى ، فهى محاولة فاشلة إذن وليست ضربة مسددة ! ولهذا يوصى أن يكون المتاع بالمعروف استبقاء

للمودة الإنسانية ، واحتفاظاً بالذكرى الكريمة ، وفى الوقت نفسه لا يكلف الزوج ما لا يطيق ، فعلى الغنى بقدر غناه، وعلى الفقير فى حدود ما يستطيع .

والحالة الثانية : أن يكون قد فرض مهرًا معلومًا ، وفى هذه الحالة يجب نصف المهر المعلوم . هذا هو القانون ، ولكن القرآن يدع الأمر بعد ذلك للسماحة والفضل واليسر ، فللزوجة ـ ولوليها إن كانت صغيرة ـ أن تعفو وتترك ما يفرضه القانون ، والتنازل فى هذه الحالة هو تنازل الإنسان الراضى القادر العفوّ السمح ، الذى يعفو عن مال رجل قد انفصمت منه عروته ، ومع هذا فإن القرآن يظل يلاحق هذه القلوب ، كى تصفو وتخلو من كل شائبة .

يلاحقها باستجاشة شعور التقوى ، ويلاحقها باستجاشة شعور السماحة والفضل ، ويلاحقها باستجاشة شعور مراقبة الله ؛ ليسود الحلم والتفضل جو هذه العلاقة ناجحة كانت أم خائبة ؛ ولتبقى القلوب نقية خالصة صافية موصولة بالله فى كل حال .

وما زال يتكرر التأكيد على وجوب الالتزام بالتقوى والإحسان فيما يتعلق بأحكام الزواج والطلاق ، الأمر الذى يدل على أن أى حكم شرعى لا يمكن أن يتم تنفيذه بصورته الحقيقية المطلوبة، ما دام أفراد المجتمع يُعامل بعضهم بعضاً معاملة قانونية بحتة لا روح فيها ولا عاطفة، بل يجب أن تسود فيما بينهما روح التصرف الجميل ؛ لأن سوء التصرف والتحايل والتلاعب فى تطبيق حدود الله ، عاقبته الوخيمة إنما تعود على أصحاب هذا التصرف لا محالة .

لأن كل الأمور مردها إلى الله ـ عز وجل ، حيث لا يغنى هنا تلاعب الألفاظ ، ولا تحايل على من لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الدعوة إلى إبقاء المودة والفضل والإحسان بين الأسرتين أسرة المطلقة ، وأسرة الزوج المطلق ، حتى لا يكون الطلاق سببًا فى العداوات والتقاطع .

٢ ـ وجوب مراقبة الله ـ تعالى ـ فى السر والعلن واتقاء الأسباب المفضية بالعبد إلى فعل محرم.

٣ ـ لم تنل المرأة حقوقها ولم يرفع شأنها إلا فى ظلال الإسلام ، فلتعتز الأسرة المسلمة بذلك ولتفتخر بإسلامها وتلتزم بتعاليمه .

٤ ـ شمولية الإسلام أحكامه وتشريعاته ، فهو دين شامل ينتظم شؤون الحياة جميعًا ولا يتم إسلام مسلم إلا إذا فهمه وطبقه وفق هذا الشمول فى الزواج والطلاق وكل مناحى الحياة .

٥ ـ الالتزام بأحكام الشرع فى الزواج والطلاق يحفظ الوشائج والروابط بين المجتمع وينشر الفضل والسماحة بدلًا من الإحن والضغائن .

الجزء الثاني — سورة البقرة

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

٣٩

معانى الكلمات :

الصلاة الوسطى: صلاة العصر أو الصبح.

قانتين : خاشعين ساكنين . **فرجالاً** : مُشاةً على أرجلكم أو ركباناً على الدواب وغيرها مما يركب . **الحول** : العام . **ألوف** : جمع ألف « جمع كثرة » . **يقرض الله** : يقتطع شيئاً من ماله وينفقه فى الجهاد وإعداد المجاهدين . **يقبض** : يضيق ، **ويبسط** : يوسع .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتبين مدى الأهمية البالغة التى ينظر الله بها إلى الصلاة .

٢ ـ أن نعلم أن مهمة الجماعة المسلمة القيام على شريعة الله وحراستها من خروج أى فرد عليها .

٣ ـ أن نعرف أن الجماعة المسلمة وارثة العقيدة الإيمانية ، وهى أيضاً وارثة التجارب.

المحتوى التربوى :

تتجلى فى هذه الآيات لفتة جديرة بالتأمل وهى الحديث عن الصلاة ـ أكبر عبادات الإسلام ـ ولم ينته بعد من هذه الأحكام المتعلقة بالأسرة فيما يخص الزواج والطلاق ، وما أحسن ما علق به صاحب الظلال على هذه اللفتة قائلاً : « ... يدس الحديث عن الصلاة فى هذا الجو ، فيوحى بأن الطاعة لله فى كل هذا عبادة كعبادة الصلاة ، ومن جنسها ، وهو إيحاء لطيف من إيحاءات القرآن ، وهو يتسق مع التصور الإسلامى لغاية الوجود الإنسانى فى قوله ـ تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ . واعتبار العبادة غير مقصورة على الشعائر ، بل شاملة لكل نشاط ، الاتجاه فيه إلى الله ، والغاية منه طاعة الله

وورود هاتين الآيتين فى شأن الصلاة بعد آيات فى الطلاق لمقاصد ،منها :

أولاً : جاءت هذه الآيات فى حيز الأمر بالدخول فى الإسلام كله ، وإذا سار السياق فى أحكام حياتية كثيرة فقد ناسب التذكير بالصلاة فى هذا المقام ؛ ليعلم أن الصلاة هى الابتداء ، وهى الوسط ، وهى الانتهاء ، وأنها ضرورية ، ومحلها فى الإسلام لا يصح أن ينسى .

ثانياً : إنه بلا معرفة بالله لا يدخل الإنسان فى الإسلام كله ، وبلا صلاة لا تكون هناك معرفة بالله ، ولا يمكن الإنسان الدخول فى الإسلام كله ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِىٓ ﴾ وقال: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ فلا دخول فى الإسلام كله إلا بصلاة، ومن ثَمَّ ذكرت الصلاة فى هذا السياق .

ثالثاً : إن مجىء الأمر بالصلاة بين أحكام الطلاق وغيرها من شؤون النساء يشعر أن هذه الأحكام تحتاج إلى صلاة فى كل حال ، فى السلم والحرب ، حتى تقوم . وأن المسلم الذى لا يقيم الصلاة فى كل حال ، لا يقيم أحكام الله الأخرى .

رابعاً : مجىء هاتين الآيتين هنا توطئة لما بعد آيات الطلاق ، بما قبل آيات الطلاق والنكاح، فبعض الأسئلة التى ذكرت فى الآيات السابقة على آيات النكاح ذكرت فريضة القتال ، وما بعد آيات الطلاق كلام عن القتال . وفى هاتين الآيتين أمر بالصلاة وإقامتها حتى فى القتال ، وهكذا الإسلام ؛ كل متكامل . يتغذى كل جزء منه من الآخر ، ويخدم كل جزء منه الآخر ، وقيامه جميعاً مرتبط بعدم نسيان جزء منه . ولا إسلام إلا بالصلاة » .

يقول صاحب الظلال : « وهذا الأمر عجيب حقاً ، وهو يكشف عن مدى الأهمية البالغة التى ينظر الله بها إلى الصلاة ، ويوحى بها لقلوب المسلمين . إنها عدة فى الخوف والشدة ، فلا تترك فى ساعة الخوف البالغ ، وهى العدة ، ومن ثَمَّ يؤديها المحارب فى الميدان ، والسيف فى يده ، والسيف على رأسه ، يؤديها فهى سلاح للمؤمن كالسيف الذى فى يده ، وهى جنة له كالدرع التى تقيه . يؤديها فيتصل بربه أحوج ما يكون للاتصال به ، وأقرب ما يكون إليه والمخافة من حوله .

إن هذا الدين عجيب ، إنه منهج العبادة ، العبادة فى شتى صورها والصلاة عنوانها ، وعن طريق العبادة يصل الإنسان إلى أرفع الدرجات ، وعن طريق العبادة يثبته فى الشدة ، ويهذبه فى الرخاء ، وعن طريق العبادة يدخل فى السلم كافة ويفيض عليه السلام والاطمئنان ، ومن ثم هذه العناية بالصلاة والسيوف فى الأيدى وفى الرقاب !

ويعود السياق للحديث مرة أخرى عن أحكام الأسرة فيقرر حق المتوفى عنها زوجها فى وصية منه تسمح لها بالبقاء فى بيته والعيش من ماله ، مدة حول كامل ، لا تخرج ولا تتزوج إن رأت من مشاعرها أو من الملابسات المحيطة بها ما يدعوها إلى البقاء ، وذلك مع حريتها فى أن تخرج بعد أربعة أشهر وعشر ليال كالذى قررته آية سابقة . فالعدة فريضة لها ، والبقاء حولًا حق لها ، وأوكل أمر تنفيذ هذا التشريع لجماعة تقوم على شريعته وتحرسها من خروج أى فرد عليها ، ولفت القلوب إلى قوته ـ عز وجل ـ وحكمته فيما يفرض وما يوجه ، وعقب بآية بالغة أن البيان فى هذه الآيات لو تعقله الناس ، وتدبروا هذا المنهج الإلهى لكان لهم معه شأن الطاعة والاستسلام والرضا والقبول ، والسلم الفائض فى الأرواح والعقول .

وينتقل السياق ليعرض تجربتين من تجارب الأمم ، يضمهما إلى ذخيرة هذه الأمة من التجارب ؛ لتكون لها زاداً وعبرة فى طريقها إلى الله ، بوصفها وارثة العقيدة الإيمانية ، ووارثة التجارب فى هذا الحقل الخصيب . والتجربة الأولى لا يذكر القرآن أصحابها ، فهى تجربة جماعة : ﴿ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ ، فلم ينفعهم الخروج والفرار والحذر ، وأدركهم قدر الله الذى خرجوا حذراً منه، فقال لهم الله : ﴿ مُوتُواْ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ ﴾ لم ينفعهم الجهد فى اتقاء الموت ، ولم يبذلوا جهداً فى استرجاع الحياة . وإنما هو قدر الله فى الحالتين .

وفى ظل هذه التجربة يتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم على القتال ، وعلى الإنفاق فى سبيل الله ، واهب الحياة ، وواهب المال ، والقادر على قبض الحياة وقبض المال .

وإيراد القصة هنا ومغزاها هو تصحيح التصور عن الموت والحياة ، وأسبابها الظاهرة ، وحقيقتها المضمرة ؛ ورد الأمر فيهما إلى القدرة المدبرة ، والاطمئنان إلى قدر الله فيهما والمضى فى حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع، فالمقدر كائن ، والموت والحياة بيد الله فى نهاية المطاف .

وإذا كان الموت والحياة بيد الله ، والحياة لا تذهب بالقتال إذا قدر الله لها البقاء ، فكذلك المال لا يذهب بالإنفاق. إنما هو قرض حسن لله ، مضمون عنده ، يضاعفه أضعافًا كثيرة يضاعفه فى الدنيا مالاً وبركة وسعادة وراحة ؛ ويضاعفه فى الآخرة نعيماً ومتاعاً ، ورضا وقربًا من الله ، وإذن فلا فزع من الموت ، ولا خوف من الفقر ، ولا محيد عن الرجعة إلى الله . وإذن فليجاهد المؤمنون فى سبيل الله ، وليقدموا الأرواح والأموال ، وليستيقنوا أن أنفاسهم معدودة ، وأن أرزاقهم مقدرة ، وأنه من الخير لهم أن يعيشوا الحياة قوية طليقة شجاعة كريمة . ومردهم بعد ذلك إلى الله.

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ عن طريق العبادة يصل المسلم إلى أرفع الدرجات ، والصلاة زاد للثبات فى الشدة ، وزاد للتهذيب فى الرخاء ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ .

٢ ـ العبادة ليست مقصورة على الشعائر ، بل شاملة لكل نشاط ، الاتجاه فيه إلى الله ، والغاية فيه رضاه .

٣ ـ الحياة لا تذهب بالقتال إذا قدر الله لها البقاء ، والإنفاق لا يذهب المال ، بل ينميه ، وإنفاقه فى مصارفه الشرعية قربى إلى الله .

٤ ـ الأنفاس معدودة ، والأرزاق مقدرة ، فمن الخير أن نعيش الحياة قوية كريمة ، إذن فلا نامت أعين الجبناء .

الجزء الثاني — سورة البقرة

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

٤٠

معانى الكلمات :

الملأ : أهل الحل والعقد وأشراف الناس .

اصطفاه : فضله عليكم واختاره لكم .

زاده بسطة : زاده سعة وامتدادًا وفضيلة .

أن يأتيكم التابوت : هو صندوق التوراة فيه بقية من آثار موسى وآل هارون .

سكينة : طمأنينة القلب وهدوء النفس .

آية ملكه : علامة ملكه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعلم أهمية التربية الإيمانية والتدريب الجيد فى مسيرة الدعوة .

٢ ـ أن نتعرف على أهمية وجود القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة والالتفاف حولها .

٣ ـ أن نتعرف على سمات بنى إسرائيل من نقض العهد ، والنكث بالدعوة ، والتفلت من الطاعة ، وتـفرق الكلمة .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن قصة وتجربة جديدة لبنى إسرائيل من بعد موسى ـ عليه السلام ـ حيث استولى أعداؤهم على صندوق التوراة الذى كان نعمة من نعم الله عليهم ، وكان شأنه عجيبًا ، فحينما يشتبكون مع أعدائهم فى قتال يحملونه بين أيديهم ، ويقدمونه فى صفوفهم ، فينشر فى قلوبهم سكينة واطمئناناً ،ويبعث فى أعدائهم الرعب والفزع، لما فيه من سر عجيب ومزايا خصه الله بها .

فاجتمعوا إلى نبى لهم ، وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكا يقاتلون تحت إمرته ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ **ويقول صاحب الظلال** : وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال وأنه فى ﴿ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يشى بانتفاضة العقيدة فى قلوبهم ، ويقظة الإيمان فى نفوسهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق ، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل ؛ ووضوح الطريق أمامهم للجهاد فى سبيل الله .

وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر ، فلابد للمؤمن أن يتضح فى حسه أنه على الحق ، وأن عدوه على الباطل ؛ ولابد أن يتجرد فى حسه الهدف ـ فى سبيل الله ـ فلا يغشيه الغبش الذى لا يدرى معه إلى أين يسير .

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ ، وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات بنى إسرائيل فى نقض العهد ، والنكث بالوعد ، والتفلت من الطاعة ، والنكوص عن التكليف ، وتفرق الكلمة ، والتولى عن الحق البين . ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها الإيمانية ؛ فهى سمة بشرية عامة لا تغير منها إلا التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير ـ من ثَمَّ ـ سمة ينبغى للقيادة أن تكون منها على حذر ، وأن تحسب حسابها فى الطريق الوعر ، كى لا تفاجأ بها ، فيتعاظمها الأمر !

ويقول الشيخ رشيد رضا : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ ذلك أن الأمم إذا قهرها العدو ونكل بها يفسد بأسها ، ويغلب عليها الجبن والمهانة ، فإذا أراد الله إحياءها بعد موتها ينفخ روح الشجاعة والإقدام فى خيارها ، وهم الأقلون ، فيعملون ما لا يعمل الأكثرون .

وتتوالى الآيات توضح سلوك بنى إسرائيل بين اللجاجة والتعنت ، فلما تم التعيين نزولاً عند رغبتهم فى أن يكون لهم ملك وكان التعيين بناءً على الخصائص المناسبة للحال . فهم يحتاجون إلى ملك يجتمع له العلم بالشريعة ، وفن القتال ، والقوة الجسدية كى يقوم بأعباء القيادة ، وكان طالوت ذلك الرجل ، ولكنهم اعترضوا تعنتًا ، وكان الأولى بهم التسليم والطاعة لو كانوا مؤمنين حقاً . وسبب اعتراضهم أنهم يتصورون أن الملك لا يستحقه أحد إلا بنسب أو مال ، فبين لهم أن هذا اصطفاء الله واختياره ، وتلك مشيئته ، وهو واسع الفضل ، يختص برحمته من يشاء ، عليم بمن يستحق الملك ، ممن لا يستحقه .

ويقول صاحب الظلال : وهى أمور من شأنها أن تصحح التصور المغشوش ، وأن تجلو عنه الغبش ، ولكن طبيعة بنى إسرائيل ـ ونبيها يعرفها ـ لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها وهم مقبلون على معركة ، ولابد لهم من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم ، وتردها إلى الثقة واليقين . وهذه الخارقة هى مجيء التابوت ، تحمله الملائكة ، كآية تزيد طمأنينتهم ، ليزدادوا إيمانًا بنبيهم ، وليطمئنوا إلى إمرة طالوت ، وفى التابوت ما يتباركون به وهو من بقية آثار موسى وآل هارون . ومجيء هذه المعجزة فى هذه الحال لا تبقى شكا لمؤمن أن الله هو الذى اصطفى طالوت وأن نبيهم صادق ، وأن طالوت جدير بما وضعه الله فيه ، ولم يبق لهم إلا خوض المعركة والطاعة التامة لطالوت بعد تدعيم هذه الثقة وترسيخ هذا اليقين .

قلت : إن أقضية الله ـ سبحانه وتعالى ـ مبنية على أساس من السعة والعلم ، ولذا فإن العبد المحبب إلى الله هو الذى ينظر إلى الأمور بروح سمحة ، وعقل منفتح ، وإذا اتخذ موقفاً من

إحدى القضايا فإنما يكون بناءً على الحقائق المجردة وحدها ، وليس بناءً على التعصبات الشخصية ، بيد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وثق جدارة «طالوت» بتولى الإمارة ؛ من خلال الإتيان بالتابوت لتدعيم الثقة واليقين .

وفسَّر النسفى البقية الموجودة فى التابوت بأنها رضاض الألواح ، وعصا موسى وثيابه ، وشىء من التوراة ، وعمامة هارون عليهما السلام ، وكان موسى ﷺ إذا قاتل قدَّمه ، فكانت تسكن نفوس بنى إسرائيل ، ولا يفرون . وقال ابن عباس : (جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض ، حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون) ، ولعل هذه الآية تناسب شخصية بنى إسرائيل المتعنتة واللجاجة فى الحق ـ دائمًا ـ رغم انبلاجه .

ولم يزل بنو إسرائيل ـ منذ أن خرجوا من أرض مصر ـ يتوارثون بينهم تابوتًا مقدسًا ، محتويًا على رضاض ألواح التوراة وغيرها من المتبركات،ويحسبونه رمزاً للظفر والانتصار على أعدائهم، وكان الفلسطينيون قد أخذوا هذا التابوت منهم ، وذهبوا به معهم ، غير أنهم ما كانوا يضعونه فى بلدة ما حتى تنتشر فيها صنوف من الأمراض الوبائية ، مما جعلهم يتشاءمون من وجود التابوت عندهم ، فما لبثوا أن وضعوه على عربة يجرها ثوران ، وما برح الثوران يسيران بالعربة فى الاتجاه الذى سيقا له ؛ حتى أفضى بهما المساق حيث القرى اليهودية الآهلة ، وفى رجوع التابوت إليكم علامة أن الله قد ملك طالوت عليكم إن كنتم مصدقين بالله واليوم الآخر ، والرسل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ دلت الآيات على أنه لا يحمى حمى الإسلام والمسلمين إلا الجهاد والقتال ، وأن الجهاد والقتال يحتاجان إلى إمرة ، وطاعة ، وانضباط ، وإيمان ، وافتقار إلى الله . كما دلت الآيات على أن الهجوم هو طريق النصر .

٢ ـ من شروط الولاية الكفاءة وأهم خصائصها العلم ، وسلامة العقل والبدن .

٣ ـ الجهاد الشرعى يشترط له الإمام المبايع بيعة شرعية .

٤ ـ من الحكم فى مشروعية الجهاد ، دفع أهل الكفر والظلم بأهل الإيمان والعدل ، لتنتظم الحياة ، وينعم الكون بالسلام .

٥ ـ إذا أراد الله إسعاد أمة جعل ملكها مقوياً لما فيها من الاستعداد للخير ؛ حتى يغلب خيرها على شرها ، فتكون سعيدة ، وإذا أراد إهلاك أمة جعل ملكها مقويًا لدواعى الشر فيها؛ حتى يغلب شرها على خيرها فتكون شقية ذليلة ، فتعدو عليها أمة قوية ، فلا تزال تنقصها من أطرافها ، وتناجزها الحرب ، حتى تزيل سلطانها من الأرض ، وذلك بمشيئة الله ، وفق سننه فى مقتضى الاجتماع .

فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين ءامنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴿٢٤٩﴾ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿٢٥٠﴾ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وءاتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴿٢٥١﴾ تلك ءايات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴿٢٥٢﴾

معانى الكلمات :

فصل طالوت : انفصل من الديار وخرج يريد العدو . **مبتليكم بنهر** : مختبركم بنهر جار لعله هو نهر الأردن الآن . **ومن لم يطعمه**: لم يشرب منه . **غرفة**: بالفتح المرة ، وبالضم الاسم من الاغتراف . **جاوزه** : جاوز طالوت النهر . **يظنون** : يعتقدون (وهم الأخيار) . **أفرغ علينا صبراً**: أفض علينا صبرًا ، يعمنا فى جمعنا وفى نفوسنا . **الحكمة** : النبوة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نؤمن أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون .

٢ ـ أن نعلم أهمية الممارسة العملية ، فالنية الصالحة وحدها لا تكفى .

٣ ـ أن نتعرف على أهمية المدافعة فى إقرار الحق فى الأرض .

المحتوى التربوى :

وتستأنف الآيات القصة بإعداد طالوت جيشه ممن لم يتولوا عن فريضة الجهاد ، ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق ، ويتعرض الجيش لاختبار الإرادة ، حيث ابتلاهم الله بنهر مع شدة عطش ، ليبلو القائد إرادة جيشه فأباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده ، تبل الظمأ ، وحرم عليهم طعمه أى الرى الكامل منه : ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله فى اصطفاء هذا الرجل ، إنه مقدم على معركة ؛ ومعه جيش من أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل فى تاريخها مرة بعد مرة ، وهو يواجه جيش أمة غالبة ، فلابد إذن من قوة كامنة فى ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة . هذه القوة الكامنة لا تكون إلا فى الإرادة . الإرادة التى تضبط الشهوات والنزوات ، وتصمد للحرمان والمشاق ، وتستعلى على الضرورات والحاجات ، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها ، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء .

فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه ، وصموده وصبره : صموده أولاً للرغبات والشهوات ، وصبره ثانياً على الحرمات والمتاعب، واختار التجربة وهم كما تقول الروايات

عطاش ؛ ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ، ويؤثر العافية ، وصحت فراسته ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ .

شربوا وارتووا ! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم ؛ انفصلوا لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم ، وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف؛ لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة . والجيوش ليست بالعدد الضخم ، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الحازمة ، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق . وهكذا غربلت التجربة جيش طالوت وصاروا قلة . وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته بقيادة جالوت ، إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم ، ولكنهم هنا أمام الواقع ، ولا يصمد له إلا من اكتمل إيمانه ، واتصل قلبه بالله ؛ وهذه الفئة القليلة كما يقول **صاحب الظلال** ـ رحمه الله : « أصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم ، غير الموازين التى يستمدها الناس من واقع حالهم ! وهنا برزت الفئة المؤمنة . الفئة القليلة المختارة ، ذات الموازين الربانية : فهم يعتقدون تمام الاعتقاد أن نهاية الحياة الدنيا وخاتمة المطاف ليست الدنيا ، ولكن مقابلة الله ـ عز وجل ، وكذلك يعتقدون أن الفئة المؤمنة القليلة تغلب الفئة الكثيرة الباغية بإذن الله ، وهم يكلون النصر لله ، ويعللونه بعلته الحقيقية « وهى الصبر » ، فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل . ولما واجه حزب الإيمان ، وهم قليل من أصحاب طالوت لعدوهم أصحاب جالوت ، وهم عدد كثير ، قالوا : ربنا أنزل واصبب علينا صبرًا على القتال من عندك ، وثبت أقدامنا فى لقاء العدو ، وجنبنا الفرار ، وأعنا على القوم الكافرين واهزمهم ، فأهل الإيمان أدبهم فى المعركة ؛ الافتقار إلى الله ، ودعاؤه بما يقتضيه الحال من التثبيت . وكانت النتيجة التى ترقبوها واستيقنوها : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ويقول **صاحب الظلال** : «ويؤكد النص هذه الحقيقة » بإذن الله ، ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علمًا . وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجرى فى هذا الكون ، ولطبيعة القوة التى تجريه .. إن المؤمنين ستار القدرة ؛ يفعل الله بهم ما يريد ، وينفذ بهم ما يختار بإذنه ، ليس لهم من الأمر شىء ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته ، فيكون منهم ما يريده بإذنه ، وهى حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين .

وتنتهى خاتمة هذه القصة ، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية ، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية ، حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى ، إنها ليست المغانم والأسلاب ، وليست الأمجاد والهالات ، إنما هو الصلاح فى الأرض ، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

ويعبر **صاحب الظلال** : عن هذه الآية العظيمة لسنة التدافع قائلًا : وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث ؛ لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا فى الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعى فى تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار ، وهنا تتكشف على مد

البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس،فى تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات، ومن ورائها جميعًا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعًا ، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق ، إلى الخير والصلاح والنماء ، فى نهاية المطاف .

لقد كادت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، ولولا أن فى طبيعة الناس التى فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم النظرية القريبة ؛ لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع ، فتنفض عنها الكسل والخمول ، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة ، وتظل أبداً يقظة عاملة ، مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة ، وفى النهاية يكون الصلاح والخير والنماء ، يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة ، تعرف الحق الذى بينه الله لها وتعرف طريقها إليه واضحًا ، وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق فى الأرض . وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل ؛ وإلا أن تحتمل فى سبيله ما تحتمل فى الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه .

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب فى النهاية وتنتصر ؛ ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا فى دفع الفساد عن الأرض ، وتمكين الصلاح فى الحياة إنها تنتصر ؛ لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار .

وتأتى الإشارة إلى الآيات التى مرت من إماتة الألوف ، وإحيائهم ، ومجىء التابوت تحملُه الملائكة ، وانتصار القلة المؤمنة المستضعفة على الكثرة الكافرة ، هذه الآيات يقصها الله على رسوله بالحق ، أى : بالواقع الذى كان عليه الأمر المطابق لما حدث ، وفى ذلك إشعار أن ما بأيدى أهل الكتاب مخلوط ، وفى الآية كذلك خطاب لرسول الله ﷺ فى تأكيد رسالته وتقريرها ، كيف ومثل هذه الآيات تشهد على رسالته حيث يخبر بها من غير أن يقرأ كتابا أو يسمع من أهل الكتاب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ النصر للعقيدة الواثقة بنصر الله ، لا للقوة المادية ، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية .

٢ ـ الثبات والصبر وشجاعة القائد وحكمته، مع الإيمان بالله والثقة فى نصره يحقق النصر على الأعداء ، حتى ولو كان هؤلاء المؤمنون قلة ضعيفة العدد والسلاح ، وكان أعداؤهم كثرة فى عددهم وفى أسلحتهم .

٣ ـ الجهاد لإعلاء كلمة الله ضرورة لحماية العقيدة ، وردع العدوان ، ودفع الظلم ، وعمارة الأرض ، وتحقيق الأمن والسلام للبشرية؛حتى لا يطمع الظالمون،ولا ينشرون الفساد فى البلاد.

٤ ـ الابتلاء خط أصيل لأصحاب الدعوات لتمحيص الإرادة ، واختبار الإيمان ، والثبات والصبر على الطاعة طريق الاصطفاء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأوليائه .

٥ ـ أصحاب الدعوات مكلفون من الله بدفع الباطل ، وإقرار الحق فى الأرض .

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ
وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ
مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا
فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا
مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا
شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا
شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ
مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾

معانى الكلمات :

فضلنا بعضهم على بعض : بالخصائص والمعجزات ، وسوى بينهم فى الرسالة . **البينات** : المعجزات . **أيدناه** : قويناه .

روح القدس : جبريل . **خُلة** : صداقة ومودة . **شفاعة** : وسيلة لجلب منفعة ، أو دفع شر . **القيوم** : الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظهم . **سنة** : نعاس وغفوة . **ولا يؤوده** : ولا يشق عليه . **حفظهما** : حفظ السموات والأرض . **العلى:** المستعلى على خلقه بقدرته وجبروته. **الرشد** : الهدى والإيمان . **الغى** : الكفر والضلالة . **الطاغوت** : كل ما عُبد من دون الله ورضى بذلك . **العروة الوثقى** : الإيمان الحق . **لا انفصام لها** : لا زوال ولا انقطاع لها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مقامات الرسل عليهم الصلاة والسلام .

٢ ـ أن نعلم أهمية الإنفاق ، وأنه عصب الجهاد .

٣ ـ أن نتعرف على قواعد التصور الإيمانى لصفات الله وعلاقة الخلق به تعالى .

المحتوى التربوى :

أجملت هذه الآيات قصة الرسل والرسالات ـ وأفردت جماعة الرسل وميزتها من بين الناس، فهى تقرر أن الله فضل بعض الرسل على بعض ؛ وتذكر بعض أمارات التفضيل ومظاهره ، ثم تشير إلى اختلاف الذين جاؤوا من بعدهم من الأجيال المتعاقبة ـ من بعد ما جاءتهم البينات ـ وإلى اقتتالهم بسبب هذا الاختلاف ، كما تقرر أن بعضهم آمن وبعضهم كفر ، وأن الله قد قدر أن يقع بينهم هذا القتال لسنة التدافع ؛ دفع الكفر بالإيمان ، ودفع الشر بالخير .

ويقول صاحبُ الظلال : « والتفضيل هنا قد يتعلق بالمحيط المقدر للرسول ، والذى تشمله دعوته ونشاطه ، كأن يكون رسول قبيلة ، أو رسول أمة ، أو رسول جيل ، أو رسول الأمم كافة فى جميع الأجيال ، كذلك يتعلق بالمزايا التى يوهبها لشخصه أو أمته ، كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ، ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية .

وحين ننظر إلى مقامات الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من أية ناحية نجد محمداً ﷺ ـ فى القمة العليا ، وسواء نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها ، أو من ناحية محيطها وامتدادها ، فإن النتيجة لا تتغير كما يقول **صاحب الظلال** ـ رحمه الله : إن الإسلام هو أكمل صورة لحقيقة الوحدة ـ وهى أضخم الحقائق على الإطلاق ـ وحدة الخالق الذى ليس كمثله شىء ووحدة الإرادة ، التى يصدر عنها الوجود كله بكلمة : ﴿كُن﴾ ووحدة الوجود الصادر عن تلك الإرادة ووحدة الناموس الذى يحكم هذا الوجود ، ووحدة الحياة من الخلية الساذجة إلى الإنسان الناطق ، ووحدة الدين الصادر من الله الواحد إلى البشرية الواحدة ، ووحدة جماعة الرسل المبلغة لهذه الدعوة . ووحدة الأمة المؤمنة التى لبت هذه الدعوة ، ووحدة النشاط البشرى المتجه إلى الله وإعطائه كله اسم « العبادة » ووحدة الدنيا والآخرة وهما دارا العمل والجزاء ، ووحدة المنهج الذى شرعه الله للناس فلا يُقبل منهم سواه ، ووحدة المصدر الذى يتلقون عنه تصوراتهم كلها ومنهجهم فى الحياة .

فقد اقتتل أتباع « تلك الرسل » . ولم تغن وحدة جماعة الرسل فى طبيعتهم ، ووحدة الرسالة التى جاؤوا بها كلهم ، لم تغن هذه الوحدة عن اختلاف أتباع الرسل حتى ليقتتلون من خلاف ، وكما يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : إن هذا الاقتتال لم يقع مخالفاً لمشيئة الله ، فما يمكن أن يقع فى هذا الكون ما يخالف مشيئته ـ سبحانه ـ فمن مشيئته أن يكون هذا الكائن البشرى كما هو بتكوينه هذا واستعداداته للهدى والضلال ، وأن يكون موكلًا إلى نفسه فى اختيار طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال ، ومن ثم فكل ما ينشأ من هذا التكوين وإفرازاته واتجاهاته داخل فى إطار المشيئة ؛ وواقع وفق هذه المشيئة . ولكنه شاء ، شاء ليدفع الكفر بالإيمان ؛ وليقر فى الأرض حقيقة العقيدة الصحيحة الواحدة التى جاء بها الرسل جميعاً ، فانحرف عنها المنحرفون ، وقد علم الله أن الضلال لا يقف سلبياً جامداً ، إنما هو ذو طبيعة شريرة ، فلابد أن يعتدى ، ولابد أن يحاول إضلال المهتدين ، ولابد أن يريد العوج ويحارب الاستقامة فلا بد من قتاله لتستقيم الأمور. ومن ثم يعقب السياق على ذكر الاختلاف والاقتتال بنداء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ودعوتهم إلى الإنفاق مما رزقهم الله ـ فالإنفاق صنو الجهاد وعصب الجهاد، والدعوة للجهاد غايتها دفع الكفر. ودفع الظلم المتمثل فى هذا الكفر ، وهى غاية سامية كما يقول صاحب الظلال : لأن الذين يحاربون حقيقة الإيمان أن تستقر فى القلوب ، ويحاربون منهج الإيمان أن يستقر فى الحياة ويحاربون شريعة الإيمان أن تستقر فى المجتمع ، إنما هم أعدى أعداء البشرية وأظلم الظالمين لها . ومن واجب البشرية ـ لو رشدت ـ أن تطاردهم حتى يصبحوا عاجزين عن هذا الظلم الذى يزاولونه ، وأن ترصد لحربهم كل ما تملك من الأنفس والأموال ، وهذا هو واجب الجماعة المسلمة التى يندبها إليه ربها ، ويدعوها من أجله بصفتها تلك ؛ ويناديها ذلك النداء الموحى العميق . وبمناسبة الاختلاف بعد الرسل والاقتتال ، والكفر بعد مجىء البينات والإيمان ، تجىء آية الكرسى ؛ لتتضمن قواعد التصور الإيمانى ، وتذكر من صفات الله ـ سبحانه ـ ما يُقرر معنى الوحدانية فى أدق مجالاته ، وأوضح سماته ، فلا يكون الإنسان عبدًا إلا لله ، ولا يتجه بالعبادة إلا

لله ، ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله ، وما يأمره الله به من الطاعات وعن هذا التصور تنشأ قاعدة : الحاكمية لله وحده . فيكون الله وحده هو المشرعُ للعباد ، ويجيء تشريع البشر مستمدًا من شريعة الله ، وينشئ تصوراً آخر يستقر فى ضمير المسلم وحياته ووجوده أن الله ـ سبحانه ـ قائم على كل شىء ، وأن كل شىء من حوله مرتبط وقائم فى وجوده على إرادة الله وتدبيره ، فالله هو الذى يصرف أمره ، ويستمد منه قيمه وموازينه ، ويراقبه وهو يستخدم هذه القيم والموازين .

ثم تقررُ الآيات حقيقة أخرى هى أن الله المالك المطلق لكل شىء ، فيستقر فى ضمير المسلم أن كل ما فى يده عارية لأمد محدود ، ثم يستردها صاحبها الذى أعطاها له فى الأجل المرسوم ، وهذا كفيلٌ بأن يسكب فى النفس القناعة والرضا بما يحصل من الرزق ، والسماحة والجود بالموجود ؛ وأن يفيض على القلب الطمأنينة والقرار فى الوجدان والحرمان سواء ؛ فلا تذهب النفس حسرات على فائت أو ضائع ؛ ولا يتحرق القلب سعارًا على المرموق المطلوب !

وتقرر كذلك وقوف العبيد فى حضرة الألوهية موقف العبودية ، فى خشوع وخضوع ، لا يجرؤ على الشفاعة عنده أحد ، إلا بعد أن يؤذن له ، فيخضع للإذن ويشفع فى حدوده ، وهم يتفاضلون فيما بينهم فى ميزان الله ، ولكنهم يقفون عند الحد الذى لا يتجاوزه عبد .

وتختتم الآيات بحقيقة العلاقة بين العبد والرب ، ورحمة الرب للعبد ، والقربى والمدد والود بعلمه المطلق بكل شىء وبحفظه السماء والأرض ، وتفرده بالعلو والعظمة ليستقر العبد فى مقام العبودية لله العلى العظيم .

وكأنه من خلال آية الكرسى قامت الحجة على كل إنسان بهذا الدين ، فلا تكرهوا أحدًا على الدخول فى دين الإسلام ، فإنه بين واضح ، فلا إجبار على الدين الحق ، وهو دين الإسلام ، فليس الإكراه على دين الله من دين الله ، وقد تميز الهدى من الضلال والإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة ، فمن يكفر بالشيطان وهو وراء كل تجاوز للحد ، ويكفر بكل شر عليه البشر من شرك بالله أو احتكام لغير الله ، أو استنصار بغير الله ، ويؤمن بالله فقد استمسك من الدين بأمتن عروة وأوثقها ، والله سميعٌ لأقوال عباده عليمٌ بنياتهم ، وخفيات أعمالهم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة الإيمان بجميع الرسل ومعجزاتهم .

٢ ـ ذم الاختلاف فى الدين ؛ لأن الخلاف مصدر شقاء وعذاب .

٣ ـ أهمية الإنفاق على المحتاجين ، وفى جميع أعمال البر ، وبخاصة الجهاد لإعلاء كلمة الله .

٤ ـ الله متصفٌ بكل صفات الكمال ، ومنزه عن كل صفات النقص ، فهو الحق الباقى ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، وهو المدبر للكون ، العليم بكل شىء ، مالك الملك ، فلا خضوع إلا لله ، ولا طاعة إلا لله ، ولا خوف إلا من الله .

٥ ـ سماحة الإسلام ، فلا إكراه فى الدين ، وحرية الاعتقاد مكفولة بنص كتاب الله .

الجزء الثالث — سورة البقرة

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

٤٣

معنى الكلمات :

ولى الذين آمنوا : معينهم بحفظه ونصره وتوفيقه . **الذى حاج إبراهيم :** هو نمرود بن كنعان ، وحاج أى : جادل . **أن أتاه الله الملك:** أبطره وأطغاه إيتاء الملك له . **بهت:** فغلب وتحير بطلت حجته . **الذى مرَّ:** قيل: هو عزير ، وقيل : رجل من بنى إسرائيل . **على قرية:** قيل إن (بيت المقدس) . **خاوية :** ليس فيها أحد . **لم يتسنه :** لم يتغير مع مرور السنين عليه . **ننشزها :** نرفعها من الأرض ونعيد تركيبها كما كانت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نؤمن بأن بالحق واحد لا يتعدد ، والضلال ألوان وأنماط .

٢ـ أن نعلم التصور الإسلامى لسر الحياة والموت ، وحقيقة كل منهما .

٣ـ أن نتعرف على قصة إبراهيم ﷺ والملك ، وقصة الذى مر على القرية الخاوية وما فيها من أحداث وعبر .

المحتوى التربوى :

يخبر ـ تعالى ـ أنه يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب والشهوة إلى نور الحق الواضح الجلى المبين ، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان ، ويزين لهم ماهم فيه ، ويخرجهم ويحيد بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ، فجزاؤهم على ذلك : الخلود الأبدى فى النار .

ثم يستأنف السياق إنشاء التصور الصحيح لحقائق هذا الوجود فى ضمير المسلم وفى إدراكه . فيناقش سر الحياة والموت ، ويعرض لقصة الملك الذى حاج إبراهيم فى ربه ، والذى كان منكراً لوحدانية الله فى الألوهية والربوبية ، ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجرى فيه وحده .

فيقول تعالى فى السياق مخاطبًا نبى الله إبراهيم عليه السلام : ألم تر إلى الذى يجادل إبراهيم فى وجود ربه، وربوبيته، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ، والمعاندة الشديدة إلا تجبره ، وطول مدته فى الملك ، وكان طلب من إبراهيم دليلا على وجود الرب الذى يدعو إليه ، فقال إبراهيم : إنما الدليل على وجوده وربوبيته ، ظاهرة الإحياء

والإماتة ، وقد استدل إبراهيم بهذه الظاهرة على وجود ربه وربوبيته ، لأنها أقرب الظواهر البدهية على وجود ربنا ـ عز وجل ، فعند ذلك قال المحاج : أنا أحيى وأميت ، وذلك أنه أوتى برجلين استحقا القتل ، فأمر بقتل أحدهما ، والعفو عن الآخر ، وليس هذا جوابا .

ولما ادعى هذه المكابرة قال إبراهيم ﷺ : فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلها كما ادعيت فأت بها من المغرب ؟ فأخرس ولم يقدر على المكابرة ، وتلك سنة الله ـ تعالى ـ أنه لا يلهم الظالمين حجة ولا برهانا .

ويقول صاحب الظلال : عن الحكمة من الإتيان لقصة الجدال بين إبراهيم ﷺ والنمروذ : « ويمضى هذا الجدل الذى عرضه الله على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة مثلًا للضلال والعناد ؛ وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد فى مواجهة المنكرين ؛ وفى ترويض النفوس على تعنت المنكرين !

والشأن فى مسألة الاعتقاد هو الشأن فى كل أمر حيوى تتوقف عليه حياة الكائن البشرى ، فالكائن الحى يبحث عن الطعام والشراب والهواء ـ كما يبحث عن التناسل والتكاثر ـ بحثًا فطريًا، ولا يترك الأمر فى هذه الحيويات حتى يكمل التفكير وينضج ، أو حتى ينمو العلم ويغزر، وإلا تعرضت حياة الكائن الحى إلى الدمار والبوار ، والإيمان حيوى للإنسان حيوية الطعام والشراب والهواء سواء بسواء ، ومن ثم يكله الله فيه إلى تلاقى الفطرة بآياته المبثوثة فى صفحات الكون كله فى الأنفس والآفاق .

ويقول صاحب الأساس : إن عدم ذكر القرآن الكريم لتفصيلات هذه الشؤون تدرك أن، العبرة المرادة من النص لا تحتاج إلى مثلها ، وهذا الكلام ينطبق على الآيات التالية وغيرها من أمثالها ، فالله ـ عز وجل ـ الذى جعل كتابه معجزًا جعله بذلك حجة على كل شىء ، إن من رحمة الله بهذه الأمة أن جعل الحجة على صدق كتابه قائمة فى نفس كتابه ، فلا ينبغى لأحد يفسرُ كتاب الله ألا يحتاط فى شأن التفسير فيجعل للذين فى قلوبهم مرض مدخلاً يلجون منه للاعتراض على المسلمين .

إن كثيرين من المسلمين ولعوا فى البحث عن المبهمات ؛ حتى أصبح الكلام عنها مقصودًا ، والسؤال عنها عادة ، مع أن كثيراً مما أبهمه القرآن إنما أبهم ؛ لأن الفائدة فيما فصّل ، فتركت الاستفادة من الأصل ، وصار الناس يبحثون عما لا فائدة فيه ، إن العبرة فى القصة الآتية عن الرجل الذى أحياه الله بعدما أماته هى فى معرفة قدرة الله على البعث ؛ لتأكيد الإيمان باليوم الآخر ، فإذا غفل القلب عن هذا ، وبحث عن اسم الرجل ، ولون حماره ، فإنه يكون قد ترك ما من أجله خوطب إلى ما ليس مكلفًا به .

وفى الآيات تعجبٌ من أن يجادل ويمارى إنسان فى ربوبية الله ، وبيان واضح لانقطاع حجته، أما دلائل الفطرة فى صفحة الكون المشهود ، وكذلك العجب من إنسان يستبعد قدرة الله على تقليب الأحوال ، فيحيى قرية خربة خاوية ، ليجعلها عامرة ، وجاء البرهان عملياً لقطع هذا

الاستبعاد ، فأماته الله مائة عام ثم أحياه ؛ ليرى أن ما استبعده قد حدث ، فتيقن من خلال المشاهدة والتجربة من قدرة الله فى تغيير الأشياء والأمور من حال إلى حال ، وهذا الذى شاهده صاحب القصة نشاهده من خلال التاريخ وسنة التداول فى الأمم ، وأحيانا على خلاف توقع البشر ضمن سنن الله ،والكون صفحة مليئة بطلاقة القدرة فى التغيير والتدويل .

ويقول صاحب الظلال : « إن الذى يفسر لنا هذه الظاهرة ـ إحياء القرية ـ هو طلاقة المشيئة، طلاقتها من التقييد بما نحسبه نحن قانونًا كليًا لازمًا ملزمًا لا سبيل إلى مخالفته أو الاستثناء منه ! وحسابنا هذا خطأ بالقياس إلى المشيئة المطلقة : خطأ منشؤه أننا نفرض تقديراتنا نحن ومقرراتنا العقلية أو « العلمية !» على الله ـ سبحانه ! وهو خطأ يتمثل فى أخطاء كثيرة :

أولاً : ما لنا نحن نحاكم القدرة المطلقة إلى قانون نحن قائلوه ؟ قانون مستمد من تجاربنا المحدودة الوسائل ، ومن تفسيرنا لهذه التجارب ونحن محدودو الإدراك ؟

ثانياً : هبه كان قانوناً من قانون الكون أدركناه ، فمن الذى قال لنا : إنه قانون نهائى كلى مطلق ، وأن ليس وراء قانون سواه ؟

ثالثاً : هبه كان قانوناً نهائيًا مطلقًا ، فالمشيئة تنشئ القانون ولكنها ليست مقيدة به ، إنما هو الاختيار فى كل حال .

وهذه التجربة ، حريٌ بها أن تضاف إلى رصيد أصحاب الدعوة الجدد ، وإلى رصيد التصور الإيمانى الصحيح ، لترسيخها حقيقة الموت والحياة وردهما إلى الله ، وكذلك بيان طلاقة المشيئة فى وضوح تام،والتى يعنى القرآن عناية فائقة بترسيخها فى ضمائر المؤمنين به،لتتعلق بالله مباشرة، من بعد أخذها بالأسباب الظاهرة ، والمقدمات المرئية والمألوفة ، فالله فعال لما يريد ، وهكذا قال الرجل الذى عاين التجربة وشاهدها : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إذا كان الله ولى الذين آمنوا ، أفلا ينبغى أن يبذل هؤلاء المؤمنون أموالهم وحياتهم فى سبيله ـ جل جلاله ـ وإذا كان ربنا كذلك ، أفلا ينبغى أن ندخل فى الإسلام كله ، ونقيم شرائعه كلها .

٢ ـ النعم تبطر صاحبها إذا حُرم ولاية الله ـ تعالى .

٣ ـ إذا ظلم العبد وولى الظلم حتى أصبح وصفاً له يُحرم هداية الله ـ تعالى .

٤ ـ علمنا بطلاقة المشيئة لله ، وقدرته على كل شىء يوجب التعلق بالله مباشرة بعد الأخذ بالأسباب الظاهرة فالله على شىء قدير .

٥ ـ الإيمان حيوى للإنسان حيوية الطعام والشراب والهواء سواءً بسواء .

٦ ـ يجب أن نشكر المنعم على نعمه التى لا تعد ولا تُحصى ، ولا نجعلها وسيلة للبطر والكبر والتمرد .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

ربع الحزب ٥

معانى الكلمات :

بلى : بلى أنا مؤمن . **ليطمئن قلبى** : ليزداد إيماناً فيصل إلى الطمأنينة . **فصرهن** : أملهن واضممهن إليك ، وقطعهن أجزاء .

سعياً : مشياً سريعاً وطيراناً . **منًّا** : عدّاً للإحسان وإظهاراً له . **أذى** : تفاخرًا بالإنفاق ، أو ضيقًا منه ، أو إيذاء المُحسنَ إليه. **رئاء الناس**: حباً فى السمعة والشهرة.

صفوان : حجر كبير أملس (ناعم) . **وابل** : مطر شديد كبير قطراته .**صلدًا** : أملس ، لا شىء عليه من التراب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعلم غريزة الإنسان فى حب معرفة المجهول والتطلع إليه وعلينا استثمار هذه الغريزة فى طريق البناء .

٢ـ أن نتعرف على دستور الصدقة ، وآدابها النفسية والاجتماعية .

٣ـ أن نتبين حقيقة الطبيعة البشرية تجاه دعوة الإيمان وتكاليفها .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن تجربة إبراهيم ـ أقرب الأنبياء إلى أصحاب هذا القرآن ، ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ عن سؤال إبراهيم ﷺ : رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ « إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية . حين يجىء هذا التشوف من إبراهيم الأواه ، الحليم ، المؤمن ، الراضى ، الخاشع ، العابد ، القريب ، الخليل ، حين يجىء هذا التشوف فإنه يكشف عما يختلج أحيانًا من التشوف والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية فى قلوب أقرب المقربين !

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره ؛ وليس طلباً للبرهان أو تقويه للإيمان . إنما هو أمر آخر ، له مذاق آخر ، إنه أمر الشوق الروحى ، إلى ملابسة السر الإلهى فى أثناء وقوعه العملى فأراد أن يرى يد القدرة ، وهى تعمل ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها،ويتنفس فى جوها ، ويعيش معها ، وهى أمر آخر غير الإيمان الذى ليس بعده إيمان.

وينتقل السياق فى ترابطه المعهود بين العقيدة والإيمان والعمل ، ليتعرض لإقرار قواعد النظام الاقتصادى الاجتماعى الذى يريد الإسلام أن ينشئ عليه المجتمع المسلم ؛ لينظم شؤونه الحياتية ، إنه نظام التكافل والتعاون المتمثل فى الزكاة المفروضة والصدقات المتروكة للتطوع ،

ويقوض دعائم النظام الربوى الذى كان سائداً فى الجاهلية ، فيتحدث عن آداب الصدقة ، ويلعن الربا ، فتتكلم الآيات عن تكليف البذل والإنفاق ، ودستور الصدقة والتكافل .

ويقول صاحب الظلال : « والإنفاق فى سبيل الله هو صفو الجهاد الذى فرضه الله على الأمة المسلمة ، وهو يكلفها النهوض بأمانة الدعوة إليه ، وحماية المؤمنين به ، ودفع الشر والفساد والطغيان ، وتجريده من القوة التى يسطو بها على المؤمنين ، ويفسد بها فى الأرض ، ويصد بها عن سبيل الله ، ويحرم البشرية ذلك الخير العظيم الذى يحمله إليها نظام الإسلام ، والذى يُعد حرمانها منه جريمة فوق كل جريمة ، واعتداء أشد من الاعتداء على الأرواح والأموال » .

ويقول صاحب الأساس : ويمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون أموالهم فى سبيله ثم لا يتبعون ما أنفقوا فى الخير والصدقات منّا على من أعطوه ، ولا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها ، فمن فعل منهم ذلك فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، وهذه العبارة تستعمل فى القرآن عادة فى معرض مكافأة أولياء الله، فهذا السلوك يصل بصاحبه لمقام الولاية» .

ويبين الله عز وجل أن القول المعروف ، كالكلمة الطيبة للمسلم ، وأن العفو عن أخيك ، إذا ظلمك ظلماً قولياً ، أو فعلياً ، خير فى ميزان الله ، من الصدقة المتبوعة بالأذى ، ووصف ذاته سبحانه بأنه غنى عن عباده ، فلم يأمرهم بالإنفاق افتقاراً ، فهو يخلف على من أنفق من خزائنه الملأى ، وأنه حليم يحلم عنهم ويغفر ، ويتجاوز عن عباده إن شاء . ويأتى النهى للمؤمنين ألا يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى ، كما يفعل ذلك المرائى الذى لا يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، ويظهر أنه يريد وجه الله ، وإنما قصد مدح الناس له ، أو شهرته بالصفات الجميلة ، ليُشكر بين الناس أو يقال : إنه كريم ونحو ذلك مع قطع نظره عن معاملة الله، وابتغاء مرضاته ، ثم ضرب الله مثلا لذلك المرائى ومشابهته فى بطلان الصدقة ، بذاك الذى يتبع نفقته منّا أو أذى ، فمثله كمثل صخر أملس عليه تراب ، فأصاب الصخر مطر شديد ، فترك المطر الشديد هذا الصخر أملس يابساً لا شىء عليه من ذلك التراب ، بل قد ذهب كله ، أى وكذلك أعمال المرائين وأمثالهم ، تذهب وتضمحل عند الله ، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ، ولكنهم لا يجدون ثواب شىء مما أنفقوه عند الله ، ثم يبين الله عز وجل أن من شأنه ألا يهدى الكافر ما دام مختاراً لطريق الكفر ، ومصمما عليه . ولابد من إدراك طبيعة القرآن ووظيفته من هذه الحقائق السالفة كما **يقول صاحب الظلال** : « فهو كائن حى متحرك ، فهو فى عمل دائب ، وفى حركة دائبة ، إنه فى ميدان المعركة وفى ميدان الحياة » ويقول : « ونحن أحوج ما نكون إلى الإحساس بالقرآن على هذا النحو ؛ وإلى رؤيته كائنا حياً متحركاً دافعاً . فقد بعد العهد بيننا وبين الحركة الإسلامية والحياة الإسلامية والواقع الإسلامى ؛ وانفصل القرآن فى حسنا عن واقعه التاريخى الحى ؛ ولم يعد يمثل فى حسنا تلك الحياة التى وقعت يومًا ما على الأرض ، فى تاريخ الجماعة المسلمة ؛ ولم نعد نذكر أنه كان فى أثناء تلك المعركة المستمرة هو « الأمر اليومى » للمسلم المجند ؛ وهو التوجيه الذى يتلقاه للعمل والتنفيذ ، مات القرآن فى حسنا ، أو نام ، ولم تعد له تلك الصورة الحقيقية التى كانت له عند نزوله فى حس المسلمين ، ودرجنا على أن نتلقاه إمّا ترتيلًا منغمًا نطرب له ، أو نتأثر

التأثر الوجدانى الغامض السارب وإما أن نقرأه أورادًا أقصى ما تصنع فى حس المؤمنين الصادقين منا أن تنشئ فى القلب حالة من الوجد أو الراحة أو الطمأنينة المبهمة المجملة ، والقرآن ينشئ هذا كله ، ولكن المطلوب ـ إلى جانب هذا كله ـ أن ينشئ فى المسلم وعياً وحياة . نعم المطلوب أن ينشئ حالة وعى يتحرك معها القرآن حركة الحياة التى جاء لينشئها ، المطلوب أن يراه المسلم فى ميدان المعركة التى خاضها ، والتى لا يزال مستعدًا ، لأن يخوضها فى حياة الأمة المسلمة ، المطلوب أن يتوجه إليه المسلم ، ليسمع منه ماذا ينبغى أن يعمل ـ كما كان المسلم الأول يفعل ؛ وليدرك حقيقة التوجيهات القرآنية ، فيما يحيط به اليوم من أحداث ومشكلات وملابسات شتى فى الحياة ؛ وليرى تاريخ الجماعة المسلمة ممثلًا فى القرآن ، متحركًا فى كلماته وتوجيهاته ؛ فيحس حينئذ أن التاريخ ليس غريبًا عنه ، فهو تاريخه ، وواقعه اليوم هو امتداد لهذا التاريخ ، وما يصادفه اليوم من أحداث هو ثمرة لما صادف أسلافه ، مما كان القرآن يوجههم إلى التصرف فيه تصرفًا معينًا . ومن ثم يُحس أن هذا القرآن قرآنه هو كذلك . قرآنه الذى يستشيره فيما يعرض له من أحداث وملابسات ؛ وأنه هو دستور تصوره وتفكيره وحياته وتحركاته الآن وبعد الآن بلا انقطاع . كذلك هناك حقيقة أخرى بسيطة كثيراً ما نغفل عنها وننساها : وهى أن الناس هم الناس ؛ والدعوة هى الدعوة؛ والمعركة هى المعركة ، إنها أولاً وقبل كل شىء معركة مع الضعف والنقص والشح والحرص فى داخل النفس ، ثم هى معركة مع الشر والباطل والضلال والطغيان فى واقع الحياة ، والمعركة لابد من خوضها ، ولابد للقائمين على الجماعة المسلمة فى الأرض من مواجهتها بطرفيها ، كما واجهها القرآن أول مرة ، وواجهها رسول الله ﷺ ولابد من الأخطاء والعثرات . ولابد من ظهور الضعف والنقص فى مراحل الطريق ؛ ولابد من المضى أيضاً فى علاج الضعف والنقص كلما أظهرتها الأحداث والتجارب ، ولابد من توجيه القلوب إلى الله بالأساليب التى اتبعها القرآن فى التوجيه ، وهنا نرجع إلى رؤية القرآن يعمل ويتحرك فى حياتنا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الإيمان يزيد وينقص ، حتى يصل لدرجة الطمأنينة ، واطمئنان القلب لقدرة الله من أعلى درجات الإيمان . والتدبر فى آيات الله إحدى وسائل زيادة الإيمان

٢ ـ المال نعمة الله على الناس ، وشكرها إنفاقها فى سبيل الله .

٣ ـ القيمة الحقيقية للمال أن يؤدى خدمة اجتماعية ، وذلك بإنفاقه فى وجوه الخير وتداوله بين الناس لتيسير مصالحهم ، وفك عانيهم ، وقضاء حاجاتهم .

٤ ـ للإنفاق آدابه وسلوكياته ، يجب الحرص عليها ، فلا نذل به الناس ، ولا نتبعه بالمن أو الأذى ، ولا ننفقه تفاخراً ولا رياءً ولا حُباً للشهرة .

٥ ـ القرآن كتاب دعوة وحركة وإيمان جاء لينشئ الحياة وبه تسير فيما يعرض لها من أحداث ومشكلات وملابسات شتى فى الحياة .

الجزء الثالث — سورة البقرة

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

٤٥

معانى الكلمات :

ابتغاء مرضاة الله : طلباً لرضوان الله .

تثبيتاً من أنفسهم : تصديقاً ويقينا بحسن الثواب على هذا الإنفاق .

جنة : حديقة . **ربوة :** مكان مرتفع .

طل: مطر خفيف . **إعصار:** ريح عاصف .

ولا تيمموا الخبيث : ولا تقصدوا الردىء من المال والحرام . **أن تغمضوا فيه :** لا تأخذوه إلا بالتساهل وغض البصر عما فيه من الرداءة . **يعدكم الفقر:** يخوفكم بالفقر .

الفحشاء : المقصود : البخل ، ومنع الزكاة والصدقة .

أولو الألباب : أصحاب العقول .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على ثواب المنفقين المخلصين لله تعالى .

٢ ـ أن نعلم كيف تُمحق آثار الصدقة المصحوبة بالمن وقت حاجة صاحبها إليها .

٣ ـ أن نعرف أنواع الصدقة وأن الجيد الطيب عطاء المؤمنين .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن الذين ينفقون أموالهم ؛ طلبًا لرضوان الله ولتثبيت أنفسهم ، وتمكينها فى منازل الإيمان والإحسان حتى تكون مطمئنة فى بذلها ، لا ينازعها فيه زلزال البخل ، ولا اضطراب الحرص لإيثارها حب الخير عن أمر الله على حب المال عن هوى النفس ووسوسة الشيطان ، وإنما يكون هذا التثبيت بتعويد النفس على البذل ، حيث يفيد البذل حتى يصير الجود لها طبعًا وخلقاً .

ويقول صاحب الأساس : ضرب الله مثلاً للمؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم فى ذلك ، ومن أجل أن يُثبّتوا أنفسهم على طريق الإيمان بالله واليوم الآخر ، بفعل ما يقربهم إلى الله ، فمثل هؤلاء ، كمثل بستان فى مكان مرتفع من الأرض ، أصابها مطر شديد ، فآتت ثمرتها ضعفين بالنسبة لغيرها من الجنان ، فإن لم يصبها مطر شديد ، أصابها رذاذ ، وهو اللين من المطر ،

فشأن هذه الجنة ، أنها لا تمحل أبداً لأنها إن لم يصبها المطر الشديد ، فالرذاذ . وأيًا ما كان فهو كفايتها .

وكذلك عمل المؤمن ، لا يبور أبداً . بل يتقبله الله ، ويكثره ، وينمّيه ، لكل عامل بحسبه . ثم يبين الله عز وجل بأن الله لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء .

فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » .

ويأمر الله عباده المؤمنين بالإنفاق من أطيب المال ، وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ، ودنيئه ، وخبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وذلك أن الإنسان نفسه لو أُعْطى دنىء . المال لم يأخذه ، إلا إذا تغاضى فيه ، وتساهل . فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون ، ثم أمرهم الله عز وجل بأن يعلموا بأن الله غنى عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه. وهو واسع الفضل ، لا ينفد ما لديه ، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب ، فليعلم أن الله غنى ، واسع العطاء ، كريم ، وسيجزيه بها ، ويضاعفها له أضعافًا كثيرة ، وأن يعلموا أنه الحميد . أى : المحمود فى جميع أعماله ، وأقواله ، وشرعه ، وقدره ، لا إله إلا هو ، ولا ربّ سواه .

ويقول صاحب الظلال : « ولما كان الكف عن الإنفاق ، أو التقدم بالردىء الخبيث ، إنما ينشأ عن دوافع السوء ، تزعزع اليقين فيما عند الله ، وعن الخوف من الإملاق الذى لا يساور نفسًا تتصل بالله ، وتعتمد عليه ، وتدرك أن مرد ما عندها إليه ، كشف الله للذين آمنوا عن هذه الدوافع لتبدو لهم عارية ، وليعرفوا من أين تنبت النفوس ؛ وما الذى يثيرها فى القلوب .. إنه الشيطان .. » .

فالشيطان يخوف بالفقر ، ويثير فى النفس الحرص والشح والكذب والتكالب ، وكذلك يأمر بالفحشاء ، وحين يعد الشيطان بالفقر ، ويأمر باقتراف المعاصى المجاوز للحد ، يَعِد الله عباده المغفرة والعطاء ويقدم المغفرة ، ويؤخر الفضل.. فالفضل زيادة فوق المغفرة . وهو يشمل كذلك عطاء الرزق فى هذه الأرض ، جزاء البذل فى سبيل الله والإنفاق .

ويختتم الله هذا الدستور الذى بدأه بالحض والتأليف ، لا بالفرض والتكليف استجاشة منه للمشاعر والانفعالات الحية فى الكيان الإنسانى كله ، فيجذل له العطاء ؛ لأنه واسع عليم يعطى عن سعة ، ويعلم ما يوسوس فى الصدور ، وما يهجس فى الضمير ، والله لا يعطى المال وحده ، ولا يعطى المغفرة وحدها . إنما يعطى « الحكمة » وهى توخى القصد والاعتدال ، وإدراك العلل والغايات ، ووضع الأمور فى نصابها فى تبصر ورويّة وإدراك .

فلا يفحش ولا يتعدى الحدود ؛ فلقد آتاه الله الحكمة ، فلا يضل فى تقدير الأمور ؛ وأوتى البصيرة المستنيرة التى تهديه للصالح الصائب من الأعمال ؛ ذلك منة من الله لأولى الألباب والعقول التى تتنبه ولا تغفل ، وتعتبر ، فلا تلج فى الضلال ، وينتفع ، فلا يعيش لاهيًا غافلًا .

ويتحدث صاحبُ الظلال : عن هذه الحكمة التى يؤتيها الله من يشاء من عباده بأنها معقودة بمشيئة الله سبحانه ، وهذه هى القاعدة الأساسية فى التصور الإسلامى : رد كل شىء إلى المشيئة المطلقة المختارة ، وفى الوقت ذاته يقرر القرآن حقيقة أخرى : أن من أراد الهداية وسعى لها سعيها وجاهد فيها ، فإن الله لا يحرمه منها ، بل يعينه عليها ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ؛ ليطمئن كل من يتجه إلى هدى الله أن مشيئة الله ستقسم له الهدى وتؤتيه الحكمة ، وتمنحه ذلك الخير الكثير .

وهنا حقيقة أخرى نلم بها فى ختام الآيات : إن أمام الإنسان طريقين اثنين لا ثالث لهما طريق الله . وطريق الشيطان . أن يستمع إلى وعد الله أو أن يستمع إلى وعد الشيطان . ومن لا يسير فى طريق الله ويسمع وعده فهو سائر فى طريق الشيطان ومتبع وعده .. ليس هنالك إلا منهج واحد هو الحق ، المنهج الذى شرعه الله ، وما عداه فهو للشيطان ، ومن الشيطان .

هذه حقيقة يؤكدها القرآن كى لا تبقى حجة لمن يريد أن ينحرف عن منهج الله ثم يدعى الهدى والصواب فى أى باب ، ليست هناك شبهة ولا غشاوة ، الله أو الشيطان ، ولمن شاء أن يختار وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ استحسان ضرب الأمثال تقريبًا للمعانى إلى الأذهان لينتفع بها .

٢ ـ وجوب التفكر فى آيات الله ، لا سيما تلك التى تحمل بيان العقائد والأحكام والآداب والأخلاق

٣ ـ مضاعفة أجر الصدقة الخالية من المن والأذى ومراءاة الناس .

٤ ـ إن ممارسة العمل من أجل رضا الله سبحانه وتعالى يعنى إيثار الغيب على المشهود ، أو تفضيل الآجل البعيد على العاجل القريب .

٥ ـ من أراد الهداية ، وسعى لها سعيها ، وجاهد فيها فإن الله لا يحرمه منها ، بل يعينه عليها .

٦ ـ عمل المؤمن لا يبور أبداً ، بل يتقبله الله ويكثره ، وينميه ، لكل عامل بحسبه .

٧ ـ يجب أن يحرص المسلم على تحرى الكسب الحلال ، وإخراج حق الله فيه ، وإنفاقه فى مصارفه الشرعية ، دون إسراف أو تقتير .

وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

معانى الكلمات :

من نفقة : يقصد قليلة أو كثيرة من الجيد أو الرديء . **نذرتم من نذر** : النذر : التزام المؤمن بما لم يلزمه به الشارع . **تبدوا** : تظهروا .

فنعما هى : حَسنُ هذا الشيء الذى تفعلونه .

تخفوها : تقدموها سراً وفى الخفاء .

أحصروا : حبسهم الجهاد عن التصرف وكسب الأموال.

ضرباً: ذهاباً وسيراً للتكسب ، وطلب الرزق.

يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ: يظنهم الذى لا يعرف حالهم.

التعفف: ترك سؤال الناس ، والكف عنه .

تعرفهم بسيماهم : تعرفهم بحالتهم وهيئتهم الدالة على الفقر والحاجة وأثر الجهد والتواضع.

إلحافاً : إلحاحاً فى السؤال وتكراراً له ؛ لأنه عندهم عفة وكرامة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حاجة النفس البشرية إلى التحريك المستمر لتستعلى على حرصها وتنطلق من شحها .

٢ ـ أن نعرف أن الضلال والهدى بيد الله تعالى ، وإفساح الصدر من صاحب الدعوة لعناد الضالين أمر ضرورى.

٣ ـ أن نعلم أن مصارف الصدقة ينبغى أن تتوخى صاحب الحاجة بعد البحث الدقيق .

المحتوى التربوى :

أرشدنا عز وجل فى هذه الآيات إلى أنه يُجازى على كل صدقة وكل التزام لصدقة وبر لأن علمه محيط بكل عمل وكل قصد ؛ لنتذكر ذلك ، فنختار لأنفسنا أفضل ما نحب أن يعلمه عنا ، فهو يعلم قليلها وكثيرها ، سرها وعلانيتها ، ما كان منها فى حق ، وما كان منها فى شر ، ما كان عن إخلاص ، وما كان رئاء الناس ،ما أُتبع منها بالمن والأذى ،وما لم يتبع بشيء منها .

ويقول صاحب الظلال : « وشعور المؤمن بأن عين الله ـ سبحانه ـ على نيته وضميره ، وعلى حركته وعمله ، يثير فى حسه مشاعر حية ومتنوعة ، شعور التقوى والتحرج أن يهجس فى

خاطره هاجس رياء أو تظاهر ، أو شح أو بخل ، أو خوف من الفقر أو الغبن ، ويشعر بالاطمئنان على الجزاء والثقة بالوفاء ، والرضا والراحة بما وفى لله ، وقام وشكر نعمته عليه بهذا الإنفاق مما أعطاه . فأما الذى لا يقوم بحق النعمة ؛ والذى لا يؤدى الحق لله ولعباده ؛ والذى يمنع الخير بعد ما أعطاه الله إياه ، فهو ظالم للعهد ، وظالم للناس ولنفسه . فالوفاء عدل وقسط ، والمنع ظلم وزور ، والناس فى هذا البيان صنفان ، مقسط قائم بعهد الله معه إن أعطاه النعمة وفى وشكر . وظالم ناكث لعهد الله ، لم يعط الحق ولم يشكر ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ .

وإخفاء الصدقة حين تكون تطوعاً أولى وأحب إلى الله ؛ وأجدر أن تبرأ من شوائب التظاهر والرياء ، فأما حين تكون أداء للفريضة فإن إظهارها فيه معنى الطاعة ، وفشو هذا المعنى وإظهاره خير .

وتبدو لنا بعض الملاحظات التربوية من السياق ، فنلحظ طول التوجيه إلى الإنفاق ؛ وتنوع أساليب الترغيب والترهيب بصدده ، ومبعث ذلك أمران ، كما **يقول صاحب الظلال** :

أولاً:بصر الإسلام بطبيعة النفس البشرية وما يخالجها من الشح بالمال،وحاجتها إلى التحريك المستمر للاستجاشة الدائبة التى تستعلى على هذا الحرص وتنطلق من هذا الشح ، وترتفع إلى المستوى الكريم الذى يريده الله للناس .

الثانى : ما كان يواجهه القرآن من هذه الطبيعة فى البيئة العربية التى اشتهرت شهرة عامة بالسخاء والكرم .. ولكنه كان سخاء وكرماً يقصد به الذكر والصيت وثناء الناس!

ولم يكن أمراً ميسوراً أن يعلمهم الإسلام أن يتصدقوا دون انتظار لهذا كله ، متجردين من هذا كله ، فكان الأمر فى حاجة إلى التربية الطويلة ، والجهد الكبير ، والهتاف المستمر بالتسامى والتجرد والإخلاص ! وقد كان .

ويقرر القرآن جملة حقائق كبيرة ، ذات أثر عميق فى إقامة التصور الإسلامى على قواعده ، مفادها أن أمر القلوب وهداها وضلالها ليس من شأن أحد من خلق الله ـ ولو كان هو رسول الله ﷺ ـ إنه من أمر الله وحده ، فهذه القلوب من صنعه ؛ ولا يحكمها سواه ، ولا يصرفها سواه ، ولا سلطان لأحد عليها إلا الله . وما على الرسول إلا البلاغ . فأما الهدى فهو بيد الله ، يعطيه من يشاء ، ممن يعلم ـ سبحانه ـ أنه يستحق الهدى ، ويسعى إليه ، وإخراج هذا الأمر من اختصاص البشر يقرر الحقيقة التى لابد أن تستقر فى حس المسلم ليتوجه فى طلب الهدى إلى الله وحده ، وليتلقى دلائل الهدى من الله وحده ، ثم هى تفسح فى احتمال صاحب الدعوة لعناد الضالين ، فلا يضيق صدره بهم وهو يدعوهم ؛ ويعطف عليهم ، ويرتقب إذن الله لقلوبهم فى الهدى ، وتوفيقهم إليه بمعرفته حين يريد .

ولفتة أخرى سامية وضيئة يرفع الإسلام قلوب المسلمين إليها ، ويروضهم عليهم : إن الإسلام لا يقر مبدأ الحرية الدينية وحده ؛ ولا ينهى عن الإكراه فى الدين فحسب . إنما يقرر ما هو أبعد من ذلك كله . يقرر السماحة الإنسانية المستمدة من توجيه الله ـ سبحانه ـ يقر حق المحتجين جميعاً أن ينالوا العون والمساعدة ـ ماداموا فى غير حالة حرب مع المسلمين ـ دون نظر إلى عقيدتهم . ويقرر أن ثواب المعطين محفوظ عند الله على كل حال ، ما دام الإنفاق ابتغاء وجه الله . وهى وثبة بالبشرية لا ينهض بها إلا الإسلام ، ولا يعرفها على حقيقتها إلا أهل الإسلام .

ثم يخص بالذكر مصرفاً من مصارف الصدقة ؛ ويعرض صورة عفة كريمة نبيلة ، لطائفة من المؤمنين . صورة تستجيش المشاعر ، وتحرك القلوب لإدراك نفوس أبية بالمدد فلا تهون ، وبالإسعاف فلا تُضام ، وهى تأنف السؤال وتأبى الإلحاف . وهم الفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله بالجهاد ، فمنعهم من التصرف فى طلب المعاش . وسبب احتباسهم، إما انقطاع للعلم، أو عدم حيلة ، أو تفرغ لأمر من أمور المسلمين ويحسبهم الجاهل بحالهم ، مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة ، والنص عام ، ينطبق على المهاجرين وسواهم فى جميع الأزمان .

وهكذا فإن الإسلام لا يقيم حياة أهله على العطاء ، فإن نظامه كله يقوم أولاً على تيسير العمل والرزق لكل قادر ؛ وعلى حسن توزيع الثروة بين أهله بإقامة هذا التوزيع على الحق والعدل بين الجهد والجزاء ، ولكن هنالك حالات تتخلف لأسباب استثنائية ، وهذه هى التى يعالجها بالصدقة، مرة فى صورة الفريضة وهى الزكاة ، ومرة فى صورة تطوع ، وهى الصدقة يؤديها القادرون للمحتاجين رأسًا . مع مراعاة الآداب التى سبق بيانها . وبضمانة تعفف الآخذين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب الإخلاص فى الصدقات ، وإخفاؤها حين تكون تطوعًا أولى وأحب إلى الله .

٢ ـ ثواب الصدقة عائد على المتصدق لا على المتصدق عليه ؛ فلذا لا يضر إن كان كافراً .

٣ ـ أمر القلوب وهداها وضلالها بيد الله عز وجل فلا سلطان لأحد عليها ، فعلى الدعاة إلى الله الصبر وسعة الصدر تجاه المعاندين والضالين ، فإنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء .

٤ ـ جواز إظهار الصدقة عند سلامتها من الرياء .

٥ ـ الترغيب فى الصدقات ولو قلت ، فالصدقة تطفئ غضب الرب ، والتحذير من الرياء فيها وإخراجها من ردىء الأموال .

٦ ـ التعفف مع شدة الفاقة أفضل من الإلحاح فى الطلب من غير الله ، أما الله عز وجل فإنه يحب الملحين فى دعائه .

الجزء الثالث — سورة البقرة

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

٤٧

معانى الكلمات :

الربا : أن يؤدى المدين أكثر من المال الذى استدانه . **يتخبطه الشيطان**:يصرعه ويضربه فى الأرض . **المس** : الجنون والخبل . **يمحق الله الربا** : يهلك المال الذى يدخل فى الربا وينقصه ويذهب بركته .

يربى الصدقات: يزيد الله المال الذى أخرجت منه الصدقات **أثيم** : فاجر يتمادى فى المعاصى .

ذروا : اتركوا . **فأذنوا بحرب** : أيقنوا بحرب (وهذا وعيد لمن لم يترك الربا)

ذو عسرة: ضيق الحال من عدم المال .

فنظرة : فإمهال . **إلى ميسرة** : حتى يستطيع أداء ما عليه (السعة) . **توفى** : تجازى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على حرمة الربا ومقت الإسلام للنظام الربوى .

٢ ـ أن نعلم ملامح المنهج التربوى للقرآن فى تحريم الربا .

٣ ـ أن نبين وعد الله لمن يترك الربا ووعيده لمن لا ينتهى .

المحتوى التربوى :

تحدثت الآيات السابقة عن الصدقات التى هى نزول عن المال بلا عوض ولا رد ، وهذه الآيات تتحدث عن الربا الذى هو شح ، وقذارة ودنس ، وأثرة وفردية ، واسترداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه ، من جهده إن كان قد عمل بالمال الذى استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكده ، ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر ، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستربحه شيئاً .

ويخبر تعالى كيف أن أكَلَة الربا لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلى بعثهم ونشورهم ، إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له ، ذلك التخبط المعروف المنكر ، وإنما جُوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه ؛ إذ اعترضوا على الله فى تحريمه الربا ، من أنه ـ فى

زعمهم ـ شبيه بالبيع ، وهذا اعتراض منهم على شرع الله مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا ؟ ! إذ هذا محرم أفظع تحريم وهذا مباح ، والله هو العليم الحكيم الذى لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو العالم بحقائق الأمور ، ومصالحها ، وما ينفع عباده فيبيحه لهم ، وما يضرهم فينهاهم عنه .

ثم بين الله عز وجل أنه من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى ، فله ما كان أكل من الربا قبل التحريم ، ومن فعل الربا بعد بلوغه نهى الله عنه فقد استوجب العقوبة ، وقامت عليه الحجة ، واستحق الخلود فى النار ، والله سبحانه يذهب الربا ؛ إما بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به ، بل يعدمه فى الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة ، بينما هو جل جلاله يبارك وينمى ويكثر الصدقات بأن يضاعف لأصحابها أجورهم ، وإنما ذكر بركة الصدقة يوم القيامة ، ولم يذكر تنمية الأموال المزكاة فى الدنيا ـ مع أنه كائن ـ تبيانا لقصد أصحابها ، وإشعاراً بأن الدنيا هينة وأن الآخرة هى الهدف ، والله عز وجل لا يحب كل كفور القلب أثيم القول والفعل ، ثم يثنى الله تعالى على المؤمنين بربهم المطيعين أمره ، المؤدين شكره ، المحسنين إلى خلقه ، المقيمين الصلاة ، والمؤدين الزكاة ، وهؤلاء لهم الكرامة ، وهم يوم القيامة من التبعات آمنون ، لا خوف عليهم ولا يحزنون .

ويطرح **صاحب الظلال** عدة حقائق بصدد كراهية الإسلام للنظام الربوى،نلخصها فيما يلى :

ـ لا إسلام مع قيام نظام ربوى فى مكان ، وكل ما يمكن أن يقوله أصحاب الفتاوى من رجال الدين أو غيرهم سوى هذا دجل وخداع .

ـ النظام الربوى بلاء على الإنسانية ـ لا فى إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب ـ بل كذلك فى صميم حياتها الاقتصادية والعملية ، وأنه أبشع نظام يمحق سعادة البشرية محقاً .

ـ التعامل الربوى لا يمكن إلا أن يفسد ضمير الفرد وخلقه ، وشعوره تجاه أخيه فى الجماعة ؛ وإلا أن يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبثه من روح الشره ، والطمع ، والأثرة، والمخاتلة والمقامرة بصفة عامة .

ـ الإسلام نظام متكامل . فهو حين يحرم الربا يقيم نظمه كلها على أساس الاستغناء عن الحاجة إليه؛وينظم جوانب الحياة الاجتماعية بحيث تنتفى منها الحاجة إلى هذا النوع من التعامل، بدون مساس بالنمو الاقتصادى والاجتماعى والإنسانى المطرد .

ـ لمن يريد أن يكون مسلماً ، هناك استحالة اعتقادية فى أن يحرم الله أمراً لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه!وأن يكون هناك أمر خبيث،ويكون فى الوقت ذاته حتميًا لقيام الحياة وتقدمها .

ـ القول باستحالة قيام الاقتصاد العالمى اليوم وغداً على أساس غير الأساس الربوى. خرافة، وأكذوبة ضخمة يستخدمها أصحاب المصلحة فى بقاء هذا النظام الخبيث ، وينادى الله تعالى

عباده المؤمنين آمر إياهم بتقواه تعالى ، وذلك بطاعته وترك معصيته ، وبالتخلى عما بقى عند بعضهم من المعاملات الربوية مذكرًا إياهم بإيمانهم ؛ إذ من شأن المؤمن الاستجابة لنداء ربه ، وفعل ما يأمره به وترك ما ينهاه عنه ،ثم هدد المتباطئين عن ترك الربا بحروب قاسية ضروس من الله ورسوله ، أما من تاب فله رأس ماله فقط ، لا يظلم بأخذ زيادة ، ولا يُظلم بأن ينقص من رأس ماله .

ثم يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لا يجد وفاءً ، وشىء آخر وهو خير لكم أن تتصدقوا بالتنازل عن ديونكم كلها ، ووعد على الوضع عنه الخير والثواب الجزيل ، ويعظ الله عباده ويذكرهم زوال الدنيا ، وفناء ما فيها من الأموال وغيرها ، والمصير إلى الآخرة والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته .

يقول صاحب الظلال : والبشرية مدعوة للتوبة عن هذه الخطيئة الجاهلية . التى لا تتعلق بزمان دون زمان ، ولا نظام دون نظام ؛ لأنها انحراف عن شريعة الله ومنهجه متى كان وحيث كان ، فهى خطيئة تنشئ آثارها فى مشاعر الأفراد وأخلاقهم ، وفى تصورهم للحياة ، وكذلك فى حياة الجماعة وارتباطاتها العامة وفى حياة البشرية كلها ، وفى نموها الاقتصادى ذاته ، والتقوى هى الحارس القابع فى أعماق الضمير ، والذى يكفل فاعلية هذه التوبة عن خطيئة الربا ، يقيمها الإسلام هناك فى قلب المؤمن وتملك عليه منافذ الحس ، ويصدر عنها السلوك ، إنه الإسلام ، النظام القويم والوحيد الذى يعصم البشرية من هذه الحرب المعلنة من الله ورسوله ،على المرابين فى كل زمان ومكان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إن لم نحول حياتنا عن النظام الربوى المقيت ، فهى الحرب المعلنة من الله ورسوله بلا هوادة ولا إمهال ولا تأخير .

٢ ـ لا إيمان بغير طاعة وانقياد واتباع لما أمر الله به .

٣ ـ لا تحريم بغير نص ، ولا حكم بغير تشريع ، والتشريع ينفذ وينشئ آثاره بعد صدوره ، فأما الذى سلف فأمره إلى الله لا إلى أحكام القانون .

٤ ـ روى الطبرانى عن أبى أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ، فلييسر على معسر ، أو ليضع عنه » وقال : « من أراد أن تستجاب دعوته ، وأن تكشف كربته ، فليفرج عن مُعْسِرٍ » رواه أحمد .

الجزء الثالث — سورة البقرة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ
مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ
مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ
أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

٤٨

معانى الكلمات :

تداينتم : داين بعضكم بعضاً .

أجل مسمى: وقت محدد . **ولا يأب كاتب** : ولا يمتنع كاتب . **لا يبخس منه** : لا ينقص منه . **سفيهاً** : ناقص العقل ، يبذر المال ولا يحسن التصرف فيه. **وليه**:القائم على أمره أو وصيه .

لا تسأموا:لا تملوا ولا تضجروا . **أقسط** : أعدل . **أقوم للشهادة** : أكثر مساعدة على إثباتها وأدائها .

أدنى ألا ترتابوا : أقرب إلى عدم الشك والارتياب .

حاضرة : غير مؤجلة . **فسوق** : خروج عن طاعة الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على الأحكام الخاصة بالدَّين والتجارة .

٢ ـ أن نعلم حرص الإسلام على ضمان حقوق الناس فى معاملاتهم .

٣ ـ أن نعرف حكمة الإجراءات المطلوبة ، وضرورة اقتناع المتعاملين بضرورة هذا التشريع .

المحتوى التربوى :

تأتى هذه الآيات لتختم الأحكام الخاصة بالدَّين والتجارة والرهن تكملة للأحكام السابقة فى درسى الصدقة والربا ، وبعد استبعاد الله للربا ومحقه يعرض القرض الحسن بلا ربا ولا فائدة، والمعاملات التجارية الحاضرة المبرأة من الربا كبديل إسلامىّ للنظام الربوىّ المقيت . وآية الدين هى أطول آية فى كتاب الله عز وجل . وفيها إشارة لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ؛ ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها .

وأمر لهذا الكاتب أن يكتب بالعدل . والقسط ، والحق ، ولا يجور فى كتابته على أحد ، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان . ثم أمر من يعرف الكتابة ألا يمتنع من

الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ، إذا لم يترتب على ذلك ضرر يصيبه . فكما علمه الله ما لم يعلم ، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة .

ثم أعطى حق الإملاء على الكاتب للمدين ، وأمر المدين أن يذكر ما في ذمته من الدين كاملاً فلا ينقص منه شيئاً وليتق الله فى ذلك . وفى الحالات التى يكون فيها المدين محجوراً عليه ، أو صغيراً ، أو مجنوناً أو عيّاً ، فقد أعطى حق الإملاء لوليه بالعدل والقسط ، ثم أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق .

وأمر أن يكون الشهود إما رجلين ، أو رجلاً وامرأتين . وأقيمت المرأتان مقام الرجل لاحتمال نسيان إحداهما فتحتاج إلى أخرى من جنسها ، تذكّرها ، ثم أمر الشهود أن يكونوا عدولاً ، وأمر المسلمين بتلبية الدعوة للشهادة ؛ لأنها فريضة وليست تطوعًا ، فهى وسيلة لإقامة العدل وإحقاق الحق ، والله هو الذى يفرضها كى يلبيها الشهداء عن طواعية تلبية وجدانية ، بدون تضرر أو تلكؤ . وبدون تفضل كذلك على المتعاقدين أو على أحدهما ، إذا كانت الدعوة من كليهما أو من أحدهما .

ونهانا عن السآمة والملل فى ذلك . ثم بين الحكمة من الأمر بالكتابة والإشهاد ، ثم نهى الكاتب والشاهد أن يضرا أحدًا . ثم بيّن تعالى أنه إن وقعنا فى مخالفة ما أمرنا به ، أو نهينا عنه ، فإنه فسق كائن بنا ، ولازم لنا ، لا نحيد عنه ، ثم أمر بتقواه ، وذلك بالخوف منه ، ومراقبته واتباع أمره واستجاش ضمائر المؤمنين للأمانة والوفاء بدافع من تقوى الله ، فهذا هو الضمان الأخير لتنفيذ التشريع كله ، ولرد الأموال والرهائن إلى أصحابها ، والمحافظة الكاملة عليها .

ويقول صاحب الظلال ـ معلقًا على آية الدين بقوله :

وإن الإنسان ليقف فى عجب وفى إعجاب أمام التعبير التشريعى فى القرآن ، تتجلى الدقة العجيبة فى الصياغة القانونية حتى ما يبدّل لفظ بلفظ ، ولا تقدم فقرة عن موضعها أو تؤخر . وحيث لا تغطى هذه الدقة المطلقة فى الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته .

وحيث يربط التشريع بالوجدان الدينى ربطًا لطيف المدخل عميق الإيحاء قوى التأثير ، دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية . وحيث يلحظ كل المؤثرات المحتملة فى كل من موقف طرفى التعاقد وموقف الشهود والكتاب ، فينفى هذه المؤثرات كلها ويحتاط لكل احتمال من احتمالاتها . وحيث لا ينتقل من نقطة إلى نقطة إلا وقد استوفى النقطة التشريعية ، بحيث لا يعود إليها إلا حيث يقع ارتباط لا بينها وبين نقطة جديدة يقتضى الإشارة إلى الرابطة بينهما .

إن الإعجاز فى صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز فى صياغة الإيحاء والتوجيه . بل هو أوضح وأقوى ؛ لأن الغرض دقيق يحرفه لفظ واحد ، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة ، والجمال الفنى المطلق على هذا النحو الفريد .

ذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامى بهذه المبادئ للتشريع المدنى والتجارى بحوالى عشرة قرون ، كما يعترف الفقهاء المُحدَثون .

ويقول صاحب المنار معلقاً على قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ : « أى اتقوا الله فى جميع ما أمركم به ونهاكم عنه ، وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم ، وحفظ أموالكم ، وتقوية رابطتكم ، فإنكم لولا هدايته لا تعلمون ذلك ، وهو سبحانه العليم بكل شىء فإذا شرع شيئًا ، فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح ، لمن اتبع شرعه ، وكرر لفظ الجلالة لكمال التذكير وقوة التأثير .

وإذا علمت أن التقوى عمل يتوقف على العلم وأن هذا العلم لابد أن يؤخذ بالتعليم والتلقى وأن العمل بالعلم من أسباب المزيد فيه ، وخروجه من مضيق الإبهام والإجمال إلى فضاء الجلاء والتفصيل فهمت المراد بالفرقان فى قوله تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ ، وعلمت أن أدعياء التصوف الجاهلين لا حظ لهم من ذلك العلم الأول ، ولا من هذه التقوى التى هى أثرة ؛ ولا من هذا العلم الأخير الذى هو أثر العلم والتقوى جميعاً . فبينهم وبين العلم اللدنى بون شاسع .

ـ العلم الذى يؤخذ بالتلقى والتقوى بالعمل به .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ وجوب كتابة الديون سواءٌ كانت بيعاً ، أو شراء ، أو سلفاً ، أو قرضاً هذا ما قرره ابن جرير ، ورد القول بالإرشاد والندب .

٢ ـ رعاية النعمة بشكرها لقوله تعالى للكاتب : ﴿ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ فليكتب إذ علمه الكتابة وحرم غيره منها .

٣ ـ وجوب العدل والإنصاف فى كل شىء ، لاسيما فى كتابة الديون المستحقة المؤجلة .

٤ ـ الشهادة فريضة وليست تطوعاً ، فهى وسيلة لإقامة العدل وإحقاق الحق ، والله هو الذى يفرضها كى يلبيها الشهداء عن طواعية بدون تضرر أو تلكؤ وبدون تفضل كذلك على المتعاقدين أو على إحداهما .

٥ ـ العلم الذى هو أصل التقوى ، وسببها لا يكون إلا بالتعلم ، كما ورد فى الحديث : «العلم بالتعلم ».

وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

معانى الكلمات :

رهان : جمع رهن وهو الشىء المرتهن حتى يسدد الدين . **تبدوا** : تظهروا .

آمن : صدق واعتقد .

المصير : المرجع . **سمعنا** : سَماعُ فهم واستجابة وطاعة . **وسعها** : طاقتها وما تقدر عليه .

لا تؤاخذنا : لا تعاقبنا . **إصراً** : حملاً ثقيلاً والمراد التكاليف الشاقة .

ما لا طاقة لنا به : ما لا قدرة لنا على القيام به .

واعف عنا : سامحنا واصفح عن ذنوبنا .

ارحمنا : تفضل علينا برحمتك الواسعة .

أنت مولانا : أنت إلهنا ، ونحن عبيدك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن المدين مؤتمن على الدين ، والدائن مؤتمن على الرهن ، وكلاهما مدعو لأداء الأمانة .

٢ ـ أن نعرف الإيمان الشامل الذى جاء به هذا الدين .

٣ ـ أن نعلم أن قوام الأمر فى حس المؤمن عمل بكل ما فى الوسع ،وشعور مع ذلك بالتقصير والعجز ، ورجاء ـ بعد ذلك ـ فى الله لا ينقطع ، وتطلع إلى العفو والمغفرة والسماح .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يعود المشرع إلى تكملة فى أحكام الدين ، آخرها فى النص ؛ لأنها ذات ظروف خاصه كما **يقول صاحب الظلال** : «فلم يذكرها هناك فى النص العام ، ذلك حين يكون الدائن والمدين على سفر ، فلا يجدان كاتبًا ، فتيسيرًا للتعامل ، مع ضمان الوفاء ، رخص الشارع فى التعاقد الشفوى بلا كتابة مع تسليم رهن مقبوض للدائن ، ضامن للدين .

والمدين مؤتمن على الدين ، والدائن مؤتمن على الرهن ؛ وكلاهما مدعو لأداء ما اؤتمن عليه باسم تقوى الله ربه ، والرب هو الراعى والمربى والسيد والحاكم والقاضى .

فائدة : فى بعض الآراء أن هذه الآية نسخت آية الكتابة فى حالة الائتمان .

والراجح أن الكتابة واجبة فى الدين إلا فى حالة السفر . والائتمان خاص بهذه الحالة والدائن والمدين كلاهما ـ فى هذه الحالة ـ مؤتمن .

وفى ظل هذه الاستجاشة إلى التقوى ، يتم الحديث عن الشهادة ـ عن التقاضى فى هذه المرة لا عند التعاقد ؛ لأنها أمانة فى عنق الشاهد وقلبه ! ويتكئ التعبير هنا على القلب فينسب إليه الإثم . تنسيقًا بين الإضمار للإثم ، والكتمان للشهادة . فكلاهما عمل يتم فى أعماق القلب ، ويعقب عليه بتهديد واضح . فليس هناك شىء خاف على الله ، وهو يجزى عليه ، بمقتضى علمه الذى يكشف الإثم الكامن فى القلوب !

ويستمر السياق فى هذه التربية الإيمانية باستجاشة القلب للخوف من مالك السموات والأرض وما فيهما ، العليم بمكنونات الضمائر خفيت أم ظهرت ، المجازى عليها ؛ المتصرف فى مصائر العباد بما يشاء من الرحمة والعذاب ، القدير على كل شىء تتعلق به مشيئته بلا تعقيب !

ويربط السياق بين التشريعات للحياة وخالق الحياة ، بذلك الرباط الوثيق ، المؤلف من الخوف والرجاء فى مالك الأرض والسماء : فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية ضمانات القلب الوجدانية ، وهى الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام فى قلوب المسلمين فى المجتمع المسلم ، وهى والتشريع فى الإسلام متكاملان ، فالإسلام ـ الذى يصنع القلوب التى يشرع لها ؛ ويصنع المجتمع الذى يقنن له ، صنعة إلهية متناسقة . تربيةٌ وتشريعٌ وتقوى وسلطان ، ومنهج للإنسان من صنع خالق الإنسان .

وترسم الآيات فى نهايتها صورة واضحة المعالم للمؤمنين كما يقول صاحب الأساس : « بهذه الآية وصف الله المؤمنين هذا الوصف الجامع كما رأينا . فهم مصدقون ، سامعون ، مطيعون ، شاعرون بالتقصير ، طالبون للمغفرة ، مشفقون من المصير . لقد أحاطت هذه الآيات بصفات المؤمنين إحاطة كاملة ، شاملة . وذكر ابن جرير أنه لما نزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية ، قال جبريل : إن الله قد أحسن الثناء عليك ، وعلى أمتك . فسل تعطه » .

ورسمت الآيات صورة المؤمنين الذين تمثلت فيهم حقيقة الإيمان فعلاً ؛ كما يقول صاحب الظلال : « إنه الإيمان الشامل الذى جاء به هذا الدين . الإيمان الذى يليق بهذه الأمة الوارثة لدين الله ، القائمة على دعوته إلى يوم القيامة ، الضاربة الجذور فى أعماق الزمان السائرة فى موكب الدعوة ، وموكب الرسول وموكب الإيمان الممتد فى شعاب التاريخ البشرى ، الإيمان الذى يتمثل البشرية كلها منذ نشأتها إلى نهايتها صفين اثنين : صف المؤمنين وصف الكافرين . حزب الله وحزب الشيطان . فليس هناك صف ثالث على مدار الزمان .

وهكذا تتلقى الأمة المسلمة تراث الرساله كله ؛ وتقوم على دين الله فى الأرض ، وهى الوارثة له كله ؛ ويشعر المسلمون ـ من ثم ـ بضخامة دورهم فى هذه الأرض إلى يوم القيامة .

فهم الحراس على أعز رصيد عرفته البشرية فى تاريخها الطويل . وهم المختارون لحمل راية الله ـ وراية الله وحدها ـ فى الأرض ، يواجهون بها رايات الجاهلية المختلفة الشارات ، من قومية ووطنية وجنسية وعنصرية وصهيونية وصليبية واستعمارية وإلحادية ، إلى آخر شارات الجاهلية التى يرفعها الجاهليون فى الأرض ، على اختلاف الأسماء والمصطلحات واختلاف الزمان والمكان .

ولهذا الإيمان أثر يتجلى فى السمع والطاعة ، السمع لكل ما جاءهم من عند الله ، والطاعة بكل ما أمر به الله ، فهو إفراد الله بالسيادة ، والتلقى منه فى كل أمر ،فلا إسلام بلا طاعة لأمر الله ، وإنفاذ لنهجه فى الحياة . ولا إيمان حيث يُعرض الناس عن أمر الله فى الكبيرة والصغيرة من شؤون حياتهم ؛ أو حيث لا ينفذون شريعته ؛ فالإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

ومع السمع والطاعة ، يكون الشعور بالتقصير بالعجز عن توفية آلاء الله حق شكرها ؛ وفرائض الله حق أدائها ، والالتجاء إلى رحمة الله لتتدارك تقصيرهم وعجزهم بسماحتها .

ويعقب ذلك طلب الغفران ، واليقين بأن المصير إلى الله فى الدنيا والآخرة ؛ ويستشعر المؤمن رحمة ربه ، وعدله فى التكاليف التى يفرضها عليه فى خلافته للأرض وفى ابتلائه وجزائه على عمله فى نهاية المطاف فينطلق من قلبه دعاء خافق واجف يصور حاله مع ربه ، وإدراكه لضعفه وعجزه ، وحاجته إلى رحمته وعفوه ومدده وعونه ، ثم الاعتراف بالضعف والتوجس من ذلك التقصير . الذى لا يمحو آثاره إلا فضل الله العفو الغفور ، وهذا هو الضمان الحقيقى لاجتياز الامتحان ، ونيل الرضوان ؛ فالعبد مقصر مهما يحاول من الوفاء ، ومن رحمة الله أن يعامله بالعفو والمرحمة والغفران .

وأخيرًا يلصق المؤمنون ظهورهم إلى ركن الله ، وهم يهمون بالجهاد فى سبيله ، لإحقاق الحق الذى أراده ، وتمكين دينه فى الأرض ومنهجه ، « أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » .

إنه الختام الذى يلخص العقيدة . ويلخص تصور المؤمنين ، وحالهم مع ربهم فى كل حين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يجب على كل مسلم تحقيق الإيمان بالله ورسله جميعاً ، وبملائكته ، وبجميع كتبه ، وكذلك الإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من ثواب وعقاب .

٢ ـ سلوك المؤمنين مع أوامر الله ونواهيه السمع والطاعة من غير اعتراض أو شك .

٣ ـ الدعاء مخ العبادة ، ومن أفضله أن ندعو بما ورد فى القرآن وبما دعا به الرسول ﷺ .

٤ ـ حال المؤمن مع ربه الدعاء والتضرع، والاعتراف بالضعف والذلة ، والخوف من الذنب، ورجاء الفضل منه عز وجل لاجتياز الامتحان ، ونيل الرضوان .

الجزء الثالث — سورة آل عمران

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

٥٠

سورة آل عمران

معانى الكلمات :

القيوم: الدائم القيام بتدبير خلقه وحفظهم

التوراة : الكتاب الذى أنزل على موسى عليه السلام . **الإنجيل** : الكتاب الذى أنزل على عيسى عليه السلام . **آيات محكمات** : واضحات .

زيغ : ميل وانحراف عن الحق . **تأويله** : تفسيره بما يوافق أهواءهم ورغباتهم .

أولو الألباب : أصحاب العقول . **من لدنك** : من عندك . **الوهاب** : كثير الهبة والعطاء والإنعام . **لا ريب فيه** : لا شك فى وقوعه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعلم أن توحيد الله تعالى هو أعظم قواعد الدين ، بل أهم قواعد الحياة الدنيوية السعيدة .

٢ ـ أن نوقن أن من أكبر نعم الله على الناس عموماً ، نزول القرآن على الرسول ﷺ ، لينقذ البشرية من الضلال والتيه ، ويهديها لما يصلح الدنيا والآخرة .

٣ ـ أن نهتم بقضية التوحيد ، إذ هى أصل الإيمان ، وإذا صح التوحيد صح الإيمان والعمل .

٤ ـ أن نعتقد اعتقاداً جازماً أن القرآن الكريم هو وحده من بين الكتب السماوية الذى تضمن منهجاً كاملاً لحياة الإنسان وسعادته فى الدنيا والآخرة .

المحتوى التربوى :

تبدأ سورة آل عمران بمواجهة أهل الكتاب المنكرين لرسالة النبى ﷺ ، وهم بحكم معرفتهم بالنبوات والرسالات والكتب المنزلة والوحى من الله ، كانوا أولى الناس بأن يكونوا أول المصدقين المسلمين ، لو أن الأمر أمر اقتناع بحجة أو دليل ! وتعمد الآيات إلى أكبر الشبهات التى تحيك فى صدورهم ، والتى يتعمدون نشرها فى صدور المسلمين فتكشف مداخلها فى القلوب ومساربها ، وموقف المؤمنين منها وموقف أهل الزيغ والانحراف ! وتصور حال المؤمنين من ربهم . والتجائهم إليه ، وتضرعهم له ، ومعرفتهم بصفاته تعالى .

فتبدأ بتحرير التوحيد الخالص الناصع الذى هو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد ، سواء منها عقائد الملحدين والمشركين ، وعقائد أهل الكتاب المنحرفين : يهودًا أو

نصارى . على اختلاف مللهم ونحلهم جميعاً . والعقيدة هنا كما **يقول صاحب الظلال** تحدد منهج الحياة ونظامها تحديدًا كاملًا دقيقًا .

ويقول صاحب الأساس : « ومن مظاهر وحدانيته وقيوميته وعزته وحكمته : إنزال الكتب ، وامتحان الخلق بمعانيها ومحاسبتهم عليها ، ومعاقبة الكافرين وإثابة المؤمنين ، وكذلك من مظاهرها أن ينصر المؤمنين على الكافرين فى الدنيا والآخرة ، ويعذّب الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وكذلك تزيين الحياة الدنيا للناس لتقوم الحياة ! وليبتلى بذلك خلقه وليمحص أهل التقوى من غيرهم .

ويقول صاحب الظلال : « إن الذى يمتلئ شعوره بوجود الله الواحد الذى هذه صفته ، لابد أن يختلف منهج حياته ونظامها من الأساس عن الذى تغيم فى حسه تلك التصورات التائهة المشوهة . فلا يجد فى ضميره أثراً لحقيقة الألوهية الفاعلة المتصرفة فى حياته !

إنه مع التوحيد الواضح الخالص لا مكان لعبودية إلا لله ، ولا مكان للاستمداد والتلقى إلا من الله ، لا فى شريعة أو نظام ، ولا فى أدب أو خلق ، ولا فى اقتصاد أو اجتماع . ولا مكان كذلك للتوجه لغير الله فى شأن من شؤون الحياة ، وما بعد الحياة ؛ ومن ثم كان التميز والتفرد لطبيعة الحياة الإسلامية ـ لا لطبيعة الاعتقاد وحده ـ فالحياة الإسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق انبثاقًا من حقيقة هذا التصور الإسلامى عن التوحيد الخالص الجازم ، التوحيد الذى لا يستقيم عقيدة فى الضمير ما لم تتبعه آثاره العملية فى الحياة ، من تلقى الشريعة ، والتوحيد من الله فى كل شأن من شؤون الحياة ، والتوجه كذلك إلى الله فى كل نشاط ، وفى كل اتجاه .

وعقب هذا الإيضاح الحاسم فى مفرق الطريق، بإعلان الوحدانية المطلقة لذات الله وصفاته، يجيء الحديث عن وحدانية الجهة التى تتنزل منها الأديان والكتب والرسالات ، والرد على أهل الكتاب وغيرهم من المنكرين لرسالة محمد ﷺ وصحة ما جاء به من عند الله . وتتضمن الآيات كذلك التهديد الرعيب للذين كفروا بآيات الله ، وتلوح لهم بعزة الله وقوته وشدة عذابه وانتقامه ، وفى صدد هذا التهديد يؤكد لهم علم الله الذى لا يند عنه شيء فلا خفاء عليه ، ولا إفلات منه، وفى خلال هذا العلم اللطيف الشامل الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، يلمس المشاعر الإنسانية لمسة رفيقة عميقة ، تتعلق بالنشأة الإنسانية المجهولة فى ظلام الغيب وظلام الأرحام ، حيث لا علم للإنسان ولا قدرة ولا إدراك .

بعدئذ يكشف الذين فى قلوبهم زيغ، الذين يتركون الحقائق القاطعة فى آيات القرآن المحكمة، ويتبعون النصوص التى تحتمل التأويل ، ليصوغوا حولها الشبهات ؛ ويصور سمات المؤمنين حقاً وإيمانهم الخالص ، وتسليمهم لله فى كل ما يأتيهم من عنده بلا جدال .

قال صاحب الأساس عن سمات المؤمنين الراسخين فى العلم ، فيما رواه نافع بن يزيد: قال : « يقال: الراسخون فى العلم: المتواضعون لله المتذللون فى مرضاته، لا يتعاظمون على من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم . وقد ورد عن رسول الله ﷺ وصف للراسخين فى العلم هو : «من برت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، ومن عف بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين فى العلم » .

وهذا تصوير صحيح للراسخين فى العلم ، فما يتبجح وينكر إلا السطحيون الذين تخدعهم قشور العلم ، فيتوهمون أنهم أدركوا كل شىء ، وأن ما لم يدركوه لا وجود له ؛ ومن ثم يقابلون كلام الله المطلق بمقررات عقليه لهم ! صاغتها عقولهم المحدودة ! أما العلماء حقاً فهم أكثر تواضعًا ، وأقرب إلى التسليم بالعجز البشرى عن إدراك حقائق كثيرة تفوق طاقتهم ، وترتفع عليها.

﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ لأن الحق المستقر فى فطرتهم الموصولة بالله ، ينبض ويبرز فيدركون الحق ويتذكرون فتنطلق ألسنتهم وقلوبهم فى دعاء خاشع وفى ابتهال منيب : أن يثبتهم على الحق ، وألا يزيغ قلوبهم بعد الهدى ، وأن يسبغ عليهم رحمته وفضله ، ويتذكرون يوم الجمع الذى لا ريب فيه ، والميعاد الذى لا خلف له .

وهذا حال الراسخين فى العلم مع ربهم ؛ وهو الحال اللائق بالإيمان ؛ كما **يقول صاحب الظلال** :«المنبثق من الطمأنينة لقول الله ووعده ؛ والثقة بكلمته وعهده ؛ والمعرفة برحمته وفضله؛ والإشفاق مع هذا من قضائه المحكم وقدره المغيب ؛ والتقوى والحساسية واليقظة التى يفرضها الإيمان على قلوب أهله ، فلا تغفل ولا تغتر ولا تنسى فى ليل أو نهار .

ويقول صاحب المنار : « قال الإمام : إن مناسبة هذا الدعاء للإيمان بالمتشابه ظاهرة على القول بأن المتشابه هو الإخبار عن الآخرة أى : أنهم كما يؤمنون بالمتشابه يؤمنون بمضمونه والمراد منه ، وما يؤول إليه . وأما على القول بأنه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم فوجهه أنهم يذكرون يوم الجمع ليستشعروا أنفسهم الخوف من تسرب الزيغ الذى يبسلهم فى ذلك اليوم . فهذا الخوف مبعثه الحذر والتوقى من الزيغ . أعاذنا الله منه بمنه وكرمه».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هى قبل كل شىء معركة هذه العقيدة ، وحتى حين يريدون أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد ، فإنهم يحاولون أولاً أن يغلبوها على العقيدة .

٢ ـ القرآن هو كتاب هذه الدعوة . هو روحها وباعثها وهو قوامها وكيانها وهو حارسها . وهو الذى يستمد منه الدعاة وسائل العمل ، ومناهج الحركة ، وزاد الطريق .

٣ ـ فائدة إنزال المتشابه من القرآن الابتلاء به ، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، وليتعب العلماء قرائحهم فى استخراج معانيه ، وردّه إلى المحكم ، ولترتفع درجات من أراد الله أن يرفع درجاته بالعلم ، وليبقى دائماً فى هذا القرآن ما ترتفع إليه الهمم فى كل شؤون الحياة ، فهو خطاب الله الأخير للبشر .

٤ ـ الفرقة الناجية التى تتبع المحكم وتعمل به ، وتؤمن بالمتشابه وتسلم لله فيه مع حملها له على المحكم ، وفهمها له بما لا يتعارض مع المحكم ، مع وجود مواصفات الربانية فيها من إقبال على الله وإخبات له ، وعبادة وافتقار له وهم أهل السنة والجماعة .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)

٥١

معانى الكلمات :

لن تغنى : لن تنفع ولن تدفع . **كدأب** : كعادة وشأن . **بئس المهاد** : بئس الفراش والمستقر . **التقتا** : تقابلتا فى ميدان الحرب (بدر) . **يرونهم مثليهم** : يرى الكافرون المؤمنين مثل عددهم مرتين . **القناطير** : المقصود : المال الكثير . **المقنطرة** : المضاعفة أو المحكمة المحصنة . **المسومة** : المعلمة .

الأنعام : الإبل والبقر والضأن والماعز .

الحرث : الزرع . **حُسن المآب** : المرجع الحسن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على مصير الذين كفروا ، وسنة الله الجارية على الكافرين فى كل زمان ومكان .

٢ ـ أن نعرف أن الفطرة التى فطر الله عليها الناس تجعلهم يحبون الشهوات ، ولكن فى غير إسراف ولا مخيلة ، ولا خروج عما جاءت به الشريعة

٣ ـ أن ندرك أن ما أعده الله للذين اتقوا خير من الدنيا وما فيها .

٤ ـ أن نوقظ فى الناس حب القرآن الكريم وما تضمنه من حكمة ومثل وقصة وخير ، وأن نجعل من ذلك زاداً نستعين به على المضى فى طريق الدعوة إلى الله .

المحتوى التربوى :

يتجلى فى هذه الآيات بيان واضح يقرر مصير الذين كفروا ، وسنة الله التى لا تتبدل فى أخذهم بذنوبهم ، وكذلك تهديد الذين كفروا من أهل الكتاب ، والذين يقفون لهذا الدين بالمرصاد ، ويتوعدهم بما رأوه بأعينهم فى غزوة بدر ، من نصر القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة .

وهذه الآيات واردة فى صدد خطاب بنى إسرائيل، وتهديدهم بمصير الكفار قبلهم وبعدهم، ويختار لهم مثلًا قريبا منهم كانوا هم سببًا فى هلاكه يوم كانوا صالحين وهم فرعون وقومه ، وسينالهم ما نالهم إن هم سلكوا طريقه ، وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبرى ، وثوابته وسننه الجارية ، ومنها : أن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون ، وينحرفون عن منهج الله ، قائم

فى كل لحظة . ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة ـ ولو قل عددها ـ قائم كذلك فى كل لحظة . وتوقف النصر على تأييد الله الذى يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ وسنة ماضية لم تتوقف .

ويقول صاحب الظلال: « وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة ؛ وتثق فى ذلك الوعد ؛ وتأخذ للأمر عدته التى فى طوقها كاملة ؛ وتصبر حتى يأذن الله ، ولا تستعجل ولا تقنط ، إذا طال عليها الأمد المغيب فى علم الله ، المدبر بحكمته ، المؤجل لموعده الذى يحقق هذه الحكمة .

وفى مجال التربية للجماعة المسلمة يكشف لها عن البواعث الفطرية الخفية التى من عندها يبدأ الانحراف ، إذا لم تضبط باليقظة الدائمة ؛ وإذا لم تتطلع النفس إلى آفاق أعلى ؛ وإذا لم تتعلق بما عند الله وهو خيرٌ وأزكى .

إن الاستغراق فى شهوات الدنيا ، ورغائب النفوس ، ودوافع الميول الفطرية هو الذى يشغل القلب عن التبصر والاعتبار ، ويدفع الناس إلى الغرق فى لجة اللذائذ القريبة المحسوسة ؛ ويحجب عنهم ما هو أرفع وأعلى ؛ ويغلظ الحس ، فيحرمه متعة التطلع إلى ما وراء اللذة القريبة المحسوسة ، ومتعة الاهتمامات الكبيرة اللائقة بدور الإنسان العظيم فى هذه الأرض ؛ واللائقة كذلك بمخلوق ـ يستخلفه الله فى هذا الملك العريض .

ولما كانت هذه الرغائب والدوافع ـ مع هذا ـ طبيعية وفطرية ، ومكلفة من قبل البارئ ـ جل وعلا ـ أن تؤدى للبشرية دوراً أساسياً فى حفظ الحياة وامتدادها ، فإن الإسلام لا يشير بكبتها وقتلها ، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها ، وتخفيف حدتها واندفاعها ؛ وإلى أن يكون الإنسان مالكاً لها متصرفاً فيها ، لا أن تكون مالكة له متصرفة فيه ؛ وإلى تقوية روح التسامى فيه ، والتطلع إلى ما هو أعلى » .

ومن ثم يعرض النص القرآنى الذى يتولى هذا التوجيه التربوى ، هذه الرغائب والدوافع ، ويعرض إلى جوارها على امتداد البصر ألواناً من لذائذ الحس والنفس فى العالم الآخر ، ينالها من يضبطون أنفسهم فى هذه الحياة الدنيا عن الاستغراق فى لذائذها المحببة ، ويحتفظون بإنسانيتهم الرفيعة .

ويقول صاحب الأساس : « زينت هذه الأشياء للإنسان من أجل أن تعمر الحياة الدنيا ، فإذا استعملها الإنسان ضمن ما حدّده الله ـ عز وجل ـ يكون قد حقق الحكمة من التزيين ، وأرضى الله ، وعمرت الحياة ، ولم تفسد الأرض ، وإذا تجاوز فيها ما حدّده الله ، فسدت الأرض ، وأسخط الله ، ... فحب النساء إذا كان ضمن ما شرع الله ، وبقصد الإعفاف بهن ، وكثرة الأولاد منهنَّ مطلوب مرغوب فيه ، مندوب إليه .. وحب البنين إذا كان للتفاخر فهو مذموم ، أما إذا كان لتكثير النسل وتكثير المسلمين فهذا محمود ممدوح وحب المال إن كان للفخر والخيلاء

والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهو مذموم ، وإذا كان للإنفاق فى القربات وصلة الأرحام ووجوه الخير والطاعات فهذا محمود ممدوح شرعًا .

والخيل إن أعدها الإنسان فى سبيل الله فهو مأجور ، أو أعدها للولادة والاستفادة فهو مستور،وإن أعدها لمحاربة الإسلام فهومأزور .

وهذه الشهوات التى ذكرتها الآيات هى نموذج لشهوات النفس ، تمثل شهوات البيئة التى كانت مخاطبة بهذا القرآن ؛ ومنها ما هو شهوة كل نفس على مدار الزمان ، والقرآن يعرضها ثم يقرر قيمتها الحقيقية ، لتبقى فى مكانها هذا لا تتعداه ، ولا تطغى على ما سواه ، فهى متاع الحياة الدنيا فحسب ، ومن أراد الذى هو خير فعند الله ما هو خير ، وفيه عوض من تلك الشهوات ، ولا يناله إلا الذين اتقوا ، الذين كان خوف الله وذكره فى قلوبهم ، وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعًا ، شعورٌ ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات لذا وعدهم بما هو أكبر من كل متاع وهو « رضوان من الله » رضوان يعدل الحياة الدنيا والآخرة .

﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ ختم الآية بهذه الجملة للإشعار بأنه ليس كل من ادعى التقوى فى نفسه أو بلسانه يكون متقيا ، وإنما المتقى عند الله هو من يعلم الله منه التقوى ، وفى هذا تنبيه للناس وإيقاظ لمحاسبة نفوسهم على التقوى لئلا يغشهم العجب بأنفسهم فيحسبوها متقية وما هى بمتقية .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ - تقاس أقدار الناس ومنازلهم عند الله بإيمانهم وأعمالهم لا بأموالهم وأولادهم .

٢ - على الداعية أن يتعظ بمصارع الغابرين من المكذبين كآل فرعون والذين من قبلهم .

٣ - على الداعية أن يستشعر معية الله ونصره ، وأن يكون على يقين من نصرة هذا الدين ، ولو بعد حين وهلاك الكافرين وسوء مصيرهم .

٤ - أن يثق الداعية فيما يدخره الله من نصر وتأييد لأوليائه يمدهم به إذا توافرت فيهم أسبابه ودواعيه سنة الله بلا تبديل .

٥ - ألا يغيب عن ذهن الداعية لحظة مشاهد اليوم الآخر ، وما ينتظر العباد بين يدى ربهم من جزيل عطائه أو أليم سخطه .

٦- إن نظرة الإسلام للشهوات تزيل عن أذهان الناس - وبخاصة أعداء الإسلام - ذلك الضلال الذى ران على قلوبهم ، فاتهموا الإسلام بأنه يحرم الناس من متع الحياة ، واتهموا المسلمين بالجمود والانعزال عن الحياة ، والتطرف والمعاداة لكل ما هو جديد !!!

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ
وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ
ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ
بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ
وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ
ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا
عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ
ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ
فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

معانى الكلمات :

قِنا : احفظنا . **القانتين** : المطيعين ، الخاضعين لله تعالى . **الأسحار** : فى أواخر الليل إلى طلوع الفجر . **شهد الله** : بين وأعلم . **قائماً بالقسط** : مقيماً بالعدل . **أوتوا الكتاب** : أصحاب الديانات السماوية السابقة .

بغياً بينهم : حسداً كائناً بينهم .

حاجوك : جادلوك .

أسلمت وجهى لله : أخلصت نفسى وعبادتى لله . **تولوا** : أعرضوا . **بالقسط** : بالعدل .

حبطت أعمالهم : فسدت ، ولم تُقبل ، ولم يكن لها ثمرات .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف حال المتقين مع ربهم الذى استحقوا عليه هذا الثواب .

٢ ـ أن نتعرف على الكيفية التى عرضت بها حقيقة التوحيد لله تعالى .

٣ ـ أن نحدد مزاعم أهل الكتاب وشبهاتهم .

٤ ـ أن نعلم أن تقوى الله لا تُدَّعَى ؛ لأن لصاحبها صفات معروفة ، ولأن تحليه بهذه الصفات يطبعه بطابع يعرف به بين الناس ، فضلا عن معرفة الله تعالى بدخائله ، ليثيب من اتقاه، ويعاقب من عصاه .

المحتوى التربوى :

تصور الآيات التالية حال المتقين مع ربهم ، الحال التى استحقوا عليها هذا الرضوان ، نفى كل صفة من صفاتهم تحقق سمة من سمات الإيمان ذات قيمة فى حياة الإنسانية ، وفى حياة الجماعة المسلمة التى تتربى على التقوى والإيمان .

ففى دعائهم ما ينم عن تقواهم . فهو إعلان للإيمان ، وشفاعة به عند الله ، وطلب للغفران وتوق من النيران ، وفى صبرهم ترفع على الألم واستعلاء على الشكوى ، وثبات على تكاليف

الدعوة ، وأداء لتكاليف الحق ، وتسليم لله واستسلام لما يريد بهم من الأمر ، وقبول لحكمه ورضاء . وفى صدقهم اعتزاز بالحق الذى هو قوام الوجود ، وترفع عن الضعف ، فما الكذب إلا ضعف عن كلمة الحق ، اتقاء لضرر أو اجتلاباً لمنفعة . وفى قنوتهم أداء لحق الألوهية ، وواجب العبودية ، وتحقيق لكرامة النفس بالقنوت لله ، الواحد الذى لا قنوت لسواه .

وكذلك من صفات هؤلاء المتقين الإنفاق الذى هو تحرر من استذلال المال ؛ وانفلات من ربقة الشح وإعلاء لحقيقة الأخوة الإنسانية على شهوة اللذة الشخصية ؛ وتكافل بين الناس يليق بعالم يسكنه الناس !

وكذلك الاستغفار الذى تترقرق فيه خواطر النفس وخوالجها الحسية أو تتلاقى فى الأسحار روح الإنسان وروح الكون فى الاتجاه لبارئ الكون وبارئ الإنسان هؤلاء الصابرون ، الصادقون ، القانتون ، المنفقون ، المستغفرون بالأسحار .. لهم ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ .

يقول صاحب المنار : « قال الأستاذ الإمام : وصف أهل التقوى بشأن من شؤونهم . وهو أنهم لتأثر قلوبهم بالتقوى التى هى ثمرة الإيمان تفيض ألسنتهم بالاعتراف بهذا الإيمان فى مقام الابتهال والدعاء.. ومن صفاتهم الصبر ، وأكمل أنواعه الصبر على ملازمة الشريعة فى المنشط والمكره ، فعندما تهب زوابع الشهوات فتزلزل الاعتقاد بقبح المعاصى وسوء عاقبتهايكون الصبر هو الذى يثبت الإيمان،ويقف بالنفس عند الحدود المشروعة ؛ لذلك قرن الأمر بالتواصى بالحق بالأمر بالتواصى بالصبر فى سورة العصر ، والحق هو المقصود الأول من الدين ، وهو لا يقوم إلا بالصبر . وكما يحفظ حقوق الناس أن تغتالها أيدى المطامع » .

وبعد وصف حال المتقين مع ربهم ينتقل السياق إلى تقرير حقيقة التوحيد : كما **يقول صاحب الظلال** : « توحيد الألوهية والقوامة ، وتوحيد الكتاب والرسالة ، وحقيقة التوحيد تستلزم مصدقاً لها فى واقع الحياة البشرية ؛ ليرتب عليها آثارها الملازمة لها ، فيبدأ بشهادة الله ـ سبحانه ـ ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، وهى مسوقة هنا ؛ ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها ؛ وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له ، الممثلة فى الإسلام بمعنى الاستسلام ، لا اعتقاداً وشعوراً فحسب ، ولكن كذلك عملاً وطاعة واتباعاً للمنهج العملى الواقعى فى طاعتهم لأوامر الله وحدها ، والتلقى عن الله وحده ، والتسليم بكل ما يجيئهم من عنده بدون تشكك ولا جدال، متى ثبت لهم أنها من عنده ».

ويضمن هذه الشهادة حقيقة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ، فهو لا يقبل ديناً سواه من أحد ، الإسلام الذى هو الاستسلام والطاعة والاتباع ، وإذن فليس الدين الذى يقبله من الناس هو مجرد تصور فى العقل؛ ولا مجرد تصديق فى القلب ، إنما هو القيام بحق هذا التصديق وذلك التصور ، هو تحكيم منهج الله فى أمر العباد كله ، وطاعتهم لما يحكم به ، واتباعهم لرسوله فى منهجه .

ويقول صاحب الأساس : « فإذا كان هو الشأن فكل مناقشة فى الإسلام ظالمة ؛ ومن ثم فإن على رسول الله ﷺ والمسلمين أن يعلنوا إسلامهم لله أمام أى حجاج ، وأن يدعوا غيرهم إلى الإسلام ؛ ثم يقرر الله ـ عز وجل ـ أن الكافرين إن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن أعرضوا ، فليس على الرسول من إثمهم شىء إذا أدى الرسالة والله مطلع عليهم ، وعلى أعمالهم وأعمال عباده كلهم وسيجازيهم .

وتلفت الآيات بعد ذلك انتباه النبى ﷺ وأتباعه من بعده إلى أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى قوم لا خلاق لهم ولا يوثق بعهودهم ، فلقد قتلوا الأنبياء وخانوا العهود ، وأمر رسوله ﷺ أن يبشر هؤلاء بالعذاب الأليم ، وبحبوط العمل فى الدنيا والآخرة ، وأنهم لا ناصر لهم ، لما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن الجراح قال : « قلت يارسول الله : أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : رجلٌ قتل نبياً ، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الآية ثم قال رسول الله ﷺ : يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون رجلاً من بنى إسرائيل ، فأمروا من قتلهم بالمعروف ، ونهوهم عن المنكر ، فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله عز وجل .

يقول صاحب الظلال : « الحبوط : هو انتفاخ الدابة التى ترعى نبتاً مسموماً، توطئة لهلاكها .. وهكذا أعمال هؤلاء ـ الذين كفروا بآيات الله ـ قد تنتفخ وتتضخم فى الأعين ، ولكنه الانتفاخ المؤدى إلى الهلاك ! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أهمية استقرار عقيدة التوحيد فى النفوس ؛ لما تحدثه من حرص على التلقى عن الله واتباع منهجه .

٢ ـ إن الدين عند الله الإسلام ؛ وكل ما عداه من دين أو نظام أو منهج، ليس مقبولاً عند الله ، وليس قادراً على هداية البشرية ، ويجب علينا أن ندعوا الأمة ونجمعها على هذا الدين لتخرج مما هى فيه من تيه وضلال .

٣ ـ على الدعاة أن يوقنوا أن جولة الباطل ساعة وإن ساد وانتفش ، ودولة الحق إلى قيام الساعة وإن غاب وانطمس ، وحسب الدعاة شرفاً أنهم سائرون فى ركب الأنبياء .

٤ ـ الإيمان قولٌ واعتقادٌ وعمل ، وليس مجرد تصور فى العقل ، أو تصديقًا فى القلب فقط ، والإسلام كذلك استسلام وطاعة واتباع ، وليس ادعاء فقط .

٥ ـ لا استقامة لعمل ، ولا وصول إلى نجاح أو فلاح فى دعوة أو حركة أو تربية أو تمكين لدين الله إلا مع الإيمان بالله ودعائه ، واللجوء إليه ، وطلب مغفرة الذنوب منه .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

٥٣

معانى الكلمات :

الذين أوتوا نصيباً من الكتاب : اليهود .

يفترون : يكذبون على الله . **لا ريب فيه** : لا شك فيه . **تولج الليل** : تدخله (تعاقب الليل والنهار) . **بغير حساب** : بلا نهاية لما تعطى . **أولياء** : أعواناً وأنصاراً .

تتقوا منهم تقاة : تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه . **يحذركم** : يخوفكم غضبه وعقابه . **تبدوه** : تظهروه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعرف كيف ردت الآيات على مزاعم وشبهات أهل الكتاب .

٢ - أن ندرك حقيقة الألوهية الواحدة من خلال الآيات .

٣ - أن نفهم حقيقة الإيمان الحق والولاء والبراء كما ورد فى الآيات .

٤ - أن نبتهل إلى الله بالدعاء بهذه الآيات ونحقق بها الإيمان .

المحتوى التربوى :

تصور الآيات مشهداً يتعجب الله فيه من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم - لا كلهم - عن الاحتكام إلى كتاب الله فى أمور الاعتقاد وأمور الحياة . فكيف بمن يقولون : إنهم مسلمون ، ثم يخرجون شريعة الله من حياتهم كلها . ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون ! إنه مثل يضربه الله للمسلمين أيضاً كى يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام ؛ ويحذروا أن يكونوا موضعاً لتعجيب الله وتشهيره بهم . فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدَّعوا الإسلام ، حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتاب الله ، فكيف يكون الاستنكار إذا كان « المسلمون » هم الذين يعرضون هذا الإعراض .. إنه العجب الذى لا ينقضى ، والبلاء الذى لا يُقدر ، والغضب الذى ينتهى إلى الشقوة والطرد من رحمة الله ! والعياذ بالله !

ثم يكشف الله عن علة هذا الموقف المتناقض : إنه عدم الاعتقاد بجدية الحساب يوم القيامة ، وجدية القسط الإلهى الذى لا يحابى ولا يميل ، ويضاف إلى هذا الانحراف التميع فى تصور الجزاء والعدل ، فهم مفترون فى دينهم ومفترون على ربهم فلقد اعتقدوا بأن النار لن تمسهم إلا

أياماً معدودات **ويعلق صاحب الظلال** على موقفهم هذا قائلاً : « حقاً إنه لا يجتمع فى قلب واحد جدية الاعتقاد بلقاء الله ، والشعور بحقيقة هذا اللقاء . مع هذا التميع فى تصور جزائه وعدله ..

وحقاً لا يجتمع فى قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله ، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله ، وتحكيمه فى كل شأن من شؤون الحياة .

ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون ، ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون . وفيهم من يتبجحون ويتوقحون ، ويزعمون أن الحياة الدنيا دنيا لا دين ! وأن لا ضرورة لإقحام الدين فى حياة الناس العملية وارتباطاتهم الاقتصادية والاجتماعية بل والعائلية . ثم يظلون بعد ذلك يزعمون أنهم مسلمون ! ثم يعتقد بعضهم فى غرارة بلهاء أن الله لن يعذبهم إلا تطهيراً من المعاصى ، ثم يساقون إلى الجنة ! أليسوا مسلمين ؟ إنه نفس الظن الذى كان يظنه أهل الكتاب هؤلاء ونفس الغرور بما افتروه ولا أصل له فى الدين.. وهؤلاء وأولئك سواء فى تنصلهم من أصل الدين ، وتملصهم من حقيقته التى يرضاها الله.. الإسلام .. الاستسلام والطاعة والاتباع . والتلقى من الله وحده فى كل شأن من شؤون الحياة » .

وينتقل بنا السياق ليقوم وجهتنا على طريق الاتباع الكامل ، والتسليم الكامل لآيات الله ، والمفاصلة الكاملة لأعداء الله ، والإخبات لله ، وهذا كله يقتضى معرفة كاملة بالله ، فيقول تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ أن يكون معظماً لربه وشاكراً ومفوّضاً أمره إليه ومتوكلاً عليه ، ومعترفاً بأن الملك كله له يؤتيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، فهو المعطى وهو المانع والمتصرف فى خلقه بما يشاء ، والفعال لما يريد بيده الخير كله ، وهو القادر على كل شىء. ومن مظاهر قدرته ، تعاقب الليل والنهار فنرى هذا يزيد وهذا ينقص على منتهى الدقة والكمال ومن مظاهر قدرته رزق من شاء ، كما شاء . ثم نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء يسرُّون إليهم بالمودة ، وبين جل جلاله أن من يرتكب نهى الله هذا ، فقد برئ من الله إلا من خاف فى بعض البلدان والأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه وقلبه . ثم حذرنا الله نقمته فى مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه. ثم إن إليه المرجع والمنقلب ليجازى كل عامل بعمله .

ويؤكد صاحب الظلال على ضرورة استبراء الضمائر من الميل القلبى للكافر فيقول : « ولما كان الأمر متروكاً للضمائر فى هذه الحالة ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب ، فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة الله وغضبه فى صورة عجيبة حقاً : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ .

وإذا علمنا من خلال سياق الآيات السابقة أن الأمر كله لله ، والرزق كله بيد الله ، والقوة كلها له سبحانه .. فما ولاء المؤمن إذن لأعداء الله ؟ ! وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً

فضلاً عن أن يستطيعوا هذا لغيرهم . ومن هنا جاء هذا التحذير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو والى من لا يرتضى تحكيم كتاب الله فى الحياة . سواء كانت الموالاة مودة القلب أو بنصره أو باستنصاره ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ لا فى صلة ولا نسبة ولا دين ولا عقيدة ويرفض فقط التقية باللسان ، لا ولاء القلب ولا ولاء العمل قال ابن عباس رضى الله عنهما : « ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان » .

ويقول صاحب المنار : قال : الأستاذ الإمام : « نبه الله النبى والمؤمنين إلى الالتجاء إليه معترفين أن بيده الملك والعز ومجامع الخير والسلطان المطلق فى تصريف الكون يعطى من يشاء ويمنع من يشاء . فإذا كانت العزة والقوة له عز وجل شأنه فمن الجهل والغرور أن يغتر بغيره من دونه، وأن يلتجأ إلى غير جنابه ، أو يذل المؤمن فى غير بابه .. » .

ويقول صاحب الظلال عن الدعاء الوارد فى الآيات إنه : « نداء خاشع .. فى تركيبه اللفظى إيقاع الدعاء وفى ظلاله المعنوية روح الابتهال وفى التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح استجاشة للمشاعر فى رفق وإيناس .. وفى جمعه بين تدبير الله وتصريفه لأمور الناس ولأمور الكون إشارة إلى الحقيقة الكبيرة ، حقيقة الألوهية الواحدة القوامة على الكون والناس وحقيقة أن شأن الإنسان ليس إلا طرفاً من شأن الكون الكبير الذى يصرفه الله ، وأن الدينونة لله وحده هى شأن الكون كله كما هى شأن الناس . وأن الانحراف عن هذه القاعدة شذوذ وسفه وانحراف » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « اسم الله الأعظم الذى إذا دُعِىَ به أجاب فى هذه الآية من آل عمران : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ الآية .

٢ ـ على المسلم أن يوقن بأن قدرة الله لا يقف أمامها عائق ولا يحدها حدود ، وأن كل ملك وجبروت وسلطان ما سوى الله فهى عارية مستردة ، فيجب أن نركن إلى جناب الله ، ولا ترهبنا قوة ، ولا يخيفنا بطش ، ولا نغتر بعافية .

٣ ـ أن الولاء والمودة والنصر لا تكون إلا لله وللرسول وللمؤمنين .

٤ ـ من الإعراض عن الدين والكفر به رفض التحاكم إليه وعزله عن الدنيا . قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء) .

٥ ـ ليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن والكافر : « وليس التقية بالعمل وإنما التقية باللسان » .

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ
ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

معانى الكلمات :

محضراً : مشاهداً لها فى صحف الأعمال .

تود : تتمنى . **أمداً بعيداً** : زمناً بعيداً .

اصطفى : اختار . **على العالمين** : على عالمى زمانهم . **محرراً** : مخلصاً مفرغاً لعبادتك .

مريم : معناها فى لغتهم : العابدة خادمة الرب. **أعيذها** : أجيرها وأحصنها بك .

أنبتها نباتاً حسناً : رباها تربية كاملة .

كفلها : جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها .

المحراب : غرفة العبادة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن طاعة الله ورسوله واجب شرعى ، لا يكون إيمان ولا إسلام إلا بها .

٢ ـ أن نعلم أن المعصية والتولى عن الله ورسوله كفر صريح يستحق صاحبه عقاب الكافرين.

٣ ـ أن نعلم أن الإقبال على الله بالطاعة والإنابة والتقرب إليه بصالح الأعمال هو التوفيق والخير والهدى .

٤ ـ أن نعتقد اعتقاداً جازماً أن قدرة الله لا تقف دونها حوائل ، ولا تتوقف على أسباب .

المحتوى التربوى :

بعد أن أمعن الله فى التحذير من نفسه ، واستجاش الخشية فى قلوب عباده اتقاء التعرض للنقمة التى تدعمها قدرة الله وعلمه حيث لا ملجأ منها ولا نصرة ! تتابع الآيات استجاشة القلوب وتحريك جمودها باستحضار اليوم المرهوب الذى لا يند فيه عمل ولا نية ؛ والذى تواجه كل نفس فيه برصيدها الكامل من الأعمال ، ويواجه رصيده راجياً لو أن بينه وبين السوء الذى عمله أمداً بعيداً . ومع تكرار التحذير يذكرهم رحمته لإتاحة الفرصة لمن يريد التوبة والإنابة وهذا دليل على إرادته الخير والرحمة بالعباد .

ويحسم هذا الدرس ببيان حقيقة الإيمان ، وحقيقة الدين . ويفرق تفريقاً حاسماً بين الإيمان والكفر فى جلاء لا يحتمل الشبهات وفى هذا يقول صاحب الظلال : « إن حب الله ليس دعوى باللسان ، ولا هياماً بالوجدان ، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله ، والسير على هداه ، وتحقيق منهجه فى الحياة . وإن الإيمان ليس كلمات تقال ، ولا مشاعر تجيش ، ولا شعائر تقام . ولكنه طاعة لله وللرسول ، وعمل بمنهج الله الذى يحمله الرسول ..

يقول ابن كثير تعليقاً على هذه الآية (٣٣) : « هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب فى نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأعماله ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

ويقول ابن قيم الجوزية فى زاد المعاد : « ومن تأمل فى السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق،فلم تدخلهم هذه الشهادة فى الإسلام .. علم أن الإسلام أمر وراء ذلك، وأنه ليس مجرد المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط . بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً » .

وينتقل بنا السياق لدرس جديد يبدأ ببيان من اصطفاهم الله من عباده واختارهم لحمل الرسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة ؛ ليكونوا طلائع الموكب الإيمانى فى شتى مراحله المتصلة على مدار الأجيال والقرون. ويعلى من نسب العقيدة فيجعله فوق نسب الذرية ، ويقرر أن نسب هذه العقيدة هو الذى يصل ذلك الموكب الإيمانى الكريم ، وتربطه آصرة الاصطفاء والاختيار الإلهى ؛ وإن كان نسب الجميع يلتقى فى آدم ونوح .

وبعد هذا الإعلان التمهيدى يدلف إلى آل عمران ومولد مريم وقصة النذر الذى صدر من قلب يعمره الإيمان الذى نذر أعز ما يملك خالصاً له ، محرراً من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه ، ويقول صاحب الظلال : « وهنا يبدو التوحيد هو الصورة المثلى للتحرر . فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غيرالله بشىء ما فى ذات نفسه ، أو فى مجريات حياته ، أو فى الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التى تصرف هذه الحياة .. لا تحرر وفى قلب الإنسان تعلق أو تطلع أو عبودية لغير الله . وفى حياته شريعة أو قيم أو موازين فاسدة مستمدة من غير الله ، وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر فى عالم الإنسان » .

وبعد هذا النذر الخالص لله وضعتها أنثى ، واتجهت إلى ربها كأنها معتذرة أن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بخدمة الهيكل ، والنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان ، ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الرجل وهنا **يقول صاحب الأساس** : « فى قوله تعالى على لسان أم مريم : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ قاعدة عظيمة : فالأنثى ليست كالذكر فى تركيبها الجسمى ، ولا فى تركيبها النفسى ،

ومن ثم فلابد أن تكون وظيفتها الحياتية تختلف عن وظيفة الرجل ، ولابد أن يترتب على ذلك اختلاف فى المسؤوليات ، واختلاف فى الحقوق والواجبات ، ومن أراد المساواة المطلقة بين الرجال والنساء ، فليسوِّ بينهما فى التركيب الجسمى والنفسىِّ أولاً ثمَّ فليطالب » .

وعندما نعيش فى ظلال هذه الآيات نحس حالة من الود والقرب والمناجاة فى بساطة ويسر وثقة كما **يقول صاحب الظلال** : « وهى نموذج للعبد الواثق من معية الله ونصره وتوفيقه ، وكذلك ترسم صورة لنمط حياة هؤلاء العباد الذين اصطفاهم الله مع ربهم فى بساطتها وعفويتها وأنسها فتدعو لها بحفظ الله ورعايته من الشيطان هى وذريتها ، ولأن الله سبحانه وتعالى يعلم صدقها وإخلاصها فقد تلقى ابتهالها بالقبول الحسن ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وأعدها إعداداً ربانياً ؛ لتستقبل نفخة الروح وكلمة الله كى تلد عيسى عليه السلام وجعل كفالتها عند نبيه وزوج خالتها زكريا عليه السلام ، ونشأت مباركة ، يهيىء الله لها رزقاً من فيوضاته وعطائه ، وكما **يعلق صاحب الظلال** : ولا نخوض نحن فى صفة هذا الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة ، فيكفى أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقاً . حتى ليعجب كافلها ـ وهو نبى ـ من فيض الرزق فيسألها : كيف ومن أين هذا كله ؟ فلا تزيد أن تقول فى خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله ، وتفويض الأمر إليه كله ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

وهى كلمة تصور حال المؤمن مع ربه ، واحتفاظه بالسر الذى بينه وبينه . والتواضع فى الحديث عن هذا السر لا التنفج به والمباهاة! كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التى تثير عجب نبى الله زكريا هى التمهيد للعجائب التى تليها فى ميلاد يحيى وميلاد عيسى عليهما السلام.

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن كل إنسان سوف يجد يوم القيامة أمامه ما قدّم من عمل ؛ ليحاسب عليه ويجازى به، ولا يجدى عندها الأمنيات ولا ينفع الندم .

٢ ـ أن ادّعاء حب الله تعالى ليس مجرد دعوى لا يصحبها عمل ، وإنما حب الله تعالى له دلائل وعلامات أولها اتباع الرسول ﷺ والالتزام بما جاء به ، وأن طاعة الله ورسوله هى دليل الإيمان، والمعصية طريق الكفر والله لا يحب الكافرين .

٣ ـ أن الصلاح والتقوى والاستقامة على أمر الله ومنهجه هى التى تؤهل الإنسان ليكون موضع رضا الله واختياره وتفضيله . وإن الإقبال على الله بالطاعة والإنابة والتقرب إليه بصالح الأعمال هو التوفيق والخير والهدى .

٤ ـ أن الدعاء إلى الله وسؤاله والطلب منه من أفضل القربات ومن أمضى الأسلحة التى يجب أن نتسلح بها ، والله سبحانه وتعالى يحب الذين يدعونه ويلحون عليه فى الدعاء .

هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء (٣٨) فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين (٣٩) قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء (٤٠) قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار (٤١) وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (٤٢) يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين (٤٣) ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون (٤٤) إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين (٤٥)

معانى الكلمات :

هنالك : فى ذلك الوقت . **هب لى من لدنك** : أعطنى من عندك . **حصوراً** : يمنع نفسه عن الشهوات عفة وزهداً . **عاقر** : عقيم لا تلد . **ثلاثة أيام إلا رمزاً** : إلا الإشارة . **اقنتى** : أخلصى العبادة .

يلقون أقلامهم : يطرحون سهامهم لعمل قرعة . **يختصمون** : يتنازعون فيمن يكفلها منهم . **بكلمة منه** : هى كلمة «كن» من غير واسطة أب . **وجيهاً** : سيداً معظماً له جاه وقدر ومنزلة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أهمية الدعاء فى حياة الدعاة وأنه مخ العبادة .

٢ ـ أن نعرف أن الثروة الحقيقية للدعاة والزاد الذى يجب أن نتزود به هو ذكر الله تعالى فى كل حين بالعشى والإبكار .

٣ ـ أن نوقن أن قدرة الله لا تقف دونها حوائل ولا تتوقف على أسباب .

٤ ـ أن نعلم أن نعم الله يجب أن تقابل بشكره سبحانه .

المحتوى التربوى :

بعد أن تحدثت الآيات عن الفيض الإلهى على مريم عليها السلام ومطلق قدرته فى جريان الأسباب وتقدير الأشياء تاقت نفس زكريا إلى الرغبة فى الذرية ، وهى رغبة وفطرة فطر الله الناس عليها لحكمة عليا فى امتداد الحياة وارتقائها .

وبعد أن مهد الله لطلاقة القدرة يسوق لنا مظهرًا جديداً من مظاهر طلاقة المشيئة الإلهية ، وعدم تقيدها بالمألوف للبشر ، الذى يحسبه البشر قانوناً لا سبيل إلى إخلافه ، ومن ثم يشكون فى كل حادث لا يجىء فى حدود هذا القانون ! فها هو ذا « زكريا » الشيخ الكبير وزوجه العاقر التى لم تلد فى صباها تجيش فى قلبه الرغبة الفطرية فى الولد ، فيتوجه إلى ربه يناجيه ويطلب منه أن

يهب له من لدنه ذرية طيبة فكانت الاستجابة التى لا تتقيد بسن ، ولا تتقيد بمألوف الناس؛ لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التى تفعل ما تريد .

ويقول صاحب الظلال : « لقد استجيبت الدعوة ، ولم يحل دونها مألوف البشر الذى يحسبونه قانوناً . ثم يحسبون أن مشيئة الله سبحانه مقيدة بهذا القانون ! وكل ما يراه الإنسان ويحسبه قانوناً لا يخرج عن أن يكون أمراً نسبياً ـ لا مطلقاً ولا نهائياً ـ فما يملك الإنسان وهو محدود العمر والمعرفة ، وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعة الإنسان هذه ، أن يصل إلى قانون نهائى ولا أن يدرك حقيقة مطلقة أجدر الإنسان أن يتأدب فى جناب الله ، وما أجدره أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله فلا يخبط فى التيه بلا دليل ، وهو يتحدث عن الممكن والمستحيل ، وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو ومن مقرراته هو ومن علمه القليل! » .

ويقول صاحب المنار : «قال الأستاذ الإمام : إن زكريا لما رأى ما رآه من نعمة الله على مريم فى كمال إيمانها وحسن حالها ولا سيما اختراق شعاع بصيرتها لحجب الأسباب ، ورؤيتها أن المسخر لها هو الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، أخذ عن نفسه ، وغاب عن حسه ، وانصرف عن العالم وما فيه ، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته ، فنطق بهذا الدعاء فى حال غيبته ، وإنما يكون الدعاء جديراً بأن يستجاب إذا جرى به اللسان بتلقين القلب فى حال استغراقه فى الشعور بكمال الرب ، ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة ، وقد أوذن بسماع ندائه ، واستجابة دعائه ، سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة ، وهى على غير السنة الكونية فأجابه بما أجابه .. » ، قلت : وهذا من أدق القول وألطفه » .

وبعد التمهيد بهذه المعجزة والبشارة بميلاد يحيى عليه السلام جاءت قصة مريم مع معجزة ميلاد عيسى عليه السلام أشد غرابة وأعظم إعجازاً وتدور الآيات حول بعض الدلالات :

١ ـ اصطفاء مريم دلالة صدق وآية يقين بنبوة الرسول ﷺ الذى خوطب بهذا الوحى .

٢ ـ الإخبار بإلقاء الأقلام لكفالة مريم إعجاز حيث لم يكن يعلم بذلك إلا خاصة الأحبار .

٣ ـ ميلاد عيسى عليه السلام بشارة كاملة وإفصاح عن الأمر كله . والمسيح هو الكلمة وهو نفخة من روح الله . أودع بكلمة « كن » فى رحم تلك الفتاة الطاهرة مريم ومن ثم فلا معارضة بين كونه نفخة من روح الله وأنه كلمة ، فهو نفخة ألقاها بكلمة « كن فيكون » أما طبيعة سرها فهذا غيب اختص الله سبحانه وتعالى بعلمه والبحث فيه غير ذى فائدة.

ويعلق صاحب الظلال على هذه المعجزة قائلاً : « وهنا تظهر عظمة هذا الدين ، ويتبين مصدره عن يقين فها هو محمد ﷺ رسول الإسلام الذى يلقى من أهل الكتاب ـ ومنهم

النصارى ـ ما يلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات .. ها هو ذا يحدث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على « نساء العالمين » بهذا الإطلاق الذى يرفعها إلى أعلى الآفاق . وهو فى معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ وبالدين الجديد ـ أى صدق ! وأية عظمة ! وأية دلالة على مصدر هذا الدين وصدق صاحبه الأمين !! » .

إن البشارة بعيسى عليه السلام وكونه كلمة ونفخة من روح الله ، من أمور الغيب التى لا مجال لمعرفة كنهها على وجه التحديد ، والسؤال عن هذه النفخة ؟ وكيف تنفخ فى الموات فينشأ فيه هذا السر الخافى على الأفهام لا يجدى شيئاً فى وظيفة الإنسان الذى خلق للاستخلاف فى الأرض ـ إن الإنسان لن يخلق حياة من موات .. فما قيمة أن يعرف طبيعة الحياة ، وماهية النفخة من روح الله، وكيفية اتصالها بآدم أو بأول سلم الحياة الذى سارت فيه السلالة الحية ؟

ويقول صاحب الظلال : « كل هذه وغيرها فى هذا الشأن بحوث لا طائل وراءها إلا الشبهات وخلاصتها هى تلك : أن الله شاء أن ينشىء حياة على غير مثال ، فأنشأها وفق إرادته الطليقة التى تنشئ الحياة بنفخة من روح الله . ندرك آثارها، ونجهل ماهيتها . ويجب أن نجهلها. لأنها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة الخلافة فى الأرض ، ما دام إنشاء الحياة ليس داخلاً فى تكليف الاستخلاف ! والأمر هكذا سهل الإدراك . ووقوعه لا يثير الشبهات » !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن إنعام الله على عبده واستجابته سبحانه لدعائه ، ليس معناه أن العبد المنعم عليه له أن يتوقف عن ذكر الله وشكره ، وإنما يستوجب ذلك الاستمرار فى ذكر الله كثيراً ، وتسبيحه باستمرار أى بالعشىّ والإبكار ، ومعنى ذلك أن ذكر الله تعالى مطلب عام من كل الناس وعلى كل حال .

٢ ـ الاصطفاء يقوم على أساس الإيمان والعمل الصالح ، ويصحبه توفيق من الله تعالى وتأييد، وإظهار كرامات، وتحقيق نصر بإذن الله تعالى .

٣ ـ إن القنوت والتذلل لله هو الزاد الذى يمد الدعاة بالعون والتوفيق ، ويهيئ لهم من النجاح والفلاح الذى يحقق الأهداف ؛ إذ هم بهذه العبادة أقرب ما يكونون إلى الله ، والله تبارك وتعالى باصطفائهم أقرب ما يكون إليهم ، وحسب المؤمن أن يكون قريباً من الله ليجد العون والمدد والتوفيق .

الجزء الثالث — سورة آل عمران

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

٥٦

معانى الكلمات :

فى المهد : قبل أوان الكلام حينما كان فى زمن رضاعته . **لم يمسسنى بشر** : لم أتزوج ولم أرتكب الفاحشة . **قضى شيئاً** : أراد شيئاً أو أحكمه وحتمه . **الكتاب** : الخط باليد كأحسن ما يكون . **الحكمة** : الصواب فى القول والعمل . **أبرئ الأكمه والأبرص** : أشفى الذى ولد أعمى والمصاب بالبرص . **الحواريون** : أنصار عيسى عليه السلام وأتباعه . **مسلمون** : منقادون لرسالتك ، مخلصون فى نصرتك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم ضرورة الأخذ بالأسباب وضرورة مواجهة الناس بما يقنعهم ويدخل فى مجال ما يعقلون .

٢ ـ أن نعلم أن أنبياء الله جميعاً دينهم واحد ودعوتهم واحدة ، لأنهم جميعاً يدعون للإيمان بالله الواحد وعبادته وفق ما شرع .

٣ ـ أن نعلم أن أعداء الرسل وأعداء الحق لا يتوقفون عن المكر والتربص بالحق وأهله ، ولكن الله يرد كيدهم ويخيب مسعاهم .

المحتوى التربوى :

تتحدث هذه الآيات عن تفاصيل البشارة التى بشرت بها الملائكة مريم عليها السلام فتضمنت البشارة نوعه ، واسمه ونسبه . وظهر من هذا النسب أن مرجعه إلى أمه .. ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه : ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ .

كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ ، .. ولمحة من مستقبله : ﴿وَكَهْلًا﴾.. وسمته والموكب الذى ينتسب إليه : ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها أى فتاة . واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذى يحير عقل الإنسان ، وجاءها الجواب ، يردها إلى الحقيقة البسيطة التى يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود : قال : ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .. وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب ، وتزول الحيرة ، ويطمئن القلب » .

وأخبرت الآيات الكريمة عن صفات خمس فى المسيح ﷺ هى مؤهلات نبوته ودلائل اصطفائه ضمن ركب الأنبياء وهى يعلمه الكتاب ، والحكمة ، والتوراة ، والإنجيل ورسول الله لبنى إسرائيل يحمل من الأدلة والبراهين والمعجزات ما من شأنه أن يقنع الناس ، ومع الخمس صفات وهبه خمس معجزات وهى : أنه يصور من الطين على هيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً على وجه الحقيقة ، وذلك خارق لما اعتاده الناس من عادات ولكنه يتم على يديه بإذن الله تعالى . وكذلك يبرئ الأكمه ـ وهو الأعمى من عماه ـ فيبصر بإذن الله تعالى ، كأن لم يكن أعمى من قبل ، وكذلك يبرئ الأبرص ـ وهو بياض يصيب الجسد لمرض ـ بإذن الله تعالى ، فيذهب برصه ، وكان يحيى الموتى بإذن الله تعالى ، وكان يخبر عن الغيب ، وما يخفيه الناس وما يدخرونه فى بيوتهم .

ويقول صاحب الظلال : « وهذه المعجزات فى عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أو ردها ، أو رد العافية وهى فرع عن الحياة . ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية .. وهى فى صميمها تتسق مع مولد عيسى ﷺ ومنحه الوجود والحياة على غير مثال إلا مثال آدم ﷺ .. ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التى نشأت عن هذا المولد الخاص متى رُد الأمر إلى مشيئة الله الطليقة ولم يقيد الإنسان الله ـ سبحانه ـ بمألوف الإنسان ! » .

ويختتم السياق دعوة عيسى ﷺ بكشف حقائق أصيلة فى طبيعة دين الله ، وفى مفهوم هذا الدين فى دعوة الرسل جميعاً ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من كونها مصدقة لبعضها ومتممة لغيرها من الشرائع مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم ، وكان تحريمه فى صورة عقوبات حلت بهم على معاص وانحرافات ، ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح ﷺ ، فيُحل لهم بعض الذى حُرّم عليهم .

ويقول صاحب المنار : « انتقلت الآيات من البشارة بعيسى إلى ذكر خبره مع قومه وطُوىَ ما بينها من خبر ولادته ونشأته وبعثته مؤيدا بتلك الآيات وهذا من إيجاز القرآن الذى انفرد به . فقد انطوى تحت قوله : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ ﴾ جميع مادلت عليه البشارة وعلم أنه

وُلد وبُعث ودَعَا وأيد دعوته كما سبقت الإشارة ، فأحس وشعر من قومه، وهم بنو إسرائيل الكفر والعناد والمقاومة والقصد بالإيذاء ، وفى هذا من العبرة والتسلية للنبى ﷺ ما فيه ، وأن أكبر ما فيه الإعلام بأن الآيات الكونية وإن كثرت وعظمت ليست ملزمة بالإيمان ولا مفضية إليه حتما وإنما كون الإيمان باستعداد المدعو إليه وحسن بيان الداعى ؛ ولذلك كان من أمر عيسى أنه لما أحس من قومه الكفر : ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أى توجه إلى البحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه فى دعوته تاركين لأجلها كل ما يشغل عنها عما كانوا فيه متحيزين ومنزوين إلى الله منصرفين إلى تأييد رسوله ونصره خاذلين أعداءه من الكافرين ... والنصر لا يستلزم القتال فالعمل بالدين والدعوة إليه نصر له » .

ويقول صاحب الظلال : « ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ؟ .. من أنصارى إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه ؟ من أنصارى إلى الله لأبلغ إليه ، وأؤدى عنه ؟ ولابد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه ، ويحملون دعوته ، ويحامون دونها ، ويبلغونها إلى من يليهم ، ويقومون بعده عليها ..

﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

فذكروا الإسلام بمعناه الذى هو حقيقة الدين ، وأشهدوا عيسى عليه السلام على إسلامهم هذا وانتدابهم لنصرة الله .. أى نصرة رسوله ودينه ومنهجه فى الحياة » .

ويقول صاحب المنار فى شهادة الحواريين بالإسلام : « وفى هذا دليل على أن الإسلام دين الله على لسان كل نبى وإن اختلفوا فى بعض صوره وأشكاله وأحكامه وأعماله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ إن عصر المعجزات قد انقضى بخاتم الرسل محمد ﷺ وأن الدعاة إلى الله لم يبق لهم من وسائل التأييد إلا الكرامات ، بشرائطها الشرعية من إيمان وإسلام وإخلاص ، وصلاح للباطن والظاهر وتقوى الله على كل حال .

٢ ـ مع اليقين بأن الأمور كلها بيد الله تعالى ، وأن الثقة فى تأييد الله ونصره لعباد المؤمنين العاملين الصالحين ، ما ينبغى أن تتزعزع مهما أبطأ النصر ، وأن مع الإيمان والعمل الصالح ينبغى الأخذ بكل ما يتاح من الأسباب .

٣ ـ على الدعاة إلى الله ألا تقنطهم كثرة الضالين والمفسدين فتقعدهم عن العمل والجهاد فى سبيل الله مهما تكن العقبات التى يضعونها فى الطريق للتمكين لهذا الدين .

الجزء الثالث — سورة آل عمران

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

٥٧

معانى الكلمات :

مع الشاهدين: مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق . **متوفيك** : آخذك وافيا بروحك وبدنك . **ورافعك إلى** : ورافعك إلى السماء .**الممترين** : الشاكين فى أنه الحق . **حاجك فيه** : جادلك فى أمره .

تعالوا : هلموا نجتمع ، وأقبلوا بالعزم والرأى . **نبتهل** : نتضرع إلى الله داعين باللعنة على الكاذب منا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن يعرف الدعاة الخصائص التى يجب أن يتصف بها الداعية كما وردت بالآيات .

٢ ـ أن نعرف العلاقة بين خلق آدم وعيسى عليهما السلام .

٣ ـ أن نتعرف على صور من مكر أهل الباطل وكيف رد الله هذا المكر .

٤ ـ أن نعلم الكيفية التى لقنها الله لرسوله ﷺ لمواجهة أكاذيب أهل الكتاب فيما يخص مولد عيسى عليه السلام وعبوديته لله تعالى .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات الحديث عن إسلام الحواريين وإيمانهم بعيسى عليه السلام ودعائهم لله بأن يكتبهم مع الشاهدين ، فبعد أن أكدوا النصرة لدين الله اتجهوا إلى ربهم لتوثيق هذه البيعة وفى هذا يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « وفى هذا التوجه لعقد البيعة مع الله مباشرة لفتة ذات قيمة .. إن عهد المؤمن هو ابتداء مع الله ، ومتى قام الرسول بإبلاغه فقد انتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد ، وانعقدت البيعة مع الله ، فهى باقية فى عنق المؤمن بعد الرسول .. وفيه كذلك تعهد لله باتباع الرسول.فليس الأمر مجرد عقيدة فى الضمير ؛ ولكنه اتباع لمنهج ، والاقتداء فيه بالرسول».

وفى دعاء الحواريين : ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ وقفة للتأمل والنظر فأى شهادة وأى شاهدين؟ يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدى

شهادة لهذا الدين شهادة تؤيد حق هذا الدين فى البقاء ؛ وتؤيد الخير الذى ـ يحمله هذا الدين للبشر .. وهو لا يؤدى هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين . صورة يراها الناس فيرون فيها مثلاً رفيعاً ، يشهد لهذا الدين بالأحقية فى الوجود ، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما فى الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات .

وهو لا يؤدى هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته ، ونظام مجتمعه ، وشريعة نفسه وقومه . فيقوم مجتمع من حوله ، تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهى القويم ... وجهاده لقيام هذا المجتمع ، وتحقيق هذا المنهج ؛ وإيثاره الموت فى سبيله على الحياة فى ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله فى حياة الجماعة البشرية .. وهو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها وهى أعز ما يحرص عليه الأحياء ! ومن ثم يُدعى شهيداً .

ويمضى السياق إلى خاتمة القصة بين عيسى ﷺ وبنى إسرائيل : ويعرض للمكر الذى مكره اليهود الذين لم يؤمنوا بعيسى ﷺ ، فقد قذفوه وقذفوا أمه الطاهرة البتول ، واتهموه بالكذب والشعوذة ؛ ووشوا به إلى الحاكم ، ومكروا لصلبه وقتله ، ومكر الله فوق مكرهم فأراد الله أن يتوفاه ، وأن يرفعه إليه ، وأن يكرمه فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .. وكان ما أراده الله . وأبطل الله مكر الماكرين .

فأما كيف كانت وفاته ، وكيف كان رفعه .. فهى أمور غيبية تدخل فى المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله . ولا طائل وراء البحث فيها . لا فى عقيدة ولا فى شريعة . والذين يجرون وراءها ويجعلونها مادة للجدل ، ينتهى بهم الحال إلى المراء .

ويعقب الله عز وجل على هذه القصة بتقرير الحقائق الأساسية المستفادة من هذا القصص ، فهو وحى من الله . يتلوه الله على نبيه ﷺ ، ويقرر أن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر . ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبى البشر ، ويؤكد بهذه البساطة حقيقة عيسى ، وحقيقة آدم ، وحقيقة الخلق كله ، وبعد هذا التقرير الواضح يخاطب النبى ﷺ ويثبته على الحق الذى معه ، والذى يُتلى عليه ، ويؤكده فى حسه ؛ وحس من حوله من المسلمين ، الذين ربما تؤثر فى بعضهم شبهات أهل الكتاب : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وهنا ـ وقد وضحت القضية وظهر الحق جلياً ـ يوجه الله تعالى رسوله الكريم إلى أن ينهى الجدل والمناظرة حول هذه القضية الواضحة وحول هذا الحق البين وأن يدعوهم إلى المباهلة ..

وقد دعا الرسول ﷺ من كانوا يناظرونه فى هذه القضية إلى هذا الاجتماع الحاشد ، ليبتهل الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين فخافوا العاقبة وأبوا المباهلة وتبين الحق

واضحاً ، ولكنهم فيما ورد من الروايات لم يسلموا احتفاظاً بمكانتهم من قومهم ، وبما كان يتمتع به رجال الكنيسة من سلطان وجاه ومصالح ونعيم !! وما كانت البينة هى التى يحتاج إليها من يصدون عن هذا الدين ؛ إنما هى المصالح والمطامع والهوى يصد الناس عن الحق الواضح الذى لا خفاء فيه .

قال بعض المفسرين : الآية الكريمة تأمر النبى ﷺ أن يدعو المجادلين فى عيسى عليه السلام من أهل الكتاب إلى الاجتماع رجالاً ونساءً وأطفالا ، ويجمع هو ﷺ المؤمنين رجالاً ونساءً وأطفالا ويبتهلون إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى عليه السلام .

وإنما جمع فى المباهلة ـ الملاعنة ـ الأبناء والنساء والأطفال . لأنه لما ظهرت مكابرتهم فى الحق وحب الدنيا ، عُلِمَ أن من هذه صفته يكون أهله ونساؤه أحب إليه من الحق .

والمباهلة دعوة إنصاف ، لا يدعو إليها إلا واثق من أنه على الحق ، ولم تتم المباهلة لما روى البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران ، وأرادا أن يلاعنا رسول الله بعد أن رفضا ما عرضه عليهما رسول الله فقال لهما : « نلاعن » .

فقال أحدهما لصاحبه : لا تلاعنه ، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا أبداً ، قال : فأتيا رسول الله فقالا : لا نلاعنك ولكنا نعطيك ما سألت ، فابعث معنا رجلاً أمينا.

فقال النبى ﷺ : «لأبعثن رجلاً أمينا حق أمين » قال:فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ ، قال ﷺ :« قم يا أبا عبيدة بن الجراح » ، قال : فلما قام قال : « هذا أمين الأمة » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ـ القعود عن نصرة الحق بكل وسيلة ممكنة إثم ومعصية لله تعالى ، وتشجيع للباطل وأهله ، وسكوت عن إفساد العقول وإفساد المجتمع كله ، ذلك المجتمع الذى سوف ينساق إلى إيثار الباطل على الحق .

٢ ـ الله ولى المؤمنين فى كل مكان وزمان ، وأنه يتقبل منهم صالح أعمالهم ويجازيهم أحسن الجزاء على كل دفاع عن الحق وما تكلفوه فى سبيله .

٣ ـ إن الدعاة ورثة الأنبياء عليهم السلام ، وما من نبى هَالهُ باطل قومه أو أفزعه ضلالهم ، ولا فتر عن الدعوة بسبب عناد المدعوين . وإنما شأن الأنبياء جميعاً أن يصبروا على الناس ، وأن يستمروا فى الدعوة إلى الله حتى يلقوا الله رب العالمين .

٤ ـ ينبغى أن يكون موقف الدعاة مع المعاندين والمجادلين ؛ هو موقف التلطف فى الإقناع بالحق ، والجدال بالتى هى أحسن من أجل إظهار الحق الذى يجحدون ودحض الباطل الذى يزعمون .

إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴿٦٢﴾ فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين ﴿٦٣﴾ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴿٦٤﴾ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴿٦٥﴾ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿٦٦﴾ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴿٦٧﴾ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴿٦٨﴾ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴿٦٩﴾ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴿٧٠﴾

٥٨

معانى الكلمات :

فإن تولوا : فإن أعرضوا .

سواء بيننا وبينكم : أى يستوى أمرها ، لا يختلف فيها اثنان وهى أن نعبد الله وحده لا شريك له ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . **لم تحاجون** : لما تجادلون ؟

فيما لكم به علم : مما ورد فى التوراة والإنجيل . **حنيفاً** : مائلاً عن الباطل والعقائد الزائفة إلى الدين الحق .

أولى : أحق . **ودت** : أحبت

طائفة : جماعة .

وأنتم تشهدون : وأنتم تشهدون أنها آيات الله حقاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يستنبط الداعية الأساليب الدعوية التى يمكن أن يستخدمها فى مواجهة أهل الباطل فى جدالهم .

٢ ـ أن نعرف كيف أبطل الله تعالى زعم أهل الكتاب فى نسبة إبراهيم عليه السلام إليهم .

٣ ـ أن نتعرف على أساليب أهل الكتاب فى تلبيس الحق بالباطل ، وهدفهم من ذلك .

٤ ـ أن نربط بين مكائد أهل الكتاب للإسلام وأهله فى الوقت الحاضر ، ومقارنتها بما جاء فى الآيات .

المحتوى التربوى :

بعد دحض دعاوى أهل الكتاب والرد عليهم وحسم القضية بالمباهلة ، يصف المولى عز وجل الذين يتولون عن الحق بأنهم مفسدون ، وتهديدهم بأن الله عليم بالمفسدين ..

ويقول صاحب الظلال : « والفساد الذى يتولاه المعرضون عن حقيقة التوحيد فساد عظيم . وما ينشأ فى الأرض الفساد ـ فى الواقع ـ إلا من الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة لا اعتراف

اللسان . فاعتراف اللسان لا قيمة له ، ولا اعتراف القلب السلبى فهذا الاعتراف لا ينشئ آثاره الواقعية فى حياة الناس ، إنما هى الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة بكل آثارها التى تلازمها فى واقع الحياة البشرية .

إن هذا الكون بجملته لا يستقيم أمره ولا يصلح حاله ، إلا أن يكون هناك إله واحد ، يدبر أمره : و ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وأظهر خصائص الألوهية بالقياس إلى البشرية : تعبد العبيد ، والتشريع لهم فى حياتهم ، وإقامة الموازين لهم . فمن ادعى لنفسه شيئاً من هذا كله فقد ادعى لنفسه أظهر خصائص الألوهية ؛ وأقام نفسه للناس إلهاً من دون الله .. » .

ومن ثم يتلو ذلك التهديد دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء : إلى عبادة الله وحده ، وعدم الإشراك به ، وألا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. وإلا فهى المفاصلة التى لا مصاحبة بعدها ولا مجادلة ، وإنها لدعوة منصفة عادلة من غير شك ،دعوة لا يأباها إلا متعنت، لا يريد أن يفىء إلى الحق القويم .

فهى دعوة إلى عبادة الله وحده لا يشركون به شيئاً لا بشراً ولا حجراً . ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضاً من دون الله أربابًا . لا نبياً ولا رسولاً . فكلهم لله عبيد . إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه ، لا لمشاركته فى الألوهية والربوبية .

وتواجه الآيات أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ بسخف موقفهم وهم يحاجون فى إبراهيم عليه السلام فكل طائفة تزعم أنه منهم . على حين أنه سابق لليهودية والنصرانية ، سابق للتوراة والإنجيل . ومن ثم تسقط ادعاءات هؤلاء وهؤلاء ، ويتبين خط الإسلام الواصل بين رسل الله والمؤمنين بهم على توالى القرون .

يلى ذلك كشف الهدف الأصيل الكامن وراء مماراة أهل الكتاب فى إبراهيم وغيره ، وهو الرغبة الملحة فى إضلال المسلمين عن دينهم ، وتشكيكهم فى عقيدتهم ، ويواجه أهل الكتاب بألاعيبهم وكيدهم وتدبيرهم على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة . وهو يمزق عنهم الأردية التى يتخفون تحتها .

ويقول صاحب الظلال : « إن الإحنة التى يكنها أهل الكتاب للجماعة المسلمة هى الإحنة المتعلقة بالعقيدة . إنهم يكرهون لهذه الأمة أن تهتدى . يكرهون لها أن تفىء إلى عقيدتها الخاصة فى قوة ويقين . ومن ثم يرصدون جهودهم كلها لإضلالها عن هذا النهج ، والإلواء بها عن هذا الطريق .

وهذه الرغبة القائمة على الهوى والحقد والشر ، ضلال لا شك فيه . فما تنبعث مثل هذه الرغبة الشريرة الآثمة عن خير ولا عن هدى . فهم يوقعون أنفسهم فى الضلالة فى اللحظة التى يودون فيها إضلال المسلمين فما يحب إضلال المهتدين إلا ضال يهيم فى الضلال البهيم .

والمسلمون مكفيون أمر أعدائهم وهؤلاء ما استقاموا على إسلامهم وما لهم عليهم من سبيل، والله سبحانه وتعالى يتعهد لهم ألا يصيبهم كيد الكائدين ، وأن يرتد عليهم كيدهم ما بقى المسلمون مسلمين .

ويقرع المولى عز وجل أهل الكتاب بحقيقة موقفهم المريب المعيب ؛ لأن أهل الكتاب وقتها ـ وما يزالون حتى اليوم ـ يشهدون الحق واضحاً فى هذا الدين . سواء منهم المطلعون على حقيقة ما جاء فى كتبهم عنه من بشارات وإشارات ـ وكان بعضهم يصرح بما يجد من هذا كله وبعضهم يسلم بناء على هذا الذى يجده فى كتبه ويشهده متحققاً أمامه ـ وسواء كذلك غير المطلعين ، ولكنهم يجدون فى الإسلام من الحق الواضح ما يدعو إلى الإيمان .. غير أنهم يكفرون .. لا لنقص فى الدليل ولكن للهوى والمصلحة والتضليل .. والقرآن يناديهم : « يا أهل الكتاب » .. لأنها الصفة التى كان من شأنها أن تقودهم إلى آيات الله وكتابه الأخير إلى البشر » .

يقول صاحب الأساس : « نلاحظ أن هذه الآيات قد دلتنا على بعض مظاهر ودوافع التخطيط والتآمر والكيد لأهل الإسلام . وبسبب من القوة المادية الهائلة للكفر فى عصرنا الحالى، فقد أخذت هذه الأمور مداها الواسع الآن ، فلنتذكر ـ إذ يأمرنا الله ـ عز وجل ـ بعدم طاعة أهل الكتاب ـ للأسباب ـ الموجبة لذلك مما قصه الله علينا فى سياق الآيات السابقة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على الدعاة أن يدركوا أن كثيراً من مجادلات أهل الكتاب لا تقوم على أساس من عقل أو منطق وإنما هى المغالطات ، والواجب على الدعاة أن يعملوا من أجل هذا الدين بثقة ويقين فى ظهور دولة الحق ، وزوال دولة الباطل ولا يتطرق إلى نفوسهم فى ذلك أدنى شك .

٢ ـ على الدعاة أن يدركوا أن العقيدة هى الوشيجة الأولى التى يتلاقى عليها الناس فى الإسلام ، والولاية بين فرد وفرد ومجموعة ومجموعة وبين جيل وجيل لا ترتكن إلى الدم أو الجنس أو الوطن أو القومية أو أية وشيجة أخرى سوى العقيدة .

٣ ـ البشرية إما تعيش ـ كما يريدها الإسلام ـ أناساً تتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلاقة العقيدة .. وإما تعيش قطعاناً خلف سياج الحدود الأرضية أو حدود الجنس واللون .. وكلها حدود مما يقام للماشية فى المراعى كى لا يختلط قطيع بقطيع .

٤ ـ لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ما داموا متمسكين بوحى السماء ، وهدى الإسلام. لا شك فى ذلك .

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

معانى الكلمات :

تلبسون : تخلطون أو تسترون .

وجه النهار : أوله .

يحاجوكم : يجادلوكم .

واسع : كرمه وعلمه محيطان بكل شىء.

عليه قائماً : مداوماً على المطالبة .

فى الأميين : فيمن ليسوا من ديننا .

سبيل : عتاب وذم أو إثم وحرج .

لا خلاق لهم : لا نصيب لهم من الخير .

لا يكلمهم الله : كلام لطف ورحمة .

لا ينظر إليهم : لا يرحمهم .

لا يزكيهم: لا يطهرهم . أو لا يثنى عليهم.

الأهداف الإجرائية والسلوكية

١ ـ أن نتعرف على حيل أهل الكتاب فى تلبيس الحق بالباطل ، وهدفهم من ذلك .

٢ ـ أن نستقرئ من الآيات كيفية مواجهة أساليب أهل الكتاب .

٣ ـ أن نحدد الأسس التى تقوم عليها الولاية .

٤ ـ أن نربط بين خصائص أهل الكتاب ومزاعمهم وأساليبهم فى الكيد للمسلمين .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات كشف اللثام عن مكائد أهل الكتاب ، وهو تلبيس الحق بالباطل لإخفائه وكتمانه وتضييعه فى غمار الباطل على علم وعن عمد وقصد .. وهو أمر مستنكر قبيح ! فقد دسوا فى التراث الإسلامى وفى التاريخ وفى الحديث الشريف وفى التفسير ، وما يزالون فى صورة المستشرقين وتلامذتهم الذين يشغلون مناصب القيادة الفكرية اليوم فى البلدان التى يقول أهلها: إنهم مسلمون ، والعشرات من الشخصيات المدسوسة على الأمة المسلمة فى صورة أبطال مصنوعين على عين الصهيونية والصليبية ؛ ليؤدوا لأعداء الإسلام من الخدمات ما لا يملك هؤلاء الأعداء أن يؤدوه ظاهرين !

ويقول صاحب الظلال : « وما يزال هذا الكيد قائماً ومطرداً . وما تزال مثابة الأمان والنجاة منه هى اللياذ بهذا الكتاب المحفوظ ؛ والعودة إليه لاستشارته فى المعركة الناشبة طوال هذه القرون .

ويخبرنا الله عن بقية مكائدهم ، ليلبّسوا على الضعفاء من الناس أمر ردهم إلى دينهم ، وهى أنهم ائتمروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ، ويصلُّوا مع المسلمين صلاة الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ؛ ليقول الجهلة من الناس : إنما ردهم إلى دينهم اطلاعُهم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين ، فيرتد المسلمون عن دينهم .

ويقول صاحب المنار : « قال الأستاذ الإمام : هذا النوع الذى تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر وهى أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه . وقد فقه هرقل صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شؤون النبى ﷺ عندما دعاه إلى الإسلام « هل يرجع عنه من دخل فى دينه ؟ فقال أبو سفيان : لا » وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، واطلعوا على باطنه وخوافيه ، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب .. ويقول الإمام محمد عبده : « ويظهر لى أن النبىﷺ ما أمر بقتل المرتد إلا لتخويف أولئك الذين كانوا يدبرون المكائد لإرجاع الناس عن الإسلام بالتشكيك فيه ، لأن مثل هذه المكائد إذا لم يكن لها أثر فى نفوس الأقوياء من الصحابة الذين عرفوا الحق ووصلوا فيه إلى عين اليقين ، فإنها تخدع الضعفاء الذين يدخلون فى الإسلام لتفضيله على الوثنية فى الجملة قبل أن تطمئن قلوبهم بالإيمان كالذين كانوا يعرفون بالمؤلفة قلوبهم » .

وهنا يوجه الله نبيه ﷺ أن يعلن أن الهدى هو وحده هدى الله ؛ وأن من لا يفيء إليه لن يجد الهدى أبداً فى أى منهج ولا فى أى طريق . ويبين المولى عز وجل مكائد أهل الكتاب وما تنطوى عليه نفوسهم من الحقد والحسد والنقمة أن يؤتى الله أحداً من النبوة والكتاب ما آتى أهل الكتاب . وهو الخوف أن يكون فى الاطمئنان للمسلمين واطلاعهم على الحقيقة التى يعرفها أهل الكتاب ثم ينكرونها عن هذا الدين ، ما يتخذه المسلمون حجة عليهم عند الله !

ويوجه الله سبحانه رسوله الكريم ليعلمهم ـ ويعلم الجماعة المسلمة ـ حقيقة فضل الله حين يشاء أن يمن على أمة برسالة وبرسول ؛ فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » .

ينتقل السياق ليبين شريحة أخلاقية من طبائع أهل الكتاب وهى أن منهم أناس أمناء لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية ، ولكن منهم كذلك الخونة والظالمون المماطلون الذين لا يردون حقاً وإن صغر إلا بالمماطلة والإلحاح والملازمة . والعجيب فى شأن هؤلاء أنهم يردون أفعالهم القبيحة تلك إلى أن الله أمرهم بذلك كذباً على الله وبهتانا وزوراً فهم يقولون : إن أموال

غير اليهودى حلال لليهودى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وهذه على وجه الخصوص صفة اليهود فهم الذين يقولون هذا القول ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة . فالأمانة بين اليهودى واليهودى . أما غير اليهودى ويسمونهم الأميين فلا حرج على اليهودى فى أكل أموالهم .

ويرد عليهم القرآن ويقرر قاعدته الخلقية الواحدة ، وميزانه الخلقى الواحد ، ويربط ذلك بالتقوى لله عز وجّل . ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « وهى قاعدة واحدة من راعاها وفاء بعهد الله وشعوراً بتقواه أحبه الله وأكرمه . ومن اشترى بعهد الله وبأيمانه ثمناً قليلاً ـ من عرض هذه الدنيا أو بالدنيا كلها وهى متاع قليل ـ فلا نصيب له فى الآخرة ، ولا رعاية له عند الله ولا قبول ، ولا زكاة له ولا طهارة . وإنما هو العذاب الأليم .

وهذه هى نظرية الإسلام الأخلاقية بصفة عامة . فى الوفاء بالعهد وفى سواه من الأخلاق التعامل هو أولاً تعامل مع الله ، يلحظ فيه جناب الله ، ويتجنب به سخط الله ويطلب به رضاه فالباعث الأخلاقى ليس هو المصلحة، وليس هو عرف الجماعة ، ولا مقتضيات ظروفها القائمة. فإن الجماعة قد تضل وتنحرف ، وتروج فيها المقاييس الباطلة ، فلابد من مقياس ثابت ترجع إليه الجماعة كما يرجع إليه الفرد على السواء . ولابد أن يكون لهذا المقياس فوق ثباته قوة يستمدها من جهة أعلى .. أعلى من اصطلاح الناس ومن مقتضيات حياتهم المتغيرة .. ومن ثم ينبغى أن تستمد القيم والمقاييس من الله ، بمعرفة ما يرضيه من الأخلاق والتطلع إلى رضاه والشعور بتقواه .. بهذا يضمن الإسلام تطلع البشرية الدائم إلى أفق أعلى من الأرض ؛ واستمدادها القيم والموازين من ذلك الأفق الثابت السابق الوضيء » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ من كذب على الله أحرى به أن يكذب على الناس .

٢ ـ عظم ذنب من يخون عهده من أجل المال ، وكذا من يحلف كاذباً لأجل المال ، لقول النبى ﷺ : « من حلف على يمين يستحق بها مالاً وهو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان » .

٣ ـ المكر والخداع من الصفات اللازمة لليهود؛لذا يجب ألا يوثق بهم لما عرفوا به من الخيانة .

٤ ـ الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى ، ومن ثم لا يتغير فى التعامل مع عدو أو صديق .

٥ ـ من أخلاق المسلمين أداء الأمانات إلى أهلها فى كل الظروف والوفاء بالعهد ، والصدق فى اليمين .

الجزء الثالث — سورة آل عمران

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن
دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ
وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾
وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

٦٠

معانى الكلمات :

يلوون ألسنتهم : يميلونها عن الصحيح إلى المحرَّف . **الحكم** : الحكمة أو الفهم والعلم . **كونوا ربانيين** : كونوا مُعَلِّمِينَ فقهاء فى الدين . **تدرُسُونَ** : تقرؤون الكتاب . **إصرى** : عهدى . **يبغون** : يريدون ويطلبون . **أسلم** : انقاد وخضع . **طوعاً** : عن رغبة . **كرها** : لا إرادة له فيه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية

١ ـ أن نتعرف على أباطيل أهل الكتاب وكذبهم فى أمر الدين من أجل مكاسبهم الدنيوية .

٢ ـ أن نتبين حقيقة الصلة بين الأنبياء وعهد الله إليهم بالإسلام والنصرة لمن جاء بعدهم .

٣ ـ أن نعلم حقيقة الربانية والعبودية ونتخلق بهما .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات فى عرض نماذج من أهل الكتاب ؛ فتعرض نموذج المضللين ، الذين يتخذون من كتاب الله مادة للتضليل ، يلوون ألسنتهم به عن مواضعه ، ويؤولون نصوصه لتوافق أهواءهم ، ويشترون بهذا كله ثمناً قليلاً .. عرضاً من عرض هذه الحياة الدنيا : ومن بين ما يلوون ألسنتهم به ويحرفونه ويؤولونه ما يختص بمعتقداتهم التى ابتدعوها عن المسيح ﷺ ، مما اقتضته أهواء الكنيسة وأهواء الحكام سواء .

ويقول صاحب الظلال : « وآفة رجال الدين حين يفسدون ، أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين . وهذه الحال التى يذكرها القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب ، نعرفها نحن جيداً فى زماننا هذا ، فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم ، ويلوونها ليا ، ليصلوا منها إلى مقررات معينة ، يزعمون أنها مدلول هذه النصوص ، وأنها تمثل ما أراده الله منها.. بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله فى أساسها . معتمدين على أن كثرة السامعين لا

تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية ، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التى يُلجئون إليها النصوص إلجاء .

وهذه آفة لا يختص بها أهل الكتاب وحدهم . إنما تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه حتى ما يساوى إرضاء هوى من الأهواء التى يعود تمليقها بعرض من أعراض هذه الأرض ، وتفسد الذمة حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله ، وتمليق كلماته عن مواضعها لتمليق عبيد الله ، ومجاراة أهوائهم المنحرفة ، التى تصادم دين الله .. وكأنما الله ـ سبحانه ـ يحذر الجماعة المسلمة من هذا المزلق الوبىء . الذى انتهى بنزع أمانة القيادة من بنى إسرائيل .

وتطلعنا الآيات على حقيقة أخرى وهى أن أى نبى يوقن أنه عبد ، وأن الله وحده هو الرب ، الذى يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعبادتهم . فما يمكن أن يدعى لنفسه صفة الألوهية التى تقتضى من الناس العبودية . فلن يقول نبى للناس : ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ، توجهوا إليه ولكن قوله لهم : ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ منتسبين إلى الرب ، عباداً له وعبيداً ، توجهوا إليه وحده بالعبادة ، وخذوا عنه وحده منهج حياتكم ، حتى تخلصوا له وحده فتكونوا ربانيين بحكم علمكم بالكتاب وتدارسكم له . فهذا مقتضى العلم بالكتاب ودراسته .

يقول صاحب المنار : « قال الأستاذ الإمام : أفادت الآية أن الإنسان يكون ربانياً بعلم الكتاب ودرسه وبتعليمه للناس ونشره ، ومن المقرر أن التقرب إلى الله تعالى لا يكون إلا بالعمل بالعلم ، والعلم الذى لا يبعث على العمل لا يُعد علماً صحيحاً ؛ لأن العلم الصحيح ما كان صفة للعالم وملكة راسخة فى نفسه ، وإنما الأعمال آثار الصفات والملكات والمعلم يعبر عما رسخ فى نفسه .

والنبى لا يأمر الناس أبداً أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، فالنبى لا يأمر الناس بالكفر بعد أن يسلموا لله ويستسلموا لألوهية الله ، وقد جاء ليهديهم إلى الله لا ليضلهم ، وليقودهم إلى الإسلام لا ليكفرهم !

ومن ثم تتجلى استحالة هذا الذى ينسبه ذلك الفريق إلى عيسى ﷺ ، كما يتجلى الكذب على الله فى ادعائهم أن هذا من عند الله .. وتسقط فى الوقت ذاته قيمة كل ما يقوله هذا الفريق وما يعيده لإلقاء الريب والشكوك فى الصف المسلم . وقد عرّاهم القرآن هذه التعرية على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة .

ثم تصور الآيات حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات . على عهد من الله وميثاق ، ينبنى عليه فسوق من يتولى عن اتباع آخر الرسالات ؛ وشذوذه عن عهد الله وناموس الكون كله

على الإطلاق . فلقد أخذ الله ـ سبحانه ـ موثقاً جليلاً كان هو شاهده وأشهد عليه رسله . موثقاً على كل رسول . أنه مهما آتاه من كتاب وحكمة ، ثم جاء رسول بعده مصدقاً لما معه ، أن يؤمن به وينصره ، ويتبع دينه ، وجعل هذا عهداً بينه وبين كل رسول .

ويقول صاحب الظلال : « وفى ظل هذا المشهد يبدو الموكب الكريم متصلاً متسانداً مستسلماً للتوجيه العلوى ، ممثلاً للحقيقة الواحدة التى شاء الله ـ سبحانه ـ أن تقوم عليها الحياة البشرية ، ولا تنحرف ، ولا تتعدد ، ولا تتعارض ، ولا تتصادم .. إنما ينتدب لها المختار من عباد الله ؛ ثم يسلمها إلى المختار بعده ، ويسلم نفسه معها لأخيه اللاحق به ، فما للنبى فى نفسه من شىء ؛ وما له فى هذه المهمة من أرب شخصى ، ولا مجد ذاتى . إنما هو عبد مصطفى. ومبلغ مختار . والله ـ سبحانه ـ هو الذى ينقل خُطا هذه الدعوة بين أجيال البشر ؛ ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف يشاء .

وفى ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتخلفون من أهل الكتاب عن الإيمان بالرسول الأخير ﷺ ـ ومناصرته وتأييده، تمسكا بدياناتهم ـ لا بحقيقتها فحقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته ، ولكن باسمها تعصباً لأنفسهم فى صورة التعصب لها ! ـ مع أن رسلهم الذين حملوا إليهم هذه الديانات قد قطعوا على أنفسهم عهداً ثقيلاً غليظاً مع ربهم فى مشهد مرهوب جليل .. فى ظل هذه الحقيقة يبدو أولئك الذين يتخلفون فسقة عن تعاليم أنبيائهم ، فسقة عن عهد الله معهم ، فسقة عن نظام الكون كله المستسلم لبارئه ، الخاضع لناموسه ، المدبر بأمره ومشيئته .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ـ روى أبو يعلى والبزار عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا ، وإنكم إمّا أن تصدِّقوا بباطل ، وإما أن تكذبوا بحق ، وإنّه والله لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعنى » .

٢ ـ عيسى عليه السلام بشر ، رسول ، لم يدع الألوهية ، بل أرشد الناس إلى عبادة الله وحده .

٣ ـ سادات الناس هم الربانيون الذين يربون الناس بالعلم والحكمة فيصلحونهم ويهدونهم.

٤ ـ الإنكار على من يُعْرِض عن دين الإسلام . مع أن الكون كله خاضع منقاد لأمر الله ويسير وفق مشيئته .

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ
دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾
كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟
أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ
ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

٦١

معانى الكلمات :

الأسباط : أولاد يعقوب ـ عليه السلام .

من يبتغ : من يطلب . **البينات** : الدلائل الواضحات . **يُنظَرون** : يمهلون .

الضالون : التائهون فى ظلمات الكفر .

البر : كمال الخير .

من ناصرين : من معينين ، دافعين للعذاب

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات

٢ ـ أن نفهم حقيقة الإسلام ووحدة الدين .

٣ ـ أن نتبين سنة الله فيمن توغل فى الكفر أو الظلم أو الفسق وبلغ حداً بعيداً فيه .

المحتوى التربوى :

بعد أن أعلنت الآيات السابقة حقيقة الموكب النبوى الكريم الذى حمل منهج الله وبلغه على مدار الأزمان والعصور ، فإن الله فى الآيات يأمر نبيه ﷺ أن يعلن هذه الحقيقة كلها ؛ ويعلن إيمان أمته بجميع الرسالات ، واحترامها لجميع الرسل ، ومعرفتها بطبيعة دين الله ، الذى لا يقبل الله من الناس سواه .

وهذا هو الإسلام فى سعته وشموله لكل الرسالات قبله ، وفى ولائه لكافة الرسل حملته . وفى توحيده لدين الله كله ، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده .

ويقول صاحب الظلال تعقيباً على قوله : ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ :

« فهذا الإقرار بالإسلام له مغزاه . بعد بيان أن الإسلام هو الاستسلام والخضوع والطاعة واتباع الأمر والنظام والمنهج والناموس . كما يتجلى فى الآية قبلها ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فظاهر أن إسلام

الكائنات الكونية هو إسلام الخضوع للأمر ، واتباع النظام ، وطاعة الناموس .. ومن ثم تتجلى عناية الله ـ سبحانه ـ ببيان معنى الإسلام وحقيقته فى كل مناسبة . كى لا يتسرب إلى ذهن أحد أنه كلمة تقال باللسان ، أو تصديق يستقر فى القلب ، ثم لا تتبعه آثاره العملية من الاستسلام لمنهج الله ، وتحقيق هذا المنهج فى واقع الحياة .

وهناك حقيقة أخرى تؤكدها هذه النصوص المتلاحقة وهى لا سبيل لتأويل حقيقة الإسلام ، ولا لىّ النصوص وتحريفها عن مواضعها لتعريف الإسلام بغير ما عرفه به الله ، الإسلام الذى يدين به الكون كله . فى صورة خضوع للنظام الذى قرره الله له ودبره به .

ولن يكون الإسلام هو النطق بالشهادتين ، دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها وحقيقتها . وهى توحيد الألوهية وتوحيد القوامة . ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه . ودون أن يتبع شهادة أن محمداً رسول الله معناها وحقيقتها . وهى التقيد بالمنهج الذى جاء به من عند ربه للحياة ، واتباع البشرية التى أرسله بها ، والتحاكم إلى الكتاب الذى حمله للعباد .

ولن يكون الإسلام إذن تصديقاً بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامة وكتب الله ورسله..دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملى ، وحقيقته الواقعية ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات ، أو إشراقات وسبحات ، أو تهذيباً خُلقياً وإرشاداً روحياً .. دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية . فمثله فى منهج للحياة موصول بالله الذى تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر ، والإشراقات والسبحات ، والذى تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد .. فإن هذا كله يبقى معطلاً لا أثر له فى حياة البشر ما لم تنصب آثاره فى نظام اجتماعى يعيش الناس فى إطاره النظيف الوضىء .

يقول صاحب الظلال : « الإسلام هو الاستسلام ، الإسلام الطاعة والاتباع ، الإسلام تحكيم كتاب الله فى أمور العباد .

الإسلام توحيد الألوهية والقوامة ، بينما كان أهل الكتاب يخلطون بين ذات الله ـ سبحانه ـ وذات المسيح عليه السلام كما يخلطون بين إرادة الله وإرادة المسيح أيضًا ، ويختلفون فيما بينهم على هذه التصورات اختلافًا عنيفًا يصل فى أحيان كثيرة إلى حد القتل والقتال .

إنه ليس اختلافًا عن جهل بحقيقة الأمر ، فقد جاءهم العلم القاطع بوحدانية الله ، وتفرد الألوهية ، وبطبيعة البشرية ، وحقيقة العبودية ، ولكنهم إنما اختلفوا حينما تخلوا عن قسط الله وعدله الذى تتضمنته عقيدته وشريعته وكتبه .

ويحمل الله جملة رعيبة يرجف لها كل قلب فيه ذرة من إيمان ؛ ومن جدية الأمر فى الدنيا والآخرة سواء . ويعرض لجزاء من تتاح له فرصة النجاة ، ثم يعرض عنها هذا الإعراض . ويتعجب كيف يهدى الله هؤلاء الذين لا يستحقون هداية الله بعدما تلبّسوا به من العمى وكفروا بعد إيمانهم ، وجزاء هؤلاء اللّعنة من الله والملائكة والناس . وأنهم خالدون فى هذه اللعنة ، وأن العذاب لا يفتر عنهم ساعة واحدة ، ثم فتح لهؤلاء باب الأمل على مقتضى الفضل بأنهم إذا تابوا بعد ردّتهم وأصلحوا ، فإن رحمة الله وغفرانه يصلان إليهم .

فالإسلام يفتح باب التوبة ، ولا يغلقه فى وجه ضال يريد أن يتوب ؛ ولا يكلفه إلا أن يطرق الباب ، بل أن يدلف إليه فليس دونه حجاب ، وإلا أن يفىء إلى الحمى الآمن ، ويعمل صالحاً فيدل على أن التوبة صادرة من قلب تاب .

فأما الذين لا يتوبون ولا يثوبون الذين يصرون على الكفر ويزدادون كفراً . والذين يلجون فى هذا الكفر حتى تفلت الفرصة المتاحة ، وينتهى أمد الاختبار ، ويأتى دور الجزاء . هؤلاء وهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة . ولن ينفعهم أن يكونوا قد أنفقوا ملء الأرض ذهباً فيما يظنون هم أنه خير وبر ، ما دام مقطوعاً عن الصلة بالله .

ومن ثم فهو غير موصول به ولا خالص له بطبيعة الحال . ولن ينجيهم أن يقدموا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة، وهكذا يحسم السياق بهذا التقرير المروع المفزع ، وبهذا التوكيد الفاضح الذى لا يدع ريبة لمستريب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدين عند الله الإسلام ، ومن ابتغى غيره فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين .

٢ ـ لا يقبل الله توبة ممن أخرها إلى حضور الموت .

٣ ـ لن ينفع الكفار يوم القيامة فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً .

٤ ـ إن الدعاة إلى الله هم ورثة الأنبياء ، وينبغى أن يكون شأنهم دائماً أن يأخذوا بحجز الناس عن الوقوع فى النار ، ولا عليهم من حرج إن أبى بعض الناس إلا أن يقتحموا النار .

٥ ـ أن يتعلم الدعاة أن من الناس من يزدادون كفراً بعد إيمانهم ، أو يتركون طريق الله بعد أن كانوا يسعون فيها، بل قد يتحول بعضهم إلى عداء الدعوة ويناصب من كان معهم ـ بالأمس فى موكب الدعوة ـ العداء بل أشد أنواع العداء !!

لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) ۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠)

معانى الكلمات :

إسرائيل: يعقوب عليه السلام. **افترى**: اختلق كذباً . **للذى ببكة** : المسجد الحرام . **من كفر** : من جحد فريضة الحج. **تبغونها عوجاً**: تطلبونها معوجة. **تصدون**: تمنعون وتصرفون الناس. **فريقاً** : طائفة . **يردوكم** : يجعلوكم كفاراً بعد إيمانكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف الشروط الضرورية لنيل البر .

٢ ـ أن نفند مزاعم اليهود فى تحريم بعض الأطعمة كما أوردت الآيات .

٣ ـ أن نربط بين ما جاء فى هذه الآيات وما جاء فى سورة البقرة بخصوص تحويل القبلة .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يبين الله البذل الذى يرضاه ، بمناسبة الإنفاق على غير درب الله ، وفى غير سبيله ، وبمناسبة الافتداء يوم لا ينفع الفداء. وقد فقه المسلمون وقتها معنى هذا التوجيه الإلهى، وحرصوا على أن ينالوا البر ـ وهو جماع الخير ـ بالنزول عما يحبون ، وببذل الطيب من المال ، سخية به نفوسهم فى انتظار ما هو أكبر وأفضل .

وينتقل السياق للرد على بنى إسرائيل على اعتراضهم على إباحة القرآن لبعض المحرمات اليهودية من الطعام . مع أن هذه المحرمات إنما حرمت عليهم وحدهم ، فى صورة عقوبة على بعض مخالفاتهم . ولقد كان اليهود يتصيدون كل حجة ، وكل شبهة ، وكل حيلة ؛ لينفذوا منها إلى الطعن فى صحة الرسالة المحمدية ، وإلى بلبلة الأفكار وإشاعة الاضطراب فى العقول والقلوب .. فلما قال القرآن : إنه مصدق لما فى التوراة برزوا يقولون : فما بال القرآن يحلل من الأطعمة ما حرم على بنى إسرائيل . وهناك محرمات أخرى كذلك أحلها الله للمسلمين .

ويقول صاحب الظلال : «وهنا يردهم القرآن إلى الحقيقة التاريخية التى يتجاهلونها للتشكيك فى صحة ما جاء فى القرآن من أنه مصدق للتوراة ، وأنه مع هذا أحل للمسلمين بعض ما كان محرماً على بنى إسرائيل .. هذه الحقيقة هى أن كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل ـ إلا ما حرم

إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ـ وتقول الروايات : إن يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً ، فنذر لله لئن عافاه ليمتنعن ـ تطوعاً ـ عن لحوم الإبل وألبانها وكانت أحب شىء إلى نفسه . فقبل الله منه نذره . وجرت سنة بنى إسرائيل على اتباع أبيهم فى تحريم ما حرم .. كذلك حرم الله على بنى إسرائيل مطاعم أخرى عقوبة لهم على معاص ارتكبوها . وأشير إلى هذه المحرمات فى آية الأنعام ... يردهم الله إلى هذه الحقيقة ليبين أن الأصل فى هذه المطاعم هو الحل ، وأنها حرمت عليهم لملابسات خاصة بهم . فإذا أحلها للمسلمين فهذا هو الأصل الذى لا يثير الاعتراض ، ولا شك فى صحة القرآن .

ويتحداهم أن يرجعوا إلى التوراة ، وأن يأتوا بها ليقرؤوها ، وسيجدون فيها أن أسباب التحريم خاصة بهم وليست عامة ؛ ثم يهدد من يفترى الكذب منهم على الله بأنه إذن ظالم ، لا ينصف الحقيقة ، ولا ينصف نفسه ، ولا ينصف الناس ، وعقاب الظالم معروف ، فيكفى أن يوصموا بهذه الوصمة ، ليقرر نوع العذاب الذى ينتظرهم ، وهم يفترون الكذب على الله . وهم إليه راجعون..

ويتحدث السياق عن لجاجة بنى إسرائيل فى الحق ، وإثارتهم للفتن ، فلقد عادوا للحديث فى مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ، مع أن هذا الموضوع قد نوقش مناقشة كاملة وافية فى سورة البقرة من قبل ، وتبين أن اتخاذ الكعبة قبلة للمسلمين هو الأصل وهو الأولى ، وتقرر الآيات حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون مثابة للناس وأمنًا ، وليكون للمؤمنين بدينه قبلة ومصلى ، ومن ثم يجىء الأمر باتباع إبراهيم فى ملته ، وهى التوحيد الخالص المبرأ من الشرك فى كل صورة .

واليهود كانوا يزعمون أنهم ورثة إبراهيم . فها هو ذا القرآن يدلهم على حقيقة دين إبراهيم ؛ وأنه الميل عن كل شرك . ويؤكد هذه الحقيقة مرتين : مرة بأنه كان حنيفاً ومرة بأنه كان من المشركين . فما بالهم هم مشركين !!

ثم يقرر أن الاتجاه للكعبة هو الأصل ، فهى أول بيت وضع فى الأرض للعبادة وخصص لها مذ أمر الله إبراهيم أن يرفع قواعده ، وأن يخصصه للطائفين والعاكفين والركع السجود . وجعله مباركاً وهدى للعالمين ، يجدون عنده الهدى بدين الله ملة إبراهيم » .

يقول صاحب المنار : « أما قوله تعالى فى البيت ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ فهو بيان لحاله الحسنة الحسيه وحاله الشريفة المعنوية . **أما الأولى** : فهى ما أفيض عليه من بركات الأرض وثمرات كل شىء على كونه بواد غير ذى زرع ، فترى الأقوات والثمار فى مكة أكثر وأجود وأقل ثمنا منها فى مصر وكثير من بلاد الشام . **وأما الثانية** : فهى هوى أفئدة الناس إليه وإتيانه للحج والعمرة مشاة وركباناً من كل فج ، وتولية وجوههم شطره فى الصلاة ، ولعله لا تمر ساعة ولا

دقيقة من ليل أو نهار وليس فيها أناس متوجهون إلى ذلك البيت الحرام يصلون . فأى هداية للعالمين أظهر من هذه الهداية .

ثم يقرر أن الله فرض على الناس أن يحجوا إلى هذا البيت ما تيسر لهم ذلك . وإلا فهو الكفر الذى لا يضر الله شيئاً ، والحج فريضة فى العمرة مرة ، عند أول ما تتوافر الاستطاعة . من الصحة وإمكان السفر وأمن الطريق » .

ويقول صاحب الظلال : « والحج مؤتمر المسلمين السنوى العام . يتلاقون فيه عند البيت الذى صدرت لهم الدعوة منه ـ والذى بدأت منه الملة الحنيفية على يد أبيهم إبراهيم . والذى جعله الله أول بيت فى الأرض لعبادته خالصاً . فهو تجمع له مغزاه ، وله ذكرياته هذه ، التى تطوّف كلها حول المعنى الكريم ، الذى يصل الناس بخالقهم العظيم .. معنى العقيدة . استجابة الروح لله الذى من نفخة روحه صار الإنسان إنساناً . وهو المعنى الذى يليق بالأناسى أن يتجمعوا عليه ، وأن يتوافدوا كل عام إلى المكان المقدس الذى انبعث منه النداء للتجمع على هذا المعنى الكريم .

بعد هذا البيان يلقن الرسول ﷺ أن يتجه إلى أهل الكتاب بالتنديد والتهديد ، على موقفهم من الحق الذى يعلمونه ، ثم يصدون عنه ، ويكفرون بآيات الله . وهم شهداء على صحتها ، وهم من صدقها على يقين ، وينهى الجدل مع أهل الكتاب ، يتجه إلى الجماعة المسلمة بالخطاب والتحذير من أهل الكتاب وطاعتهم ؛ لأن طاعتهم واقتباس مناهجهم وأوضاعهم ، تحمل معنى الهزيمة الداخلية ، والتخلى عن دور القيادة الذى من أجله أنشئت الأمة المسلمة ، كما تحمل الشك فى كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها ، والسير بها صعدا فى طريق النماء والارتقاء وهذا بذاته دبيب الكفر فى النفس ، وأهل الكتاب لا يحرصون على شىء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن اليهود محترفو إثارة الشبهات والفتن ، وبلبلة العقائد والأفكار ، وإلصاق نقائصهم وعقدهم النفسية بغيرهم .

٢ ـ أن المؤمن يثق فى ربه ورسوله وكتابه لا يلتفت لما سواه ، وأن دينه هو دين الحق والوسطية ودين الأنبياء .

٣ ـ أن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

٤ ـ على المسلم أن يكون على حذر ، وأن يخشى فتنة الردة والقعود عن طريق الله ؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم
مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا
تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ
وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ
وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ
فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ
ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

٦٣

معانى الكلمات :

حق تقاته : حق تقواه .

اعتصموا بحبل الله : تمسكوا بعهده .

وألف : جمع .

شفا حفرة : حافتها .

المعروف : ما أمر به الشرع .

المنكر : ما نهى عنه الشرع واستقبحه الطبع والعقل .

رحمة الله : جنته ودار نعيمه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحدد الركائز التى تقوم عليها الجماعة المسلمة كما حددتها الآيات .

٢ ـ أن نقارن بين صفات الجماعة المسلمة وصفات الكافرين من أهل الكتاب كما وضحت الآيات .

٣ ـ أن ندرك أهمية وضرورة الجماعة المسلمة الآن التى تحقق هذه الآيات .

المحتوى التربوى :

بعد أن حذر الحق ـ تبارك وتعالى ـ من التلقى من أهل الكتاب وطاعتهم واتباعهم ينادى الجماعة المسلمة ويوجهها إلى قاعدتين أساسيتين متلازمتين لابد منهما حتى تستطيع القيام بأمانة الاستخلاف : أولاهما الإيمان والثانية الأخوة .

يقول صاحب الظلال : « إنهما كركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة وبهما تؤدى دورها الشاق فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة ولم يكن هنالك دور لها تؤديه ركيزة الإيمان والتقوى أولاً ... التقوى التى تبلغ أن توفى بحق الله الجليل ، التقوى الدائمة اليقظة التى لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ، ولأن الموت غيب لا يدرى أى إنسان حين يدركه .. فينبغى على المسلم أن يكون فى كل لحظة مسلماً أى مستسلماً لله طاعة له واتباعاً لمنهجه واحتكاماً إلى كتابه .

وأما الركيزة الثانية : فهى ركيزة الأخوة فى الله على منهج الله لتحقيق منهج الله ، وهى أخوة تنبثق من التقوى والإسلام . أساسها الاعتصام بحبل الله أى عهده ودينه ومنهجه ، وليست مجرد تجمع على أى تصور آخر من تصورات الجاهلية الكثيرة : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ ، وهذه الأخوة المعتصمة بحبل الله يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً .. وهو هنا يذكرهم بهذه النعمة ، وما كان أعدى من الأوس والخزرج فى المدينة أحد . وهما حيان من العرب فى يثرب يجاورهما اليهود والذين كانوا يوقدون نيران العداوة بين الحيين بالإسلام . وما كان يمكن أن يجمع تلك القلوب إلا أخوة فى الله . ويذكرهم نعمته عليهم فى إنقاذهم من النار التى كانوا على وشك الوقوع فيها فأنقذهم باعتصامهم بحبل الله ـ الركيزة الأولى ـ وبالتأليف بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً ـ الركيزة الثانية .

يقول صاحب المنار : « انظر آية الله ، قوم متخالفون بين العداوات والإحن يتربص كل واحد بالآخر الهلكة على يده ، فيأتى الله بهذه الهداية فيجمعهم ويزيل كل ما فى نفوسهم من التنافر ويجعلهم إخواناً ترجع أهواؤهم كلها إلى شىء واحد لا يختلفون فيه ، وهو حكم الله . ولذلك قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى ليعدكم ويؤهلكم بها للاهتداء الدائم المستمر فلا تعودوا إلى عمل الجاهلية من التفرق والعدوان.

ويقول صاحب الظلال : « والنص القرآنى يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط وهو القلب ، فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد الله على عهده وميثاقه ويرسم النص صورة متحركة حية لمشهد النجاة بعد الهلاك المحقق ، فبينما حركة السقوط فى حفرة النار متوقعة إذا بالقلوب ترى يد الله وهى تدرك وتنقذ وحبل الله وهو يمتد ويعصم .

ويتحدث السياق عن الوظيفة الأساسية للجماعة المسلمة القائمة على ركيزتى الإيمان والأخوة ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذه الوظيفة الضرورية لإقامة منهج الله فى الأرض ، ولتغليب الحق على الباطل ، والمعروف على المنكر ، والخير على الشر ، وكما يقول صاحب الظلال ـ رحمة الله ـ فلابد من جماعة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذى سلطان فإن الأمر والنهى لا يقوم بهما إلا ذو سلطان ، ومن ثم فلابد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين ـ الإيمان بالله والأخوة فى الله ـ لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق . وهذا يقتضى قيام سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى وتطاع ، حتى تستطيع أن ترد الجبار الغاشم والحاكم المتسلط والمنحرف الهابط والمستفيد الظالم ممن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر .

وقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ القيام به شريطة الفلاح فقال عن الذين يهتدون به : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإسلامى ذاته ، فهذه الجماعة هى الوسط الذى يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق فى صورته الواقعية .

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى فى المدينة على هاتين الركيزتين ؛ على الإيمان بالله والأخوة وعلى الحب الفياض الرائق والود العذب الجميل . وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله فى الأرض فى كل زمان .. ومن ثم يعود السياق فيحذر الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف . وينذرها عاقبة الذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب . فنزع الله الراية منهم وسلمها للجماعة المسلمة المتآخية.فوق ما ينتظرهم من عذاب يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وهنا يرسم السياق لمشهد من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيوية فهذه وجوه قد أشرقت بالنور وفاضت بالبشر فابيضت من البشر والبشاشة ، وهذه وجوه كمدت من الحزن والغم واسودت من الكآبة .

وليست مع هذا متروكة إلى ما هى فيه ولكنه الردع والتبكيت والتأنيب : ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وذلك ليستقر فى ضمير الجماعة المسلمة معنى التحذير من الفرقة والاختلاف . ومعنى النعمة الإلهية الكريمة بالإيمان والائتلاف » . ويعقب ـ سبحانه وتعالى ـ على هذا البيان لمصائر الفريقين تعقيباً قرآنياً يتمشى مع صدق الوحى والرسالة وجدية الجزاء والحساب يوم القيامة ، يتضمن العدل المطلق فى حكم الله فى الدنيا والآخرة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تقوى الله حق تقاته واجب شرعى ، يُلزم بها كل مسلم وحق التقوى كما فسرها ابن عباس ـ رضى الله عنهما: « الجهاد فى سبيل الله حق جهاده ، وألا يأخذه فى الله لومة لائم ، وأن يقوم لله بالقسط ولو على نفسه أو والده أو ولده والأقربين .

٢ ـ الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو الأمان ضد أى شر ، ووقاية من كل عدو .

٣ ـ سبل الفلاح ثلاث : دعوة إلى الخير ، وأمر بمعروف ، ونهى عن المنكر .

٤ ـ كل ما أنزل الله على رسوله ﷺ حق ، يجب الالتزام به والتواصى عليه ، والعمل به والصبر على تحمل النتائج فى التمسك به مهما أصاب صاحبه من محن ومتاعب .

٥ ـ الثبات على الإسلام والاستمرار عليه، والذود عنه ، أصبح واجباً دينياً ، دعوياً وحركياً، بعد أن تمزقت وحدة المسلمين وأضحوا لقمة سائغة لأعدائهم .

٦ ـ على المسلمين أن يقاوموا كل أسباب الفرقة والاختلاف ، وأن يسعوا بكل وسيلة إلى نبذ الخصام والشقاق ؛ لأن فى ذلك حياتهم وعزتهم وإرضاءهم لربهم عز وجل .

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

٦٤

معانى الكلمات :

الفاسقون : الخارجون عن طاعة الله .

يولوكم الأدبار : ينهزموا أمامكم .

أينما ثُقفوا : فى أى مكان وُجدوا وأدْركوا .

إلا بحبل من الله : إلا بعهد من الله وذمة وهو الإسلام . **باؤوا بغضب** : رجعوا بغضب ولعنة .

المسكنة : فقر النفس وشحها .

أمة قائمة : مستقيمة ثابتة على الحق

آناء الليل : ساعات الليل .

فلن يكفروه : فلا يُجحدَ لهم فضل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحدد صفات خير أمة أخرجت للناس كما جاءت بالآيات .

٢ ـ أن نوضح أهمية وجود هذه الصفات للجماعة المسلمة .

٣ ـ أن نثق فى نصر الله لهذا الدين ، ونتبين الفرق بين المؤمنين والكافرين .

٤ ـ أن نتعرف على صفات الكافرين من أهل الكتاب ونحذرها كما جاءت بالآيات .

المحتوى التربوى :

صورت الآيات ـ فيما سبق ـ مصائر وجزاءات أهل الكتاب الكافرين ، وهى محض عدل من الله المالك لأمر السموات والأرض ، وإليه مصير الأمور ، وأمر الله هذا بترتيب الجزاء على العمل أن يحق الحق ، وأن يجرى العدل ، وأن تسير الأمور بالجد اللائق بجلال الله .. لا كما يدعى أهل الكتاب أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات !

وفيما يلى يطوّف بنا السياق لبيان فضل هذه الأمة وعلو شأنها وسمو مكانتها . فيصف هذه الأمة لنفسها ليعرفها مكانتها وقيمتها وحقيقتها ، ثم يصف لها أهل الكتاب ولا يبخسهم قدرهم إنما يبين حقيقتهم ويؤملهم فى ثواب الإيمان وخيره ، ويطمئن المسلمين من جانب عدوهم فهم لن يضروهم فى كيدهم لهم وقتالهم ولن يُنصروا عليهم ، وللذين كفروا منهم عذاب النار فى الآخرة لا ينفعهم فيه ما أنفقوا فى الحياة الدنيا بلا إيمان ولا تقوى .

يقول صاحب الظلال : والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ كسمة لهذه الأمة ـ إنما هو العمل الإيجابى لحفظ الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف ، مع الإيمان الذى يحدد المعروف والمنكر .. وهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة ،بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وبكل ما فى طريقها من أشواك .. إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد .. وكل هذا متعب شاق ، ولكنه ضرورى لإقامة المجتمع الصالح وصيانته ؛ ولتحقيق الصورة التى يحب الله أن تكون عليها الحياة .

ولابد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ،والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر . فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفى فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل . ولابد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر ، وللفضيلة والرذيلة ، وللمعروف والمنكر . يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس فى جيل من الأجيال.

ثم يرغب الله أهل الكتاب فى الإيمان . فهو خير لهم . خير لهم فى هذه الدنيا ، يستعصمون به من الفرقة والهلكة التى كانوا عليها فى تصوراتهم الاعتقادية ، والتى ما تزال تحرمهم تجمع الشخصية . إذ تعجز هذه التصورات الجاهلية عن أن تكون قاعدة لقيادة شؤون حياتهم ، وهذا الإيمان خير لهم فى الآخرة يقيهم ما ينتظر غير المؤمنين من مصير .

وقد آمن من أهل الكتاب جماعة وحَسُن إسلامهم ، ولكن أكثرهم قد فسقوا عن دين الله ، حين لم يفوا بميثاق الله مع النبيين ، ولما كان بعض المسلمين ما يزالون على صلات منوعة باليهود فى المدينة ، ولما كانت لليهود ـ حتى ذلك الحين ـ قوة ظاهرة : عسكرية واقتصادية يحسب حسابها بعض المسلمين ، فقد تكفل القرآن بتهوين شأن هؤلاء الفاسقين فى نفوس المسلمين ، وإبراز حقيقتهم الضعيفة بسبب كفرهم وجرائمهم وعصيانهم ، وتفرقهم شيعاً وفرقاً، وما كتب الله عليهم من الذلة والمسكنة .

وفى مقابل ذلك ضمن الله للمؤمنين النصر وسلامة العاقبة ، ضمانة صريحة حيثما التقوا بأعدائهم هؤلاء وهم معتصمون بدينهم وربهم فى يقين فقال تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « فلن يكون ضرراً عميقاً ولا أصلاً يتناول أصل الدعوة ، ولن يؤثر فى كينونة الجماعة المسلمة ، ولن يجليها من الأرض .. إنما هو الأذى العارض فى الصدام ، والألم الذاهب مع الأيام .فأما حين يشتبكون مع المسلمين فى قتال، فالهزيمة مكتوبة عليهم ـ فى النهاية ـ والنصر ليس لهم على المؤمنين ، ولا ناصر لهم كذلك ولا عاصم من المؤمنين ذلك أنه قد : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ وكتبت لهم مصيراً ... » .

وإنصافاً للقلة الخيرة من أهل الكتاب ، يعود السياق عليهم بالاستثناء ، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء. فهناك المؤمنون . يصور حالهم مع ربهم ، فإذا هى حال المؤمنين الصادقين . ويقرر جزاءهم عنده فإذا هو جزاء الصالحين .

وهى صورة وضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب . فقد آمنوا إيماناً صادقاً عميقاً ، وكاملاً شاملاً، وانضموا للصف المسلم ، وقاموا على حراسة هذا الدين .. آمنوا بالله واليوم الآخر وقد نهضوا بتكاليف الإيمان ، وحققوا سمة الأمة المسلمة التى انضموا إليها ـ خير أمة أخرجت للناس ـ فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ..وقد رغبت نفوسهم فى الخير جملة ، فجعلوه الهدف الذى يسابقون فيه ، فسارعوا فى الخيرات ، ومن ثم هذه الشهادة العلوية لهم أنهم من الصالحين. وهذا الوعد الصادق لهم أنهم لن يُبخسوا حقاً ولن يُكفروا أجراً مع الإشارة إلى أن الله ـ سبحانه ـ علم أنهم مع المتقين .

وهى صورة ترفع أمر الراغبين فى هذه الشهادة ، وفى هذا الوعد ، ليحققها فى ذات نفسه كل من يشتاق إلى نورها الوضيء فى أفقها المنير .

ويقول صاحب المنار : « قال الأستاذ الإمام : هذه الآية من العدل الإلهى فى بيان حقيقة الواقع وإزالة الإيهام السابق ، وهى دليل على أن دين الله واحد على ألسنة جميع الأنبياء ، وأن كل من أخذه بإذعان ، وعمل فيه بإخلاص ، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو من الصالحين . وفى هذا العدل قطع لاحتجاج أهل الكتاب الذين يعرفون من أنفسهم الإيمان والإخلاص فى العمل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ـ التقرب إلى الله والحصول على رضاه وثوابه لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وأن الله تعالى فتح الباب أمام كل الناس من كل الأديان التى لم يدخلها تحريف .

٢ـ الأمة الإسلامية خير الأمم بشروط ، وأنها لم تميز بذلك لسبب عرقى أو إقليمى أولأنها أمة خاتم الأنبياء ، وإنما لأنها تتوفر فيها شروط الخيرية أى الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإذا زالت عنهم تلك الصفات عادوا كغيرهم من الأمم ، ولحقهم الذم وكان ذلك سبباً فى ضعفهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة .

٣ـ وعد الله الأمة المسلمة بالنصر على أعدائها ما استمسكت بشرعه ، وضمن لها ذلك ، وكتب على عدوها الذلة والهوان .

٤ـ ما كتب الله الذل والمسكنة على اليهود إلا لكفرهم المستمر ، وقتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتدائهم على حدود الشرع .

الجزء الرابع — سورة آل عمران

إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (١١٦) مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون (١١٧) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون (١١٨) ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور (١١٩) إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط (١٢٠) وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم (١٢١)

٦٥

معانى الكلمات :

لن تغنى عنهم : لن تدفع عنهم .

حرث قوم : زرعهم . **فيها صر** : فيها برد شديد . **بطانة** :خواص يعرفون أسراركم .

لا يألونكم خبالا : لا يقصرون فى فساد دينكم . **ودوا ما عنتم** : أحبوا ، وتمنوا وقوعكم . **من أفواههم** : من كلامهم .

غدوت : خرجت أول النهار .

تبوئ المؤمنين : تنزلهم وتوطنهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نلتزم أمر الله فيما حذرنا منه فى الآيات .

٢ ـ أن ندرك الأسباب التى أوضحها الله للمؤمنين لهذا النهى والتحذير .

٣ ـ أن نقارن بين مشاعر المؤمنين تجاه أهل الكتاب والعكس .

٤ ـ أن نبين للعالم صورة الإسلام السمحة فى التعامل مع الآخر .

المحتوى التربوى :

من قبل عرض السياق لإنصاف المولى ـ عز وجل ـ للقلة الخيرة من أهل الكتاب ، بأن ما يفعلوا من خير فلن يُكفروه هذا فى جانب .. وفى الجانب الآخر ، الكافرون . الذين لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ؛ ولن تنفعهم نفقة ينفقونها فى الدنيا ، ولن ينالهم شيء منها فى الآخرة لأنها لم تتصل بخط الخير الثابت المستقيم . الخير المنبثق من الإيمان بالله ، على تصور واضح ، وهدف ثابت ، وطريق موصول . وإلا فالخير نزوة عارضة لا ثبات لها ، وجنوح يصّرفه الهوى ، ولا يرجع إلى أصل واضح مدرك مفهوم ، ولا إلى منهج كامل شامل مستقيم .

ويقول صاحب الظلال : « إن أموالهم ليست بمانعتهم من الله ، ولا تصلح لهم فدية من العذاب ، ولا تنجيهم من النار ، وهم أصحاب النار وكل ما ينفقونه من أموالهم فهو ذاهب هالك حتى ولو أنفقوه فيما يظنونه خيراً . فلا خير إلا أن يكون موصولاً بالإيمان ، ونابعاً من الإيمان » .

ويعلن البيان القرآنى سلوك أهل الكتاب المنحرف ، وجدالهم المقيت ، ويفضح سعيهم بالمسلمين لإلحاق السوء بهم ، ويوجه الجماعة المسلمة لتنهض بتكاليفها ، دون أن تلقى بالاً إلى المجادلين المنحرفين الفاسقين ، فلا يجدر بها بعد ذلك أن تتخذ من أعدائها الدائمين بطانة ، ولا تجعل منهم أمناء على أسرارها ومصالحها ، وهم للذين آمنوا بئس العدو ، ورسم البيان القرآنى فى صورة واضحة مقاصد أهل الكتاب التى ما نزال نرى مصداقها فى كل وقت وفى كل أرض ، فغفل عنها أهل القرآن فأصابهم من غفلتهم ـ وما يزال ـ يصيبهم الشر والأذى والمهانة .

والمسلمون فى غفلة من تحذير الله لهم ، يوادون من حاد الله ورسوله ؛ ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم والله ـ سبحانه ـ يقول للجماعة المسلمة فى أى جيل : ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ .

ومرة بعد مرة تصعقنا التجارب المرة ، ولكننا لا نفيق .. ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر . ومرة بعد مرة تنقلب ألسنتهم فتنم عن أحقادهم التى لا يذهب بها ود يبذله المسلمون ، ولا تغسلها سماحة يعلمها لهم الدين .. ومع ذلك نعود ، فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ منهم رفقاء فى الحياة والطريق ! وتبلغ بنا المجاملة ، أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم فى عقيدتنا فنتحاشى ذكرها ، وفى منهج حياتنا فلا نقيمه على أساس الإسلام ، وفى تزوير تاريخنا وطمس معالمه كى نتقى فيه ذكر أى صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين ! ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله ، ومن هنا نذل ونضعف ونستخذى . ومن هنا نلقى العنت الذى يوده أعداؤنا لنا ، ونلقى الخبال الذى يدسونه فى صفوفنا .

ومع ذلك يصدر البيان القرآن مستأنفاً النصح والتوجيه للأمة المسلمة،فى كيفية اتقاء كيدهم، ودفع آذاهم ، والنجاة من الشر الذى تكنه صدورهم ، ويفلت على ألسنتهم منه شواظ ؛ وسبيل ذلك الطريق كما **يقول صاحب الظلال** : « الصبر والتقوى .. التماسك والاعتصام بحبل الله . وما استمسك المسلمون فى تاريخهم كله بعروة الله وحدها، وحققوا منهج الله فى حياتهم كلها .. إلا عزوا وانتصروا ، ووقاهم الله كيد أعدائهم ، وكانت كلمتهم هى العليا . وما استمسك المسلمون فى تاريخهم كله بعروة أعدائهم الطبعيين ، الذين يحاربون عقيدتهم ومنهجهم سراً وجهراً ، واستمعوا إلى مشورتهم ، واتخذوا منهم بطانة وأصدقاءَ وأعواناً وخبراء ومستشارين .. إلا كتب الله عليهم الهزيمة ، ومكن لأعدائهم فيهم ، وأذل رقابهم ، وأذاقهم وبال أمرهم .. والتاريخ كله شاهد على أن كلمة الله خالدة ، وأن سنة الله نافذة . فمن عمى عن سنة الله المشهودة فى الأرض ، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والانكسار والهوان .

وهناك حقيقة أخرى نود أن نقررها فى خاتمة هذا البيان القرآنى عن حقيقة ودخيلة أهل الكفر تجاه أهل الإيمان ، وهى أنه بالرغم من هذا العداء السافر للإسلام وأهله من أهل الكتاب، إلا أن الإسلام لا يحرض المسلمين على مقابلة هذا الغدر والحقد والكراهية والمكر بمثله ، إنما هى مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم ، وللكينونة المسلمة ، وأما المسلم فبسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعاً ؛ وبمحبة الخير الشامل يلقى الناس جميعاً ، فيتقى الكيد ولكنه لا يكيد ، ويحذر الحقد ولكنه لا يحقد . إلا أن يحاربَ فى دينه ، وأن يفتن فى عقيدته ، وأن يصد عن سبيل الله ومنهجه ، فحينئذ هو مُطالبَ أن يحارب ، وأن يقبع الفتنة ، وأن يزيل العثرات التى تصد الناس عن سبيل الله ، وعن تحقيق منهجه فى الحياة . يحارب جهاداً فى سبيل الله لا انتقاماً لذاته ، وحباً لخير البشر لا حقداً على الذين آذوه . وتحطيماً للحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير . لا حباً للغلب والاستعلاء والاستغلال . وإقامة النظام القويم الذى يستمتع الجميع فى ظله بالعدل والسلام . لا لتركيز راية قومية ولا لبناء إمبراطورية !

إن هذا المنهج ثابت لخير البشرية ، وما يصد البشرية عنه إلا أعدى أعداء البشرية الذين يسعى المسلمون لاستئصالهم حتى تُقصيهم عن قيادتها ، وهو أمر واجب انتدبت له الجماعة المسلمة على مر العصور ، وهى مدعوة دائماً إلى أدائه . والجهاد ماض إلى يوم القيامة . تحت هذا اللواء » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لن يغنى عن المرء مال ولا ولد متى ظلم وحارب منهج الله وتعرض لنقمته .

٢ ـ بطلان العمل الصالح ما دام صاحبه مشركاً أو مات على كفر .

٣ ـ حرمة موالاة أعداء الدين ، والتحذير من جعلهم أمناء على أسرار المسلمين ومصالحهم ، لما فى نفوسهم من حقد وكراهية أبدية للمسلمين ، وتربصهم بنا ـ دائماً ـ الدوائر والكيد لنا ليلاً ونهاراً .

٤ ـ الصبر والتقوى طريق العزة والانتصار ، وموالاة أعداء الله واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين سبيل الذل والانكسار .

٥ ـ الإسلام لخير البشرية ، والجهاد فريضة لعزته ، لا للاستعلاء فى الأرض بغير الحق .

٦ـ الإسلام يأمر بالحوار والتفاهم والتبادل الحضارى مع الآخر دون اتخاذه بطانة أو الاستسلام له على حساب العقيدة .

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

معانى الكلمات :

طائفتان : حيان من الأنصار . **أن تفشلا** : بأن تجبنا وتضعفا . **أذلة** : بقلة العدد والعدة . **مسومين** : معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات . **ليقطع طرفاً** : ليهلك طائفة . **أو يكبتهم** : يخزيهم بالهزيمة .

الربا : الزيادة فى المال . **مضاعفة** : كثيرة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعرف الأسباب التى تؤهل المؤمنين لأن يكونوا أهلاً لمدد الله ونصره .

٢ ـ أن نحدد أهداف مقاتلة الكفار ونلتزم بأخلاقيات الجهاد .

٣ ـ أن نلتزم بأمر الله فى النهى عن التعامل بالربا .

٤ ـ أن ندرك العلاقة بين النصر وطهارة النفوس والقلوب .

المحتوى التربوى :

ترسم الآيات المشهد الأول لغزوة أحد وتستعيده لاستحضاره فى نفوس المخاطبين الأولين بهذا القرآن ، ويؤكد حقيقة كبرى لطالما سعى النص القرآنى لتوكيدها وهى حضور الله ـ سبحانه ـ معهم ، وسمعه وعلمه بكل ما كان وما دار بينهم . ويالها من رهبة إذن ومن روعة تحف هذا الموقف والسرائر مكشوفة فيه لله ، وهو يسمع ما تقوله الألسن ، ويعلم ما تهمس به الضمائر .

والمشهد الثانى فى حركة الفشل والضعف التى راودت قلوب طائفتين من المسلمين ، بعد تلك الحركة الخائنة التى قام بها رأس النفاق « عبد الله بن أبى ابن سلول » حين انفصل بثلث الجيش ، مغضباً أن الرسول ﷺ لم يأخذ برأيه ، واستمع إلى شباب أهل المدينة ، وهاتان الطائفتان ـ كما ورد فى الصحيح ـ من حديث سفيان بن عيينة ـ هما بنو حارثة وبنو سلمة أثرت فيهما حركة ابن سلول ، وما أحدثته من رجة فى الصف المسلم ، من أول خطوة فى المعركة . فكادتا تفشلان وتضعفان ، لولا أن أدركتهما ولاية الله وتثبيته .

ويقول صاحب الظلال : « وهكذا يكشف الله المخبوء فى مكنونات الضمائر .. والذى لم يعلمه إلا أهله حين حاك فى صدورهم لحظة ليشعرهم حضوره معهم وعلمه بمكنونات ضمائرهم كما قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وليعرفهم كيف كانت النجاة وإشعارهم عونه ورعايته حين يدركهم الضعف ويدب فيهم الفشل ليعرفوا أين يتوجهون وأين يلتجئون : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

وهكذا يبدأ الحديث عن المعركة التى لم ينتصر فيها المسلمون والتى بدأت بتغليب الاعتبارات الشخصية على العقيدة عند المنافق عبد الله بن أبى ؛ وتابعه فى حركته أتباعه الذين غلّبوا اعتباره الشخصى على عقيدتهم . وبالضعف الذى كاد يدرك طائفتين صالحتين من المسلمين ، ثم انتهت بالمصير الذى انتهت إليه بسبب ذلك الخلل فى الصف والغبش فى التصور .

وقبل أن يمضى فى الاستعراض والتعقيب على أحداث المعركة التى انتهت بالهزيمة ، يذكرهم بالمعركة التى انتهت بالنصر ـ معركة بدر ـ لتكون هذه أمام تلك ، مجالاً للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج ؛ ومعرفة مواطن الضعف ومواطن القوة ، وأسباب النصر والهزيمة . ثم ـ بعد ذلك ـ ليكون اليقين من أن النصر والهزيمة كليهما قدر من أقدار الله ؛ وأن مرد الأمر فى النهاية إلى الله على كلا الحالين ، وفى جميع الأحوال » .

والنصر فى بدر كان منحة من الله تعطلت فيها الأسباب العادية وظهرت فيها آثار المعجزات ، فانتصرت قلة مسلمة فى وسط خضم من الشرك والكفر ، ولم تكن قد زالت عنهم بعد صفة أنهم مهاجرون مطاردون من مكة ، وأنصار آووا هؤلاء المهاجرين ولكنهم ما يزالون نبتة غير مستقرة فى هذه البيئة فبهذا كله يذكرهم الله ـ سبحانه ـ ويرد النصر إلى سببه الأول وسط هذه الظروف : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

واللمسة الأولى : هنا هى تذكيرهم بأن الله هو الذى نصرهم ، فإذا خافوا فليخافوا الله الذى يملك النصر والهزيمة : فلعل التقوى تقودهم إلى الشكر ، **واللمسة الثانية** : هى تبليغ الرسول المؤمنين ما وعده الله به من المدد من الملائكة وأبلغهم شرط هذا المدد . إنه الصبر والتقوى . الصبر على صدمة الهجوم والتقوى التى تربط القلوب بالله فى النصر والهزيمة ثم يبين حكمة هذا النصر .. أى نصر وغاياته التى ليس لأحد من البشر منها شىء .

ويقول صاحب الظلال : « إن النصر من عند الله . لتحقيق قدر الله . وليس للرسول ـ ﷺ ـ ولا للمجاهدين معه فى النصر من غاية ذاتية ولا نصيب شخصى . كما أنه ليس له ولهم دخل فى تحقيقه ، وإن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ما تشاء ! فلاهم أسباب هذا النصر وصانعوه ؛ ولاهم أصحاب هذا النصر ومستغلوه ! إنما هو قدر الله يتحقق بحركة رجاله ، وبالتأييد من عنده . لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده ، .. ويخبرهم أنه ليس لهم من الأمر شىء . إنما الطاعة

والوفاء والأداء هى المطلوبة من الناس ، وأما الأمر بعد ذلك فكله لله . ليس لأحد منه شىء ولا حتى لرسول الله ﷺ .

ويختم هذا التذكير ببدر بأن الله له ما فى السموات وما فى الأرض ، وهو المتصرف المطلق فى شؤون عباده ، بحكم هذه الملكية لما فى السموات والأرض وليس هنالك ظلم ولا محاباة للعباد ، فى المغفرة أو العذاب ، إنما يقضى الأمر فى هذا الشأن بالحكمة والعدل ، وبالرحمة والمغفرة فهذا شأنه ـ سبحانه ـ ؛ والباب مفتوح أمام العباد لينالوا مغفرته ورحمته ، بالعودة إليه ، ورد الأمر كله له ، وأداء الواجب المفروض وترك ما وراء ذلك لحكمته وقدره ومشيئته المطلقة من وراء الوسائل والأسباب ».

وقبل أن يدخل السياق فى صميم الاستعراض لمعركة أحد ، والتعقيبات على وقائعها وأحداثها .. يجىء الحديث عن الربا والمعاملات الربوية وعن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ، لتشير إلى خاصية من خواص هذه العقيدة وهى الوحدة والشمول فى مواجهة هذه العقيدة للكينونة البشرية ونشاطها كله ورده كله إلى محور واحد : محور العبادة والعبودية لله ، والتوجه إليه بالأمر كله ، .. ومن ثم هذا الجمع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية ؛ وبين تطهير النفوس وطهارة القلوب ، والسيطرة على الأهواء والشهوات .

فالنهى عن أكل الربا فى سياق التعقيب على المعركة الحربية أمر يبدو إذن مفهوماً فى هذا المنهج الشامل البصير .. أما التعقيب على هذا النهى بالأمر بتقوى الله رجاء الفلاح ؛ واتقاء النار التى أعدت للكافرين .. فلا يأكل الربا إنسان يتقى الله ويخاف النار التى أعدت للكافرين ولا يأكل الربا إنسان يؤمن بالله ، ويعزل نفسه من صفوف الكافرين .. والإيمان ليس كلمة تقال باللسان ؛ إنما هو اتباع للمنهج الذى جعله الله ترجمة عملية واقعية لهذا الإيمان.

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ كل أمر من الأمور يجب أن نعد له ونأخذ له بأسبابه ، بل ونخطط له مسبقاً بتحديد الهدف واختيار الوسيلة وتوضيح الجهد ورسم الموقع ومعرفة دور كل فرد وواجباته .

٢ ـ اليقين بأن الله تعالى ، سميع لكل ما يقال ، عليم بكل ما يخالج النوايا ، ومحاسب على هذا وذاك .

٣ ـ التوكل على الله من صفات المؤمنين ، ولكنه لا يعنى التواكل والتراخى ، أو الاكتفاء بالدعاء دون العمل ، وإنما يجب الأخذ بالأسباب والإعداد الجيد قبل كل عمل .

٤ ـ نصر الله للمؤمنين لا يتوقف على قدرتهم واستعدادهم فحسب ، وإنما قد يأتى النصر مع قلة العدد وضآلة العتاد ، ما دام الإيمان قوياً ، والاعتماد على الله ـ بعد الأخذ فى الأسباب ـ منهجاً فى تناول الأمور .

٥ ـ تقوى الله ، والصبر على المكاره ، سببان حيويان فى زيادة عطاء الله وإمداده ونصره .

وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴿١٣٣﴾ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴿١٣٤﴾ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴿١٣٥﴾ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴿١٣٦﴾ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴿١٣٧﴾ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴿١٣٨﴾ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴿١٣٩﴾ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴿١٤٠﴾

معانى الكلمات :

سارعو:عجلوا وبادروا . **السراء والضراء** : اليسر والعسر من الحال. **الكاظمين الغيظ** : الصابرين وقت الغضب . **فاحشة** : خطيئة كبيرة . **ظلموا أنفسهم** : فعلوا ذنباً صغيراً .

قد خلت:قد مضت . **لا تهنوا**: لا تضعفوا . **يمسسكم قرح** : يصبكم جراح وأذى . **تلك الأيام** : أوقات الغلبة . **نداولها**: نقلبها بينهم،يوم نصر ويوم هزيمة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف صفات المتقين التى حددتها الآيات .

٢ ـ أن نوضح جزاء المتقين عند الله ـ عز وجل ـ الذى أعده لهم .

٣ ـ أن نتحقق من مدى تحقق صفات المتقين فى أنفسنا .

٤ ـ أن ندرك سنن الله فى الأرض ونعتبر بها فى حياتنا .

المحتوى التربوى :

تصور الآيات سباقاً يستنفر فيه الله ـ عز وجل ـ عباده المؤمنين إلى جائزة تنال فلابد أن يسارعوا فهناك المغفرة وهناك الجنة أعدها الله للمتقين ، وأخذ يعرض فى الثمن الذى تُنال به الجائزة وهى صفات المتقين فهم ثابتون على البذل ، ماضون على النهج ، ولا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء ، فالسراء لا تبطرهم فتلهيهم ، والضراء لا تضجرهم فتنسيهم . إنها هو الشعور بالواجب فى كل حال ؛ والتحرر من الشح والحرص ؛ ومراقبة الله وتقواه وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها ، المحبة للمال بفطرتها .. ما يدفع النفس إلى الإنفاق فى كل حال ، إلا دافع أقوى من شهوة المال ، وربقة الحرص ، وثقلة الشح .. دافع التقوى . ذلك الشعور اللطيف العميق ، الذى تشف به الروح وتخلص ، وتنطلق من القيود والأغلال .

ويقول صاحب الظلال : « كذلك تعمل التقوى فى هذا الحقل ، بنفس البواعث ونفس المؤثرات . فالغيظ انفعال بشرى ، تصاحبه أو تلاحقه فورة فى الدم ، فهو إحدى دفعات التكوين

البشرى ، وإحدى ضروراته . وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى ؛ وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات .

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى . وهى وحدها لا تكفى . فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن ؛ فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ؛ ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين .. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن .. لذلك يستمر النص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم فى نفوس المتقين .. إنها العفو والسماحة والانطلاق . إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه ؛ وشواظ يلفح القلب ؛ ودخان يغشى الضمير .. فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب ، فهو الانطلاق من ذلك الوقر ، والرفرفة فى آفاق النور ، والبرد فى القلب ، والسلام فى الضمير .. والجماعة التى يحبها الله ، وتحب الله .. والتى تشيع فيها السماحة واليسر والانطلاق من الإحن والأضغان .. هى جماعة متضامنة ، وجماعة متآخية . وجماعة قوية .

وينتقل السياق إلى صفة أخرى من صفات المتقين ومعها يعرض سماحة هذا الدين ، فلا يدعوهم إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحة المولى ـ عز وجل ـ معهم ليتذوقوا ويتعلموا ويقتدوا ؛ يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : «إن المتقين فى أعلى مراتب المؤمنين ولكن سماحته ورحمته بالبشر تلك عداد المتقين « الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » .. والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها . ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها ، من رحمة الله ، ولا تجعلهم فى ذيل القافلة قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة . « مرتبة المتقين » .. على شرط واحد .. يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته .. أن يذكروا الله فسيتغفروا لذنوبهم ، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة ، وألا يتبجحوا بالمعصية فى غير تحرج ولا حياء .. وبعبارة أخرى أن يكونوا فى إطار العبودية لله ، والاستسلام له فى النهاية . فيظلوا فى كنف الله وفى محيط عفوه ورحمته وفضله .

إنه لا يُغلق فى وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة ، ولا يلقيه منبوذاً حائراً فى التيه ! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب .. إنه يطمعه فى المغفرة ، ويدله على الطريق ، ويأخذ بيده المرتعشة ويسند خطوته المتعثرة ، وينير له الطريق ، ليفيء إلى الحمى الآمن ، ويثوب إلى الكنف الأمين .

والإسلام لا يدعو ـ بهذا ـ إلى الترخص ، ولا يمجد العاثر الهابط ، ولا يهتف له بجمال المستنقع ! إنما يقيل عثرة الضعيف ، ليستجيش فى النفس الإنسانية الرجاء والحياء .. وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلا ، والرحمة بها حين التعثر ، ويفتح أمامها باب الرجاء ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها » .

وبعد ذلك يجعل جزاء هؤلاء المتقين المغفرة من ربهم ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين فهم ليسوا سلبيين بالاستغفار ، كما أنهم ليسوا سلبيين بالإنفاق فى السراء والضراء ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس ، إنما هم عاملون وتقرر الآيات الثوابت الربانية لتعالج أحداث معركة أحد فيشير إلى سنة الله الجارية فى المكذبين ، ليقول للمسلمين : إن انتصار المشركين فى هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة ، إنما هو حادث عابر ، وراءه حكمة خاصة ، ثم يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان ، فإن يكن أصابتهم جراح وآلام فقد أصاب المشركين مثلها فى المعركة ذاتها وإنما هنالك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها : حكمة تمييز الصفوف ، وتمحيص القلوب واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم ؛ وفى خلال استعراض تلك السنن تحفل الآيات بالتشجيع على الاحتمال ، والمواساة فى الشدة ، والتأسية على القرح ، الذى لم يصبهم وحدهم ، إنما أصاب أعداءهم كذلك ، وهم أعلى من أعدائهم عقيدة وهدفاً ، وأهدى منهم طريقاً ومنهجاً ، والعاقبة والدائرة على الكافرين .

يقول صاحب المنار : « أرشدهم الله ـ تعالى ـ فى الآيات السابقة إلى أنه لا ينبغى لهم أن يضعفوا أو يحزنوا ، وبين لهم حكمة ما أصابهم وأنه منطوٍ على سننه فى مداولة الأيام بين الناس وفى تمحيص أهل الحق بالشدائد ، وفى ذلك من الهداية والإرشاد والتسلية ما يربى المؤمن على الصفات التى ينال بها الغلب والسيادة بالحق .

ما ترشدنا الآيات تربويًّا :

١ ـ المؤمن ليس بمعصوم من الوقوع فى الخطأ ، ولكن النجاة من العقاب إنما تكون بالمسارعة إلى فعل الخيرات والمبادرة إليها ، وترك المعاصى واجتنابها وذكر الله مع لزوم الاستغفار .

٢ ـ لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار .

٣ ـ أن الإنسان فى هذه الحياة لا يستحق العيش إذا لم يسع ويعمل على تجنب المعاصى ويقبل على الطاعة ، إذ الحياة مزرعة الآخرة ومن خسر الباقية بالفانية فذلك هو الغبن .

٤ ـ طريق الدعوة إلى الله قلما يخلو من أخطاء السائرين فيه ؛ إذ هو طريق المتاعب والمكاره والتحدى والصراع بين الحق والباطل ، بين أولياء الله وأعدائه وأعداء منهجه ونظامه ، ومن أجل ذلك كله وجبت التوبة والاستغفار وذكر الله كثيراً .

٥ ـ أن المسلمين إذا لم يعتبروا بأحوال السابقين ، فقد تركوا هدى القرآن الكريم ، ولم يعملوا بما فيه ، وتنكبوا طريق الحق ، وخالفوا ما أمر الله به وأتوا ما نهى عنه .

٦ ـ ألا يضعف المسلم فى عبادته أو عمله أو مواجهة عدوه ؛ لأن المسلم المتمسك بدينه على الحق ـ دائماً ، ومحب للخير دائماً ومحسن فى التعامل مع غيره دائماً .

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

معانى الكلمات :

وليُمحّص : لُيصِّفى ويطهر من الذُّنُوب .

يمحق : يُهلك ويستأصل . **كتاباً مؤجلاً** : مؤقتاً بوقت معلوم . **وكأين من نبى** : كثير من الأنبياء . **ربّيُّون** : علماء فقهاء أو جموع كثيرة . **فما وهنوا** : فما عجزوا. **وما استكانوا** : ما خضعوا ، أو ذَلَّوا لعدوهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن يعرف الدعاة أهمية التمحيص والابتلاء كخط أصيل فى الدعوات .

٢ـ أن نوقن بأن الأجل بيد الله وحده ، ونستعد لما بعد الموت .

٣ـ أن نتخلق بصفات الربانيين لننال ثوابهم عند الله .

المحتوى التربوى :

يبين السياق القرآنى الحكمة من وراء تلك الأحداث .. وهى تربية الأمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى فى أن تكون أداة لسحق الكافرين وستاراً لقدرته فى هلاك المكذبين ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ والتمحيص عملية تتم فى داخل النفس وفى مكنون الضمير يُقصد منها كشف مكنون الشخصية تمهيداً لإخراج الدخل والدغل والأوشاب. وتركها نقية صافية بلا غبش ولا ضباب .

وهذا التمحيص ضرورى لكى تتم عملية الاستخلاف ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ كان يربى هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية ، فمحصها هذا التمحيص .. وهكذا يجرى الله سنته بالتمحيص لمن أراد أن يستخلفهم ليكونوا أهلاً لهذا الشرف .. ولترتفع الأمة إلى مستوى الدور المقدّر لها ، وليتحقق على يديها قدر الله الذى علقه بها ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ تحقيقاً لسنته فى دفع الباطل بالحق .

ويطرح الله سؤالًا استنكارياً يُقصد منه التنبيه إلى خطأ التصور القائل : إنه يكفى الإنسان أن يقول بلسانه : أسلمت وأنا على استعداد للموت فيكون قد أدى بها تكاليف الإيمان ، وإنما لابد من التجربة الواقعية والابتلاء العملى لُيرى من يصبر على تكاليف الإيمان .

ويقول صاحب الظلال : « فلا يكفى أن يجاهد المؤمنون .. إنما هو الصبر الدائم بالليل والنهار على تكاليف هذه الدعوة ، وربما كان الجهاد فى الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التى يطلب لها الصبر فى الطريق المحفوف بالمكاره ، طريق الجنة التى لا تُنال بالأمانى وبكلمات اللسان .

ثم يقفهم القرآن مرة أخرى أمام الموت الذى واجهوه فى المعركة وقد كانوا يتمنون لقاءه ، ليعلمهم الفرق بين وزن الكلمة ووزنها حقيقة ، ويعلمهم أن يحسبوا حساباً لكل كلمة تطلقها ألسنتهم . ويعلمهم أن بلوغ الجنة إنما هو بتحقيق الكلمة بالجهاد الحقيقى لا بالأمانى المرفرفة ، ولا بالكلمات الطائرة .

ولقد كان الله ـ سبحانه ـ قادراً على أن يمنح النصر لنبيه ولدينه بلا كد أو تعب .. ولكن المسألة ليست هى النصر .. وإنما تربية الجماعة المسلمة لتتهيأ لقيادة البشرية ، تربية راشدة ثابتة صابرة .. وهى تربية تتم بأشكال مختلفة ، بالنصر لينظر إلى زهوها وخيلائها ، وبالشدة لينظر مدى صبرها وثباتها . وكل هذه الثمرات من غزوة أحد تبقى رصيداً لكل جماعة مسلمة ولكل جيل من الأجيال حتى تقوم الساعة .

ويقول صاحب المنار : « وقال الأستاذ الإمام : إن تمنى الشهادة الذى وقع ليس تمنياً مطلقاً وإنما هو تمنى من يقاتل لنصرة الحق أن تذهب نفسه دونه ، فإذا هو وصل إلى ما ينبغى من نُصرة الحق وإعزازه بانهزام أهل الباطل وخذلانهم فبها ونعمت ، وإلا فضل الموت فى سبيل إعزاز الحق ورآه خيراً من البقاء مع إذلاله وغلبة الباطل عليه » .

وينتقل السياق ليقرر حقيقة جديدة من حقائق التصور الإسلامى الكبيرة ، لتربية الأمة المسلمة بها على المنهج القرآنى الفريد وهى : إن محمداً ليس إلا رسولاً . سبقته الرسل ، وقد مات الرسل ، ومحمد ﷺ سيموت كما مات الرسل قبله . ولقد جاء ليبلغ كلمة الله ، والله باق لا يموت ، وكلمته باقية لا تموت .. وما ينبغى أن يرتد المؤمنون على أعقابهم إذا مات النبى الذى جاء ليبلغهم هذه الكلمة أو قُتل .

قال ابن القيم فى بيان حكمة هذه الواقعة : هذه الآية كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدى موت رسول الله ﷺ ، وذكر أن توبيخ الذين ارتدوا على أعقابهم بهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبى ﷺ فقد ارتد من ارتد على عقبيه وثبت الصادقون على دينه حتى كانت العاقبة لهم » .

والدعوة أكبر من الداعية ، وأبقى ؛ لأن الدعاة إليها يجيئون ويذهبون وتبقى دعوة الإسلام على مر الأجيال والقرون ، فما يجوز لأحد أن ينقلب على عقبيه لموت محمد ﷺ ؛لأن من ينقلب على عقبيه لن يضر إلا نفسه ، ولن يضر الله شيئاً . وكأنما أراد الله أن يضع أيديهم على العروة الوثقى ثم يدعهم عليها ويمضى ﷺ وهم بها متمسكون.

ثم يلمس السياق القرآنى مكمن الخوف من الموت فى النفس البشرية لمسة موحية تطرد ذلك الخوف ، عن طريق بيان الحقيقة الثابتة فى شأن الموت والحياة ، وما بعد الحياة والموت من حكمة لله وتدبير ، ومن ابتلاء للعباد وجزاء .

ويقول صاحب الظلال : « إن لكل نفس كتاباً مؤجلاً إلى أجل مرسوم . ولن تموت نفس حتى تستوفى هذا الأجل المرسوم ، فالخوف والهلع، والحرص والتخلف ، لا تطيلُ أجلاً . والشجاعة والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمراً . فلا كان الجبن ، ولا نامت أعين الجبناء . والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد !

بذلك تستقر حقيقة الأجل فى النفس ، فتترك الاشتغال به ، ولا تجعله فى الحساب ، وهى تفكر فى الأداء والوفاء بالالتزام والتكاليف الإيمانية ، وبذلك تنطلق من عقال الشح والحرص ، كما ترتفع عن وهلة الخوف والفزع . وبذلك تستقيم على الطريق بكل تكاليفه والتزاماته ، فى صبر وطمأنينة ، وتوكل على الله الذى يملك الآجال وحده.

ثم يضرب الله للمسلمين المثل من إخوانهم المؤمنين قبلهم من موكب الإيمان اللاحب الممتد على طول الطريق ، الضارب فى جذور الزمان .. من أولئك الذين صدقوا فى إيمانهم ، وقاتلوا مع أنبيائهم فلم يجزعوا عند الابتلاء ؛ وتأدبوا ـ وهم مقدمون على الموت ـ .. فلم يزيدوا على أن يستغفروا ربهم ، وأن يجسموا أخطاءهم فيروها إسرافاً فى أمرهم وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار وبذلك نالوا ثواب الدارين ، جزاء إحسانهم فى أدب الدعاء ، وإحسانهم فى موقف الجهاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن من سنن الله تعالى فى جولات الحق والباطل أن يتخذ من المؤمنين شهداء ، وحسب الشهيد مكانة أن يغفر له ما تقدم من ذنبه .

٢ ـ أن أى مصيبة ما ـ بالغة من الفداحة ـ لا ينبغى أن تصرف المسلمين عن أهدافهم الشرعية فى الدعوة والحركة والعمل من أجل التمكين لدين الله فى الأرض ، حتى لو كانت هذه المصيبة هى موت النبى ﷺ أو قتله شهيداً !!

٣ ـ أن التراجع عن الحق أو عن المضى فى ركب الدعوة ـ لأى سبب من الأسباب التى يخافها الناس من متاعب ومحن ـ إنما هو انقلاب من الإيمان إلى الكفر . وليس ذلك من أخلاق الشاكرين .

٤ ـ لا يجوز لأحد أن يقعد عن واجب الدعوة والحركة لتمكين دين الله فى الأرض ، خشية الموت أو القتل . فذلك حمق وسفه ؛ لأن لكل أجل كتاباً .

٥ ـ الصبر فى الدعوة يعنى التخلى عن الضعف والجبن والاستكانة لعدو ، وذلك شأن أتباع الأنبياء ، وشأنهم الابتهال والمغفرة وطلب الثبات من الله أمام أعدائه .

الجزء الرابع — سورة آل عمران

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ
مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ
وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم
مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ
غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

٦٩

معانى الكلمات :

اللهُ مولاكم : الله ناصركم لا غيره .

الرُّعب : الخوف والفزع .

سُلطاناً : حجّة وبرهاناً .

مثوى للظالمين : مأواهم ومقامهم .

تحسونهم : تقتلونهُم قتلاً ذريعاً .

فشلتم : فزعتم وجبنتم عن عدوكم .

ليبتليكم : ليمتحن صبركم وثباتكم .

تصعدون : تذهبون فى الوادى هَرَباً .

ولا يَلْون : لا يقف أحدكم بصاحبه وينتظره .

فأثابكم : فجازاكم بما عصيتم .

غماً بغم : حزناً متصلاً بحزن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعلم الحكمة من تحذير الله ـ عز وجل ـ لنا من طاعة الكافرين .

٢ـ أن نحدد عوامل النصر للمؤمنين كما حددتها الآيات .

٣ـ أن نستحضر صورة وحال الإيمان المزعزع بعد هزيمة أحد .

المحتوى التربوى :

تستعرض هذه الآيات حشداً ضخماً للحقائق الكبيرة الأصلية فى التصور الإسلامى ، والسنن الكونية ، وأول هذه التصورات تحذير الله ـ عز وجل ـ للذين آمنوا من أن يطيعوا الذين كفروا . فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة وليس فيها ربح ولا منفعة ، فالمؤمن إما أن يمضى فى طريقه يجاهد الكفر والكفار ، ويكافح الباطل وأهله ، وإما أن يرتد على عقبيه كافراً ـ والعياذ بالله ـ ومحال أن يقف سلبياً بين بين ، محافظاً على موقفه ، ومحتفظا بدينه .. إنه قد يخيل إليه هذا فى أعقاب الهزيمة ، وتحت وطأة الجرح والقرح أنه مستطيع أن ينسحب من المعركة مع الأقوياء الغالبين وأن يسالمهم ويطيعهم ، وهو مع هذا محتفظ بدينه وعقيدته وإيمانه وكيانه ! وهو

وهم كبير . فالذى لا يتحرك إلى الأمام فى هذا المجال لابد أن يرتد إلى الوراء ، والذى لا تعصمه عقيدته ولا يعصمه إيمانه من طاعة الكافرين ، والاستماع إليهم والثقة بهم يتنازل ـ فى الحقيقة ـ عن عقيدته وإيمانه منذ اللحظة الأولى . إن المؤمن يجد فى عقيدته ، وفى قيادته ، غناء عن مشورة أعداء دينه وأعداء قيادته .

ومن كان الله مولاه ، فما حاجته بولاية أحد من خلقه ؟ ومن كان الله ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد . ثم يمضى السياق يثبت المؤمنين ، ويبشرهم بإلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « وهو وعد قائم فى كل معركة يلتقى فيها الكفر بالإيمان ، ولكن المهم أن توجد حقيقة الإيمان فى قلوب المؤمنين ، والتجرد من كل شائبة من شك فى أن جند الله هم الغالبون ، وأن الله غالب على أمره ، وأن الذين كفروا غير معجزين فى الأرض ولا سابقين لله ـ سبحانه !

ويقول صاحب الظلال : « إن أية فكرة ، أو عقيدة ، أو شخصية ، أو منظمة .. إنما تحيا وتعمل وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة وسلطان قاهر . هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها من « الحق » أى بمقدار ما فيها من توافق مع القاعدة التى أقام الله عليها الكون ، ومع سنن الله التى تعمل فى هذا الكون . وعندئذ يمنحها الله القوة والسلطان الحقيقيين الفاعلين المؤثرين فى هذا الوجود . وإلا فهى زائفة باطلة ضعيفة واهية ، مهما بدا فيها من قوة والتماع وانتفاش !

وينتقل السياق ليعرض وعد الله للمؤمنين فى غزوة أحد ذاتها . فقد كان لهم النصر الساحق فى أوائلها .. ولم ينقلب النصر هزيمة للمسلمين إلا حين ضعفت نفوس الرماة أمام إغراء الغنائم؛ وتنازعوا فيما بينهم ، وخالفوا عن أمر رسول الله ﷺ . ويقول صاحب المنار : « وحاصل المعنى أنه بعد أن صدقكم وعده فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حس واستئصال صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك أى ليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر ، أو لأجل أن يكون ذلك ابتلاء واختبارًا لكم يمحصكم به ويميز بين الصادقين والمنافقين ويزّيل بين الأقوياء والضعفاء ، .. وقد أسند الله ـ تعالى ـ صرف المؤمنين عن المشركين إلى نفسه هنا باعتبار غايته الحميدة فى تربيتهم وتمحيصهم الذى يعدهم للنصر الكامل والظفر الشامل فى المستقبل ، وأضاف ما أصابهم إليهم باعتبار سببه وهو ما كان منهم من الفشل والتنازع والعصيان .

ومن فضل الله عليهم أن يعفو عنهم ـ بعد كل ما حدث ـ ما داموا سائرين على منهجه ، مُقرين بعبوديتهم له .. فإذا وقعت منهم الخطيئة وقعت عن ضعف وعجز وعن طيش ودفعة .. فيتلقاهم عفو الله بعد الابتلاء والتمحيص والخلاص ، ثم يعمق مشهد الهزيمة ليثير فى النفوس الخجل والحياء من الفعل ، ومقدماته التى نشأ عنها ، من الضعف والتنازع والعصيان ، فهم

مصعدون فى الجبل هرباً ، فى اضطراب ورعب ودهش ، لا يلتفت أحد منهم إلى أحد ! ولا يجيب أحد منهم داعى أحد ! والرسول يدعوهم ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح : إن محمداً قد قتل ، وكل ذلك إنما كان بسبب مخالفة أوامر الرسول .

لذا أثابهم غما بغم : أى جازاهم بالهزيمة وتوابعها ، وهذا هو الغمُّ العظيم . يقول صاحب الأساس : فجازاكم الله بغم بعد غم ، وغم متصل بغم ، من الجُرح ، والقتل ، وظفر المشركين ، وفوت الغنيمة ، والنصر . وأعظم غم أصابهم سوء هذا كله ، ما أرجف به من قتل رسول الله ﷺ وهذا كله بسبب الصرف الذى سببه الجبن والاختلاف والعصيان بسبب عدم خلوص نية بعضهم ، إذ لم تتجرد للآخرة ، فهذه العلة الكبرى » .

ويقول صاحب الظلال : « وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذى تركوه فى نفس الرسول ﷺ بفرارهم ، غماً يملأ نفوسهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه ـ وهو ثابت دونهم ، وهم عنه فارون ـ كى لا يحفلوا شيئاً فاتهم ولا أذى أصابهم . فهذه التجربة التى مرت بهم ، وهذا الألم الذى أصاب نبيهم ـ وهو أشق عليهم من كل ما نزل بهم ـ وذلك الندم الذى ساور نفوسهم ، وذلك الغم الذى أصابهم كل ذلك سيصغر فى نفوسهم كلَّ ما يفوتهم من عرض ، وكل ما يصيبهم من مشقة ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن النصر من عند الله ، ولا يأتى إلا مع الإيمان والطاعة والصبر ، والفشل والتنازع من عوامل الهزيمة فى معركة الحق مع الباطل .

٢ ـ أن عفو الله قريب من المؤمنين إذا تابوا وأخلصوا لله نواياهم وعادوا للطاعة له ـ عز وجل ـ واتبعوا نهج الرسول ﷺ .

٣ ـ طاعة الكافرين انقلاب من الإيمان إلى الكفر ، وسبيل الهالكين ، فينبغى الحذر من الكافرين ، ولا يجوز الإنصات إلى الإشاعات التى يطلقها الكفار لتثبيط الهمم وتمزيق الصف وإضعاف المؤمنين .

٤ ـ من كان الله مولاه فلا حاجة له بولاية أحد من خلقه ، ومن كان الله ناصره فلا يخشى خذلان الناس له لأن الله معه .

الجزء الرابع — سورة آل عمران

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧)

٧٠

معانى الكلمات :

أمنة : أمناً ، وعدم خوف . **نعاساً** : سكوناً وهدوءاً . **يغشى** : يأتى (ويلابس وكأنه الغطاء) . **أهمتهم أنفسهم** : أوقعتهم فى الهموم . **لبرز** : لخرج . **مضاجعهم** : مصارعهم . **ليبتلى**: يختبر ويمتحن . **تولوا**: انهزموا . **استزلهم الشيطان** : أوقعهم فى الزلل والخطأ . **غزّى** : غزاة مجاهدين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن ليس لنا فى أنفسنا شىء فنحن ملك بالكلية لله ـ عز وجل .

٢ ـ أن نتيقن أن غلبة الباطل أحياناً ليست تخلياً من الله عن أوليائه لأعدائه ، وإنما هو الابتلاء والتمحيص لعباده المؤمنين .

٣ ـ أن نحذر من الشيطان ووساوسه ، وأن نطيع الله ورسوله فى كل أمر .

٤ ـ ألا نجزع من الشدائد ، فهى تظهر معادن الرجال ، وتمحص القلوب ، فيظهر الإنسان فيها على طبيعة معدنه .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن رحمة الله وعنايته الحانية على عباده المؤمنين عقب هول الهزيمة وذعرها ، وهرجها ومرجها ، فلقد شملهم نُعاس لطيفُ يستسلمون إليه مطمئنين ! ويُعلق صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ قائلاً : « وهى ظاهرة عجيبة تشى برحمة الله التى تحف عباده المؤمنين ، فالنعاس حين يُلم بالمجهدين المرهقين المفزعين ، ولو لحظة واحدة ، يفعل فى كيانهم فعل السحر، ويردهم خلقاً جديداً ، ويسكب فى قلوبهم الطمأنينة ، كما يسكب فى كيانهم الراحة ، بطريقة مجهولة الكنه والكيف !

روى الترمذى والنسائى والحاكم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن أبى طلحة قال : « رفعت رأسى يوم أحد ، وجعلت أنظر ، وما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت

جحفته من النعاس » ، وفى رواية أخرى عن أبى طلحة : « غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه »

أما الطائفة الأخرى ؛ فجعل منهم ذوو الإيمان الضعيف المزعزع ، الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم ، فهؤلاء لا يعرفون ولا يقدرون الله حق قدره ، فهم يظنون بالله غير الحق ، ـ كما تظن الجاهلية ـ ، وهم تصورهم أن الله مُضيعهم فى هذه المعركة ، التى ليس لهم من أمرها شىء ، وإنما دُفعوا إليها دفعاً ليموتوا ويجرحوا ، ويأتى الرد الحاسم فلا أمر لأحد . لا لهم ولا لغيرهم ، فأمر هذا الدين ، والجهاد لإقامته وتقرير نظامه فى الأرض وهداية القلوب له .. كلها من أمر الله ، وليس للبشر فيها من شىء إلا أن يؤدوا واجبهم ويفوا ببيعتهم ، ثم يكون ما يشاؤه الله كيف يكون !

ويقول صاحب المنار : « وتحرير الكلام فى هذه المسألة أنه ـ تعالى ـ بيّن لنا فى كتابه ثلاث حقائق وبيّن لنا ضلال الذين ضلوا فيها واحتجوا بواحدة على بطلان الأخرى :

(الحقيقة الأولى) : أنه تعالى هو خالق كل شىء الذى بيده ملكوت كل شىء وبمشيئته يجرى كل شىء ، فلا قاهر له على شىء وهو القاهر فوق كل شىء .

(الحقيقة الثانية) : أن خلقه وتدبيره إنما يجرى بحسب مشيئته وحكمته على سنن مطرده ومقادير معلومة .

(الحقيقة الثالثة) : أن فى جملة سننه فى خلقه وقدرته فى تدبير عباده أن الإنسان خُلق ذا علم : ومشيئة وإرادة وقدرة فيعمل بقدرته وإرادته ما يرى بحسب ما وصل إليه علمه وشعوره أنه خير له . والآيات الناطقة بأن الإنسان يعمل وبعمله تناط سعادته وشقاوته فى الدنيا والآخرة كثيرة جداً . وهو ليس فى ذلك معارضاً لمشيئة الله ولا مُزيلاً لها ، بل مشيئتة تابعة لمشيئة الله ومظهر من مظاهرها كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وقد جرت سنته بأن يشاء لنا أن نعمل عندما يترجح فى علمنا أن العمل خير من تركه وأن نترك عندما يترجح فى علمنا أن الترك خير من الفعل كما هو معلوم لكل من يعرف ما هو الإنسان » .

ثم يستطرد السياق فيكشف عن خبيئة نفوسهم ويعرض وساوسهم وظنونهم ، فنفوسهم ملأى بالوساوس والهواجس ، حافلة بالاعتراضات والاحتجاجات ، ويصوب الله لهم تصوراتهم الخاطئة لأمر الحياة والموت ، ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء ، فكما يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « ليس كالمحنة محك يكشف ما فى الصدور ، ويصهر ما فى القلوب ؛ فينفى عنها الزيف والرياء ، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء .. فهو الابتلاء والاختبار لما فى الصدور .. ، وهو التطهير والتصفية للقلوب ، فلا يبقى فيها دخل ولا زيف » .

ويحدثهم الله أن رحمته أدركتهم ، فلم يدع الشيطان ينقطع بهم ، فعفا عنهم عندما ذلوا ، ويوضح لهم زيف تصورات الكفار والمنافقين عن الموت والحياة ، منادياً الذين آمنوا بالتحذير من أن تكون تصوراتهم كتصورات هؤلاء ، ويردهم فى النهاية إلى قيم أخرى واعتبارات ترجح الآلام وتؤثر التضحيات .

والله ـ فى تربيته للجماعة المسلمة ، وفى ظلال غزوة أحد وما نال المسلمين فيها ـ يحذرهم أن يكونوا كالذين كفروا . أولئك الذين تصيبهم الحسرات ، كلما مات لهم قريب وهو يضرب فى الأرض ابتغاء الرزق ، أو قُتل فى ثنايا المعركة وهو يجاهد يقولونها لفساد تصورهم لحقيقة ما يجرى فى الكون ، ولحقيقة القوة الفاعلة فى كل ما يجرى فهم لا يرون إلا الأسباب الظاهرة والملابسات السطحية ، بسبب انقطاعهم عن الله ، وعن قدره الجارى فى الحياة .

ويقول صاحب المنار : « وقال الأستاذ الإمام : إن الحياة والممات بيد الله ـ تعالى ـ وهو مُمد الموجودات كلها بما يحفظ وجودها والعالم بحياتهم وموتهم فلا يليق بالعاقل أن يقول لمن أماته: لو كان فى مكان كذا لما مات بل كانت حياته أطول ، وهناك علة أخرى من علل النهى عن مثل ذلك القول وهى ما أفاده قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وبيان ذلك أن حظ الحى من هذه الحياة هو ما يجمعه من المال والمتاع الذى تتحقق به شهواته وحظوظه، وما يلاقيه من يقتل أو يموت فى سبيل الله من مغفرته تعالى ورحمته، فهو خير له من جميع ما يتمتع به فى هذه الدار الفانية والموت فى سبيل الله هو الموت فى أى عمل من الأعمال التى يعملها الإنسان لله ، أى سبيل البر والخير التى هدى الله الإنسان إليها ويرضاها منه ، وقد يموت الإنسان فى أثناء الحرب من التعب أو غير ذلك من الأسباب التى يأتيها المحارب فى أثنائها ؛ فيكون ذلك من الموت فى سبيل الله ـ عز وجل ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الله ـ تعالى ـ هو الذى يهب الحياة ، وهو الذى يهب الموت فليس السعى فى الأرض ، ولا الخروج فى سبيل الله هو السبب فى الموت .

٢ ـ غلبة الباطل أحياناً لا تعنى تخلى الله عن عباده المؤمنين ولكن يمحص ويبتلى لتطهر القلوب والنفوس ، لتؤهل لنصر الله .

٣ ـ قدر الله غالب على قدر البشر ، وأفعال الله لا تخلو أبداً من حكم عليا ، فيجب التسليم لله تعالى فى قدره والتأدب معها .

٤ ـ الندم يولد الحسرات ، والحسرة غم وكرب عظيمان ، والمؤمن يدفع ذلك بذكره القضاء والقدر فلا ييأس على ما فاته ولا يفرح بما آتاه من حُطام الدنيا .

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

معانى الكلمات :

فبما رحمة: فبرحمة عظيمة . **لِنتَ لَهُمْ:** سَهَّلت لهم أخلاقك ولم تعنفهم. **فظاً** : جافياً فى المعاشرة قولاً وفعلاً . **لانفضُّوا** : لتفرَّقُوا ونَفَرُوا . **فلا غالب لكم** : فلا قاهر ولا خاذل لكم . **يَغُلَّ** : يخون فى الغنيمة . **باء بسخطٍ** : رجع مُتلبساً بغضب شديد .

يزكيهم : يُطهرُهُم من أدناس الجاهلية .

أنَّى هذا : من أين لنا هذا الخذلان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم الشورى ونمارسها بضوابطها الشرعية .

٢ ـ أن نعرف أهمية الشورى وكيف طبقها النبى ﷺ فى غزوة أحد .

٣ ـ أن ندرك العلاقة بين نتائج أى معركة بين الحق والباطل والأسباب المؤدية لهذه النتائج .

٤ ـ أن نتعرف على مبدأ الغلول وموقف الإسلام منه .

٥ ـ أن نتبين القيم التى تغرسها الآيات فى نفوس المؤمنين والنتائج المترتبة عليها .

المحتوى التروى :

إن سياق الآيات يتجه هنا إلى رسول الله ﷺ وفى نفسه شىء من القوم ؛ تحمسوا للخروج ، ثم اضطربت صفوفهم ، فرجع ثلث الجيش قبل المعركة ، وخالفوا ـ بعد ذلك ـ عن أمره ، وضعفوا أمام إغراء الغنيمة ، ووهنوا أمام إشاعة مقتله ، وانقلبوا على أعقابهم منهزمين ، وأفردوه فى النفر القليل ، وتركوه يثخن بالجراح وهو صامد يدعوهم فى أخراهم ، وهم لا يلوون على أحد .. يتوجه إليه يطيب قلبه ، وإلى المسلمين يشعرهم نعمة الله عليهم به ويذكرهم رحمته بهم بأن أرسل إليهم من يلين لهم فتتجمع حوله القلوب . . ذلك ليستجيش كوامن الرحمة فى قلبه ﷺ لتغلب على ما أثاره تصرفهم فيه ؛ وليحسوا هم النعمة الإلهية بهذا النبى الرحيم ، ثم يدعوه أن يعفو عنهم ، ويستغفر لهم ، .. وأن يشاورهم فى الأمر كما كان يشاورهم ؛ غير متأثر بنتائج الموقف لإبطال هذا المبدأ الأساسى فى الحياة الإسلامية .

ويقول صاحب الظلال : « وبهذا النص الجازم . ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ .. يقرر الإسلام هذا المبدأ فى نظام الحكم ـ حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذى يتولاه . وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً فى أن الشورى مبدأ أساسى ، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه أما شكل الشورى ، والوسيلة التى يتحقق بها . فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها ... » .

ولقد أمضى الرسول ﷺ الشورى وهو يدرك ما وراءها من الآلام والخسائر والتضحيات ؛ لأن إقرار المبدأ ، وتعليم الجماعة ، وتربية الأمة ، أكبر من الخسائر الوقتية .. والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هى إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة . واختصار الأخطاء والعثرات والخسائر فى حياة الأمة ليس فيها شىء من الكسب لها ، إذا كانت النتيجة أن تظل الأمة قاصرة كالطفل تحت الوصاية . إنها فى هذه الحالة تتقى خسائر مادية وتحقق مكاسب مادية ، ولكنها تخسر نفسها ، ووجودها ، وتربيتها وتدريبها على الحياة الواقعية . كالطفل الذى يمنع من مزاولة المشى ـ مثلاً ـ لتوفير العثرات والخبطات ، أو توفير الحذاء !

والشورى لا تنتهى أبداً إلى الأرجحة والتعويق ،ولا تُغنى كذلك عن التوكل على الله فى نهاية ـ المطاف ، وفى التوكل على الله يكون إسلام النفس لقدر الله ـ على علم بمجراه واتجاهه ـ لذا أمضى ﷺ الخروج ، ودخل بيته فلبس درعه ولأمته ، وهو يعلم إلى أين هو ماض ، وما الذى ينتظره وينتظر الصحابة معه من آلام وتضحيات ؛ لأنه أراد أن يعلمهم الدرس كله ـ درس الشورى ، ثم العزم والمضى مع التوكل على الله والاستسلام لقدره ، ويعلمهم أن للشورى وقتها ، ولا مجال بعدها للتردد والتأرجح ومعاودة تقليب الرأى من جديد فهذا مآله الشلل والسلبية والتأرجح الذى لا ينتهى .. إنما هو رأى وشورى ، وعزم ومضاء وتوكل على الله ، يحبه الله .

ويقول صاحب الظلال: « ولتقرير حقيقة التوكل على الله يمضى السياق فيقرر أن القوة الفاعلة فى النصر والخذلان هى قوة الله، فعندها يلتمس النصر، ومنها تُتقى الهزيمة ، وإليها يكون التوجه، وعليها يكون التوكل ، بعد اتخاذ العدة ، ونفض الأيدى من العواقب ، وتعليقها بقدر الله .

إن التصور الإسلامى يتسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله ـ سبحانه ـ وتحقق هذا القدر فى الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله .. إن سنة الله تجرى بترتيب النتائج على الأسباب . ولكن الأسباب ليست هى التى « تنشئ » النتائج فالفاعل المؤثر هو الله . والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته.. ومن ثم يطلب من الإنسان أن يؤدى واجبه ، وأن يبذل جهده ، وأن يفى بالتزاماته . وبقدر ما يوفى بذلك كله يرتب الله النتائج

ويحققها .. وهكذا تظل النتائج والعواقب متعلقة بمشيئة الله وقدره . هو وحده الذى يأذن لها بالوجود حين يشاء ، وكيفما يشاء .

ثم يعود السياق للحديث عن خصائص النبوة توجيها للأمانة ، ونهياً عن الغلول ، وتذكيراً بالحساب فينفى بحكم عام عن الأنبياء عامة إمكان أن يغلوا .. أى يحتجزوا شيئاً من الأموال والغنائم أو يقسموا لبعض الجند دون بعض ، أو يخونوا إجمالاً فى شىء ، ثم يهدد الذين يغلون ، ويخفون من المال العام أو من الغنائم ، ثم يستطرد السياق ـ فى معرض الحديث عن الغنائم والغلول ـ يوازن بين القيم الحقيقية التى يليق أن يلتفت إليها القلب المؤمن ، وأن يُشغل بها . فشتان بين من يتبع رضوان الله ويفوز به، ومن يعود وفى وطابه سخط الله! يذهب به إلى جهنم .. وبئس المصير !

ثم يختم الفقرة بالرجوع إلى المحور الأصيل : شخص الرسول ورسالته وعظم المنّة بها على المؤمنين ، إنها المنَّة العظمى أن بعث الله فيهم رسولاً ويكون هذا الرسول ﴿من أنفسهم﴾ .. إنها العناية من الله الجليل وتتجلى هذه المنّة فى أكبر مجاليها ، فى تكريم الله لهم بإرساله ﷺ يخاطبهم بكلام الله الجليل ويطهرهم ويرفعهم وينقيهم ، ويرفعهم فوق مستوى البشرية إلى مرتبة الأستاذية والحكمة ـ لإنقاذ البشرية مرة أخرى من المستنقع الآسن التى دلفت إليه . فقد كانت قبل الإسلام فى ضلال فى التصور والاعتقاد ، ومفهومات الحياة ، والغاية والاتجاه ، وضلال فى العادات والسلوك حتى جاء الإسلام فهداها إلى التصور الصحيح للحياة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن الشورى إنما تكون فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة ، وأن الأخذ بها واجب ، وأن التوكل على الله والأخذ بما تُفضى إليه الشورى هو الأصل ، مع العزم والتوكل على الله تعالى .

٢ ـ النصر بيد الله ـ سبحانه ـ لا يعطيه إلا لمن يستحقه ، وأن من حُرم هذا النصر فلن ينصره أحد وإن كانت معه كل الأسباب .

٣ ـ لا يفقد أهلية الشورى من استشير فأخطأ المشورة .

٤ ـ أن عدالة الله مطلقة وأن حسابه لعباده على أخطائهم يستوى فيه الناس جميعاً إذ يحاسب كلاً بما عمل ، حتى لو كان نبياً من أنبيائه ـ إن جاز عليهم الخطأ ـ ولكنه ـ سبحانه ـ ما أرسل من رسول إلا حال بينه وبين الخيانة والغدر والغلول وكل ما لا يليق بالنبوة .

٥ ـ الفرق بين الإيمان والكفر ، والهدى والضلال واضح لكل ذى بصر ؛ لأن الحصول على رضا الله ـ تعالى ـ وجنته لابد أن يسبقه إيمان وهدى ، والوقوع فى سخط الله وناره لابد أن يسبقه كفر وضلال .

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين (١٦٦) وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون (١٦٧) الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين (١٦٨) ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون (١٦٩) فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٧٠) ۞ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين (١٧١) الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم (١٧٢) الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١٧٣)

الحزب ٨

٧٢

معانى الكلمات :

الجمعان: المؤمنون والمشركون فى غزوة أحد

ادفعوا : قاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم .

فادرؤوا : فادفعوا .

أصابهم القَرحُ : نالتهم الجراح يوم أحد .

فاخشوهم : فخافوهم .

نعم الوكيل : أى نعم من نتوكل عليه الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف حكمة الله وإرادته من حدوث نتائج غزوة أحد .

٢ ـ أن نتبين موقف المنافقين فى المعركة وفضح الله لنواياهم .

٣ ـ أن نتعرف على مصير الشهداء من الآيات .

٤ ـ أن نوضح وصف الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين المجاهدين بعد أحد .

المحتوى التربوى :

تستمر هذه الآيات فى معالجة غزوة أحد ويخاطب الجماعة المسلمة بكل وضوح وصرامة ؛ ويرد على تساؤلها ودهشتها مما وقع ؛ ويكشف عن السبب القريب من أفعالها ؛ كما يكشف عن الحكمة البعيدة من قدره ـ سبحانه ـ يواجه المنافقين بحقيقة الموت ، التى لا يُعصم منها حذر ولا قعود ، فالمسلمون الذين أصيبوا فى أحد بما أصيبوا ؛ والذين فقدوا سبعين من شهدائهم غير الجراح والآلام التى عانوها فى هذا اليوم المرير ؛ والذين عز عليهم أن يصيبهم ما أصابهم وهم المسلمون ، وهم يجاهدون فى سبيل الله ، وأعداؤهم هم المشركون أعداء الله .. كان قد سبق لهم أن أصابوا مثليها يوم بدر فقتلوا سبعين من صناديد قريش ، وأصابوا مثلها يوم أحد فى مطلع المعركة حينما كانوا مستقيمين على أمر الله وأمر رسولهﷺ ، وقبل أن يضعفوا أمام إغراء الغنائم ، وقبل أن تهجس فى أنفسهم الخواطر التى لا ينبغى أن تهجس فى ضمائرهم !

يذكرهم الله بهذا كله ، فيرجع ما حدث لهم إلى سببه المباشر القريب ؛ ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ التى تخلخلت وفشلت وتنازعت فى الأمر ، وأخلت بشرط الله ورسوله ﷺ ، وعصت الرسول وأوامره بشأن القتال . فجرت عليهم سنه الله وقدره فلم يقع ما وقع مصادفة ولا جزافاً . فكل حركة محسوب حسابها فى الكون ومقدر لها علتها ونتائجها المترتبة عليها .

ثم يكشف الذين نافقوا ، ويخبرهم بحقيقة موقفهم فقد كان فى قلوبهم النفاق ، وجعلوا اعتباراتهم وذواتهم فوق اعتبارات العقيدة وهذا ما جعلهم يرجعون يوم أحد ؛ ولم يكتفوا بذلك التخلف وهذه الخلخلة ـ بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة فى قلوب أهل الشهداء وأصحابهم بعد المعركة ، ويجعلون من تخلفهم حكمة ومصلحة ، ويجعلون من طاعة الرسول واتباعه مغرماً ومضرة ، ومن ثم يبادرهم بالرد الحاسم الناصع الذى يرد كيدهم من ناحية ، ويصحح التصور الإسلامى ويجلو عنه الغبش ، فالموت يصيب المجاهد والقاعد ، والشجاع والجبان . ولا يرده حرص ولا حذر . ولا يؤجله جبن ولا قعود وهذا هو الواقع والبرهان الذى لا يقبل المراء .

وبعد أن جلَّى الله فى قلوب المؤمنين حقيقة القدر والأجل ، وتحدى ما يبثه المنافقون من شكوك وبلبلة وحسرات ، أخذ يكشف لهم عن مصير الشهداء ، **ويقول صاحب الظلال** : « شاء الله بعد أن أراح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتة .. أن يزيد هذه القلوب طمأنينة وراحة . فكشف لها عن مصير الشهداء : الذين قتلوا فى سبيل الله ـ وليس هنالك شهداء إلا الذين يقتلون فى سبيل الله خالصة قلوبهم لهذا المعنى ، مجردة من كل ملابسة أخرى ، فإذا هؤلاء الشهداء أحياء ، لهم كل خصائص الأحياء . فهم يرزقون عند ربهم وهم فرحون بما آتاهم الله من فضله . وهم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المؤمنين . وهم يحفلون الأحداث التى تمر بمن خلفهم من إخوانهم ...

فهم مشغولون بمن وراءهم من إخوانهم ؛ وهم مستبشرون لهم ؛ لما علموه من رضا الله عن المؤمنين المجاهدين، إنهم لم ينفصلوا عن إخوانهم ولم تنقطع بهم صلاتهم . إنهم « أحياء» كذلك معهم . مستبشرون بما لهم فى الدنيا والآخرة » .

وبعد تقرير هذه الحقيقة الكبيرة يتحدث عن المؤمنين « الذين يستبشر الشهداء فى الموقعة بما هو مدخر لهم عند ربهم ، فيعين من هم ؛ ويحدد خصائصهم وصفاتهم وقصتهم مع ربهم : إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول إلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة وهم مثخنون بالجراح . وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس فى المعركة ، وهم لم ينسوا بعد مرارة الهزيمة، وشدة الكرب ، ولكن رسول الله ﷺ دعاهم وحدهم. ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج

معهم ـ ليقويهم ويكثر عددهم ـ فاستجابوا لدعوة الرسول وهى دعوة ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « لقد دعاهم رسول الله ﷺ ـ ودعاهم وحدهم ـ وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل إيحاءات شتى نشير إلى شىء منها :

لعل رسول الله ﷺ ـ شاء أن يشعر المسلمين ، وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم ، بقيام هذه الحقيقة التى وجدت فى الأرض .. حقيقة أن هناك عقيدة هى كل شىء فى نفوس أصحابها . ليس لهم من أرب فى الدنيا غيرها ، وليس لهم من غاية فى حياتهم سواها..

ويقول صاحب المنار ـ تعليقاً على قوله : ﴿ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ « ثم إن فائدة الإيمان إنما تكون بإذعان النفس الذى يحرك فيها الخوف والرجاء وغيرهما من وجدانات الدين التى يترتب عليها ترك المنكر المنهى عنه وفعل المعروف المأمور به ، ولولا ذلك لم يكن للدين فائدة فى إصلاح حال البشر » .

وعبروا عن هذا الإيمان بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ ؛ **قال صاحب المنار :** « أى وقالوا معبرين عن إيمانهم : حسبنا الله أى هو كافينا ما يهمنا من أمر الذين جمعوا لنا ، .. ونعم الوكيل الذى توكل إليه الأمور ، فإنه لا يعجزه أن ينصرنا عليهم ، على قلتنا وكثرتهم ، أو يلقى الرعب فى قلوبهم ، ويكفينا شر بغيهم وكيدهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الدعاة فى كل مكان معرضون ـ دائماً ـ للبلاء والمحن ، وتلك سنة الله فى الدعاة إلى الحق فى كل زمان ومكان ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، فلا غرابة ولا دهشة فى ذلك .

٢ ـ من أدب الابتلاء الصبر على المكاره ، والثبات على المبدأ ، وتحمل العنت والمشقة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

٣ ـ عصيان القائد من شأنه أن يُخلى بين المسلمين وبين عدوهم دون عون من الله ومدد ، وتلك سنة الله فى المجاهدين فى سبيله . فهو يقضى بالهزيمة ليتعلم المسلمون الطاعة كما حدث فى غزوة أحد .

٤ ـ ما يلقاه الشهداء عند ربهم من تكريم يجعلهم فى فرح وسرور بما هم فيه ، مستبشرين بإخوان لهم لم يلحقوا بهم بعد ، ولكنهم يحاولون لينالوا من الكرامة والتكريم عند الله ما ناله من سبقوهم .

فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟
رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾
وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ
شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟
ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ
أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ
عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا
يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا
لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

معانى الكلمات :

انقلبوا : رجعوا . **بنعمة من الله** : هى السلامة وحذر العدو منهم . **أولياءه** : من يتبعونه . **حظاً فى الآخرة** : نصيباً من الثواب . **نملى لهم** : أن إمهالنا لهم مع كفرهم . **ليذر** : ليترك . **يجتبى** : يصطفى ويختار . **سيطوقون** : سيجعل طوقاً فى رقابهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يدرك المؤمن فضل الله عليه فى الشدة والرخاء فكلاهما فضل من الله.

٢ ـ أن يعتقد المسلم أن جولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة .

٣ ـ أن يعلم الدعاة إلى الله أن الابتلاء خط أصيل فى الدعوات .

٤ ـ أن يحذر الدعاة عاقبة البخل بالأموال والأوقات والطاقات فى سبيل الله .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يسجل الله فى كتابه الخالد صورة رائعة لموقف كريم للفئة المؤمنة التى أصابت النجاة والرضا ـ فلم يمسسهم سوء ـ ونالوا رضوان الله ، فتجربة أحد فعلت فعلها فى النفوس فأطارت الغبش ، وأيقظت القلب ، وثبتت الأقدام ، وملأت النفوس بالعزم واليقين ، ويكشف الله لهم بعد ذلك عن علة الخوف والفزع والجزع .. إنه الشيطان يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب ، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة .. ومن ثم ينبغى أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان ، وأن يبطلوا محاولته . فلايخافوا أولياءه هؤلاء ولا يخشوهم . بل يخافوا الله وحده . فهو وحده القوى القاهر القادر ، الذى ينبغى أن يخاف .

ويقول صاحب الظلال : « والشيطان ماكر خادع غادر ، يختفى وراء أوليائه ، وينشر الخوف منهم فى صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته .. ومن هنا يكشفه الله . ويُعَرِّف المؤمنين الحقيقة ـ حقيقة مكره ووسوسته ـ ليكونوا منها على حذر . فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم . إن

القوة الوحيدة التى تخشى وتخاف هى القوة التى تملك النفع والضر، هى قوة الله . وهى القوة التى يخشاها المؤمنون بالله وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء . فلا تقف لهم قوة فى الأرض .. لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان .

ويأتى الختام المناسب للغزوة التى أصيب فيها المسلمون هذه الإصابة ؛ والتى رجع منها المشركون بالنصر والغلبة .. فهناك دائماً تلك الشبهة الكاذبة التى تحيك فى بعض الصدور أو الأمنية العاتبة : لماذا يارب ؟ لماذا يُصاب الحق وينجو الباطل ، لماذا يبتلى أهل الحق وينجو أهل الباطل ؟ ولماذا لا ينتصر الحق كلما التقى مع الباطل ، أليس الحق هو الذى ينبغى أن ينتصر ؟ وفيم تكون للباطل هذه الصولة ؟ وفيها فتنه للقلوب وهزة ؟!

ولقد وقع بالفعل أن قال المسلمون يوم أحد فى دهشة واستغراب : ﴿أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾ ؟! فيأتى الرد أن ذهاب الباطل ناجياً فى معركة ما ، وبقاءه منتفشاً فترة من الزمان ، ليس معناه أن الله تاركه ، أو أنه من القوة بحيث لا يُغلب ، وذهاب الحق مبتلى فى معركة من المعارك ، وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان ، ليس معناه أن الله مجافيه أو ناسيه ! أو أنه متروك للباطل يقتله ويرديه ..

كلا : إنما هى حكمة وتدبير .. هنا وهناك .. يُملى للباطل ليمضى إلى نهاية الطريق ؛ وليرتكب أبشع الآثام ، وليحمل أثقل الأوزار ، ولينال أشد العذاب باستحقاق ! ويبتلى الحق ؛ ليميز الخبيث من الطيب ، ويعظم الأجر لمن يمضى مع الابتلاء ويثبت .. فهو الكسب للحق والخسار للباطل ، مضاعفاً هذا وذاك ! هنا وهناك !

وبعد هذا البيان الواضح فى شأن تصارع الحق والباطل والإملاء للكافرين ليزدادوا إثماً يتكشف أن الابتلاء من الله نعمة كما يقول صاحب الظلال : « وهكذا يتكشف أن الابتلاء نعمة من الله لا تصيب إلا من يريد له الله به الخير. فإذا أصابت أولياءه ، فإنما تصيبهم لخير يريده الله لهم ـ ولو وقع الابتلاء مترتباً على تصرفات هؤلاء الأولياء ـ فهناك الحكمة المغيبة والتدبير اللطيف ، وفضل الله على أوليائه المؤمنين .

ويقطع النص القرآنى بأنه ليس من شأن الله ـ سبحانه ـ وليس من مقتضى ألوهيته ، وليس من فعل سنته ، أن يدع الصف المسلم مختلطاً غير مميز ؛ يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان ، ومظهر الإسلام ، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان ، ومن روح الإسلام فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدى دوراً كونياً كبيراً ، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً ولتنشئ واقعاً فريداً ، ونظاماً جديداً .. وهذا الدور الكبير يقتضى التجرد والصفاء والتميز والتماسك ، ويقتضى ألا يكون فى الصف خلل ولا فى بنائه دخل ، .. وكل ذلك يقتضى أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث . وأن يُضغط

لتتهاوى اللبنات الضعيفة . وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر .. ومن ثم كان شأن الله ـ سبحانه ـ أن يميز الخبيث من الطيب ، ولم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة !

كذلك ما كان من شأن الله ـ سبحانه ـ ولا من مقتضى حكمته ، أن يطلع البشر على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، عن طريق الرسالة ، وعن طريق الإيمان بها أو الكفر ، وعن طريق جهاد الرسل فى تحقيق مقتضى الرسالة ، وعن طريق الابتلاء لأصحابهم فى طريق الجهاد .. عن طريق هذا كله يتم شأن الله ،وتتحقق سنته ويميز الله الخبيث من الطيب، ويمحص القلوب، ويطهر النفوس ، ويكون من قدر الله ما يكون .

ويمضى السياق القرآنى يرسى حقائق وتصورات هذا الدين فيقرر بطلان الحسبان الكاذب لليهود الذين بخلوا بالوفاء بتعهداتهم ، وغيرهم ممن يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، ويحسبون أن هذا البخل خير لهم ، يحفظ لهم أموالهم ، بل هو شر مستطير ، سيذهبون ويتركونه وراءهم ، فالله هو الوارث : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهذا الكنز إلى أمد قصير .. ثم يعود كله إلى الله . ولا يبقى لهم منه إلا القدر الذى أنفقوه ابتغاء مرضاته فيبقى مدخراً لهم عنده ، بدلاً من أن يطوقهم إياه يوم القيامة !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المعركة بين الحق والباطل معركة أزلية وسجال . والمؤمنون مطالبون فيها بالثبات على العقيدة والصبر على البلاء ، وبتقوى الله ـ عز وجل ـ فى الأقوال والأفعال ، ويأخذ الحذر ـ دائماً من أعدائهم ، وأعداء دينهم .

٢ ـ الرضا بالكفر خسارة فى الدنيا والآخرة ، وانخداع الكفار بإمهال الله لهم وصبره عليهم غفلة وضلال .

٣ ـ الشدائد تميز بين صاحب الإيمان القوى وغيره ، فهى التى ترفع ضعيف العزيمة إلى مرتبة قوة العزم ، وتزيد المؤمنين إيماناً ، وتوثق صلة المؤمن بربه ، إذ يلجأ إليه فى الشدة كما يلجأ إليه فى الرخاء .

٤ ـ المال على وجه الحقيقة لله عز وجل ، وعارية مستردة ، ومن الحمق والغفلة أن يبخل الإنسان بما ليس ملكه ؛ لأن عاقبة ذلك الخسران فى الدنيا والآخرة .

لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾
فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ
وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ
عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ
إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ
وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

معانى الكلمات :

عهد إلينا : أوصانا وأمرنا . **بقربان** : ما يتقرب به إلى الله ـ تعالى ـ من الخير .

البينات : الآيات الواضحات . **زحزح** : أبعد ونحى عنها . **فاز** : نال ما يرجو ونجا مما يخاف . **الغرور** : الخداع .

لتبلون : لتمتحنن . **عزم الأمور** : صواب التدبير والرأى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن يعلم المسلم أن الدنيا دار عمل لا دار جزاء .

٢ـ أن يعلم حقيقة هذه الدنيا وأنها متاع .

٣ ـ أن يعلم الدعاة إلى الله الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها الداعى إلى الله أثناء المحنة والبلاء .

٤ ـ أن يوقن أصحاب الدعوات بأن الابتلاء سنة الله فى الدعوات .

المحتوى التربوى :

يندد الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الآيات باليهود الذين ساء تصورهم للحقيقة الإلهية فى كتبهم المحرفة ، وبلغوا مبلغاً عظيماً من سوء التصور وسوء الأدب معاً فقالوا : الله فقير ونحن أغنياء ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ فما هو بمتروك ولا منسية هذه الوقاحة وهذا التطاول ـ فلقد سجل تاريخ بنى إسرائيل سلسلة أثيمة فى قتل الأنبياء ، آخرها محاولتهم قتل المسيح عليه السلام ، وهم يزعمون أنهم قتلوه ، متباهين بهذا الجُرم العظيم .. !

فلا جزاء لهم إلا الحريق لبشاعة جرمهم وفظاعة مآلهم ، ورغبة من الله أن يحسم مشهد العذاب الذى سينالهم بهوله وتأججه وضرامه ، جزاء على الفعلة الشنيعة : وهى قتل الأنبياء بغير حق ، وجزاء قولهم الكاذب : إنّ الله فقير ونحن أغنياء .

ويلتفت السياق إلى الرسول ﷺ مُسلياً مواسياً ، مهوناً عليه ما يلقاه منهم ، وهو ما لقيه إخوانه الكرام من الرسل على مر العصور من قبله ، فما هو أول رسول يتلقى بالتكذيب ، فكم

كذب بنو إسرائيل من رسول جاءهم بالبينات والخوارق . والكتاب المنير كالتوراة والإنجيل . . فهذا هو طريق الرسل والرسالات، وما فيه من عناء ومشقة . هو وحده الطريق .

بعد ذلك يتجه السياق إلى الجماعة المسلمة ؛ يحدثها عن القيم التى ينبغى أن تحرص عليها ، وتُضحى من أجلها ، ويحدثها عن أشواك الطريق ومتاعبها وآلامها ، ويهيب بها إلى الصبر والتقوى والعزم والاحتمال ، ويغرس فيها حقيقة أن الحياة فى هذه الأرض موقوتة ، وفى ذلك **يقول صاحب الظلال** : « إنه لابد من استقرار هذه الحقيقة فى النفس ؛ حقيقة أن الحياة فى هذه الأرض موقوتة ، محدودة بأجل ؛ ثم تأتى نهايتها حتماً .. يموت الصالحون ويموت الطالحون . يموت المجاهدون ويموت القاعدون . يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد . يموت الشجعان الذين يأبون الضيم ، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأى ثمن .. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية ، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص .

الكل يموت .. ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ كل نفس تذوق هذه الجرعة ، وتفارق هذه الحياة .. لا فارق بين نفس ونفس فى تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع .. إنما الفارق فى شيء آخر . الفارق قيمة أخرى . الفارق المصير الأخير . ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ .

هذه هى القيمة التى يكون فيها الافتراق . وهذا هو المصير الذى يفترق فيه فلان عن فلان : القيمة الباقية التى تستحق السعى والكد . والمصير المخوف الذى يستحق أن يُحسب له ألف حساب » .

وتأتى الحقيقة الكبرى الأخرى ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .. نعم فهى متاع ولكن ليس متاع الحقيقة ، ولا متاع الصحو واليقظة .. إنها متاع الغرور الذى يخدع الإنسان ، وبعد تأكيد هذه الحقيقة ينساب السياق بحقيقة تقر سنة فى العقائد والدعوات ، وهى لابد من بلاء ، ولابد من أذى فى الأموال والأنفس ، ولابد من صبر ومقاومة واعتزام .. إنه الطريق إلى الجنة . وقد حفت الجنة بالمكاره ، بينما حُفت النار بالشهوات .

ويقول صاحب الظلال : « إنه هو الطريق الذى لا طريق غيره ، لإنشاء الجماعة التى تحمل الدعوة ، وتنهض بتكاليفها ، طريق التربية لهذه الجماعة وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال . وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف ؛ والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة . ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عُوداً ، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصبر عليها .. فهم عليها مؤتمنون . وذلك لكى تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو ، بقدر ما يصيبهم فى سبيلها من عنت وبلاء ، وبقدر ما يضحون فى سبيلها من عزيز وغال . فلا يفرطوا فيها بعد ذلك . مهما تكن الأحوال .

وذلك لكى يصلب عود الدعوة والدعاة . فالمقاومة هى التى تستثير القوى الكامنة ، وتنميها وتجمعها وتوجهها والدعوة الجديدة فى حاجة إلى استثارة هذه القوة ، لتتأصل جذورها وتتعمق ؛ وتتصل بالتربة الخصبة الغنية فى أعماق الفطرة » .

وذلك لكى يعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم ؛ ويزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية ويعرفون حقيقة النفس البشرية وخباياها ، وحقيقة الجماعات والمجتمعات وهم يرون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم ، مع الشهوات فى أنفسهم وفى أنفس الناس . ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس ، ومزالق الطريق ، ومسارب الضلال !

ثم .. لكى يشعر المعارضون لها فى النهاية أنه لابد فيها من خير ، ولابد فيها من سر ، يجعل أصحابها يلاقون فى سبيلها ما يلاقون وهم صامدون فعندئذ ينقلب المعارضون لها إليها أفواجاً .. فى نهاية المطاف ! إنها سنة الدعوات . وما يصبر على ما فيها من مشقة ؛ ويحافظ فى ثنايا الصراع المرير على تقوى الله ، فلا يشط فيعتدى وهو يرد الاعتداء ؛ ولا ييأس من رحمة الله ويقطع أمله فى نصره وهو يعانى الشدائد .. ما يصبر على ذلك كله إلا أولو العزم الأقوياء .

يقول صاحب الأساس : « هناك ناس يبخلون ، فما السر فى بخلهم : إن السر فى بخلهم اعتقاد فاسد ، ونسيان للموت ، فهو يعتقدون أن الله هو المكلف برزق الفقراء ، وذلك أثر عن عدم الإيمان بالرسل ... ثم إن من أسباب البخل نسيان الموت ، ونسيان الحساب والجنة والنار ؛ لذلك جاء فى السياق كلام عن ذلك ، وبسبب من هذا فالبخلاء يشكلون كتلة اقتصادية تستند إلى أرضية اعتقادية ، وهم كتلة فى مقابل الكتلة الإيمانية ، والصراع بين الكتلتين سيترتب عليه ابتلاء وإيذاء لأهل الإيمان ، ومن ثم جاء كلام عن ذلك ، وكأصل لعلة البخل ، وكأصل لتكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ليست الدار الدنيا بدار جزاء وإنما هى دار عمل .

٢ ـ الفوز الحقيقى هو الزحزحة عن النار ودخول الجنة .

٣ ـ الدنيا متاع خادع لا يلبث أن يتلاشى ويزول فلا ينخدع بها إلا غافل .

٤ ـ الابتلاء سنة الله فى العقائد والدعوات ، وعلاجه الصبر والتقوى وتمام الإيمان .

٥ ـ الابتلاء ينضج الإيمان ويقوى العزم ، ويمنح الفرصة لإرضاء الله تبارك وتعالى .

٦ ـ الدعوة إلى الله والعمل من أجل تمكين دين الله فى الأرض شرف يوليه الله لمن اصطفى من عباده ، فمن أولاه الله هذا الشرف فإن عليه أن يكون أهلا له ، وأن يجاهد فى سبيل الله حتى يأتيه أجله محتسباً عند الله ما يلقى فى سبيله .

الجزء الرابع — سورة آل عمران

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ
لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

٧٥

معانى الكلمات :

فنبذوه : طرحوه ولم يراعوه .

بمفازة : بفوز ومنجاة . **أولى الألباب** : أصحاب العقول السليمة . **باطلاً** : عبثاً . **سبحانك** : ننزهك عن كل نقص .

أخزيته : فضحته . **كفر عنا سيئاتنا** : أزل عنا صغائر ذنوبنا . **توفنا** : أمتنا . **مع الأبرار** : مع الصالحين .

على رسلك : على ألسنة رسلك .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحذر أن نخالف عهدنا مع الله كما فعل أهل الكتاب .

٢ ـ أن نتعرف على خصائص وسمات أولى الألباب .

٣ ـ أن نربط بين التفكر فى كتاب الله المنظور وبين الإيمان .

٤ ـ أن نحرص على هذه الأذكار ونرطب بها ألسنتنا .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يفضح الله عز وجل موقف أهل الكتاب فى مخالفتهم عن عهد الله معهم يوم آتاهم الكتاب ونبذهم له . وكتمانهم لما ائتمنهم عليه منه ، حين يُسألون عنه .

قال الزمخشرى : « كفى بهذه الآية دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس ، وما علموه وأن لا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطييب لنفوسهم ، واستجلاب لمسارهم ، أو لجر منفعة وحطام الدنيا ، أو لتقية مما لا دليل عليه ولا أمارة ، أو لبخل بالعلم ، وغيره أن ينسب إليه غيرهم » .

ثم تعرض الآيات نموذجًا لأولئك الرجال الذين يعجزون عن احتمال تبعة الرأى ، وتكاليف الدعوة والعقيدة ، فيقعدون متخلفين عن الكفاح . فإن غُلب المكافحون وهزموا رفعوا رؤوسهم وشمخوا بأنوفهم، ونسبوا إلى أنفسهم التعقل والحصافة والأناة .. أما إذا انتصر

المكافحون وغنموا ، فإن أصحابنا هؤلاء يتظاهرون بأنهم كانوا من مؤيدى خطتهم ؛ وينتحلون لأنفسهم يداً فى النصر ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا !

ويقول صاحب الظلال : « إنه نموذج من نماذج البشرية يقتات الجبن والادعاء نموذج يرسمه التعبير القرآنى فى لمسة أو لمستين .فإذا ملامحه واضحة للعيان ، وسماته خالدة فى الزمان .. وتلك طريقة القرآن .

هؤلاء الناس يؤكد الله للرسول ﷺ ـ أنهم لا نجاة لهم من العذاب وأن الذى ينتظرهم عذاب أليم لا مفر منه ولا معين ، والذى يتوعدهم به هو الله . مالك السموات والأرض . القادر على كل شىء . فأين المفازة إذن ؟ وكيف النجاة .

وتطرح الآيات إحدى ركائز التصور الإسلامى للوجود ، وهى علاقة التناسق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان، ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة ، وعلى الناموس الذى يصرفه وما يصاحبه من غاية وحكمة وقصد من جهة أخرى . والقرآن يوجه القلوب والأنظار إلى صفحات هذا الكون المنظور لاستقبال آيات الله الكونية ، ويقرن ابتداء بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته ، وبين التفكر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار .. فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة ، ويجعله جانبا من مشهد الذكر ، فيوحى بهذا الجمع بين الحركتين بحقيقتين مهمتين كما **يقول صاحب الظلال** :

« **الحقيقة الأولى**: إن التفكر فى خلق الله ، والتدبر فى كتاب الكون المفتوح ، وتتبع يد الله المبدعة، وهى تحرك هذا الكون . وتقلب صفحات هذا الكتاب ، هو عبادة لله من صميم العبادة وذكر لله من صميم الذكر . ولو اتصلت العلوم الكونية ، التى تبحث فى تصميم الكون ، وفى نواميسه وسننه ، وفى قواه ومدخراته ، وفى أسراره وطاقاته .. لو اتصلت هذه العلوم بتذكر خالق هذا الكون وذكره ، والشعور بجلاله وفضله ، لتحولت من فورها إلى عبادة لخالق هذا الكون وصلاة . ولاستقامت الحياة ـ بهذه العلوم . واتجهت إلى الله .

الحقيقة الثانية : إن آيات الله فى الكون ، لا تتجلى على حقيقتها الموحية ، إلا للقلوب الذاكرة العابدة . وإن هؤلاء الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ـ وهم يتفكرون فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ـ هم الذين تتفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وهم الذين يتصلون من ورائها بالمنهج الإلهى الموصل إلى النجاة والخير والصلاح . فهما أمران متلازمان ، تعرضهما هذه الصورة التى يرسمها القرآن لأولى الألباب فى لحظة الاستقبال والاستجابة والاتصال »

ونتيجة هذا التفكر فى خلق السموات والأرض تأتى اللمسة الأولى لقلوب أولى الألباب فتنطلق ألسنتهم بتسبيح الله وتنزيهه عن أن يخلق هذا الكون باطلاً ، ويدركون أنه حق فى قوامه ،

وقانونه ، ويعلمون أن هناك تقديراً وتدبيراً ، وأن هناك حكمة وغاية ، وأن هناك حقاً وعدلاً وراء الحياة ، ولابد إذن من حساب ومن جزاء على ما يقدم الناس من أعمال . ولابد من دار غير هذه الدار يتحقق فيها الحق والعدل والجزاء فيدعون هذا الدعاء الخائف الواجف من النار ؟ ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ .

وهذا الدعاء يوضح أن خوفهم من النار ، إنما هو خوف ـ قبل كل شيء ـ من الخزى الذى يصيب أهل النار ، ورجفة الحياء من الخزى الذى ينال أهل النار ، فهى ارتجافة باعثها الأكبر الحياء من الله ، وتشى بالشعور القوى بأنه لا ناصر من الله ، وأن الظالمين مالهم من أنصار ، ثم نمضى مع هذا الدعاء الخاشع الجميل : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ .

فهى قلوب مفتوحة ، ما إن تتلقى حتى تستجيب ، وحتى تستيقظ فيها الحساسية الشديدة فتبحث أول ما تبحث عن تقصيرها وذنوبها ومعصيتها ، فتتجه إلى ربها تطلب مغفرة الذنوب وتكفير السيئات ، والوفاة مع الأبرار وختام هذا الدعاء . توجه ورجاء ، واعتماد واستمداد من الثقة بوفاء الله الميعاد ، وهو استنجاز لوعد الله ، الذى بلغته الرسل ، وثقة بوعد الله الذى لا يخلف الميعاد ، ورجاء فى الإعفاء من الخزى يوم القيامة ، يتصل بالرجفة الأولى فى هذا الدعاء ، ويدل على شدة الخوف من هذا الخزى ، وشدة تذكره واستحضاره فى مطلع الدعاء وفى ختامه .

والدعاء فى مجموعه يمثل الاستجابة الصادقة العميقة ، لإيحاء هذا الكون وإيقاع الحق الكامن فيه ، فى القلوب السليمة المفتوحة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا:

١ ـ الدعوة إلى الله وتبليغ الناس شرعه واجب أخذ الله عليه الميثاق من كل من آتاه الكتاب ، وليست الدعوة إلى الله عملاً تطوعياً .

٢ ـ الجد فى الدعوة والتبليغ والتشمير فى الحركة ، والعمل الدائب من أجل هذا الدين هو المطلب الملائم لما أخذ الله من ميثاق على الذين آتاهم الكتاب .

٣ ـ لا يجوز للمسلم أن يحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والمعروف ، بل من الكمال أن لا يرغب المسلم فى مدح الناس وثنائهم وهو فاعل لما يستوجب ذلك فكيف بمن لم يفعل ثم يحب أن يحمد .

٤ ـ وجوب التفكر فى خلق السموات والأرض للحصول على المزيد من الإيمان .

٥ ـ تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

٦ ـ مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالإيمان وصالح الأعمال .

الجزء الرابع — سورة آل عمران

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سورة النساء

٧٦

معانى الكلمات :

لا يغرنك : لا يخدعنك عن الحقيقة .

تقلب : تصرف .

متاع قليل : نعمة زائلة .

بئس المهاد : بئس الفراش .

نزلاً : جزاء ، وتكرمة .

صابروا : غالبوا الأعداء فى الصبر على القتال . **رابطوا :** أقيموا بحدود بلادكم مستعدين للجهاد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الإسلام قد سوى بين الرجل والمرأة ولم يفرق بينهما إلا فيما تتطلبه رسالة كل منهما فى الحياة .

٢ ـ أن نحذر الانخداع بالكافرين وعلوهم فى الأرض ، فذلك لهم متاع قليل ثم مردهم إلى النار .

٣ ـ أن ندرك تكاليف الدعوة و صبر من صابر ورابط واتقى الله بغية نيل الفلاح .

المحتوى التربوى :

بعدما تفكر أولو الألباب فى خلق السموات والأرض ، وتدبروا اختلاف الليل والنهار ، وتلقوا من كتاب الكون المفتوح ، واستجابت فطرتهم لإيحاء الحق المستكين فيه ، اتجهوا إلى ربهم بالدعاء الواجف الخاشع الطويل .. فجاءت الاستجابة على دعائهم المخلص الودود ..

ويقول صاحب الظلال : « لقد كانت قبولاً للدعاء ، وتوجيهاً إلى مقومات هذا المنهج الإلهى وتكاليفه فى آن : إنه ليس مجرد التفكير ومجرد التدبر . وليس مجرد الخشوع والارتجاف . وليس مجرد الاتجاه إلى الله لتكفير السيئات والنجاة من الخزى من النار .. إنما هو العمل الإيجابى ، الذى ينشأ عن هذا التلقى ، وعن هذه الاستجابة ، وعن هذه الحساسية الممثلة فى هذه الارتجافة . العمل يعتبره الإسلام عبادة كعبادة التفكر والتدبر ، والذكر والاستغفار ، والخوف من الله ، والتوجه إليه بالرجاء .. بل العمل الذى يعتبره الإسلام الثمرة الواقعية المرجوة لهذه العبادة ، والذى يقبل من الجميع : ذكرانا وإناثاً بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس » .

ثم تفصيل للعمل ، تتبين منه تكاليف هذه العقيدة فى النفس والمال ، كما تتبين طبيعة المنهج ، وطبيعة الأرض التى يقوم عليها ، وطبيعة الطريق وما فيه من عوائق وأشواك ، وضرورة مغالبة العوائق ، وتكسير الأشواك ، وتمهيد التربة للنبتة الطيبة ، والتمكين لها فى الأرض ، أياً كانت التضحيات ، وأياً كانت العقبات .. فهذا هو الطريق .. طريق المنهج الربانى ، الذى قدر الله أن يكون تحققه فى واقع الحياة بالجهد البشرى ، وعن طريق هذا الجهد ، وبالقدر الذى يبذله المؤمنون المجاهدون فى سبيل الله . ابتغاء وجه الله .

ثم تلتفت الآيات التفاتة واقعية إلى الفتنة المستكنة فى المتاع المتاح فى هذه الأرض للكفار والعصاة والمعادين لمنهج الله . التفاتة لإعطاء هذا المتاع قيمته الصحيحة ، حتى لا يكون فتنة لأصحابه، ثم كى لا يكون فتنة للمؤمنين ، الذين يعانون ما يعانون من أذى وإخراج من الديار وقتل وقتال .

ويقول صاحب الظلال :« وتقلب الذين كفروا فى البلاد مظهر من مظاهر النعمة والوجدان ، ومن مظاهر المكانة والسلطان ، وهو مظهر يحيك فى القوب منه شىء لا محالة ، يحيك منه شىء فى قلوب المؤمنين ؟ وهم يعانون الشظف والحرمان ، والأذى والمشقة والمطاردة والجهاد بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون ! ويحيك منه شىء فى قلوب الجماهير الغافلة ، وهى ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء ، والباطل وأهله فى منجاة ، بل فى مسلاة ! ويحيك منه شىء فى قلوب الضالين المبطلين أنفسهم ؛ فيزيدهم ضلالاً وبطراً ولجاجاً فى الشر والفساد » .

هنا تأتى هذه اللمسة أنه متاع قليل ، ينتهى ويذهب .. أما المأوى الدائم الخالد ، فهو جهنم .. وبئس المهاد ، وفى مقابل المتاع القليل الذاهب جنات ، وخلود ، وتكريم من الله وما يشك أحد يضع ذلك وذاك فى كفة ، أن ما عند الله خير للأبرار ، إن الله سبحانه فى موضع التربية ، وفى مجال إقرار القيم الأساسية فى التصور الإسلامى لا يعد المؤمنين هنا بالنصر، ولا يعدهم بقهر الأعداء، ولا يعدهم بالتمكين فى الأرض ، ولا يعدهم شيئا من الأشياء فى هذه الحياة مما يعدهم به فى مواضع أخرى ، إنه يعدهم هنا شيئاً واحداً هو (ما عند الله) فهذا هو الأصل فى هذه الدعوة ، ونقطة الانطلاق فى هذه العقيدة : التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية ، ومن كل مطمع حتى رغبة المؤمن فى غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله وقهر الأعداء ، حتى هذه الرغبة يريد الله أن يتجرد منها المؤمنون ، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه الشهوة لها ولو كانت لا تخصها .

هذه العقيدة : عطاء ووفاء وأداء .. فقط وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض ، وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء ... ثم انتظار كل شىء هناك . ثم يقع النصر ، والتمكين والاستعلاء ، ولكن هذا ليس داخلاً فى البيعة ؛ ليس جزءاً من الصفقة . ليس فى الصفقة مقابل فى هذه الدنيا . وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء .. والابتلاء ..

على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة فى مكة ؛ وعلى هذا كان البيع والشراء أولم يمنح الله المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء ؛ ولم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية ، إلا حين تجردوا هذا التجرد ، ووفوا هذا الوفاء.

وقبل ختام السورة يعود إلى أهل الكتاب ، فيقرر أن فريقاً منهم يؤمن إيمان المسلمين ، وقد انضم إلى موكب الإسلام معهم وسار سيرتهم ، ولهم كذلك جزاؤهم . ويعدهم أجر المؤمنين عند الله ـ الذى لا يمطل المتعاملين معه ـ حاشاه !

ثم يأتى النداء العلوى الأخير للذين آمنوا . نداؤهم بالصفة التى تربطهم بمصدر النداء ، والتى تُلقى عليهم هذه الأعباء ، والتى تؤهلهم للنداء وللأعباء وتكرمهم فى الأرض كما تكرمهم فى السماء وتلخص لهم أعباء المنهج وشروط : الطريق الصبر والمصابرة والمرابطة بالإقامة فى مواقع الجهاد وفى الثغور المعرضة لهجوم الأعداء ، ولتكن التقوى المصاحبة لهذا كله . فهى الحارس اليقظ فى الضمير يحرسه أن يغفل أو أن يضعف ، ويحرسه أن يعتدى ؛ ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك . وهذا هو جماع التكاليف التى تفرضها هذه الدعوة فى عمومها .. ومن ثم يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح فى هذا المضمار .

يقول صاحب الأساس : « التربية من خلال التنبيه على الخطأ سمة من سمات القرآن ، ومن سمات التربية النبوية فليس هناك خطأ يسكت عنه ولكن لإصلاح الخطأ أسلوبه، فخطأ الجماعة، وخطأ الأفراد ، كل ذلك كان يعالج بالأساليب المناسبة ، ولقد كان جيل الصحابة أعظم جيل ربانى عرفه هذا العالم ؛ إذ لم يكن الخطأ الجماعى يتكرر مرتين ، ومن ثم نجد فى القرآن دروس الحياة اليومية ، فقد سجل القرآن من وقائع الأحداث فى حياة رسول الله ﷺ وأصحابه ، والحادثة التى تسجل تؤخذ دروسها ضمن سياق السورة ومضمونها ، وضمن السياق القرآنى العام » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن زيادة المال ومتع الحياة ليست دليلاً على إكرام الله ورضاه ، وأن قلة المال ومتع الحياة ليست دليلاً على سخط الله وغضبه ؛ لأن متاع الدنيا قليل زائل ، والعبرة بما أعده الله من نعيم للمتقين .

٢ ـ حقيقة البيعة مع الله عطاء ووفاء وأداء .. دون انتظار غلبة ، أو نصر وتمكين أو استعلاء ، إنما ابتغاء مرضاة الله .

٣ ـ الصبر والمصابرة تربية للنفس على معالى الأخلاق ومكارمها ، وبغيرهما قلما يصلح دين إنسان أو دنياه .

٤ ـ الصبر ومغالبة الأعداء والرباط فى سبيل الله وتقواه ، سبيل الفلاح والسعادة والنجاح فى الدنيا والآخرة .

الجزء الرابع سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ
وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ
كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا
مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا
فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا
النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا
الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ
غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا
دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

نصف الحزب ٨

٧٧

سورة النساء

معانى الكلمات :

بث منهما : نشر وفرَّق منهما بالتناسل . **حوباً** : إثماً كبيراً . **ألا تقسطوا:** ألا تعدلوا . **ما طاب لكم** : ما حلَّ لكم . **أدنى ألا تعولوا** : أقرب ألا تجوروا فى النفقة وسائر الحقوق . **صَدُقَاتِهِنَّ** : مُهُورَهُنَّ . **نحلة** : فريضة . **هنيئاً مَّريئاً** : طيباً سائغاً حلالاً . **قياماً** : قوام معايشكم .

ابتلوا اليتامى : اختبروهم فى الاهتداء لحسن التصرف فى أموالهم قبل البلوغ . **آنستم** : علمتم .

وبداراً أن يَكبروا : مبادرين كبرهم ورشدهم .

فليستعفف : فليكف عن أكل أموالهم . **حَسِيباً** : محاسباً لكم ورقيباً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر وحدة الأصل الإنسانى .

٢ ـ أن نعرف واجبنا تجاه اليتيم .

٣ ـ أن نتبين حكم الشرع فى تعدد الزوجات والحكمة من ذلك .

٤ ـ أن نعرف بعض ضوابط الإنفاق ونظرة الإسلام للمال .

المحتوى التربوى :

فى هذه السورة نجد بعض الملامح التى يتوخى المنهج الإسلامى إنشاءها فى المجتمع المسلم ، بعد تطهيره من رواسب الجاهلية ، وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية ، التى تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها فى الواقع الاجتماعى .

وفى افتتاح السياق الأول يرد الناس إلى رب واحد ، وخالق واحد ؛ كما يردهم إلى أصل واحد ، وأسرة واحدة ، ويستجيش فى النفس تقوى الرب ، ورعاية الرحم .. لتقيم على هذا الأصل الكبير كل تكاليف التكافل والتراحم فى الأسرة الواحدة ، ثم فى الإنسانية الواحدة.

ويقول صاحب الظلال : « إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتى :

١ ـ إنها ابتداء تذكر الناس بمصدرهم الذى صدروا عنه ؛ وتردهم إلى خالقهم الذى أنشأهم فى هذه الأرض . هذه الحقيقة التى ينساها الناس فينسون كل شىء ! ولا يستقيم لهم بعدها أمر !

٢ ـ كما أنها توحى بأن هذه البشرية التى صدرت من إرادة واحدة ، تتصل فى رحم واحدة ، وتلتقى فى وشيجة واحدة ، وتنبثق من أصل واحد ، وتنتسب إلى نسب واحد . ولو تذكر الناس هذه الحقيقة لتضاءلت فى حسهم كل الفروق الطارئة ، التى نشأت فى حياتهم متأخرة ففرقت بين أبناء النفس الواحدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة . وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها فى الرعاية ، وصلة النفس وحقها فى المودة ، وصلة الربوبية وحقها فى التقوى .

٣ ـ كذلك توحى بأن قاعدة الحياة البشرية هى الأسرة .. ولو شاء الله لخلق ـ فى أول النشأة ـ رجالاً كثيراً ونساء، وزوجهم ، فكانوا أسراً شتى من أول الطريق . لا رحم بينها من مبدأ الأمر. ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد .. ولكنه ـ سبحانه ـ شاء لأمر يعلمه أن يضاعف الوشائج ، وشيجة الربوبية ثم الرحم ثم الأسرة التى يقوم عليها نظام المجتمع الإنسانى بعد قيامه على أساس العقيدة .

ثم يردهم إلى تقوى الله .. واتقوا الله الذى تتعاهدون باسمه ، وتتعاقدون باسمه ، ويسأل بعضكم بعضاً الوفاء باسمه ، ويحلف بعضكم لبعض باسمه .. اتقوه فيما بينكم من الوشائج والصلات والمعاملات .

ويقول صاحب الظلال : « تقوى معهودة ومفهومة لتكرارها فى القرآن أما تقوى الأرحام ، فهى تعبير عجيب .. أرهفوا مشاعركم للإحساس بوشائجها والإحساس بحقها . وتوقى هضمها وظلمها ، والتحرج من خدشها ومسها.. توقوا أن تؤذوها وأن تجرحوها وأن تغضبوها ؛ لأن الله كان عليكم رقيبا وهو العليم الذى لا تخفى عليه خافية ، لا فى ظواهر الأفعال ولا فى خفايا القلوب » .

ومن هذا الافتتاح القوى المؤثر يأخذ السياق القرآنى إقامة الأسس التى ينهض عليها نظام المجتمع وحياته من التكافل فى الأسرة والجماعة ، والرعاية لحقوق الضعاف فيها ، والصيانة لحق المرأة وكرامتها ، والمحافظة على أموال الجماعة فى عمومها ، وتوزيع الميراث على الورثة بنظام يكفل العدل للأفراد والصلاح للمجتمع .

ويقول صاحب الظلال : « ويبدأ فيأمر الأوصياء على اليتامى أن يردوا لهم أموالهم كاملة سالمة متى بلغوا سن الرشد . وألا ينكحوا القاصرات اللواتى تحت وصايتهم طمعاً فى أموالهن . أما السفهاء الذين يُخْشَىَ من إتلافهم للمال . إذا هم تسلموه ، فلا يُعطى لهم المال . لأنه فى الحقيقة مال الجماعة ، ولها فيه قيام ومصلحة ، فلا يجوز أن تسلمه لمن يفسد فيه ، وأن يراعوا العدل والمعروف فى عشرتهم للنساء عامة .

وتشى هذه التوصيات المشددة بما كان واقعاً فى الجاهلية العربية من تضييع لحقوق الضعاف بصفة عامة . والأيتام بصفة خاصة .. هذه الرواسب التى ظلت باقية فى المجتمع المسلم ... حتى جاء القرآن يذيبها ويزيلها ».

ثم يأمرنا عز وجل بأن نعطى اليتامى أموالهم التى تحت أيدينا ، ولا نعطيهم الردىء فى مقابل الجيد .. ، ولا نأكل أموالهم بضمها إلى أموالنا ، كلها أو بعضها .. لأن ذلك من كبائر الذنوب ، والله يحذرنا من الذنب الكبير .

ثم أرشدنا تعالى إلى ترك التزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل : أى إذا كانت تحت حَجْر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليتركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ولم يضيق الله عليه ، فلينكح ما شاء اثنتين وإن شاء ثلاثاً أو أربعاً ، وإن خاف من عدم العدل بين الزوجات فليلزم الاقتصار على واحدة ، أو يقتصر على نكاح الإماء لملك اليمين إذ ليس لهن من الحقوق كما للزوجات وذلك أقرب ألا يميل أو يجور ، وليعط النساء مهورهنّ عطية عن طيب نفس فإن طابت نفوسهن بهبة شىء من الصداق فإن أكله مشروع وحلال .

ثم يعود السياق إلى أموال اليتامى ؛ يفصل فى أحكام ردها إليهم ، وينهى عن تسليم المال للسفهاء منهم ، الذين لا يحسنون تدبير المال وتثميره ، فلا يحق لهم التصرف فيه والقيام عليه ، إنما يعود التصرف فى مال الجماعة إلى من يحسن التصرف فيه من الجماعة مع مراعاة درجة القرابة لليتيم ، تحقيقاً للتكافل الاجتماعى ، وللسفيه حق الرزق والكسوة فى ماله مع حسن معاملته ، وفى حالة تبين الرشد تسلم إليهم أموالهم كاملة سالمة ، مع عدم المبادرة إلى أكلها بالإسراف قبل أن يكبر أصحابها فيتسلموها ، مع الاستعفاف عن أكل شىء منها مقابل القيام عليها ـ إذا كان الولى غنياً ـ والأكل منها فى أضيق الحدود إذا كان الولى محتاجاً ـ مع وجوب الإشهاد فى محضر التسليم .. وختام الآية : التذكير بشهادة الله وحسابه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ـ أى أمة الإجابة وأمة الدعوة ـ مطالبون بتقوى الله إذا أرادوا لأنفسهم الخير فى الدنيا والآخرة .

٢ ـ أن المجتمع الآمن المستقر هو المجتمع الذى يُرعى فيه الضعفاء من أيتام وصغار ونساء ، وتحفظ حقوقهم وتؤدى لهم تقرباً إلى الله أولاً ، وسعياً لتأمين المجتمع وتنقيته من الحقد والجريمة والظلم بعد ذلك .

٣ ـ صلة الأرحام أصل من أصول هذا الدين ورعايتها من أسباب البركة فى الرزق والمنسأة فى الأثر والزيادة فى العمر ولنعلم حديثه ﷺ : « ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها » .

٤ ـ أن نحذر كل الحذر من المساس بشىء من أموال اليتامى ، فالواجب صيانتها وردها كاملة سالمة لهم عند بلوغهم الرشد وإحسان التصرف فيها .

الجزء الرابع — سورة النساء

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

٧٨

معانى الكلمات :

نصيب : حظ من تركة الميت .

مفروضاً : واجباً أو مقطوعاً محدداً .

قولاً سديداً : قولاً جميلاً أو صواباً وعدلاً .

ظُلماً : بدون وجه حق .

سيصلون سعيراً : سيدخلون ناراً موقدة هائلة . **يوصيكم الله**:يأمركم الله . **فريضة**:مفروضة عليكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف موقف الإسلام من مبدأ الميراث .

٢ ـ أن نعلم كيفية التصرف مع من حضر القسمة من أولى القربى واليتامى والمساكين .

٣ ـ أن نعرف كيف نحافظ على الذرية بعد المات .

٤ ـ أن نعرف جزاء الاعتداء على مال اليتامى ونحذر المساس به .

المحتوى التربوى :

يواصل سياق الآيات حديثه عن إرساء قواعد المجتمع الإسلامى وتشريعاته فى الأمور الحياتية الاقتصادية ، وينتقل السياق من الحديث عن المال الخاص باليتامى إلى الميراث فيقرر أن للرجال والنساء نصيباً من تركة الأقرباء أى للأولاد والأقرباء حظ من تركة الميت ، كما للبنات والنساء حظ أيضاً . الجميع فيه سواء يستوون فى أصل الوراثة وإن تفاوتوا فى قدرها ، وسببها أن العرب كانوا لا يورّثون النساء والأطفال وكانوا يقولون : إنما يرث من يحارب ويذبُّ عن الحوزة، فأبطل الله حكم الجاهلية سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة ففرض نصيباً مفروضا بشرعه العادل وكتابه المبين .

ولما كان نظام التوريث ـ يحجب فيه بعض ذوى القربى بعضاً ، فيوجد ذوو قرابة ، ولكنهم لا يرثون ؛ لأن من هم أقرب منهم سبقوهم فحجبوهم ؛ فإن السياق يقرر لهم حقا لا يحدده إذا هم حضروا القسمة تطييباً لخاطرهم ـ واحتفاظاً بالروابط العائلية ، ، والمودات القلبية . كذلك يقرر لليتامى والمساكين ، مثل هذا الحق تمشياً مع قاعدة التكافل العام .

ويقول صاحب الظلال : « وقبل أن يأخذ السياق فى تحديد أنصبة الورثة ، يعود ليحذر من أكل أموال اليتامى .. يعود إليه فى هذه المرة ليلمس القلوب لمستين قويتين :

أولاهما : تمس مكمن الرحمة الأبوية والإشفاق الفطرى على الذرية الضعاف وتقوى الله الحسيب الرقيب .

والثانية : تمس مكان الرهبة من النار ، والخوف من السعير ، فى مشهد حسى مفزع .. يصور صورة النار فى البطون وصورة السعير فى نهاية المطاف ـ لمن يأكل مال اليتيم ـ وإن مصيرهم لإلى النار فهى النار تشوى البطون والجلود وهى النار من ظاهر وباطن . هى النار مجسمة حتى لتكاد تحسها البطون والجلود ، وحتى لتكاد تراها العيون ، وهى تشوى البطون والجلود !

ثم ينتقل السياق إلى نظام التوارث . حيث يبدأ بوصية الله للوالدين فى أولادهم؛فتدل هذه الوصية على أنه ـ سبحانه ـ أرحم وأبر وأعدل من الوالدين مع أولادهم ؛ كما تدل على أن هذا النظام كله مرده إلى الله سبحانه ؛ فهو الذى يحكم بين الوالدين وأولادهم ، وبين الأقرباء وأقاربهم . وليس لهم إلا أن يتلقوا منه سبحانه ، وأن ينفذوا وصيته وحكمه وهذه الآيات تتضمن أصول علم الفرائض ـ أى علم الميراث ـ أما التفريعات فقد جاءت السُنة ببعضها نصاً ، واجتهد الفقهاء فى بقيتها تطبيقاً على هذه الأصول . وليس هنا مجال للدخول فى هذه التفريعات والتطبيقات فمكانها كتب الفقه ، فنكتفى هنا بتفسير هذه النصوص ، والتعقيب على ما تتضمنه من أصول المنهج الإسلامى .

يأمر الله ويعهد لعباده بالعدل فى شأن ميراث الأولاد ، وهذه وصية تدل على أن الله ـ كما قلنا آنفا ـ أرحم وأبر وأعدل من الوالدين مع أولادهم ، كما تدل على أن هذا النظام كله مرده إلى الله سبحانه وتعالى ، فإذا فرض لهم فإنما يفرض لهم ما هو خير مما يريده الوالدان بالأولاد وفرض الشرع للابن ميراثاً مثل نصيب البنتين وإن كان الوارث إناثاً فقط اثنتين فأكثر ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ أى فللبنتين ثلثا التركة ﴿ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ﴾ أى وإن كانت الوارثة بنتاً واحدة فلها نصف التركة .

ولقد بدأ تعالى بذكر ميراث الأولاد . ثم ذكر ميراث الأبوين ؛ لأن الفرع مقدم فى الأرث على الأصل فقال تعالى : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ أى للأب السدس وللأم السدس ﴿ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أى من تركة الميت ﴿ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أى إن وجد للميت ابن أو بنت ؛ لأن الولد يطبق على الذكر والأنثى ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ ﴾ أى فإن لم يوجد للميت أولاد وكان الوارث أبويه فقط ، أو معهما أحد الزوجين ﴿ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ أى فللأم ثلث المال أو ثلث الباقى بعد فرض أحد الزوجين والباقى للأب ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ﴾ أى فإن وجد مع

الأبوين إخوة للميت اثنان فأكثر فالأم ترث حينئذ السدس فقط والباقى للأب ، والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إلى المال أكثر ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ أى : إن حق الورثة يكون بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه فلا تقسم التركة إلا بعد ذلك .

﴿ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أن يسكب فى القلوب راحة الرضا والتسليم لأمر الله ، ولما يفرضه الله ، بإشعارها أن العلم كله لله ، وأنهم لا يدرون أى الأقرباء أقرب لهم نفعاً ، ولا أى القسم أقرب لهم مصلحة ، وأن القضية ليست مسألة هوى أو مصلحة قريبة ، إنما هى مسألة الدين ومسألة الشريعة ﴿ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أى إنه تعالى تولى قسمة المواريث بنفسه وفرض الفرائض على ما علمه من الحكمة ، فقسم حيث توجد المصلحة وتتوفر المنفعة ولو ترك الأمر إلى البشر لم يعلموا ما هو أنفع لهم فيضعون الأموال على غير حكمة ولهذا أتبعه بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾أى إنه عليم بما يصلح لخلقه حكيم فيما شرع وفرض .

يقول صاحب الظلال فى قوله تعالى : ﴿ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ : « فالله هو الذى خلق الآباء والأبناء والله هو الذى أعطى الأرزاق والأموال . والله هو الذى يفرض ، وهو الذى يقسم، وهو الذى يشرع . وليس للبشر أن يشرعوا لأنفسهم، ولا أن يحكموا هواهم ، كما أنهم لا يعرفون مصلحتهم ! » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ تقرير الإسلام لمبدأ الميراث ، إنما شرع لحفظ الحقوق ، وتوثيق المودات ، والبر والصلة للأبناء والأرحام والأقارب .

٢ ـ وجوب الإحسان إلى اليتامى ، والخشية عليهم كما يخشى على أولاده من بعده ، مع عدم المساس بأموالهم وصيانتها ، وإحاطتهم بالعطف والحنان .

٣ ـ الله تعالى ـ أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، فلقد أوصى الوالدين بأولادهم .

٤ ـ إن الله تعالى تولى قسمة التركات بنفسه فلا يحل لأحد أن يغير منها شيئاً .

٥ ـ وجوب النصح والإرشاد للمحتضر حتى لا يجور فى وصيته عند موته .

٦ ـ استحباب إعطاء من حضر قسمة التركة من الأقارب واليتامى والمساكين وإن تعذر إعطاؤهم صُرفوا بالكلمة الطيبة ، وفى الحديث : « الكلمة الطيبة صدقة » .

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

٧٩

معانى الكلمات :

كلالة : ميتاً لا ولد له ، ولا والد .

غير مضار : للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة .

حدود الله : شرائعه وأحكامه المفروضة .

ويتعد حدوده : يتجاوز ما أمره الله تعالى به من الطاعات .

عذاب مهين : عذاب شديد مع المهانة والإذلال .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن مسائل وأنصبة المواريث نص لا اجتهاد فيه ولا هوى .

٢ ـ أن نعرف موقع الوصية من التركة.

٣ ـ أن نعرف معنى الكلالة .

٤ ـ أن نوضح حكمة الإسلام فى تشريعه الحكيم لأمور المواريث .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق القرآنى الحديث عن مسائل الميراث وأنصبة الورثة فيذكر ميراث الزوج والزوجة فيقول : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ﴾ أى ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم من المال إن لم يكن لزوجاتكم أولاد منكم أو من غيركم ﴿ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾ أى من ميراثهن ، وألحق بالولد فى ذلك ولد الابن بالإجماع ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ أى من بعد الوصية وقضاء الدين ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ﴾ أى ولزوجاتكم واحدة فأكثر الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن لكم ولد منهن أو من غيرهن .

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾ أى فإن كان لكم ولد منهن أو من غيرهن ـ وكذلك أبناء ابن الصلب ـ فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال ﴿ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ وفى تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنها ما لا يخفى .

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾ أى وإن كان الميت يورث كلالة أى لا والد له ولا ولد وورثه أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع ﴿ أَوِ ٱمْرَأَةٌ ﴾ عطف على رجل والمعنى أو امرأة تورث كلالة ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ أى وللمورّث أخ أو أخت من أم ﴿ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ أى فللأخ من الأم السدس وللأخت من الأم السدس أيضا.

﴿ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ﴾ أى فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم فى الميراث سواء ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ﴾ أى بقصد أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة أى فى حدود الوصية بالثلث لقوله ﷺ : « الثلث والثلث كثير » ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أى أوصاكم الله بذلك وصية ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ أى عالم بما شرع ، حليم لا يعاجل بالعقوبة لمن خالف أمره .

ثم يعقب الله تعالى تعقيباً نهائياً على تلك الوصايا والفرائض ، حيث يسميها الله سبحانه وتعالى بالحدود ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أى تلك الأحكام المذكورة شرائع الله التى حدّها لعباده ليعملوا بها ولا يعتدوها ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أى من يطع ما أمر الله فيما حكم وأمر رسوله فيما بيّن فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضهم بحيلة أو وسيلة بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ، يدخله الله جنات النعيم التى تجرى من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار ماكثين فيها أبداً وذلك هو الفلاح العظيم ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ ﴾ يجعله مخلداً فى نار جهنم لا يخرج منها أبداً وله عذاب شديد من الإهانة والإذلال والعذاب .

هل الدَّين مقدم على الوصية وما هى حدود الوصية ؟ وهل تجوز الوصية لوارث ؟

قال ابن كثير فى التفسير : « أجمع علماء السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية ، وتقديم الدين مفهوم واضح لأنه يتعلق بحق الآخرين . فلابد من استيفائه من مال المورث الذى استدان ما دام قد ترك مالاً ، توفية بحق الدائن وتبرئة لذمة المدين . وقد شدد الإسلام فى إبراء الذمة من الدين ، عن أبى قتادة ﷺ قال : قال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر » ثم قال : « كيف قلت ؟ » فأعاد عليه فقال : « نعم إلا الدين . فإن جبريل أخبرنى بذلك » أخرجه مسلم ومالك والترمذى والنسائى .

وعن أبى قتادة كذلك : أتى النبى ﷺ برجل ليصلى عليه فقال ﷺ : « صلوا على صاحبكم فإن عليه ديناً » فقلت : هو علىّ يا رسول الله . قال : « بالوفاء » قلت : بالوفاء ، فصلى عليه .

وأما الوصية فلأن إرادة الميت تعلقت بها . وقد جعلت الوصية لتلافى بعض الحالات التى يحجب فيها بعض الورثة بعضاً ، وقد يكون المحجوبون معذورين ، أو تكون هناك مصلحة عائلية فى توثيق العلاقات بينهم وبين الورثة ، وإزالة أسباب الحسد والنزاع قبل أن تنبت ، ولا وصية لوارث ، ولا وصية فى غير الثلث ، وفى هذا ضمان ألا يجحف المورث بالورثة فى الوصية .

ولبيان خطورة الوصية على صاحبها نذكر هنا الحديث المروىّ عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف فى وصيته فيختم له بشر عمله ، فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » قال : ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ ﴾ .

ما المقصود بالكلالة ؟

سُئل أبو بكر ﷺ عن الكلالة فقال : أقول فيها برأيى فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان . والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد . فلما ولى عمر قال : إنى لأستحى أن أخالف أبا بكر فى رأى رآه [رواه ابن جرير وغيره] .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن الله تعالى تولى قسمة الميراث والتركات بنفسه فلا يحل لأحد أن يغير منها شيئاً .

٢ ـ أن شرع الله ونظامه ومنهجه واجب التنفيذ والالتزام ، وأن المؤمن مطالب بطاعة الله تعالى فيما أمره به وفيما نهاه عنه ، وأن الله تعالى يجزى على هذه الطاعة خير الجزاء ، وذلك بجنات تجرى من تحتها الأنهار مع خلود فيها إلى أبد الآبدين .

٣ ـ أن طاعة رسول الله ﷺ فيما بلَّغَ عن ربه سبحانه وتعالى من طاعة الله تعالى فهى واجبة يثاب على فعلها ، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ وكذلك لقوله : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ .

٤ ـ معصية الله ورسوله إثم ومعصية وتخريب لنظام الحياة وإشاعة للظلم وحرمان أصحاب الحقوق من حقوقهم ؛ وتضييع للمرأة والأسرة وحقوقها ؛ لذا كان جزاء ذلك الخلود فى جهنم والعذاب المهين .

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

معانى الكلمات :

الفاحشة : كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال والمقصود الزنا . **فأمسكوهن** : فاحبسوهن . **سبيلاً** : خلاصاً بالزواج أو إقامة الحدِّ . **واللذان** : الذكر والأنثى .

بجهالة : بسفاهة . **أعتدنا** : هيأنا .

لا تعضلوهن : لا تمسكوهُنَّ مضارة لهن .

فاحشة مبينة:النشوز وسوء الخُلق،أو الزنا.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم عظم قبح فاحشة الزنا فلا نقربه ؛ لأنه كان فاحشة وساء سبيلاً .

٢ ـ أن نعلم التوبة بشروطها المقبولة ، ومتى لا تقبل من العبد .

٣ ـ أن نعلم أن الحدود شرعت لصيانة المجتمع وتأمينه من التلوث الأخلاقى والانحراف والهلاك .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق القرآنى تنظيمه لحياة المجتمع المسلم ، واستنقاذه من رواسب الجاهلية ، بتطهير هذا المجتمع من الفاحشة ، وعزل العناصر الملوثة التى تقارفها ، من الرجال والنساء ، مع فتح باب التوبة لمن يشاء من هذه العناصر أن يتوب ويتطهر ، ويرجع إلى المجتمع عفيفاً نظيفاً ، ثم باستنقاذ المرأة مما كانت ترزح تحته فى الجاهلية من خسف وهوان ، ومن عسف وظلم ، حتى تقوم الأسرة على أساس سليم ركين .

ويقول صاحب الظلال: « إن الإسلام يمضى هنا على طريقه فى تطهير المجتمع وتنظيفه ؛ وقد اختار ـ فى أول الأمر ـ عزل الفاحشات من النسوة ، وإبعادهن عن المجتمع ، متى ثبت عليهن ارتكاب الفاحشة . وإيذاء الرجال ، الذين يأتون الفاحشة الشاذة ، ويعملون عمل قوم لوط ، ولم يحدد نوع الإيذاء ومداه ثم اختار ـ فيما بعد ـ عقاب هؤلاء النسوة وعقاب الرجال أيضاً عقوبة واحدة هى حد الزنا كما ورد فى آية سورة النور ، وهى الجلد ، وكما جاءت بها السنة أيضاً ، وهى الرجم . والهدف الأخير من هذه أو تلك هو صيانة المجتمع من التلوث ، والمحافظة عليه نظيفاً عفيفاً شريفاً .

وفى كل حالة وفى كل عقوبة يوفر التشريع الإسلامى الضمانات ، التى يتعذر معها الظلم والخطأ والأخذ بالظن والشبهة ؛ فى عقوبات خطيرة ، تؤثر فى حياة الناس تأثيراً خطيراً . فهو يحدد النساء اللواتى ينطبق عليهن الحد ، ويحدد نوع الرجال الذين يستشهدون على وقوع الفعل، وبعد تشريع العقاب المطهر من الفاحشة يشرع التوبة والإصلاح .

وهى كما **يقول صاحب الظلال** : « تعديل أساس فى الشخصية والكينونة والوجهة والطريق والعمل والسلوك . ومن ثم تقف العقوبة ، وتكف الجماعة عن إيذاء هذين المنحرفين الشاذين . وهذا هو الإعراض عنهما فى هذا الموضع : أى الكف عن الإيذاء .

ويقول صاحب الظلال : عن الإيماءة اللطيفة فى التشريع بالتعقيب بأن الله كان تواباً رحيماً ، التوجيه قلوب العباد للتوبة يقول : الذى شرع العقوبة ، هو الذى يأمر بالكف عنها عند التوبة والإصلاح . ليس للناس من الأمر شىء فى الأولى ، وليس لهم شىء فى الأخيرة ، إنما هم ينفذون شريعة الله وتوجيهه . وهو تواب رحيم يقبل التوبة ويرحم التائبين .

واللمسة الثانية فى هذه الإيماءة ، هى توجيه قلوب العباد للاقتباس من خُلق الله والتعامل فيما بينهم بهذا الخلق . وإذا كان الله تواباً رحيماً ، فينبغى لهم أن يكونوا هم فيما بينهم متسامحين رحماء ؛ أمام الذنب الذى سلف ، وأعقبه التوبة والإصلاح . إنه ليس تسامحاً فى الجريمة ، وليس رحمة بالفاحشين ، فهنا لا تسامح ولا رحمة . ولكن سماحة ورحمة بالتائبين المتطهرين المصلحين ، وقبولهم فى المجتمع ، وعدم تذكيرهم وتعييرهم بما كان منهم من ذنب تابوا عنه ، وتطهروا منه ، وأصلحوا حالهم بعده ، فينبغى ـ حينئذ ـ مساعدتهم على استئناف حياة طيبة نظيفة كريمة ، ونسيان جريمتهم حتى لا تثير فى نفوسهم التأذى كلما واجهوا المجتمع بها ، مما قد يحمل بعضهم على الانتكاس ، والارتكاس ، واللجاج فى الخطيئة ، وخسارة أنفسهم فى الدنيا والآخرة . والإفساد فى الأرض وتلويث المجتمع ، والنقمة عليه فى ذات الأوان .

وقد عدلت هذه العقوبة كذلك ـ فيما بعد ـ فروى أهل السنن حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » .

وتبدو فى هذه الأحكام عناية المنهج الإسلامى بتطهير المجتمع المسلم من الفاحشة ؛ ولقد جاءت هذه العناية مبكرة : فالإسلام لم ينتظر حتى تكون له دولة فى المدينة ، وسلطة تقوم على شريعة الله ، وتتولاها بالتنفيذ ، فقد ورد النهى عن الزنا فى سورة الإسراء المكية : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ كما ورد النهى فى سورة المؤمنون : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ ﴾ .. وكرر هذا القول فى سورة المعارج .

ولكن الإسلام لم تكن له فى مكة دولة ، ولم تكن له فيها سلطة ؛ فلم يسن العقوبات لهذه الجريمة التى نهى عنها فى مكة ، إلا حين استقامت له الدولة والسلطة فى المدينة ، ولم يعتبر النواهى والتوجيهات وحدها كافية لمكافحة الجريمة ، وصيانة المجتمع من التلوث ، لأن الإسلام دين واقعى ، يدرك أن النواهى والتوجيهات وحدها لا تكفى، ويدرك أن الدين لا يقوم بدون دولة وبدون سلطة . وأن الدين هو المنهج أو النظام الذى تقوم عليه حياة الناس العملية ، وليس مجرد مشاعر وجدانية تعيش فى الضمير ، بلا سلطة وبلا تشريع ، وبلا منهج محدد ، ودستور معلوم.

على أن الإسلام لا يُغلق الأبواب فى وجه الخاطئين والخاطئات ، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا أن يعودوا إليه متطهرين تائبين ، بل يفسح لهم الطريق ـ ويشجعهم على سلوكه ، ويبلغ من التشجيع أن يجعل الله قبول توبتهم ـ متى أخلصوا فيها ـ حقاً عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم . وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد .

ثم إن التوبة التى يقبلها الله، والتى تفضل فكتب على نفسه قبولها هى التى تصدر من النفس ، فتدل على أن هذه النفس قد أنشئت نشأة أخرى . قد هزها الندم من الأعماق ، ورجها رجاً شديداً حتى استفاقت فتابت وأنابت ، وهى فى فسحة من العمر ، وبحبوحة من الأمل ، واستجدت رغبة حقيقية فى التطهر ، ونية حقيقية فى سلوك طريق جديد .. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ، فهذه التوبة هى توبة المضطر ، توبة الذى يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ولا فسحة لمقارفة الخطيئة . وهذه لا يقبلها الله ؛ لأنها لا تنشئ صلاحاً فى القلب ولا صلاحاً فى الحياة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن العدل والأمان أن تكون لكل جريمة عقوبة تناسبها ، وأن العقوبات التى وضعها لتلك الجرائم هى أنسب العقوبات ؛ لأن واضعها هو رب الناس وخالقهم وراحمهم الذى سخر لهم ومن أجلهم ما فى السموات والأرض .

٢ ـ أن قبول الله لتوبة التائبين تعنى أن يتخلق المسلمون فيما بينهم بالتسامح والعفو ، فلا أحد أغير من الله عز وجل ، وإذا كان سبحانه يعفو عمن عصاه وخالف منهجه وانتهك محارمه ، إذا تاب وندم وعزم على ألا يعود لخطئه ، فإنه أحرى بالمسلمين أن يكون هذا سلوكهم .

٣ ـ التوبة التى تفضل الله بها هى ما كان صاحبها أتى ما أتى من الذنوب بجهالة لا بعلم وإصرار ثم تاب من قريب زمن .

٤ ـ لا تقبل توبة من حشرجت نفسه وظهرت عليه علامات الموت ، وكذا الكافر من باب أولى لا تقبل له توبة بالإيمان إذا عاين علامات الموت كما لم تُقبل توبة فرعون عند الغرق .

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

معانى الكلمات :

بهتاناً : باطلاً ، وظلماً .

أفضى بعضكم إلى بعض : وَصَلَ ، بالجماع أو الخلوة الصحيحة . **ميثاقاً غليظاً** : عهداً مؤكداً . **مقتاً** : مبغوضاً مستحقراً جداً .

ربائبكم : بنات زوجاتكم من غيركم .

فلا جناح عليكم : فلا إثم عليكم . **حلائل أبنائكم** : زوجات أبنائكم .

الذين من أصلابكم: أى أبناؤكم الحقيقيون لا أبناؤكم بالتبنى .

تجمعوا بين الأختين : أى فى الزواج منهما معاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعامل مع المرأة وفق المكانة اللائقة التى رفعها الإسلام إليها .

٢ ـ أن نحسن معاملة الزوجة . كما أمر الله ورسوله .

٣ ـ أن نعلم أنه ليس لأحد أن يحل أو يحرم سوى الله سبحانه وتعالى.

المحتوى التربوى :

هذا الدرس يتحدث عن المرأة ، تواصلاً مع المبدأ العام الذى افتتح به السورة ليرفع مستوى المشاعر الإنسانية فى الحياة الزوجية من المستوى الحيوانى الهابط إلى المستوى الإنسانى الرفيع . ويظللها بظلال الاحترام والمودة والتعاطف والتجمل ؛ وليوثق الروابط والوشائج ، فلا تنقطع عند الصدمة الأولى ، وعند الانفعال الأول .

والحكمة وراء هذا التغيير هو سوء معاملة الجاهلية العربية للمرأة .. فلم تعرف لها حقوقاً ونزلت بها دون منزلة الرجل نزولاً شنيعاً ، جعل منها سلعة تباع وتشترى ، وذلك فى الوقت الذى تتخذ منها تسلية ومتعة بهيمية ، وتطلقها فتنة للنفوس ، وإغراء للغرائز ، ومادة للتشهى والغزل العارى المكشوف فجاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله، ويردها إلى مكانها الطبيعى فى كيان الأسرة وإلى دورها الجدى فى نظام الجماعة البشرية .

فحرم الإسلام وراثة المرأة كما تورث السلعة والبهيمة ، كما حرم العضل الذى تسامه المرأة ، ويتخذ أداة للإضرار بها ـ إلا فى حالة الإتيان بالفاحشة ، وذلك قبل أن يتقرر حد الزنا المعروف ـ وجعل للمرأة حريتها فى اختيار من تعاشره ابتداء أو استئنافاً . بكراً أم ثيباً مطلقة أو متوفى عنها زوجها . وجعل العشرة بالمعروف فريضة على الرجال ـ حتى فى حالة كراهية الزوج لزوجته ما لم تصبح العشرة متعذرة ـ وتنسم فى هذه الحالة نسمة الرجاء فى غيب الله وفى علم الله . كى لا يطاوع المرء انفعاله الأول ، فيبت وشيجة الزوجية العزيزة فما يدريه أن هنالك خيراً فيما يكره ، هو لا يدريه . خيراً مخبوءاً كامناً ، لعله إن كظم انفعاله واستبقى زوجته سيلاقيه .

ويقول صاحب الظلال : « والإسلام الذى ينظر إلى البيت بوصفه سكنا وأمناً وسلاماً ، وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنساً ، ويقيم هذه الآصرة على الاختيار المطلق ، كى تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب .. هو الإسلام ذاته الذى يقول للأزواج : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ كى يستأنى بعقدة الزوجية فلا تفصم لأول خاطر ، وكى يستمسك بعقدة الزوجية فلا تنفك لأول نزوة ، وكى يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها فلا يجعلها عُرضة لنزوة العاطفة المتقلبة ، وحماقة الميل الطائر هنا وهناك » .

ثم يتناول النص التشريعى المحرمات من النساء ، وهى خطوة فى تنظيم الأسرة ، وفى تنظيم المجتمع على السواء، ولم يذكر النص علة التحريم ـ لا عامة ولا خاصة ـ فكل ما يذكر من علل ، إنما هو استنباط ورأى وتقدير ، وهذه المحرمات كلها كانت محرمة فى عرف الجاهلية فيما عدا حالتين اثنتين : ما نكح الآباء من النساء ، والجمع بين الأختين فقد كانتا جائزتين ـ على كراهة من المجتمع الجاهلى . ولكن الإسلام ـ وهو يحرم هذه المحارم كلها لم يستند إلى عرف الجاهلية فى تحريمها . إنما حرمها ابتداء ، مستنداً إلى سلطانه الخاص وجاء النص : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ ﴾ ... إلخ .

والأمر فى هذا ليس أمر شكليات ؛ إنما هو أمر هذا الدين كله . وإدراك العقدة فى هذا الأمر هو إدراك لهذا الدين، وللأصل الذى يقوم عليه : أصل الألوهية وإخلاصها لله وحده .

إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده ، لأنهما أخص خصائص الألوهية ، فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله . فالله وحده ـ هو الذى يحل للناس ما يُحل ، ويحرم على الناس ما يحرم . وليس لأحد غيره أن يشرع فى هذا وذاك ، وليس لأحد أن يدعى هذا الحق .. لأن هذا مرادف تماماً لدعوى الألوهية !

ومن ثم فإن الجاهلية تحرم أو تحلل ، فيصدر هذا التحريم والتحليل عنها باطلاً بطلاناً أصلياً، غير قابل للتصحيح ، لأنه لا وجود له منذ الابتداء . فإذا جاء الإسلام إلى ما أحلت الجاهلية أو

حرمت ، فهو يحكم ابتداء ببطلانه كلية بطلاناً أصلياً ، ويعتبره غير قائم . بما أنه صادر من جهة لا تملك إصداره ـ لأنها ليست إلهاـ ثم يأخذ هو فى إنشاء أحكامه إنشاء .

ويقول صاحب الظلال : « هذه النظرية الإسلامية فى الحل والحرمة تشمل كل شىء فى الحياة الإنسانية ، ولا يخرج عن نطاقها شىء فى هذه الحياة .. إنه ليس لأحد غير الله أن يحل أو يحرم ، فى نكاح ، ولا فى طعام ، ولا فى شراب ، ولا فى لباس ، ولا فى حركة ، ولا فى عمل ، ولا فى عقد ، ولا فى تعامل ، ولا فى ارتباط ، ولا فى عرف، ولا فى وضع ، إلا أن يستمد سلطانه من الله ، حسب شريعة الله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا يجوز للرجال أن يضيقوا على النساء بسوء المعاشرة حتى يضطروهن إلى أن يفدين أنفسهن ، ويطلبن الطلاق فى مقابل بعض الأموال أو التنازل عن حقوقهن المشروعة أو عن بعضها .

٢ ـ تحريم مناكح الجاهلية إلا ما وافق الإسلام منها ، وخاصة أزواج الآباء فزوجة الأب محرمة على الابن ولو لم يدخل بها الأب وطلقها أو مات عنها .

٣ ـ أن الالتزام بالاستجابة لله تعالى فيما أحل وفيما حرّم هو تسليم بأن اختيار الله لعباده أحسن وآمن من اختيارهم لأنفسهم ، وأن فى اختيار الله لعباده نظماً وحكمة جليلة ومصلحة أكيدة فى دعم العلاقات الاجتماعية .

٤ ـ أن منهج الله وشريعته وأحكامه تستهدف استقرار الأسرة والمجتمع ، وإحاطة العلاقة بين الزوجين بالنظم والقوانين التى تحفظ لكل منهما حقوقه تجاه الآخر وتلزمه بأداء واجباته نحوه .

٥ ـ أن من الواجب الذى فرضه الله تعالى على الزوج أن يحسن عشرة زوجه حتى لو كرهها أو كره الاستمرار معها فى حياته ، فإنه على الرغم من ذلك مطالب بأن يعاملها بالمعروف .

٦ ـ أن الله تعالى . من أجل بناء أسرة مسلمة نقية الأخلاق والأحساب والأنساب ـ قد حرّم الزواج من عدد من النساء حصرهن العلماء فى أربعة عشر نوعاً من النساء هن :

الأم والبنت والأخت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت ، والأم من الرضاعة والأخت من الرضاعة ، وأم الزوجة ، وبنت الزوجة بشرط أن يكون قد دخل بالأم ، وزوجة الابن من الصلب ، والجمع بين الأختين ، وكل متزوجة من النساء .

والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما (٢٤) ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم (٢٥) يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم (٢٦)

٨٢

معانى الكلمات :

المحصنات : المتزوجات . **محصنين غير مسافحين** : أعفاء ، بعيدين عما لا يحل لهم .

أجورهن : مهورهن . **لا جناح عليكم** : لا إثم ولا حرج عليكم . **طولاً** : فضلاً وزيادة وغنى وسعة . **أن ينكح**: أن يتزوج. **المحصنات المؤمنات** : الحرائر المسلمات . **فتياتكم** : إمائكم .

غير مسافحات : غير مجاهرات بالزنا .

متخذات أخدان : مصاحبات أصدقاء للزنا سراً .

خشى العنت : خاف الزنا والإثم .

سنن : مناهج وطرائق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان يُسر الإسلام وسماحته فى نظام الزواج إعفافاً للمسلمين .

٢ ـ بيان الحكمة من الزواج فى الإسلام .

٣ ـ بيان منَّة الله على عباده المؤمنين فى التشريع والتعليل للأحكام .

المحتوى التربوى :

بعد بيان المحرمات من النساء حرمة ذاتية ، يأتى بيان المحرمات اللاتى فى عصمة رجال آخرين لأنهن محصنات بالزواج منهم : فهن محرمات على غير أزواجهن ، لا يحل نكاحهن ... وذلك تحقيقاً للقاعدة الأولى فى نظام المجتمع الإسلامى ، من قيامه على قاعدة الأسرة ، وجعلها وحدة المجتمع ، وصيانة هذه الأسرة من كل شائبة ، ومن كل اختلاط فى الأنساب ، ينشأ من «شيوعية» الاتصال الجنسى ، أو ينشأ من انتشار الفاحشة ، وتلوث المجتمع بها .

ومما يلاحظ أن معظم المحرمات التى حرمها القرآن فى الآيات السابقة ، كانت محرمة فى الجاهلية ولم يكن يباح منها فى عرف الجاهلية إلا ما نكح الآباء ، والجمع بين الأختين ـ على كره من العرف الجاهلى ذاته لنكاح زوجات الآباء . وقد كان يسمى عندهم «مقيتاً» نسبة إلى المقت ! ولكن لما جاء القرآن يُقرر حرمة هذه المحرمات ، لم يرجع فى تحريمها إلى عرف الجاهلية هذا ، إنما

قال ـ سبحانه : ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ . لأن الإسلام يعتبر أن الأصل الوحيد الذى يقوم عليه التشريع للناس هو أمر الله وإذنه . باعتبار أنه هو مصدر السلطان الأول والأخير . فكل ما لم يقم ابتداء على هذا الأصل فهو باطل بطلاناً أصلياً ، غير قابل للتصحيح المستأنف .

وبعد بيان المحرمات ، وربطها بأمر الله وعهده ، أخذ السياق فى بيان المجال الذى يملك فيه الناس أن يلبوا دوافع فطرتهم فى التزاوج ، والطريقة التى يحب الله أن يلتقى بها أفراد الجنسين لتكوين البيوت . وإقامة مؤسسات الأسرة ، والتمتع بهذا الالتقاء فى نظافة وطهر وجد تليق بهذا الأمر العظيم .

وفيما وراء هذه المحرمات المذكورة فالنكاح حلال ، وللراغبين فيه أن يبتغوا النساء ، بأموالهم ـ أى لأداء صداقهن ـ لا لشراء أعراضهن بالأموال من غير نكاح ومن ثم قال : ﴿ مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ . وجعلها قيداً وشرطاً للابتغاء بالأموال .

ويقول صاحب الظلال : « والقرآن يصور طبيعة النوع الذى يريده الله .. فهو إحصان .. هو حفظ وصيانة .. هو حماية ووقاية .. هو إحصان للرجل وإحصان للمرأة وكذلك للبيت والأسرة والأطفال . إحصان لهذه المؤسسة التى تقوم على هذا الأساس ثابتة راسخة وطيدة » .

ويقرر القرآن كيف يُبتغى بالأموال .. فهو يجعل صداق المرأة فريضة لها مقابل الاستمتاع بها . فمن أراد أن يستمتع بامرأة من الحلائل ـ وهن ما وراء ذلكم من المحرمات ـ فالطريق هو ابتغاؤها للإحصان ـ أى عن طريق الزواج لا عن أى طريق آخر ـ وعليه أن يؤدى لها صداقها حتماً مفروضاً ، لا نافلة ، ولا تطوعاً منه ، ولا إحساناً ، فهو حق لها عليه مفروض . وليس له أن يرثها وراثة بلا مقابل ، وليس له أن يقايض عليها مقايضة كما كان يقع فى زواج الشغار فى الجاهلية . وهو أن يتزوج الرجل امرأة فى مقابل أن يدفع لوليها امرأة من عنده ، كأنهما بهيمتان ! أو شيئان !

وبعد تقرير هذا الحق للمرأة وفرضيته ، يدع الباب مفتوحاً لما يتراضى عليه الزوجان بينهما وفق مقتضيات حياتهما المشتركة ، ووفق مشاعرهما وعواطفهما أحدهما تجاه الآخر . فإذا كانت ظروف المسلم تحول بينه وبين الزواج من حرة تحصنها الحرية وتصونها ، فقد رخص له فى الزواج من غير الحرة ، إذا هو لم يصبر حتى يستطيع الزواج من حرة ، وخشى المشقة ؛ أو خشى الفتنة .

ويقول صاحب الظلال : « إن هذا الدين يتعامل مع « الإنسان » فى حدود فطرته ، وفى حدود طاقته . وفى حدود واقعه ، وفى حدود حاجاته الحقيقية .. وحين يأخذ بيده ليرتفع به من حضيض الحياة الجاهلية إلى مرتقى الحياة الإسلامية لا يغفل فطرته وطاقته وواقعه وحاجاته الحقيقية ، بل يلبيها كلها وهو فى طريقه إلى المرتقى الصاعد .. إنه فقط لا يعتبر واقع الجاهلية هو الواقع الذى لا فكاك منه . فواقع الجاهلية هابط ، وقد جاء الإسلام ليرفع البشرية من وهدة هذا الواقع ! إنما هو يعتبر واقع « الإنسان » فى فطرته وحقيقته .. واقتدار الإنسان على الترقى واقع

من هذا الواقع .. فليس الواقع فقط هو مجرد تلبطه فى وحل الجاهلية ـ أية جاهلية ـ فمن الواقع كذلك مقدرته ـ بما ركب فى فطرته ـ على الصعود والتسامى عن ذلك الوحل أيضاً ! والله ـ سبحانه ـ هو الذى « يعلم واقع الإنسان » كله ، لأنه يعلم « حقيقة الإنسان » كلها . هو الذى خلقه ويعلم ما توسوس به نفسه : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ؟

ثم تنتهى الآية ـ ببيان أن الزواج من الإماء رخصة لمن يخشى المشقة أو الفتنة . فمن استطاع الصبر ـ فى غير مشقة ولا فتنة ـ فهو خير ، ومن قبل ذلك جاء الإسلام ليضع الحق فى نصابه ؛ وليأخذ الجانى بالعقوبة ، مراعياً جميع اعتبارات « الواقع » وليجعل حد الأمة بعد الإحصان نصف حد الحرة قبل الإحصان . فلا يترخص فيعفيها من العقوبة ، ويجعل إرادتها ملغاة كلية من ارتكاب الفعل تحت وطأة الظروف ـ فهذا خلاف الواقع . ولا يغفل واقعها كذلك فيعاقبها عقاب الحرة وواقعها يختلف عن واقع الحرة . ولا يتشدد تشدد الجاهلية مع الضعاف دون الأشراف !!

ومنهج الإسلام فى ذلك كله أن الله لا يريد أن يعنت عباده ، ولا أن يشق عليهم ، ولا أن يوقعهم فى الفتنة . وإذا كان دينه الذى اختاره لهم ، يريد منهم الاستعلاء والارتفاع والتسامى ، فهو يريد منهم هذا كله فى حدود فطرتهم الإنسانية ، وفى حدود طاقتهم الكامنة ، وفى حدود حاجاتهم الحقيقية كذلك ، ومن ثم فهو منهج ميسر ، يلحظ الفطرة ، ويعرف الحاجة ، ويقدر الضرورة ، وبغيته فى ذلك تكريم الإنسان ، وربطه بالموكب الإيمانى الموصول ، فى الطريق اللاحب الطويل ليشعر بحقيقة أصله وأمته ومنهجه وطريقه .. إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله ، تجمعها آصرة المنهج الإلهى ، على اختلاف الزمان والمكان واختلاف الأوطان والألوان ، وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين فى كل جيل ، ومن كل قبيل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تحريم المرأة المتزوجة حتى يفارقها زوجها بطلاق أو موت وحتى تنقضى عدتها .

٢ ـ وجوب المهور ، وجواز إعطاء المرأة من مهرها لزوجها ما تشاء .

٣ ـ الإسلام دين اليسر والسماحة لا دين العنت والمشقة .

٤ ـ منَّة الله تعالى علينا فى تعليله الأحكام لنا لتطمئن نفوسنا إلى هديه وشرعه ، ولتستعين على تنفيذ أوامره .

٥ ـ منَّة الله الكبرى هداية المؤمنين إلى طرق الصالحين وسبيل الفالحين ممن كانوا قبلهم .

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ
عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن
تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا
وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ
عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ
وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ
وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ
نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

معانى الكلمات :

الذين يتبعون الشهوات : الفُجار .

تميلوا ميلاً عظيماً : تنحرفوا عن الحق .

ضعيفاً : لا يصبر على الشهوات .

نصليه ناراً : ندخله إياها . **سيئاتكم** : ذنوبكم الصغائر . **مدخلاً كريماً** : مكاناً شريفاً . **مما ترك**:ورثة عُصبة يرثون مما ترك.

الذين عقدت أيمانكم : الذين حالفتموهم وعاهدتموهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ بيان إرادة الله بالإنسان اليسر لا العسر .

٢ـ بيان حكمة تشريع الإسلام فى النهى عن أكل أموال الناس بالباطل .

٣ ـ بيان أن اجتناب الكبائر يكفر السيئات .

٤ ـ بيان أهمية الرضا بما قسم الله للإنسان .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات تبدو روعة التشريع وجميل عفو المشرع ـ عز وجل ـ فما يريده الله للناس بمنهجه وطريقته هو التوبة . والهداية ، وتجنب المزالق ـ يريد أن يعينهم على التسامى فى المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة ، وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات ، ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله ، ولم يشرعها لعباده ؟ إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلاً عظيماً عن المنهج الراشد والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم .

وتبدو كذلك إرادة التخفيف بمراعاة فطرة الإنسان ، وطاقته ، وحاجاته الحقيقية ، مع وضع سياج الحماية الذى يقيها التبدد وسوء الاستعمال فقال ـ عز وجل : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج الله ـ وبخاصة فى علاقات الجنسين ـ شاق مجهد . والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح ! وهذا وهم كبير ....

والنظر إلى الواقع فى حياة المجتمعات التى « تحررت » ! من قيود الدين والأخلاق والحياء فى هذه العلاقة ، يكفى لإلقاء الرعب فى القلوب . لو كانت هنالك قلوب !

لقد كانت فوضى العلاقة الجنسية هى المعول الأول الذى حطم الحضارات القديمة . حطم الحضارة الإغريقية ، والرومانية ، والفارسية .. وهذه الفوضى ذاتها هى التى أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة ؛ وقد ظهرت آثارها ـ التحطيم ـ شبه كاملة فى انهيارات فرنسا التى سبقت فى هذه الفوضى ؛ وبدأت هذه الآثار تظهر فى أمريكا والسويد وإنجلترا ، وغيرها من دول الحضارة الحديثة .

ويتواصل السياق القرآنى فى تعميق الأسس التربوية ودعائمها لتأسيس الأسرة والمجتمع المسلم ، فيتناول جانباً من العلاقات المالية فى المجتمع المسلم ، لتنظيم طرق التعامل بين الأفراد عامة ولضمان وتقرير حق النساء كالرجال فى الملك والكسب ـ كل حسب نصيبه ـ وأخيراً لتنظيم التعامل فى عقود الولاء التى كانت سارية فى الجاهلية وفى القسم الأول من صدر الإسلام، لتصفية هذا النظام ، وتخصيص الميراث بالأقارب ومنع عقود الولاء الجديدة .

ويقول صاحب الظلال: « وهنا فى هذه الآيات نجد النهى للذين آمنوا عن أكل أموالهم بينهم بالباطل ، ـ وبيان الوجه الحلال للربح فى تداول الأموال ـ وهو التجارة ـ ونجد إلى جانبه تصوير أكل الأموال بالباطل بأنه قتل للأنفس ؛ وهلكة وبوار . ونجد إلى جانبه كذلك التحذير من عذاب الآخرة ومس النار ! .. وفى الوقت ذاته نجد التيسير والوعد بالمغفرة والتكفير ، والعون على الضعف والعفو عن التقصير .. كذلك نجد تربية النفوس على عدم التطلع إلى ما أنعم الله على البعض،والتوجه إلى الله ـ صاحب العطاء ـ وسؤال من بيده الفضل والعطاء، وذلك التوجيه مصاحب لتقرير حق الرجال ونصيبهم فيما اكتسبوا ، وحق النساء ونصيبهن فيما اكتسبن ، وهذا وذلك مصحوب بأن الله كان بكل شىء عليماً .. كما أن بيان التصرف فى عقود الولاء ، والأمر بالوفاء بها نجده مصحوباً بأن الله كان على كل شىء شهيداً .. وهى لمسات وجدانية مؤثرة مصاحبة للتشريع ، وتوجيهات تربوية من صنع العليم بالإنسان ، وتكوينه النفسى ، ومسالك نفسه ودروبها الكثيرة » .

وفى سياق الحديث عن الأموال ، وتداولها فى الجماعة المسلمة ، تجىء تكملة فيما بين الرجال والنساء من ارتباطات ومعاملات فينهى الله عن تمنى ما فضل الله بعض المؤمنين على بعض .. من أى نوع من أنواع التفضيل ، فى الوظيفة والمكانة ، وفى الاستعدادات والمواهب ، وفى المال والمتاع ، وفى كل ما تتفاوت فيه الأنصبة فى هذه الحياة .. والتوجه بالطلب إلى الله ، وسؤاله من فضله مباشرة ؛ بدلاً من إضاعة النفس حسرات فى التطلع إلى التفاوت ، وبدلًا من المشاعر المصاحبة لهذا التطلع من حسد وحقد ؛ ومن حنق كذلك ونقمة ، أو من شعور بالضياع

والحرمان ، والتهاوى والتهافت أمام هذا الشعور .. وما قد ينشأ عن هذا كله من سوء ظن بالله ؛ وسوء ظن بعدالة التوزيع .. حيث تكون القاصمة ، التى تذهب بطمأنينة النفس ، وتورث القلق والنكد ؛ وتستهلك الطاقات فى وجدانات خبيثة ، وفى اتجاهات خبيثة . بينما التوجه مباشرة إلى فضل الله ، هو ابتداء التوجه إلى مصدر الإنعام والعطاء ، الذى لا ينقص ما عنده بما أعطى ، ولا يضيق بالسائلين المتزاحمين على الأبواب ! وهو بعد ذلك موئل الطمأنينة والرجاء ، ومبعث الإيجابية فى تلمس الأسباب ، بدل بذل الجهد فى التحرق والغيظ أو التهاوى والانحلال !

وقال السدى فى هذا الصدد : إن رجالاً قالوا : إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء ، كما لنا فى أجر السهام سهمان ! وقالت النساء : إنا نريد أن يكون لنا مثل أجر الشهداء ، فإننا لا نستطيع أن نقاتل ، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا ! فأبى الله ذلك ، ولكن قال لهم : سلونى من فضلى . قال ليس بعرض الدنيا ... وروى مثل ذلك عن قتادة .

وبعد أن ذُكر أن للرجال نصيباً مما اكتسبوا ، وللنساء نصيباً مما اكتسبن .. وبين ـ فيما سلف ـ أنصبة الذكور والإناث فى الميراث .. ذكر أن الله جعل لكل موالى من قرابته يرثونه . يرثونه مما آل إليه من الوالدين والأقربين .. فالمال يظل يتداول بهذا الإرث جيلاً بعد جيل يرث الوارثون ثم يضمون إلى ميراثهم ما يكتسبون ؛ ثم يرثهم من يلونهم من الأقربين .. وهى صورة تمثل دورة المال فى النظام الإسلامى ؛ وأنها لا تقف عند جيل ؛ ولا تتركز فى بيت ولا فرد .. إنما هو التوارث المستمر ، والتداول المستمر ، وحركة التوزيع الدائبة ؛ وما يتبعها من تعديل فى المالكين ، وتعديل فى المقادير ؛ بين الحين والحين.

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن من رحمة الله بالإنسان وإرادته به اليسر لا العسر ، أنه ـ سبحانه ـ يخفف عنه ، لعلمه بضعفه وقلة احتماله ، فلم يشرع له منهجاً يشق عليه تطبيقه ، ولا حرّم عليه ما يستحيل عليه الامتناع عنه .

٢ ـ أن تشريع النهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، يستهدف استقرار الحياة الاقتصادية بين الناس ، وإقرار العدل ومقاومة الظلم .

٣ ـ أن اجتناب الكبائر بإخلاص يؤدى إلى تكفير السيئات ، وتلك رحمة من الله تعالى بعباده الذين يسيئون إلى أنفسهم بمعصية الله تعالى .بل يزيدهم الله تعالى من بره وكرمه فيدخلهم الجنة .

٤ ـ المسلم مطالب بأن يرضى بم قسم الله له ، وقد روى أحمد بسنده عن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .... » الحديث .

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥) ۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧)

ربع الحزب ٩

معانى الكلمات :

قوامون على النساء : قيام الولاة المصلحين ورعاية الأسرة. **قانتات** : مطيعات لله ثم لأزواجهن . **حافظات للغيب** : صائنات للعرض والمال فى غيبة الزوج. **نشوزهن** : عصيانهن . **عظوهن**:ذكروهن . **اهجروهن فى المضاجع**:اتركوا فراشهن،والنوم معهن. **شقاق** : خلافًا وعداوة . **الجار الجنب** : الجار البعيد سكناً أو ليس له قرابة تربطه بجاره . **الصاحب بالجنب** : الرفيق فى أى أمر حسن . **ابن السبيل** : المسافر الذى انقطع عن أهله وماله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان المفهوم الصحيح لقوامة الرجال على النساء .

٢ ـ بيان صفات المرأة الصالحة .

٣ ـ بيان الحكمة من تشريع الله ؛ معاملة الزوجة بالعظة ثم بالهجر ثم بالضرب .

٤ ـ أن نعرف كيف نتقى النشوز من قبل النساء وكيف نضمن سلامة بناء الأسرة .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق القرآنى تشريعاته فى تنظيم مؤسسة الأسرة ، وضبط الأمور فيها ؛ وتوزيع الاختصاصات ، وتحديد الواجبات ؛ وبيان الإجراءات التى تتخذ لضبط أمور هذه المؤسسة ؛ والمحافظة عليها من زعازع الأهواء والخلافات ؛ واتقاء عناصر التهديم فيها والتدمير ، جهد المستطاع .

فيتحدث السياق عن ولاية وقوامة الرجال على النساء فى المسؤولية والتوجيه فهم ، قائمون عليهن بالأمر والنهى، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية : ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ أى بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير ، وخصهم به من الكسب والإنفاق ، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والتأديب ، قال أبو السعود : « والتفضيل للرجال لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأى ومزيد القوة ، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك » .

والقوامة هى فى الحقيقة درجة (مسؤولية وتكليف) لا درجة (تفضيل وتشريف) إذ هى مساهمة فى تحمل الأعباء ، وتوزيع الاختصاصات ، وتحديد الواجبات داخل هذه المؤسسة الصغيرة « الأسرة » التى اهتم بها الإسلام أيما اهتمام ، وليست القوامة كما يفهمها البعض للسيطرة والاستعلاء وإلغاء شخصية المرأة فى البيت ، وإنما هى وظيفة لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة وصيانتها وحمايتها ، فلابد لكل أمر مهم من رئيس يتولى التدبير والقيادة ، وقد جعل الله للرجال حق القيام على النساء بالتأديب والتدبير والحفظ والصيانة . وبعد بيان واجب الرجل وحقه والتزاماته وتكاليفه فى القوامة ، يجىء بيان طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة وسلوكها وتصرفها الإيمانى فى محيط الأسرة ، فمن طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة ومن صفتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها ، أن تكون قانتة .. مطيعة .. والقنوت : الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة ، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومعاظلة ! وكذلك هى حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها فى غيبته ـ وبالأولى فى حضوره ـ فلا تبيح من نفسها فى نظرة أو نبرة ـ بله العرض والحرمة ـ ما لا يباح إلا له هو ـ بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة . وما لا يباح ، لا تقرره هى ، ولا يقرره هو : إنما يقرره الله ـ سبحانه : ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجته من نفسها ـ فى غيبته أو فى حضوره ـ ما لا يغضب هو له أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع ! إذا انحرف المجتمع عن منهج الله .. إن هناك حكماً واحداً فى حدود هذا الحفظ ؛ فعليها أن تحفظ نفسها ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ . فأما غير الصالحات .. فهن الناشزات ، والمرأة الناشز هى التى تستعلى بالعصيان والتمرد والإسلام لا ينتظر حتى يقع النشوز فعلاً وتتصدع مؤسسة الأسرة ، وتسقط مهابة القوامة ، بل يشرع الإجراء الوقائى للمبادرة بإصلاح النفوس والأوضاع ، لا لزيادة إفساد القلوب ، وملئها بالبغض والحنق ، أو بالمذلة والرضوخ الكظيم ! فيبدأ بالموعظة وهى أولى واجبات القيم ورب الأسرة ، وحين لا تجدى ولا تنفع يأتى الإجراء الثانى إسقاط أمضى أسلحة المرأة التى تعتز بها فيقهر دوافعه تجاه إغرائها : ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « على أن هناك أدباً معيناً فى هذا الإجراء .. إجراء الهجر فى المضاجع وهو ألا يكون هجراً ظاهراً فى غير مكان خلوة الزوجين .. لا يكون هجراً أمام الأطفال ، يورث فى نفوسهم شراً وفساداً .. ولا هجراً أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها ، فتزداد نشوزاً. فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة ، ولا إفساد الأطفال .. ! وحين لا تجدى الموعظة ولا يجدى الهجر فى المضاجع يأتى الإجراء الثالث : ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ واستصحاب الهدف من هذه الإجراءات كلها يمنع أن يكون هذا الضرب تعذيباً للانتقام والتشفى .. ويمنع أن يكون إهانة للإذلال والتحقير . ويمنع أن يكون أيضاً للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاها . ويحدد أن يكون ضرب تأديب مصحوب بعاطفة المؤدب المربى ، كما يزاوله الأب مع أبنائه وعلى أية حال فقد جعل لهذه الإجراءات حدًا تقف عنده ـ متى تحققت الغاية ـ غاية الطاعة ـ هى المقصودة . وهى طاعة الاستجابة لا طاعة الإرغام . فهذه ليست طاعة تصلح لقيام مؤسسة الأسرة .

واستكمالاً للحماية الوقائية لبنيان الأسرة من التصدع يلجأ للوسيلة الأخيرة ـ عند خوف الشقاق ـ فيبادر قبل وقوع الشقاق فعلاً .. ببعث حكم من أهله ، وحكم من أهلها ـ يجتمعان فى هدوء . بعيدين عن الانفعالات النفسية ، والرواسب الشعورية والملابسات المعيشية راغبين فى خير الزوجين وأطفالها ومؤسستها المهددة بالدمار .. وفى الوقت ذاته هما مؤتمنان على أسرار الزوجين . فإن أرادا إصلاحاً فإن الله يقدر الصلاح بينهما والتوفيق .

وبعد ختام الجولة التربوية الأولى لإرساء دعائم الأسرة المسلمة وفق التشريع القرآنى ، تأتى الجولة الثانية لإرساء القاعدة الأولية التى يَقُوم عليها المجتمع المسلم ـ قاعدة التوحيد الخالص ـ التى تنبع منها كل التصورات الأساسية للعلاقات الكونية والحيوية والإنسانية،يأتى الأمر الأول بعبادة الله . والنهى الثانى لتحريم عبادة أحد ـ معه ـ سواه ، ثم ينطلق الأمر إلى الإحسان إلى الوالدين ـ على التخصيص ـ ولذوى القربى على التعميم ، ويعقب على الأمر بالإحسان ، بتقبيح الاختيال والفخر ، والبخل والتبخيل وكتمان نعمة الله وفضله ، والرياء فى الإنفاق ؛ والكشف عن سبب هذا كله ، وهو عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، واتباع الشيطان وصحبته ، وهنا تتضح حقيقة ثابتة فى المنهج الإسلامى وهى ربط كل مظاهر السلوك ، وكل دوافع الشعور ، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة ، فالتوحيد يتبعه الإحسان إلى البشر ، ابتغاء وجه الله ورضاه ، والتعلق بثوابه فى الآخرة ؛ فى أدب ورفق ومعرفة بأن العبد لا ينفق إلا من رزق الله . فهو لا يخلق رزقه ، ولا ينال إلا من عطاء الله . والكفر بالله وباليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر ، والبخل والأمر بالبخل ، وكتمان فضل الله ونعمته بحيث لا تظهر آثارها فى إحسان أو عطاء ؛ أو الإنفاق رياء وتظاهراً طلباً للمفخرة عند الناس ؛ إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخيلاء بين العباد ! لذا كان الجزاء العذاب المهين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قوامة الرجال على النساء لا تعنى السلطة أو الاستبداد ، وإنما قوامة مقيدة بحسن المعاشرة وحسن الرعاية وتحمل المسؤولية .

٢ ـ من صفات المرأة الصالحة المؤمنة : الطاعة للزوج عن رضا وحب ، وحفظ الغيب بما حفظ الله فى نفسها ومال زوجها وتربية أبنائها .

٣ ـ للزوج حق تأديب زوجته وفق حدود الشرع مع مراعاة التدرج فى مراحله من الموعظة إلى الهجر فى المضاجع إلى الضرب غير المبرح بنية الإصلاح لا الإذلال .

٤ ـ إخلاص العبادة لله وحده هو الحل لكل مشكلات الحياة .

٥ ـ الإحسان جزء من الدين ولا إسلام على وجه صحيح إلا به ، ويبدأ بالوالدين ولا ينتهى حتى يضم ابن السبيل وما ملكت اليمين .

٦ ـ الرياء والرغبة فى الحصول على رضا الناس من أسوأ صفات الإنسان ، ومن أسباب إحباط العمل وعدم قبوله عند الله .

الجزء الخامس — سورة النساء

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

٨٥

معانى الكلمات :

رئاء الناس : مراءة لهم وسمعة لا لوجه الله . **قريناً** : ملازماً .

جنباً : من عليه جنابة ، وهى الأثر الناتج من التقاء الرجل والمرأة .

عابرى سبيل : مسافرين فقدوا الماء فتيمموا .

الغائط : كناية عن الحدث (التبول أو التبرز) .

لامستم : جامعتم .

فامسحوا : وذلك بإمرار اليد على التراب أو الأرض ثم إمرارها على الوجه واليدين بقصد الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان الحكمة من التدرج فى تحريم الخمر .

٢ ـ بيان يسر الإسلام فيما شرعه من التيمم بدلاً من الوضوء أو الغسل عند المرض أو فقد الماء .

٣ ـ أن نتعلم كيفية التيمم .

المحتوى التربوى :

تواصل هذه الآيات رسمها للسمات الأساسية للمنهج الإسلامى ، وهى ربط كل مظاهر السلوك ، وكل دوافع الشعور ، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة . فإفراد الله ـ سبحانه ـ بالعبادة والتلقى ، يتبعه الإحسان إلى البشر ، ابتغاء وجه الله ورضاه ، والتعلق بثوابه فى الآخرة ؛ فى أدب ورفق ومعرفة بأن العبد لا ينفق إلا من رزق الله . فهو لا يخلق رزقه ، ولا ينال إلا من عطاء الله .. والكفر بالله وباليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر ، والبخل والأمر بالبخل ، وكتمان فضل الله ونعمته بحيث لا تظهر آثارها فى إحسان أو عطاء ؛ أو الإنفاق رياء وتظاهراً طلبًا للمفخرة عند الناس ؛ إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخيلاء بين العباد !

وحين ينتهى من عرض سوءات نفوسهم وسلوكهم ؛ ومن عرض أسبابها من الكفر بالله واليوم الآخر ، وصحبة الشيطان واتباعه ؛ ومن الجزاء المهيأ لأصحاب هذه السوءات ، وهو

العذاب المهين عندئذ يسأل فى استنكار ماذا عليهم ؟ ما الذى يخشونه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإنفاق من رزق الله . والله عليم بهم وبما أنفقوا وبما استقر فى قلوبهم من بواعث . والله لا يظلم مثقال ذرة فلا خشية من الجهل بإيمانهم وإنفاقهم ولا خوف من الظلم فى جزائهم .. بل هناك الفضل والزيادة ، بمضاعفة الحسنات ، والزيادة من فضل الله بلا حساب ؟

ثم يختم الأوامر والنواهى ، والتحضيض والترغيب ، بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يجسم موقفهم فيه ، ويرسم حركة النفوس والمشاعر كأنها شاخصة متحركة ، ويمهد لمشهد القيامة ، بأن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ويضاعف الحسنات ، ويؤتى فضلاً عنها أجراً من لدنه عظيماً . فهى الرحمة إذن لمن يستحقون الرحمة ، والفضل المطلق لمن كانوا يرجون الفضل ، بالإيمان والعمل . أما الذين لم يقدموا إيماناً، ولم يقدموا عملاً . فكيف يكون حالهم يوم القيامة؟ إنها المهانة والخزى، والخجل والندامة .. مع الاعتراف حيث لا جدوى من الإنكار .

ويبدأ درس جديد بالأمر بعبادة الله والنهى عن إشراك شىء به .. والصلاة أمسّ الشعائر بمعنى العبادة . وفى هذا الدرس بيان لبعض أحكامها ، وأحكام الطهارة الممهدة لها . ويعالج السياق ظاهرة الخمر التى كانت متغلغلة فى المجتمع . فلقد عالجها ببضع آيات من القرآن ؛ وعلى مراحل ، وفى رفق وتؤدة ، وكسب المعركة . دون حرب ، ودون تضحيات ودون إراقة دماء .. والذى أريق فقط هو دنان الخمر وزقاقها وجرعات منها كانت فى أفواه الشاربين ـ حين سمعوا آية التحريم ـ فمجوها من أفواههم . ولم يبلعوها .

يقول صاحب الظلال : « لقد انتصر القرآن ، وأفلح المنهج وفرض سلطانه ـ دون أن يستخدم السلطان .. لأنه أخذ النفس الإنسانية بسلطان الله وخشيته ومراقبته ، وبحضور الله ـ سبحانه ـ فيها حضوراً لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان .. وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة .. لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغاً تملؤه بنشوة الخمر ، وخيالات السكر ، وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء فى الهواء .

ملأ فراغها باهتمامات . منها : نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها ، من تيه الجاهلية الأجرد ، وهجيرها المتلظى ، وظلامها الدامس ، وعبوديتها المذلة . إلى رياض الإسلام البديعة ونوره الوضىء ، وحريته الكريمة التى تشمل الدنيا والآخرة ! وملأها بالإيمان .. فلم تعد فى حاجة إلى نشوة الخمر . تحلق بها فى خيالات كاذبة ! وهى ترف بالإيمان المشع إلى الأعلى الوضىء.. وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله .. وتذوق طعم هذا القرب ، فتمج طعم الخمر ونشوتها ، وترفض خمارها وصداعها ؛ وتستقذر لوثتها وخمودها فى النهاية ! » .

كما منعت الآيات ـ الذين آمنوا ـ أن يقربوا الصلاة وهم سكارى ـ حتى يعلموا ما يقولون ـ كذلك منعتهم من الصلاة وهم جنب ـ إلا عابرى سبيل ـ حتى يغتسلوا .

ويمضى السياق ميسراً على المؤمنين فيشمل حالة المسافر ـ عندما يصيبه حدث أكبر فيكون جنباً فى حاجة إلى الغسل أو حدث أصغر ، فيكون فى حاجة إلى الوضوء ، لأداء الصلاة وكذلك من كان مريضاً ، فألم به حدث أكبر أو أصغر ، أو بمن جاء من الغائط فأصابه حدث أصغر

يقتضى الوضوء ، أو بمن لامس النساء ، كل هؤلاء وجب عليهم الوضوء قبل الدخول فى الصلاة فإن لم يجدوا ماءً يغنى عن الغسل والوضوء : فالتيمم .

وطريقة التيمم : إما خبطة واحدة بالكفين على الصعيد الطاهر ثم نفضهما ثم مسح الوجه ، ثم مسح اليدين إلى المرفقين بهما .. وإما خبطتان : خبطة يمسح بها الوجه ، وخبطة يمسح بها الذراعين .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا كله يدل بالإضافة إلى ما سيأتى فى السورة من بيان كيفية الصلاة عند الخوف ـ فى ميدان القتال ـ على حرص شديد من المنهج الربانى ، على الصلاة .. بحيث لا ينقطع المسلم عنها لسبب من الأسباب (ويبدو ذلك كذلك فى المرض حيث تؤدى الصلاة من قعود ، أو من اضطجاع ، أو من نوم . وتؤدى بحركات من جفنى العين عندما يشق تحريك الجسم والأطراف !)

إنها هذه الصلة بين العبد والرب . الصلة التى لا يحب الله للعبد أن ينقطع عنها لأنه ـ سبحانه ـ يعلم ضرورتها لهذا العبد ، فالله ـ سبحانه ـ غنى عن العالمين . ولا يناله من عبادة العباد شىء إلا صلاحهم هم . وإلا ما يجدون فى الصلاة والاتصال بالله ، من العون على تكاليفهم ، والاسترواح لقلوبهم ، والاطمئنان لأرواحهم . والإشراق فى كيانهم ؛ والشعور بأنهم فى كنف الله ، وقربه ، ورعايته ، بالطريقة التى تصلح لفطرتهم . والله أعلم بفطرتهم هذه ، وبما يصلح لها وما يصلحها .. وهو أعلم بمن خلق . وهو اللطيف الخبير » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحث على أن يكون الإنفاق ابتغاء لمرضاة الله ، خالياً من الرياء وحب الظهور والسمعة ، وحسن الصيت .

٢ ـ أن الصلاة رأس العبادات ، وأن المؤمن لا يؤديها إلا وهو كامل الوعى مدرك لما يقول فى صلاته من قراءة أو دعوات ، لذا حُرِّمَ شرب الخمر أو أى مسكر أو نحوه مما يذهب العقل أو يصيبه بالخلط عند الدخول فى الصلاة .

٣ ـ أن الخمر قد حرمت مطلقاً ، حرم شربها والاتجار فيها وحملها وحفظها ولو كانت وديعة أو أمانة من أى شخص ، لما فيها من ضرر يلحق الفرد والمجتمع ، ولما يسبب تعاطيها من إيقاع العداوة والبغضاء بين الذين يتعاطونها، ولما تسببه من ذهاب عقله وذهاب كرامته ، ووقاره ؛ ولأن الله تعالى لا يحرم على عباده إلا ما يضرهم تعاطيه أو التعامل معه .

٤ ـ يسر الإسلام فيما شرعه من التيمم بدلاً من الوضوء أو الغسل عند المرض أو فقد الماء .

٥ ـ تحريم الصلاة وقراءة القرآن ودخول المسجد على الجنب حتى يغتسل (أو يتيمم عند فقد الماء أو تعذر استعماله) .

الجزء الخامس — سورة النساء

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ
وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا
﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ
وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

٨٦

معانى الكلمات :

يحرفون الكلم : يغيرون أو يفسدون بالباطل .

راعنا : يريدون الرعونة ، ويقصدون سبه وتنقيصه ﷺ .

وأقوم : أعدل وأصوب . **نطمس وجوهاً** : نتركهم فى الضلالة . **نردها على أدبارها** : نصرفها عن الحق . **ما دون ذلك** : غير الشرك من الذنوب لمن يشاء .

يزكون أنفسهم : يمدحونها بالبراءة من الذنوب .

فتيلاً : قدر الخيط الرقيق فى شق نواة البلح .

إثماً مبيناً : كذباً وافتراءً ظاهراً . **الجبت والطاغوت**: كل معبود من دون الله ، **وقيل: الجبت** : السحر ، **والطاغوت** : الشيطان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان طبائع اليهود المقيتة من سوء أدبهم مع الله، وإضلالهم للمهتدين .

٢ ـ أن نعلم عداوة اليهود للذين آمنوا ، وأن نحذر مكائدهم لإضلالنا .

٣ ـ ألا نبالغ فى الثناء على الآخرين وتزكيتهم ، ولا نزكى أنفسنا فهذا من صفات اليهود .

المحتوى التربوى :

بعد التمهيد للدولة الإسلامية الناشئة وإرساء قواعدها التنظيمية يأتى هذا الدرس لإعلان بداية المعركة مع المعسكرات المعادية المتربصة بالجماعة المسلمة الناشئة فى المدينة . ففى هذه الآيات يتعجب الله من حال اليهود وتصرفاتهم فى مواجهة الدين الجديد والجماعة التى تمثله ، فقد آتاهم الله التوراة ؛ لتكون هداية لهم من ضلالتهم الأولى ، ولكنهم يدَعُون هذا النصيب ، يدعون الهداية ويشترون الضلالة عن علم وعن قصد وعمد ، لا عن جهل أو خطأ أو سهو ! وهو أمر عجيب مُستنكر .

ليس هذا فحسب ، بل يريدون أن يضلوا المهتدين بشتى الوسائل والطرق ؛ لذا يحذر الله ـ سبحانه وتعالى ـ المسلمين من ألاعيب اليهود وتدبيرهم ليثير نفوس المسلمين ضد الذين

يريدون لهم الضلالة بعد الهدى ، ومن ثم يعقب على إبراز هذه المكائد من اليهود ، بالتصريح بأن هؤلاء أعداء المسلمين ، وبتطمين الجماعة المسلمة إلى ولاية الله ونصره إزاء تلك المكائد .

ومن هذه المكائد ، وسوء أدبهم مع الله عز وجل : أن يحرفوا الكلام عن المقصود به ؛ **ويقول صاحب الظلال** : « والأرجح أن ذلك يعنى تأويلهم لعبادات التوراة بغير المقصود منها ، وذلك كى ينفوا ما فيها من دلائل الرسالة الأخيرة ومن أحكام وتشريعات يصدقها الكتاب الأخير ؛ وتبعاً لهذا على صحة رسالة النبى ﷺ . وتحريف الكلم عن المقصود به ، ليوافق الأهواء ، ظاهرة ملحوظة فى كل رجال دين ينحرفون عن دينهم ، ويتخذونه حرفة وصناعة ، يوافقون بها أهواء ذوى السلطان فى كل زمان ؛ وأهواء الجماهير التى تريد التفلت من الدين ، واليهود أبرع من يصنع ذلك ، وإن كان فى زماننا هذا من محترفى دين المسلمين من ينافسون ـ فى هذه الخصلة ـ اليهود !

ثم بلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع رسول الله ﷺ أن يقولوا : سمعنا يا محمد ما تقول ، ولكننا عصينا ! فلا نؤمن ولا نتبع ولا نطيع . ثم يضيفون إلى التبجح سوء الأدب والخلق والالتواء أيضاً ، إذ يقولون للرسول ﷺ : « واسمع غير مسمع ـ وراعنا » فهم يقصدون : اسمع ـ لا سمعت ، ولا كنت سامعاً ! ـ أخزاهم الله ـ وراعنا يميلونها إلى وصف « الرعونة» .

وبالرغم من سوء تأدبهم يقرر الله لهم المنهج اللائق بهم ، والأدب الجدير بمن أوتوا نصيباً منه ويطمعهم ـ بعد ذلك كله ـ فى الهداية والجزاء الحسن والفضل والخير من الله لو ثابوا إلى الطريق القديم ، وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم : ﴿ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

بعد ذلك يتجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب ـ اليهود ـ دعوة إلى الكتاب المصدق لما بين أيديهم ، وتهديداً لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم ، ودفعاً لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخالص ، الذى عليه دينهم ، والله لا يغفر أن يشرك به ، وفى الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة ؛ وبشاعة الشرك حتى إنه ليخرج من هذه الحدود .

ثم يمضى القرآن ، وهو يخوض المعركة بالجماعة المسلمة مع اليهود فى المدينة ـ يعجب من أمر هؤلاء الخلق ؛ الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار ؛ ويثنون على أنفسهم ؛ ويزكونها ؛ بينما هم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويتطاولون على الله ورسوله ـ كما سبق ـ وبينما هم يؤمنون بالجبت والطاغوت ـ كاذبين على الله فى تزكيتهم لأنفسهم، وفى زعمهم أنهم مقربون إليه مهما عملوا من السوء !

يقول صاحب الظلال : « إنه ليس الناس هم الذين يزكون أنفسهم ؛ ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله واختيار الله ، إنما الله هو الذى يزكى من يشاء ، فهو أعلم بالقلوب والأعمال ، ولن يظلم الناس شيئاً ، إذا هم تركوا هذا التقدير لله ـ سبحانه ـ واتجهوا إلى العمل ، لا إلى

الادعاء فلئن عملوا وهم ساكتون متواضعون فى حياء من الله ـ سبحانه ـ وبدون تزكية ولا ادعاء فلن يغبنوا عند الله ؛ ولن يُنسى لهم عمل ؛ ولن يُبخس لهم حق.

وما أرى أننا ـ الذين ندَّعى الإسلام ؛ لأننا نحمل أسماء المسلمين ، ونعيش فى أرض كان يسكنها المسلمون ! بينما نحن لا نجعل الإسلام فى شىء من منهجنا فى الحياة . ما أحسبنا ونحن ندعى الإسلام ، فنشوه الإسلام بصورتنا وواقعنا ؛ ونؤدى ضده شهادة منفرة منه ! ثم ونحن ندعى أن الله مختار لنا لأننا أمة محمد ﷺ ، بينما دين محمد ومنهجه مطرود من واقع حياتنا طرداً ، ما أحسبنا إلا فى مثل هذا الموضع الذى يعجب الله ـ سبحانه ـ منه رسوله ﷺ ويدفع أصحابه بافتراء الكذب على الله ، وارتكاب هذا الإثم المبين والعياذ بالله !

إن دين الله منهج حياة ، وطاعة الله هى تحكيم هذا المنهج فى الحياة . والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته ، فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه ، ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود ، الذين يعجب الله من حالهم ، ويدفعهم بإثم الافتراء عليه فى تزكيتهم لأنفسهم ! فالقاعدة هى القاعدة . والحال هى الحال . وليس لأحد عند الله نسب ولا صهر ولا محاباة !!

ويستأنف السياق عجبه من أمر أولئك الذين يزكون أنفسهم ، بينما هم يؤمنون بالباطل وبالأحكام التى لا تستند إلى شرع الله ، وليس لها ضابط يعصمها من الطغيان : « الجبت والطاغوت » بينما هم يشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين بكتاب الله ومنهجه وشريعته ، ويحمل عليهم بعد التعجب من أمرهم ، وذكر هذه المخازى عنهم ـ حملة عنيفة ؛ ويرذلهم ترذيلاً شديداً ؛ ويظهر كامن طباعهم من الحسد والبخل ، والأسباب الحقيقية التى تجعلهم يقفون هذا الموقف إلى جانب انحرافهم التى وضحته الآيات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، والله تعالى يعلم عداوتهم لهذا الدين كما جاء فى سورة المائدة : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ .

٢ ـ الله تعالى ولى المؤمنين وناصرهم ، ومن كان الله وليه وناصره ، فلن تضيره عداوة الأعداء ولا بغضاؤهم ، مهما كثروا وتنوعوا ، المهم أن يكون على مستوى الالتزام بما يوجبه الإيمان من اعتقاد صحيح وعمل صالح .

٣ ـ أن الذنوب جميعاً ـ ما عدا الشرك بالله ـ تتناولها مغفرة الله تعالى ، حتى لو كانت من الكبائر ، ولكن لابد من التوبة والاستغفار ـ عند ارتكاب الذنوب .

٤ ـ ينبغى على المسلم ألا يزكى نفسه ، ولا يزكى غيره أو يمدحه ، لما رواه مسلم بسنده عن المقداد بن الأسود ﷺ قال : أمرنا رسول الله ﷺ : أن نحثوا فى وجوه المداحين التراب .

الجزء الخامس — سورة النساء

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

نصف الحزب ٩

٨٧

معانى الكلمات :

نقيراً : قدر النقرة فى ظهر النواة .

صَدّ عنه : كفر به .

نضجتّ جلودهم : احترقت وتلاشت .

ظليلاً : دائماً لا حر فيه ولا برد .

الأمانات : كل ما يؤتمن عليه الإنسان .

أولى الأمر منكم : قادتكم ورؤسائكم .

تنازعتم فى شيء : اختلفتم فى الحكم على أمر من الأمور .

أحسن تأويلاً : أسلم وأجمل عاقبة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان فضل الله على عباده ـ بكونه وحده مالك الملك .

٢ ـ بيان أهمية أداء الأمانات لأهلها، ومفهوم الأمانة بمعناها الواسع والشامل .

٣ ـ بيان وجوب طاعة الله ورسوله وأولى الأمر .

٤ ـ أن نعلم أن السعادة فى الدنيا والفلاح فى الآخرة فى التحاكم لكتاب الله وسنة نبيه والرضا بقضائها .

المحتوى التربوى :

دأب السياق القرآنى على إظهار كوامن طباع اليهود الفاسدة ، وأحقادهم ومكائدهم للمؤمنين حتى لا تبقى خالجة من شك لأحد فى أن اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، فها هو يظهر كامن طباعهم من الحسد والبخل ، ويكشف عن الحقيقة التى تجعلهم يقفون هذا الموقف إلى جانب انحرافهم عن دين إبراهيم ـ الذى يفخرون بالانتساب إليه .

ومع ذلك فهم لا يطيقون أن ينعم الله على عبد من عباده بشيء من عنده ، وما ذلك لشيء إلا للحسد الذى ملأ صدورهم ، فهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والتمكين فى الأرض مع أنهم غارقون فى فضل الله من عهد إبراهيم الذى آتاه الله وآله الكتاب

والحكمة ـ وهى النبوة ـ وآتاهم كذلك المُلك والسيادة ، وهم لم يرعوا الفضل ، ولم يحتفظوا بالنعمة ، ولم يصونوا العهد القديم ، بل كان منهم فريق من غير المؤمنين .

ويقول صاحب الظلال : « إنه من ألأم الحسد : أن يحسد ذو النعمة الموهوب ! لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة ! أما أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة ، فهذا الشر الأصيل العميق ! شر يهود ! المتميز الفريد ! ومن ثم يكون التهديد بالسعير ، هو الجزاء المقابل لهذا الشر النكير . ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ .

ويختم السياق هذا الصدود للإيمان فى آل إبراهيم ، بقاعدة شاملة فى الجزاء ، جزاء المكذبين ، وجزاء المؤمنين ، هؤلاء وهؤلاء أجمعون فى كل دين وفى كل حين ؛ ويعرض هذا الجزاء فى صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة الرعيبة .

ويقول صاحب الأساس :« بعد أن ذكر الله ـ عز وجل ـ فى الآيات السابقة كفر أهل الكتاب، وأنه لا يغفر شرك من أشرك به ، يتبين فى آيتين من هذه الآيات الثلاث التى هى خاتمة هذا المقطع جزاء الكافرين والمؤمنين ، ثم يُصدرْ للمؤمنين لايكون المؤمن تقياً إلا بهما . يخبر الله تعالى عما يعاقب به فى نار جهنم مَنْ كفر بآياته ، وصَدّ عن رسله ، بأنه سيدخلهم ناراً دخولاً يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم ، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم ، وأنه كلما احترقت جلودهم ، بُدِّلوا جلوداً غيرها ، حتى إنه ليتبدل فى الساعة مائة مرة كما روى عن عمر ﷺ ، وإذْ بيَّن عقوبة الكافرين ، بيّن فيما بعد جزاء المؤمنين ، فأخبر عن مآل السعداء فى جنات عدن التى تجرى فيها الأنهار فى جميع فجاجها .محالها، وأرجائها ، حيث شاؤوا ، وأين أرادوا ، وهم خالدون فيها أبداً ، لا يحولون ولا يزولون ، ولا يبغون عنها حولاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة من الحيض والنفاس والأذى ، ويدخلهم ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً .

ثم أمر الله عز وجل ـ المؤمنين أمرين ـ كلاهما ضرورى فى قضية التقوى :

الأمر الأول : فى أداء الأمانات إلى أهلها ، وهو يعّم جميَع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله ـ عز وجل ـ على عباده من الصلاة، والزكاة ، والصيام ، والكفارات ، والنذور ، وغير ذلك ، مما هو مؤتمن عليه لا يطّلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك ، مما يأتمنون به من غير اطلاع وبيّنة على ذلك فأمر الله عز وجل بأدائها ـ ومن ذلك قيام كل إنسان برعاية مسؤولياته .

والأمر الثانى : أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ، ولا عدل إلا بإقامة حكم الله ، وكل تصور للعدل غير ذلك ، إنما هو انحراف وجهل وجور ، ثم أثنى الله عز وجل على ما يأمرنا به

من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس ، ثم ختم الله الآية بأنه سميع لأقوالنا بصيرٌ بأفعالنا .

ثم يبين شرط الإيمان وحدّ الإسلام ، فى الوقت الذى يبين قاعدة النظام الأساسى فى الجماعة المسلمة ؛ وقاعدة الحكم ، ومصدر السلطان ، وكلها تبدأ وتنتهى عند التلقى من الله وحده ، والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصاً ، من جزئيات الحياة التى تعرض فى حياة الناس على مدى الأجيال ؛ مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام .. ليكون هناك الميزان الثابت ، الذى ترجع إليه العقول والآراء والأفهام !

ويقول صاحب الظلال : « إن الحاكمية لله وحده فى حياة البشر ـ ما جل منها وما دق ، وما كبر منها وما صغر ـ والله قدس شريعته وأودعها قرآنه . وأرسل بها رسولاً بيَّنها للناس ، ولا ينطق عن الهوى . فسنته ﷺ من ثم شريعة من شريعة الله ، والله واجب الطاعة . ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة . فشريعته واجبة التنفيذ . وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله ـ ابتداء ـ وأن يطيعوا الرسول ـ بما له من هذه الصفة ، صفة الرسالة من الله ، فطاعته إذن من طاعة الله ، الذى أرسله بهذه الشريعة ، وبيانها للناس فى سنته . وسنته وقضاؤه ـ على هذا ـ جزء من الشريعة واجب النفاذ ، والإيمان يتعلق ـ وجوداً وعدماً ـ بهذه الطاعة وهذا التنفيذ بنص القرآن ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا .

١ ـ من فضل الله ـ تعالى ـ على عباده أنه لم يعط الملك لأحد ، حتى لا يتحكم فى رقاب الناس وحياتهم .

٢ ـ ضرورة أداء الأمانات التى تشمل العقائد والعبادات والودائع وجميع التكاليف والأعمال والأسرار والحواس والأعضاء باستخدام كل ذلك فى طاعة الله والبعد عما حرم الله .

٣ ـ وجوب طاعة الله ورسوله وولاة المسلمين من حكام وعلماء وفقهاء ؛ لأن طاعة الرسول من طاعة الله ، وطاعة ولى الأمر من طاعة الرسول لقوله ﷺ : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » .

٤ ـ وجوب رد المتنازع فيه عقيدة أو عبادة أو قضاءً إلى الكتاب والسنة ووجوب الرضا بقضائهما .

٥ ـ العاقبة الحميدة والحياة السعيدة فى رد أمة الإسلام أمورها وما تتنازع فيه إلى كتاب ربها وسنة نبيها .

الجزء الخامس — سورة النساء

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

٨٨

معانى الكلمات :

الطاغوت : كل ما عبد من دون الله ورضى بذلك .

يصدون : يعرضون .

قولاً بليغاً : قولاً يبلغ من نفوسهم غاية التأثير .

فيما شجر بينهم : فيما اختلفوا فيه .

حرجاً مما قضيت : ضيقاً من قضائك وحكمك .

ويسلموا تسليماً : يخضعوا لحكمك ويسلموا به .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف موقف المنافقين من التحاكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

٢ ـ أن ندرك حقيقة الإيمان ومقتضاه فى التسليم لكتاب الله وهدى الرسول ﷺ .

٣ ـ بيان خطر المنافقين على الإسلام ، وضرورة الحذر منهم مع الاستمرار فى نصحهم وإرشادهم .

٤ ـ أن نعرف واجب الدعاة إلى الله ، وكيف يمارسون الدعوة ، وكيف يتعاملون مع كل طوائف المجتمع .

المحتوى التربوى :

بعد أن قرر السياق فى الآيات السابقة ضرورة التحاكم إلى الله والرسول فى كل شىء وجعل هذه القاعدة شرطاً للإيمان وحداً للإسلام ، ونظاماً أساسياً للأمة المسلمة . يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هذه القاعدة ؛ ثم يزعمون ـ بعد ذلك ـ أنهم مؤمنون ! وهم ينقضون شرط الإيمان وحد الإسلام ! إذ يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله ، إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به .

ويقول صاحب الظلال:«يلتفت إليهم ليعجب من أمرهم ويستنكر .وليحذرهم ـ وأمثالهم ـ من إرادة الشيطان بهم الضلال ، ويصف حالهم حين يدعون إلى ما أنزل الله وإلى الرسول

فيصدون ، ويعتبر هذا الصدود نفاقاً ، كما اعتبر إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت خروجاً من الإيمان ـ بل وعدم الدخول فيه ابتداء ـ كما يصف معاذيرهم الواهية الكاذبة فى اتباع هذه الخطة المستنكرة ، حين تجر عليهم الوبال والنكال ، ومع هذا كله فهو يوجه رسول الله ﷺ إلى النصح لهم وموعظتهم ، ويختم المقطع كله ببيان ما أراده الله ـ سبحانه ـ من إرسال الرسل ، وهو أن يطاعوا ، ثم بنص صريح جازم فى شرط الإيمان وحد الإسلام مرة أخرى ..

يقول صاحب المنار: «قال الأستاذ الإمام ـ محمد عبده : وقد ذكر المفسرون أسباباً متعددة لنزول هذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ يمنعنا اختلافها وتشتت رواياتها أن نجزم بواحدة معينة منها وإنما نسترشد بمجموعها إلى معرفة حال من أعرضوا عن حكم الرسول ﷺ وقد تقدم أن « الطاغوت » مصدر الطغيان وهو يصدق على كل من جاءت الروايات فى سبب نزول الآيات بالتحاكم إليهم (كما قرأت آنفاً) ، ومن قصد التحاكم إلى أى حاكم يريد أن يحكم له بالباطل ويهرب إليه من الحق ، فهو مؤمن بالطاغوت ولا كذلك الذى يتحاكم إلى من يظن أنه يحكم بالحق ، وكل من يتحاكم إليه من دون الله ورسوله ممن يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله فهو راغب عن الحق إلى الباطل وذلك عين الطاغوت الذى هو بمعنى الطغيان الكثير ، ويدخل فى هذا ما يقع كثيراً من تحاكم الخصمين إلى الدجالين كالعرافين وأصحاب المندل والرمل ومدعى الكشف ويخرج المحكم فى الصلح وكل ما أذن به الشرع مما هو معروف » .

ونحن نجد فى هذه المجموعة من الآيات ، تحديداً كاملاً دقيقاً حاسماً لشرط الإيمان وحد الإسلام ، وتتجلى الشهادة الواضحة من الله سبحانه ـ بعدم إيمان الذين ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ ، ولا يدخلون فى زمرة الإيمان والمؤمنين حتى يرجعوا إلى الرسول ﷺ ويحكموه فى شؤونهم وأقضيتهم ، ثم يطيعوا حكمه ، وينزلوا على قضائه ، طاعة ملؤها الرضا والتسليم ، لا عجزاً وقهراً ولكن طمأنينة وارتضاء .

وذلك لأن المقتضى الفطرى البدهى للإيمان ، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، وإلى من آمن به . فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل ، وبالرسول وما جاء به . ثم دعى إلى هذا الذى آمن به ، ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه ؛ كانت التلبية الكاملة هى البدهية الفطرية . فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البدهية الفطرية ، ويكشف عن النفاق ، وينبئ عن كذب الزعم الذى زعمه من الإيمان !

وينتقل السياق ليعرض مظهراً من مظاهر النفاق فى سلوكهم ؛ حين يقعون فى ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ؛ أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت ومعاذيرهم الواهية فيحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ! وهى دائماً دعوى كل ما من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته ، والله يعلم خبايا ضمائرهم ومكنونات

صدورهم . ومع ذلك يرغبهم الله فى العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت ؛ ومن الصدود عن الرسول ﷺ حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول ، فالتوبة بابها مفتوح ، والعودة إلى الله لم يفت أوانها بعد ؛ واستغفارهم الله من الذنب ، واستغفار الرسول لهم ، فيه القبول ! ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية : وهى أن الله قد أرسل رسله ليطاعوا ـ بإذنه ـ لا ليخالف عن أمرهم . ولا ليكونوا مجرد وعاظ ! ومجرد مرشدين !

وأخيراً يجىء البيان الحاسم الجازم : إذ يقسم الله ـ سبحانه ـ بذاته العلية ، أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله ﷺ فى أمره كله . ثم يمضى راضياً بحكمه ، مسلماً بقضائه ليس فى صدره حرج منه ، ولا فى نفسه تلجلج فى قبوله .

ويقول صاحب الظلال : « وإذا كان يكفى لإثبات « الإسلام » أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم الرسول ﷺ فإنه لا يكفى فى «الإيمان » هذا ، ما لم يصحبه الرضا النفسى ، والقبول القلبى ، وإسلام القلب والجنان ، فى اطمئنان ! هذا هو الإسلام ، وهذا هو الإيمان ، فلتنظر نفس أين هى من الإسلام ؛ وأين هى من الإيمان ! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن من لم يطع الله ورسوله وأولى الأمر من المؤمنين فقد خرج على منهج الله ، فإن كان خروجه صريحاً فهو الكفر ، وإن كان غير صريح فهو النفاق ، بمعنى أنه لا منجى من الكفر والنفاق إلا بطاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المؤمنين أى باتباع المنهج .

٢ ـ أن الله تعالى أرسل رسله ليطاعوا بإذنه تعالى ، فمن عصاهم استحق عقاب الله تعالى واستغفر له الرسول ﷺ وتاب الله عليه ورحمه .

٣ ـ الدعوة إلى الله واجب على كل مسلم ، وأساليب الدعوة ووسائلها التى حددها الله تعالى هى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن .

٤ ـ أن الالتجاء إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يمكن أن يؤدى بالناس إلى حرج أو مشقة أو ضلال عن الحق والخير والهدى ، فتلك مسلمات لدى المؤمنين بالله ورسوله المسلمين أمورهم لمنهجه ونظامه عن رضا وطاعة يحركها الحب والثقة .

٥ ـ لا إيمان لمن لم يحتكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، مع الرضا والتسليم والخضوع لما أمر به الله ورسوله .

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

٨٩

معانى الكلمات :

أن اقتلوا أنفسكم : أى عرضوا أنفسكم للقتل بالجهاد . **اخرجوا من دياركم** : هاجروا . **أشد تثبيتاً** : أقرب إلى ثبات الإيمان . **الصديقين** : الذين يصدقون أقوالهم بأفعالهم دائماً . **انفروا ثبات** : فاخرجوا للجهاد جماعات متفرقين .

ليبطئن : ليتثاقلن ويتخلفن عن الجهاد .

يشرون : يبيعون . **فى سبيل الله** : لإعلاء دينه . **نؤتيه** : نعطيه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أن تكاليف الله فى مقدور العباد ، والإسلام منهج يسر فى حدود استطاعة كل البشر .

٢ ـ بيان أهمية وفضل طاعة الله ورسوله فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ تصحيح مفهوم البلاء وبيان السلوك الصحيح للمسلم فى التعامل مع سنن الله وقدره .

المحتوى التربوى :

انتهت الآيات السابقة بتقرير قاعدة أساسية فى التصور الإسلامى ؛ وهى أنه لا إيمان قبل تحكيم رسول الله ﷺ وقبل الرضا والتسليم بقضائه ، وفى هذه الآيات يعود ليقول : إن هذا المنهج الذى يدعو إليه ؛ وهذه الشريعة التى يقال لهم : تحاكموا إليها ـ لا لسواها ـ وهذا القضاء الذى يتحتم عليهم قبوله والرضاء به .. إنه منهج ميسر ، وشريعة سمحة ، وقضاء رحيم إنه لا يكلفهم شيئاً فوق طاقتهم ؛ ولا يكلفهم عنتاً يشق عليهم ؛ ولا يكلفهم التضحية بعزيز عليهم .. فالله يعلم ضعف الإنسان ؛ ويرحم هذا الضعف . والله يعلم أنهم لو كلفوا تكاليف شاقة ، ما أداها إلا قليل منهم .. وهو لا يريد لهم العنت ، ولا يريد لهم أن يقعوا فى المعصية . ومن ثم لم يكتب عليهم ما يشق ، وما يدعو الكثيرين منهم للتقصير والمعصية . ولو أنهم استجابوا للتكاليف اليسيرة التى كتبها الله عليهم ، واستمعوا للموعظة التى يعظهم الله بها ؛ لنالوا خيراً عظيماً فى الدنيا والآخرة ؛ ولأعانهم الله بالهدى ، كما يعين كل من يجاهد للهدى بالعزم والقصد والعمل والإرادة فى حدود الطاقة .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا المنهج ميسر لينهض به كل ذى فطرة سوية إنه لا يحتاج إلى العزائم الخارقة الفائقة ، التى لا توجد عادة إلا فى قلة من البشر . وهذا الدين لم يجئ لهذه القلة القليلة . إنه جاء للناس جميعاً . والناس معادن ، وألوان ، وطبقات . من ناحية القدرة على النهوض بالتكاليف . وهذا الدين يُيسر لهم جميعاً أن يؤدوا الطاعات المطلوبة فيه ، وأن يكفوا عن المعاصى التى نهى عنها » .

وقتل النفس ، والخروج من الديار .. مثلان للتكاليف الشاقة ، التى لو كتبت عليهم ما فعلها إلا قليل منهم . وهى لم تكتب ، لأنه ليس المراد من التكاليف أن يعجز عنها عامة الناس وأن ينكل عنها عامة الناس . بل المراد أن يؤديها الجميع ، وأن يقدر عليها الجميع ، وأن يشمل موكب الإيمان كل النفوس السوية العادية ؛ وأن ينتظم المجتمع المسلم طبقات النفوس ، وطبقات الهمم، وطبقات الاستعدادات ؛ وأن ينميها جميعاً ويرقيها ، فى أثناء سير الموكب الحافل الشامل العريض !

قال ابن جريج : حدثنا المثنى إسحاق أبو الأزهر ، عن إسماعيل ، عن أبى إسحاق السبيعى قال : لما نزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ ﴾ ... الآية : قال رجل : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذى عافانا .. فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : « إن من أمتى لرجالاً الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى » .

ويستأنف السياق انسيابه الشجى فى الترغيب ؛ واستجاشة القلوب ؛ والتلويح للأرواح بالمتاع الحبيب .. متاع الصحبة فى الآخرة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين لمن أطاع الله ورسوله ، ولقد كان هذا الأمر يشغل قلوب الصحابة وأرواحهم .. أمر الصحبة للرسول ﷺ فى الآخرة .. كما كانت فى الدنيا .. وقد ذاقوا طعم الصحبة فى الدنيا ! وإنه لأمر يشغل كل قلب ذاق محبة هذا الرسول الكريم . فعن ربيعة الأسلمى ، أنه قال : كنت أبيت عند رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لى : « سل » فقلت : يا رسول الله أسألك مرافقتك فى الجنة فقال : « أو غير ذلك ؟ » . قلت : هو ذاك قال : « فأعنّى على نفسك بكثرة السجود » .

وينتقل سياق الآيات هنا نقلة جديدة ليخوض معركة ميدانها النفس البشرية ضد الهواجس والوساوس وسوء التصور ورواسب الجاهلية والضعف البشرى ـ حتى ولو لم يكن صادراً عن نفاق أو انحراف . ليسوسها بمنهجه الربانى لتصل إلى مرتبة القوة والتناسق فى الصف المسلم .

وهنا فى هذا الدرس يرسم الخطة العامة للحركة الإسلامية داخل أرض المعركة من أخذ للحذر من العدو ، والاستنفار العام الجماعى فى جماعات نظامية ، ثم يسلط السياق الأضواء الكاشفة لدخائل النفوس ويرسم حقيقتها من التباطؤ والتلكؤ ؛ وعدم المصارحة ليمسكوا العصا من الوسط كما يقولون ! وتصورهم للربح والخسارة بمنطق المنافقين وضعاف النفوس

والتخلف المقيت عن المعركة .. فإن أصابت المجاهدين محنة ، وابتلوا الابتلاء المنتظر فى بعض الأحايين ـ فرح المخلفون ؛ وحسبوا أن فرارهم من الجهاد ، ونجاتهم من الابتلاء نعمة ! فأما إذا كانت الأخرى .. فانتصر المجاهدون ؛ الذين خرجوا مستعدين لقبول كل ما يأتيهم به الله .. ونالهم فضل من الله بالنصر والغنيمة .. ندم المتخلفون أن لم يكونوا شركاء فى معركة رابحة ! رابحة بحسب مفهومهم القريب والقاصر للربح والخسارة !

يقول صاحب الظلال : « إن المؤمن لا يتمنى البلاء بل يسأل الله العافية . ولكنه إذا ندب للجهاد خرج ـ غير متثاقل ـ خرج يسأل الله إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ؛ وكلاهما فضل من الله ؛ وكلاهما فوز عظيم فيقسم له الله الشهادة ، فإذا هو راض بما قسم الله ؛ أو فرح بمقام الشهادة عند الله . ويقسم له الله الغنيمة والإياب ، فيشكر الله على فضله ، ويفرح بنصر الله . لا لمجرد النجاة !

وأخيراً يمضى السياق يحاول أن يرفع ويطلق هؤلاء المبطئين المثقلين بالطين وأن يوقظ فى حسهم التطلع إلى ما هو خير وأبقى .. الآخرة .. وأن يدفعهم إلى بيع الدنيا وشراء الآخرة . ويعدهم على ذلك فضل الله فى الحالتين ، وإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن الله تعالى ـ لرحمته بعباده وعلمه بضعفهم ـ لم يكلفهم بما يشق عليهم ولا بما يفوق طاقتهم وقدراتهم .

٢ ـ أن مقتضى الإيمان الصحيح الراسخ أن الله تعالى لو كلَّف عباده بما يشق عليهم أن يستجيبوا ، وأولئك قلة من المؤمنين الذين لو كلفوا بقتل أنفسهم لفعلوا ولكن الله تعالى لم يكلفهم بذلك .

٣ ـ أن المؤمن يجب أن يقبل على أداء ما كلفه الله به ، موقناً أن ذلك فى حدود استطاعته ، وأن فيه الخير بإذن الله تعالى .

٤ ـ أن طاعة الله ورسوله تلحق الطائعين بأعلى الدرجات ، وأرفعها عند الله ؛ إذ يتشرف الطائعون بمعية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنة ، وهذه هى أحسن الرفقة .

٥ ـ المؤمن لا يتمنى البلاء بل يسأل الله العافية ، وإذا ندب للجهاد خرج ـ غير متثاقل سائلاً الله عز وجل : النصر أو الشهادة وكلاهما عنده سواء .

الجزء الخامس — سورة النساء

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ
ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ
حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟
هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن
سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

٩٠

معانى الكلمات :

القرية : مكة . **من لدنك** : من عندك .

ولياً : معيناً . **كيد الشيطان**: احتياله للفساد.

كفوا أيديكم : اتركوا القتال . **أجل** : ميعاد . **فتيلاً** : الخيط يكون فى شق نواة التمر . **بروج** : قصور وحصون . **مشيدة** : محكمة أو مطولة ومرتفعة . **يفقهون** : يفهمون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان الغاية والهدف من الجهاد فى سبيل الله وأحكامه وآدابه .

٢ ـ الإخبار بصفات المنافقين عند دعوتهم للجهاد فى سبيل الله ليحذرهم المؤمنون .

٣ ـ بيان عاقبة الحماسة وفضيلة التؤدة والانضباط بأوامر الله وتوجيهات النبى ﷺ .

المحتوى التربوى :

فى الآيات السابقة سعى السياق لاستنهاض الهمم ورفعها إلى الآفاق السامية ، فعلقها بالرجاء فى فضل الله العظيم فى كلا الحالين : النصر أو الاستشهاد ، وهوّن عليها ما تخشاه من القتل ، وصوب تصورها للغنيمة التى ترجوها ، وفى هذه الآيات يلتفت السياق إلى المسلمين من الحكاية عن أولئك المبطئين إلى استجاشة مروءة النفوس وحساسية القلوب ؛ تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؛ الذين كانوا يقاسون فى مكة ما يقاسون على أيدى المشركين غير قادرين على الهجرة إلى دار الإسلام والفرار بدينهم وعقيدتهم ؛ وهم يتطلعون إلى الخلاص ، ويدعون الله أن يجعل لهم مخرجاً من دار الظلم والعدوان ، يلتفت هذه الالتفاتة ليوحى إليهم . بسمو القصد ، وشرف الغاية ، ونبل الهدف فى هذه الدعوة ، وهذا القتال الذى يدعوهم إليه ، غير متثاقلين ولا مبطئين .

ثم لفتة نفسية أخرى ، لاستنهاض الهمم واستجاشة العزائم ، وإنارة الطريق لوضوح الرؤية، وتحديد الغاية والهدف التى يعمل لها كل فريق . فالذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ؛ لتحقيق

منهجه وإقرار شريعته ، وإقامة العدل بين الناس باسم الله ، لا تحت أى عنوان آخر اعترافًا بأن الله وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت لتحقيق مناهج شتى ـ غير منهج الله ـ وإقرار شرائع وقيم شتى غير شرائع وقيم الله ؛ ويقف الذين آمنو مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته ، ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم ، وشتى مناهجهم وشتى شرائعهم وطرائقهم فكلهم أولياء الشيطان ؛ لذا يأمر الله الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ؛ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان : ﴿ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة ، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد . مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله ، ليس لأنفسهم منها نصيب ، ولا لذواتهم منها حظ . وليست لقومهم ، ولا لجنسهم ، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شىء .. إنما هى لله وحده ، ولمنهجه وشريعته . وأنهم يواجهون قوماً أهل باطل ؛ يقاتلون لتغليب الباطل على الحق ، .. ولتغليب ظلم البشر على عدل الله ، كذلك يخوضون المعركة وهم يوقنون أن الله وليهم فيها . وأنهم يواجهون قوماً ، الشيطان وليهم فهم إذن ضعاف .. إن كيد الشيطان كان ضعيفاً .

ومن هنا يتقرر مصير المعركة فى حس المؤمنين ، وتتحدد نهايتها . قبل أن يدخلوها . وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن فى المعركة ـ فهو واثق من النتيجة ـ أم بقى حتى غلب ، ورأى بعينيه النصر ؛ فهو واثق من الأجر العظيم .

ثم يتعجب الله فى سياق الآيات بعد هذا من أمر طائفة أو أكثر من المسلمين قيل: إن بعضهم من المهاجرين الذين كانت تشتد بهم الحماسة ـ وهم فى مكة يلقون الأذى والاضطهاد ـ ليؤذن لهم فى قتال المشركين . حيث لم يكن مأذوناً لهم ـ بعد ـ فى قتال ، للحكمة التى يعلمها الله ، ... فلما كتب عليهم القتال ، بعد أن قامت للإسلام دولة فى المدينة ، وعلم الله أن فى هذا لإذن خيراً لهم وللبشرية .. إذ هم ـ كما يصورهم القرآن : ﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ممن إذا أصابتهم الحسنة قالوا : هذه من عند الله . وإن أصابتهم السيئة قالوا للرسول ﷺ : ﴿ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ . وممن يقولون : طاعة حتى إذا خرجوا من عندك الرسول ﷺ بيَّت طائفة منهم غير الذى تقول ، وممن إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ..

يقول صاحب الظلال : « إن أشد الناس حماساً واندفاعاً وتهوراً ، قد يكونون هم أشد الناس جزعاً وانهياراً وهزيمة عندما يجد الجد ، وتقع الواقعة .. بل إن هذه قد تكون القاعدة ! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالباً ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف . لا عن شجاعة واحتمال وإصرار . كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال . قلة احتمال الضيق

والأذى والهزيمة ، فتدفعهم قلة الاحتمال ، إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأى شكل . دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار .. حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا ، وأشق مما تصوروا ، فكانوا فى أول الصف جزعاً ونكولاً وانهياراً .. على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم ، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ؛ ويعدون للأمر عدته ، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته ، والمتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافاً ، ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور ! وفى المعركة يتبين أى الفريقين أكثر احتمالاً ؛ وأى الفريقين أبعد نظراً كذلك !

يقول صاحب الظلال : « إن الله هو الفاعل الأول ، لكل ما يقع فى الكون ، وما يقع للناس منهم ، فالناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا . ولكن تحقق الفعل ـ أى فعل لا يكون إلا بإرادة من الله وقدر فنسبة إنشاء الحسنة أو إنشاء السيئة ، وإيقاعها بهم ؛ للرسول ﷺ وهو بشر منهم مخلوق مثلهم ـ نسبة غير حقيقية » .

إن الإنسان قد يتجه ويحاول تحقيق الخير ؛ بالوسائل التى أرشد الله إلى أنها تحقق الخير . ولكن تحقيق الخير فعلاً يتم بإرادة الله وقدره . لأنه ليست هناك قدرة ـ غير قدرة الله ـ تنشئ الأشياء والأحداث وتحقق ما يقع فى هذا الكون من وقائع . وإذن يكون تحقيق الخير ـ بوسائله التى اتخذها الإنسان وباتجاه الإنسان وجهده ـ عملاً من أعمال القدرة الإلهية . وكذلك عند الاتجاه إلى تحقيق السوء .. لأنه ليس هناك قدرة منشئة للأشياء فى هذا الكون غير قوة الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إن من سنة الله تعالى مع خلقه أن تكون حياتهم الدنيا مجالاً للكيد والصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر ، وأن المؤمنين على الدوام لهم أعداء يكيدون ويتربصون بهم الدوائر .

٢ ـ أن من الحذر من العدو أن يواجه بالأسلوب والخطة والحشد والتسلح الملائم لظروف العدو ، ولما يملكه هو من وسائل وآلات حربية .

٣ ـ أن صفوف المسلمين لا تخلو غالباً من المنافقين الذين لا يحبون أن ينفروا فى الحرب متعللين بأوهى الأسباب مثبطين لغيرهم عن النفير فى سبيل الله .

٤ ـ أن قتال الشياطين وأوليائهم واجب ؛ لأن الله تعالى أمر به ، والنصر عليهم سهل وميسور للذين آمنوا وصحت نياتهم ، ووضحت غايتهم ونبل هدفهم للجهاد فى سبيل الله .

الجزء الخامس — سورة النساء

مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ
عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟
فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ
أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى
ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾
فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا
وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ
نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟
بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

٩١

معانى الكلمات :

تولى : أعرض . **حفيظاً** : رقيباً وحافظاً ومسيطراً . **برزوا** : خرجوا . **بيت طائفة** : دبرت جماعة الأمر ليلاً . **يتدبرون**:يتأملون **أزاعوا به** : أشاعوه ونشروه . **يستنبطونه** : يستخرجون تدبيره . **حرض المؤمنين** : حثهم . **أشد تنكيلاً** : أشد تعذيباً وعقاباً .

شفاعة : طلب المعاونة والسعى فى مصالح الناس . **كفل** : نصيب وحظ . **مقيتاً** : مقتدراً أو حفيظاً . **حسيباً** : محاسباً ومجازياً ، أو شهيداً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية طاعة الله ورسوله وأثرها فى التمكين للأمة .

٢ ـ بيان فضل تدبر القرآن الكريم وأثره فى زيادة الإيمان .

٣ ـ أن نعرف أخلاق الصف المسلم وقت السلم والحرب .

٤ ـ بيان أهمية إفشاء السلام فى المجتمع وأثره فى تدعيم المودة والحب .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يبين الله وظيفة الرسول ﷺ وعمله وموقف الناس منه ، وموقفه من الناس ويرد الأمر كله إلى الله فى النهاية : فوظيفة الرسول هى أداء الرسالة . لا إحداث الخير ولا إحداث السوء . فهذا من أمر الله والله شهيد على أنه أرسل النبى ﷺ لأداء هذه الوظيفة ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ . وأمر الناس مع الرسول ﷺ أن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن تولى معرضاً مكذباً فأمره إلى الله من ناحية حسابه وجزائه ولم يرسل الرسول ﷺ ليجبره على الهدى ، ويكرهه على الدين ، وليس موكلاً بحفظه من العصيان والضلال ، فهذا ليس داخلاً فى وظيفة الرسول ؛ ولا داخلاً فى قدرة الرسول .

ويقول صاحب الظلال : « بهذا البيان يصحح تصورهم عن حقيقة ما يقع لهم .. فكله لا ينشأ ولا يتحقق إلا بإرادة الله وقدره ، وما يصيبهم من حسنة أو سيئة ـ فهو من عند الله ، لأنه

بسبب منهجه وهدايته ، وما يصيبهم من سيئة حقيقية ـ فى ميزان الله ـ فهو من عند أنفسهم ، لأنه بسبب تنكبهم عن منهج الله والإعراض عن هدايته .

بعد ذلك يحكى السياق عن حال طائفة أخرى ـ فى الصف المسلم ـ لعلها طائفة المنافقين يذكر عنها فعلاً جديداً ، وينفر منه فهذا الفريق من الناس إذا كان عند رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن وما فيه من التكاليف .. قالوا : « طاعة » قالوها هكذا جامعة شاملة طاعة مطلقة لا اعتراض ولا استفهام ولا استيضاح ولا استثناء ! ولكن ما إن يخرجوا من عند رسول الله ﷺ حتى تبيت طائفة منهم غير الذى تقول ، وتروح فيما بينها تتآمر على عدم التنفيذ ؛ وعلى اتخاذ خطة للتخلص من التكاليف .

والله ـ سبحانه ـ يطمئن النبى ﷺ والمخلصين فى الصف يطمئنهم بأن عينه على هذه الطائفة التى تبيت وتمكر . لذا وجه الله عز وجل نبيه للإعراض والتغاضى عما يبدر منهم ، ويأخذهم بظاهرهم لا بحقيقة نواياهم وبعد ذلك وقبله كفى بالله وكيلاً فلا يضار من كان الله وكيله ، ولا يناله تآمر ولا مكيدة .

ويأتى التوجيه والإكرام للإنسان لاحترام إدراكه وشخصيته ودعوتها لتدبر القرآن وملاحظة التناسق المطلق الشامل الكامل للقرآن وهى الظاهرة التى لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً ومن ثم فإن كل أحد ، وكل جيل ، مخاطب بهذه الآية ، ومستطيع ـ عند التدبر وفق منهج مستقيم ـ أن يدرك من هذه الظاهرة ـ ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق ـ ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه .

ويرسم السياق صورة طائفة أخرى ، وهى جماعة فى المعسكر الإسلامى ، لم تألف نفوسهم النظام ؛ ولم يدركوا قيمة الإشاعة فى خلخلة المعسكر ؛ وفى النتائج التى تترتب عليها ، وقد تكون قاصمة ؛ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ؛ ولم يدركوا جدية الموقف ؛ وأن كلمة عابرة وفلتة لسان ، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته ، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال ؛ وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال !

ويقول صاحب الظلال : فمهمة الجندى المسلم فى الجيش المسلم ، الذى يقوده أمير مؤمن ـ بشرط الإيمان ذاك وحدّه ـ حين يبلغ إلى أذنيه خبر ، أن يسارع فيخبر به نبيه أو أميره . لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه ؛ أو بين من لا شأن لهم به لأن قيادته المؤمنة هى التى تملك استنباط الحقيقة ، كما تملك تقدير المصلحة فى إذاعة الخبر ـ حتى بعد ثبوته ـ أو عدم إذاعته .

وحين يصل السياق إلى هذا الحد من تقويم عيوب الصف ؛ التى تؤثر فى موقفه فى الجهاد وفى الحياة عندئذ ينتهى إلى قمة التحضيض على القتال ، الذى لا يقعد الفرد عنه تبطئة ولا تخذيل ،

ولا خلل فى الصف ، ولا وعورة فى الطريق . حيث يوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بأنه يقاتل ـ ولو كان وحيداً ـ فإنه لا يحمل فى الجهاد إلا تبعة شخصه ﷺ وفى الوقت ذاته يحرض المؤمنين على القتال .. وكذلك يوحى إلى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر : فالله هو الذى يتولى المعركة . والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً .

ويقرر السياق قاعدة عامة فى الشفاعة وهى تشمل التوجيه والنصح والتعاون ؛ فالذى يشجع ويحرض ويعاون على القتال فى سبيل الله ، يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها ، والذى يبطئ ويثبط تكون له تبعة فيها وفى آثارها .. « وكلمة ﴿ كِفْلٌ ﴾ توحى بأنه متكفل بجرائرها .

ثم يستطرد السياق بعد ذكر الشفاعة إلى الأمر برد التحية بخير منها أو بمثلها . والتحية فى المجتمع علاقة من العلاقات التى تدور بها عجلة الحياة فى يسر ، إذا اتبع الأدب الواجب فيها ، وهذا التشريع حرص من المولى عز وجل على توثيق علاقات المودة والقربى بين أفراد الجماعة المسلمة .. وإفشاء السلام ، والرد على التحية بأحسن منها ، من خير الوسائل لإنشاء هذه العلاقات وتوثيقها ، وقد سئل رسول الله ﷺ أى العمل خير ؟ قال : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ وجوب طاعة الرسول ﷺ فإنه لا يُطاع لذاته وإنما يُطاع لذات الله عز وجل ، كما ثبت عنه فى الصحيحين قوله ﷺ : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ... الحديث » .

٢ ـ وجوب تدبر القرآن فإنه سبيل زيادة الإيمان .

٣ ـ وجوب التثبت قبل إذاعة أى حديث أو نقله عن الآخرين لما ورد فى الصحيح : « من حدَّث بحديث ، وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » وفى سنن أبى داود : « بئس مطيّة الرجل زعموا » أى الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبّر .

٤ ـ من يسع فى أمر يترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك الخير ، وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ : أنه قال : « **اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيِّه ما شاء** »

٥ ـ تأكيد سنة التحية « إلقاء السلام » ووجوب ردّها بمثلها أو بأحسن منها .

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

معانى الكلمات :

لا ريب فيه : لا شك فيه . **أركسهم** : نكَّسهم . **سواء** : مستوين . **ميثاق** : عهد .

حصرت صدورهم : ضاقت وانقبضت .

أركسوا فيها : تقلبوا فى الفتنة أشنع تقلب

ثقفتموهم : وجدتموهم ، أو تمكنتم منهم .

سلطانا مبيناً : حجة واضحة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نبين صفات المنافقين وكيفية التعامل معهم .

٢ ـ أن نعلم أثر المنافقين فى خلخلة الصف المسلم ونحذر منهم .

٣ ـ أن نعرف أحكام قتال المنافقين والمشركين .

٤ ـ أن نعرف شروط الصلح مع غير المسلمين كفاراً ومنافقين .

المحتوى التربوى :

يبدأ هذا الدرس بقاعدة التصور الإسلامى الأساسية .. التوحيد وإفراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالألوهية ؛ ثم يبنى عليها أحكاماً شتى فى معاملة المجتمع المسلم مع المعسكرات المختلفة ؛ ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « إنه من توحيد الله ـ سبحانه ـ وإفراده بالألوهية تبدأ خطوات المنهج الربانى ـ سواء فى تربية النفوس أم فى إقامة المجتمع المسلم ، ووضع شرائعه وتنظيمه ، والاعتقاد فى الآخرة ، وجمع الله الواحد لعباده ، ليحاسبهم هناك على ما أتاح لهم فى الدنيا من فرص العمل والابتلاء ، تبدأ خطوات هذا المنهج فى تربية النفوس ، وإثارة الحساسية فيها تجاه التشريعات والتوجيهات ؛ وتجاه كل حركة من حركاتها فى الحياة ، فهو الابتلاء فى الصغيرة والكبيرة فى الدنيا ؛ والحساب على الصغيرة والكبيرة فى الآخرة ، وهذا هو الضمان الأوثق لنفاذ الشرائع والأنظمة ؛ لأنه كامن هنا فى أعماق النفس ، حارس عليها ، سهران حيث يغفو الرقباء ويغفل السلطان ! هذا حديث الله ـ سبحانه ـ وهذا وعده : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ .

بعد بيان هذا المنهج التربوى للجماعة المسلمة ؛ يستنكر حالة من التميع فى مواجهة النفاق والمنافقين ؛ وقلة الحسم فى موضع الحسم فى معاملة الجماعة المسلمة لهم ؛ وانقسام هذه الجماعة فئتين فى أمر طائفة من المنافقين من خارج المدينة ، فيحذر من منافحة المسلمين عن المنافقين لمجرد نطقهم الشهادة بألسنتهم ، بينما هم يظاهرون أعداء المسلمين ، من أجل هذا التميع فى فهم فئة من المسلمين ، ومن أجل ذلك الاختلاف فى شأن المنافقين فى الصف المسلم كان هذا الاستنكار الشديد ، ثم تبعه الإيضاح الإلهى لحقيقة موقف هؤلاء المنافقين . فالله عز وجل أوقعهم فيما هم فيه بسبب سوء نيتهم وسوء عملهم ؟ وهى شهادة من الله حاسمة فى أمرهم ،بأنهم واقعون فى السوء بما أضمروا وبما عملوا من سوء .

ثم يخطو السياق خطوة فى كشف موقف المنافقين ، إنهم لم يضلوا أنفسهم فحسب ؛ ولم يستحقوا أن يوقعهم الله فى الضلالة بسعيهم ونيتهم فحسب ، إنما هم كذلك يبتغون إضلال المؤمنين ، ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين فى دار الإسلام ، وبين غيرهم فى دار الحرب ، ودار الحرب هى يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول ، لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون بكلمة الإسلام ؛ وينضموا إلى المجتمع المسلم . حيث تكون هجرتهم لله وفى سبيل الله، من أجل عقيدتهم ، لا من أجل أى هدف آخر ؛ ولإقامة المجتمع المسلم الذى يعيش بالمنهج الإسلامى لا لأى غرض آخر ، بهذه النصاعة ، وبهذا الحسم .

فإن هم فعلوا . فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم فى دار الحرب ، وهاجروا إلى الإسلام فهم أعضاء فى المجتمع المسلم ، وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة ، فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال . فإن الإسلام لا يتسامح فى وصف جماعة من المنافقين بأنهم مؤمنون ؛ لأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ثم بقوا فى دار الكفر ، يناصرون أعداء المسلمين !

ومن هنا قال تعالى محرماً موالاتهم إلى أن يقاتلوا فقال : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ تعولون عليهم فى نصرتكم على إخوانهم فى الكفر حتى يهاجروا ؛ لأن الهجرة تقطع صلاتهم بدار الكفر وإن تولوا عن هذا الإيمان الصحيح إلى النفاق والكفر ، فأعلنوا الحرب عليهم ؛ لأنهم بارتكاسهم لا خير فيهم ولا يعول عليهم ، واستثنى صنفين من المنافقين المذكورين ، فلا يأخذونهم أسرى ولا يقاتلونهم ، الصنف الأول الذين ذكرهم تعالى بقوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ أى يلجؤون ﴿ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ ، والصنف الثانى قوم ضاقت صدورهم بقتالكم ، وقتال قومهم فهؤلاء الذين لم يستسيغوا قتالكم ولا قتال قومهم إن اعتزلوكم ، فلم يقاتلوكم فلا تأخذوهم ولا تقتلوهم واصبروا عليهم ، إذ لو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم،هذا الصنف هو المعنى بقوله تعالى : ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ فما دام الله تعالى قد كفهم عنكم فكفوا أنتم عنهم .

هذا وهناك صنف آخر ذكر تعالى حكم معاملته فى الآية الأخيرة من هذا المقطع ، وهى قوله تعالى : ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ ﴾ غير الصنفين السابقين ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ ﴾ إذا كانوا معكم عبدوا الله وحده ، وإذا كانوا مع قومهم عبدوا الأوثان لمجرد دعوة يدعونها يلبون فيرتدون إلى الشرك ، فهؤلاء إن لم يعتزلوا قتالكم ويلقوا إليكم السلام ، وهو الإذعان والانقياد لكم ، ويكفوا أيديهم فعلاً عن قتالكم ﴿ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ أى حجة واضحة على جواز أخذهم وقتلهم حيثما تمكنتم منهم ، وعلى أى حال . هذا ما دلت عليه الآيات الخمس السابقة مع العلم أن الكف عن قتال المشركين قد نسخ بآيات براءة إلا أن لإمام المسلمين أن يأخذ بهذا النظام عند الحاجة إليه ، فإنه نظام ربانى ما أخذ به أحد وخاب أو خسر ، ولكن خارج جزيرة العرب إذ لا ينبغى أن يجتمع فيها دينان .

يقول صاحب الظلال فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡ ﴾ : «وهكذا يلمس المنهج التربوى الحكيم نفوس المسلمين المتحمسين ، الذين قد لا يرضون هذا الموقف من هذا الفريق . يلمسه بما فى هذا الموقف من فضل الله وتدبيره ؛ ومن كف لجانب من العداء والأذى كان سيضاعف العبء على عاتق المسلمين،ويعلمهم أن يأخذوا الخير الذى يعرض فلا يرفضوه، ويجتنبوا الشر الذى يأخذ طريقه بعيداً عنهم ، فلا يناوشوه . طالما أن ليس فى هذا كله تفريط فى شىء من دينهم ، ولا تمييع لشىء من عقيدتهم ؛ ولا رضا بالدنية فى طلب السلم الرخيصة ! لقد نهاهم عن السلم الرخيصة ؛ لأنه ليس الكف عن القتال بأى ثمن هو غاية الإسلام .. إنما غاية الإسلام السلم التى لا تتحيف حقاً من حقوق الدعوة ، ولا من حقوق المسلمين ، لا حقوق أشخاصهم وذواتهم ؛ ولكن حقوق هذا المنهج الذى يحملونه ويسمون به مسلمين » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن التعامل مع المنافقين يجب أن يكون على ظاهر أمرهم ، لا على حقيقة ما يؤمنون به ، لأن ذلك لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى ؛ لأن القاعدة العامة فى التعامل مع المنافقين هى : « لنا الظاهر والله يتولى السرائر » .

٢ ـ أن المسلم يجب أن يحترم العهد والميثاق الذى بينه وبين غيره من الناس ، ولا يجوز له نقض عهد إلا إذا أيقن أن عدوه ناقضه ، وأن من دخل فى عهد معاهد للمسلمين وجب على المسلمين رعاية عهده واحترام ميثاقه .

٣ ـ أن من واجب الدعاة إلى الله أن يحذروا الناس من الكفار والمنافقين ، ومن مكرهم، وفجورهم ، ومحاولاتهم المستميتة فى أن يجّروا المؤمنين إلى الكفر والنفاق ؛ حتى يصبحوا مثلهم كراهية منهم للإيمان والمؤمنين ، وحباً فى تحدى الله تعالى ورسوله ومنهجه .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

معانى الكلمات :

تحرير رقبة : جعل الإنسان حراً . **دية** : ما يُعطى من المال عوضاً عن دم القتيل إلى وليه . **مسلمة إلى أهله** : مدفوعة ومؤداة إلى أهل القتيل . **ميثاق**:عهد وذمة . **فتبينوا** : تحققوا وتثبتوا . **عرض الحياة الدنيا**: الغنيمة وهى متاع زائل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان شكل علاقة المسلمين بعضهم مع بعض فى كل مكان .

٢ ـ معرفة أحكام القتل الخطأ والعمد .

٣ ـ بيان حرمة دم المسلم وعظم حرمة ماله ودمه عند الله .

٤ ـ بيان الحكمة من خلود قاتل المؤمن عمداً فى النار .

المحتوى التربوى :

فى الآيات السابقة تناول السياق علاقات المسلمين مع المعسكرات الأخرى ، فأما علاقات المسلمين بعضهم مع بعض،مهما اختلفت الديار ـ فلا قتل ولا قتال..لا قتل إلا فى حد أو قصاص ، **ويقول صاحب الظلال** : « فإنه لا يوجد سبب يبلغ من ضخامته أن يفوق ما بين المسلم والمسلم من وشيجة العقيدة . ومن ثم لا يقتل المسلم المسلم أبداً ، وقد ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة ، اللهم إلا أن يكون ذلك خطأ .. وللقتل الخطأ توضع التشريعات والأحكام ، فأما القتل العمد فلا كفارة له ، لأنه وراء الحسبان ! ووراء حدود الإسلام !

ولهذه الأحكام أربع حالات : ثلاث منها من حالات القتل الخطأ ـ وهو الأمر المحتمل وقوعه بين المسلمين فى دار الإسلام ، أو فى ديار مختلفة بين شتى الأقوام ـ والحالة الرابعة حالة القتل العمد ، وهى التى يستبعد السياق القرآنى وقوعها ابتداء ، ومن ثم يبدأ حديثه عن أحكام القتل الخطأ .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ .. فهذا هو الاحتمال الوحيد فى الحس الإسلامى ، فإن وجود المسلم إلى جوار المسلم مسألة كبيرة جداً ، ونعمة عظيمة جداً ، ومن العسير تصور أن يقدم مسلم على إزالة هذه النعمة عن نفسه ؛ والإقدام على هذه الكبيرة عن

عمد وقصد . فأما إذا وقع القتل خطأ فهناك تلك الحالات الثلاث ، التى يبين السياق أحكامها هنا :

الحالة الأولى : أن يقع القتل على مؤمن أهله مؤمنون فى دار الإسلام ، ويجب فى هذه الحالة تحرير رقبة مؤمنة ، ودية تسلم إلى أهله ، فأما تحرير الرقبة المؤمنة ، فهو تعويض للمجتمع المسلم عن قتل نفس مؤمنة باستحياء نفس مؤمنة ، وأما الدية فتسكين لثائرة النفوس ، وشراء لخواطر المفجوعين ، وتعويض لهم عن بعض ما فقدوا من نفع المقتول ، ومع هذا يلوح الإسلام لأهل القتيل بالعفو ، لأنه أقرب إلى جو التعاطف والتسامح فى المجتمع المسلم .

والحالة الثانية : أن يقع القتل على مؤمن وأهله محاربون للإسلام فى دار الحرب ، وفى هذه الحالة يجب تحرير رقبة مؤمنة لتعويض النفس المؤمنة التى قتلت ، وفقدها الإسلام . ولكن لا يجوز أداء دية لقومه المحاربين ، يستعينون بها على قتال المسلمين ! ولا مكان هنا لاسترضاء أهل القتيل وكسب مودتهم ، فهم محاربون ، وهم عدو للمسلمين .

والحالة الثالثة : أن يقع القتل على مؤمن قومه معاهدون ـ عهد هدنة أو عهد ذمة ـ ولم ينص على كون المقتول مؤمناً فى هذه الحالة . مما جعل بعض المفسرين يرى النص على إطلاقه . ويرى الحكم بتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ـ المعاهدين ـ ولو لم يكن مؤمناً . لأن عهدهم مع المؤمنين يجعل دماءهم مصونة كدماء المسلمين .

ويقول صاحب الظلال : « ولكن الذى يظهر لنا أن الكلام ابتداء منصب على قتل المؤمن . ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا ﴾ . ثم بيان للحالات المتنوعة التى يكون فيها القتيل مؤمناً : وإذا كان قد نص فى الحالة الثانية فقال : ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فقد كان هذا الاحتراز مرة أخرى بسبب ملابسة أنه من قوم عدو ، ويؤيد هذا الفهم النص على تحرير رقبة مؤمنة فى هذه الحالة الثالثة ، مما يوحى بأن القتيل مؤمن فأعتقت رقبة مؤمنة تعويضاً عنه ، وإلا لكفى عتق رقبة إطلاقاً دون شرط الإيمان ذلك القتل الخطأ .

فأما القتل العمد ، فهو الكبيرة التى لا ترتكب مع إيمان ؛ والتى لا تكفر عنها دية ولا عتق رقبة ؛ وإنما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله ؛ لأنها جريمة قتل لا لنفس فحسب ـ بغير حق ـ ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة ، التى أنشأها الله بين المسلم والمسلم . إنها تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها .

ومن ثم قرنت بالشرك فى مواضع كثيرة ؛ واتجه بعضهم ـ ومنهم ابن عباس ـ إلى أنه لا توبة منها ، ولكن البعض الآخر استند إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .. فرجاً للقاتل التائب بالمغفرة ، وفسر الخلود بأنه الدهر الطويل .

يقول صاحب الأساس : « ولقاتل العمد أحكام فى الدنيا ، وأحكام فى الآخرة ، فأما فى الدنيا فتسليط أولياء المقتول عليه ، وهم مخيرون بين أن يقتلوا أو يعفوا ،أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثا ،

ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة ، وأربعون خَلِفَة ، واختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ؟ فالشافعى وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون : نعم يجب عليه ، وقال الإمام أحمد وأصحابه وآخرون : قتل العمد أعظم من أن يكفر ، فلا كفارة فيه » .

واحتراساً من وقوع القتل ولو كان خطأ ؛ وتطهيراً لقلوب المجاهدين حتى ما يكون فيها شىء إلا الله ، وفى سبيل الله يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة ، ألا يبدؤوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا ؛ وأن يكتفوا بظاهر الإسلام فى كلمة اللسان إذ لا دليل هنا يناقض كلمة اللسان .

وقد وردت روايات كثيرة فى سبب نزول الآية ، خلاصتها : أن سرية من سرايا المسلمين لقيت رجلاً معه غنم له . فقال : السلام عليكم . يعنى أنه مسلم . فاعتبر بعضهم أنها كلمة يقولها لينجو بها ، فقتله ، ومن ثم نزلت الآية ، تحرج على مثل هذا التصرف ؛ وتنفض عن قلوب المؤمنين كل شائبة من طمع فى الغنيمة ؛ أو تسرع فى الحكم .. وكلاهما يكرهه الإسلام ؛ لأن ذلك عرض الحياة الدنيا ، ويذكرهم كيف منَّ عليهم من قبل وطهر نفوسهم ورفع أهدافها ، فلم يعودوا يغزون ابتغاء عرض الحياة الدنيا كما كانوا فى الجاهلية .

يقول صاحب الظلال : « إن عرض الحياة الدنيا لا يجوز أن يدخل للمسلمين فى حساب ، إذا خرجوا يجاهدون فى سبيل الله ، إنه ليس الدافع إلى الجهاد ولا الباعث عليه ، وكذلك التسرع بإهدار ده قبل التبين ، وقد يكون دم مسلم عزيز ، لا يجوز أن يراق ، والله ـ سبحانه ـ يذكر الذين آمنوا بجاهليتهم القريبة وما كان فيها من تسرع ورعونة ، وما كان فيها من طمع فى الغنيمة ، ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن المؤمن لا يجوز له أن يقتل مؤمناً متعمداً بحال من الأحوال ؛ لأن دم المسلم حرام على المسلم وعلى المجتمع وعلى الدوله إلا فى أحوال ثلاث :

ـ الردة بعد الإيمان بشرط الاستتابة .

ـ الزنا بعد الإحصان بشرط الإقرار أو الشهود .

ـ النفس بالنفس فمن قتل يُقتل .

٢ ـ فى الحرب لا يجوز لمسلم أن يقتل رجلاً أعلن إسلامه ونطق بالشهادتين ؛ لأن ذلك وحده كاف لعصمة دمه ، ولأن القلوب والحقائق الكامنة فيها لا يطلع عليها إلا الله سبحانه .

٣ ـ حرمة دم المسلم أعظم عند الله من كل شىء حتى من الكعبة المشرفة لما رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك : ماله ودمه ، وأن نظن به إلا خيراً » .

لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

الحزب ١٠

٩٤

معانى الكلمات :

القاعدون : الذين لا يجاهدون . **أولى الضرر** : أصحاب العذر المانع من الجهاد . **ظالمى أنفسهم** : بالإقامة فى دار الشرك . **مأواهم** : مقرهم . **مراغماً** : مهاجراً ومتحولاً ينتقل إليه . **ضربتم** : سرتم وسافرتم . **جُناح** : إثم . **يفتنكم** : الابتلاء والاختبار . **عدواً مبيناً** : عدوًا ظاهر العداوة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان قيمة الجهاد بالأموال والأنفس فى ميزان الله واعتبارات هذا الدين .

٢ ـ بيان مفهوم الجهاد بمعناه الواسع .

٣ ـ بيان مفهوم الهجرة بين الماضى والحاضر،وفضل المجاهدين على القاعدين

٤ ـ بيان فضل الهجرة فى سبيل الله وأثرها فى الدنيا والآخرة .

المحتوى التربوى :

الموضوع الأساسى لهذه الآيات هو الهجرة إلى دار السلام ؛ والحث على انضمام المسلمين المتخلفين فى دار الكفر والحرب إلى الصف المسلم فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وترك الراحة النسبية والمصلحة كذلك فى البقاء بمكة ، إلى جوار الأهل والمال !

وتقرر هذه الآيات قاعدة عامة ؛ يقيم الله بها المؤمنين فى كل زمان ومكان ـ قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس ـ غير أولى الضررالذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس ، أو يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال ـ عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين ، والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم ، ويبين طبيعة عدم الاستواء بين الفريقين ، ففى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قال :« إن فى الجنة مائة درجة،أعدها الله للمجاهدين فى سبيله.وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» .

يقول القاسمى : « وهاهنا فوئد :

الأولى : دلت الآية على أن الجهاد ليس بغرض عين ، إذ لز كان فرضا من فروض الأعيان لم يكن للقاعد فضل ، ولكن تفاوت الفضل بينه وبين المجاهد ، وقال : قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

الثانية : دلت ـ أيضا ـ على أن الجهاد أفضل من القرب التى يفعلها القاعد ؛ لأنه فضله على القاعد مطلقا ..

الثالثة : قال السيوطى فى (الإكليل) : فى الآية تفضيل للمجاهدين على غيرهم ، وأن المعذورين فى درجة المجاهدين ، واستدل بقوله : ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ على تفضيل المجاهد بمال نفسه على المجاهد بمال يعطاه من الديون أو نحوه .

الرابعة : قال الرازى : القائل أن يقول : إنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ (التوبة :١١١)، فقدم ذكر النفس على المال،وفى الآية التى نحن فيها وهى قوله: ﴿ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ قدم ذكر المال على النفس فما السبب ؟ وجوابه : أن النفس أشرف من المال ، فالمشترى قدم ذكر النفس تنبيها على أن الرغبة فيها أشد ، والبائع أخر ذكرها تنبيها على أن المضايقة فيها أشد ، فلا يرضى ببذلها إلا فى آخر المراتب ... » .

ويقول صاحب الظلال: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فللإيمان وزنه وقيمته على كل حال ؛ مع تفاضل أهله فى الدرجات وفق تفاضلهم فى النهوض بتكاليف الإيمان ؛ فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والنفس ، وهذا الاستدراك هو الذى نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطئين !إنما هم طائفة أخرى صالحة فى الصف المسلم ومخلصة؛ ولكنها قصرت فى هذا الجانب ؛ والقرآن يستحثها لتلافى التقصير ؛ والخير مرجو فيها ، والأمل قائم فى أن تستجيب .

بعد ذلك يتحدث عن فريق من القاعدين ؛ أولئك الذين يظلون قاعدين فى دار الكفر لا يهاجرون ؛ تمسك بهم أموالهم ومصالحهم ، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق ـ وهم قادرون لو أرادوا واعتزموا التضحية ـ أن يهاجروا حتى يحين أجلهم ؛ وتأتى الملائكة لتتوفاهم . يتحدث عنهم فيصورهم صورة رزية منكرة ؛ تستنهض كل قاعد منهم للفرار بدينه وعقيدته ، وبمصيره عند ربه ؛ من الموقف الذى يرسمه لهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

ويقول صاحب المنار: « وهاك ما عندى فى الآية عن درس الأستاذ الإمام : ذكر تعالى فى الآية السابقة فضل المجاهدين فى سبيل الله على القاعدين لغير عجز، فعلم أن العاجز معذور ، ومعنى سبيل الله الطريق الذى يرضيه ويقيم دينه .

ثم ذكر حال قوم أخلدوا إلى السكون وقعدوا عن نصر الدين ، بل وعن إقامته حيث هو وعذروا أنفسهم بأنهم فى أرض الكفر حيث اضطهدهم الكافرون ومنعوهم من إقامة الحق وهم عاجزون عن مقاومتهم . ولكنهم فى الحقيقة غير معذورين ؛ لأنه كان يجب عليهم الهجرة إلى المؤمنين الذين يعتزون بهم ، فهم بحبهم لبلادهم، وإخلادهم إلى أرضهم ، وسكونهم إلى أهليهم ومعارفهم ، ضعفاء فى الحق لا مستضعفون ، وهم بضعفهم هذا قد حرموا أنفسهم بترك الهجرة من خير الدنيا بعزة المؤمنين ، ومن خير الآخرة بإقامة الحق ، فظلمهم عبارة عن تركهم العمل بالحق خوفاً من الأذى وفقد الكرامة عند المبطلين » .

بعد ذلك يمضى السياق ويستثنى من لا حيلة لهم فى البقاء فى دار الكفر ؛ والتعرض للفتنة فى الدين ؛ والحرمان من الحياة فى دار الإسلام من الشيوخ الضعاف ، والنساء والأطفال ؛ فيعلقهم

بالرجاء فى عفو الله ومغفرته ورحمته بسبب عذرهم البين وعجزهم عن الفرار بدينهم ، وتعالج الآيات مخاوف النفس المتنوعة ؛ وهى تواجه مخاطر الهجرة، فى وضوح وصراحة ؛ فلا يكتم عنها شيئاً من المخاوف ؛ بما فى ذلك خطر الموت ، ولكنه يسكب فيها الطمأنينة بحقائق أخرى وبضمانة الله سبحانه وتعالى فهو يحدد أولاً بأن الهجرة فى سبيل الله .

وهذه هى الهجرة المعتبرة فى الإسلام . فليست هجرة للثراء ، أو هجرة للنجاة من المتاعب ، أو هجرة للذائذ والشهوات ، أو هجرة لأى عرض من أعراض الحياة ، ومن يهاجر هذه الهجرة ـ فى سبيل الله ـ يجد فى الأرض فسحة ومنطلقاً فلا تضيق به الأرض ، ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق والحياة ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « هذا التصور الكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة والنجاة ـ الذى يخيل للنفس أن وسائل الحياة والرزق ، مرهونة بأرض ، ومقيدة بظروف ومرتبطة بملابسات لو فارقتها لم تجد للحياة سبيلاً ـ ؛ هذا التصور هو الذى يجعل النفوس تقبل الذل والضيم ، وتسكت على الفتنة فى الدين ؛ ثم تتعرض لذلك المصير البائس . مصير الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم . والله يقرر الحقيقة الموعودة لمن يهاجر فى سبيل الله ، إنه سيجد فى أرض الله منطلقاً وسيجد فيها سعة، وسيجد الله فى كل مكان يذهب إليه، يحييه ويرزقه وينجيه».

ولكن الأجل قد يوافى فى أثناء الرحلة والهجرة فى سبيل الله ، فمن مات فقد وقع أجره على الله ؛ أجره كله . أجر الهجرة إلى الله ورسوله، والرحلة والوصول إلى الإسلام والحياة فيها . فماذا بعد هذا الضمان من ضمان ؟

بعد ذلك يستطرد إلى رخصة يبيحها الله للمهاجرين ، أو الضاربين فى الأرض للجهاد فى حالة خوفهم أن يأخذهم الذين كفروا أسارى . فيفتنوهم عن دينهم ـ وهى رخصة القصر من الصلاة ـ وهو غير القصر المرخص للمسافر إطلاقاً سواء خاف فتنة الذين كفروا أو لم يخف فهذا قصر خاص .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن المجاهدين فى سبيل الله كل أنواع الجهاد ودرجاته ـ والدعوة والحركة جهاد ـ لهم عند الله منزلة أعلى ودرجة أكبر وأعظم من منزلة القاعدين .

٢ ـ أن القعود عن الجهاد فى سبيل الله تعالى ظلم للنفس يبلغ بصاحبه حد الكفر ، وبخاصة إذا قبل القاعد عن الجهاد أن يسكن فى دار الكفر ، ويعايش الكافرين ، ولم يهاجر إلى ديار المسلمين .

٣ ـ أن الله تعالى شرع لعباده التخفيف فى بعض العبادات عند وجود أسباب التخفيف من مشقة سفر أو حرب أو خوف ، وما ذلك إلا لأن هذا الدين يسر ولا حرج على العباد فى شىء من عباداته كلها .

٤ ـ الجهاد فى سبيل الله يتسع مدلوله ويتعمق لما هو أعم وأشمل من القتال فيشمل الحرب والإعداد لها ، والجهاد بالكلمة (خطبة ومحاضرة وبحثاً ودراسة ومحاورة ومناظرة لشرح دعوة الإسلام وإبلاغ الدعوة والحركة بالإسلام بين الناس ... إلخ) .

الجزء الخامس — سورة النساء

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)

٩٥

معانى الكلمات :

حذرهم : التيقظ من العدو . **تغفلون** : تسهون . **قضيتم** : فرغتم وانتهيتم . **كتاباً موقوتاً** : فرضاً محدوداً بأوقات محددة لا يجوز التقديم أو التأخير فيها . **تهنوا** : تضعفوا . **فى ابتغاء القوم** : فى طلبهم بالحرب . **تألمون** : تتوجعون لما يصيبكم .

ترجون : تأملون . **خصيماً** :مدافعاً عنهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية الحذر من العدو وإعداد العدة له دائماً .

٢ ـ أن نعرف كيفية صلاة الخوف .

٣ ـ بيان فرضية الصلاة وأهمية أدائها فى وقتها .

٤ ـ بيان حرمة الوهن فى طلب العدو وقتاله وطلبه والصبر على ذلك .

المحتوى التربوى :

وبمناسبة الحديث عن صلاة الضارب فى الأرض ، الخائف من فتنة الذين كفروا ، يجىء حكم صلاة الخوف فى أرض المعركة ؛ والسياق القرآنى لا يجىء بهذا النص لمجرد بيان الحكم الفقهى فى صفة صلاة الخوف ، ولكنه يحشد هذا النص فى حملة التربية والتوجيه والتعليم والإعداد للصف المسلم وللجماعة المسلمة .

ويقول صاحب الظلال : « وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة فى ساحة المعركة ! ولكن هذا طبيعى بل بدهى فى الاعتبار الإيمانى ، إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة ، بل إنها السلاح ، فلابد من تنظيم استخدام هذا السلاح بما يتناسب مع طبيعة المعركة ، وجوها !

ولقد كان أولئك الرجال ـ الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الربانى ـ يلقون عدوهم بهذا السلاح الذى يتفوقون فيه قبل أى سلاح . لقد كانوا متفوقين فى إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة ، ويشعرون أنه معهم فى المعركة ، متفوقين كذلك فى إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله ؛ ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعاً . متفوقين أيضاً فى تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم

الإنسانى ، تفوقهم فى تنظيمهم الاجتماعى الناشئ من تفوق منهجهم الربانى وكانت الصلاة رمزاً لهذا كله ، وتذكيراً بهذا كله ، ومن ثم كانت سلاحاً فى المعركة بل كانت هى السلاح !

والأمر الثانى الذى يلفت النظر فى هذا النص هو هذه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو ، وهذا الحذر الذى يوصى المؤمنين به تجاه عدوهم الذى يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم ـ ليميل عليهم ميلة واحدة ! ومع هذا التحذير والتخويف ، يأتى الاطمئنان والتثبيت ؛ إذ يخبرهم أنهم إنما يواجهون قوماً كتب الله عليهم الهوان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ، وهذا التقابل بين التحذير والتطمين ؛ وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة ؛ هو طابع هذا المنهج فى تربية النفس المؤمنة والصف المسلم فى مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم !

أما كيفية صلاة الخوف ؛ فتختلف فيها آراء الفقهاء ، ولكننا نكتفى بالصفة العامة ، دون دخول فى تفصيل الكيفيات المتنوعة .

وهى : إذا كنت فيهم فأقمتهم فى الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك الركعة الأولى ، على حين تقف طائفة أخرى بأسلحتها من ورائكم لحمايتكم . فإذا أتمت الطائفة الأولى الركعة الأولى رجعت فأخذت مكان الحراسة ، وجاءت الطائفة التى كانت فى الحراسة ولم تصل فلتصل معك ركعة كذلك . (وهنا يسلم الإمام إذ يكون قد أتم صلاته ركعتين) . عندئذ تجىء الطائفة الأولى فتقضى الركعة الثانية التى فاتتها مع الإمام ، وتسلم بينما تحرسها الطائفة الثانية ، ثم تجىء الثانية فتقضى الركعة الأولى التى فاتتها وتسلم بينما تحرسها الطائفة الأولى .

وبذلك تكون الطائفتان قد صلتا بإمامة الرسول ﷺ وكذلك مع خلفائه وأمرائه وأمراء المسلمين منهم فى كل معركة .

ثم يوجههم إلى الاتصال بالله فى كل حال ، وفى كل وضع ، إلى جانب الصلاة ، فهذه هى العُدة الكبرى ؛ وهذا هو السلاح الذى لا يبلى .. فأما حين الاطمئنان ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، أقيموها كاملة تامة بلا قصر ، قصر الخوف الذى تحدثنا عنه ـ فهى فريضة ذات وقت محدد لأدائها ، ومتى زالت أسباب الرخصة فى صفة من صفاتها عادت إلى صفتها المفروضة الدائمة .

من قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ بأخذ الظاهرية رأيهم فى عدم قضاء الفائتة من الصلاة لأنها لا تجزء ولا تصح ؛ لأن الصلاة لا تصح إلا فى ميقاتها المعين، فمتى فات الميقات فلا سبيل لإقامة الصلاة والجمهور على صحة قضاء الفوائت . وعلى تحسين التبكير فى الأداء ، والكراهية فى التأخير .

ويختم هذه الآيات بالحث على المضى فى الجهاد ؛ مع الألم والضنى والكلال ويكشف بعد ذلك عن الشقة البعيدة بين جبهتى الصراع ، إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح فى المعركة ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يتحملونه .. إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء ، ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء ، إن المؤمنين يتوجهون إلى الله بجهادهم ، ويرتقبون عنده الثواب .. فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون لا يتجهون لله ، ولا يرتقبون شيئاً فى الحياة ولا بعد الحياة .

ويقول صاحب الظلال : « فإذا أصر الكفار على المعركة ، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصراراً ، وإذا احتمل الكفار آلامها ، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام ، وما أجدرهم كذلك ألا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال ، وتعقب آثارهم ، حتى لا تبقى لهم قوة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار . وأن تعلم أنها إن كانت تألم ، فإن عدوها كذلك يألم . والألم أنواع . والقرح ألوان .. ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ .. وهذا هو العزاء العميق ، وهذا هو مفترق الطريق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن المسلمين مطالبون دائماً بأن يكونوا متنبهين وعلى حذر من كل عدو ، رمزاً لوجوب الأخذ بالأسباب ، ووجوب الإعداد للأعداء .

٢ ـ مهما تحمل الدعاة إلى الله من آلام ومحن من أجل هذا الدين ، فهم بهذا التحمل والصبر فى معية الله تعالى وحفظه ، حتى لو مات بعضهم من التعذيب والتنكيل ، فقد حفظه الله من الفتنة والمعصية وممالأة الظالمين ، وحفظ لهم عنده أجزل الأجر وأعظم الثواب .

٣ ـ استحباب ذكر الله تعالى بعد الصلاة وعلى كل حال من قيام وقعود واضطجاع .

٤ ـ حرمة الوهن والضعف إزاء حرب العدو وطلبه وجهاده والاستعانة على قتاله بذكر الله ورجائه .

٥ ـ مشروعية صلاة القصر وهى رخصة أكدها رسول الله ﷺ بقوله وعمله فأصبحت سنة مؤكدة لا ينبغى تركها .

٦ ـ التأكيد على صلاة الجماعة بحيث لا تترك حتى فى ساعة الخوف والقتال .

٧ ـ تقرير فرضية الصلاة ووجوب أدائها فى أوقاتها الموقوتة لها .

الجزء الخامس — سورة النساء

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ
عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ
عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ
سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

٩٦

معانى الكلمات :

يختانون أنفسهم : يخونونها بارتكاب المعاصى . **خوانا أثيماً** : مُفرطاً فى الخيانة .

يبيتون : يدبرون فى الخفاء . **جادلتم** : دافعتم . **وكيلاً** : حافظاً ومحامياً من بأس الله وعذابه . **يكسب إثماً** : يرتكب ذنباً متعمداً . **يرم به بريئاً** : يتهم إنساناً بريئاً .

الكتاب والحكمة : القرآن والسنة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان الحكمة من نزول القرآن الكريم .

٢ ـ بيان فضل الله ومنته على رسوله وعلى عباده .

٣ ـ أن نعرف القواعد العامة للحكم بين الناس ونلتزم فيها بأمر الله ورسوله .

٤ ـ بيان أهمية التوبة والاستغفار من الذنوب ، فلا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار .

المحتوى التربوى :

روى أن هذه الآيات نزلت فى طعمة بن أبيرق وإخوته ، وكان قد سرق درعاً من دار جار له يقال له قتادة ، وودعها عند يهودى يُقال له : زيد بن السمين ، ولما اتهم طعمة وخاف هو وإخوته المعرة رموا بها اليهودى ، وقالوا هو السارق ، وأتوا رسول الله ﷺ وحلفوا على براءة أخيهم فصدقهم رسول الله ﷺ وهمَّ بقطع يد اليهودى حداً لشهادة بنى أبيرق عليه وإذا بالآيات تنزل ببراءة اليهودى وإدانة طعمة ، ولما افتضح طعمة ، وكان منافقاً أعلن عن ردته وهرب إلى مكة ونقب جدار منزل ليسرق فسقط عليه الجدار ، فمات تحته كافراً .

يقول صاحب الظلال : « وأول ما يبدو فى هذه الآيات تذكير رسول الله ﷺ بتنزيل الكتاب إليه بالحق ليحكم بين الناس بما أراه الله ، واتباع هذا التذكير بالنهى عن أن يكون خصيماً ومدافعاً عن الخائنين ، يدافع عنهم ويجادل ، وتوجيهه لاستغفار الله سبحانه عن هذه المجادلة ، ثم تكرار

هذا النهى ؛ ووصف هؤلاء الخائنين ، الذين جادل عنهم ﷺ بأنهم يختانون أنفسهم ، وتعليل ذلك بأن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ؛ وهذه عقوبة أكبر من كل عقوبة ، فالذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد ، ولا أن يحامى عنهم أحد ، وقد كرههم الله للإثم والخيانة! ويعقب الوصف بالإثم والخيانة تصوير منفر لسلوك هؤلاء الخونة الآثمين ، وهى صورة احتقار وسخرية ، زرية بما فيها من ضعف والتواء ، وهم يبيتون الكيد والمؤامرة والخيانة ؛ ويستخفون بها عن الناس . والناس لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً . بينما الذى يملك النفع والضر معهم وهم يبيتون ما يبيتون ؛ مطلع عليهم وهم يخفون نياتهم ويستخفون ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ .

وبعد هذه الحملة الغاضبة على الخونة الآثمين ، والعتاب للمنافحين عنهم والمجادلين ، يجىء تقرير القواعد العامة لهذه الفعلة وآثارها . وللحساب عليها والجزاء ، ولقاعدة الجزاء العامة إنها آيات ثلاث تقرر هذه المبادئ الكلية التى يعامل بها الله عباده ؛ والتى يملك العباد أن يعاملوا بعضهم بعضًا بها ، ويعاملوا الله على أساسها فلا يصيبهم السوء .

الآية الأولى : تفتح باب التوبة على مصراعيه وتطمع كل مذنب تائب فى العفو والقبول ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾ فالله الغفور يستقبل المستغفرين فى كل حين ؛ ويغفر لهم ويرحمهم متى جاؤوه تائبين ، هكذا بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا بّواب .

الآية الثانية : تقرر فردية التبعة ، وهى قاعدة الجزاء فى الإسلام ، والتى تثير فى كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة ؛ الخوف من عمله وكسبه . والطمأنينة من ألا يحمل تبعة غيره ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ .

الآية الثالثة : تقرر تبعة من يكسب الخطيئة ثم يرمى بها البرىء .. فإنه يحتمل البهتان فى رميه البرىء ، والإثم فى ارتكابه الذنب الذى رمى به البرىء ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ﴾ .

ويقول صاحب المنار : « ولعل المراد بوجدان الله غفوراً رحيماً هو أن التائب المستغفر يجد أثر المغفرة فى نفسه بكراهة الذنب وذهاب داعيته ، ويجد أثر الرحمة بالرغبة فى الأعمال الصالحة التى تطهر النفس وتزيل ذلك الدرن منها . فيكون السوء أو الظلم الذى تاب منه العبد مصداقا لقول ابن عطاء الله السكندرى « رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيرٌ من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » والمراد الذل والانكسار لله عز وجل الذى يورث صاحبه العزة والرفعة مع غيره .

وأخيراً : يمن الله على رسوله ﷺ أن عصمه من الانسياق وراء المتآمرين المبيتين ، فأطلعه على مؤامراتهم التى يستخفون بها من الناس ، ولا يستخفون بها من الله ، وهو معهم إذ يبيتون ما لا

يرضى من القول . ثم يمتن عليه المنة الكبرى فى إنزال الكتاب والحكمة وتعليمه ما لم يكن يعلم، وهى المنة على البشرية كلها ، ممثلة ابتداء فى شخصه ﷺ وهو أكرمها على الله وأقربها لله . ويطمئنه فى الوقت ذاته أنهم لا يضرونه شيئاً بفضل من الله ورحمة » .

وبمناسبة المنّة فى حفظه من هذه المؤامرة الأخيرة ؛ وصيانة أحكامه من أن تتعرض لظلم برىء وتبرئة مذنب ، وكشف الحقيقة له وتعريفه بالمؤامرة تجىء المنَّة الكبرى .. منة الرسالة : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وهى منّة الله على الإنسان فى هذه الأرض ، المنة التى ولد الإنسان معها ميلاداً جديداً ، ونشأ بها كما نشأ أول مرة بنفخة الروح الأولى ، المنة التى التقطت البشرية من سفح الجاهلية ؛ لترقى بها فى الطريق الصاعد ، إلى القمة السامقة عن طريق المنهج الربانى الفريد العجيب » .

يقول الإمام محمد عبده : فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ : « إذ اختصك بهذه النعم الكثيرة ، وأرسلك للناس كافة ، وجعلك خاتم النبيين ، فيجب أن تكون أعظم الناس شكراً له ، ويجب على أمتك مثل ذلك ليكونوا بهذا الفضل خير أمة أخرجت للناس، وقدوة لهم فى جميع الخيرات ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الهدف من إنزال القرآن الكريم هو الحكم به بين الناس بالحق الذى علمه الله لرسوله ﷺ فى كتابه المبين .

٢ ـ الله تعالى لا يحب من كان خائناً يرتكب الآثام ويخاف الناس ولا يخاف الله .

٣ ـ المسلم مطالب بألا يدافع أو يخاصم أو يجادل عن أحد من الخونة ، وإنما عليه أن يتبين أنه أهل لأن يدافع عنه .

٤ ـ القاعدة العامة التى تفضل الله بها على عباده هى : أَنْ وسعهم برحمته وشملهم بمغفرته إذا هم تابوا واستغفروا الله ، وهذا من أقوى الأدلة على حب الله لعباده التائبين المستغفرين .

٥ ـ كل عمل يقوم به الإنسان لا يرضى الله تعالى ؛ لأنه مخالف لما أمر ولما نهى لتضمنه ظلم نفسه ، فما عليه إلا أن يتوب ويستغفر ، ولو كانت ذنوبه مثل زبد البحر ، عندئذ يجد الله غفوراً رحيماً .

لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

٩٧

معانى الكلمات :

نجواهم : ما يتكلم به الناس سراً .

يشاقق الرسول : يخالفه .

نُوَلِّهِ ما تَوَلّى : نُخَلِّ بينه وبين ما اختاره لنفسه .

نُصلِه جهنم : ندخله إياها .

إناثاً : أصناماً يزِّينُونها كالنساء .

شيطانًا مَّريداً : متمرداً متجردًا من الخير .

مفروضاً : واجباً لى ، ومقطوعاً لى به .

فليبتكن : فليُقَطِّعنَّ أو فليشُقُّنَّ .

خلق الله : فطرة الله وهى دين الإسلام .

غروراً : خداعاً وباطلاً .

محيصاً : مهرباً ومفراً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف الفرق بين التناجى المنهى عنه ، والمأمور به .

٢ ـ أن نعرف عاقبة من يشاقق الله ورسوله .

٣ ـ أن نحذر عدونا ـ القديم ـ الشيطان ، ونحذر مكائده لنا .

٤ ـ أن نعلم أن رحمة الله تتسع لكل ذنوب البشر ، والله يغفر كل الذنوب إلا الشرك .

المحتوى التربوى :

تعرض الآيات لحلقة جديدة من حلقات المنهج التربوى الحكيم ، فى إعداد الجماعة المسلمة لتكون الأمة التى تقود البشرية ؛ بتفوقها التربوى والتنظيمى ؛ وليعالج فيها مواضع الضعف البشرى ورواسب المجتمع الجاهلى ، فينهى عن النجوى ؛ وهى أن تجتمع طائفة بعيداً عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة لتبيت أمراً .

ويستثنى النص القرآنى نوعاً من النجوى وذلك أن يجتمع الرجل الخير بأهل الخير . فيقول له : هلم نتصدق على فلان فقد علمت حاجته فى خفية عن الأعين . أو هلم إلى معروف معين

نفعله أو نحض عليه ، أو هلم نصلح بين فلان وفلان فقد علمت أن بينهما نزاعاً .. فهذا ليس نجوى ولا تآمرا .. ومن ثم سماه « أمراً » ؛ على شرط أن يكون الباعث هو ابتغاء مرضاة الله .

فلا يكون لهوى فى الصدقة على فلان ، أو الإصلاح بين فلان وفلان ، ولا يكون ليشتهر الرجل بأنه ـ والله رجل طيب ـ !يحض على الصدقة والمعروف، ويسعى فى الإصلاح بين الناس! ولا تكون هناك شائبة تعكر صفاء الاتجاه إلى الله ، بهذا الخير .

فهذا هو مفرق الطريق بين العمل يعمله المرء فيرضى الله عنه ويثيبه به . والعمل نفسه يعمله المرء فيغضب الله عليه ، ويكتبه فى سجل السيئات !

ثم ينتقل السياق ليتحدث عمن يشاقق الرسول ﷺ ، ويتخذ له منهجاً للحياة غير منهجه ﷺ، ويختار له طريقاً غير طريقه ﷺ ؛ وينكر منهج الإسلام جملة ، أو يؤمن ببعض ويكفر ببعض فيأخذ بشق من الإسلام ويطرح شقاً !

ويقول صاحب الظلال : « وقد اقتضت رحمة الله بالناس ، ألا يحق عليهم القول ، ولا يصلوا جهنم وساءت مصيراً ، إلا بعد أن يُرسل إليهم رسولاً ، وبعد أن يبين لهم ، وبعد أن يتبينوا الهدى ، ثم يختاروا الضلالة ، وهى رحمة الله الواسعة الحانية على هذا المخلوق الضعيف . فإذا تبين له الهدى ، ثم شاق الرسول ﷺ ولم يتبعه ويطعه ، فعندئذ يكتب الله عليه الضلال ، ويوليه الوجهة التى تولاها ، ويلحقه بالكفار والمشركين الذين توجه إليهم ، ويُحق عليه العذاب، ويعلل هذا المصير البائس السيىء ، بأن مغفرة الله ـ سبحانه ـ تتناول كل شىء .. إلا أن يشرك به .. فهذه لا مغفرة لمن مات عليها .

فلا غفران لذنب الشرك ـ متى مات صاحبه عليه ـ بينما باب المغفرة مفتوح لكل ذنب سواه، عندما يشاء الله ، والسبب فى تعظيم جريمة الشرك ، وخروجها من دائرة المغفرة ، أن من يُشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تماماً ؛ وتفسد كل فطرته بحيث لا تصلح أبداً .

وينتقل السياق ليصف بعض أوهام الجاهلية العربية فى شركها . وأساطيرها حول اتخاذ الله بنات ـ هن الملائكة ـ وحول عبادتهم للشيطان ـ وقد عبدوه كما عبدوا الملائكة وتماثيلها الأصنام كما يصف بعض شعائرهم فى تقطيع أو تشقيق آذان الأنعام المنذورة للآلهة ! وفى تغييرهم خلق الله ، والشرك بالله ، وهو مخالف للفطرة التى فطر الناس عليها .

وهذه الأمور الشركية كلها من مكائد الشيطان ، وشعور الإنسان بأن الشيطان ـ عدوه القديم ـ هو الذى يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية ، يثير فى نفسه ـ على الأقل ـ الحذر من الفخ الذى نصبه العدو ، وقد جعل الإسلام المعركة الرئيسية بين الإنسان والشيطان ، ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذى ينشئه فى الأرض ؛ والوقوف تحت راية الله وحزبه فى مواجهة الشيطان وحزبه .

ويقول صاحب الظلال : « والمعركة مع الشيطان : هى معركة دائمة لا تضع أوزارها ؛ لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التى أعلنها منذ لعنه وطرده . والمؤمن لا يغفل عنها ، ولا ينسحب منها . وهو يعلم أنه إما أن يكون ولياً لله ، وإما أن يكون ولياً للشيطان ؛ وليس هناك وسط .. » .

ويقول الشيخ محمد عبده عن إضلال الشيطان للناس : « إن إضلاله لمن يضلهم هو عبارة عن صرفهم عن العقائد الصحيحة بمعنى أن يشغلهم عن الدلائل الموصلة إلى الحق والهدى ، وأما التمنية فهى فى الأعمال بأن يزين لهم الاستعجال بالذات الحاضرة والتسويف بالتوبة وبالعمل الصالح ، بل هذا اسم جامع لأنواع وحى الشيطان كلها وتغريره للناس بعفو الله ورحمته ومغفرته » .

وحين يرتسم المشهد ـ كما **يقول صاحب الظلال** : « على هذا النحو، والعدو القديم ـ الشيطان ـ يفتل الحبال ، ويضع الفخ ، ويستدرج الفريسة ، لا تبقى إلا الجبلات الموكوسة المطموسة هى التى تظل سادرة لا تستيقظ، ولا تتلفت ولا تحاول أن تعرف إلى أى طريق تساق، وإلى أية هوة تُستهوى ! على حين تكون هذه هى حقيقة المعركة ، وحقيقة الموقف ، يجىء التعقيب ببيان العاقبة فى نهاية المطاف : عاقبة من يستهويهم الشيطان ، ويصدق عليهم ظنه ، وينفذ فيهم ما صرح به من نيته الشريرة .. فتكون عاقبتهم جهنم ولا محيص عنها لأولياء الشيطان » ، **ويقول صاحب المنار** ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ : « أى أولئك الذين يعبث بهم الشيطان بوسوسته أو بإغواء دعاة الباطل والشر من أوليائه ، مأواهم جهنم لا يجدون معدلاً عنها يفّرون إليه ؛ لأنهم منجذبون إليها بطبيعتهم يتهافتون فيها أنفسهم ، كما يتهافت الفراش فى النار » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن أكثر ما يتناجى به الناس وما يخوضون فيه من أحاديث لا نفع فيه ، بل قد يحمل الضُّر والشر لهم ولغيرهم باستثناء ثلاثة أمور تكون النجوى فيها من الخير وهى : الصدقة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والإصلاح بين الناس .

٢ ـ أن مشاقة ـ مخالفة ـ الرسول ﷺ ومنهجه وهديه كفر بواح ، ومرتكبه له عند الله تعالى أخزى الجزاء ، وأسوأ المصير .

٣ ـ أن الصدقة من خير ما يتناجى به الناس أو يتواصون بفعله ، علاوة على أنها تطفىء غضب الرب .

٤ ـ أن رحمة الله بعباده تتسع لكل الأخطاء بل الجرائم التى هى دون الشرك بشرط التوبة والندم ، واستغفار الله تعالى . أما الشرك به سبحانه وتعالى فذنب لا يغتفر ، وجريمة ليس كمثلها جريمة ، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به .

٥ ـ أن نحذر عدونا ـ القديم والأزلى ـ إبليس عليه لعنة الله ، ونفطن لمكائده التى يحيكها لنا ليلاً ونهاراً .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ
اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ
وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ
اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ
بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

معانى الكلمات :

قيلاً : قولاً . **بأمانيكم** : حب الأمانى والأهواء . **ولياً** : حافظاً . **نقيراً** : قدر نقرة صغيرة فى ظهر النواة . **محسن** : موحد ، ومطيع لأوامر الله . **حنيفاً** : مائلاً عن الباطل . **خليلاً** : صفياً ، خالص المحبة .

محيطاً : عالماً بكل شىء ، وعلمه نافذ .

أن تنكحوهن : أن تتزوجوهن .

بالقسط : بالعدل ، فى الميراث والأموال .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حقيقة الدين . وكونه ليس بالأمانى . وشرط قبول الإيمان .

٢ ـ أن نعرف القاعدة الحاكمة فى الجزاء ومحاسبة البشر أمام الله عز وجل .

٣ ـ أن نعرف الحكمة من الفتوى فى أمور الدين ، وما يترتب عليها .

المحتوى التربوى :

بعد أن بيّن الله عاقبة من يستهويهم الشيطان ، ويصدق عليهم ظنه ، يأتى بيان عاقبة من يفلتون من حبالته ، لأنهم آمنوا بالله حقاً ، والمؤمنون بالله حقاً فى نجاة من هذا الشيطان لأنه ـ لعنة الله عليه ـ وهو يستأذن فى إغواء الضالين ، لم يؤذن له فى المساس بعباد الله المخلصين ، فهو إزاءهم ضعيف ضعيف ، كلما اشتدت قبضتهم على حبل الله المتين ، والعاقبة هى جنات الخلد لا خروج منها لأولياء الله ..وعد الله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ . والصدق المطلق فى قول الله هنا ؛ يُقابل الغرور الخادع ، والأمانى الكاذبة فى قول الشيطان هناك ! وشتان بين من يثق بوعد الله ومن يثق بتغرير الشيطان !

ثم يعقب السياق بقاعدة الإسلام الكبرى فى العمل والجزاء ، إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكلاً إلى الأمانى . إنه يرجع إلى أصل ثابت ، وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابى قانون تستوى أمامه الأمم ـ فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر ـ وليس أحد تخرق له

القاعدة ، وتخالف من أجله السنة ، ويعطل لحسابه القانون ، إن صاحب السوء مجزى بالسوء ؛ وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة ولا محاباة فى هذا ولا مماراة .

ويقول صاحب الظلال : « لقد كان اليهود والنصارى يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » .. وكانوا يقولون : ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ ، وكان اليهود لا يزالون يقولون : إنهم شعب الله المختار ! ولعل بعض المسلمين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس . وأن الله متجاوز عما يقع منهم .. بمـا أنـهم المسلمون .

فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل وحده ، ويرد الناس كلهم إلى ميزان واحد ، هو إسلام الوجه لله ـ مع الإحسان ـ واتباع ملة إبراهيم وهى الإسلام .

إبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً ، فأحسن الدين هو هذا الإسلام ، وأحسن العمل هو الإحسان ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وقد كتب الله الإحسان على كل شىء حتى فى إراحة الذبيحة عند ذبحها ، وحد الشفرة ، حتى لا تعذب وهى تذبح !

وفى الآيات التسوية بين شقى النفس الواحدة ، فى موقفها من العمل والجزاء ؛ كما أن فيه شرط الإيمان لقبول العمل ، وهو الإيمان بالله .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ ، وهو نص صريح على وحدة القاعدة فى معاملة شقى النفس الواحدة ـ من ذكر أو أنثى ـ كما هو نص صريح فى اشتراط الإيمان لقبول العمل ، وأنه لا قيمة عند الله لعمل لا يصدر عن الإيمان ولا يصاحبه الإيمان . وذلك طبيعى ومنطقى ، لأن الإيمان بالله هو الذى يجعل العمل الصالح يصدر عن تصور معين وقصد معلوم ؛ كما يجعله حركة طبيعية مطردة ، لا استجابة لهوى شخصى ، ولا فلتة عابرة لا تقوم على قاعدة .

ويستكمل النص القرآنى علاج رواسب المجتمع الجاهلى ، فيما يختص بالمرأة والأسرة ؛ وفيما يختص بمعاملة الضعاف فى المجتمع كاليتامى والأطفال ؛ وهذه الآيات تعالج بعض هذه الشؤون ، وتربطها بنظام الكون كله ، مما يشعر معه المخاطب بهذه الآيات ، أن أمر النساء والبيوت والأسرة والضعاف فى المجتمع ، هو أمر خطير كبير وهو فى حقيقته أمر خطير كبير .

يقول صاحب الظلال : « لقد أثارت الآيات التى نزلت فى أوائل السورة عن النساء أسئلة واستفتاءات فى بعض شأنهن ، وظاهرة سؤال المسلمين واستفتائهم فى بعض الأحكام ظاهرة لها دلالتها فى المجتمع المسلم الناشئ ؛ وفى رغبة المسلمين فى معرفة أحكام دينهم فى شؤون حياتهم ، فقد كانت الهزة التى أحدثتها النقلة من الجاهلية إلى الإسلام فى نفوسهم هزة عميقة حيث أصبحوا يشكون ، ويشفقون من كل أمر كانوا يأتونه فى الجاهلية مخافة أن يكون الإسلام قد نسخه أو عدله ويتطلبون أن يعرفوا حكم الإسلام فى كل ما يعرض لهم فى حياتهم اليومية من

الشؤون ، لقد كانت بالقوم حاجة إلى معرفة أحكام دينهم ؛ لأنها هى التى تكوّن نظام حياتهم الجديدة . وكانت بهم حرارة لهذه المعرفة ، لأن الغرض منها هو إيجاد التطابق بين واقع حياتهم وأحكام دينهم .

وكان بهم انخلاع من الجاهلية ، وإشفاق من كل ما كان فيها من تقاليد وعادات وأوضاع وأحكام . مع شدة إحساسهم بقيمة هذا التغيير الكامل الذى أنشأه الإسلام فى حياتهم، ـ أو بتعبير أدق بقيمة ـ هذا الميلاد الجديد الذى ولدوه على يدى الإسلام . وهنا نجد جزاء تطلعهم لله، وجزاء حرارتهم ، وصدق عزيمتهم على الاتباع ، نجد جزاء هذا كله عناية من الله ورعاية ، بأنه ـ سبحانه بذاته العلية ـ يتولى إفتاءهم فيما يستفتون فيه ».

فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ ، يقول صاحب المنار : « أى وما تفعلوه من الخير لليتامى بترجيح منفعتهم ، والزيادة فى قسطهم ، فهو مما لا يعزب عن علمه تعالى ولا ينسى الإنابة عليه ، كسائر أفعال الخير ، وهذا ترغيب فى الإحسان إلى اليتامى وتكميل لبيان مراتب معاملتهم وهى ثلاث :أولاها هضم شىء من حقوقهم وهى المحرمة السفلى . والثانية:القيام لهم بالقسط والعدل التام بألّا يظلموا من حقهم شيئاً وهى الواجبة الوسطى. والثالثة الزيادة فى رزقهم وإكرامهم بما ليس لهم من مال ، وما لا يجب لهم من عمل ، وهى المندوبة الفُضلى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن الدين والتدين ليس بالتمنى ، كما أنه ليس بالادعاء الظاهرى ، ولكنه ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، والعبرة فيه بالطاعة لله ولرسوله والاتباع لما فى شريعته .

٢ ـ أن كمال الإيمان لا يحصل إلا مع تفويض الأمر كله لله فى جميع الأمور ، والاستسلام له فى كل شىء .

٣ ـ أن القاعدة العامة فى الجزاء هى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ والقاعدة الأخرى التى تكمل العدل والإنصاف هى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ .

٤ ـ أن كل شىء فى السموات والأرض ، وفى كل شىء من خلق الله هو على وجه الحقيقة ملك لله تعالى ، وتصرفه فيه سبحانه لا معقب عليه ولا راد له .

٥ ـ أن الأصل فى الالتزام بشريعة الإسلام أن يعمل كل مسلم ما وسعه من أجل أن يصل الحق إلى صاحبه ، مهما كان صاحبه ضعيفاً لصغره أو يُتمه ولداً كان أو بنتاً .

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

معانى الكلمات :

بعلها : زوجها . **نشوزاً** : تجافياً عنها ، وترفعاً عليها . **إعراضاً** : انصرافاً .

جُناح : لا إثم ، ولا حرج . **الشح** : شدة البخل . **أن تعدلوا** : فى المحبة والمؤانسة .

فلا تميلوا كل الميل : فلا تميلوا عن المرغوب عنها . **من سعته** : من غناه .

فتذروها كالمعلقة : ليست مطلقة ، وليست لها زوج . **وكيلاً** : شهيداً .

إن يشأ يذهبكم : يهلككم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان كيفية حل الخصومات والنزاعات بين الزوجين من القرآن الكريم .

٢ ـ بيان ما ينبغى على الزوجين حين يحتدم الخلاف .

٣ ـ بيان أهمية الأسرة ومكانتها فى المجتمع وعناية القرآن بتنظيم أحوالها .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق الحديث عن التنظيم الاجتماعى ـ فى محيط الأسرة ـ فى هذا المجتمع الذى كان الإسلام ينسبه بمنهج الله المتنزل من الملأ الأعلى ، لا بعوامل التغير الأرضية فى عالم المادة أو دنيا الإنتاج ؛ ولقد نظم المنهج ـ من قبل ـ حالة النشوز من ناحية الزوجة والإجراءات التى تتخذ للمحافظة على كيان الأسرة ، وهنا ينظم حالة النشوز والإعراض حين يخشى وقوعها من ناحية الزوج ، فتهدد أمن المرأة وكرامتها ، وأمن الأسرة كلها كذلك . إن القلوب تتقلب ، وإن المشاعر تتغير ، والإسلام منهج حياة يعالج كل جزئية فيها ، ويتعرض لكل ما يعرض لها ؛ فى نطاق مبادئه واتجاهاته ، وتصميم المجتمع الذى يرسمه وينشئه وفق هذا التصور .

فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة ؛ وأن تؤدى هذه الجفوة إلى الطلاق ـ وهو أبغض الحلال إلى الله ـ أو إلى الإعراض ، الذى يتركها كالمعلقة . لا هى زوجة ولا هى مطلقة فليس هناك حرج عليها ولا على زوجها ، أن تتنازل له عن كل شىء من فرائضها المالية أو فرائضها الحيوية ، كأن تترك له جزءاً أو كلا من نفقتها الواجبة عليه ، أو أن تترك له قسمتها وليلتها . ، إن كانت له زوجة أخرى يؤثرها ، وكانت هى قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها ، هذا كله إذا رأت هى ـ بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها ـ أن ذلك خير لها وأكرم من طلاقها .

ثم يعقب على الحكم ـ بأن الصلح إطلاقاً خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق ، وهو هنا ـ فى هذا الحكم ـ يتعامل مع هذا الإنسان وينص على سمة من سماته فى هذا المجال وهى الشح فى قوله : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ أى أن الشح حاضر دائماً فى الأنفس ، وهو دائماً قائم فيها بكل أنواعه ، وقد تترتب فى حياة الزوجين ـ أو تعرض ـ أسباب تستثير هذا الشح فى نفس الزوج تجاه زوجته ، فيكون تنازلها له عن شىء من مؤخر صداقها أو من نفقتها ـ إرضاء لهذا الشح بالمال ، تستبقى معه عقدة النكاح ! والأمر على كل متروك فى هذا للزوجة وتقديرها لما تراه مصلحة لها ، لا يلزمها التشريع بشىء ؛ ولكنه فقط يجيز لها التصرف ، ويمنحها حرية النظر والتدبر فى أمرها وفق ما تراه .

وبالرغم من اعتراف المنهج الربانى بطبيعة النفس البشرية ، وما فيها من شح ، يهتف لها هتافاً آخر وهو الإحسان والتقوى ؛لأنهما مناط الأمر فى النهاية ، ولن يضيع منهما شىء على صاحبه ، فإن الله خبير بما تعمله كل نفس؛ خبير ببواعثه وكوامنه ، والهتاف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى ، والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل ، هتاف مؤثر ونداء مستجاب ، ويواجه النص واقع النفس البشرية ، وملابسات الحياة البشرية ، فالله الذى فطر النفس يعلم من خطراتها أنها ذات ميول لا تملكها ، ومن ثم أعطاها لهذه الميول خطاماً لينظم حركتها فقط ، لا ليعدمها ويقتلها !

من هذه الميول أن يميل القلب البشرى إلى إحدى الزوجات ويؤثرها على الأخريات فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات ، وهذا ميل لا حيلة له فيه ؛ ولا يملك محوه أو قتله .. فماذا ؟ إن الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه ، فيدعه موزعاً بين ميل لا يملكه وأمر لا يطيقه ! بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ـ ولو حرصوا ـ لأن الأمر خارج عن إرادتهم . ولكن هناك ما هو داخل فى إرادتهم . هناك العدل فى المعاملة والقسمة ، والنفقة والعدل فى الحقوق الزوجية كلها ، حتى الابتسامة فى الوجه ، والكلمة الطيبة باللسان .

فأما حين تجف القلوب ، فلا تطيق هذه الصلة ؛ ولا يبقى فى نفوس الزوجين ما تستقيم معه الحياة ، فالتفرق إذن خير ؛ لأن الإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال ، إنما يمسكهم بالمودة والرحمة ، أو بالواجب والتجمل ، فإذا حدث التفرق ، فإن الله يَعِد كلاً منهما أن يغنيه من

فضله هو ، ومما عنده هو ، وهو ـ سبحانه ـ يسع عباده ويوسع عليهم بما شاء فى حدود حكمته وعلمه بما يصلح لكل حال .

ثم ينتقل السياق بعد نظم شؤون الأسرة ، ليتناول قطاعاً آخر بالتنظيم الربانى ليربط نظم الأسرة بالنظام الكونى كله ؛ وسلطان الله فى الكون كله ، وملكية الله للكون كله ، ووحدة الوصية التى وصى الله بها الناس فى كتبه كلها ؛ وثواب الدنيا ، وثواب الآخرة ، وهى القواعد التى يقوم عليها المنهج كله ، قواعد الحق والعدل والتقوى .

ويكثر فى القرآن التعقيب على الأحكام ، وعلى الأوامر والنواهى بأن لله ما فى السموات وما فى الأرض ؛ أو بأن لله ملك السموات والأرض ، فالأمران متلازمان فى الحقيقة . فالمالك هو صاحب السلطان فى ملكه ؛ وهو صاحب حق التشريع لمن يحتويهم هذا الملك . والله وحده هو المالك ، ومن ثم فهو وحده صاحب السلطان الذى يشرع به للناس ، كذلك يبرز هنا من وصية الله ـ سبحانه ـ لكل من أنزل عليهم كتاباً ، الوصية بالتقوى ، وذلك بعد تعيين من له ملكية السموات والأرض ومن له حق الوصية فى ملكه ، فصاحب السلطان الحقيقى هو الذى يُخشى ويُخاف . وتقوى الله هى الكفيلة بصلاح القلوب ، وحرصها على منهجه فى كل جزئياته ، كذلك يبين لمن يكفرون ضآلة شأنهم فى ملك الله ؛ وهو أن أمرهم إليه سبحانه ؛ وقدرته على الذهاب بهم والمجىء بغيرهم ، ويختم هذا التعقيب بتوجيه القلوب الطامعة فى الدنيا وحدها ، إلى أن فضل الله أوسع ، فعنده ثواب الدنيا والآخرة وفى استطاعة الذين يقصرون هممهم على الدنيا أن يتطلعوا بأنظارهم وراءها ، وأن يأملوا فى خير الدنيا وخير الآخرة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ أن على الزوجين أن يصلحا ما بينهما على النحو الذى يحفظ لكل منهما حقه ، ويلتزم بأداء واجبه ، لأن المبدأ العام فى جميع أحوال التنازع هو : ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ، ومع هذا الخير تزول أسباب الخصام والنشوز والإعراض .

٢ ـ أن الزوجين مطالبان بتقوى الله فى تعاملهما ، وتقوى الله فى أوضح صورها وأبسطها هى خوف الوقوع فى الإثم والحرج ، وما يوقع الإنسان فى الإثم والحرج إلا مخالفته سبحانه فيما أمر أو نهى .

٣ ـ أن الزوجين إذا افترقا ، وقد أصلح كل منهما ما وسعه واتقى الله فى الطرف الآخر ، ثم استحالت بينهما العشرة فإن الله تعالى سيجعل لكل منهما عوضاً عن الآخر خيراً منه إذا حسنت نيته واتقى الله كما أمره .

٤ ـ أن من لم يتق الله تعالى فى نفسه أو مع غيره فما أضر إلا نفسه ، وما ضر الله فى شىء ؛ لأنه سبحانه غنى عن تقوى الناس وعبادتهم ، وإنما هم المحتاجون إلى تلك التقوى والعبادة لتستقيم لهم معها حياة إنسانية كريمة .

الجزء الخامس — سورة النساء

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

١٠٠

معانى الكلمات :

قوامين بالقسط: محافظين على إقامة العدل.

شهداء لله : مخلصين الشهادة لله .

تلووا : تحرفوا فى الشهادة . **أولى بهما :** أحق بهما . **أن تعدلوا :** كراهة العدول عن الحق. **تعرضوا :** تتمنعوا عن أدائها .

أيبتغون عندهم العزة : أيطلبون بموالاة الكفار القوة والغلبة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية إقامة العدل ، وأثره فى كيان الجماعة المسلمة .

٢ ـ أن نعلم أهمية أداء الشهادة لله ، ونؤديها على وجهها الصحيح .

٣ ـ أن نعرف متطلبات الإيمان الكامل ، ونلتزم به .

٤ ـ أن نعلم ضوابط الجلوس مع المنافقين والكافرين .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات نواصل مع السياق حلقات التربية المنهجية ؛ لرسم قواعد المنهج التربوى فى القرآن الكريم ، الموضوع للناس جميعاً ، فى أجيالهم كلها ، لتأخذ بيدهم من سفوح الجاهلية ، إلى قمم الإسلام السامقة . فيأمر الجماعة المسلمة بإقامة العدل بين الناس ؛ العدل الذى تتعامل فيه الجماعة مع الله مباشرة ، متجردة من كل عاطفة أو هوى أو مصلحة . متجردة من كل اعتبار آخر غير تقوى الله ومرضاته ، ثم يدعوهم دعوة ثانية إلى الإيمان بعناصر الإيمان الشامل بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

يقول صاحب الظلال : « ولكل عنصر من هذه العناصر قيمته فى تكوين العقيدة الإيمانية ، وقيمته فى تكوين التصور الإسلامى، المتفوق على جميع التصورات الأخرى التى عرفتها البشرية، قبل الإسلام وبعده ، والذى يحمل عنصر التفوق دائماً لكل جماعة تؤمن به حقاً وتعمل

بمقتضياته كاملة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . حيث تحق كلمة الله : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ .

وبعد الأمر بالإيمان ، يجيء التهديد على الكفر بعناصر الإيمان ، مع التفصيل فيها فى موضع البيان قبل العقاب .. والذى يكفر بالله الذى تؤمن به الفطرة فى أعماقها كحركة ذاتية منها واتجاه طبيعى فيها ، ويكفر بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، استمداداً من كفره بالحقيقة الأولى الذى يكفر هذا الكفر تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب ، الحد الذى لا يُرجى معه هدى ؛ ولا يرتقب بعده مآب !

وبعد هذين النداءين بإقامة العدل والإيمان وبيان عناصره ، يأخذ السياق فى الحملة على النفاق والمنافقين ، ويبدأ بوصف حالة من حالاتهم الواقعة ـ حينذاك ـ فالكفر الذى يسبق الإيمان يغفره الإيمان ويمحوه ، فالذى لم يشهد النور معذور إذا هو أدلج فى الظلام ، فأما الكفر بعد الإيمان مرة ومرة فهو الكبيرة التى لا مغفرة لها ولا معذرة ؛ لأن الكفر حجاب فمتى سقط اتصلت الفطرة بالله ، وذاقت الروح حلاوة الإيمان . فالذين يرتدون بعد الإيمان مرة ومرة ، إنما يفترون على الفترة عن معرفة ، ويلجون فى الغواية عن عمد ، ويذهبون مختارين إلى التيه الشارد والضلال البعيد . فَعدلٌ ألا يغفر الله لهم ؛ وعدلٌ ألا يهديهم سبيلاً ؛ لأنهم الذين أضاعوا السبيل بعدما عرفوه وسلكوه . وهم الذين اختاروا السيئة والعمى ، بعدما هدوا إلى المثابة والنور .

ويستأنف السياق الحملة على المنافقين باستعمال كلمة « بشر » مكان كلمة أنذر ، وفى جعل العذاب الأليم ينتظر المنافقين بشارة ! ثم ببيان سبب هذا العذاب الأليم ، وهو ولايتهم للكافرين دون المؤمنين ، وسوء ظنهم بالله ؛ وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة .

والكافرون المذكورون هنا هم ـ على الأرجح ـ اليهود ؛ الذين كان المنافقون يأوون إليهم ، ويتخنسون عندهم ، ويبيتون معهم للجماعة المسلمة شتى المكائد » . والله جل جلاله ـ يسأل فى استنكار : لم يتخذون الكافرين أولياء وهم يزعمون الإيمان ؟ لم يضعوا أنفسهم هذا الموضع ، ويتخذون لأنفسهم هذا الموقف ؟ أهم يطلبون العزة والقوة عند الكافرين ؟ لقد استأثر الله ـ عز وجل ـ بالعزة ؛ فلا يجدها إلا من يتولاه ؛ ويطلبها عنده ؛ ويرتكن إلى حماه .

ويقول صاحب الظلال مُعلقاً : « ألا إنه لسند واحد للنفس البشرية تجد عنده العزة ، فإن ارتكنت إليه استعلت على من دونه ، وألا إنها لعبودية واحدة ترفع النفس البشرية وتحررها ، العبودية لله ، فإنْ لم تطمئن إليها النفس استعبدت لقيم شتى ؛ وأشخاص شتى ؛ واعتبارات شتى، ومخاوف شتى ، ولم يعصمها شيء من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل اعتبار .

وإنه إما عبودية لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق . وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال ، ولمن شاء أن يختار .

وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن . وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله .، وما أحوج ناساً ممن يدَّعون الإسلام ؛ ويتسمون بأسماء المسلمين ، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله فى الأرض ، أن يتدبروا هذا القرآن ، إن كانت بهم رغبة فى أن يكونوا مسلمين، وإلا فإن الله غنى عن العالمين !

ويوضح أولى مراتب النفاق وهو أن يجلس المؤمن مجلساً يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فيسكت ويتغاضى ، يسمى ذلك تسامحاً ، أو يسميه دهاء ، أو يسميه سعة صدر وأفق وإيماناً بحرية الرأى !!! وهذه هى الهزيمة الداخلية تدب فى أوصاله ؛ وهو يموه على نفسه فى أول الطريق ، حياء منه أن تأخذه نفسه متلبساً بالضعف والهوان .

ويقول صاحب الظلال: « إن الحمية لله ، ولدين الله ، ولآيات الله ، هى آية الإيمان وما تفتر هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد ؛ وينزاح بعدها كل حاجز ، وينجرف الحطام الواهى عند دفعة التيار ، وإن الحمية لتكبت فى أول الأمر عمداً ثم تهمد . ثم تخمد . ثم تموت ! فمن سمع الاستهزاء بدينه فى مجلس ، فإما أن يدفع ، وإما أن يقاطع المجلس وأهله . فأما التغاضى والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة . وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن العدل والحق جوهر رسالة الإسلام ، وإقرارهما هو واجب المسلمين الثابت الذى لا ينفك عنهم ، ولا يجوز لهم أن ينفكوا عنه حتى لو كان تعاملهم مع أعدائهم .

٢ ـ لابد من تجديد الإيمان وترسيخه بمزيد من العمل الصالح واليقين الراسخ ، والتوكل على الله ، والاستمداد منه .

٣ ـ الإيمان القوى الراسخ لا تزحزحه الأحداث ، ولا يصاحبه خوف من بطش باطش ولا ظلم ظالم .

٤ ـ من علامات النفاق موالاة الكفار، واتخاذهم نصراء وأعوانًا وأصدقاء من دون المؤمنين .

٥ ـ مجالس اللهو والمعصية والاستهزاء بآيات الله والفسق والفجور يحرم ارتيادها على المسلمين .

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

معانى الكلمات :

يتربصون بكم : ينتظرون ما يحدث لكم .

فتح : نصر وظَفُر وغنيمة . **يخادعون الله** : يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .

ألم نستحوذ عليكم : ألم نغلبكم فأبقينا عليكم . **مذبذبين بين ذلك** : مُردَّدين بين الكفر والإيمان .

سُلطانا مبيناً : حُجّةً ظاهرة فى العذاب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم صفات المنافقين فنحذرهم، ولا نتمثل سلوكهم .

٢ ـ أن نعلم موازين الغلبة على الكافرين والمنافقين فنسلكها .

٣ ـ بيان ضرورة إخلاص العبادة لله ، والاجتهاد فيها ، والقيام إليها بنشاط ورغبة ، وحب لله ، وبعد عن الرياء.

٤ ـ بيان أهمية التوبة والشكر وكونهما سبيل النجاة من عذاب الله .

المحتوى التربوى :

يأخذ السياق القرآنى ـ فى هذه الآيات ـ فى بيان سمات المنافقين ، فيرسم لهم صورة منفرة ؛ وهم يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفار بوجه ؛ ويمسكون العصا من وسطها ، ويتلوون كالديدان والثعابين ، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يكون لهم فتح من الله ونعمة ؛ ففى قلوبهم السم ، وعلى ألسنتهم الدهان ! ولكنهم بعد ضعاف، صورتهم شائهة تعافها نفوس المؤمنين ، ومع هذا الحقد الأسود الذى انطوت عليه صدورهم ؛ فإن الله تعالى يطمئن الذين آمنوا بوعد قاطع ؛ أن هذا الكيد الخفى الماكر ، وهذا التآمر مع الكافرين ، لن يغير من ميزان الأمور، ولن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين .

ويقول صاحب الظلال : « وفى تفسير هذه الآية : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ وردت رواية أن المقصود بهذا النص يوم القيامة حيث يحكم الله بين المؤمنين والمنافقين فلا يكون هناك للكافرين على المؤمنين سبيل .

كما وردت رواية أخرى بأن المقصود هو الأمر فى الدنيا بألا يسلط الله الكافرين على المسلمين تسليط استئصال. وإن غُلب المسلمون فى بعض المعارك ، وفى بعض الأحايين ، وإطلاق النص فى الدنيا والآخرة أقرب ؛ لأنه ليس فيه تحديد .

ويقول صاحب الظلال : « وأنا أقرر فى ثقة بوعد الله لا يخالجها شك ، أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم فى تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة فى حقيقة الإيمان إما فى الشعور وإما فى العمل ـ ومن الإيمان أخذ العدة ، وإعداد القوة فى كل حين بنية الجهاد فى سبيل الله، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة ، وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ؛ ثم يعود النصر للمؤمنين ـ حين يوجدون !

ففى « أحد » مثلاً كانت الثغرة فى ترك طاعة الرسول ﷺ وفى الطمع فى الغنيمة . وفى «حنين» كانت الثغرة فى الاغترار بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل ! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين فى تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذا ، نعرفه أو لا نعرفه ، أما وعد الله فهو فى كل حين » .

ثم تمضى الآيات بعد ذلك الوعد القاطع المطمئن للمؤمنين . المخذّل للمنافقين الذى يتولون الكافرين يبتغون عندهم العزة ، يمضى فيرسم صورة أخرى لهم ، مصحوبة بالتهوين من شأنهم وبوعيد الله لهم ، فهم ﴿ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ ﴾ ، أى مستدرجهم وتاركهم فى غيهم ؛ يمضون فى طريق الهاوية حتى يسقطوا ؛ وصورتهم الأخرى الكريهة أنهم يقومون إلى الصلاة كسالى يراؤون الناس ، فهم لا يتذكرون الله إنما يتذكرون الناس ! وهم لا يتوجهون إلى الله ، إنما هم يراؤون الناس علاوة على ذلك يتأرجحون بين الكفر والإيمان ، ومن ثم حقت عليهم كلمة الله ، واستحقوا ألا يعينهم فى الهداية ، ومن ثم فلن يستطيع أحد أن يهديهم سبيلاً . ولا أن يجد لهم طريقاً مستقيماً . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ .

وبعد هذه الصورة المنفرة والسيئة للمنافقين يتجه السياق للمؤمنين مُحذراً إياهم أن يسلكوا طريق هؤلاء المنافقين ـ وطريق المنافقين ـ كما سبق ـ هو اتخاذهم الكفار أولياء من دون المؤمنين ويحذرهم بطش الله ونقمته ، كما يصور لهم مصير المنافقين فى الآخرة . وهو مصير مفزع رهيب ومهين وذليل ، فهم فى الدرك الأسفل من النار ، وهو مصير يتفق مع ثقلة الأرض التى تلصقهم بالتراب ، فلا ينطلقون ولا يرتفعون . ثقلة المطامع والرغائب ، والحرص والحذر ، والضعف والخوف ، وموالاة الكافرين ومداراة المؤمنين والوقوف فى الحياة ذلك الموقف المهين : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ .. فهم كانوا فى الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين .

وبعد هذا المشهد المفزع يفتح لهم باب النجاة ، باب التوبة لمن أراد النجاة ، ويقول صاحب الظلال مُعلقاً على هذه الآيات : « والتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله ، وإخلاص الدين

لله ، ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله ، وإخلاص الدين لله ؛ لأنه يواجه نفوساً تذبذبت ، ونافقت ، وتولت غير الله ، فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح ، على التجرد لله ، والاعتصام به وحده ؛ وخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة ، وتلك الأخلاق المخلخلة ؛ ليكون فى الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك ، وفى الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد .

وبذلك تخف تلك الثقلة التى تهبط بالمنافقين فى الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض ، وتهبط بهم فى الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار ؛ وبذلك يرتفع التائبون منهم إلى مصاف المؤمنين ؛ المعتزين بعزة الله وحده ، المستعلين بالإيمان ، المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان وجزاء المؤمنين ـ ومن معهم ـ معروف : ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

وأخيراً يتساءل الله عز وجل ـ متعجباً : ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾؟! إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران ؛ وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان ، إنها ليست شهوة التعذيب ، ولا رغبة التنكيل ، ولا التذاذ الآلام، ولا إظهار البطش والسلطان ، تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً ، فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان ؛ فهناك الغفران والرضوان وهناك شكر الله ـ سبحانه ـ لعبده وعلمه ـ سبحانه ـ بعباده ، وهذه إشارة إلى معالم الطريق .. الطريق إلى الله الواهب المنعم، الشاكر العليم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ متى استقرت حقيقة الإيمان فى نفوس المؤمنين ، وتمثلت فى واقع حياتهم منهجاً للحياة ، ونظاماً للحكم ، وتجرداً لله فى كل خاطرة وحركة ، وعبادة لله فى الصغيرة والكبيرة ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

٢ ـ القوارع والمحن كثيرا ما تكون رحمة من الله ، حين تصيب العباد ، فتردهم سريعًا عن الخطأ أو تعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ؛ وكثيراً ما تكون العافية والنعمة استدراجًا من الله للمذنبين الغاوين؛لأنهم بلغوا من الإثم والغواية ما يستحقون معه أن يتركوا بلا قارعة ولا نذير؛ حتى ينتهوا إلى شر مصير .

٣ ـ ضرورة إخلاص العبادة لله ، والاجتهاد فيها ، والقيام إليها بنشاط ورغبة ، وحب لله ، والبعد عن الرياء .

٤ ـ رحمة الله تعالى باب مفتوح دائماً ، ويتسع لكل خلقه حتى من كفر منهم أو نافق إذا تاب إلى الله عز وجل .

٥ ـ عقاب الله وعذابه لا يُعفى منه إلا من آمن بالله وشكره بالقلب واللسان والجوارح .

الجزء السادس — سورة النساء

الجزء ٦ الحزب ١١

۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن
سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ
أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ
حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ
يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟
مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

١٠٢

معانى الكلمات :

الجهر : الإعلان .

سبيلاً : طريقاً بين الكفر والإيمان .

أعتدنا : أعددنا وهيأنا .

جهرة : عياناً ومواجهة .

الصاعقة : نارٌمن السماء أو صيحة منها .

اتخذوا العجل : عبدوه وجعلوه إلهاً .

الطور : جبل سيناء فى مصر .

بميثاقهم : بعهدهم .

الباب : باب بيت المقدس .

لا تعدوا فى السبت : لا تعتدوا باصطياد الحيتان فيه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان قبح الجهر بالسوء ، وضوابط الجهر به .

٢ ـ بيان حقيقة الإيمان الكامل الشامل .

٣ ـ أن نعلم حقيقة اليهود كما ذكرها الله فى القرآن .

المحتوى التربوى :

تستكمل هذه الآيات طرفاً من تطهير القرآن للنفس والمجتمع ، وتربيته على الآداب الاجتماعية الإسلامية، فيكره الله للجماعة المسلمة أن تشيع فيها مقالة السوء، ويستثنى حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم ،يدفعه بكلمة سوء يصف بها الظالم ،فى حدود ما وقع عليه من الظلم!

ويقول صاحب **الظلال** : « إن الإسلام يحمى سمعة الناس ـ ما لم يظلموا ـ فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية ؛ وأُذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء فى ظالمه ؛ وكان هذا هو الاستثناء الوحيد من كف الألسنة عن كلمة السوء . وهكذا يوفق الإسلام بين حرصه على العدل الذى لا يطيق معه الظلم،وحرصه على الأخلاق الذى لا يطيق معه خدشاً للحياء النفسى والاجتماعى..».

ويربط الأمر فى النهاية بالله ، بعدما ربطه فى البداية بحب الله وكرهه : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ وليشعر القلب البشرى أن مرد تقدير النية والباعث ، وتقدير القول والاتهام ، لله السميع لما يُقال ، العليم بما وراء ما تنطوى عليه الصدور .

ثم لا يقف النص عند هذا الحد السلبى فى النهى عن الجهر بالسوء ؛ إنما يوجه إلى الخير الإيجابى عامة ، ويوجه إلى العفو عن السوء ، ويلوح بصفة الله سبحانه فى العفو وهو قادر على الأخذ ، ليتخلق المؤمنون بأخلاق الله سبحانه فيما يملكون وما يستطيعون .

وعندئذ يشيع الخير فى المجتمع المسلم إذا أبدوه ، ويؤدى دوره فى تربية النفوس وتزكيتها إذا أخفوه ـ فالخير طيب فى السر طيب فى العلن ـ وعندئذ يشيع العفو بين الناس ، فلا يكون للجهر بالسوء مجال . على أن يكون عفو القادر الذى يصدر عن سماحة النفس لا عن مذلة العجز ؛ وعلى أن يكون تخلقاً بأخلاق الله ، الذى يقدر ويعفو : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ .

ويأخذ القرآن فى جولة مع أهل الكتاب . فلقد كان اليهود يدعون الإيمان بأنبيائهم ؛ وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد ؛ كما أن النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى ـ فضلاً عن تأليهه ـ وينكرون رسالة محمد كذلك .

والقرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء ؛ ويقرر التصور الإسلامى الشامل عن الإيمان بالله ورسوله ؛ بدون تفريق بين الله ورسله ، وبدون تفريق بين رسله جميعاً ، وبهذا الشمول كان الإسلام هو « الدين » الذى لا يقبل الله من الناس غيره ، لأنه هو الذى يتفق مع وحدانية الله ؛ ومقتضيات هذه الوحدانية .

يقول صاحب الظلال : « إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضى توحيد دينه الذى أرسل به الرسل للبشر ، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس، وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله فى الحقيقة ؛ وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية . فدين الله للبشر ومنهجه للناس ،هو هو لا يتغير فى أساسه كما أنه لا يتغير فى مصدره » .

ويمضى السياق يستعرض بعض مواقف اليهود فى مجال الجهر بالسوء الذى بدئت به هذه الآيات ، فلقد وقف اليهود فى الجزيرة العربية من الإسلام ونبى الإسلام موقفاً عدائياً ، فطلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السماء . كتاب مخطوط ينزله عليهم من السماء مجسماً يلمسونه بأيديهم ، ويتولى الله ـ سبحانه ـ الإجابة عن نبيه.ويقص عليه وعلى الجماعة المسلمة ـ فى مواجهة اليهود ـ صفحه من تاريخهم الأسود مع نبيهم موسى عليه السلام الذى يزعمون أنهم يؤمنون به ؛ ويرفضون التصديق بعيسى من بعده وبمحمدٍ !

إن هذا السلوك المقيت ليس جديداً عليهم ، وإنما هو ديدنهم من قديم إنهم هم من عهد موسى وحتى تقوم الساعة ، أجلاف غلاظ القلوب لا يدركون إلا المحسوسات ، ولا يسلمون إلا تحت القهر والبطش ، وهم هم كفراً وغدراً ونقضاً للعهود ؛ ولا يتورعون كذلك عن الجهر بالسوء ، فيقول الله لنبيه ﷺ فلا عليك من هذا التعنت ؛ ولا غرابة فيه ولا عجب منه ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ، وهو مطلب طابعه التبجح الذى يصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان ؛ أو فيه استعداد للإيمان ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ .

ولكن الله ـ سبحانه ـ عفا عنهم ؛ وتقبل فيهم دعاء موسى عليه السلام وضراعته إلى ربه ولكن اليهود هم اليهود . لايفلح معهم إلا القهر والخوف ؛ فأعطى الله ـ عز وجل ـ موسى عليه السلام الشريعة التى تضمنتها الألواح ، فشريعة الله سلطان من الله ؛ وكل شريعة غير شريعة الله ما أنزل الله بها من سلطان ؛ وما جعل فيها من سطوة على القلوب ، لذلك تستهين القلوب بالشرائع والقوانين التى يسنها البشر لأنفسهم ، ولا تنفذها إلا تحت عين الرقيب وسيف الجلاد ، فأما شريعة الله فالقلوب تخضع لها وتخنع ؛ ولها فى النفس مهابة وخشية .

ولكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أبوا الاستسلام لما فى الألواح ، وهنا جاءهم القهر المادى الذى يناسب طبيعتهم الفظة الغليظة ، إذا نظروا فرأوا الصخرة معلقة فوق رؤوسهم ؛ تهددهم بالوقوع عليهم ؛ إذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد ؛ وما كتب عليهم من التكاليف فى الألواح . وعندئذ فقط استسلموا ؛ وأخذوا العهد ؛ وأعطوا الميثاق . ميثاقاً غليظاً .. مؤكداً وثيقاً .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن المسلم محظور عليه أن يجهر بالسوء من القول ، لأن الله يبغض هذا السلوك ويبغض صاحبه ، وذلك لتطهير المجتمع المسلم من البذاءة والفحش والكلام السيئ ، فالله تعالى لا يحب الجهر بالسوء .

٢ ـ أن الإيمان بالله يقتضى الإيمان برسله أجمعين دون تفريق بينهم .

٣ ـ أن الأنبياء جميعاً من عند الله ، ومناهجهم جميعاً تقوم على توحيد الله وعبادته ، فالكفر بأحد هؤلاء الأنبياء كُفر بهم جميعاً وكفر بالله تعالى .

٤ ـ أن اليهود فى كل زمان ومكان أهل لجاجة وتعنت وعناد ، لذا فلا عهد لهم ولا ذمة ولا أمان .

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

معانى الكلمات :

قلوبنا غُلف : مُغَشَّاة بأغطية خلْقيَّة فلا تعى . **طَبَع اللهُ عليها :** ختم عليها فحجبها عن العلم . **بهتانا عظيماً :** كذباً وباطلاً فاحشاً . **رفعه الله إليه :** رفعه حياً إلى السماء بجسده وروحه . **شُبِّه لهم :** ألقى على المقتول شَبَه عيسى عليه السلام

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان بطلان اعتقاد النصارى فى أن عيسى عليه السلام صلب وقتل .

٢ ـ بيان أثر المعاصى فى الحرمان من خير الدنيا والآخرة .

٣ ـ بيان حرمة أكل أموال الناس بالباطل كالربا والسرقة والغش .

٤ ـ أن نعرف فضل الرسوخ فى العلم والإيمان على أصحابهما .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات الحديث عن اليهود الذين أخذ الله عليهم الميثاق ؛ وكان فى هذا الميثاق : أن يدخلوا بيت المقدس سُجداً . وأن يعظموا السبت الذى طلبوا أن يكون لهم عيداً . ولكن ماذا كان ؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم؛ وغياب القهر عنهم، نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه بغير حق . وتبجحوا فقالوا : إن قلوبنا لا تقبل موعظة ، ولا يصل إليها قول ؛ لأنها مُغلقة دون كل قول .

يقول صاحب الظلال : « قلوبهم ليست مُغلقة بطبعها إنما هم كفرهم جّر عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هى صلدة جامدة مغطاة ، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته ، فلا يقع منهم الإيمان ، إلا قليلاً ، كعبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعيّة ، وأسد بن عبيد الله » .

ويعود القرآن فيكرر صفة الكفر كلما ذكر إحدى منكراتهم ، وذكرها هنا بمناسبة قولهم على مريم الطاهرة بهتاناً عظيماً !فرموها بالزنا مع يوسف النجار ـ لعنة الله عليهم ! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه وهم يتهكمون بدعواه الرسالة فيقولون : قتلنا عيسى ابن مريم رسول الله!

ويتولى القرآن الرد عليهم بأنهم ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ، ولا يدلى القرآن بتفصيل فى هذا الرفع أكان بالجسد والروح فى حالة الحياة ؟ أم كان بالروح بعد الوفاة ؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين ؟ وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواه .

ويقرر النص القرآنى حقيقة حاسمة وهى أن اليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام ـ وما زالو على كفرهم به ـ وقالوا : إنهم قتلوه وصلبوه ، ما من أحد منهم يدركه الموت ، حتى تكشف له الحقيقة عند حشرجة الروح ، فيرى أن عيسى حق ، ورسالته حق ، فيؤمن به ، ولكن حين لا ينفعه إيمان .. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً ، وبذلك يحسم القرآن الكريم قصة الصلب . ثم يعود بعدها إلى تعداد مناكر اليهود ؛ وما نالهم عليها من الجزاء الأليم فى الدنيا والآخرة .

فيضيف إلى ما سبق من مناكرهم : الظلم ، والصد الكثير عن سبيل الله ، فهم ممعنون فيه ودائبون عليه ، وأخذهم الربا ـ ليس عن جهل ـ فقد نهوا عنه فأصروا عليه ! وأكلهم أموال الناس بالباطل . بالربا وغيره من الوسائل .

بسبب هذه المنكرات وغيرها ، حرمت عليهم طيبات كانت حلالاً لهم ، وأعد الله للكافرين منهم عذاباً أليماً .

ويقول صاحب الظلال : « وهكذا تتكشف هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم وفضح عللهم ، وعدم الاستجابة للرسول وتعنتهم ؛ ودمغهم بالتعنت مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم ؛ ويسر ارتكابهم للمنكر وجهرهم بالسوء فى حق الأنبياء والصالحين .. بل قتلهم والتبجح بقتلهم ! وتسقط بذلك وتتهاوى دسائس اليهود فى الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم . وتعرف الجماعة المسلمة ـ ما ينبغى أن تعرفه الأمة المسلمة فى كل حين عن طبيعة اليهود وجبلتهم ، ووسائلهم وطرائقهم ، ومدى وقوفهم للحق فى ذاته سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم ، فهم أعداء للحق وأهله ، وللهدى وحملته . فى كل أجيالهم وأزمانهم . مع أصدقائهم وأعدائهم ؛ لأن جبلتهم عدوة للحق فى ذاته ؛ جاسية قلوبهم غليظة أكبادهم لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة ! ولا يسلمون للحق إلا وسيف القوة مصلتٌ على رقابهم » .

ومع ذلك ينصفهم القرآن الكريم ، ـ القليل المؤمن منهم ـ ويقرر حُسن جزائهم ، وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العريق ، ويشهد لهم بالعلم والإيمان ، ويقرر أن الذى هداهم إلى التصديق بالدين كله : ما أنزل إلى الرسول ﷺ وما أنزل من قبله ، هو الرسوخ فى العلم وهو الإيمان ؛ فالعلم الراسخ ، والإيمان المنير ، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله ، كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذى جاء من عند الله الواحد .

ويقول صاحب الظلال : « وذكر العلم الراسخ بوصفه طريقاً إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذى يفتح القلب للنور ، لفتة من اللفتات القرآنية التى تصور واقع الحال التى كانت يومذاك ؛ كما تصور واقع النفس البشرية فى كل حين . فالعلم السطحى كالكفر الجاحد ، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة ، ونحن نشهد هذا فى كل زمان . فالذين يتعمقون فى العلم،ويأخذون منه بنصيب حقيقى، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية ـ أو على الأقل ـ أمام علامات استفهام كونية كثيرة ، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلهاً واحداً مسيطراً مدبراً متصرفاً ، وذا إرادة واحدة ، وضعت ذلك الناموس الواحد ، وكذلك الذين تتشوف قلوبهم للهدى ـ المؤمنون ـ يفتح الله عليهم ، وتتصل أرواحهم بالهدى ، أما الذين يتناوشون المعلومات ويحسبون أنفسهم علماء ، فهم الذين تحول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان ، أو لا تبرز لهم ـ بسبب علمهم السطحى الناقص ـ علامات الاستفهام . وشأنهم شأن من لا تهفو قلوبهم للهدى ولا تشتاق ، وكلاهما هو الذى لا يجد فى نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان ، أو يجعل التدين عصبية جاهلية فيفرق بين الأديان الصحيحة التى جاءت من عند ديان واحد ، على أيدى موكب واحد متصل من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ بطلان اعتقاد النصارى فى أن عيسى عليه السلام صلب وقتل ، أما اليهود فإنهم وإن لم يقتلوا عيسى فهم مؤاخذون على قصدهم حيث صلبوا وقتلوا من ظنوه أنه عيسى عليه السلام.

٢ ـ المعاصى تورث الحرمان من طيبات الدنيا وأجر الآخرة .

٣ ـ الرسوخ فى العلم والإيمان يؤدى إلى العمل الصالح وإلى الاتصاف بأحسن الصفات ، وإلى الابتعاد عن كل شر وكل ظلم للنفس أو للغير .

٤ ـ من يظلم نفسه أو غيره فقد عصى الله الذى حرم الظلم على نفسه وعلى عباده .

إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

معانى الكلمات :

الأسباط : حفدة يعقوب عليه السلام . **زبوراً** : رسم الكتاب الذى أنزل على داود . **لم نقصصهم عليك** : لم يذكروا فى القرآن بأسمائهم . **من قبل** : من قبل هذه الآية .

مبشرين : يبشرون من أطاع الله بالخير .

بما أنزل إليك : القرآن الكريم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان الحكمة فى إرسال الرسل ، وما المقصود بحجة الله على الناس يوم القيامة .

٢ ـ بيان معنى الشهادة ، ومن هو الشهيد .

٣ ـ بيان دور العقل ووظيفته تجاه الرسالة والإيمان بها .

٤ ـ بيان عظم وثقل التبعة التى تركها الأنبياء لأتباعهم من بعدهم .

المحتوى التربوى :

تستطرد الآيات فى مواجهة أهل الكتاب ـ واليهود منهم فى هذا الموضع خاصة ـ وموقفهم من رسالة محمد ﷺ وزعمهم أن الله لم يرسله ، وتفريقهم بين الرسل ، وتعنتهم وهم يطلبون أمارة على رسالته : كتاباً ينزله عليهم من السماء ، فتقرر أن الوحى للرسول ليس بدعاً ، وليس غريباً ، فهو سنة الله فى إرسال الرسل جميعاً من عهد نوح إلى عهد محمد ـ عليهما السلام ـ وكلهم رسل أرسلوا للتبشير والإنذار ، اقتضت هذا رحمة الله بعباده ، وأخذه الحجة عليهم ، وإنذاره لهم قبل يوم الحساب ، وكلهم جاؤوا بوحى واحد ، لهدف واحد ؛ فالتفرقة تعنت لا يستند لدليل ، وإذا أنكروا هم وتعنتوا فإن الله يشهد ـ وكفى به شهيداً ـ والملائكة يشهدون .

ويقول صاحب الظلال : فى قوله : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ : « نقف من هذه اللفتة أمام حشد من الإيحاءات اللطيفة العميقة منها :

١ ـ قيمة العقل البشرى ووظيفته ودوره فى أخطر قضايا « الإنسان » قضية الإيمان بالله : إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسالة ؛ ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول ، ومهمة الرسول

أن يبلغ ويبين ، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام . وينبه العقل الإنسانى إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى النفس والآفاق ، وأن يرسم له منهج التلقى الصحيح ، ومنهج النظر الصحيح ؛ وأن يقيم له القاعدة التى ينهض عليها منهج الحياة العملية ، المؤدى إلى الدنيا والآخرة .

ـ وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان ، والقبول أو الرفض ـ بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله ، وبعد أن يفهم المقصود بها ، فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح ، ومتى فهم عقله والمقصود بها، وما المراد منها .

ـ إن هذه الرسالة تخاطب العقل ، بمعنى أنها توقظه ، وتوجهه ، وتقيم له منهج النظر الصحيح ، لا بمعنى أنه هو الذى يحكم بصحتها أو بطلانها ، وبقبولها أو رفضها ، ومتى ثبت النص كان هو الحكم ؛ وكان على العقل البشرى أن يقبله ويطيعه وينفذه ؛ سواء كان مدلوله مألوفاً له أو غريباً عليه .

٢ ـ نقف منها أمام التبعة العظيمة الملقاة على الرسل صلوات الله عليهم ـ ومن بعدهم على المؤمنين برسالاتهم ـ تجاه البشرية كلها . وهى تبعة ثقيلة بمقدار ما هى عظيمة .

ـ إن مصائر البشرية كلها فى الدنيا والآخرة سواء ، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر ، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم ، ويترتب ثوابهم أو عقابهم فى الدنيا والآخرة .

فأما رسل الله صلوات الله وسلام عليه فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة ، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، وهم لم يبلغوها دعوة باللسان ، ولكن بلغوها ـ مع هذا ـ قدوة ممثلة فى العمل ، وجهاداً مضنياً بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق ، وبما أن رسالته هى خاتمة الرسالات فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان ، إنما أزالها كذلك بالسنان ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ .

وبقى الواجب الثقيل على من بعده على المؤمنين برسالته فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجىء بعده ﷺ وتبليغ هذه الأجيال منوط ـ بعده ـ بأتباعه ، ولا فكاك لهم من هذه التبعة الثقيلة ـ تبعة إقامة حجة الله على الناس ، واستنفاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا ـ إلا بالتبليغ والأداء على ذات المنهج الذى بلغ به رسول الله ﷺ .

فمن ذا الذى يستهين بهذه التبعة ؟ وهى تبعة تقصم الظهر وترعد الفرائص وتهز المفاصل ؟! إن الذى يقول : إنه « مسلم » إما أن يبلغ ويؤدى الدعوة ، وإلا فلا نجاة له فى دنيا ولا فى أخرى إنه يقول : إنه « مسلم » ثم لا يبلغ ولا يؤدى كل ألوان البلاغ والأداء ، إنما يؤدى شهادة ضد

الإسلام الذى يدعيه بدلاً من أداء الشهادة له ، تحقق فيه قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

وتبدأ شهادته للإسلام ، من أن يكون هو بذاته . ثم ببيته وعائلته . ثم بأسرته وعشيرته صورة واقعية من الإسلام الذى يدعو إليه ، وتخطو شهادته الخطوة الثانية بقيامه بدعوة الأمة إلى تحقيق الإسلام فى حياتها كلها .. الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتنتهى شهادته بالجهاد لإزالة العوائق التى تضل الناس وتفتنهم من أى لون كانت هذه العوائق فإذا استشهد فى هذا فهو إذن «شهيد» أدى شهادته لدينه ، ومضى إلى ربه ، وهذا وحده هو «الشهيد».

فإذا أنكر أهل الكتاب هذه الرسالة الأخيرة فلينكروا : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ وعندئذ يجىء التهديد الرعيب للمنكرين فى موضعه ، بعد شهادة الله ـ سبحانه ـ وشهادة الملائكة بكذبهم وتعنتهم والتوائهم .

ولن يغفر الله لهم ولن يهديهم طريقاً ، بعدما ضلوا ضلالاً بعيداً ، وقطعوا على أنفسهم كل طريق للمغفرة . ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ فهو القاهر فوق عباده ، وليس بينه وبين أحد من العباد صهر ولا نسب ، إلا التقوى والعمل الصالح ، ومن ثم دعوة شاملة للناس كافة ـ بعد هذه البيانات كلها ـ أن هذا الرسول إنما جاءهم بالحق من ربهم فمن آمن به فهو الخير ، ومن كفر فإن الله غنى عنهم جميعاً ، وقادر عليهم جميعاً ، وله ما فى السموات والأرض وهو يعلم الأمر كله، ويجريه وفق علمه وحكمته .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله تعالى أعذر لعباده بأن أرسل إليهم رسلاً ، وأنزل مع هؤلاء الرسل كتباً ليبلغوا الناس عن ربهم ، ولئلا يكون لهم حجة على الله يوم القيامة وعند الحساب .

٢ ـ سعادة البشرية وشقوتها فى الدنيا والآخرة منوطة بالرسل وأتباعهم ، والرسل بلغوا وأدوا الأمانة ، وعلينا أن نبلغ الدعوة ونؤدى على نفس نهجهم .

٣ ـ دور العقل تجاه الرسالة ، أن يتلقى عنها ، ويفهم ما تلقاه ، ويبلغه كما فهمه دون تحريف أو تأويل كما بلغت إليه .

٤ ـ شهادة المسلم لهذا الدين تبدأ بذاته ثم ببيته وعائلته ، ثم بأسرته وعشيرته ، ثم بقيامه بدعوة الأمة كلها للإسلام كاملاً فى كل حياتها ثم بإزالة العقبات التى تعوق توصيلها للناس .

الجزء السادس سورة النساء

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

١٠٥

معانى الكلمات :

لا تغلوا : لا تفرطوا ولا تجاوزوا الحد .

كلمته : أوجده ـ تعالى ـ بقدرته .

روح منه : ذو روح من أمر ربه .

سبحانه : تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً . **لن يستنكف :** لن يستكبر ولن يترفع . **برهان :** دليل قاطع .

نوراً مبيناً : ضياء واضحاً . **اعتصموا به :** جمعوا بين العبادة والتوكل على الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حرمة الغلو فى الدين وأثره على عقيدة المؤمن .

٢ ـ أن نعرف القول الفصل فى ألوهية عيسى وبنوته التى يدعيها النصارى .

٣ ـ أن نعلم أنه لا صلة بين الله وعباده إلا أنهم عبيد له وهو إله واحد لا معبود بحق سواه .

٤ ـ أن نستشير أهل العلم فى أمور الدين ، وما يعرض لنا من أمور .

المحتوى التربوى :

هذه الآيات من خاتمة سورة النساء تمثل جولة مع النصارى من أهل الكتاب ، فى الجولة السابقة معهم أنصف القرآن الكريم عيسى ابن مريم وأمه الطاهرة من افتراءات اليهود وفى هذه الجولة ينصف العقيدة والحق ، وإنصاف عيسى ابن مريم كذلك من غلو النصارى فى شأن المسيح ﷺ ومن الأساطير الوثنية التى تسربت إلى النصرانية السمحة من شتى الأقوام والملل ، التى احتكت بها النصرانية ؛ سواء أساطير الإغريق والرومان وأساطير قدماء المصريين وأساطير الهنود .

والقضية التى يعرض لها السياق قضية « التثليث» ، وما تتضمنه من أسطورة « بنوة المسيح » لتقرير وحدانية الله سبحانه وتعالى على الوجه المستقيم الصحيح ، والثابت أن هذه الافتراءات دخلت على النصرانية على فترات متفاوتة التاريخ ، وقد ظل النصارى الموحدون يقاومون الاضطهادات التى أنزلها بهم الأباطرة الرومان والمجامع المقدسة الموالية للدولة « الملكانيون » .

ويقول صاحب الظلال : « وإذا كان مولد عيسى ﷺ من غير أب عجيباً فى عرف البشر ، خارقاً لما ألفوه ، فهذا العجب إنما تنشئه مخالفة المألوف . والمألوف للبشر ليس هو كل الموجود ، والقوانين الكونية التى يعرفونها ليست هى كل سُنة الله . والله يخلق السُنة ويجريها ، ويصرفها حسب مشيئته . ولا حدَّ لمشيئته .

ويعجب الإنسان ـ وهو يرى وضوح القضية وبساطتها ـ من فعل الهوى ورواسب الوثنية التى عقدت قضية عيسى ﷺ هذا التعقيد كله ، فى أذهان أجيال وأجيال وهى ـ كما يصورها القرآن ـ بسيطة ، وواضحة مكشوفة .

إن الذى وهب لآدم من غير أبوين حياة متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه ، هو الذى وهب عيسى من غير أب هذه الحياة الإنسانية كذلك ، وهذا الكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التى لا تنتهى عن ألوهية المسيح لمجرد أنه جاء من غير أب . وعن ألوهية الأقانيم الثلاثة كذلك ! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

لذا فالله يدعوهم للإيمان بالله ورسله ـ ومن بينهم عيسى بوصفه رسولاً ومحمد بوصفه خاتم النبيين ـ والانتهاء عن تلك الدعاوى والأساطير ، ويدعوهم لتوحيده « إنما الله إله واحد » تشهد بهذا وحدة الناموس ، ووحدة الخلق، ووحدة الطريقة كن فيكون ، ويشهد بذلك العقل البشرى ذاته . فالقضية فى حدود إدراكه . فالعقل لا يتصور خالقاً يشبه مخلوقه ، ولا ثلاثة فى واحد ، ولا واحداً فى ثلاثة .

ويمضى السياق لتقرير أكبر قضايا التصور الاعتقادى الصحيح ، وهى أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق ، ويصحح هنا عقيدة النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة بنوة كبنوة عيسى ، أو شركاً فى الألوهية فهو الله ـ سبحانه ـ إله لهم وهم عبيده ، هو خالق لهم وهم من مخلوقاته ، هو مالك لهم وهم مماليك وكلهم سواء فى هذه الصلة بربهم ، لا بنوة لأحد ، ولا امتزاج بأحد ولا حلول فى أحد .

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل فى ألوهية المسيح وبنوته بتقريره أن عيسى ابن مريم عبد لله ؛ وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً لله ، وأن الملائكة المقربين عبيد لله ، وأنهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله ، وأن جميع خلائقه ستحشر إليه . وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم . وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم .

ومن ثم دعوة إلى الناس كافة ـ كتلك الدعوة التى أعقبت المواجهة مع أهل الكتاب من اليهود ـ أن الرسالة الأخيرة تحمل برهانها من الله . وهى نور كاشف للظلمات والشبهات . فمن اهتدى بها واعتصم بالله فسيجد رحمة الله تؤويه ؛ وسيجد فضل الله ـ يشمله ؛ وسيجد فى ذلك النور والهدى إلى صراط الله المستقيم .

ويقول صاحب الظلال : « والاعتصام بالله ثمرة ملازمة للإيمان به ، متى صح الإيمان ؛ ومتى عرفت النفس حقيقة الله وعرفت حقيقة عبودية الكل له . فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده ، وهو صاحب السلطان والقدرة وحده ، هؤلاء يدخلهم الله فى رحمة منه وفضل ، فالإيمان هو الواحة الندية التى تجد فيها الروح الظلال من هاجرة الضلال فى تيه الحيرة والقلق والشرود، كما أنه القاعدة التى تقوم عليها حياة المجتمع ونظامه ؛ فى كرامة وحرية ونظافة واستقامة ، حيث يعرف كل إنسان مكانه على الحقيقة فهو عبد لله ، وسيد مع كل من عداه .

وتختم السورة التى بدأت بعلاقات الأسرة ، وتكافلها الاجتماعى أ تختم بتكملة أحكام الكلالة ـ وهى على قول أبى بكر ﷺ وهو قول الجماعة : ما ليس فيها ولد ولا والد . والحكم الباقى فى مسألة الكلالة هنا هو : إن كانت للمتوفى ، الذى لا ولد له ولا والد ، أخت شقيقة أو لأب ، فلها نصف ما ترك أخوها . وهو يرث تركتها ـ بعد أصحاب الفروض ـ إن لم يكن لها ولد ولا والد كذلك . فإن كانتا أختين شقيقتين أو لأب فلهما الثلثان مما ترك . وإن تعدد الإخوة والأخوات فللذكر مثل حظ الأنثيين ـ حسب القاعدة العامة فى الميراث ـ والإخوة والأخوات الأشقاء يحجبون الإخوة والأخوات لأب حين يجتمعون .

وتختم آية الميراث ، وتختم معها السورة ، بذلك التعقيب القرآنى الذى يرد الأمور كلها لله ، ويربط تنظيم الحقوق والواجبات والأموال وغير الأموال بشريعة الله : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ أن الغلو فى الدين مرفوض يعاقب الله تعالى عليه أشد عقاب لأنه يؤدى إلى الكفر .

٢ ـ أن توحيد الله تعالى بالألوهية والربوبية هو الأصل الذى يلائم فطرة الإنسان ، وأن القائلين بغير التوحيد عليهم أن ينتهوا عن هذا الباطل ؛ لأنهم بذلك يشركون بالله مالم ينزل به سلطانا ويقولون على الله مالا يعلمون ، وإذا كان الله تعالى يعذب العصاة فما بالنا بمن أشرك بالله وقال : إنه ثلاثة ؟!

٣ ـ أن عبادة الله تعالى وحده هى الأصل . والملائكة والأنبياء عبيد لله لا يمكن أن يستنكفوا عن أن يعبدوا الله بل هم يتشرفون بأن يكونوا عبيدًا لله عز وجل .

٤ ـ أن المسلمين يجب أن يستفتوا أهل العلم فى كل أمر من أمور الدين ، فقد كان ذلك خُلق الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع رسول الله ﷺ .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ
لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا
إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ
وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ
الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ
وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ
الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)

نصف الحزب ١١

سورة المائدة

معانى الكلمات :

العقود : العهود المؤكدة . **بهيمة** : كل ذات أربع قوائم فى البر والبحر . **الأنعام** : الإبل والبقر والغنم والماعز . **وأنتم حرم** : حال إحرامكم بالحج أو بالعمرة . **لا تحلوا:** لا تنتهكوا . **شعائر الله** : مناسك الحج . **الشهر الحرام** : رجب ـ ذو القعدة ـ ذو الحجة ـ المحرم . **الهدى** : ما يهدى من الأنعام إلى الكعبة .

القلائد : ما يعلم به الهدى من علامات .

ولا آمين البيت الحرام : ولا تنتهكوا حرمة الحجاج بصدهم عن المناسك .

حللتم: خرجتم من الإحرام .**لا يجرمنكم:** لا يحملنكم . **شنئآن قوم** : بغضكم لهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية الوفاء بالعقود مع الله ، ومع النفس ومع الناس .

٢ ـ أن نلتزم أوامر الله ونجتنب نواهيه فيما أحل وحرم على المسلمين .

٣ ـ أن نتخلق بخلق الوفاء ونتحرى الحلال فى كل أمورنا .

المحتوى التربوى :

تستهل هذه السورة فى أولى آياتها الأمر بالوفاء بالعقود ، ثم المضى بعد هذا الافتتاح فى بيان الحلال والحرام من الذبائح والمطاعم والمشارب والمناكح . وفى بيان الكثير من الأحكام الشرعية والتعبدية . وفى بيان حقيقة العقيدة الصحيحة ، وحقيقة العبودية ـ وحقيقة الألوهية . وفى بيان علاقات الأمة المؤمنة بشتى الأمم والملل والنحل ، وفى بيان تكاليف الأمة المؤمنة فى القيام لله والشهادة بالقسط والوصاية على البشرية بكتابها المهيمن على كل الكتب قبلها، والحكم فيها بما أنزل الله ؛ والحذر من الفتنة عن بعض ما أنزل الله ؛ والحذر من عدم العدل تأثراً بالمشاعر والمودة والشنآن .

ويقول صاحب الظلال : عن تشريع الله وأمره للمؤمنين بالوفاء بالعقود « إنه لابد من ضوابط للحياة.حياة المرء مع نفسه التى بين جنبيه ؛ وحياته مع غيره من الناس ومن الأحياء والأشياء عامة ، الناس من الأقربين والأبعدين ، من الأهل والعشيرة ، ومن الجماعة والأمة ؛ ومن الأصدقاء والأعداء ، والأحياء مما سخر الله للإنسان ومما لم يسخر .. والأشياء مما يحيط بالإنسان فى هذا الكون العريض ثم حياته مع ربه ومولاه وعلاقته به وهى أساس كل حياة » .

هذه الضوابط يسميها الله « العقود » .. ويأمر الذين آمنوا أن يوفوا بهذه العقود .. ويكشف عن أن المقصود بالعقود هو كل ضوابط الحياة التى قررها الله ؛ وفى أولها عقد الإيمان بالله ؛ ومعرفة حقيقة ألوهيته ، سبحانه ، ومقتضى العبودية لألوهيته .. هذا العقد الذى تنبثق منه ، وتقوم عليه سائر العقود سواء ما يختص منها بكل أمر ،وكل نهى فى شريعة الله ويأخذ فى تفصيل بعض هذه العقود .

يقول صاحب الأساس : « أحلت لكم هذه الأشياء ، لا مُحلّين الصيد وأنتم محرمون فكأنه أراد أنه أحل لكم الأنعام فى حال امتناعكم عن الصيد وأنتم محرمون لئلا يضيق عليكم . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ من الأحكام . فيُحلُّ ما يشاء ، ويُحرِّم ما يشاء . وله وحده حق الحكم ، وحق التحليل والتحريم ؛ إذ هو الربُّ ، وهو الأعلم بمصالح عباده » .

ويقول صاحب الظلال : « فصار حلالاً لكم ومباحاً أن تأكلوا من كل ما يدخل تحت مدلول « بهيمة الأنعام » من الذبائح والصيد ـ إلا ما يُتلى عليكم تحريمه منها ـ وهو الذى سيرد ذكره محرماً .. إما حرمة وقتية أو مكانية ؛ وإما حرمة مطلقة فى أى مكان وفى أى زمان وبهيمة الأنعام تشمل الإبل والبقر والغنم ، ويضاف إليها الوحشى منها ، كالبقر والحمر الوحشية ثم يأخذ فى الاستثناء من هذا العموم ، وأول المستثنيات الصيد فى حال الإحرام » .

والتحريم هنا ينطبق ابتداء على عملية الصيد ذاتها ، فالإحرام للحج أو للعمرة ، تجرد عن أسباب الحياة العادية وأساليبها المألوفة وتوجه إلى الله فى بيته الحرام ، الذى جعله الله مثابة الأمان ومن ثم يبتغى عنده الكف عن بسط الكف إلى أى حى من الأحياء ، وهى فترة نفسية ضرورية للنفس البشرية ؛ تستشعر فيها صلة الحياة بين جميع الأحياء فى واهب الحياة ؛ وتأمن فيها وتؤمن كذلك من كل اعتداء ؛ وتتخفف من ضرورات المعاش التى أحل من أجلها صيد الطير والحيوان وأكله ؛ لترتفع فى هذه الفترة على مألوف الحياة وأساليبها ، وتتطلع إلى هذا الأفق الرفاف الوضيء .

وقبل أن يمضى السياق فى بيان المستثنيات من حكم الحل العام ، يربط بين هذا العقد بالعقد الأكبر ، ويذكر الذين آمنوا بمصدر ذلك الميثاق : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ ، ثم يستأنف نداء الذين آمنوا لينهاهم عن استحلال حرمات الله ، والمقصود بشعائر الله فى هذا المقام شعائر الحج والعمرة وما تتضمنه من محرمات على المحرم أو العمرة ، حتى ينتهى حجه بنحر الهدى الذى

ساقه إلى البيت الحرام ؛ فلا يستحلها المحرم فى فترة إحرامه ؛ لأن استحلالها فيه استهانة بحرمة الله الذى شرع هذه الشعائر . وقد نسبها السياق القرآنى إلى الله تعظيماً لها ، وتحذيراً من استحلالها.

كذلك حرم الله آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً ، وهم الذين يقصدون البيت الحرام للتجارة الحلال وطلب الرضوان من الله ، حجاجاً أو غير حجاج . وأعطاهم الأمان فى حرمة بيته الحرام ، ثم أحل الصيد متى انتهت فترة الإحرام ، فى غير البيت الحرام ، فلا صيد فى البيت الحرام .

وفى جو الحرمات وفى منطقة الأمان ، يدعو الله الذين آمنوا به ، وتعاقدوا معه ، أن يفوا بعقدهم ؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى الدور الذى ناطه بهم ، دور القوامة على البشرية ؛ بلا تأثر بالمشاعر الشخصية ، والعواطف الذاتية ، والملابسات العارضة فى الحياة ، يدعوهم ألا يعتدوا حتى على الذين صدوهم عن المسجد الحرام فى عام الحديبية ؛ وقبل ذلك ؛ وتركوا فى نفوس المسلمين جروحاً وندوباً من هذا الصد ، وخلقوا فى قلوبهم الكره والبغض . فهذا كل شئ ، وواجب الأمة المسلمة شىء آخر ، شىء يناسب دورها العظيم .

ويقول صاحب الظلال : « إنها قمة فى ضبط النفس ؛ وفى سماحة القلب ، ولكنها هى القمة التى لابد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربها أن تقوم البشرية لتهديها وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم المضىء . إنها تبعة القيادة والقوامة والشهادة على الناس ، التبعة التى لابد أن ينسى فيها المؤمنون ما يقع على أشخاصهم من الأذى ليقدموا للناس نموذجاً من السلوك الذى يحققه الإسلام ، ومن التسامى الذى يصنعه الإسلام . وبهذا يؤدون للإسلام شهادة طيبة ؛ تجذب الناس إليه وتحببهم فيه » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن المؤمن مطالب من قبل الله عز وجل بأن يفى بكل عقد أو عهد أو شرط ، سواء أكان ذلك مع الله أو مع النفس ، إذ المؤمن عند شرطه وعند كلمته ، وعند ما وعد به أو ألزم به نفسه، وأن كل إخلال بشىء من ذلك هو إخلال بالإيمان نفسه .

٢ ـ وأن ما أحله الله لنا ليس لغيره أن يحرمه علينا ، وما حرمه علينا ليس لأحد غيره أن يحله لنا ، مهما كان ذلك الأحد حاكماً أو كبيراً أو ذا جاه وسلطان ؛ لأن التحليل والتحريم من عمل الله سبحانه وتعالى .

٣ ـ إن بناء الإنسان بناءً صحيحاً روحياً وعقلياً وبدنياً واجتماعياً ، إنما يكون فى ممارسة خلق الوفاء ، وفى التعامل الدقيق مع الحلال والحرام وأن الله تعالى قد حكم بما أراد للإنسان فى هذا التشريع من الخير فى الدنيا والآخرة .

الجزء السادس — سورة المائدة

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

١٠٧

معانى الكلمات :

ما أهل لغير الله به : ما لم يذكر اسم الله عليه . **الموقوذة** : الميتة بالضرب . **المتردية** : الميتة بالسقوط من علو . **النُّصب** : حجارة حول الكعبة كانوا يعظمونها . **تستقسموا** : تطلبوا معرفة ما قسم لكم . **الأزلام** : قداح معلمة معروفة فى الجاهلية . **مخمصة** : مجاعة شديدة . **متجانف لإثم** : مائل إليه بتجاوز قدر الضرورة . **مُكَلِّبِينَ** : مُعَلِّمين لها الصيد . **المحصنات** : العفائفُ أو الحرائر .**غير مسافحين** : غير مجاهرين بالزنا . **متخذى أخدان** : مُصاحبى خليلات للزنا سراً .

حبط عمله : بطل ثوابُ عمله السابق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتحرى الحلال والحرام فيما أمر ونهى عنه الله .

٢ ـ أن نقف على الأحكام الواردة فى هذه الآيات مما أحل وحرّم الله .

٣ ـ أن نستيقن أن المنهج الذى أنعم الله به على أمة الإسلام هو الذى يحقق لها خير الدنيا والآخرة .

٤ ـ أن نعلم أن الالتزام بهذا المنهج هو الترجمة الحقيقية للإيمان وأنّ الخروج عليه كفر بما أنزل على رسول الله ﷺ .

المحتوى التربوى :

يأخذ السياق ـ فى هذه الآيات ـ فى تفصيل ما استثناه فى الآية الأولى من السورة من حل بهيمة الأنعام ؛ والميتة والدم ولحم الخنزير ، سبق بيان حكمها ، عند استعراض آية سورة البقرة الخاصة بهذه المحرمات ؛ وأما ما أهل لغير الله به ، فهو محرم لمناقضته ابتداء للإيمان ، فالإيمان يوحد الله ، ويفرده ـ سبحانه ـ بالألوهية ويرتب على هذا التوحيد مقتضياته . وأول هذه المقتضيات أن يكون

التوجه إلى الله وحده بكل نية وكل عمل ، فما يهل لغير الله به ؛ وما يسمى عليه بغير اسم الله ؛ لأنه ينقض الإيمان من أساسه .. فهو خبيث من هذه الناحية ؛ يلحق بالخبائث الحسية من الميتة والدم ولحم الخنزير .

وأما المنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع .. فهى كلها أنواع من أنواع الميتة إذا لم تدرك بالذبح وفيها الروح : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ فحكمها هو حكم الميتة ، على أن هناك تفصيلاً فى الأقوال الفقهية واختلافاً فى حكم التذكية .. والتفصيل يُطلب فى كتب الفقه المختصة

وأما ما ذبح على النصب ، فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام ـ حتى لو ذكر اسم الله عليه ، لما فيه من معنى الشرك بالله . وحرم الله الاستقسام بالأزلام ـ لأنه نوع من الميسر المحرم ـ وحرم اللحوم التى تقسم عن هذا الطريق ، والمضطر الذى يخشى على حياته التلف ، له أن يأكل من هذه المحرمات ؛ ما دام أنه لا يتعمد الإثم ، ولا يقصد مقارفة الحرام ، وتختلف آراء الفقهاء فى حد هذا الأكل، فلا ندخل نحن فى هذه التفصيلات ، وحسبنا أن ندرك ما فى هذا الدين من يسر، وهو يعطى للضرورات أحكامها بلا عنت ولا حرج مع تعليق الأمر كله بالنية المستكنة ؛ والتقوى الموكولة إلى الله ، فمن أقدم مضطراً لا نية له فى مقارفة الحرام ولا قصد ، فلا إثم عليه إذن ولا عقاب .

ويقول صاحب الظلال : تعليقاً على تخلل قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ﴾ الآية :

إنه أكمله ـ أى الدين ـ وهو « النعمة » التى يقول الله للذين آمنوا : إنه أتمها عليهم . وأنه لا فرق فى هذا الدين بين ما يختص بالتصور والاعتقاد ؛ وما يختص بالشعائر والعبادات ؛ وما يختص بالحلال والحرام وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية .. فكلها فى مجموعها تكون المنهج الربانى الذى ارتضاه الله للذين آمنوا ؛ والخروج عن هذا المنهج فى جزئية ، كالخروج عليه كله ، خروج على هذا « الدين » وخروج من هذا الدين بالتبعية » .

وبعد أن أنشأ القرآن الكريم فى شعور هذه الفئة المؤمنة ؛ وحدة التلقى عن الله فى الحلال والحرام ، لذلك راحوا يسألون الرسول ﷺ بعدما سمعوا آيات التحريم : ﴿ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ ليكونوا على يقين من حِلّه قبل أن يقربوه وجاءهم الجواب « قل : أحل لكم الطيبات ...» ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : وهو جواب ـ يستحق التأمل : إنهم لم يُحرمَوا طيباً ، فلم يحرم عليهم إلا الخبائث ، وأضاف إلى الطيبات ـ وهو عامة ـ نوعاً منها يدل على طيبته تخصيصه بالذكر بعد التعميم ؛ وهو ما تمسكه الجوارح المعلمة المدربة على الصيد كالصقر على صاحبها : أى أن تحتفظ بما تمسكه من الصيد ؛ فلا تأكل منه عند صيده .

ثم يردهم فى نهاية الآية إلى تقوى الله ، ويخوفهم حسابه السريع ، فيربط أمر الحل والحرمة كله بهذا الشعور الذى هو محور لكل نية وكل عمل فى حياة المؤمن ؛ والذى يحول الحياة كلها صلة بالله ، وشعوراً بجلاله ، ومراقبة لله فى السر والعلانية .

ويستطرد فى بيان ما أحل لهم من الطعام ويلحق به ما أحل لهم من النكاح . ويبدأ ألوان المتاع الحلال مرة أخرى بقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ فأحل لهم طعام الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى خاصة فطعامهم وذبائحهم حلال ، وطعام الذين آمنوا حل لهم أى لا بأس أن تطعموهم من طعامكم ، فإن ذلك جائز لكم ولهم ، وأحل أيضاً نكاح المحصنات أى العفائف من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب وهن العفائف من اليهوديات والنصرانيات وشرط حلهن . أن تؤدى المهور بقصد النكاح الشرعى ، الذى يحصن به الرجل امرأته ويصونها ، لا أن يكون هذا المال طريقاً إلى السفاح أو المخادنة ،ويعقب أخيراً على هذه الأحكام تعقيباً فيه تشديد وفيه تهديد ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « إن هذه التشريعات كلها منوطة بالإيمان ؛ وتنفيذها كما هى هو الإيمان ؛ أو هو دليل الإيمان ، فالذى يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان ويجحده . والذى يكفر بالإيمان يبطل عمله ويصبح رداً عليه لا يُقبل منه ، ولا يُقرر عليه ، وفى الآخرة تكون الخسارة فوق حبوط العمل وبطلانه فى الدنيا » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن نترك ونرفض كل قول أو فعل لا يُقصد به وجه الله تبارك وتعالى ، وأن نرفض من المطعومات كل ما لم يذكر اسم الله عليه ، لأنه صار بترك التسمية خبيثاً ، وهذا يدعم فى نفس المؤمن الإخلاص لله وحده فى كل قول أو صمت وفى كل فعل أو ترك .

٢ ـ يتعلم المؤمن أن يكون شجاعاً فى الحق وفى التعبير عن رأيه ـ وليس له أن يخشى أحداً فى ذلك ، إذ الخشية إنما تكون لله وحده .

٣ ـ أن على المسلم أن يتحرى فى أمر دينه حتى لا يقع فيما حرم الله تعالى ، فيبادر بالسؤال عما لا يعرف كما كان يفعل الصحابة رضوان الله عليهم .

٤ ـ اليقين بأن الله تبارك وتعالى وقد أكمل هذا الدين وأتمه ورضيه للبشرية كلها ديناً ، وسع على المؤمنين دائرة الحلال فى مجال الاحتياجات الأساسية للإنسان كالطعام والزواج فأباح كل طيب من الطعام وأباح الزواج من المحصنات من أهل الكتاب ـ على نحو ما سبق .

الجزء السادس — سورة المائدة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ
وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ
أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾
وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم
بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ
أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

١٠٨

معانى الكلمات :

الغائط : دورة المياه (كناية عن الحدث) .

لامستم النساء : جامعتموهن أو مسستم بشرتهن . **صعيداً طيباً** : تراباً طاهراً .

حرج : ضيق فى دينه وتشريعه . **ميثاقه** : عهده . **واثقكم به** : عاهدكم به .

قوامين لله : مستمرين على القيام بعهود الله وأماناته دائما . **لا يجرمنكم** : لا يحملنكم شنآن قوم وبغضكم لهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان الحكمة من الطهارة قبل الدخول فى الصلاة .

٢ ـ بيان الحكمة من تشريع التيمم إذا فقد الماء أو تعذر استعماله .

٣ ـ أن نعرف معنى القوامة بالعدل والشهادة بالقسط ونلتزم بها .

٤ ـ أن ندرك نعمة الله علينا بالإيمان وميثاق الإسلام .

المحتوى التربوى :

فى الآيات السابقة وفى ظل الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء يجىء ذكر الصلاة ، ويتواصل الحديث عن أحكام الطهارة للصلاة ، فالصلاة لقاء مع الله ، ووقوف بين يديه ـ سبحانه ـ ودعاء مرفوع إليه ، ونجوى وإسرار . فلابد لهذا الموقف من استعداد ، لابد من تطهر جسدى يصاحبه تهيؤ روحى ، ومن هنا كان الوضوء والطهارة شرطين أساسين للصلاة وهذه هى فرائضه المنصوص عليها فى هذه الآية : غسل الوجه . وغسل الأيدى إلى المرافق . ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين ..

وحول هذه الفرائض خلافات فقهية يسيرة ، أهمها هل هذه الفرائض على الترتيب الذى ذكرت به ؟ أم هى تجزئ على غير ترتيب ؟ قولان . هذا فى الحدث الأصغر . . أما الجنابة ـ سواء بالمباشرة أو الاحتلام ـ فتوجب الاغتسال .

ولما فرغ من بيان فرائض الوضوء والغسل ، أخذ فى بيان حكم التيمم وذلك فى الحالات الآتية : حالة عدم وجود الماء للمحدث على الإطلاق ، وحالة المريض المحدث حدثاً أصغر

يقتضى الوضوء ، أو حدثا أكبر يقتضى الغسل ، والماء يؤذيه ، وحالة المسافر المحدث حدثاً أصغر أو أكبر وهناك خلافات فقهية حول المقصود بقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ .. أهو مجرد الملامسة ؟ أم هى المباشرة ؟ وهل كل ملامسة بشهوة ولذة أم بغير شهوة ولذة ؟ خلاف كذلك هل المرض بإطلاقه يجيز التيمم ؟ أم المرض الذى يؤذيه الماء ؟ خلاف ، ثم هل برودة الماء من غير مرض ، وخوف المرض والأذى يجيز التيمم ، الأرجح نعم .

وفى كل ذلك لا يريد الله ـ سبحانه ـ أن يعنت الناس ، ويحملهم على الحرج والمشقة بالتكاليف . إنما يريد أن يطهرهم ، وأن ينعم عليهم بهذه الطهارة ، وأن يقودهم إلى الشكر على النعمة ، ليضاعفها لهم ويزيدهم منها فهو الرفق والفضل والواقعية فى هذا المنهج اليسير القويم .

يقول صاحب الظلال : « يقودنا الحديث عن التيمم للصلاة عند تعذر الطهارة بالوضوء أو الغسل أو ضررها إلى حرص المنهج الإسلامى على إقامة الصلاة ؛ وإزالة كل عائق يمنع منها ، فهذا الحكم بالإضافة إلى الأحكام الأخرى كالصلاة عند الخوف ، والصلاة فى حالة المرض من قعود أو من استلقاء حسب الإمكان .

كل هذه الأحكام تكشف عن الحرص البالغ على إقامة الصلاة ؛ وتبين إلى أى حد يعتمد المنهج على هذه العبادة لتحقيق أغراضه التربوية فى النفس البشرية ، إذ يجعل من لقاء الله والوقوف بين يديه وسيلة عميقة الأثر ، لا يفرط فيها فى أدق الظروف وأحرجها ، ولا يجعل عقبة من العقبات تحول بين المسلم وبين هذا الوقوف وهذا اللقاء، لقاء العبد بربه وعدم انقطاعه عنه لسبب من الأسباب ، إنها نداوة القلب ، واسترواح الظل ، وبشاشة اللقاء .

ويعقب على أحكام الطهارة ، وعلى ما سبقها من الأحكام بتذكير الذين آمنوا بنعمة الله عليهم بالإيمان ، وبميثاق الله معهم على السمع والطاعة ، وهو الميثاق الذى دخلوا به فى الإسلام، كما يذكرهم تقوى الله ، وعلمه بما تنطوى عليه الصدور ، ومن ثم يكلهم الله فى هذا إلى التقوى .. إلى إحساس القلب بالله ، ومراقبته فى خطراته الخافية ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

ومن الميثاق الذى واثق الله به الأمة المسلمة ، القوامة على البشرية بالعدل ..

العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه مع المودة والشنآن ؛ ولا يتأثر بالقرابة أو المصلحة أو الهوى فى حال من الأحوال .

العدل المنبثق من القيام لله وحده بمنجاة من سائر المؤثرات .. والشعور برقابة الله وعلمه بخفايا الصدور .

يقول صاحب الظلال : « لقد نهى الله الذين آمنوا من قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء . وكانت هذه قمة فى ضبط النفس والسماحة يرفعهم الله إليها

بمنهجه التربوى الربانى القويم. فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل. وهى قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق. فهى مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده ؛ تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض، إن التكليف الأول أيسر ، لأنه إجراء سلبى ينتهى عند الكف عن الاعتداء فأما التكليف الثانى فأشق ؛ لأنه إجراء إيجابى يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنوئين .

والمنهج التربوى الحكيم يقدر ما فى هذا المرتقى من صعوبة فيقدم له بما يعين عليه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ ويعقب عليه بما يعين عليه أيضًا : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « إن الناس قد يعرفون المبادئ ، ويهتفون بها ، ولكن هذا شىء ، وتحقيقها فى عالم الواقع شىء آخر ، وهذا المبادئ التى يهتف بها الناس للناس طبيعى ألا تتحقق فى عالم الواقع ، فليس المهم أن يدعى الناسش إلى المبادئ ، ولكن المهم هو الجهة التى تصدر منها الدعوة ، المهم هو سلطان هذه الدعوة على الضمائر والسرائر .. » .

وفى النهاية لابد من جزاء للمؤمنين من الله ، الذى يتعاملون معه وحده ؛ يشجع ويقوى على النهوض بتكاليف القوامة ؛ وعلى الوفاء بالميثاق . ولابد أن يختلف مصير الذين كفروا وكذبوا عن مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله . وهو الجزاء الذى يعوض الخيرين عما يفوتهم من عرض الحياة الدنيا ، وهم ينهضون بالتكاليف العليا . والذى تصغر معه تكاليف القوامة على أهواء البشرية وعنادها ولجاجها فى هذه الأرض ثم هو العدل الإلهى الذى لا يسوى بين جزاء الخيرين وجزاء الأشرار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن مبنى العمل فى الإسلام على اليسر لا العسر ، وأن كل تعنت أو تشدد لا يقره الدين .

٢ ـ أن كل عامل من أجل الإسلام يجب أن يكون عمله فى حدود إمكاناته ، وما يحسن لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها .

٣ ـ أن طهارة القلوب من الغل والحسد فى أهمية طهارة الأبدان من النجاسة والقذر .

٤ ـ على الدعاة إلى الله أن يتحرروا جميعًا من كل ما يحول بينهم وبين القيام بالعدل والقسط فى العمل من أجل الإسلام ، بادئين بأنفسهم ثم بإخوانهم ثم بمن يعملون معهم من الناس .

٥ ـ إن الإيمان مرتبط دائمًا بالعمل الصالح ، وأن المؤمن هو الذى يعمل بالصالحات وأن هذا الإيمان إذا صح وكان قرينًا للعمل الصالح أهلَّ أصحابه لخيرى الدنيا والآخرة ، أما خير الدنيا فهو الرضا والاطمئنان ، والنصر فى معركة الحق والباطل . لأن ذلك وعد الله .﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الروم) .

الجزء السادس — سورة المائدة

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

١٠٩

معانى الكلمات :

يبسطوا إليكم أيديهم : يبطشوا بكم بالقتل **نقيباً** : أميناً ، وكفيلاً . **عزرتموهم** : نصرتموهم أو عظمتموهم . **أقرضتم الله** : تصدقتم . **قرضاً حسنا** : ابتغاء مرضاة الله .

لعناهم : طردناهم من رحمتنا . **يحرفون الكلم** : يغيرون كلام الله . **نسوا حظاً** : تركوا نصيباً وافراً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على نعم الله علينا ونشكرها ونحافظ عليها .

٢ ـ أن نوفى بميثاقنا وعهودنا مع الله تعالى ونحذر عاقبة النكوث بها .

٣ ـ أن نتعلم فن الأخذ بالأسباب فى كل أمورنا ونحسن التوكل على الله .

٤ ـ أن نعرف حال عدونا ـ اليهود ـ ونتعامل معهم من منطلق هذا العلم .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يمضى السياق يقوّى فى الجماعة المسلمة روح العدل والقسط والسماحة ؛ ويكفكف فيها شعور العدوان والميل والانتقام .. فيذكر المسلمين نعمة الله عليهم فى كف المشركين عنهم ، حين هموا فى عام الحديبية ـ أو فى غيره ـ أن يبسطوا إليهم أيديهم بالعدوان ، وتختلف الروايات فيمن تعنيهم هذه الآية . ولكن الأرجح أنها إشارة إلى حادثة المجموعة التى همت يوم الحديبية أن تغدر برسول الله ﷺ وبالمسلمين ، فتأخذهم على غرة ، فأوقعهم الله أسارى فى أيدى المسلمين .

وأياً ما كان الحادث ، فإن عبرته فى هذا المقام هى المنشودة فى المنهج التربوى الفريد ، وهى إماتة الغيظ والشنآن لهؤلاء القوم فى صدور المسلمين كى يفيئوا إلى الهدوء والطمأنينة وهم يرون أن الله هو راعيهم وكالئهم وفى ظل الهدوء والطمأنينة يصبح ضبط النفس ، وسماحة القلب ، وإقامة العدل ميسورة ، ويستحى المسلمون ألا يفوا بميثاقهم مع الله ؛ وهو يرعاهم ويكلؤهم، ويكف الأيدى المبسوطة إليهم .

وتمضى الآيات لتستعرض مواقف أهل الكتاب من مواثيقهم ؛ واستعراض ما حلَّ بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذه المواثيق ؛ لتكون هذه ـ من جانب ـ تذكرة للجماعة المسلمة ماثلة من بطون التاريخ ، ومن واقع أهل الكتاب قبلهم ، وليكشف عن حقيقة أهل الكتاب وحقيقة موقفهم ؛ وذلك لإبطال كيدهم فى الصف المسلم ؛ وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم ؛ التى يلبسونها ثوب التمسك بدينهم ، وهم فى الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل؛ ونقضوا ما عاهدوا الله عليه .

لقد كان ميثاق الله مع بنى إسرائيل ميثاقاً بين طرفين ؛ متضمناً شرطاً وجزاء ، والنص القرآنى يثبت نص الميثاق وشرطه وجزاءه ، بعد ذكر عقد الميثاق وملابسات عقده .. لقد كان عقداً مع نقباء بنى إسرائيل الاثنى عشر ، الذين يمثلون فروع بيت يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ وهم ذرية الأسباط ـ أحفاد يعقوب ـ وعدتهم اثنا عشر سبطاً .

وكان شرطه إقامة الصلاة .. لا مجرد أدائها ، وإقامتها على أصولها التى تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب؛ وعنصراً تهذيبياً وتربوياً وفق المنهج الربانى القويم ، وناهياً عن الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدى الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر !

وإيتاء الزكاة اعترافاً بنعمة الله فى الرزق ؛ وطاعة له فى التصرف فى هذا المال وفق شرطه وهو المالك ، والناس فى المال وكلاء . وتحقيقاً للتكافل الاجتماعى بين المجتمع ، والإيمان برسل الله كلهم دون تفرقة بينهم . فكلهم جاء من عند الله وبدين الله ، وليس هو مجرد الإيمان السلبى ، إنما هو الإيمان الإيجابى فى نصرة الرسل وشد أزرهم فيما ندبهم الله له ، فدين الله ليس مجرد تصور اعتقادى ، ولا مجرد شعائر تعبدية ، إنما هو منهج واقعى للحياة . ونظام محدد يصرف شؤون هذه الحياة ويحتاج إلى نُصرة ، وتعزيز وجهاد لتحقيقه ولحمايته بعد تحقيقه وإلا فما وفى المؤمن بالميثاق .

وبعد الزكاة إنفاق عام ؛ إنه قرض لله ، وهو المالك ، والواهب ولكنه ـ فضلاً منه ومنة ـ يسمى ما ينفقه الموهوب له ـ متى أنفقه لله ـ قرضًا لله .

ذلك كان الشرط فأما الجزاء فكان : تكفير السيئات ، وجنة تجرى من تحتها الأنهار ، وهى فضل خالص من الله ، لا يبلغه الإنسان بعمله ، إنما يبلغه بفضل من الله ، حين يبذل الجهد ، فيما يملك وفيما يطيق وكان هنالك شرط جزائى فى الميثاق : ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

ذلك كان ميثاق الله مع نقباء بنى إسرائيل . عمن وراءهم . وقد ارتضوه جميعاً ؛ فصار ميثاقاً مع كل فرد فيهم ، وميثاقاً مع الأمة المؤلفة منهم .. فماذا كان من بنى إسرائيل ! لقد نقضوا ميثاقهم مع الله .. قتلوا أنبياءهم بغير حق ، وبيتوا القتل والصلب لعيسى عليه السلام وهو آخر أنبيائهم ـ وحرفوا كتابهم ـ التوراة ـ ونسوا شرائعها فلم ينفذوها ، ووقفوا من خاتم الأنبياء ﷺ موقفاً

لئيماً ماكراً عنيداً ، وخانوه وخانوا مواثيقهم معه . فباؤوا بالطرد من هدى الله ، وقست قلوبهم فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى ...

ويصور السياق حال يهود فى المجتمع المسلم فى المدينة . فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله ﷺ وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة ـ وما تزال هذه حالهم فى المجتمع الإسلامى على مدار التاريخ ؛ لذا يخاطب النص القرآنى النبى ﷺ : ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادى طريقها على طول الطريق . وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها ، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله ، ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها ؛ وتسمع توجيهاته ؛ وتقيم قواعده وتشريعاته فى حياتها ، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها فى يوم من الأيام ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها ؛ وحين اتخذت القرآن مهجوراً ـ وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة ، وتعاويذ ورقى وأدعية ! ـ أصابها ما أصابها » .

ولقد كان الله ـ سبحانه ـ يقص عليها ما وقع لبنى إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه ، حين نقضوا ميثاقهم مع الله ، لتحذر أن تنقض هى ميثاقهامع الله ، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد ، ناقض للعقد .. فلما غفلت عن هذا التحذير ، وسارت فى طريق غير الطريق ، نزع الله منها قيادة البشرية ؛ وتركها هكذا ذيلاً فى القافلة ! حتى تتوب إلى ربها ، وحتى تتمسك بعهدها ، وحتى توفى بعقدها . فيفى لها الله بوعده من التمكين فى الأرض ومن القيادة للبشرية والشهادة على الناس .. وإلا بقيت هكذا ذيلاً للقافلة ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ (الروم : ٦) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويّا :

١ ـ أن يكون المؤمنون دائماً على ذكر لنعم الله عليهم ؛ إذ هم محاطون دائمًا بنعم لا تحصى ، من أجلّها وأعظمها نعمة الإيمان والإسلام ثم نعمة الحياة والعقل والسمع والبصر والفؤاد .

٢ ـ أن يتعلم المؤمن أنه مطالب بتقوى الله دائماً ، والتقوى تكون بتوقى الشر والسوء وكل ما يغضب الله ، وبذل الجهد فى ذلك .

٣ ـ على الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى أن يتعلموا من هذه الآيات أموراً أساسية لا ينجح العمل إلا بها هى :

١ ـ تقوى الله فى كل قول أو صمت وفى كل عمل أو ترك .

٢ ـ التوكل على الله والاعتماد عليه لا على العمل الذى قام به الإنسان مهما كان .

٣ ـ الأخذ بالأسباب كاملة ، لا يغنى عن التوكل على الله فى كل أمر .

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

١١٠

معانى الكلمات :

فأغرينا : هيجنا وحرشنا أو ألصقنا .

نور : هو محمد ﷺ .

كتاب مبين : هو القرآن الكريم .

سبل السلام : طرق النجاة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان جحود اليهود والنصارى لكثير من الأحكام الشرعية ودلائل النبوة المحمدية مكراً وحسداً من عند أنفسهم .

٢ ـ أن نعلم أن القرآن حجة على الناس كافة لبيانه الحق فى كل شىء .

٣ ـ بيان القول الفصل فى شأن المسيح عليه السلام وأمه .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يقص الله ـ سبحانه ـ على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة ، أنه أخذ ميثاق الذين قالوا : إنا نصارى ، من أهل الكتاب ، ولكنهم نقضوا ميثاقهم كذلك . فنالهم جزاء هذا النقض للميثاق ..

ولقد كان أساس الميثاق هو توحيد الله . وهنا كانت نقطة الانحراف الأصلية فى خط النصرانية التاريخى . وهذا هو الحظ الذى نسوه مما ذكروا به ؛ ونسيانه هو الذى قاد بعد ذلك إلى كل انحراف . كما أن نسيانه هو الذى نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب ، التى لا تكاد تُعد ، فى القديم والحديث ، وبينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا الله سبحانه أنه باق فيهم إلى يوم القيامة .. جزاءً وفاقاً على نقض ميثاقهم معه ، ونسيانهم حظاً مما ذكروا به .. ويبقى جزاء الآخرة عندما ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ؛ وعندما يجزيهم وفق ما ينبئهم به مما كانوا يصنعون !

وبعد أن تعرض الآيات موقف اليهود والنصارى من ميثاقهم مع الله .. توجه الآيات الخطاب لأهل الكتاب جميعاً .. هؤلاء وهؤلاء .. لإعلانهم برسالة خاتم النبيين ؛ وأنها جاءت إليهم ـ كما جاءت للعرب الأميين ، وللناس أجمعين .

فهم مخاطبون بها،مأمورون باتباع الرسول الخاتم ـ وهذا طرف من ميثاق الله معهم كما سبق، وأن هذا الرسول الخاتم قد جاء يكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من الكتاب الذى بين أيديهم ؛ والذى استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه ؛ ويعفو كذلك عن كثير مما أخفوه ، ولم تعد هناك ضرورة له فى الشريعة الجديدة .

وتعرض كذلك الآيات بعض الانحرافات التى جاء الرسول الخاتم ﷺ ليقومها فى معتقداتهم : كقول النصارى : إن المسيح عيسى ابن مريم هو الله ، وكقولهم هم واليهود نحن أبناء الله وأحباؤه .. ويختم هذا النداء بأنه لن تكون لهم حجة عند الله بعد الرسالة الكاشفة المبينة المنيرة ؛ ولن يكون لهم أن يقولوا: إنه مرت عليهم فترة طويلة بعد الرسالات فنسوا ولبس الأمر عليهم .

ويقول صاحب الظلال : « وفى هذا النداء الإلهى لأهل الكتاب ، يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى الإسلام. مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده كما أخذ عليهم ميثاقه . ويسجل عليهم شهادته ـ سبحانه ـ بأن هذا النبى الأمى هو رسوله إليهم ـ كما أنه رسول إلى العرب ، وإلى الناس كافة ـ فلا مجال لإنكار رسالته من عند الله أولاً ؛ ولا مجال للادعاء بأن رسالته مقتصرة على العرب ، أو ليست موجهة إلى أهل الكتاب ثانياً » .

ويبين لهم طبيعة ما جاء به هذا الرسول ، ووظيفته فى الحياة البشرية ، وما قدر الله من أثره فى حياة الناس فلقد جاءهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن الله ، ويهديهم إلى صراط مستقيم، وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب ـ القرآن ـ وعلى طبيعة هذا المنهج ـ الإسلام ـ من أنه نور .

ويقول صاحب الظلال : « وما أدق هذا التعبير وأصدقه ؛ إنه « السلام » هو ما يسكبه هذا الدين فى الحياة كلها .. سلام الفرد وسلام الجماعة وسلام العالم .. سلام الضمير ، وسلام العقل والجوارح .. سلام البيت والأسرة ، وسلام المجتمع والأمة وسلام البشر والإنسانية .. السلام مع الحياة والكون . والسلام مع الله رب الكون والحياة .السلام الذى لا تجده البشرية ـ ولم تجده يوماً ـ إلا فى هذا الدين ؛ وإلا فى منهجه ونظامه وشريعته ، ومجتمعه الذى يقوم على عقيدته وشريعته » .

ويقول :

إننا نعانى من ويلات الجاهلية ؛ والإسلام منا قريب . ونعانى من حرب الجاهلية وسلام الإسلام فى متناول أيدينا لو نشاء .. فأية صفقة خاسرة هذه التى نستبدل فيها الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ ونشترى فيها الضلالة بالهدى ؟ ونؤثر فيها الحرب على السلام ؟ إننا نملك

إنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحربها المشبوبة فى شتى الصور والألوان ، ولكننا لا نملك إنقاذ البشرية ، قبل أن ننقذ نحن أنفسنا ، وقبل أن نفىء إلى ظلال السلام ، حين نفىء إلى رضوان الله ونتبع ما ارتضاه . فنكون من هؤلاء الذين يقول الله عنهم إنه يهديهم سبل السلام » .

ويمضى السياق ليقرر وجه الحق فى قضية المسيح ﷺ ، وليقول كلمة الفصل ، ويجىء الرسول الخاتم ﷺ ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة ، ويثير فيهم منطق العقل والفطرة والواقع فيفرق تفرقة بين ذات الله سبحانه وطبيعته ومشيئته وسلطانه ، وبين ذات عيسى ﷺ وذات أمة ، وكل ذات أخرى ، فى نصاعة قاطعة حاسمة .

فذات الله سبحانه ـ واحدة ، ومشيئته طليقة ، وسلطانه متفرد ، ولا يملك أحد شيئا فى رد أو دفع سلطانه إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً . وهو ـ سبحانه ـ مالك كل شىء ، وخالق كل شىء ، والخالق غير المخلوق . وكل شىء مخلوق .

وكذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية ، ووضوحها وبساطتها .. وتزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات المتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية . فى تقرير حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين بلا غبش ولا شبهة ولا غموض .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ حرمة نقض العهود ونكث المواثيق ولا سيما ما كان بين العبد وربه عز وجل .

٢ ـ الغدر والخيانة جبلة فى اليهود فقلّ من سلم منهم من هذه الجبلة .

٣ ـ استحباب العفو عند القدرة ، فهذا سمت الصالحين .

٤ ـ نتعلم أن قدرة الله وطلاقة هذه القدرة لا حدود لها ، فهو سبحانه له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وما فيهن وما بينهما وهو سبحانه على كل شىء قدير .

٥ ـ لابد للاهتداء بكتاب الله من إيمان أولاً ، يستتبع ذلك اهتداء بكتاب الله ،ويستتبع ذلك السير بالطرق الموصلة إلى رضوان الله ، ويستتبع ذلك هداية إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الجنة .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

معانى الكلمات :

أبناء الله : نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء . **فترة** : انقطاع للوحى ، وسكون وفتور . **الأرض المقدسة** : بيت المقدس وما حوله . **لا ترتدوا** : لا ترجعوا منهزمين .

أدباركم : « دبر » كل شيء مؤخرته .

جبارين : لا يمكن مقاومتهم . **أنعم الله عليها** : بالإيمان والطاعة والشجاعة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ بيان الرد على مزاعم اليهود والنصارى فى قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه.

٢ ـ بيان فساد اليهود بكشف الآيات عن مخازيهم مع أنبيائهم .

٣ ـ بيان أهمية الانصياع لأوامر الله ورسوله كأحد أسباب النصر .

٤ ـ بيان ضرورة الأخذ بالأسباب والتوكل على الله فى كل الأمور .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات ردها على مزاعم اليهود والنصارى فلقد قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وكانوا يقولون ـ تبعاً لهذا ـ إن الله لن يعذبهم بذنوبهم ! وإنهم لن يدخلوا النار ـ وإذا دخلوا ـ لا يمكثون فيها إلا أياماً معدودات . ومعنى هذا أن عدل الله لا يجرى مجراه ! أو أنه سبحانه ـ يحابى فريقاً من عباده ، فيدعهم يفسدون فى الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين ! فأى فساد يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور ؟

وهنا يرد القرآن على هذا الفساد فى التصور ، ويقرر عدل الله الذى لا يحابى أحداً ، ويقرر بطلان ادعاء البنوة ؛ فهم بشر ممن خلق .

ويقرر عدل الله وقيام المغفرة والعذاب عنده على أصلها الواحد . على مشيئته التى تقرر الغفران بأسبابه وتقرر العذاب بأسبابه لا بسبب بنوة أو صلة شخصية !

ثم يكرر أن الله هو المالك لكل شىء ، وأن مصير كل شىء إليه ، وينهى هذا البيان بتكرار النداء الموجه إلى أهل الكتاب، يقطع به حجتهم ومعذرتهم ويقفهم أمام « المصير »وجها لوجه ، بلا غبش ولا عذر ، ولا غموض . فلا تعود لهم الحجة فى أنهم لم ينبهوا ولم يبشروا ولم ينذروا فى مدى طويل بعد قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا ﴾ فقد جاءهم ـ الآن ـ بشير ونذير ، ثم يذكرهم أن الله لا يعجزه شىء ؛ لا يعجزه أن يرسل رسولًا من الأميِّين ولا يعجزه كذلك أن يأخذ أهل الكتاب بما يكسبون .

وتنهى هذه الجولة مع أهل الكتاب ، فتكشف انحرافاتهم عن دين الله الصحيح الذى جاءتهم به رسلهم من قبل . وتقرر حقيقة الاعتقاد الذى يرضاه الله من المؤمنين ، وتبطل حجتهم فى موقفهم من النبى الأمى ؛ وتأخذ عليهم الطريق فى الاعتذار يوم الدين .

وبهذا كله تدعوهم إلى الهدى من ناحية ؛ وتضعف تأثير كيدهم فى الصف المسلم من ناحية أخرى . وتنير الطريق للجماعة المسلمة ولطلاب الهدى جميعاً .. إلى الصراط المستقيم .

وتستعرض الآيات الموقف الأخير لبنى إسرائيل مع رسولهم موسى عليه السلام على أبواب الأرض المقدسة التى وعدهم الله ؛ وموقفهم كذلك من ميثاق ربهم معهم ؛ وكيف نقضوه ؛ وكيف كان جزاؤهم على نقض الميثاق ، فلقد جربهم فى مواطن كثيرة .. ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة . أرض الميعاد التى من أجلها خرجوا . الأرض التى وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا فى رعاية الله وقيادته ..

لقد جربهم فحق له أن يشفق ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة ، فيحشد فيه أجل النعم وأكبر البشريات ، وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات ؛ نعمة الله ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكاً . وإيتاءه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحداً من العالمين حتى ذلك التاريخ والأرض المقدسة التى هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله. فهى إذن يقين وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده . وهذا وعده الذى هم عليه قادمون .. والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين ولكن إسرائيل ، هى إسرائيل !! الجبن والنكوص على الأعقاب ونقض الميثاق .

فهم يريدون نصراً رخيصاً ، لا ثمن له ، ولا جهد فيه . نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المنّ والسلوى ، ولكن تكاليف النصر ليست كما تريدها يهود ! وهى فارغة القلوب من الإيمان ! وهنا تبرز قيمة الإيمان بالله ، والخوف منه ، فهذان رجلان من الذين يخافون الله ، ينشئ لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين ! ويرزقهما شجاعة فى وجه الخطر الموهوم !

ويقول صاحب الظلال : « وهذان يشهدان بقولتهما ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ بقيمة الإيمان فى ساعة الشدة ؛ وقيمة الخوف

من الله فى مواطن الخوف من الناس . فالله ـ سبحانه ـ لا يجمع فى قلب عبد بين مخافتين : مخافته ـ جل جلاله ـ ومخافة الناس .. والذى يخاف الله لا يخاف أحداً بعده ؛ ولا يخاف شيئاً سواه » .

وتعلمنا هذه المقالة قاعدة فى علم القلوب وفى علم الحروب .. أقدموا واقتحموا . فمتى دخلتم على القوم فى عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم ؛ وشعروا بالهزيمة فى أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم ..

ويقول صاحب المنار: « قوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ أى :بنصر الله وتأييده لكم إذا أطعتم أمره ، وصدقتم وعده ، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى وعليكم بعد أن تعلموا ما يدخل فى طاقتكم من طاعة ربكم ، أن تكلوا أمركم إليه وتثقوا به ، فيما لا يصل إليه كسبكم ، فإن التوكل إنما يكون بعد بذل الوسع ، فى مراعاة السنة وامتثال الأمر إن كنتم مؤمنين بأن ما وعدكم ربكم على لسان نبيكم حق ، وأنه قادر على الوفاء لكم بوعده إذا أنتم قمتم بما يجب عليكم من طاعته وشكره ، والوفاء بميثاقه وعهده » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن دين الإسلام عام للبشرية كلها ، ومنهجه هو أكمل المناهج وأصلحها لحاضرالبشرية ومستقبلها .

٢ ـ أن نتعلم من هذه الآيات رفض الذل والظلم ومقاومة ذلك بكل وسيلة متاحة مهما بلغت التضحيات ؛ لأن ذلك مطلب شرعى فى كل دين .

٣ ـ أن رفض الانصياع للحق ولما أمر الله به بعصيان الرسول ﷺ قد تكون عقوبته فى الدنيا فضلا عن العقوبة فى الآخرة ، كما عوقب بنو إسرائيل بالتيه وتحريم الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة كاملة لم يستطيعوا دخولها .

٤ ـ أن الدخول فى العمل والمبادرة إليه هو الذى يكسر حدة الخوف والقعود عن العمل الصالح ، وقد طالبنا الله تعالى بالمبادرة إلى فعل الخير فى قوله : ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ (البقرة ١٤٨) .

٥ ـ روى الترمذى بسنده عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « بادروا بالأعمال سَبعاً ، هل تنتظرون إلا فقراً مُنسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأَمَرّ » .

٦ ـ الدخول فى العمل ، والأخذ بكافة الأسباب مع التوكل على الله هو الكفيل بالنجاح والفلاح وبلوغ الغايات .

الجزء السادس — سورة المائدة

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

١١٢

معانى الكلمات :

فافرق : افصل بحكمك .

يتيهون فى الأرض : يسيرون فيها متحيرين ضالين . **فلا تأس :** فلا تحزن .**نبأ :** خبر .

ابنى آدم : هابيل وقابيل . **قرباناً :** ما يُتقرب به من البر إلى الله تعالى .

بسطت إلى يدك : بطشت بى .

أن تبوء بإثمى : أن ترجع بذنب قتلى إذا قتلتنى . **إثمك :** ذنبك السابق المانع من قبول قربانك . **سوءة أخية :** جثمانه وعورته .

طوعت له نفسه : سهلت له .

يوارى : يخفى ويدفن .

يا ويلتا : كلمة جزع وتحسر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان مشروعية التقرب إلى الله تعالى بما يجب أن يتقرب به إليه تعالى .

٢ ـ بيان أول من سن جريمة القتل وهو قابيل ولذا ورد : « ما من نفس تقتل نفساً ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل ذلك بأنه أول من سن القتل » .

٣ ـ بيان عظم جريمة الحسد وما يترتب عليها من الآثار السيئة .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات تأتى نهاية المطاف بموسى ﷺ نهاية الجهد الجهيد ، والسفر الطويل ، واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بنى إسرائيل ! فهاهم ينكصون عن الأرض المقدسة ، وهو معهم على أبوابها ، وينكثون عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق ، فيدعو الله دعوة فيها الألم وفيها الالتجاء وفيها الاستسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ ، ويقول صاحب الظلال رحمه الله : « هذا هو أدب النبى ، وهذه هى خطة المؤمن . وهذه هى الآصرة التى يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون لا جنس . لا نسب . لا قوم . لا

لغه . لا تاريخ . ولا وشيجة من كل وشائج الأرض إذا انقطعت وشيجة العقيدة ، وإذا اختلف المنهج والطريق ».

واستجاب الله لنبيه ، وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين ، وحرم عليهم الأرض المقدسة التى كتبها لهم ، وتركهم فى التيه أربعين سنة .

يقول صاحب الظلال : « ولقد وعى المسلمون هذا الدرس ـ مما قصه الله عليهم من القصص ـ فحين واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش فى غزوة بدر ، قالوا لنبيهم ﷺ : إذن لا نقول لك يارسول الله ماقاله بنو إسرائيل لنبيهم : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ لكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون .. وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآنى فى التربية بالقصص عامة؛وبعض جوانب حكمة الله فى تفصيل قصص بنى إسرائيل ..».

ثم ينتقل السياق ليأخذ فى بيان بعض الأحكام التشريعية الأساسية فى الحياة البشرية وهى الأحكام المتعلقة بحماية النفس والحياة فى المجتمع المسلم المحكوم بمنهج الله وشريعته ويقدم أحد النماذج لطبيعة الشر والعدوان بين البشر ، ونموذجاً كذلك للعدوان الصارخ الذى لا مبرر له .

ويقدم كذلك نموذجاً لطبيعة الخير والسماحة ، ويرسم الجريمة التى يرتكبها الشر ، والعدوان الصارخ الذى يثير الضمير ؛ ويثير الشعور بالحاجة الملحة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل ، تكف النموذج الشرير المعتدى عن الاعتداء ؛ وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة ، فإذا ارتكبها ـ على الرغم من ذلك ـ وجد الجزاء العادل ، المكافئ للفعلة المنكرة . كما تصون النموذج الطيب الخير ، وتحفظ حرمه وتصون دمه .

وهذه القصة هى قصة ابنى آدم هابيل وقابيل ، ويمكن أن نلخص القصة فى صورتها القرآنية المحكمة وهى كما يلى: « كان الرجلان أخوين ، وقدم كل منهما قربانا إلى الله ، فتقبل الله قربان أحد الأخوين لتقواه وإخلاصه ، ولم يتقبل قربان الآخر لفقده التقوى والإخلاص ، عندئذ قال الذى لم يتقبل قربانه لأخيه الذى تقبل الله قربانه : ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ حسداً له وحقداً عليه ، فرد عليه أخوه بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أى راجع تقواك وإخلاصك حتى يتقبل الله منك ، وأما تهديدك لى بالقتل فأقول لك فيه : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى ﴾ وهذا ليس من حقك : ﴿ مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ لأن هذا ليس من صفتى ، فأنا أخاف الله سبحانه أن يرانى سافكاً للدم .

وأكد الذى هُدِّد بالقتل لأخيه أن القاتل ينال عقاب الله فى الآخرة على القتل وعلى معصية الله بممارسة الظلم والقتل والحسد والبغى ، وكل ذلك جزاؤه عند الله النار .

وعلى الرغم من هذه النصائح فإن العازم على قتل أخيه لم يتعظ ، بل طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح بهذه الجريمة من الخاسرين فى الدنيا بفقده أخاه وأقرب الناس إليه ، وفى الآخرة بما سيناله من عذاب الله سبحانه .

وكانت هذه أول جريمة قتل كما يوحى بذلك سياق النص القرآنى بدليل أن الإنسان لم يكن يعرف كيف يدفن ميته ـ عندئذ ـ بعث الله غراباً يبحث فى الأرض ويحفر فيها ، فتعلم القاتل من ذلك أن يحفر لأخيه حفرة يواريه فيها ففعل وأدرك أنه جاهل غافل فأصبح من النادمين .

يقول صاحب المنار : « ومعنى الجملة : واتل أيها الرسول على أهل الكتاب وسائر الناس ذلك النبأ العظيم ـ نبأ ابنى آدم ـ تلاوة متلبسة بالحق مظهرة له ، بأن تذكره كما وقع ، مبينا ما فيه من الحكمة والكشف عن غريزة البشر وهو ما جبلوا عليه من التباين والاختلاف الذى يفضى إلى التحاسد والبغى والقتل ، ليعلموا حكمة الله فيما شرعه فى الدنيا من عقاب الباغين من الأفراد والجماعات والشعوب والقبائل ، وكون هذا البغى من اليهود على رسول الله والمؤمنين ليس من أمر دينهم ، وإنما هو من حسدهم وبغيهم ، فهم فى هذا كابنى آدم إذْ حسد شرهما خيرهما فبغى عليه فقتله ، وكانت عاقبة ذلك ما بينته هذه الآيات » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قبول الأعمال الصالحة يتوقف على الإخلاص فيها فالله تعالى هو المقصد فى كل قول أو عمل .

٢ ـ أن نعلم علم اليقين أن ما أصابنا من نعم لم يكن ليخطئنا أبداً ، وأن ما أخطأنا منها لم يكن ليصيبنا أبداً ، فذلك هو الإيمان بالقضاء والقدر ، وهو فى الوقت نفسه الذى يباعد بيننا وبين أن نحسد الآخرين على ما آتاهم الله من فضله .

٣ ـ علينا أن ندعو الله للمُنعَم عليه أن يزيده الله من نعمه وأن يوفقه فى التعامل مع هذه النعمة بما يرضى الله تبارك وتعالى ، فإن هذا الدعاء مفتاح كل خير .

٤ ـ على من حُرِمَ من نعمة ورأى غيره قد أعطيها أن يعلم أن المنعم سبحانه له فى ذلك حكمة ، فليس من الضرورة أن يكون صاحب النعمة أفضل عند الله ممن حرم هذه النعمة وفى ذلك رضا لله تعالى ورضا للنفس يحول بينها وبين الوقوع فى نار الحسد والحقد .

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

معانى الكلمات :

بغير نفس : بغير قتل نفس يوجب القصاص .

أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف : أى تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى .

ينفوا من الأرض : يُبعدوا أو يسجنوا .

خزى : ذل وفضيحة وعقوبة .

ابتغوا إليه الوسيلة : واطلبوا القربى إلى الله بفعل الطاعات وترك المعاصى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حكم الحرابة وحقيقتها ورأى الفقهاء فيها .

٢ ـ بيان عظم عفو الله ورحمته بعباده بمغفرته لمن تاب ورحمته له .

٣ ـ وجوب تقوى الله عز وجل وطلب القربى إليه والجهاد فى سبيله .

٤ ـ مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالإيمان وصالح الأعمال .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يلتقط السياق الآثار العميقة التى تتركها جريمة القتل فى النفس ، ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذى فُرض لتلافى الجريمة فى نفس المجرم ؛ أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التى تنتظره . من أجل ذلك جعل الله جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة ، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً ، وجعل العمل على دفع القتل عن نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعاً ،وكتب ذلك على بنى إسرائيل فيما شرع لهم من شريعة .

ويقول صاحب الظلال : « إن قتل نفس واحدة ـ فى غير قصاص لقتل ، وفى غير دفع فساد فى الأرض ـ يعدل قتل الناس جميعاً ، لأن كل نفس ككل نفس ؛ وحق الحياة واحد ثابت لكل نفس . فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته ؛ الحق الذى تشترك فيه كل النفوس . كذلك دفع القتل عن نفس ، واستحياؤها بهذا الدفع ـ سواء كان بالدفاع عنها فى حالة حياتها أو بالقصاص لها فى حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل على نفس أخرى ـ هو استحياء للنفوس جميعاً ؛ لأنه صيانة لحق الحياة الذى تشترك فيه النفوس جميعاً .

ويستطرد السياق ليقرر عقوبة الحرابة ، وحدود هذه الجريمة التى ورد فيها هذا النص ، هى الخروج على الإمام المسلم الذى يحكم بشريعة الله ، والتجمع فى شكل عصابة ، خارجة على سلطان هذا الإمام ، تروع أهل دار الإسلام؛ وتعتدى على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم . ويشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك خارج المصر بعيداً عن مدى سلطان الإمام ويرى بعضهم أن مجرد تجمع مثل هذه العصابة ، وأخذها فى الاعتداء على أهل دار الإسلام بالقوة ، يجعل النص منطبقاً عليها . سواء خارج المصر أو داخله . وهذا هو الأقرب للواقع العملى ومجابهته بما يستحقه.

وهؤلاء الخارجون على شريعة الله إنما يحاربون الله ورسوله ، وجزاء هؤلاء الذين يروعون عباد الله فى دار الإسلام ، ويعتدون على أموالهم وأرواحهم وحرماتهم .. أن يقتلوا تقتيلاً عادياً . أو أن يصلبوا حتى يموتوا (وبعض الفقهاء يفسر النص بأنه الصلب بعد القتل للترويع والإرهاب) أو أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى .. من خلاف .

ويروى الفقهاء فى مذهب أبى حنيفة والشافعى وأحمد أن العقوبات مرتبة على حسب الجناية التى وقعت فمن قتل ولم يأخذ مالاً قتل ، ومن أخذ المال ولم يقتل قطع ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب ومن أخاف السبيل ولكنه لم يقتل ولم يأخذ مالاً نفى .

يقول صاحب الظلال : « فى قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فالجزاء الذى يلقونه إذن فى الدنيا لا يُسقط عنهم العذاب فى الآخرة ، ولا يطهرهم من دنس الجريمة كبعض الحدود الأخرى . وهذا كذلك تغليظ للعقوبة وتبشيع للجريمة . ذلك أن الجماعة المسلمة فى دار الإسلام يجب أن تعيش آمنة . وذلك أن السلطة المسلمة القائمة على شريعة الله يجب أن تكون مطاعة . فهذا هو الوسط الخير الرفيع الذى يجب توفير الضمانات كلها لازدهاره .. وهذا هو النظام العادل الكامل الذى يجب أن يصان من المساس به ..

فإذا ارتدع هؤلاء الخارجون المفسدون عن غيهم وفسادهم ، نتيجة استشعارهم نكارة الجريمة، وتوبة منهم إلى الله ورجوعاً إلى طريقه المستقيم . وهم ما يزالون فى قوتهم ، لم تنلهم يد السلطان ـ سقطت جريمتهم وعقوبتها معاً ، ولم يعد للسلطان عليهم من سبيل ، وكان الله غفورًا لهم رحيما بهم فى الحساب الأخير . ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والحكمة واضحة فى إسقاط الجريمة والعقوبة فى هذه الحالة عنهم من ناحيتين :

الأولى : تقدير توبتهم ـ وهم يملكون العدوان ـ واعتبارها دليل صلاح واهتداء ..

الثانية : تشجيعهم على التوبة ، وتوفير مؤنة الجهد فى قتالهم من أيسر سبيل » .

ولا يكاد ينتهى السياق القرآنى من الترويع بالعقوبة حتى يأخذ طريقه إلى القلوب والضمائر والأرواح يستجيش فيها مشاعر التقوى ؛ ويحثها على ابتغاء الوسيلة إلى الله والجهاد فى سبيله

رجاء الفلاح ، ويحذرها عاقبة الكفر به ، ويصور لها مصائر الكفار فى الآخرة تصويراً موحيًا بالخشية والاعتبار .

ويقول صاحب الظلال : « إن هذا المنهج المتكامل يأخذ النفس البشرية من أقطارها جميعاً ؛ ويخاطب الكينونة البشرية من مداخلها جميعاً ؛ ويلمس أوتارها الحية كلها وهو يدفعها إلى الطاعة ويصدها عن المعصية .. إن الهدف الأول للمنهج هو تقويم النفس البشرية وكفها عن الانحراف . والعقوبة وسيلة من الوسائل الكثيرة . وليست العقوبة غاية ، كما أنها ليست الوسيلة الوحيدة .

وهنا نرى أنه يبدأ هذا الشوط بنبأ ابنى آدم ـ بكل ما فيه من موجبات ـ ثم يثنى بالعقوبة التى تخلع القلوب . ثم يعقب بالدعوة إلى تقوى الله وخشيته والخوف من عقابه . ومع الدعوة التصوير الرعيب للعقاب ..

ويكون الخوف والرجاء ـ أى الوسيلة ـ هما السبيل للفلاح للمؤمنين والتائبين ، على الجانب الآخر المشهد الشاخص للكفار الذين يضرب لهم ما فوق الخيال وهو أنهم لو ملكوا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا من عذاب الله يوم القيامة ما تقبل الله منهم ولهم عذاب دائم ومقيم فى النار هم فيها خالدون ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فساد بنى إسرائيل لم ينشأ عن الجهل وقلة العلم بل كان اتباعاً للأهواء وجرياً وراء عارض الدنيا ، فلذا غضب الله عليهم ولعنهم ؛ لأنهم عالمون .

٢ ـ بيان حكم الحرابة وهى : خروج جماعة اثنان فأكثر ويكون بأيديهما سلاح ولهم شوكة ، خروجهم بعيداً عن المدن والقرى ، يشنون هجمات على المسلمين فيقتلون ويسلبون ويعتدون على الأعراض . هذه هى الحرابة وأهلها يُقال لهم : المحاربون وحكمهم ما ورد فى الآيات .

٣ ـ وجوب تقوى الله عز وجل وطلب القربة إليه والجهاد فى سبيله .

٤ ـ مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالإيمان والأعمال الصالحة {قصة الثلاثة أصحاب الغار}.

٥ ـ لا فدية يوم القيامة ولا شفاعة تنفع الكافرين فيخرجون بها من النار .

الجزء السادس — سورة المائدة

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟
أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ
عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ
لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ
هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ
ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ
يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ
وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى
ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

ربع الحزب ١٢

١١٤

معانى الكلمات :

نكالا : عقوبة تمنع الإنسان من أن يعود إلى فعل ما يعاقب عليه . **بأفواههم** : بألسنتهم .

سماعون للكذب : يسمعون كلامك ، ثم يمسخونه ليكذبوا عليك فيه .

سماعون لقوم آخرين : يسمعون كلامك للتجسس لآخرين . **يحرفون الكلم** : يبدلونه أو يؤولونه بالباطل . **فتنته** : ضلاله وكفره أو إهلاكه . **خزى** : افتضاح وذل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم الحكمة من تشريع حد السرقة وضرورته لأمن وسلامة المجتمع .

٢ ـ أن نعلم أن باب التوبة مفتوح إذا كانت خالصة بشروطها الشرعية .

٣ ـ أن نبين طبائع اليهود والمنافقين من سماع للكذب وتحريف لكلام الله .

٤ ـ أن نوقن بأن تطبيق حدود الله على عباد الله هو الحل الأمثل لمقاومة الجريمة والعدوان، والسبيل الوحيد لاستقرار وأمن المجتمع .

المحتوى التربوى :

هذا المقطع امتداد للمقطع السابق من حيث إنه يأمر بحسم مادة الفساد فى الأرض بجهاد الكافرين وقطع يد السارق والسارقة ؛ مجازاة لهما على صنيعهما السيئ فى أخذ أموال الناس بأيديهم، فالمجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام ـ على اختلاف عقائدهم ـ ما يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية ، إنه يوفر لهم ضمانات العيش والكفاية . وضمانات التربية والتقويم . وضمانات العدالة والتوزيع .

وفى الوقت ذاته يجعل كل ملكية فردية فيه تنبت من حلال ؛ ويجعل الملكية الفردية وظيفة اجتماعية تنفع المجتمع ولا تؤذيه . ومن أجل هذا كله يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية ، فمن حقه إذن أن يشدد فى عقوبة السرقة ، والاعتداء على الملكية الفردية ، والاعتداء على أمن الجماعة .. ومع تشديده فهو يدرأ الحد بالشبهة ؛ ويوفر الضمانات كاملة للمتهم حتى لا يؤخذ بغير الدليل الثابت .

والسرقة هى أخذ مال الغير المحرّز ، خفية .. فلابد أن يكون المأخوذ مالاً مقّوماً .. والحد المتفق عليه تقريباً بين فقهاء المسلمين الذى يعد أخذه من حرزه خفية سرقة هو ما يعادل ربع دينار .. ولابد أن يكون هذا المال محرزًا وأن يأخذه السارق من حرّزه ، ويخرج به عنه ، فلا قطع مثلاً على المؤتمن على مال إذا سرقه . والخادم المأذون له بدخول البيت لا يقطع فيما يسرق ؛ لأنه ليس محرّزاً منه ولا على المستعير إذا جحد العارية ، ولا على الثمار فى الحقل حتى يؤويها الجرين ، ولا على المال خارج البيت أو الصندوق المعد لصيانته وهكذا ، ولابد أن يكون هذا المال المحرّز للغير ، فلا قطع حين يسرق الشريك من مال شريكه ، لأن له فيه شركة فليس خالصاً للغير ، والذى يسرق من بيت مال المسلمين لا يقطع ، لأن له نصيباً فيه فليس خالصاً للغير كذلك ، والعقوبة فى مثل هذه الحالات ليست القطع ، وإنما التعزير (والتعزير عقوبة دون الحد ، بالجلد أو بالحبس أو بالتوبيخ أو بالموعظة فى بعض الحالات التى يناسبها هذا حسب رأى القاضى والظروف المحيطة) .

والقطع يكون لليد اليمنى إلى الرسغ ، فإذا عاد كان القطع فى الرجل اليسرى إلى الكعب وهذا هو القدر المتفق عليه فى القطع ، ثم تختلف بعد ذلك آراء الفقهاء عند الثالثة والرابعة .

والشبهة تدرأ الحد ، فشبهة الجوع والحاجة تدرأ الحد ، وشبهة الشركة فى المال تدرأ الحد ، ورجوع المعترف فى اعترافه ـ إذا لم يكن هناك شهود ـ شبهة تدرأ الحد ، ونكول الشهود شبهة .

يقول صاحب الظلال : « وعلة فرض عقوبة القطع للسرقة أن السارق حينما يفكر فى السرقة إنما يفكر فى أن يزيد كسبه بكسب غيره . فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الحلال ، ويريد أن ينميه من طريق الحرام ، وهو لا يكتفى بثمرة عمله ، فيطمع فى ثمرة عمل غيره ، وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق أو الظهور ، أو ليرتاح من عناء الكد والعمل . أو ليأمن على مستقبله .

فالدافع الذى يدفع إلى السرقة ويرجع إلى هذه الاعتبارات هو زيادة الكسب أو زيادة الثراء ، وقد حاربت الشريعة هذا الدافع فى نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع ؛ لأن قطع اليد أو الرجل يؤدى إلى نقص الكسب ، إذ اليد والرجل كلاهما أداة العمل أيا كان . ونقص الكسب يؤدى إلى نقص الثراء. وهذا يؤدى إلى نقص القدرة على الإنفاق وعلى الظهور ، ويدعو إلى شدة الكدح وكثرة العمل ، والتخوف الشديد على المستقبل .

فالشريعة الإسلامية بتقريرها عقوبة القطع دفعت العوامل النفسية التى تدعو لارتكاب الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن جريمة السرقة ، فإذا تغلبت العوامل النفسية الداعية ، وارتكب الإنسان الجريمة مرة كان فى العقوبة والمرارة التى تصيبه منه ما يغلب العوامل النفسية الصارفة ، فلا يعود للجريمة مرة ثانية .

وعلى ذكر الجريمة والعقاب ، يذكر التوبة والمغفرة ، ويعقب السياق القرآنى بالمبدأ الكلى الذى تقوم عليه شريعة الجزاء فى الدنيا والآخرة . فخالق هذا الكون ومالكه هو صاحب المشيئة العليا فيه وصاحب السلطان الكلى فى مصائره ، هو الذى يُقرر مصائره ومصائر من فيه ، كما أنه هو الذى يُشرع للناس فى حياتهم ، ثم يجزيهم على عملهم فى دنياهم وآخرتهم .

ويستطرد السياق إلى الحديث عن أفعال اليهود والنصارى التى كانت تحزن الرسول ﷺ ، والتى منها المسارعة فى الكفر ، وهذه الآيات تشى بأنها مما نزلت فى السنوات الأولى فى الهجرة ؛ حيث كان اليهود ما يزالون فى المدينة ـ أى قبل غزوة الأحزاب على الأقل ـ وقبل التنكيل ببنى قريظة إن لم يكن قبل ذلك ، أيام أن كان هناك بنو النضير ، وبنو قُينقاع ، وأولاهما أجليت بعد أحد ، والثانية أجليت قبلها ـ ففى هذه الفترة كان اليهود يقومون بمناوراتهم هذه ، وكان المنافقون يأرزون إليهم كما تأرز الحية إلى الجحر ! وكان هؤلاء يسارعون فى الكفر ؛ لو قال المنافقون بأفواههم : آمنا ، وكان فعلهم هذا يحزن الرسول ﷺ ويؤذيه .

ويقول صاحب الأساس : « فى هذه الآيات نهىٌ لرسول الله ﷺ أن يحزن لمسارعة نوعين من الناس فى الكفر ، المنافقين واليهود ، ووصف لهؤلاء ، ووعيد لهم بالذلة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، وقطع رجاء المؤمنين من إيمانهم ، وهذه قضية مهمة ، إذ ما السبب الذى استحق به هؤلاء عقوبة ألا يُطهر الله قلوبهم ؟ أمّا المنافقون فسبب ذلك سماعهم للكذب سماع قبول ، وتجسسهم لحساب أعداء الله ، وأما اليهود فسبب ذلك تحريفهم كتاب الله ، وإرادتهم أن يكونوا قوّاماً على دين محمّد ﷺ بدلاً من الإسلام له ، وسماعهم للكذب ، وأكلهم المال الحرام » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ضرورة المحافظة على أمن المجتمع والمحافظة على أموال الناس وأعراضهم ، وأن العدوان على شىء من ذلك يوقع على المعتدى عقاباً دنيوياً بقطع يده إذا بلغ قدر المسروق نصاباً معيناً ، وعقاباً أخروياً عند الله تعالى .

٢ ـ نتعلم من هذه الآيات الكريمة أن باب التوبة مفتوح ، وأن الإسلام يُرحب بالتوبة ، والله سبحانه يعفو ويغفر بشرط أن تكون التوبة نصوحاً خالصة لله تعالى مصحوبة بالندم ورد المظالم إلى أهلها .

٣ ـ تطبيق حدود الله على عباد الله هو الحل الأمثل لمقاومة الجريمة والعدوان وترويع الآمنين، وهو السبيل لاستقرار العدل والأمن فى المجتمع .

٤ ـ حرمة سماع الكذب لغير حاجة تدعو إلى ذلك .

٥ ـ حرمة تحريف الكلام وتشويهه ، والحرص على ودقة النقل من وإلى الآخرين .

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

١١٥

معانى الكلمات :

أكالون للسحت : يأكلون ـ كثيراً ـ المال الحرام . « الرشوة» . **بالقسط** : بالعدل .

يتولون من بعد ذلك : يعرضون .

الربانيون : عُبّاد اليهود أو العلماء والفقهاء.

الأحبار : علماء اليهود . **فمن تصدق به** : فمن عفا عنه وتصدق عليه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان مقتضى الإيمان الصحيح وواجب المسلمين فى تبيان كتاب الله للناس للحكم بما فيه ، وإلا فليسوا بمؤمنين .

٢ ـ بيان حرمة الكذب والسحت « الرشوة » وأثرها السيئ على الفرد والمجتمع ووجوب تحريمها .

٣ ـ بيان أهمية القصاص فى التشريع الإسلامى لسلامة الفرد وأمن المجتمع .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات بعد أن وجه الله عز وجل نبيه فى شأن هؤلاء المسارعين بالكفر ، وفى شأن هؤلاء المتآمرين : لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، فهم يسلكون سبيل الفتنة ، وهم واقعون فيها ، وليس لك من الأمر شىء ، وما أنت بمستطيع أن تدفع عنهم الفتنة وقد سلكوا طريقها، ولجوا فيها فلا عليك منهم ، ولا يحزنك كفرهم ، ولا تحفل بأمرهم . فهو أمر مقضى فيه .

ثم يمضى فى بيان حال القوم ، وما انتهوا إليه من فساد فى الخلق والسلوك ، قبل أن يبين لرسول الله ﷺ كيف يتعامل معهم إذا جاؤوا إليه متحاكمين ، فكرر أنهم سماعون للكذب مما يشى بأن هذه أصبحت خصلة لهم ، تهش نفوسهم لسماع الكذب والباطل ، وتنقبض لسماع الحق والصدق ، وهذه طبيعة القلوب حين تفسد ، وعادة الأرواح حين تنطمس .

وهؤلاء : سماعون للكذب . أكالون للسحت ؛ والسحت كل مال حرام ، والربا والرشوة وثمن الكلمة والفتوى ! فى مقدمة ما كانوا يأكلون ، وفى مقدمة ما تأكله المجتمعات التى تنحرف عن منهج الله فى كل زمان ! وسمى الحرام سحتاً ، لأنه يقطع البركة ويمحقها ، وما أشد انقطاع البركة وزوالها من المجتمعات المنحرفة ، كما رأينا ذلك بأعيننا فى كل مجتمع شارد عن منهج الله

وشريعة الله ، ويجعل الله الأمر للرسول بالخيار فى أمرهم إذا جاؤوه يطلبون حكمه ـ فإن شاء أعرض عنهم ـ ولن يضروه شيئاً ـ وإن شاء حكم بينهم ، فإذا اختار أن يحكم حكم بينهم بالقسط ، غير متأثر بأهوائهم ، وغير متأثر كذلك بمسارعتهم فى الكفر ومؤامراتهم ومناوراتهم .

وقد عقب السياق بسؤال استنكارى على موقف يهود فهى كبيرة مستنكرة أن يحكموا رسول الله ﷺ فيحكم بشريعة الله وحكم الله ، وعندهم ـ إلى جانب هذا ـ التوراة فيها شريعة الله وحكمه ، فيتطابق حكم رسول الله ﷺ وما عندهم فى التوراة مما جاء القرآن مصدقاً له ومهيمناً عليه ، ثم من بعد ذلك يتولون ويعرضون ، سواء كان التولى بعدم التزام الحكم ؛ أو بعدم الرضا به ، ولا يكتفى السياق بالاستنكار ، ولكنه يقرر الحكم الإسلامى فى مثل هذا الموقف : ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ذلك كان حكم الله على المحكومين الذين لا يقبلون حكم شريعة الله فى حياتهم ، فالآن يجىء حكمه ـ تعالى ـ على الحاكمين ، الذين لا يحكمون بما أنزل الله . الحكم الذى تلتقى جميع الديانات التى جاءت من عند الله عليه ويبدأ بالتوراة ، وبيان ما فيها من هدى ونور .

يقول صاحب الظلال:« لقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة . منهج حياة واقعية. جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها . ولم يجئ دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة فى الضمير ؛ ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى فى الهيكل والمحراب.والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد؛ يملك السلطان على الضمائر والسرائر ، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك . ويجزى الناس وفق شرائعه فى الحياة الدنيا ، كما يجزيهم وفق حسابه فى الحياة الآخرة .

فالتوراة ـ كما أنزلها الله ـ كتاب الله الذى جاء لهداية بنى إسرائيل ، وإنارة طريقهم إلى الله . وطريقهم فى الحياة ، وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد . وتحمل شعائر تعبدية شتى ، وتحمل كذلك شريعة ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ .

وقبل أن ينتهى السياق من الحديث عن التوراة ، يلتفت إلى الجماعة المسلمة ، ليوجهها فى شأن الحكم بكتاب الله عامة ، وما قد يعترض هذا الحكم من شهوات الناس وعنادهم وحربهم وكفاحهم ، وواجب كل من استحفظ على كتاب الله فى مثل هذا الموقف ، وجزاء نكوله أو مخالفته ، وعلم الله ـ سبحانه ـ أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات ، وأنه لابد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة ؛ وأن يصمدوا لها ، وأن يحتملوا تكاليفها فى النفس والمال ؛ لذا يناديهم ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ . ويقرر الأصل القاعدى فى دين الله كله وهو ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ .

وبعد بيان هذا الأصل ، يعود السياق لعرض نماذج من شريعة التوراة التى أنزلها الله ليحكم بها النبيون والربانيون والأحبار للذين هادوا ـ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ وقد استبقيت هذه الأحكام التى نزلت بها التوراة فى شريعة الإسلام ، وأصبحت جزءاً من شريعة المسلمين ، التى جاءت لتكون شريعة البشرية كلها إلى آخر الزمان، وإن كانت لا تطبق إلا فى دار الإسلام . لاعتبارات عملية بحتة ؛ حيث لا تملك السلطة المسلمة أن تطبقها فيما وراء حدود دار الإسلام ، وحيثما كان ذلك فى استطاعتها فهى مكلفة بتنفيذها وتطبيقها ، بحكم أن هذه الشريعة عامة للناس كافة ، للأزمان كافة ، كما أرادها الله ، وقد أضيف إليها فى الإسلام حكم آخر فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ .

ولم يكن ذلك فى شريعة التوراة . إذا كان القصاص حتماً ؛ لا تنازل فيه ، ولا تصدق به ، ومن ثم فلا كفارة .

ويقول صاحب الظلال : « إن هذا المبدأ العظيم ـ القصاص ـ الذى جاءت به شريعة الله هو الإعلان الحقيقى الكامل لميلاد « الإنسان » الإنسان الذى يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة ، أولاً فى التحاكم إلى شريعة واحدة وقضاء واحد ، وثانياً فى المقاصة على أساس واحد وقيمة واحدة » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ نتعلم من الآيات الكريمة أن الذين يرغبون فى أن يتحاكموا إلى الحق والعدل ، ثم لا يقبلونه لا يمثلون إلا قيمة رخيصة فى المجتمع الإنسانى ، إذ لا ينبغى أن يميل أحد عن الحق والعدل ، ولن يستطيعوا أن يتحدوا الحق دائماً وإنما هى جولة زمنها ساعة ثم دولة الحق إلى قيام الساعة .

٢ ـ نتعلم كذلك أن الذين يكتمون شيئاً من كتاب الله أو يعطلونه ليسوا مؤمنين وإن زعموا الإيمان ؛ لأن مقتضى الإيمان أن يأتمر المؤمن بما أمر الله به ، وأن ينتهى عما نهى الله عنه .

٣ ـ نتعلم من الآيات أن من معانى « السُّحْت » الرشوة ، وهى من أخطر أمراض المجتمع ، وأجمع العلماء على أن الرشوة تخل بمروءة الراشى والمرتشى ، لأن هذا يأخذ ما ليس من حقه ، وذاك يعطى من لا يستحق ليأخذ ما ليس من حقه ، لذا فهى تخل بالدين والتدين إذ لا دين لمن لا مروءة له ، ولما قاله ﷺ : « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به » وقال العلماء : « من السحت أن يأكل الرجل بجاهه » .

٤ ـ أن يعلم الدعاة إلى الله أن من سنة الله أن يكون الحكم بما أنزل الله له أعداء يواجهونه ويحاولون أن يعطلوه فى كل زمان ومكان ، وكذلك من سنته أن يصطفى من يدافع عن دينه، ويطالب بأن يكون الحكم لله ، ويضحون من أجل ذلك بالغالى والنفيس حتى ينالوا إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

الجزء السادس — سورة المائدة

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

١١٦

معانى الكلمات :

قفينا على آثارهم : أتبعنا على آثار النبيين .

مهيمناً عليه : رقيباً أو شاهداً على ما سبقه .

عما جاءك : عادلاً عما جاءك .

شرعة ومنهاجاً : شريعة وطريقاً واضحاً فى الدين . **ليبلوكم** : ليختبركم وهو أعلم بأمركم . **أن يفتنوك** : يصرفوك ويصدوك بكيدهم . **أن يصيبهم** : أن يعاقبهم .

يوقنون : يعتقدون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان العلاقة بين الكتب السماوية من حيث وحدة المصدر واتفاق الغاية .

٢ ـ بيان عاقبة وحكم من لم يحكم بما أنزل الله .

٣ ـ بيان نعمة الله ورحمته على الأمة بتمام الرسالة الخاتمة .

٤ ـ أن نعرف ما الجاهلية لقول عمر بن الخطاب ﷺ :« ستنقض عُرى الإسلام عُروة ، عُروة إذا جاء فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية » .

المحتوى التربوى :

تستأنف هذه الآيات الحكم العام بأن : « من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » باطراده فيما بعد التوراة فقد أتى الله عيسى ابن مريم الإنجيل ، ليكون منهج حياة ، وشريعة حكم ، وقد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، فاعتمد شريعتها ، وجعل الله فيه هدى ونوراً للمتقين ، وجعله منهج حياة وشريعة حكم لأهل الإنجيل أى إنه خاص بهم ، فليس رسالة عامة للبشر ، شأنه فى هذا شأن التوراة ، وشأن كل كتاب ، وكل رسالة وكل رسول ، قبل هذا الدين الأخير ـ ولكن ما طابق من شريعته التى هى شريعة التوراة حكم القرآن ، فهو من شريعة القرآن كما مر بنا فى شريعة القصاص .

وأهل الإنجيل إذن كانوا مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التى أقرها وصدقها الإنجيل من شريعة التوراة ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ فالقاعدة هى الحكم بما أنزل الله دون سواه وهم اليهود ،كذلك لن يكونوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل ـ قبل الإسلام ـ

وما أنزل إليهم من ربهم ـ بعد الإسلام ـ فكله شريعة واحدة، هم ملزمون بها ، وشريعة الله الأخيرة هى الشريعة المعتمدة .

ثم تأتى الرسالة الأخيرة ، إنها الرسالة التى جاءت تعرض « الإسلام » فى صورته النهائية الأخيرة ؛ ليكون دين البشرية كلها ؛ ولتكون شريعته هى شريعة الناس جميعاً ؛ ولتهيمن على كل ما كان قبلها وتكون هى المرجع النهائى ؛ ولتقيم منهج الله لحياة البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، المنهج الذى تقوم عليه الحياة فى شتى شعبها ونشاطها ؛ والشريعة التى تعيش الحياة فى إطارها وتدور حول محورها ؛ وتستمد منها تصورها الاعتقادى ، ونظامها الاجتماعى ، وآداب سلوكها الفردى والجماعى .

وقد جاءت كذلك ليحكم بها ، لا لتعرف وتدرس ، وتتحول إلى ثقافة فى الكتب والدفاتر ! وقد جاءت لتُتبع بكل دقة ، فإما هذا وإما فهى الجاهلية والهوى ، ولا يشفع فى هذه المخالفة أن يقول أحد إنه يجمع بين الناس بالتساهل فى الدين ، فلو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة . إنما يريد أن تحكم شريعته ، ثم يكون من أمر الناس ما يكون .

ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى القرآن ليفصل فيه ، ولا قيمة لآراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا البيان الأخير من الله للبشر ، وتترتب على هذه الحقيقة مقتضياتها المباشرة : ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ .

يقول صاحب الظلال :

« لقد كمل هذا الدين ، وتمت به نعمة الله على المسلمين ، ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين . ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شىء فيه أو تبديله ، ولا لترك شىء من حكمه إلى حكم آخر ، ولا لشىء من شريعته إلى شريعة أخرى . وقد علم الله حين رضيه للناس ، أنه يسع الناس جميعاً . وعلم الله حين رضيه مرجعاً أخيراً أنه يحقق الخير للناس جميعاً وأنه يسع حياة الناس جميعاً إلى يوم الدين ، وأى تعديل فى هذا المنهج ـ ودعك من العدول عنه ـ هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة يخرج صاحبه من هذا الدين . ولو قال باللسان ألف مرة : إنه من المسلمين !

وتؤكد الآيات أن أى محاولة للتساهل فى شىء من شريعة الله ، انحراف للبشرية عن منهج الله مهما كانت الأسباب ، وتنهى الآيات النبى ﷺ عن اتباع أهوائهم عما جاءه من الحق ، ثم يحذره من فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه ، ويهون على رسول الله ﷺ أمرهم إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة فى هذه الشريعة ، ولا تجعل إعراضهم يفت فى عضدك أو يحولك عن موقفك .. فإنهم إنما يتولون ويعرضون ، لأن الله يريد أن يجزيهم على بعض ذنوبهم، فهم الذين سيصيبهم السوء بهذا الإعراض . لا أنت ولا شريعة الله ودينه ؛ ولا الصف المسلم المستمسك بدينه ، ثم إنها طبيعة البشر : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » فهم

يخرجون وينحرفون ، لأنهم هكذا ؛ ولا حيلة لك فى هذا الأمر ، ولا ذنب للشريعة ، ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق .

وبذلك يغلق كل منافذ الشيطان ومداخله إلى النفس المؤمنة ؛ ويأخذ الطريق على كل حجة وكل ذريعة لترك شىء من أحكام هذه الشريعة ؛ لغرض من الأغراض ؛ فى ظرف من الظروف ثم يقفهم على مفرق الطريق ، فإنه إما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية . ولا وسط بين الطرفين ولا بديل ، حكم الله يقوم فى الأرض ، وشريعة الله تنفذ فى حياة الناس ، ومنهج الله يقود حياة البشر ، أو أنه حكم الجاهلية وشريعة الهوى ، ومنهج العبودية فأيهما يريدون ؟

يقول صاحب الظلال : « إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص . فالجاهلية ـ كما يصفها الله ويحددها قرآنه ـ هى حكم البشر للبشر، لأنها هى عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله ، والاعتراف فى مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله .

إن الجاهلية ليست فترة من الزمان ؛ ولكنها وضع من الأوضاع . هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم ، ويوجد غداً ، فيأخذ صفة الجاهلية ، المقابلة للإسلام ، والمناقضة للإسلام . والناس ـ فى أى زمان وفى أى مكان ـ إما أنهم يحكمون بشريعة الله ـ دون فتنة عن بعض منها ـ ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً ، فهم إذن فى دين الله . وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر ويقبلونها فهم إذن فى جاهلية » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن رحمة الله سبحانه بخلقه مستمرة عبر أجيال الزمان كله ، كلما مضى رسول كريم بعث الله على أثره رسولاً آخر يقفو أثره ، وكل واحد من الرسل والأنبياء بذل ما استطاع من جهد لنقل الناس من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى .

٢ ـ أن مواصلة العمل فى الدعوة إلى الله والتبليغ عنه ضرورة شرعية حيوية ، لا يُستطاع الوصول إلى الحق إلا من خلالها ، ولابد من الوصول إلى الحق بمعنى تجليته ودعوة الناس إليه .

٣ ـ دين الإسلام هو الذى حَرَّر الأديان السابقة من شبهات التحريف والتبديل والوهم والخرافة وعبادة الناس والأشياء واتخاذهم آلهة من دون الله .

٤ ـ لا يجوز للمسلمين أن يتركوا ما شرع الله لهم ؛ ليأخذوا بالقوانين الوضعية التى لا تتخذ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله أساساً وهى تشرع للناس ما يتعاملون به مع الله ومع الناس والأشياء ، فيما يتصل بالدنيا والآخرة .

الجزء السادس — سورة المائدة

نصف الحزب ١٢

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧)

١١٧

معانى الكلمات :

أولياء : تؤاخونهم وتستنصرونهم.

مرض : شك ونفاق .

تخشى أن تصيبنا دائرة : نخاف حوادث الدهر وشروره .

بالفتح : بالنصر لرسوله ﷺ .

أو أمر من عنده : أو يهلكهم بأمر من عنده

جهد أيمانهم : مجتهدين فى الحلف بأغلظ الأيمان . **حبطت** : بطلت وضاع ثوابها .

أذلة على المؤمنين : رحماء بهم متواضعين .

أعزة على الكافرين : أشداء عليهم .

لومة لائم : اعتراض معترض .

الله واسع : كثير الفضل والكرم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان تحريم موالاة اليهود والنصارى من دون المؤمنين .

٢ ـ بيان الفرق بين الموالاة لليهود والنصارى وحسن معاملتهم .

٣ ـ أن نتخلق بصفات العصبة التى اختارها الله لنصرة دينه .

٤ ـ أن نعلم سمات الفئة الموالية لله ورسوله وللمؤمنين .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يربى القرآن وعى المسلم بحقيقة أعدائه ، وحقيقة المعركة التى يخوضها معهم ويخوضونها معه ، إنها معركة العقيدة فهى القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه ، وهم يعادونه لعقيدته ودينه ، قبل أى شىء آخر ، وهم يعادونه هذا العداء الذى لا يهدأ لأنهم هم فاسقون عن دين الله ، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ فهذه هى طبيعة المعركة ، وهذه هى الدوافع الأصلية .

لذا ينهى الله عز وجل ـ الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى أى ولاية، والولاية تعنى التناصر والتحالف معهم . ولا تتعلق بمعنى اتباعهم فى دينهم . فبعيد جداً أن

يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى فى الدين . إنما هو ولاء التحالف والتناصر ، الذى كان يلتبس على المسلمين أمره ، فيحسبون أنه جائز لهم، بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأواصر ، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام ، وفى أوائل العهد بقيام الإسلام فى المدينة ، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله ، بعدما تبين عدم إمكانية قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود فى المدينة .

يقول صاحب الظلال : « إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب ، ولكنه منهى عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم . وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقى مع طريق أهل الكتاب ، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه ، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض فى حربه والكيد له ، وسذاجة أية سذاجة وغفلة أية غفلة ، أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين ! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين ، إذا كانت المعركة مع المسلمين !! » .

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها ، فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم ، والفرد الذى يتولاهم من الصف المسلم ، يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف « الإسلام » وينضم إلى الصف الآخر : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ؛ وكان ظالماً لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة ، وبسبب ظلمه هذا يدخله الله فى زمرة اليهود ، والنصارى الذين أعطاهم ولاءه ، ولا يهديه إلى الحق ، ولا يرده إلى الصف المسلم .

ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم ، المتألبين عليهم ، المنافقين الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم ، يهددهم برجاء الفتح أو أمر الله الذى يفصل فى الموقف أو يكشف المستور من النفاق .

وبعد أن ينتهى السياق من النداء الأول للذين آمنوا ، أن ينتهوا عن موالاة اليهود والنصارى، وأن يحذروا أن يصيروا منهم بالولاء لهم ، وأن يرتدوا بذلك عن الإسلام . وهم لا يشعرون أو لا يقصدون ـ يرسل بالنداء الثانى ، يهدد من يرتد منهم عن دينه ـ بهذا الولاء أو بسواه من الأسباب ـ بأنه ليس عند الله بشىء ، وليس بمعجز الله ولا ضار بدينه ، وأن لدين الله أولياء وناصرين مدخرين لعلم الله ، إن ينصرف هؤلاء يجىء بهؤلاء ، ويصور ملامح هذه العصبة المختارة المدخرة فى علم الله لدينه ، وهى ملامح محببة جميلة وضيئة. ويبين جهة الولاء الوحيدة التى يتجه إليها المسلم بولائه ، ويختم هذا النداء بتقرير النهاية المحتومة للمعركة التى يخوضها حزب الله مع الأحزاب ! والتى يتمتع بها من يخلصون ولاءهم لله ولرسوله وللمؤمنين .

يقول صاحب الظلال : إن اختيار الله للعصبة المؤمنة ، لتكون أداة القدر الإلهى إقرار دين الله فى الأرض ، وتمكين سلطانه فى حياة البشر ، وتحكيم منهجه فى أوضاعهم وأنظمتهم ، وتنفيذ

شريعته فى أقضيتهم وأحوالهم ، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء فى الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة ، إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل الله ومنته ، فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة ، فهو وذاك . والله غنى عنه ـ وعن العالمين ، والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم » .

ويحدد عز وجل سمات العصبة التى اختارها للولاء له ولنصره دينه ، وأول هذه السمات الحب والرضا المتبادل بينهم وبين ربهم وكذلك هم أذلة على المؤمنين ؛ وليست مذلة ومهانة إنما هى الأخوة ترفع الحواجز ، وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس ، فلا يبقى فيها ما يستعصى وما يحتجز دون الآخرين ، وهم أعزة على الكافرين فيهم إباء واستعلاء . وهذه العزة ليست للذات ولا استعلاء للنفس ، إنما هى العزة للعقيدة ، وكذلك من أجل سماتهم الجهاد فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . وجهادهم لإقرار منهج الله فى الأرض ، وإعلان سلطانه على البشر ، وتحكيم شريعته فى الحياة لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس ، وذلك كله فضل الله يُعطى عن سعة ، ويُعطى عن علم ، وما أوسع هذا العطاء ؛ الذى يختار الله له من يشاء عن علم وعن تقدير .

ويحدد الله للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة له ولرسوله والمؤمنين والتى تتفق مع صفة الإيمان، ويأتى النداء الثالث الذى يثير فى نفوسهم الحمية لدينهم ولعبادتهم ولصلاتهم التى يتخذها أعداؤهم هزواً ولعباً ، ويسوى فى النهى عن الموالاة بين أهل الكتاب والكفار ، وينوط هذا النهى بتقوى الله ، ويعلق على الاستماع إليه صفة الإيمان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن الفرق حادٌّ بين أن نوالى اليهود والنصارى وأن نحسن التعامل معهم ، فالموالاة لهم منهى عنها ، وحسن التعامل مأمور به ، والولاء لا يكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين .

٢ ـ النفاق ظاهرة بشرية لا يخلو منها مجتمع للناس فى أى عصر من العصور ، وهؤلاء المنافقون فى قلوبهم مرض، ومن كان قلبه مريضاً كان كل ما فى حياته مريضاً ، لأن القلب إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله .

٣ ـ الولاء الحق هو ما كان لله ولرسوله وللمؤمنين ، وليس الولاء لأهل الكتاب أو الكفار أو المشركين ، بل ليس الولاء لأى مؤمن عامل بمقتضى الإيمان .

٤ ـ على المؤمن أن يتواضع للمؤمنين ويظهر العزة للكافرين ، ويقول الحق دائماً ولا يخاف فى الله لومة لائم .

وإذا ناديتم إلى الصلوة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم
لا يعقلون (٥٨) قل يأهل الكتب هل تنقمون منا إلا أن ءامنا
بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فسقون (٥٩) قل
هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب
عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطغوت أولئك شر
مكانا وأضل عن سواء السبيل (٦٠) وإذا جاءوكم قالوا ءامنا
وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون
(٦١) وترى كثيرا منهم يسرعون في الإثم والعدوان وأكلهم
السحت لبئس ما كانوا يعملون (٦٢) لولا ينههم الربنيون
والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا
يصنعون (٦٣) وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا
بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا
منهم ما أنزل إليك من ربك طغينا وكفرا وألقينا بينهم العدوة
والبغضاء إلى يوم القيمة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله
ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين (٦٤)

١١٨

معانى الكلمات :

تنقمون : تكرهون أو تعيبون .

فاسقون : خارجون عن الطريق المستقيم .

أنبئكم : أخبركم . **مثوبة عند الله :** جزاءً ثابتاً وعقوبة .

لعنه الله : طرده الله من رحمته .

عَبَد الطاغوت : أطاع الشيطان .

سواء السبيل : الطريق المعتدل .

السحت : المال الحرام .

الربانيون : عُبَّاد اليهود .

مغلولة : مقيدة من شدة البخل .

غلت أيديهم : دعاء عليهم .

مبسوطتان : إثبات الكرم والسخاء لله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن ندرك أن تحدى الدعوة إلى الله طبيعة فى النصارى واليهود.

٢ ـ أن ندرك أنه لا قعود عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خوفاً من بطش حاكم ، أو تملقاً لأهل الباطل والهوى ، أو حرصاً على الدنيا .

٣ ـ بيان قبح سكوت العلماء على المنكر وإغضائهم على فاعليه .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق مصدرًا حال أهل الكتاب وقد اتخذوا الصلاة ـ والنداء هزوًا ولعبا ، فمنهم من كان يتخذ النداء أداة استخفاف بمحاكاة صوت المؤذن ، واللعب بتقليده تهكما وتعابثا ، زمنهم من اتخذ شكل الصلاة الإسلامية موضع وسخرية واستهزاء ، وهذا الذى كان منهم سببه أن أحلامهم قد سفهت ، وصاروا لا يدركون الأمور على وجهها ، فلا يكفرون فى الأمور تفكير العقلاء الذين يتدبرون بعقولهم ، وقد قام لديهم البرهان العقلى والدليل على أن ما جاء به محمد لا يقبل الإنكار لمن يفكر بعقله .

و يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ؛ ليواجه أهل الكتاب ، فيسألهم : ماذا ينقمون من الجماعة المسلمة؟ وهل ينقمون منها إلا الإيمان بالله ، وما أنزل إلى أهل الكتاب ؛ وما أنزله الله للمسلمين بعد أهل الكتاب ؟ هل ينقمون إلا أن المسلمين يؤمنون . وأنهم هم ـ أهل الكتاب ـ أكثرهم فاسقون ؟ وهى مواجهة مخجلة . ولكنها كذلك كاشفة وحاسمة ومحددة لأصل العداوة ومفرق الطريق .

يقول صاحب الظلال : « إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين فى عهد الرسول ﷺ ، وهم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلامى ـ إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله ؛ وما أنزله الله إليهم من قرآن ؛ وما صدق عليه قرآنهم بما أنزله الله من قبل من كتب أهل الكتاب ، إنهم يعادون المسلمين لأنهم مسلمون ! لأنهم ليسوا يهوداً ولا نصارى ، ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله الله إليهم ؛ وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهى مصدقة لما بين أيديهم ـ لا ما ابتدعوه وحرفوه ـ ولا يؤمنون بالرسول الأخير .

إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء ؛ التى لم تضع أوزارها قط ، ولم يخب أوارها طوال ألف وأربعمائة عام ؛ منذ أن قام للمسلمين كيان فى المدينة ، وتميزت لهم شخصية ؛ وأصبح لهم وجود مستقل ؛ ناشئ من دينهم المستقل ، وتصورهم ونظامهم المستقل ، فى ظل منهج الله الفريد .

إنهم يشنون على المسلمين هذه الحرب المشبوبة ؛ لأنهم ـ بل قبل شىء ـ مسلمون لا يمكن أن يطفئوا هذه الحرب المشبوبة إلا أن يردوا المسلمين عن دينهم ، فيصبحوا غير مسلمين ؛ ذلك أن أهل الكتاب أكثرهم فاسقون ؛ ومن ثم لا يحبون المستقيمين الملتزمين من المسلمين ! .

ولقد علم الله ـ سبحانه ـ أن الخير لابد أن يلقى النقمة من الشر ، وأن الحق لابد أن يواجه العداء من الباطل ، وأن الاستقامة لابد أن تثير غيظ الفساق ، وأن الالتزام لابد أن يجر حقد المنحرفين ، وعلم الله ـ سبحانه ـ أن لابد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفسها وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف ، وأنها معركة لا خيار فيها ، ولا يملك الحق ألا يخوضها فى وجه الباطل ؛ لأن الباطل سيهاجمه ، ولا يملك الخير أن يتجنبها؛ لأن الشر لابد سيحاول سحقه .

ثم تمضى الآيات لمواجهة أهل الكتاب بعد تقرير بواعث نقمتهم على المسلمين واستنكار هذه البواعث فى النقمة على المسلمين ، فإذا هو يجبههم بتاريخ قديم لهم ، وشأن لهم مع ربهم وعقاب أليم فلقد لعنهم الله ؛ وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت ، والله ـ سبحانه ـ يوجه رسوله ﷺ لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ ، وبذلك الجزاء الذى استحقوه من الله على هذا التاريخ .. كأنما هم جيل واحد بما أنهم جبلة واحدة يوجهه ليقول :إن هذا شر عاقبة.

ويمضى السياق فى التنفير من موالاتهم بعرض صفاتهم وسماتهم ـ بعد عرض تاريخهم وجزائهم ـ ويجىء التحذير والتوعية منهم بكشف ما يبيتون ، ويبرز اليهود كذلك فى الصورة؛ لأن الحديث عن وقائع جارية ومعظم الشر قادم من اليهود . ويخبر الله عز وجل رسوله ﷺ أنهم لكثرة ما يرتكبون من الذنوب ويغشون من المعاصى ترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت علناً لا يستترون به ولا يخفونه ، فذمهم الله على ذلك ، وقبح فعلهم ، وأنكر على عُبّادهم وعلمائهم سكوتهم عن جرائم عوامهم ورضاهم بها مصانعة لهم ومداهنة .

ويخبر الله تعالى عن كفرهم وجرأتهم على الله تعالى بباطل القول وسيىء العمل ، ولعنهم تعالى ولعن كل صالح فى الأرض والسماء بسبب قولهم الخبيث الفاسد وأكذبهم تعالى فى قولهم : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ فقال : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ ثم أخبر تعالى رسوله بتدبيره فيهم انتقاماً منهم ، فقال عز وجل : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أى أن العداوة بين اليهود والنصارى لا ولن تنتهى إلى يوم القيامة ، ثم أخبر عن اليهود أنهم ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ فلم يفلحوا فيما أرادوه ، وقد أذلهم الله على يد رسوله والمؤمنين وأخزاهم، ومن دار الإيمان أجلاهم ، وأخبر تعالى أنهم يسعون دائماً وأبداً فى الأرض بالفساد ؛ فلذا أبغضهم الله وغضب عليهم ، لأنه تعالى لا يحب المفسدين .

وهذا الشر والفساد الذى تمثله وتثيره وتدبره يهود ، لابد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه ، فالله لا يحب الفساد فى الأرض ؛ وما لا يحبه الله لابد أن يبعث عليه من عباده من يزيله ويعفى عليه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ماضى اليهود وتاريخهم الأسود يقول أنهم أصل الشرور والإفساد والكفر والإلحاد ، وتلك طبيعة فيهم ولا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، والاطمئنان إليهم غفلة وسذاجة وجهادهم فريضة على كل من آمن بالله ورسوله .

٢ ـ على الدعاة أن يمارسوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفق ضوابطهما الشرعية لأن ذلك هو الذى يقاوم الفساد والباطل ، ويشيع الحق والعدل والخير .

٣ ـ معاداة اليهود والنصارى للمسلمين أمر فطرى فيهم ، ولن يزول حتى تقوم الساعة فلا مهادنة ولا استسلام لهما ، ولكن يجب معهم حسن من المعاملة مع الحذر والإعداد .

٤ ـ على الأمة ألا تخشى فساد اليهود ومكائدهم فإن الله عز وجل لابد أن يبعث عليهم جيلاً قرآنياً فريداً يوقفهم ويحطمهم ، فإن الله لا يحب الفساد ، وما لا يحبه الله يزيله ويعفى عليه .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

الحزب ١٢

معانى الكلمات :

أمة مقتصدة : معتدلة وهم من أسلم منهم

يعصمك : يحميك . **فلا تأس** : فلا تحزن .

الذين هادوا : رجعوا إلى الله . **الصابئون** : عبدة الكواكب . **ميثاق** : عهد .

بما تهوى أنفسهم : بما لا يحبون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أن من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً ، فإنه ينجو من عذاب الله ، ولا يخاف ولا يحزن .

٢ ـ بيان أن العمل بطاعة الله ـ عز وجل ـ سبب لسعة الرزق ، وأن الطاعات مفتاح لجميع أنواع السعادات .

٣ ـ بيان صفات اليهود وسلوكهم المقيت مع الرسل ودعاة الحق .

المحتوى التربوى :

تطرح هذه الآيات القاعدة الإيمانية الكبرى ـ قاعدة أن إقامة دين الله فى الأرض معناها الصلاح والكسب فى حياة المؤمنين فى هذه الدنيا وفى الآخرة على السواء ، لا افتراق بين دين ودنيا ، ولا افتراق بين دنيا وآخرة ، فهو منهج واحد للدنيا والآخرة ، للدنيا والدين .

تأتى هذه القاعدة الإيمانية عقب الحديث عن انحراف أهل الكتاب عن دين الله ، وأكلهم السحت ؛ وتحريفهم الكلم من بعد مواضعه لينالوا عرضاً من أعراض هذه الدنيا ، واتباع الدين كان أجدى وأنفع لهم فى الأرض والسماء فى الدنيا والآخرة لو أنهم اختاروا طريق الهدى .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لأهل الكتاب ـ ويصدق القول وينطبق على كل أهل الكتاب ـ إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ، ولأدخلهم جنات النعيم ـ وهذا جزاء الآخرة . وإنهم لو كانوا حققوا فى حياتهم الدنيا ، منهج الله المتمثل فى التوراة والإنجيل وما أنزل الله إليهم من التعليم لصلحت حياتهم الدنيا ، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق ، ولأكلوا من فوقهم ومن

تحت أرجلهم من فيض الرزق ، ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون منهج الله ـ إلا قلة منهم فى تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وتمضى الآيات فى بيان حال أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ـ وكشف الانحراف فيما يعتقدون ، وكشف السوء فيما يصنعون ، وينادى الله ـ سبحانه ـ الرسول ﷺ وكلفه تبليغ ما أنزل إليه من ربه ، كل ما أنزل لا يستبقى منه شيئاً ، ولا يؤخر منه شيئاً مراعاة للظروف والملابسات ، أو تجنبا للاصطدام بأهواء الناس ، وواقع المجتمع ، وإن لم يفعل فما يكون قد بلغ .

وأن يعلن كذلك كفر اليهود بنقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء وعليه أن يبلغ ولا يجعل لأى اعتبار من الاعتبارات حساباً وهو يصدع بكلمة الحق . وإلا فما بلغ وما أدّى وما قام بواجب الرسالة ، والله يتولى حمايته وعصمته من الناس ، ومن كان الله له عاصماً فماذا يملك له العباد المهازيل !

يقول صاحب الظلال : « إن كلمة الحق فى العقيدة لا ينبغى أن تجمجم! إنها يجب أن تبلغ كاملة فاصلة؛ وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء؛ وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل؛ فإن كلمة الحق فى العقيدة لا تملق الأهواء ؛ ولا تراعى مواقع الرغبات ، إنما تراعى أن تصدع حتى تصل إلى القلوب فى قوة وفى نفاذ .

وكلمة الحق فى العقيدة حين تصدع تصل إلى مكان القلوب التى يكمن فيها الاستعداد للهدى ، وحين تجمجم لا تلين لها القلوب التى لا استعداد فيها للإيمان ؛ وهى القلوب التى قد يطمع صاحب الدعوة فى أن تستجيب له لو داهنها فى بعض الحقيقة ! »

وكذلك كلف الله رسوله ﷺ أن يواجههم ـ اليهود والنصارى ـ بأنهم ليسوا على شىء من الدين والعقيدة والإيمان ، بل ليسوا على شىء أصلاً يرتكن عليه !

وتقريراً لذلك يخبر الله نبيه بأن كثيرًا من اليهود والنصارى يزيدهم ما يوحى الله تعالى إلى رسوله ، وما ينزل عليه فى كتابه من أخبار أهل الكتاب مما هو بيان لذنوبهم وضلالهم ، يزيدهم ذلك طغياناً وكفراً وعُلواً وعتواً فوق كفرهم ، ويأمر الله نبيه بألا ييأس ولا يحزن على عدم إيمانهم به وبما جاء به ، لأنهم قوم كافرون .

ثم يقرر أن الذين آمنوا وهم المسلمون ، والذين هادوا وهم اليهود ، والصابئون وهم الفئة التى تركت عبادة الأوثان قبل بعثة النبى ﷺ ، وعبدت الله وحده على غير نحلة معينة والنصارى وهم أتباع المسيح ﵇ كل هؤلاء أياً كانت نحلتهم إن آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً فقد نجوا ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ولا عليهم مما كانوا فيه قبل ذلك ؛ ولا مما يحملون من أسماء وعنوانات فالمهم هو العنوان الأخير وهو الإسلام لله رب العالمين .

وتأخذ الآيات بعد ذلك فى عرض طرف من تاريخ بنى إسرائيل ـ اليهود ـ يتجلى كيف أنهم ليسوا على شىء ؛ فلقد مردوا على العصيان والإعراض ، ومردوا على النكول عن ميثاق الله ؛ ومردوا على اتخاذ هواهم إلههم لا دين الله ، ولا هدى الرسل ؛ ومردوا على الإثم والعدوان على دعاة الحق وحملة دعوة الله ، فليس موقفهم من رسول الإسلام ﷺ ـ بالأول ولا بالأخير !

يقول صاحب الظلال :

« ولعله من أجل ذلك قص الله تاريخ بنى إسرائيل على الأمة المسلمة فى تفصيل وتطويل ، لعلها تتقى أن تكون كبنى إسرائيل ، ولعلها تحذر مزالق الطريق ، أو لعل الواعين منها الموصولين بالله يدركون هذه المزالق ؛ أو يتأسون بأنبياء بنى إسرائيل حين يصادفون ما صادفوا أجيالًا من ذرارى المسلمين تنتهى إلى ما انتهى إليه بنو إسرائيل ، حين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، فتحكم الهوى ؛ وترفض الهدى، وتكذب فريقاً من الدعاة إلى الحق ، وتقتل فريقاً ، كما صنع بغاة بنى إسرائيل ، فى تاريخهم الطويل ! » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ تبليغ دين الله لعباد الله واجب شرعى قام به النبى ﷺ ، ويجب أن يقوم به كل مسلم بعد النبى ﷺ لقوله تعالى ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

٢ ـ أن من كتم شيئاً من دين الله عن الناس وهو قادر على ابلاغه ، فكأنه كتم الدين كله ، وقعد عن واجب أوجبه الله تعالى عليه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ .

٣ ـ أن نثق فى تأييد الله ونصره وحفظه لدعاته مهما تعرضوا للخطر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وكما عصم الله نبيه ، سيعصم الدعاة إليه على حق من أعدائهم .

٤ ـ ليس على المسلمين إلا البلاغ ، وأما هداية الناس واستجابتهم للحق فإلى الله وحده ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ فقصر وظيفة النبى والدعاة على البلاغ لا الهداية .

٥ ـ إن الدنيا كلها إذا تحولت إلى كثرة ضالة وانكمشت القلة ، فأصبحت داعية واحداً ، فإن ذلك ما ينبغى أن يخدع من الحق ولا عن سنة الله فى خلقه ، وفى صراع الباطل مع الحق ، فجولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة.

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

معانى الكلمات :

عموا وصموا : فعموا عن رؤية الحق سماعه . **مأواه** : مرجعه ومصيره .

خلت : مضت . **أمة صديقة** : كثيرة الصدق مع الله . **أنى يؤفكون** : كيف يصرفون عن تدبر الدلائل البينة وقبولها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ تبرئة المسيح ﷺ وأمه مما نسب إليهما من أنهما إلهان من دون الله .

٢ ـ بيان كفر القائلين بأن الله هو المسيح أو أنه ثالث ثلاثة .

٣ ـ بيان طبيعة اليهود والنصارى؛ ليكون تعاملنا معهم على وفق ما جاء فى التنزيل الحكيم .

المحتوى التربوى :

يواصل سياق هذه الآيات الحديث عن بنى إسرائيل الذين صنعوا كل الآثام ؛ وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء ولن يأخذهم بالعقاب ؛ حسبوا هذا الحسبان غفلة منهم عن سنة الله ؛ وغرورًا منهم بأنه شعب الله المختار فطمس الله على أبصارهم فلا يفقهون مما يرون شيئاً ؛ وطمس على مسامعهم فلا يفيدون مما يسمعون شيئاً ، ثم أدركهم الله برحمته ، فلم يرعووا ولم ينتفعوا ﴿ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ والله مجازيهم بما يراه ويعلمه من أمرهم وما هم بمفلتين .

ذلك شأن اليهود من أهل الكتاب ، فأما شأن النصارى ، فلقد تحدثت عنهم الآيات قبل ذلك ، ووصفت الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم بالكفر ، وفى هذه الآيات يكرر هذا الوصف ، سواء لمن قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، ومن قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم مع ذكر شهادة عيسى ﷺ عليهم بالكفر ، وتحذيره لهم من وصف أحد بالألوهية إلا الله ـ سبحانه ـ واعترافه بأن الله هو ربه وربهم على السواء ، ثم تحذير الله لهم فى النهاية من المضى فيما هم عليه من الكفر .

وهكذا حذرهم المسيح ﷺ فلم يحذروا ، ووقعوا بعد وفاته عنهم فيما حذرهم من الوقوع فيه ، وما أنذرهم عليه من الحرمان من الجنة والانتهاء إلى النار ، ونسوا قول المسيح ﷺ ؛ حيث

أعلن لهم أنه وهم فى العبودية سواء ، لربوبية الله الواحد الذى ليس له من شركاء ، ويستوفى القرآن الكريم الحكم على سائر مقولاتهم الكافرة ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، ويقرر الحقيقة التى تقوم عليها كل عقيدة جاء بها رسول من عند الله ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾

ويهددهم عاقبة الكفر الذى ينطقون به ويعتقدونه ، ثم أردف التهديد والوعيد بالتحضيض والترغيب ، ليبقى لهم باب التوبة مفتوحاً ؛ وليطمعهم فى مغفرته عز وجل قبل فوات الأوان .

ثم واجههم بالمنطق الواقعى القويم ، لعله يرد فطرتهم إلى الإدراك السليم ، مع التعجب من أمرهم فى الانصراف عن هذا المنطق بعد البيان والإيضاح ، فأكل الطعام مسألة واقعية فى حياة المسيح وأمه ـ أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتى ـ فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها، ولا يكون إلهاً من يحتاج إلى الطعام ليعيش ، فالله حى بذاته ، قائم بذاته ، باق بذاته ، لا يحتاج ، ولا يدخل إلى ذاته ـ سبحانه ـ أو يخرج منها شىء حادث كالطعام.

ونظراً لوضوح هذا المنطق الواقعى ونصاعته التى لا يجادل فيها إنسان يعقل ، فإنه يعقب عليه باستنكار موقفهم والتعجب من انصرافهم عن ذلك المنطق البين ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ؛ واستطراداً فى ذلك المنطق القرآنى المبين من زاوية أخرى يأتى هذا الاستنكار : ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

يقول صاحب المنار : « أقام الله تعالى البرهان من حال المسيح وأمه على بطلان كونه إلها ، وبين ما يشاركان به أشرف البشر من المزية الخاصة ، وما يشاركان به سائر البشر من صفاتهم العامة ، وقضى على ذلك بالعجيب من بعد التفاوت ما بين قوة الآيات التى حججهم بها ، وشدة انصرافهم عنها ، ثم لقن نبيه حجة أخرى يوردها فى سياق الإنكار عليهم وتبكيتهم على عبادة ما لا فائدة فى عبادته : ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ .

ويقول صاحب الأساس : فى هذه الآية : « أتعبدون عيسى ! وهو لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلاء والمصائب فى الأنفس والأموال ، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسّعة والخصب ، لأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع ، فبتخليقه تعالى فكأنه لا يملك منه شيئًا ، وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبيّة حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً ، وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شىء لا يخرج مقدور عن قدرته ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أى : أتشركون بالله ولا تخشونه وهو الذى يسمع ما تقولونه ، ويعلم ما تعتقدونه ».

ويقول صاحب الظلال : « ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الذى يسمع ويعلم ، ومن ثم يضر وينفع . كما أنه هو الذى يسمع دعاء عبيده وعبادتهم إياه ، ويعلم ما تكنه صدورهم وما يكمن وراء الدعاء والعبادة . فأما ما سواه فلا يسمع ولا يعلم ولا يستجيب الدعاء » .

حقائق هامة من السياق :

- **الحقيقة الأولى :** الاهتمام البالغ بتصحيح التصور الاعتقادى للمسلمين ، وإقامته على قاعدة التوحيد الكامل يدل على اعتبار الإسلام للعقيدة بوصفها القاعدة والمحور لكل نشاط إنسانى ، ولكل ارتباط إنسانى كذلك .

- **الحقيقة الثانية :** هى تصريح القرآن الكريم بكفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ؛ أو قالوا إن الله ثالث ثلاثة : فلم يعد لمسلم - بعد قول الله سبحانه - قول ، ولم يعد يحق لمسلم أن يعتبر أن هؤلاء على دين الله ، والله سبحانه يقول : إنهم كفروا بسبب هذه المقولات .

إذا كان الإسلام - كما قلنا - لا يكره أحدًا على ترك ما هو عليه مما يعتقده لاعتناق الإسلام ، فهو فى الوقت ذاته لا يسمى ما عليه غير المسلمين دينا يرضاه الله ، بل يصرح هنا بأنه كفر ، ولن يكون الكفر دينا يرضاه الله .

- **الحقيقة الثالثة :** المترتبة على هاتين الحقيقتين ، أنه لا يمكن قيام ولاء وتناصر بين أحد من أهل الكتاب هؤلاء ، وبين المسلم الذى يدين بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام .

ومن ثم يصبح الكلام عن التناصر بين أهل « الأديان » أمام الإلحاد كلاما لا مفهوم له فى اعتبار الإسلام .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ - تقرير كفر النصارى بقولهم المسيح هو الله ، وبقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .

٢ - تقرير وتأكيد عبودية عيسى وأمه - عليهما السلام - لله رب العالمين .

٣ - تحريم الجنة على من لقى ربه ، وهو يشرك به شيئاً .

٤ - تقرير بشرية عيسى ومريم - عليهما السلام - بدليل احتياجهما إلى الطعام لقوام بنيتهما ، ومن كان مفتقراً لا تصح ألوهيته عقلاً وشرعاً .

٥ - ذم كل من يعبد غير الله إذ كل الخلائق مفتقرة لا تملك لنفسها ولا لعابدها ضرّاً ولا نفعاً ، ولا تسمع دعاء من يدعوها ، ولا تعلم عن حاله شيئاً ، والله وحده السميع لأقوال كل عباده، العليم بسائر أحوالهم وأعمالهم ، فهو المعبود بحق وما عداه باطل .

الجزء السادس | سورة المائدة

قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق
ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا
كثيرا وضلوا عن سواء السبيل (٧٧) لعن الذين
كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى
ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٧٨)
كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس
ما كانوا يفعلون (٧٩) ترى كثيرا منهم
يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم
أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون (٨٠)
ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه
ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون
(٨١) ۞ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود
والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين
آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم
قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٢)

١٢١

معانى الكلمات :

لا تغلوا : لا تجاوزوا الحد . غير الحق : غُلواً باطلاً . **لعن** : أبعد عن رحمة الله .

يعتدون : يتجاوزون الحد . **لا يتناهون** : لا ينهى بعضهم بعضاً . **يتولون الذين كفروا**: يتخذوهم أنصاراً . **قسيسين** : خطباؤهم وعلماؤهم . **رهبانا** : جمع راهب وهو العابد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية التوسط فى ، الدين فالإسلام دين الوسطية السمحة فلا مغالاة ولا تعسف ولا عسر فى دين الله عز وجل .

٢ ـ بيان أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والأخذ على أيدى الظالمين لنجاة المجتمع من الهلاك .

٣ ـ بيان حقيقة موقف اليهود والنصارى والذين أشركوا من الإسلام والمسلمين .

المحتوى التربوى :

يكلف الله نبيه فى هذه الآيات أن يوجه إلى أهل الكتاب دعوة جامعة ألا يغلوا فى دينهم غير الحق ، ولا يتبعوا أهواء الذين ضلوا ـ فمن الغلو فى تعظيم عيسى ﷺ جاءت كل الانحرافات ، ومن أهواء المجامع المتناحرة دخلت مقولات الكفر على دين الله الذى أرسل به المسيح .

قال الإمام الرازى : « إنه تعالى وصفهم بثلاث درجات فى الضلال : فبين أنهم كانوا ضالين من قبل ، ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم ، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى إنهم الآن ضالون كما كانوا ، ولا نجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقاب الله تعالى من هذه الحالة ، ويحتمل أن يكون المراد أنهم ضلوا وأضلوا ثم ضلوا بسبب اعتقادهم فى ذلك الإضلال أنه إرشاد إلى الحق ، ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الأول الضلال عن الدين ، وبالضلال الثانى الضلال عن طريق الجنة » .

وهذا النداء هو دعوة الإنقاذ الأخيرة لأهل الكتاب، ليخرجوا من هذا الغلو وهذه الأهواء، ثم يجيء ذلك التقرير الشامل عن موقف أنبياء بنى إسرائيل من كفار بنى إسرائيل على مدى التاريخ ، على لسان أنبيائهم ، فلقد لعنوا كفار بنى إسرائيل ، واستجاب الله لهم ، بسبب

عصيانهم وعدوانهم ، وسكوتهم على المنكر ينتشر فيهم فلا يتناهون عنه ، وبسبب توليهم الكافرين ؛ فباؤوا بالسخط واللعنة ، وكتب عليهم الخلود فى العذاب .

يقول القاسمى : « دلت الآية على المنع من الذرائع التى تبطل مقاصد الشرع ؛ كما رواه أكثر المفسرين أن الذين لعنهم داود عليه السلام أهل أيلة الذين اعتدوا فى السبت واصطادوا الحيتان فيه .. وتدل أن ترك النهى من الكبائر » .

وهكذا يبدو أن تاريخ بنى إسرائيل فى الكفر والمعصية واللعنة عريق . وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم ، وهم فى النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية الله فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بنى إسرائيل .

والمعصية والاعتداء الذى حفل بهما تاريخ بنى إسرائيل لم تكن أعمالاً فردية ، ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها ؛ وأن يسكت عنها المجتمع ، ولا يقابلها بالتناهى والنكير : ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ .

فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هى سكتت عليه ؛ ويجعل الأمانة فى عنق كل فرد ، بعد أن يضعها فى عنق الجماعة عامة . روى أبو داود ـ بإسناده ـ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ثم قال : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ فَٰسِقُونَ ﴾ ، ثم قال : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ـ أو تقصرنه عن الحق قصراً » .

فليس هو مجرد الأمر والنهى ، ثم تنتهى المسألة ، إنما هو الإصرار ، والمقاطعة ، والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء ، ولابد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة ، والنهى عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ، وبعد إقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان ! فلتوفر الجهود المبعثرة إذن ، ولتحشد كلها فى جبهة واحدة ، لإقامة الأساس الذى عليه وحده يقام البنيان !

ثم يمضى السياق فى الحديث عن بنى إسرائيل ، وهو نهاية هذا الجزء . فيصف حالهم على عهد رسول الله ﷺ وهى حالهم فى كل زمان وكل مكان ، فهم يتولون الذين كفروا ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة ، فلقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين ؛ ويؤلبونهم على المسلمين ، « ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » .

وقد تجلى هذا كله على أتمه فى غزوة الأحزاب ، ومن قبلها ومن بعدها كذلك ، إلى اللحظة الحاضرة ، وما قامت إسرائيل فى أرض فلسطين أخيراً إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين !

فسخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ، ويذكر الله الدافع لفعلهم هذا ، لأنهم لم يؤمنوا بالله والنبى وما أنزل إليه ، إن كثرتهم فاسقة ، فهم يتجانسون مع الذين كفروا فى الشعور والوجهة . فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين .

هنا انتهى الجزء السادس ، ويبدأ الجزء السابع بالحديث عن اليهود والنصارى والمشركين ومواقفهم من الرسول ﷺ ، ومن الأمة المسلمة وهى طرفٌ من الحديث الذى تضمنته السورة من قبل خلال أكثر من « ربعين » ، حيث تناولت الحديث عن فساد عقيدة اليهود والنصارى معاً، وسوء طوية اليهود وسوء فعلهم ، سواء مع أنبيائهم من قبل أو مع ﷺ ونصرة المشركين عليه، كما تناولت الحكم على عقيدة اليهود والنصارى التى انتهوا إليها بأنها « الكفر » لتركهم ما جاء فى كتبهم وتكذيبهم بما جاءهم به رسول الله ﷺ .

ويتواصل السياق مستكملاً الحديث عن اليهود والنصارى الذى سبق الحديث عنه آنفاً ، وهنا يقرر عداء اليهود لدولة الإسلام منذ نشأتها، والكيد لها ، فلقد شنوا حرباً مريرة من العداء المقيت والمكائد للإسلام فى تاريخه الطويل ولم تهدأ ولم تخب لحظة واحدة ، وما تزال حتى اللحظة يستعر أوارها فى أرجاء المعمورة .

وهذه الآيات ـ **كما يقول صاحب الظلال** : « تصور حالة ، وتقرر حكماً فى هذه الحالة . تصور حال فريق من اتباع عيسى عليه السلام : « الذين قالوا : إنا نصارى » وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا ، وهى حالة معينة لفئة من الناس يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم » .

ولكن السياق القرآنى لا يقف عند هذا الحد ، ولا يدع الأمر مجهلاً ومعمماً على كل من قالوا: إنا نصارى ، وإنما هو يمضى فيصور موقف هذه الفئة التى يعنيها ، وهو ما سنعرفه فيما سيلى من الآيات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ عدم المغالاة والتشدد والإفراط فى الدين بالباطل ، وضرورة الالتزام بالحق والصواب . وتبصير المغالين فى الدين بحقيقة الدين وجوهره ، وطبيعة التدين ووسطيته .

٢ ـ من المنكرات التى تعرض الأمم لعقاب الله ـ تعالى ـ وعذابه عدم نهى بعضهم بعضاً عن المنكر حتى يتفشى فى المجتمع ، ويتجاهر الناس بالمعاصى ، فيقع العقاب على الجميع .

٣ ـ على المؤمنين فى كل زمان ومكان أن يأخذوا كل الحذر من صفنين من الناس ولا يأمنوا لهم جانباً ، ولا يصدقوا لهم قولاً أو عهداً وهذان الصنفان هما اليهود والذين أشركوا .

٤ ـ أقرب الناس مودة للذين آمنوا هم النصارى الذين عرفوا حقيقة دين النصارى واتبعوا المسيح حق الاتباع وآمنوا برسول الله ﷺ لما عرفوا من الحق ، وليس أصحاب بدعة التثليث ، ولا الذين يقولون : إن الله هو المسيح ولا الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة .

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ
اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ
بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ
فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ
أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا
أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

معانى الكلمات :

تفيض من الدمع : تمتلئ أعينهم بالدمع فتصبه . **باللغو فى أيمانكم** : هو أن يحلف على الشىء معتقداً صدقه والأمر بخلاف ذلك . **عقدتم الأيمان** : قصدتم به الحلف ووثقتم ذلك بالقصد والنية . **أوسط** : أعدل وأمثل . **تحرير رقبة**:عتق عبد أو أمة.

احفظوا أيمانكم : لا تتركوها بغير تكفير .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حرمة تحريم ما أباح الله كحرمة تحليل ما حرم الله عز وجل .

٢ ـ بيان مدى حرص الصحابة على طاعة الله خوفاً من عقابه وطمعاً فى إنعامه.

٣ ـ بيان كفارة اليمين بالتفصيل .

المحتوى التربوى :

إن هذه الآيات تصور حالة فريق من أتباع عيسى عليه السلام : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾.. وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا ، ويرسم المشهد القرآنى وصفاً لهم ، إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ، ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن الأثر والتأثر العميق العنيف بالحق الذى سمعوه . والذى لا يجدون له فى أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير . ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ؛ ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذى تأثروا به هذا التأثير عند سماع القرآن ، والشعور بالحق الذى يحمله والإحساس بما له من سلطان ! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً ، موقف القبول لهذا الحق ، والإيمان به ، والإذعان لسلطانه ، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان فى لهجة قوية عميقة صريحة .

فيعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذى عرفوه ثم يدعونه ـ سبحانه ـ أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق ، وأن يسلكهم فى سلك أمة الإسلام القائمة عليه فى الأرض ، ليس هذا فحسب بل يتضح الطريق أمامهم ، بحيث لا يعودون يرون أنه يجوز لهم أن يمضوا إلا فى طريق واحد ؛ هو طريق الإيمان بالله ، وبالحق الذى أنزله على رسوله ، والأمل ـ بعد ذلك ـ فى القبول عنده والرضوان .

ولقد علم الله صدق قلوبهم وألسنتهم ؛ وصدق عزيمتهم على المضى فى الطريق ؛ وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذى دخلوا فيه ، لقد علم الله منهم هذا كله ؛ فقبل منهم قولهم ، وكتب لهم الجنة جزاء لهم ؛ وشهد لهم ـ سبحانه بأنهم محسنون ، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين .

ولا يقف السياق عند هذا الحد فى تحديد ملامح هذا الفريق المقصود من الناس الذين تجدهم أقرب مودة للذين آمنوا . بل إنه ليمضى فيميزه من الفريق الآخر من الذين قالوا : إنا نصارى ممن يسمعون هذا الحق فيكفرون به ويكذبون ، ولا يستجيبون له ، ولا ينضمون إلى صفوف الشاهدين .

وينتقل السياق ليتناول قضية الألوهية التى من مقتضاها التشريع ، فيقول عز وجل : يا أيها الذين آمنوا ، إن مقتضى إيمانكم ألا تزاولوا أنتم ـ وأنتم بشر عبيد لله ـ خصائص الألوهية التى يتفرد بها الله ، فليس لكم أن تحرموا ما أحل الله من الطيبات ؛ وليس لكم أن تمتنعوا ـ على وجه التحريم ـ عن الأكل مما رزقكم الله حلالاً طيباً ، فالله هو الذى رزقكم بهذا الحلال الطيب، والذى يملك أن يقول: هذا حلال وهذا حرام .

أخرج الترمذى ـ بإسناده ـ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: إنى إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء، وأخذتنى شهوتى، فحرمت علىّ اللحم ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ الآية .

ثم واجه الله هذه الحالة ـ وأمثالها ـ من الحلف على الامتناع عن المباح الذى آلى أولئك النفر عن أنفسهم أن يمتنعوا عنه ، فردهم رسول الله ﷺ عن الامتناع عنه ، وردهم القرآن الكريم عن مزاولة التحريم والتحليل بأنفسهم ، فهذا ليس لهم إنما هو لله الذى آمنوا به .

وقال ابن عباس فى نزول قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ الآية ، سبب نزولها : القوم الذين حرموا طيبات المطاعم والملابس والمناكح على أنفسهم حلفوا على ذلك ، فلما نزلت ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ قالوا : كيف نصنع بأيماننا « فنزلت هذه الآية » .

وقد تضمن الحكم أن الله ـ سبحانه ـ لا يؤاخذ المسلمين بأيمان اللغو ، التى ينطق بها اللسان دون أن يعقد لها القلب بالنية والقصد مع الحض على عدم ابتذال الأيمان بالإكثار من اللغوا بها إذ إنه ينبغى أن تكون لليمين بالله حرمتها ووقارها ، فلا تنطق هكذا لغواً ، فأما اليمين المعقودة ، التى وراءها قصد ونية ، فإن الحنث بها يقتضى الكفارة .

والكفارة هنا هى إطعام عشرة مساكين من أوسط الطعام الذى يقوم به الحالف لأهله أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ وهى الكفارة التى يُعاد إليها اليمين المعقودة عند عدم استطاعة الكفارات الأخرى ، والكفارة رد لاعتبار العقد المنقوض ، وحفظ للأيمان من الاستهانة بها ؛ وهى عقود ، وقد أمر الله ـ سبحانه ـ بالوفاء بالعقود . فإذا عقد الإنسان يمينه وكان هناك ما هو أبرّ فعل الأبر وكفر عن اليمين وإذا عقدها على غير ما هو من حقه كالتحريم والتحليل ، نقضها وعليه التكفير .

يقول صاحب الظلال : « ما أحله فهو الطيب ، وما حرمه فهو الخبيث وأن ليس للإنسان أن يختار لنفسه غير ما اختاره الله له من وجهين :

الوجه الأول : إن التحريم والتحليل من خصائص الله الرازق بما يجرى فيه التحليل والتحريم من الرزق ، وإلا فهو الاعتداء الذى لايحبه الله ، ولا يستقيم معه إيمان ..

والوجه الثانى : إن الله يحل الطيبات فلا يحرم أحد على نفسه تلك الطيبات التى بها صلاحه وصلاح الحياة ، فإن بصره بنفسه وبالحياة لن يبلغ علم الحكيم الخبير الذى أحل هذه الطيبات ولو كان الله يعلم فيها شرًا أو أذىً لوفاه عباده . ولو كان فى الحرمان منها خيرًا ماجعلها حلالًا . ولقد جاء هذا الدين ليحقق الخير والصلاح ، والتوازن المطلق ، والتناسق الكامل ، بين طاقات الحياة البشرية جميعًا ، فهو لا يغفل حاجة من حاجات الفطرة البشرية ، ولا يكبت طاقة بناءة من طاقات الإنسان تعمل عملًا سويًا ، ولا تخرج عن الجادة . ومن ثم حارب الرهبانية ، لأنها كبت للفطرة ، وتعطيل للطاقة وتعويق لها عن إنماء الحياة التى أراد الله لها النماء » .

ويبين السياق للذين يحرمون على أنفسهم ما أحله الله تعالى ، ويتخذون الأيمان ذريعة لذلك ، فيحلفون ألا يأكلوا أو ألا يأتوا النساء ، أو أن يقوموا الليل ويحرموا أنفسهم من متعة النوم وهكذا ، فبين الله تعالى تحلة هذه الأيمان ، وأنه يجب عليهم أو يسوغ لهم الحنث فى الأيمان ، ولغو اليمين الذى لا مؤاخذة عليه بنص القرآن ، هو ما لا يقصد به اليمين ، وما لا تكسبه القلوب ، ولا يوثق به الكلام بالامتناع عن الفل أو توكيد إيقاع الفعل فى المستقبل لا مؤاخذة عليه ، إنما المؤاخذة على ما تكسبه القلوب إذ حنث فى يمينه فعدل عما اعتزم عليه ، كمن يعدل على تحريم ما أحل الله .

وقد خير الحالف إذا حنث بين الأمور ثلاثة الإطعام لعشرة مساكين ، أو كسوتهم ، يختار إحداها ، وهو سيختار الأيسر عليه اقتداء بالنبى ﷺ ، فإذا لم يجد انتقل إلى الصوم ، وهذا ماحى إثم اليمين وقد شرعه الله لكم رجاء أن تشكروه إذا خفف عليكم وسهل لكم فعل الخير ، وحفظ الأيمان يتحقق بألا يكثر منها ، وألا يمتنع عن الخير بالحلف .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن المسلم مطالب بالالتزام بما أحل وما حرم ، وبالتوازن فى التعامل مع ما أحل الله وما حرم ، فليس من التقوى ولا من الصلاح أن يضيّق إنسان على نفسه فيحرم عليها التمتع بطيبات ما أحل الله ، لأن التحليل والتحريم من عمل الله سبحانه وتعالى ؛ لعلمه ما يصلح الإنسان وما قد يفسده فى حاضره أو مستقبله .

٢ ـ استحباب حنث من حلف على ترك مندوب أو فعل مكروه ، وتكفيره على ذلك ، أما إذا حلف أن يترك واجبًا أو يأتى محرمًا فإن حنثه وجب وعليه الكفارة .

٣ ـ من رحمة الله بالناس أن جاءت الشريعة الإسلامية بالتسامح فى الأقوال والأعمال من غير تقصير ، ورفعت عن الإنسان المؤاخذة والحرج إلا أن يكون قد تعمد التقصير : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ﴾ .

الجزء السابع — سورة المائدة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ
مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ
وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ
﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ
أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ
وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ
يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ
مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا
سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

١٢٣

معانى الكلمات :

الخمر : كل شراب مسكر .

الميسر : القمار . **الأنصاب**: حجارة كانت حول الكعبة يعظمونها ويتقربون إليها. **الأزلام**: قداح كانوا يستخدمونها للتفاؤل والتشاؤم .

رجس : خبيث وقذر . **جُناح** : إثم وحرج .

أنتم حُرم : محرمون بحج أو عمرة .

النعم : الإبل والبقر والضأن والمعز .

بالغ الكعبة : واصل الحرم فيذبح به .

عدل ذلك : معادل الطعام وقابله .

وبال أمره: سوء عاقبة ذنبه وثقل فعله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان علة تحريم شرب الخمر ولعب الميسر وهى إثارة العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

٢ ـ وجوب طاعة الله والرسول والحذر من معصيتهما .

٣ ـ وجوب التقوى حتى الموت ووجوب الإحسان فى المعتقد والقول والعمل .

المحتوى التربوى :

فى سياق التشريع بالتحريم والتحليل يجيء النص القاطع الأخير فى تحريم الخمر والميسر مقرونين إلى تحريم الأنصاب والأزلام . أى إلى الشرك بالله ؛ فشرب الخمر ، واللعب بالقمار ، والتماثيل المنصوبة من أجل عبادة غير الله، أو لذبح القرابين وتقديم النذور عندها باسم أحد غير الله تعالى ، والاستقسام بالأزلام ـ بمعنى التفاؤل والتشاؤم وضرب القرعة التى تشتمل على طلب المعونة من غير الله ـ كل ذلك أعمال شيطانية ؛ ذلك لأنها تؤدى إلى التدنى والانحدار عن المستوى العقلى والسلوكى .

فالخمر تقضى بدورها على ما يوجد فى نفس المرء من أحاسيس إنسانية لطيفة ، وأما القمار فقاتل لروح الإيثار والتعاون ، وهكذا الأنصاب والأزلام فهى من جملة أشياء تقوم إماً على عواطف سطحية ، وإما على أوهام وأساطير خرافية !!

إن الإسلام يريد الإنسان ذاكراً لله وعابداً له تعالى وحده ، وأن يُلزم نفسه بطاعة الله وطاعة رسوله ، وهذه أمور لابد للقيام بها من أن يكون المرء من الجدية بمكان ؛ على حين أن أوّل ما نقضى عليه الأشياء السالفة الذكر هو الجدّية بعينها !

ولما نزلت هذه الآيات قال بعض المشككين الذين يهدفون إلى البلبلة والحيرة ، هذا القول أو ما يشبهه ؛ يريدون أن ينشروا فى النفوس قلة الثقة فى أسباب التشريع ، أو الشعور بضياع إيمان من ماتوا والخمر لم تحرم ؛ وهى رجس من عمل الشيطان ، ماتوا والرجس فى بطونهم ! فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ الآية . نزلت لتقرر أولاً أن ما لم يُحرم لا يحرم ؛ وأن التحريم يبدأ من النص لا قبله ؛ وأنه لا يحرم بأثر رجعى ؛ فلا عقوبة إلا بنص ؛ سواء فى الدنيا أو فى الآخرة . لأن النص هو الذى ينشئ الحكم .. والذين ماتوا والخمر فى بطونهم ، وهى لم تحرم بعد ، ليس عليهم جُناح ؛ فإنهم لم يتناولوا محرماً ، ولم يرتكبوا معصية . لقد كانوا يخافون الله ويعملون الصالحات ويراقبون الله ، ويعلمون أنه مطلع على نواياهم وأعمالهم ، ومن كانت هذه حاله لا يتناول محرماً ولا يرتكب معصية .

قال ابن جرير الطبرى معلقاً على قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ الآية : « الاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقى أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل ، والاتقاء الثانى الاتقاء بالثبات على التصديق ، والثالث الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل .

ثم يمضى السياق فى مجال التحريم والتحليل ، يتحدث عن الصيد فى حالة الإحرام ، وكفارة قتله ، وعن حكمة الله فى تحريم البيت والأشهر الحرم والهدى والقلائد ، التى نهى عن المساس بها فى مطالع السورة وكان هذا النهى عن إحلال الصيد وهم حرم ؛ وعن إحلال شعائر الله ، أو الشهر الحرام أو الهدى والقلائد ، أو قاصدى البيت الحرام ، لا يرتب عقوبة فى الدنيا على المخالف ، إنما يلحقه الإثم ، فالآن يبين العقوبة وهى الكفارة ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ ويعلن العفو عما سلف من إحلال هذه المحارم ؛ ويهدد بانتقام الله ممن يعود بعد هذا البيان .

ويقول صاحب التذكير القويم [1] : « ومن أركان الحج والعمرة أن يرتدى الحاج أو المعتمر ملابس الإحرام الخاصة عند حدود الميقات المقررة ، قبل التوّجه إلى الكعبة ، وفى أثناء رحلته نحو الكعبة كثيراً ما يشاهد المُحرمْ حيوانات البر والطيور وهى تقع فى متناول يده ، ويكون

---

(١) الأستاذ وحيد الدين خان .

اقتناصها فى غاية السهولة ، غير أن اقتناصها ، سواء أقام به المرء بنفسه أم ساعد غيره عليه ، كلاهما محظور ومحرّم فى حالة الإحرام ، وقد نزلت هذه الآيات ـ كما جاء فى الروايات ـ خلال مسيرة الحديبية ، إذا كان المسلمون مُحرمين بقصده العمرة ، وكانت أسراب الطيور والحيوانات البرية إذْ ذاك تمر من أمامهم ، فكان من السهولة اقتناصها بالسهام أو طعنها بالرماح ، وكان المسلمون يطعمون ـ فى ذلك الوقت ـ فى الاصطياد بحكم عادتهم وضرورتهم معاً ، ولكن حين نزل الحكم الإلهى بالتحريم ، أمسك الجميع أيديهم عن ذلك ، وهذا الحكم الذى ورد بشأن معاملة الحيوانات فى حالة الإحرام مطلوب عند التعامل مع الناس فى الحياة اليومية ، والمقصد الأصلى من هذا الحكم هو : (ليعلم الله من يخافه بالغيب) ، فقد وضع الله الإنسان فى هذه الدنيا، وارتفع بذاته المقدسة عن مواقع أبصاره ؛ ذلك لكى يختبر الناس ، فيتميز منهم البصير العارف بالحقيقة الذى يعيش فى الدنيا كما لو كان يرى الله تعالى متجليا أمامه بكل قدرته وجلاله وجبروته ، عن الغافل المستهتر منهم ، الذى يخلو قلبه من خوف الله ؛ لأنه لا يراه بعينه ، فيقضى حياته تبعاً لأهوائه ونزواته ، وهذا الاختبار الذى يجرى فى رحلة الحج لبضعة أيام مع اهتمامات بالمعاملات والعلاقات الإنسانية المتبادلة كل يوم ، فقد يصادف أحد الناس بعض خصومه فى موطن يتمكن فيه من أن يسطو به ويجهز عليه ، أو يلحق به خسارة مالية فادحة ، أو يهتك ستره ويشوه سمعته ، إلخ ، ففى مثل هذا الموطن ينقسم الناس إلى نوعين : نوع يشعر بمخافة الله ، فلا يستخدم يده ولسانه ضد خصمه رغم تمكنه منه وتمام قدرته عليه ، والنوع الآخر الذى حين تسنح له فرصة التغلب على أحد يوماً يهينه ، ويتخذ منه عرضة أو ضحية لقهره واضطهاده ، وقد أثبت أول هذين أنه يخاف الله بالغيب ، بينما الآخر أثبت عكس ذلك تماماً ، وإن للأول عند الله نعماً كثيرة لا تُحصى ، وإنّ للأخير عذاباً أليماً لا يُطاق !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ روى الإمام أحمد بسنده عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة ، إن مات ، مات كافراً وإن تاب تاب الله عليه ـ وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبـال » قالت : فقلت : يارسول الله وما طينة الخبال ؟ قال: « صديد أهل النار » .

٢ ـ المؤمن معَّرض دائماً لأن يختبره ربه بالنعم كما يختبره بالنقم ليعلم الله ـ وهو بكل شىء عليم ـ من يخافه بالغيب ، حيث لا رقيب على المسلم إلا نفسه ، ومدى مراقبته لله رب العالمين .

٣ ـ على المؤمن أن يتقى الله فى كل شىء ، ويجتهد فى الوصول لمرتبة الإحسان فى المعتقد شديد العقاب . لمن أصر على المعصية ، ولا يظلم ربك أحداً .

٤ ـ الله سبحانه وتعالى ـ غفور رحيم لمن زلت قدمه ، فتاب وأناب ، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ شديد العقاب ، لمن أصر على المعصية ، ولا يظلم ربك أحدًا .

أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴿٩٦﴾ ۞ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم ﴿٩٧﴾ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴿٩٨﴾ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴿٩٩﴾ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴿١٠٠﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم ﴿١٠١﴾ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴿١٠٢﴾ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴿١٠٣﴾

ربع الحزب ١٣

معانى الكلمات :

للسيارة : المسافرين . **قياماً للناس** : انتعاشاً لهم وقواماً لصالحهم

القلائد : ما يوضع علامة للهدى فى عنقه .

بحيرة : الناقة تشق أذنها وتترك للمعبودات فلا تركب .**سائبة** : الناقة تسيب للأصنام لتشفى من مرض .

وصيلة : الناقة تترك للأصنام إذا كان أول ولادتها أنثى . **حام** : الفحل لا يركب يحمل عليه إذ لقح ولد ولده .

الأهداف الإجرائية والسلوكية

١ ـ بيان عظيم تدبير الله تعالى لخلقه ، إذ جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً .

٢ ـ بيان مسؤولية الرسول ﷺ إزاء الناس ، وأنها بلاغ لا غير ، وأنه قد أدى الرسالة ، وبلغ الأمانة ﷺ .

٣ ـ بيان أهمية الأمر بالتقوى رجاء فلاح المتقين .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق مواصلا بيان المحرمات ، وما أحل من الصيد ، فصيد البحر حلال فى الحل والإحرام ، فحيوان البحر حلال صيده وحلال أكله للمحرم ولغير المحرم سواء ، ولما ذكر حل صيد البحر وطعامه ، عاد فذكر حرمة صيد البر للمحرم ، والذى عليه الإجماع هو حرمة صيد البر للمحرم . كما أن هناك خلافاً حول المعنّى بالصيد . وهل هو خاص بالحيوانات التى تصاد عادة . أم النهى شامل لكل حيوان ، ولو لم يكن مما يصاد ومما لا يُطلق عليه لفظ الصيد ، ويختم هذا التحليل وهذا التحريم باستجاشة مشاعر التقوى فى الضمير ؛ والتذكير بالحشر إلى الله والحساب .

ويقول صاحب الظلال : « لقد جعل الله هذه الحرمات تشمل الإنسان والطير والحيوان والحشرات بالأمن فى البيت الحرام وفى فترة الإحرام بالنسبة للمحرم ، حتى وهو لم يبلغ الحرم ، كما جعل الأشهر الحرم الأربعة التى لا يجوز فيها القتل ولا القتال وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثم رجب ، ولقد ألقى الله فى قلوب العرب ـ حتى فى جاهليتهم حرمة هذه الأشهر ، فكانوا لا يروعون فيها نفساً ، ولا يطلبون فيها دماً ، ولا يتوقعون فيها ثأراً ، حتى كان الرجل

يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه ، فكانت مجالاً آمناً للسياحة والضرب فى الأرض وابتغاء الرزق ، جعلها الله كذلك ؛ لأنه أراد للكعبة ـ بيت الله الحرام ـ أن تكون مثابة أمن وسلام ، تقيم الناس وتقيهم الخوف والفزع .

كذلك جعل الأشهر الحرم لتكون منطقة أمن فى الزمان كالكعبة منطقة أمن فى المكان ، ثم مد رواق الأمن خارج منطقة الزمان والمكان ، فجعله حقاً للهدى وهو النعم الذى يطلق ليبلغ الكعبة فى الحج والعمرة ، فلا يمسة أحد فى الطريق بسوء ـ كما جعله لمن يتقلد من شجر الحرم ، معلناً احتماءه بالبيت العتيق .

وينتهى الحديث عن الحلال والحرام فى الحل والإحرام بالتحذير صراحة من العقاب مع الإطماع فى المغفرة والرحمة، ثم تختم الفقرة بميزان يقيمه الله للقيم ، ليزن به المسلم ويحكم ، ميزان يرجح فيه الطيب من الخبيث كى لا يخدع الخبيث المسلم بكثرته فى أى وقت وفى أى حال .

بعد ذلك يتجه السياق إلى شىء من تربية الجماعة المسلمة وتوجيهها إلى الأدب الواجب مع رسول الله ﷺ وعدم سؤاله عما لم يخبرها به ، مما لو ظهر لساء السائل وأحرجه أو ترتب عليه تكاليف لا يطيقها ، أو ضيق عليه فى أشياء وسّع الله فيها أو تركها بلا تحديد رحمة بعباده .

وفى حديث مرسل رواه الترمذى والدارقطنى عن على عليه السلام : قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران ٩٧) قالوا : يارسول الله أفى كل عام ؟ فسكت : فقالوا : أفى كل عام ؟ قال : « لا : لو قلت نعم ، لوجبت » فأنزل الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

لذلك نهى الله الذين آمنوا أن يسألوا عن أشياء يسؤوهم الكشف عنها ؛ وأنذرهم بأنهم سيجابون عنها إذا سألوا فى فترة الوحى فى حياة رسول الله ﷺ وستترتب عليهم تكاليف عفا الله عنها فتركها ولم يفرضها . ثم ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ـ من أهل الكتاب ـ ممن كانوا يشدون على أنفسهم بالسؤال عن التكاليف والأحكام ، فلما كتبها الله عليهم كفروا بها ولم يؤدوها ، ولو سكتوا وأخذوا الأمور باليسر الذى شاءه الله لعباده ما شدد عليهم ، وما احتملوا تبعة التقصير والكفران .

وفى الصحيح : « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرّم أشياء فلا تنتهكوها. وسكت عن أشياء رحمة بكم ـ غير نسيان ـ فلا تسألوا عنها » .

ثم ينتقل السياق ليتحدث عن عادات الجاهلية الباطلة، ويقرر أن الله لم يشرع هذه الطقوس، لم يشرع البحيرة ولا السائبة ولا الوصيلة ولا الحامى ، فمن ذا الذى شرعها إذن لهؤلاء الكفار ؟! والذين يتبعون ما شرعه غير الله هم كفار ، كفار يفترون على الكذب ، مرة يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون : شريعة الله ، ومرة يقولون : إننا نشرع لأنفسنا ، ولا ندخل شريعة الله فى

أوضاعنا ، ونحن مع هذا لا نعصى الله ، وكله كذب على الله : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا الدين جد . وقد جاء ليحكم الحياة ، جاء ليعبد الناس لله وحده ، وينتزع من المغتصبين لسلطان الله هذا السلطان ، فيردوا الأمر كله إلى شريعة الله ، لا إلى شرع أحد سواه ، وجاءت هذه الشريعة لتحكم الحياة كلها ؛ ولتواجه بأحكام الله حاجات الحياة الواقعية وقضاياها ، ولتدلى بحكم الله فى الواقعة حين تقع بقدر حجمها وشكلها وملابساتها .

ولم يجئ هذا الدين ليكون مجرد شارة أو شعار ؛ ولا لتكون شريعته موضوع دراسة نظرية لا علاقة لها بواقع الحياة ولا لتعيش مع الفروض التى لم تقع ، وتضع لهذه الفروض الطائرة أحكاماً فقهية فى الهواء !

هذا هو جد الإسلام . وهذا هو منهج الإسلام . فمن شاء من « علماء » هذا الدين أن يتبع منهجه بهذا الجد فليطلب تحكيم شريعة الله فى واقع الحياة ، أو على الأقل فليسكت عن الفتوى والقذف بالأحكام فى الهواء ! » .

قال السيوطى فى الإكليل : « قولهتعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ ﴾ الآية ، فيه تحريم هذه الأمور واستنبط منه تحريم جميع تعطيل النافع ، ومن صور المسائبة إرساله الطائر ونحوه ، واستدل ابن الماجشون بالآية على منع أن يقول لعبده أنت السائبة وقال : لا ، يعتق » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فى الحرم منافع كثيرة للناس فى الدين والدنيا ، ويحل للمحرمين بالحج والعمرة صيد البحر ، ويحرم عليهم صيد البر .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ علمه محيط بكل شىء ، ويجب على المؤمن ألا ييأس من رحمة الله ، وأن يخاف عقابه .

٣ ـ التحذير من كثرة السؤال عمّا لا ينفع فى الدين ، وكراهية الإلحاف فى السؤال ، والتقعر فى الأسئلة ، والتنطع فيها .

ـ وهذه الأشياء المنهى عن السؤال عنها ، صنفها العلماء أصنافاً ثلاثة هى :

* أشياء من أمور الدين ودقائق التكاليف .

* الأمور الغيبية والأسرار الخفية المتعلقة بالأعراض .

* الأشياء التى يكون السؤال عنها سبباً فى المساءلة ، إما بشدة التكاليف وكثرتها ، وإما بظهور حقائق تفضح أهلها.

٤ ـ حق التشريع والتحليل والتحريم لله وحده لا يشاركه فى ذلك أحد .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

معانى الكلمات :

حسبنا : كافينا . **عليكم أنفسكم** : الزموها واحفظوها من المعاصى . **ضربتم فى الأرض** : سافرتم فيها . **لا نشترى به ثمناً** : لا نأخذ بحلفنا الكاذب متاعاً . **الأوليان** : الأقربان إلى الميت الوارثان له . **ما اعتدينا** : ما تجاوزنا الحد . **الفاسقين** : الخارجين عن طاعة الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان وجوب إصلاح المؤمن نفسه وتطهيرها من آثار الشرك والمعاصى وذلك بالإيمان والعمل الصالح .

٢ ـ بيان أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٣ ـ بيان وجوب الوصية والإشهاد عليها .

المحتوى التربوى :

تقرر هذه الآيات إن ما شرعه الله بين . وهو محدد فيما أنزل الله ومبين بما سنه رسوله وهذا هو المحك ، وهذه هى النقطة التى يفترق فيها طريق الجاهلية وطريق الإسلام ، فإما أن يدعى الناس إلى ما أنزل الله بنصه وإلى الرسول ببيانه فيلبوا ، فهم إذن مسلمون وإما أن يدعوا إلى الله والرسول فيأبوا ، فهم إذن كفار ، ولا خيار .

وتمضى الآيات بعد تقرير حال الذين كفروا ؛ إلى الذين آمنوا ويقرر حالهم بانفصالهم وتميزهم ، ويبين لهم تكاليفهم وواجبهم ؛ ويحدد لهم موقفهم ممن سواهم ؛ ويكلهم إلى حساب الله وجزائه لا إلى أى مغنم فى هذه الأرض أو مأرب ، ويقرر مبادئ أساسية فى طبيعة الأمة المسلمة ، وفى طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى .

يقول صاحب الظلال : « إن الأمة المسلمة هى حزب الله ، ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان . ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن، لأنه لا اشتراك فى عقيدة؛ ومن ثم لا اشتراك فى هدف أو وسيلة ؛ ولا اشتراك فى تبعة أو جزاء . وعلى الأمة المسلمة أن

تتضامن فيما بينها ؛ وأن تتناصح وتتواصى ، وأن تهتدى بهدى الله الذى جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها . ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئاً أن يضل الناس حولها ما دامت هى قائمة على الهدى .

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها فى دعوة الناس كلهم إلى الهدى . والهدى هو دينها هى وشريعتها ونظامها . فإذا هى أقامت نظامها فى الأرض بقى عليها أن تدعو الناس كافة . وأن تحاول هدايتهم ، وبقى عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم ؛ ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التى منها أخرجتهم .

إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت ، لا يعنى أنها غير محاسبة على التقصير فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما بينها أولاً ؛ ثم فى الأرض جميعاً . وأول المعروف الإسلام لله ، وتحكيم شريعته ؛ وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته . وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت والطاغوت هو كل سلكان غير سلطان الله وحكمه ، والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولاً ؛ وعلى البشرية كلها أخيراً .

روى أصحاب السنن أبا بكر ﷺ قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :« إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه ، يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه » .

وهكذا صحح الخليفة الأول ﷺ ما ترامى إلى وهم بعض الناس فى زمانه من هذه الآية الكريمة . ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح ، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق ، فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذى يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقة ، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه !

ثم تتحدث الآيات عن الحكم الأخير من الأحكام الشرعية التى تتضمنها السورة ، فى بيان بعض أحكام المعاملات فى المجتمع المسلم ، وهو الخاص بتشريع الإشهاد على الوصية فى حالة الضرب فى الأرض ، والبعد عن المجتمع . والضمانات التى تقيمها الشريعة ليصل الحق إلى أهله.

وبيان هذا الحكم الذى تضمنته الآيات الثلاث : أن على من يحس بدنو أجله ، ويريد أن يوصى لأهله بما يحضره من المال ، أن يستحضر شاهدين عدلين من المسلمين إن كان فى الحضر ، ويسلمها ما يريد أن يسلمه لأهله غير الحاضرين . فأما إذا كان ضارباً فى الأرض ولم يجد مسلمين يشهدهما ويسلمهما ما معه ، فيجوز أن يكون الشاهدان من غير المسلمين .

فإن ارتاب المسلمون ـ أو ارتاب أهل الميت ـ فى صدق ما يبلغه الشاهدان وفى أمانتهما فى أداء ما استحفظا عليه ، فإنهم يوقفونها بعد أدائهما للصلاة ـ حسب عقيدتهما ـ ليحلفا بالله ، أنهما لا يتوخيان بالحلف مصلحة لهما ولا أحد آخر ، ولو كان ذا قربى ، ولا يكتمان شيئاً مما استحفظا عليه .. وإلا كانا من الآثمين .. وبذلك تنفذ شهادتهما .

فإذا ظهر بعد ذلك أنهما ارتكبا إثم الشهادة الكاذبة واليمين الكاذبة والخيانة للأمانة ، قام أولى اثنين من أهل الميت بوراثته ، من الذين وقع عليهم هذا الإثم ، بالحلف بالله أن شهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين . وأنهما لم يعتديا بتقريرهما هذه الحقيقة وبذلك تبطل شهادة الأولين ، وتنفذ الشهادة الثانية .

ثم يقول النص : إن هذه الإجراءات أضمن فى أداء الشهادة بالحق أو الخوف من رد أيمان الشاهدين الأولين ، مما يحملهما على تحرى الحق . ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ .

وينتهى إلى دعوة الجميع إلى تقوى الله ، ومراقبته وخشيته ، والطاعة لأوامره ، لأن الله لا يهدى من يفسقون عن طريقه ، إلى خير ولا إلى هدى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن المسلم مطالب بأن يلزم نفسه إصلاح نفسه وتزكيتها بما شرع الله له ، وهو مسؤول عن ذلك أمام الله ومحاسب عليه ، فإن ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ تعنى : الزموا إصلاح أنفسكم .

٢ ـ المسلم المهتدى الذى لا يضره الضالون من الناس ، هو المسلم الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجاهد فى سبيل الله ؛ لأن ذلك من أصول الهداية . ولا يكون الإنسان مهدياً وهو لا يدعو إلى الخير ولا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر .

٣ ـ نتعلم من الآيات أن مرجع الناس جميعاً إلى الله يوم القيامة يوم الحساب والجزاء ، فليضع كل امرئ نفسه فى المكان الذى يريد .

٤ ـ الحث على الوصية وتأكيدها ؛ لأن الموت قريب من كل أحد ، ولا يجوز التشاغل عنها بالسفر ونحوه أو السكوت عنها فى السفر إذا لم يجد مسلمين يشهدان .

٥ ـ وجوب الإشهاد على الوصية .

٦ ـ يجوز شهادة غير المسلم على الوصية إذا تعذر وجود مسلم .

الجزء السابع — سورة المائدة

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

١٢٦

معانى الكلمات :

أيدتك : قويتك . **بروح القدس** : جبريل عليه السلام . **فى المهد** : فى زمن الرضاعة قبل أوان الكلام . **كهلا** : حال اكتمال القوة .

تخلق : تصور وتقدّر . **الأكمه** : الأعمى بالخلقة . **كففت** : دفعت وصرفت .

بالبينات : بالمعجزات الواضحات .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان شدة أهوال يوم القيامة وصعوبة الموقف فى عرصات القيامة .

٢ ـ بيان إكرام الله تعالى لعيسى وما حباه من الفضل والنعم .

٣ ـ ثبوت معجزات عيسى عليه السلام وتقريرها .

٤ ـ أن نستعد ليوم القيامة وهوله بتقوى الله عز وجل .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يواصل السياق تصحيح العقيدة ؛ وتقويم ما دخل عليها عند النصارى من انحرافات أخرجتها من أصلها السماوى عند قاعدتها الأساسية ، وتصور الآيات مشهدًا من مشاهد يوم القيامة : يوم يجمع الله الرسل الذى فرقهم فى الزمان فتتابعوا على مداره ؛ وفرقهم فى المكان فذهب كل إلى قريته ؛ وفرقهم فى الأجناس فمضى كلٌ إلى قومه ، يدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام ، حتى جاء خاتمهم ﷺ بالدعوة الواحدة لكل زمان ومكان وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ : فلقد دعوا أقوامهم إلى الهدى ؛ فاستجاب منهم من استجاب ، وتولى منهم من تولى ، وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى ؛ لذا فهم ـ أى الرسل ـ يعلنون أن العلم الحق لله وحده ؛ وأن ما لديهم من علم لا ينبغى أن يدلوا به فى حضرة صاحب العلم ، وتأدباً وحياء، ومعرفة بقدرهم فى حضرة الله .

ويلتفت الخطاب إلى عيسى ابن مريم وحده ؛ لأنه هو الذى فُتن قومه فيه ، وهو الذى خاض ناس فى الأوهام والأساطير حول ذاته ، وحول صفاته ، وحول نشأته ومنتهاه ويلتفت إليه

ويذكر نعمة الله عليه وعلى والدته ؛ ويستعرض المعجزات التى آتاها الله إياه ليصدق الناس برسالته ، فكذبه من كذبه منهم أشد التكذيب وأقبحه ؛ وفتن به وبالآيات التى جاءت معه من فتن ؛ وألَّـهوه مع الله من أجل هذه الآيات ، وهى كلها من صنع الله الذى خلقه وأرسله وأيده بالمعجزات .

يقول الإمام محمد أبى زهرة فى زهرة التفاسير : « ذكر سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام فى ذلك اليوم المحشود ، وما كان التذكير إلا للمبطلين الذين افتروا عليه ، وهو سرد لنعم الله ـ تعالى ـ على عيسى وأمه ، وأنه مخلوق من فضل الله ، وما أعطى من خواص فبفضل من الله تعالى ، وهو مانحها ومعطيها ، وما دام هو المانح ، وهو المعطى ، فلا فضل لعيسى على أحد إلا بفضل من أعطى ، ولا يمكن أن يكون له ولدًا أو قرينا » .

وقال القاسمى : « وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان .. لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعيت عليهم فى السورة » .

إنها المواجهة بما كان من نعم الله على عيسى ابن مريم وأمه ، من تأييده بروح القدس فى مهده، وهو يكلم الناس فى غير موعد الكلام ؛ ليبرئ أمه من الشبهة التى أثارتها ولادته على غير مثال ؛ ثم وهو يكلمهم فى الكهولة يدعوهم إلى الله ، وروح القدس جبريل عليه السلام يؤيده هنا وهناك ، ومن تعليمه الكتاب والحكمة ؛ وقد جاء إلى هذه الأرض لا يعلم شيئاً ، فعلمه الكتاب وعلمه كيف يُحسن تصريف الأمور ، كما علّمه التوراة التى جاء فوجدها فى بنى إسرائيل ، والإنجيل الذى آتاه إياه مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، ثم من إيتائه خارق المعجزات التى لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله ، فإذا هو يصور من الطين كهيئة الطير بإذن الله ؛ فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ـ لا ندرى كيف ؛ لأننا لا ندرى إلى اليوم كيف خلق الله الحياة ، وكيف يبث الحياة فى الأحياء ـ وإذا هو يبرئ المولود أعمى ـ بإذن الله ـ حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر ـ ولكن الله الذى يهب البصر أصلاً قادر على أن يفتح عينيه للنور ـ ويبرئ الأبرص بإذن الله ، لا بدواء ـ والدواء وسيلة لتحقيق إذن الله فى الشفاء ، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة ، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة وإذا هو يحيى الموتى بإذن الله ـ وواهب الحياة أول مرة ، مرة قادر على رجعها حين يشاء .

ثم يذكره بنعمة الله عليه فى حمايته من بنى إسرائيل ، إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبين ! ذلك أنهم لم يستطيعوا إنكار وقوعها ـ وقد شهدتها الألوف ـ ولم يريدوا التسليم بدلالتها عنادًا وكبرًا .. حمايته منهم فلم يقتلوه ـ كما أرادوا ولم يصلبوه ، بل توفاه الله ورفعه إليه ، كذلك يذكره بنعمة الله عليه فى إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله ، فإذا هم ملبون مستسلمون يشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « إنها النعم التى آتاها الله عيسى ابن مريم ، لتكون له شهادة وبينة ، فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ ؛ وتصوغ منها وحولها الأضاليل ـ فها هو ذا عيسى يواجه بها على مشهد من الملأ الأعلى ، ومن الناس جميعاً ، ومنهم قومه الغالون فيه ، ها هو ذا يواجه بها ؛ ليسمع قومه ويروا ؛ وليكون الخزى أوجع وأفضح على مشهد من العالمين !

ويستطرد السياق فى معرض النعم والآيات الواضحات على عيسى ابن مريم وأمه ـ عليهما السلام ـ إلى شىء من نعمة الله على قومه ، ومن معجزاته التى أيده الله بها وشهدها وشهد بها الحواريون ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً ﴾ الآية .

يقول صاحب الظلال : « ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى المستخلصين منهم وهم الحواريون ، فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد ، إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى ، فآمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم ، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا ، يطلبون خارقة جديدة، تطمئن بها نفوسهم ويعلمون منها أنه صدقهم ، ويشهدون بها له لمن وراءهم » .

فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم ، لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان ، ولقد صدقوا رسولهم ، فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان ، ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن .

هذا هو الفارق الكبير بين حواريى عيسى عليه السلام وحواريى محمد ﷺ ذلك مستوى وهذا مستوى ، وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون . ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ شدة هول يوم القيامة وصعوبة الموقف حتى إن الرسل ليذهلون ويُسألون عما فعلوا مع أقوامهم .

٢ ـ وجوب الاستعداد لذلك اليوم بتقوى الله تعالى .

٣ ـ التأدب مع الله ـ عز وجل ـ وتفويض العلم إليه .

٤ ـ على الدعاة أن يوقنوا أن الله تعالى سائلهم عما قدموا فى مجال الدعوة والحركة لهذا الدين ومحاسبهم عليه ، وأن المخرج من هذا هو الجد والعمل المتواصل والإخلاص والتجرد ، والحرص على المدعوين والصبر عليهم ، فإن ذلك وحده هو المغنى من الحرج أمام الله تعالى .

٥ ـ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن بعض الناس قد يصبح مؤمناً ويمسى كافراً فالحواريون قالوا : ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ ثم أصبحوا يقولون : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ .

الجزء السابع — سورة المائدة

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

١٢٧

معانى الكلمات :

عيداً : سروراً وفرحاً أو يوماً نعظمه .

سبحانك : تنزيهاً لك من أن أقول ذلك .

شهيداً : رقيباً وحفيظاً . **توفيتنى** : أخذتنى إليك برفعى إلى السماء حيا . **شهيد** : مطلع عليه مراقب له . **أبداً** : من غير انقطاع .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتأدب مع الله عز وجل فى الطلب والسؤال والدعاء .

٢ ـ أن نصدق الله فى أقوالنا وأفعالنا؛ لأن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة .

٣ ـ أن نثق ونوقن فى قدرة الله الكاملة والشاملة لكل ما فى الأرض والسماء . وحده لا شريك له ولا رب سواه .

٤ ـ بيان براءة عيسى ابن مريم من دعاوى النصارى وافتراءات أهل الكتاب .

المحتوى التربوى :

تستكمل هذه الآيات قصة المائدة والتى لم ترد فى كتب النصارى ، كما وردت فى القرآن الكريم ، ولكن وردت بصور أخرى ، لا يتسع المقام لذكرها ، كما فى نهاية الإصحاح الخامس عشر من إنجيل متى ، وبعض التابعين ـ رضوان الله عليهم ـ كمجاهد والحسن : يريان أن المائدة لم تنزل ؛ لأن الحواريين حينما سمعوا قول الله سبحانه : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .. خافوا وكفوا عن طلب نزولها .

ولكن أكثر آراء السلف على أنها نزلت ؛ لأن الله تعالى قال : « إنى منزلها عليكم » ووعد الله حق ، وما أورده القرآن الكريم عن المائدة هو الذى نعتمده فى أمرها دون سواه .

ثم تصور الآيات موقف عيسى ابن مريم عليه السلام فى مواجهة قومه يوم الحشر وعلى مشهد من العالمين ، ورده عليهم محذراً إياهم من طلب هذه الخارقة ؛ لأن المؤمنين لا يطلبون الخوارق ، ولا يقترفون على الله : ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لكن الحواريين كرروا الطلب ، معلنين عن علته وأسبابه ، وما يرجون من ورائه ؛ فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذى لا

نظير له عند أهل الأرض ، وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهى تتحقق أمام أعينهم ؛ ويستيقنوا أن عيسى عليه السلام قد صدقهم ، ثم يكونوا شهوداً لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة .

عندئذ اتجه عيسى عليه السلام إلى ربه يدعوه ؛ وفى دعاء عيسى ابن مريم ـ أدب العبد المجتبى مع إلهه ومعرفته بربه ، فهو يناديه يا الله ،يا ربنا ، إننى أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء ، تعمنا بالخير والفرحة كالعيد ، فتكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ؛ وأن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرازقين ، فهو إذن يعرف أنه عبد ، وأن الله ربه . وهذا الاعتراف يعرض على مشهد من العالمين فى مواجهة قومه يوم المشهد العظيم !

واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى ابن مريم ؛ ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه ، لقد طلبوا خارقة واستجاب الله على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذابًا شديدًا بالغًا فى شدته لا يعذبه أحداً من العالمين فهذا هو الجد اللائق بجلال الله ؛ حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهواً . وحتى لا يمضى الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع !

وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة . ويسكت السياق بعد وعد الله وتهديده ، ليمضى إلى القضية الأساسية ، قضية الألوهية والربوبية فيطرح الله استجوابًا مباشراً فى هذه المرة فى مسألة الألوهية المدعاة لعيسى ابن مريم وأمه . استجواباً يوجه إلى عيسى عليه السلام فى مواجهة الذين عبدوه ؛ ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربه فى دهش وفزع من هذه الكبيرة التى افتروها عليه وهو منها برىء .

وإن الله ـ سبحانه ـ ليعلم ماذا قال عيسى للناس ، ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب فى اليوم العظيم المرهوب : الاستجواب الذى يقصد ربه إلى غير المسؤول ؛ ولكن فى صورته هذه، وفى الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلهين لهذا العبد الصالح الكريم .

ويقول صاحب الظلال : « إنها الكبيرة التى لا يطيق بشر عادى أن يقذف بها .. أن يدعى الألوهية وهو يعلم أنه عبد .. فكيف برسول من أولى العزم ؟ كيف بعيسى ابن مريم ؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعد ما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه ؟ كيف به يواجه استجوابًا عن ادعاء الألوهية ، وهو العبد الصالح المستقيم ؟

من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب ، يبدأ بالتسبيح والتنزيه ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون شأنه هذا القول أصلاً ، ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته ، مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته ، وخصائص ألوهية ربه عز وجل .

وعندئذ فقط . وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله ، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ، ويدعوهم إلى عبادته . ثم يخلى يده منهم

بعد أن رفعه الله إليه ، وينتهى إلى التفويض المطلق فى أمرهم ، مع تقرير عبوديتهم لله وحده ، وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم ، وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب ، ويختم الله عز وجل هذا الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين بشهادة الصدق لعيسى عليه السلام فيما قال ، قال تعالى : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ الآية . وفى نهاية الآيات ؛ وفى مواجهة هذه الفرية الكبرى التى لم يفتر أضخم منها قط أتباع رسول ! يعلن عز وجل تفرده بملك السموات والأرض وما فيهن ، وقدرته ـ سبحانه ـ على كل شىء بلا حدود .

يقول صاحب الظلال : « وختام السورة يتناسق مع السورة التى تحدث عن « الدين » وتعرضه ممثلاً فى اتباع شريعة الله وحده ، والتلقى منه وحده ، والحكم بما أنزله دون سواه ، إنه المالك الذى له ملك السموات والأرض وما فيهن ، والمالك هو الذى يحكم ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ . إنها قضية واحدة ، قضية الألوهية ، قضية التوحيد ، وقضية الحكم بما أنزل الله ، لتتوحد الألوهية بتحقق التوحيد » .

يقو الإمام محمد أبى زهرة فى زهرة التفاسير : « فى الكلام إشارات بيانية نذكرها :

الأولى : إثبات أن الله وحده هو الجدير بالألوهية ، والمستحق للعبادة ؛ لأنه ذو السلطان الكامل .

الثانية : إن تقديم لفظ الجلالة يفيد وحدة سلطانه وملكه وقدرته أى إنه وحده المالك لكل شىء .

الثالثة : إثبات أنه قادر على كل شىء لا يتقيد بالأسباب والمسببات؛ لأنه على كل شىء قدير، وهو خالق الأسباب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ نتعلم من الآيات مخاطبة الله تبارك وتعالى ، وفضل الصدق الذى ينجى صاحبه من الهلاك والعذاب .

٢ ـ كل ما يصدر منا من قول أو عمل ، فإن الله سبحانه مطلع عليه ومحاسب ومجازٍ ، وهو سبحانه إن شاء عذب المقصر المخطئ ، فكان فى ذلك العدل ، وإن شاء تسامح وغفر ، وفى ذلك الفضل .

٣ ـ نتعلم كذلك من الآيات قدرة الله الشاملة ، وأنه سبحانه لا نظير ولا ند ولا شريك ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ولا إله غيره ، ولا رب سواه .

٤ ـ براءة عيسى عليه السلام من مشركى النصارى وافتراءات أهل الكتاب .

الجزء السابع — سورة الأنعام

سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمت والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (١) هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون (٢) وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (٣) وما تأتيهم من ءاية من ءايت ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤) فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزءون (٥) ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهر تجرى من تحتهم فأهلكنهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا ءاخرين (٦) ولو نزلنا عليك كتبا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (٧) وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون (٨)

١٢٨

سورة الأنعام

معانى الكلمات :

بربهم يعدلون : يسوون به غيره فى العبادة.
قضى أجلاً:كتب وقدر زماناً معينا للموت.
تمترون : تشكون فى البعث . **قرن** : أمة من الناس . **مدراراً** : غزيراً كثير الصب .

قرطاس : كتاب من ورق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الله عز وجل هو المستحق للحمد والثناء لذاته ، ثناءً عليه ، وتسبيحاً له ، واعترافاً بوحدانيته .

٢ ـ أن نوقن بأن الآجال قدرت سلفا وقضيت فى موتها وبعثها فى أم الكتاب .

٣ ـ أن نستشعر مراقبة الله لنا فى أقوالنا وأعمالنا فإنه مطلع علينا .

٤ ـ أن نتأمل ونعتبر من قصص الأمم السابقة التى أهلكتها الذنوب .

المحتوى التربوى :

تبدأ الآيات فى سورة الأنعام بعرض الحقيقة الكبرى للعقيدة ، فتبدأ بالحمد لله ثناءً عليه ، وتسبيحاً له ، واعترافاً بأحقيته للحمد والثناء ، على ألوهيته المتجلية فى الخلق والإنشاء ، ثم فى أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السموات والأرض ، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام ، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها فى الأفلاك ، وتعجب الآيات من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة تنطق بقدرة الله العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم ، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون . بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به .

واستكمالاً لتقرير ألوهية الله فى الكون والحياة الإنسانية سواء ، يذكر مقتضيات هذه الألوهية فهو منشئ الخلق من طين ، وهو الذى قضى الآجال ، ولكن المخاطبين يشكون فى هذا ولا يستيقنون ، وهو المتفرد بالألوهية ؛ لذا فكل الناس والمخلوقات من أرض وسماء خاضع لناموسه على غير إرادة ولا اختيار ، ووجود السموات والأرض ، وتدبيرهما وفق هذا النظام

الواضح ، ونشأة الحياة ـ وحياة الإنسان فى قمتها ـ وسيرها فى هذا الخط الذى سارت فيه . كلاهما يواجه الفطرة البشرية بالحق ، ويوقع فيها اليقين بوحدانية الله .

والوحدانية هى القضية التى تستهدف السورة كلها ـ بل القرآن كله ـ تقريرها ـ وليست هى قضية وجود الله . فلقد كانت المشكلة دائماً فى تاريخ البشرية هى مشكلة عدم معرفة الإله الحق ، بصفاته الحقة ؛ ولم تكن هى مشكلة عدم الإيمان بوجود الله !

ومن ثم يعرض السياق موقف المشركين الذين يعارضون الدعوة الإسلامية فى ظل هذا الوجود الغامر الباهر القاهر ؛ فيبدو هذا الموقف منكراً قبيحاً ، حتى فى حس أصحابه الذين يواجههم هذا القرآن بهذه الحقيقة ! ويكسب القرآن المعركة فى الجولة الأولى ، يكسبها فى أعماق فطرة الناس ، على الرغم من مكابرتهم ومن عنادهم الظاهرين .

يقول صاحب الظلال : « إنهم يتخذون موقف الإعراض عنادًا وإصرارًا ، فليس الذى ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان ، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية ، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة ، هى التى يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها ، ليس هذا هو الذى ينقصهم ، إنما تنقصهم الرغبة فى الاستجابة ، ويمسك بهم العناد والإصرار ، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر » .

وحين يكون الأمر كذلك . حين يكون الإعراض متعمداً ومقصوداً ـ مع توافر الأدلة وتواتر الآيات ووضوح الحقائق ، فإن هذا التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التى تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد .

وفى موقف التهديد يلفت أعناقهم وأنظارهم وقلوبهم وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم ـ وقد كانوا يعرفون بعضها فى دور عاد بالأحقاف وثمود بالحجر ، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب فى رحلة الشتاء للجنوب وفى رحلة الصيف للشمال ، فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب .

ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة ، وقد مكنهم الله فى الأرض ، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يُعط مثله للمخاطبين من قريش فى الجزيرة ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ فى حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق ؛ ثم عصوا ربهم فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلاً آخر ، ورث الأرض من بعدهم ؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض ! فقد ورثها قوم آخرون ؛ فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر ! ما أهونهم على الله ؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً ! لقد أهلكوا وغبروا فما أحست هذه الأرض

بالخلاء والخواء ؛ إنما عمرها جيل آخر ؛ ومضت الأرض فى دورتها كأن لم يكن هنا سكان ؛ ومضت الحياة فى حركتها كأن لم يكن هناك أحياء .

ثم يمضى السياق يصور طبيعة العناد ، التى ينبعث منها ذلك الإعراض ؛ فيرسم نموذجًا عجيبًا من النفوس البشرية ، ولكنه نموذج مع ذلك مكرور ، يجده الإنسان فى كل عصر وفى كل بيئة وفى كل جيل ، نموذج النفس المكابرة ؛ التى يخرق الحق عينها ولا تراه !

والذى يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق ! وهو الإصرار مبدئياً على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلاً ! ولو أن الله ـ سبحانه ـ نزل على رسول الله ﷺ هذا القرآن ، لا عن طريق الوحى الذى لا يرونه ؛ ولكن فى ورقة منظورة ملموسة محسوسة ؛ ثم لمسوا هم هذه الورقة بأيديهم ـ لا سماعاً عن غيرهم ولا مجرد رؤية بعيونهم ـ ما سلموا بهذا الذى يرونه ويلمسونه ، ولقالوا جازمين مؤكدين ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ويستمرون فى التعنت والمماحكة والمعاندة فيقترحون أن ينزل الله ملكاً . ولكن سنة الله أن ينزل الملائكة ـ حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم ـ أن ينزلوا للتدمير عليهم ، وتحقيق أمر الله فيهم بالهلاك والدمار ، ولو أن الله استجاب للمشركين من العرب فأنزل ملكاً ، لقضى الأمر ، وتم التدمير ، ولم يُنظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل فهل هذا ما يريدون وما يقترحون ؟ وهلا يستشعرون رحمة الله فى عدم إجابتهم لما يقترحون لأنفسهم من الهلاك المبين ؟!

هكذا يقفهم السياق وجها لوجه أمام رحمة الله بهم وحلمه عليهم ، وأمام جهلهم بمصلحة أنفسهم ، وجهلهم بسنة الله فى تنزيل الملائكة ، وهم بهذا الجهل الذى يكاد يدمر عليهم حياتهم ، يرفضون الهدى ويرفضون الرحمة ، ويتعنتون فى طلب الدليل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله سبحانه وتعالى ـ مستحق الحمد لذاته ، ويجب أن نوجه الحمد والشكر لله دائماً على نعمه العظيمة التى لا تُحصى .

٢ ـ كل إنسان أجله محدد لا يتقدم ولا يتأخر ، ويوم البعث محدد فى علم الغيب ، لا يعلمه إلا هو .

٣ ـ الله تعالى مطلع علينا فى سرنا وجهرنا ، فيجب أن نراقبه فى جميع أقوالنا وأعمالنا ؛ لأنه مطلع علينا ويحاسبنا .

٤ ـ يجب أن نأخذ العبرة والعظة من هلاك الأمم السابقة التى أهلكها الله بذنوبها .

الجزء السابع — سورة الأنعام

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

١٢٩

معانى الكلمات :

حاق : أحاط وأنزل . **خسروا أنفسهم** : أهلكوها وظلموها بالكفر . **ما سكن** : ما استقر وحلّ .**ولياً** : رباً معبوداً وناصراً معيناً . **فاطر** : مبدع ومخترع .

هو يطعم : يرزق عباده .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف الحكمة من إرسال الله تعالى للرسل من البشر .

٢ ـ أن نستشعر قدرة الله تعالى وملكيته لكل شيء ، وتصرفه فى ملكه ورحمته الواسعة بعباده .

٣ ـ أن ندرك سنة الله فى الأمم السابقة التى استهزأت بالرسل فأهلكهم الله بكذبهم وذنوبهم

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق اقتراحات المماحكة ممن لا يريدون أن يطبقوا شرع الله ويؤمنوا برسوله ﷺ فيقترحون أن ينزل الله ـ سبحانه ـ ملكا على رسوله ﷺ يصدقه فى دعواه ، ولكن الملائكة خلق آخر غير الخلق الإنسانى ، خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله ؛ ولو شاء الله أن يرسل ملكاً يصدق رسوله ، لتبدى للناس فى صورة رجل ـ لا فى صورته الملائكية ـ وعندئذ يلتبس عليهم الأمر مرة أخرى ، وإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة ورسول الله ﷺ يقول لهم : أنا محمد الذى تعرفونه أرسلنى الله إليكم لأنذركم وأبشركم . فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك فى صورة رجل لا يعرفونه ، فلو أرسل الله ملكاً لجعله رجلاً ، وللبس عليهم الحقيقة التى يلبسونها ؛ ولما اهتدوا قط إلى يقين !

ثم بين ما وقع للمستهزئين بالرسل ، ودعوة المكذبين إلى تدبر مصارع أسلافهم ، والسير فى الأرض لرؤية هذه المصارع ، الناطقة بسنة الله فى المستهزئين المكذبين .

يقول صاحب الظلال : « إن هذه اللفتة بعد ذكر إعراضهم عناداً وتعنتاً ؛ وبعد بيان ما فى اقتراحاتهم من عنت وجهالة ؛ وما فى عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة الله وحلم ـ لترمى إلى غرضين ظاهرين :

الأول : تسلية رسول الله ﷺ والتسرية عنه ، مما يلقاه من عناد المعرضين ، وعنت المكذبين ، وتطمين قلبه ﷺ إلى سنة الله سبحانه فى أخذ المكذبين المستهزئين بالرسل ؛ وتأسيه كذلك بأن هذا الإعراض ، وهذا التكذيب ليس بدعاً فى تاريخ الدعوة إلى الحق ، فقد لقى مثله الرسل قبله؛ وقد لقى المستهزئون جزاءهم الحق وحاق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب ، ومن غلبة الحق على الباطل فى نهاية المطاف.

الثانى : لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين وتذكيرهم بهذه المصارع التى تنتظرهم إن هم لجوا فى الاستهزاء والسخرية والتكذيب ، وقد أخذ الله ـ من قبلهم ـ قروناً كانت أشد منهم قوة وتمكيناً فى الأرض ؛ وأكثر منهم ثراء ورخاء ، كما قال لهم فى مطلع هذه الآيات ؛ التى ترج القلوب رجاً بهذه اللفتات الواقعية المخيفة .

ويأتى التوجيه القرآنى لهؤلاء بالسير فى الأرض ، فيستفيدوا من ذلك ثلاث فوائد :

يقول الإمام محمد أبى زهرة : « **الفائدة الأولى** : أن يعرفوا أن هذه الحياة التى يعيشون فيها ليس لها دوام ... **والفائدة الثانية** : أن أولئك الأقوام قد مكن لهم فى الأرض بما لم يمكن لهم ، وما منعهم ملكهم الواسع ... من أن يؤخذوا كما يؤخذ أضعف الضعفاء **والفائدة الثالثة** : أن الله عذبهم بالإهلاك فى الدنيا بسبب طغيانهم » .

ثم ينتقل السياق موجهًا الرسول ﷺ لمواجهة المشركين الذين يعرفون أن الله هو الخالق ثم يعدلون به من لا يخلق ؛ فيجعلون له شركاء مع الله فى تصريف حياتهم ـ مواجهتهم بالسؤال عن الملكية ـ بعد الخلق ـ لكل ما فى السموات والأرض ، مستقصياً بهذا السؤال حدود الملكية فى المكان : مع تقرير الحقيقة التى لم يكونوا هم يجادلون فيها ؛ والتى حكى القرآن فى مواضع أخرى إقرارهم الكامل بها : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ﴾ .

ويلحق بهذا التقرير أنه سبحانه : ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ . كتبها بإرادته ومشيئته ؛ لا يوجبها عليه موجب ؛ ولا يقترحها عليه مقترح ؛ ولا يقتضيها منه مقتضٍ إلا إرادته الطليقة وإلا ربوبيته الكريمة ـ وهى ـ الرحمة ـ قاعدة قضائه فى خلقه وقاعدة معاملته لهم فى الدنيا والآخرة ، ورحمة الله تفيض على عباده جميعاً ؛ وتسعهم جميعاً ؛ وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم ، وهى تتجلى فى كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات .

وبعد أن تقرر أن الله وحده هو الخالق ، وأن الله وحده هو المالك للأماكن والخلائق وملكية السموات والأرض وما فيهما وعلمه سبحانه وسمعه المحيطين بها ، يجىء الاستنكار العنيف للاستنصار بغير الله ، والعبودية لغير الله ، والولاء لغير الله ، ويتقرر أن هذا مناقض لحقيقة الإسلام لله ، وأنه هو الشرك الذى لا يجتمع مع الإسلام ، وتذكر من صفات الله سبحانه : أنه فاطر السموات والأرض ، وأنه الرازق المطعم ، وأنه الضار النافع ، وأنه القادر القاهر ، وتذكر العذاب المخوف المرهوب .

يقول صاحب الظلال : « إن هذه القضية اتخاذ الله وحده وليًا بكل معانى كلمة (الولى) ، أى اتخاذه وحده رباً ومولى معبوداً يدين له العبد بالعبودية ممثلة فى الخضوع لحاكميته وحده ؛ ويدين له بالعبادة فيقدم له شعائرها وحده واتخاذه وحده ناصراً يُستنصر به ويُعتمد عليه ، ويتوجه إليه فى الملمات ، إن هذه القضية هى قضية العقيدة فى صميمها . فإما إخلاص الولاء لله ـ بهذه المعانى كلها ـ فهو الإسلام . وإما إشراك غيره معه فى أى منها ، فهو الشرك الذى لا يجتمع فى قلب واحد وهو الإسلام !

لذا تقرر الآيات فى حقيقة واضحة تستنكر على المشركين اتخاذ غير الله إلهًا ، وهو فاطر السموات والأرض ، ورازق لمن فيهما وهو يُطعِم ولا يُطعمْ ؛ لذا أمر أن يقول لهم : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، والإسلام وعدم الشرك معناهما المتعين ألا يتخذ غير الله ولياً . فاتخاذ غير الله ولياً بأى معنى ـ هو الشرك ولن يكون الشرك إسلامًا » .

لقد أمر رسول الله ﷺ أن يعلن هذا الاستنكار فى وجه المشركين الذين يدعونه إلى الملاينة والمداهنة ، وأمر كذلك أن يقذف قلوبهم بالرعب والترويع ؛ فى الوقت الذى يعلن فيه تصوره لجدية الأمر والتكليف ، ولخوفه هو من عذاب ربه ، إن عصاه فيما أمر به من الإسلام والتوحيد ، ثم إنه لماذا يتخذ غير الله ولياً ، ويعرض نفسه للشرك الذى نُهى عنه وللمخالفة عن الإسلام الذى أمر به ، ولما يعقب المعصية من هذا العذاب الهائل الرعيب ؟ ألعل ذلك رجاء جلب نفع أو دفع ضر فى هذه الحياة الدنيا ؟ رجاء نصرة الناس له فى الضراء ؛ ورجاء نفع الناس له بالسراء ؟ إن هذا كله بيد الله ؛ وله القدرة المطلقة فى عالم الأسباب ، وله القهر كذلك على العباد ؛ وعنده الحكمة والخبرة فى المنهج والعطاء .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ سنة الله فى الدعوات أن يكذب الرسل ودعاة الحق ويستهزأ بهم ، ولكن العاقبة الحسنى للحق وأهله وعاقبة السوء لأهل الباطل والمشركين المستهزئين .

٢ ـ ينبغى ألا نوالى غير الله فهو فاطر السموات والأرض ، ومالك لكل شىء ، ومتصرف بقدرته وقادر وقاهر فوق كل شىء فلا إله غيره ولا رب سواه .

٣ ـ وجوب اللجوء إلى الله تعالى دون غيره من سائر خلقه إذ لا يكشف الضر إلا هو .

٤ ـ لا يرفع الفقر أو المرض ولا يصرفهما إلا الله ـ تعالى ـ وكل صحة أو نعمة أو خير ، فهى من الله ـ تعالى ـ ولا أحد يستطيع ردها .

٥ ـ استشعار رحمة الله فى كل شىء يستجيش فى حس المؤمن الحياء من الله ، فإن الطمع فى المغفرة والرحمة لا يـُجرِّئ على المعصية ، إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم .

الجزء السابع — سورة الأنعام

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)

١٣٠

معانى الكلمات :

من بلغ : من بلغه القرآن إلى قيام الساعة .

فتنتهم : معذرتهم أو عاقبة شركهم .

ما كانوا يفترون : يكذبون . **ضل عنهم** : زال وغاب عنهم . **أكنة** : أغطية كثيرة .

وقراً : ثقلاً فى السمع وصماً . **أساطير الأولين** : أكاذيب السابقين . **ينأون عنه** : يتباعدون عن القرآن بأنفسهم . **وقفوا على النار** : حبسوا على ظهرها أو عرفوها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أن شهادة الله تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ بصدق رسالته هى أكبر شهادة .

٢ ـ بيان الحكمة من نزول القرآن الكريم على النبى ﷺ .

٣ ـ بيان مصير المشركين الذين كذبوا بآيات الله وافتروا على الله الكذب .

المحتوى التربوى :

تتابع الآيات لتصف مواجهة النبى ﷺ للمشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء ، ويدعون رسول الله ﷺ أن يقرهم على هذا الذى هم فيه ليدخلوا هم فيما جاءهم به ! ورسول الله ﷺ يواجه هؤلاء المشركين، ليبين لهم مفرق الطريق بين دينه ودينهم ، وبين توحيده وتوحيدهم، وليقرر أنه لا موضع بلا اتفاق بينه وبينهم إلا أن يتخلصوا هم من بين من دينهم ويدخلوا فى دينه ، وأنه لا وجه للمصالحة فى هذا الأمر ؛ لأنه يفترق معهم فى أول الطريق .

ويبدأ النبى ﷺ معهم سؤال الإشهاد العلنى المفتوح : أىّ شىء فى هذا الوجود كله هو أكبر شهادة ؟ أى شاهد تعلو شهادته كل شهادة ؟ وكما يؤمر رسول الله ﷺ بالسؤال ، فهو يؤمر كذلك بالجواب ، ذلك أنه لا جواب غيره باعتراف المخاطبين أنفسهم ولا جواب غيره فى حقيقة الأمر والواقع . فإذا أعلن هذه الحقيقة : حقيقة أن الله سبحانه هو أكبر شهادة ، أعلن لهم أنه ـ سبحانه ـ هو الشهيد بينه وبينهم فى القضية .

فإذا تقرر المبدأ : مبدأ تحكيم الله سبحانه فى القضية ، أعلن إليهم أن شهادة الله سبحانه ، تضمنها هذا القرآن ، الذى أوحاه إليه لينذرهم به ، وينذر به كل من يبلغه فى حياته ﷺ أو من بعد ، فهو حجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم ؛ لأنه يتضمن شهادة الله فى هذه القضية الأساسية ؛ التى تقوم عليها الدنيا والآخرة ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنسانى ضمناً .

فإذا أعلن إليهم أن شهادة الله ـ سبحانه ـ متضمنة فى هذا القرآن ، أعلن إليهم مضمون هذه الشهادة فى صورة التحدى والاستنكار لشهادتهم هم ، المختلفة فى أساسها عن شهادة الله سبحانه ، وعالنهم بأنه ينكر شهادتهم هذه ويرفضها ؛ وأنه يعلن غيرها ويقرر عكسها ويشهد لربه بالوحدانية المطلقة والألوهية المتفردة ؛ وأنه يفاصلهم على هذا عند مفرق الطريق ؛ وأنه يتبرأ من شركهم .

ثم ينتقل السياق ليؤكد أن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله ؛ ويعرفون ـ من ثم ـ ما فيه من سلطان وقوة ؛ ومن خير وصلاح ؛ ومن طاقة دافعة للأمة التى تدين بالعقيدة التى جاء بها ؛ وبالأخلاق التى تنبثق منها ؛ وبالنظام الذى يقوم عليها ، ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله ؛ ويعلمون جيداً أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين !

إنهم يعرفون ما فيه من حق ، ويعرفون ما هم فيه من باطل . ويعرفون أن الجاهلية التى صاروا إليها ، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم ، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين ، أو يبقى عليها ، وأنها ـ من ثم ـ معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض ، ويستعلى هذا الدين ، ويكون الدين كله لله ، أى يكون السلطان فى الأرض كله لله ؛ وأن يطارد المعتدون على سلطان الله فى الأرض كلها ، وبذلك وحده يكون الدين كله لله .

ويقرر الله سبحانه وتعالى الحقيقة الكلية ؛ ويصف الحصيلة للشرك والمشركين الذين يفترون على الله الكذب ، ويكذبون بآياته عز وجل ـ بأن عاقبة أمرهم الخسار والبوار ، ويوم القيامة يسألهم عما أشركوا معه من شركاء فتتعرى الفطرة من الركام الذى ران عليها فى الدنيا فيشعرون أنه لم يكن شركا ولم يكن شركاء ، لم يكن لهذا كله من وجود لا فى حقيقة ولا واقع وعندها « يفتنون » فيذهب الخبث ، ويسقط الركام : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ إنها الحقيقة التى تجلت عنها الفتنة ولكن حيث لا ينفع الإقرار بالحق والتعرى من الباطل ، فاليوم للجزاء لا للعمل .

لذلك يقرر سبحانه ، معجباً رسوله ﷺ من أمر القوم ، أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء الشركاء شركاء ، حيث لا وجود لشركتهم مع الله فى الحقيقة ، وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه ، فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء .

ويمضي السياق يصور حال فريق من المشركين ؛ويقرر مصيرهم فى مشهد من مشاهد القيامة، يصور حالهم وهم يستمعون القرآن معطلى الإدراك ، مطموسى الفطرة ، معاندين مكابرين يجادلون رسول الله ﷺ ، ويدعون على هذا القرآن أنه أساطير الأولين ، وينأون عن سماعه وينهون غيرهم عنه أيضاً .

يقول الإمام محمد أبى زهرة : « وهنا إشارتان :

أولاهما : أنهم ما جاؤوا يطلبون الحق ، ولكن جاؤوا يجادلون ، تقال للتسلية ، ومنها ما يكون غير صادق ، والجدل فى أكثر أحواله تمويه ، وليس طلب حق .

والثانية : أن الذين كفروا يقولون ما هى إلا أساطير الأولين بسبب كفرهم ، فكفرهم سابق لرفضهم المعجزة » .

يصور حالهم المقيت هكذا فى الدنيا فى صفحة، وفى الصفحة الأخرى يرسم مشهداً كئيباً لهم؛ وهم موقوفون على النار محبوسون عليها ، وهى تواجههم بهول المصير الرعيب ، وهم يتهافتون متخاذلين ؛ ويتهاوون متحسرين ؛ يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف ، الذى انتهى بهم إلى هذا المصير ، فيردون عن هذا التمنى بالتصغير والتحقير .

يقول صاحب الأساس : « إن أمر الله لرسوله ﷺ أن يتذكر موقف المشركين يوم القيامة ، وبراءتهم من كفرهم ، وأمره بالاعتبار بذلك فيه تعزية لرسول الله ﷺ ، وتسلية عن موقف الكافرين منه ، وفى ذلك أيضاً عرض لنوع من أنواع القهر الإلهى ، ولفت نظر إلى أن الدنيا وحدها ليست إلا وجهًا من أوجه التدبير الإلهى ، ويظهر فيها بعض أنواع القهر ، ولكن الآخرة هى الوجه الآخر » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ شهادة الله لنبيه ﷺ بصدق الرسالة ، أكبر شهادة على صدقها ، وصحتها ورداً على المشركين الذى يفترون على الله ونبيه الكذب وهم يعلمون .

٢ ـ القرآن الكريم كتاب نذارة وبشارة أوحاه الله لنبيه ﷺ ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

٣ ـ أقبح أفعال المشركين ومن نسج على منوالهم من لا ينتفعون بالحق والقرآن ، ولا يتركون أحداً ينتفع بذلك .

٤ ـ من الزاد للصبر على الشدائد والابتلاء النظر فى عاقبة السابقين الظالمين الذين طغوا فى الأرض الذين ينهون عن اتباع الحق ، وينأون عن اتباعه ، فهؤلاء كما قال تعالى ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ
﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ
نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

معانى الكلمات :

وقفوا على ربهم : حبسوا على حكم الله ـ تعالى ـ للسؤال . **بغتة** : فجأة من غير شعور.

فرطنا فيها: قصرنا وضيعنا فى الحياة الدنيا .

أوزارهم : ذنوبهم وخطاياهم . **لكلمات الله** : آيات وعده بنصر رسله . **كبر عليك** : صعب وعظم عليك . **نفقاً فى الأرض** : طريقاً نافذاً فى الأرض إلى ما تحتها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على صفات الكافرين ، ومبعث تكذيبهم وحقدهم على الدعوة .

٢ ـ بيان سنة الله فى الأمم السابقة .

٣ ـ أن نعرف مكانة الصبر وأهميته للدعاة وتدرك سنة الله فى الدعوات .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات الحديث عن طبيعة المشركين ، وإصرارهم على باطلهم ، فهم يجزمون بأن لا بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء . وترسم الآيات صورتهم فى الآخرة وهم موقوفون على ربهم يسألهم عما هم فيه ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ السؤال الذى يزلزل ويذيب ، فيجيبون إجابة المهين الذليل : ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ . فيجبهون عندئذ بالجزاء الأليم بما كانوا يكفرون فتنتابهم الحسرة ؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ! وفى النهاية يقرر حقيقة وزن الدنيا والآخرة فى ميزان الله الصحيح .

يقول صاحب الظلال : « فالحياة ـ فى التصور الإسلامى ـ ليست هى هذه الفترة القصيرة التى تمثل عمر الفرد ؛ وليست هذه الفترة المحدودة التى تمثل عمر الأمة من الناس ؛ كما أنها ليست هى هذه الفترة المشهودة التى تمثل عمر البشرية فى هذه الحياة الدنيا ، إن الحياة ـ فى التصور الإسلامى ـ تمتد طولاً فى الزمان وتمتد عرضاً فى الآفاق ، وتمتد عمقاً فى العوالم ، وتمتد تنوعاً فى الحقيقة ، عن تلك الفترة التى يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة فى التصور الإسلامى تمتد فى الزمان ، فتشمل هذه الفترة المشهودة ، فترة الحياة الدنيا، وفترة الحياة الأخرى التى لا يعلم مداها إلا الله ، والتى تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار !

وتمتد فى المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التى يعيش عليها البشر ؛ داراً أخرى : جنة عرضها كعرض السموات والأرض ؛ وناراً تسع الكثرة من جميع الأجيال التى عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين !

وتمتد فى العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله ؛ ولا نعلم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنسانى فى صورة لا يعلمها إلا الله . ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ » .

قال الإمام الرازى : « اعلم أن المنكرين للبعث والقيامة تعظم رغبتهم فى الدنيا ، وتحصيل لذاتها ، فذكر الله تعالى ـ هذه الآية تنبيها على خساستها وركاكتها ، واعلم أن نفس هذه الحياة لا يمكن ذمها ؛ لأن هذه الحياة العاجلة ، لا يصح اكتساب السعادات الأخروية إلا فيها » .

ثم يتجه السياق بعد ما بين حقيقة ووزن الحياة الدنيا والدار الآخرة فى ميزان الله ـ إلى رسول الله ﷺ يطيب الله سبحانه، خاطره فى أوله، مما يلاقيه من تكذيب قومه له ، وهو الصادق الأمين، فإنهم لا يظنون به الكذب ، إنما هم مصرون على الجحود بآيات الله وعدم الاعتراف بها وعدم الإيمان ، لأمر آخر غير ظنهم به الكذب ! كما يواسيه ـ عز وجل ـ بما وقع لإخوانه الرسل قبله من التكذيب والأذى ، وما وقع منهم من الصبر والاحتمال ، ثم ما انتهى إليه أمرهم من نصر الله لهم . وفق سنته التى لا تتبدل .

حتى إذا انتهى من المواساة والتسرية والتطمين ، التفت إلى النبى ﷺ يقرر له الحقيقة الكبرى فى شأن هذه الدعوة ، إنها تجرى بقدر الله وفق سنته ، وليس للداعية فيها إلا التبليغ والبيان ، إن الله هو الذى يتصرف فى الأمر كله ، فليس على الداعية إلا أن يمضى وفق هذا الأمر ، ولا يستعجل خطوة ولا يقترح على الله شيئاً ، حتى ولو كان هو النبى الرسول ! ولا يستمع إلى مقترحات المكذبين ـ ولا الناس عامة ـ فى منهج الدعوة ، ولا فى اقتراح براهين وآيات معينة عليه، والأحياء الذين يسمعون سيستجيبون ، أما موتى القلوب فهم موتى لا يستجيبون ، والأمر إلى الله إن شاء أحياهم وإن شاء أبقاهم موتى حتى يرجعوا إليه يوم القيامة .

يقول صاحب الظلال تعليقاً على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ « إنّ موكب الدعوة إلى الله موغل فى القدم، ضارب فى شعاب الزمن ، ماض فى الطريق اللاحب ، ماض فى الخط الواصب، مستقيم الخطا ، ثابت الأقدام ، يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل ، ويقاومه التابعون من الضالين

والمتبوعون ، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة ، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء ، والموكب فى طريقه لا ينحنى ولا ينثنى ، ولا ينكص ولا يحيد ، والعاقبة هى العاقبة ، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق ، إن نصر الله دائماً فى نهاية الطريق » .

ونعود إلى السياق فنجد أنه يبلغ الجد الصارم إلى منتهاه ليواجه ما عساه يعتمل فى نفس رسول الله ﷺ ، من الرغبة البشرية ، المشتاقة إلى هداية قومه ، المتطلعة إلى الاستجابة لما يطلبون من آيات لعلهم يهتدون ، ولكن فى صدد الدعوة يحسم الله فى طبيعة الدعوة ومنهجها ودور الرسل فيها ، ودور الناس أجمعين ، فيقول عز وجل لرسوله الكريم الصابر المحتسب .

تلك سنتنا ـ يا محمد ـ فإن كان قد كبر عليك إعراضهم ، وشق عليك تكذيبهم ، وكنت ترغب فى إتيانهم بآية ، إذن فإن استطعت فابتغ لك نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء ، فَأْتِهِم بآية! إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية ، فليس الذى ينقص هو الآية التى تدلهم على الحق فيما تقول ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى : إما بتكوين فطرتهم من الأصل على ألا تعرف سوى الهدى ـ كالملائكة ـ وإما بتوجيه قلوبهم ، وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى والاستجابة إليه، وإما بإظهار خارقة تلوى أعناقهم جميعاً ، وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر الله عليها .

ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية ، وتلقى الجزاء العادل فى نهاية المطاف . فاعلم ذلك ولا تكن ممن يجهلونه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الكافرون نفوسهم غير مستعدة للإيمان ، فلو عادوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد القيامة فلن يؤمنوا .

٢ ـ فى يوم القيامة لا يستطيع أحد إنكار الحق ، وإذا حاول الإنكار ؛ شهدت أعضاؤه بالحق من غير إرادته .

٣ ـ الكافرون لم يكذبوا الرسول ﷺ ؛ لأنه كان معروفاً بينهم بالصادق الأمين ، وإنما كذبوا بما جاء به ، لما روى سفيان الثورى عن على قال : قال أبو جهل للنبى ﷺ :إنا لا نكذبك ، ولكن نكذّب ما جئت به ، فأنزل الله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين] .

٤ ـ الساعة لا تأتى إلا بغتة ، ولا ينافى ذلك ظهور علاماتها ، لأن الزمن ما بين العلامة والعلامة لا يعرف مقداره .

٥ ـ الصبر طريق النصر وعاقبته ، والابتلاء سنة الله فى الدعوات ، وما على الدعاة إلى الله سوى المضى قُدُماً بالدعوة برغم كيد أعدائها حتى يأتى النصر .

إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون (٣٦) وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون (٣٧) وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون (٣٨) والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم (٣٩) قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين (٤٠) بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون (٤١) ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون (٤٢) فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون (٤٣) فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (٤٤)

معانى الكلمات :

أمم أمثالكم: أمم تشبهكم فى خلق الله لها . **ما فرطنا** : ما أغفلنا وما تركنا . **أرأيتكم** : أخبرونى عن عجيب أمركم . **الباساء والضراء** : البؤس والفقر . **يتضرعون** : يتذللون ويتخشعون . **جاءهم بأسنا** : أتاهم عذابنا . **أخذناهم بغتة** : أنزلنا بهم العذاب فجأة . **مبلسون** : مكتئبون أو آيسون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية ؟

١ ـ أن نعرف قيمة الإيمان بالله ورسوله ولقائه والفرق بين المؤمن والكافر فى الاستجابة لله .

٢ـ أن نعرف طبيعة طريق الدعوة إلى الله .

٣ ـ أن نعرف قيمة التضرع إلى الله ، والتذلل له فى رفع البلاء .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن صنفين من الناس يواجهون الحق الذى جاء به الرسول ﷺ من عند الله: فريق حىّ ، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية ، عاملة ، مفتوحة ، وهؤلاء يستجيبون للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقى معها إلى الحد الذى يكفى أن تسمعه فتستجيب له ، وفريق ميت ، معطل الفطرة ، لا يسمع ولا يستقبل ، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب ليس الذى ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله ـ فدليله كامن فيه ، ومتى بلغ إلى الفطرة وجدت فيه مصداقه . فاستجابت إليه حتماً ـ إنما الذى ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة ، وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول ، ولا مجال معهم للبرهان ، إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله إن شاء بعثهم إن علم منهم ما يستحق أن يحييهم ، وإن شاء لم يبعثهم فى هذه الحياة الدنيا ، وبقوا أمواتاً بالحياة حتى يرجعوا إليه فى الآخرة .

ومن خطاب رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة ، ينتقل السياق إلى حكاية ما يطلبه المشركون من إنزال خارقة ، وإلى بيان ما فى هذا الطلب من الجهالة بسنة الله ، ومن سوء إدراك لرحمته بهم ألا يستجيب لهذا الاقتراح الذى فى أعقابه التدمير لهم لو أجيبوا إليه ! ويعرض جانباً من دقة التدبير

الإلهى وإحاطته بالأحياء جميعا ؛ يوحى بحكمة السنة الشاملة للأحياء جميعاً . وينتهى بتقرير ما وراء الهدى والضلال من أسرار وسنن تجرى بها مشيئة الله طليقة .

يقول صاحب الظلال : « لقد كانوا يطلبون آية خارقة كالخوارق المادية التى صاحبت الرسالات السابقة ، ولا يفطنون إلى سنة الله فى أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجىء الخارقة ، وإهلاكهم فى الدنيا ، ولا يدركون حكمة الله فى عدم مجيئهم بهذه الخارقة ، وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها ـ كما وقع من الأقوام قبلهم ـ فيحق عليهم الهلاك ، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن ، فمن لم يؤمن استخرج الله من ظهره ذرية مؤمنة . ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى إمهالهم ، وذلك بعدم الاستجابة لاقتراحهم ، الذى لا يعلمون جرائره ! » .

ويقرر الله ـ عز وجل ـ فى الآيات التالية ما وراء الهدى والضلال من مشيئة الله وسنته ، وما يدلان عليه من فطرة الناس فى حالات الهدى وحالات الضلال ، وهو إعادة لتقرير الحقيقة التى مضت فى هذه الجولة عن استجابة الذين يسمعون ، وموت الذين لا يستجيبون ، وراء ذلك كله مشيئة الله التى قضت أن يكون الإنسان على هذا الاستعداد المزدوج للهدى والضلال ، عن اختيار وحكمة ، لا عن قضاء وإلزام ، وكذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم بمشيئته تلك ، التى تعين من يجاهد ، وتضل من يعاند ، ولا تظلم أحداً من العباد .

يقول صاحب الظلال : « إن طريق الدعوة إلى الله شاق ، محفوف بالمكاره ، ومع أن نصر الله للحق آت لا ريب فيه ، إلا أن هذا النصر إنما يأتى فى موعده الذى يقدره الله ، وفق علمه وحكمته ، وهو غيب لا يعلم موعده أحد ـ حتى ولا الرسول ، والمشقة فى هذا الطريق تنشأ من عاملين أساسيين من التكذيب والإعراض اللذين تقابل بهما الدعوة فى أول الأمر والحرب والأذى ـ اللذين يعلنان على الدعاة ثم من الرغبة البشرية فى نفس الداعية فى هداية الناس إلى الحق الذى تذوقه وعرف طعمه والحماسة للحق والرغبة فى استعلائه ! وهذه الرغبة لا تقل مشقة عن التكذيب والإعراض والحرب والأذى. فكلها من دواعى مشقة الطريق ! » .

ثم يواجه السياق القرآنى فطرة المشركين ببأس الله ، بل يواجههم بفطرتهم ذاتها حين تواجه بأس الله ، فيواجه الفطرة بتصور الهول عذاب الله فى الدنيا عذاب الهلاك والدمار ، أو مجىء الساعة على غير انتظار ويسألهم الجواب بالصدق من ألسنتهم ؛ ليكون تعبيراً عن الصدق فى فطرتهم : ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ثم يبادر فيقرر الجواب الصادق المطابق لفطرتهم، ولو لم تنطق به ألسنتهم ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ .

ثم تأتى المواجهة الحاسمة بنموذج من بأس الله سبحانه . نموذج من الواقع التاريخى ، نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله ، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له ، وكيف يمنحهم الله الفرصة بعد الفرصة ، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه ؛ فإذا نسوا ما ذكروا به ، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له ، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة ، كانت فطرتهم قد فسدت الفساد الذى لا يرجى معه صلاح ، وكانت حياتهم قد فسدت الفساد

الذى لا تصلح معه للبقاء . فحقت عليهم كلمة الله ، ونزل بساحتهم الدمار الذى لا تنجو منه ديار ، وفى هذه الآيات تصوير وعرض لنموذج متكرر فى أمم شتى ، أمم جاءتهم رسلهم ، فكذبوا . فأخذهم الله بالبأساء والضراء . فى أموالهم وفى أنفسهم فى أحوالهم وأوضاعهم . البأساء والضراء ، التى لا تبلغ أن تكون « عذاب الله » الذى تحدثت عنه الآيات التالية وهو عذاب التدمير والاستئصال .

ويقول صاحب الظلال : « لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم ، وينقبوا فى ضمائرهم وفى واقعهم ، لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله ، ويتذللون له ، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم ، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة ، فيرفع الله عنهم البلاء ، ويفتح لهم أبوب الرحمة ، ولكنهم لم يفعلوا ما كان حرياً أن يفعلوا ، لم يلجؤوا إلى الله ، ولم يرجعوا عن عنادهم ، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم ، ولم تفتح بصيرتهم ، ولم تلين قلوبهم، وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ماهم فيه من الضلال والعناد » .

ويقول الإمام محمد أبى زهرة عن المانع من الضراعة أمران :

« **أحدهما** : قسوة القلوب ... والسبب فى أن القسوة والضراعة نقيضان لا يجتمعان أن القسوة غلظ فى النفوس والطباع ، وإن بعض النفوس لتقسو حتى تكون كالحجارة أو أشد قسوة.... والضراعة رقة فى القلب ورأفة فى النفس ، وإحساس بآلام الغير وآلام النفس فلا يكون القاسى ضارعا ولو كان جبانا ؛ إذ الضراعة علو مع رأفة ورحمة وطمأنينة والقسوة غلظة ، وقد يكون الجبان غليظا ؛ بل فى أكثر الأحوال هو كذلك .

الأمر الثانى : الذى يمنع الضراعة ـ تزيين الشيطان العمل للنفس ... والشيطان قد يراد به هنا النفس الأمارة بالسوء التى تزين السوء فتجعله كالحسن وما هو بحسن ... » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الإيمان بالله ورسوله ولقائه حياة والكفربذلك موت ، فالمؤمن حى والكافر ميت .

٢ ـ طريق الدعوة إلى الله شاق ، محفوف بالمكاره ، ونصر الله للحق آت لا ريب فيه .

٣ ـ خلق الإنسان فيه الاستعداد المزدوج للهدى والضلال ، عن اختيار وحكمة ، لا عن قضاء وإلزام ، ليتحقق الابتلاء ، وينعقد الاختبار ، ليستوفى الإنسان الجزاء بما كسبت يداه ، ولا يظلم ربُكَ أحداً .

٤ ـ الهداية والضلال بمشيئة الله تعالى فمن شاء هداه ، ومن شاء أضله ، فمن أراد الهداية فليطلبها من الله عز وجل بصدق ، ومن رغب عنها فلن ينالها .

٥ ـ إنما يكون الابتلاء بالسراء والضراء ليعود الإنسان إلى ربه يتضرع إليه ، ويتذلل له ، ويدعو الله بقلب مخلص، فيرفع الله البلاء ويفتح أبواب رحمته .

الجزء السابع — سورة الأنعام

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

١٣٣

معانى الكلمات :

دابر القوم : آخرهم . **أرأيتم :** أخبرونى .

نصرف الآيات : نكررها على طرق مختلفة.

هم يصدفون : يعرضون عنها ويعدلون .

بغتة : فجأة أو ليلاً . **جهرة :** معاينة أو نهاراً . **خزائن الله :** مرزوقاته أو مقدوراته.

بالغداة والعشى : أول النهار وآخره أى دومًا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف ونتدبر مصير الأمم التى كذبت بالرسل،ونأخذ منها العبرة والعظة.

٢ ـ أن نوقن أن بأس الله لا يرد عن القوم الظالمين ، فلا راد لقضاء الله رب العالمين .

٣ ـ أن ندرك سنة الله فى نصرة الحق وأهله ، ونعمل بهذه السنن إذا أردنا التمكين .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق تصوير مصير الأمم التى، كذبت بالرسل ، والتى يُقص الله من أنبائها هنا، فإنهم لما نسوا ما ذكروا به ، وعلم الله ـ سبحانه ـ أنهم مهلكون ، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا ، فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شىء للاستدراج بعد الابتلاء ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ ﴾ وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة ؛ واستغرقوا فى المتاع بها والفرح لها ـ بلا شكر ولا ذكر ـ وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه ؛ وانحصرت اهتماماتهم فى لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات ، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هى عادة المستغرقين فى اللهو والمتاع ،وتبع ذلك فساد النظم ، بعد فساد القلوب والأخلاق ؛ عندئذ جاء موعد السنة التى لا تتبدل ، فكان أخذهم على غرة ؛ وهم فى سهوة وسكرة ، فإذا هم حائرون منقطعو الرجاء فى النجاة عاجزون عن التفكير فى أى اتجاه ، وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم .

يقول صاحب الظلال : ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تعقب على استئصال الظالمين (المشركين) بعد هذا الاستدراج الإلهى والكيد المتين ، وهل يحمد الله على نعمة ، أجل من نعمة تطهير الأرض من الظالمين ، أو على رحمة أجل من رحمته لعباده بهذا التطهير ؟

بعد ذلك يوقف السياق القرآنى المشركين بالله ، أمام بأس الله ، فى ذوات أنفسهم ، فى أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم ، وهم عاجزون عن رده ، وهم لا يجدون كذلك إلهاً غير الله ، يرد عليهم أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم إن أخذها الله منهم ، وقبل أن يفيقوا من تأثير ذلك المشهد المتوقع يتلقاهم بتوقيع جديد ، ليس على الله ببعيد ، يريهم فيه مصارعهم ـ وهم الظالمون : أى المشركون ـ وهو يرسم مصارع الظالمين حين يباغتهم عذاب الله أو يواجههم ؛ وحين يأتيهم على غرة أو وهم مستيقظون .

وبعد عرض هذه المشاهد التى تحمل الإنذار إلى أعماق السرائر .. يبين وظيفة الرسل ، الذين تطالبهم أقوامهم بالخوارق ، وإن هم إلا مبلغين ، ومبشرين ومنذرين ، ثم يكون بعد ذلك من أمر الناس ما يكون ، وفق ما يتخذونه لأنفسهم من مواقف يترتب عليها الجزاء الأخير .

وتمضى الآيات فى مواجهة المشركين بحقيقة الرسالة ، وطبيعة الرسول ، ويقدم القرآن عقيدته للناس مجردة من كل إغراء خارج عن طبيعتها ، ومن كل زينة زائدة عن حقيقتها ، فالرسول الذى يقدمها للناس بشر ، لا يملك خزائن الله ، ولا يعلم الغيب ، ولا يقول لهم إنى ملك ، وهو لا يتلقى إلا من ربه ، ولا يتبع إلا ما يوحى إليه منه والذين يقبلون دعوته هم أكرم البشر عند الله، وعليه أن يلزمهم ، وأن يهش لهم ، وأن يبلغهم ما كتبه الله لهم على نفسه من الرحمة والمغفرة .

يقول صاحب الأساس : تعليقًا على قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ؛ أقول : لقد أكرم الله رسوله ﷺ بأن أطلعه على بعض الغيوب ، وقد يكرم الله ـ عز وجل ـ مسلماً بأن يلهمه حقاً ، أو يجرى على لسانه باستجابة دعاء فيسخر لهم ما يسخر ، ولكنّ ذلك ليس هو الأساس الذى يبنى عليه المسلم موقفه .

إن كثيرين من مسلمى عصرنا بسبب من رؤية كرامة لولى ، أو بسبب من إلهام حق لصالح يتابعون صاحب ذلك فى كل شىء ، وينسون تكليف الله لهم فى القيام بأمره ونصرة شريعته ، ووجوب التعاون مع المسلمين على الخير ، ووجوب كون المسلمين صفاً واحداً .

إن هذه الآية تصحح مفاهيم خاطئة كثيرة فى أمر النبوة وفى أمر الدخول فى الإسلام ، وفى أمر المتابعة عليه ، فليس رسول الله ملكاً ومن ثمّ يُتابَع ، وليس رسول الله ﷺ عالماً بالغيب ، وقد يعطيه الله ويعطى من تابعه ، وقد يكرمه الله بشىء من علم الغيب . ثم هو أكرم على الله من ملائكته ولكنّ صفته هى أنهّ رسول الله ﷺ .

ونعود مرة أخرى للسياق فيأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله ﷺ أن يصبر نفسه مع فقراء المسلمين والضعفاء منهم ، والعبيد فلا يقوم حتى يقوموا ، وهو محمد بن عبد الله وهو بعد ذلك ـ رسول الله ﷺ وخير خلق الله ، وأعظم من شرفت بهم الحياة ، ويعاود السياق تصحيح المفاهيم فيجعل لهم مكانة عالية دونها مكانة سادة قريش الذين أبوا الإسلام ، ويحذر رسول الله ﷺ صاحبه أبا بكر أن يكون قد أغضب هؤلاء لما عاتبهم فى أمر أبى سفيان فيكون قد أغضب الله ـ فيذهب أبو بكر ﷺ يترضى الأعبد « ليرضى الله : « يا أخوتاه أغضبتكم » ؟ فيقولون : « لا يا أخى ، يغفر الله لك » .

ولقد أراد الله عز وجل أن يرفع البشرية من هذا السفح الهابط الذى كانوا فيه فى جاهليتهم عندما قال الملأ من قريش : « يا محمد ، رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك ! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، جاء الرد الحاسم من الله عز وجل ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ .

وقضى الله سبحانه فى هذه الدعوى بقضائه الفصل ورد دعواهم من أساسها وبقى فقراء الجيوب أغنياء القلوب فى مجلس رسول الله ﷺ وبقى ضعاف الجاه الأقوياء بالله فى مكانهم الذى يؤهلهم له إيمانهم ؛ والذى يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه ، واستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذى قرره الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج » ، وقال قتادة : بغت القوم أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً فقط إلا عند سكرتهم ، وغرتهم ، ونعمتهم ؛ فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون .

٢ ـ سنة الله فى تدمير الباطل أن يقوم فى الأرض (حق) يتمثل فى (أمة) ، ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، فلا يقعدنّ أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجرى سنة الله بلا عمل منهم ولا كد ؛ فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق ولا يكونون أهله ، وهم كسالى قاعدون .

٣ ـ المؤمنون المصدقون هم الذى ينتفعون بالقرآن وإنذاراته ، أما الكافرون المعرضون فلن يتأثروا بشىء منه .

٤ ـ تحذير الله ـ تعالى ـ للرسول ﷺ من طرد ضعاف المؤمنين وفقرائهم من مجلسه فيه تكريم للمؤمنين وإعلان لمبدأ المساواة الإسلامية : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

الجزء السابع — سورة الأنعام

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٥٨) ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٥٩)

ربع الحزب ١٤

١٣٤

معانى الكلمات :

فتنا : ابتلينا . **كتب ربكم** : قضى وأوجب .

بجهالة : بسفاهة . **يقص الحق** : يبينه ويوضحه . **خير الفاصلين** : أفضل من يحكم . **كتاب مبين** : اللوح المحفوظ .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان مراتب التفاضل بين البشر عند الله .

٢ ـ أن نعتقد أن رحمة الله غلبت غضبه ـ عز وجل ـ فلا نيأس من تجاوزه عن سيئات المذنبين .

٣ ـ أن نعرف فضل الشكر وأهميته ، وأثره على الشاكرين .

٤ ـ بيان مظاهر القدرة والعلم والحكمة لله تعالى .

المحتوى التربوى :

بعد أن قررت الآيات أن فقراء الجيوب أغنياء القلوب أحق بالرعاية والاهتمام والجلوس معهم من ضعاف الإيمان،وأن ضعاف الجاه الأقوياء ظلوا فى مكانهم الذى يؤهلهم له إيمانهم؛ والذى يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه ، عندئذ نفر المستكبرون المستنكفون يقولون : كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء ؟ إنه لو كان ما جاء به محمد خيراً ماسبقونا إليه ؛ ولهدانا الله به قبل أن يهديهم ! فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمنُّ الله عليهم من بيننا ويتركنا ونحن أصحاب المقام والجاه .

وكانت هذه هى الفتنة التى قدرها الله لهؤلاء المتعالين بالمال والنسب ؛ والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين ؛ وطبيعة الدنيا الجديدة التى يطلع بها على البشرية . مشرقة الآفاق ، مصعدة بهذه البشرية إلى القمة السامقة . ويقرر الله ـ سبحانه ـ بعد هذه الفتنة أن الشاكرين هم المستحقون لإنعام الله بكل خير ، وأما الكافرون فلا يعطون ولا يزدادون لكفرهم النعم وعدم شكرهم لها .

ويمضى السياق يأمر رسول الله ﷺ وهو رسول الله أن يبدأ أولئك الذين أسبغ عليهم فضل السبق بالإسلام ؛ والذين يسخر منهم أولئك الكبراء الأشراف ! أن يبدأهم بالسلام ، وأن

يبشرهم بما كتبه الله على نفسه من الرحمة ؛ متمثلاً فى مغفرته لمن عمل منهم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح .

يقول صاحب الأساس : « بمناسبة قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ ينقل ابن كثير ما يلى :

ـ روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لمّا قضى الله الخلق ، كتب فى كتابه ، فهو عنده فوق العرش ، إنّ رحمتى غلبت غضبى » أخرجاه فى الصحيحين .

ـ روى ابن مرَدَويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق ، أخرج كتاباً من تحت العرش : إنّ رحمتى سبقت غضبى وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين ، فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً ، مكتوب بين أعينهم عتقاء الله » .

فما أعظم رحمة الله وما أقبح من لم ينل من هذه الرحمة يوم القيامة ! وما أعقل من عمل للوصول إلى استحقاق رحمة الله الكاملة بسلوك طريق ذلك ، والتَّحقق بالصفات التى يعطى الله أصحابها رحمته .

ويقول صاحب الظلال : « يأمر الله رسوله ﷺ أن يبلغهم ما كتبه ربهم على نفسه، وحتى لتبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب كله ، متى تابوا من بعد وأصلحوا ـ إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب ؛ فما يذنب الإنسان إلا من جهالة ؛ وعلى ذلك يكون النص شاملاً لكل سوء يعمله صاحبه ؛ متى تاب من بعده وأصلح ، ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التى تجعل التوبة من الذنب ـ أيا كان ـ والإصلاح بعده ، مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة » .

ويختم السياق هذه الجولة التى قدمت طبيعة الرسالة والرسول فى هذه النصاعة الواضحة بأن منهج الإسلام لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره ، حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب ، إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين .

ويفاصل النبى ﷺ قومه مفاصلة المستيقن من ضلالهم ويقينه ممن هداه،ويأمره ربه ـ عز وجل ـ أن يواجه المشركين بأنه منهى من ربه عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله ويتخذونهم أنداداً لله، وذلك أنه منهى عن اتباع أهوائهم ؛ وبيقين الواثق يعلن أنه على بينة من ربه ، فيعلن لهم حقيقة الرسالة ويفرق فرقانًا كاملًا بينها وبين حقيقة الألوهية ؛ ويأمره ربه أن يجهر بأنه لا يملك هذا الذى يستعجلونه ؛ فالذى يملكه هو الله وحده ؛ وهو ليس إلهاً ، إنما هو رسول .

ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم ويلفتها إلى دلالة قوية على أن هذا الأمر من عند الله ، ومتروك لمشيئة الله ، ويخبرهم أن الله أعلم بالظالمين ، فهو يمهلهم عن علم ، ويملى لهم عن حكمة ، ويحلم عليهم وهو قادر على أن يجيبهم إلى ما يقترحون ، ثم ينزل بهم العذاب الأليم .

وبمناسبة علم الله ـ سبحانه ـ بالظالمين ؛ واستطرادًا فى بيان حقيقة الألوهية ، يجلى هذه الحقيقة فى مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة ، مجال الغيب المكنون ، وعلم الله المحيط بهذا الغيب إحاطته بكل شىء ، ويرسم صورة فريدة لهذا العلم ، ويرسل سهاماً بعيدة المدى تشير إلى آماده وآفاقه من بعيد .

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية ، يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط ؛ الذى لا يندّ عنه شىء فى الزمان ولا فى المكان ، فى الأرض ولا فى السماء ، فى البر ولا فى البحر ، فى جوف الأرض ، ولا فى طباق الجو ، من حى وميت ويابس ورطب » إنها جولة تدير الرؤوس ، وتذهل العقول ، جولة فى آماد الزمان وآفاق المكان ، وأغوار من المنظور والمحجوب ـ والمعلوم والمجهول .. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف ، يعيا بتصور آمادها الخيال » .

وهذه الآية وأمثالها فى القرآن الكريم تكفى وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم ، كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع فى التعبير ذاته ، فنرى آفاقا من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر ، على المستوى السامق : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ ، آماد وآفاق وأغوار فى « المجهول » المطلق فى الزمان والمكان ، وفى الماضى والحاضر والمستقبل ، وفى أحداث الحياة وتصورات الوجدان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ليست العبرة فى الإسلام بالحسب ولا بالنسب ، ولا بالمال ، ولا بالجاه ، والسلطان ، وإنما بالإيمان والعمل الصالح .

٢ ـ الشاكرون مستوجبون لزيادة النعم ، والكافرون مستوجبون لنقصانها وذهابها .

٣ ـ الله عز وجل يعفو عمن اقترف السيئات جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من مضار تائباً راجعاً إلى الله ، نادماً على ما فعل .

٤ ـ يقول النسفى بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ وعندك أيها الإنسان مفاتح الغيب فمن آمن بغيبه أسبل الله السّتر على عيبه .

٥ ـ استأثر الله تعالى بعلم الغيب عنده ـ عز وجل ـ ولم يطلع عليه أحداً ولا الرسول ﷺ فينبغى ألا نجهد أنفسنا فى معرفته عن طريق إنس ولا جان ولا ملك ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ .

الجزء السابع — سورة الأنعام

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

١٣٥

معانى الكلمات :

جرحتم بالنهار : ارتكبتم من الذنوب .

لا يفرطون : لا يقصرون . **تضرعاً** : معلنين التذلل لله . **يلبسكم** : يخلطكم فى المعارك . **شيعاً** : فرقاً مختلفة الأهواء .

بأس بعض : شدة بعض فى القتال .

وكيل : حفيظ . **يخوضون** : يأخذون فى الاستهزاء والطعن .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان قدرة الله فى الحياة والموت والبعث .

٢ ـ بيان أهمية تطبيق الشريعة وفق ما شرع الله لا وفق أهوائنا .

٣ ـ أن نعرف كيف نواجه المستهزئين بكتاب الله وآياته ومنهجه .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق من علم الله الشامل بمفاتح الغيب ، وبما يجرى فى جنبات الكون ، إلى مجال من مجالات هذا العلم الشامل ، فى ذوات البشر ، ومجال كذلك من مجالات الهيمنة الإلهية ، بعد العلم المحيط ، فيتحدث عن الوفاة حين النعاس ، فى صورة من صورها بما يعترى الحواس من غفلة ، وما يعترى الحس من سهوة ، وهو السر الذى لا يعلم البشر كيف يحدث ؛ وإن عرفوا ظواهره وآثاره ويردف بإحاطة علمه بكل ما تتحرك به الجوارح لأخذ أو ترك ، فالله يعلم ما كسبت من خير أو شر فالبشر جميعاً مراقبون فى الحركات والسكنات ؛ لا يندّ عن علم الله منهم شىء ، مما تكسبه جوارحهم بعد الصحو بالنهار !

ثم يوقظهم فى النهار من سباتهم وانقطاعهم ؛ لتتم الآجال التى قضاها الله ، وهؤلاء هم البشر داخل المجال الذى قدره الله ، لا مهرب لهم منه ، ولا منتهى لهم سواه ! ثم يعرض السجل الذى وعى كل ما كان منهم ، وهو العدل الدقيق الذى لا يظلم فى الجزاء .

ولمسة أخرى من حقيقة الألوهية يطرحها السياق ، لمسة القوة القاهرة فوق العباد ، والرقابة الدائمة التى لا تغفل ، والقدر الجارى الذى لا يتقدم ولا يتأخر ، والمصير المحتوم الذى لا مفر

منه ولا مهرب . والحساب الأخير الذى لا ينى ولا يمهل ، وكله من الغيب الذى يلف البشر ويحيط بالناس ، فهو صاحب السلطان القاهر ؛ وهم تحت سيطرته وقهره . هم ضعاف فى قبضة هذا السلطان ؛ لا قوة لهم ولا ناصر ، هم عباد ، والقهر فوقهم ، وهم خاضعون له مقهورون .

يقول صاحب الظلال : « إنه لابد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو لا شريعة العباد ، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ، ويقيموا معاملاتهم ـ كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم ـ وفق شريعة الله فى الدنيا، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدى الله ، وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله ـ سبحانه ـ إلهاً فى الأرض ؛ ولكنهم اتخذوا من دونه أرباباً متفرقة ، وأنهم محاسبون إذن على الكفر بألوهية الله ـ أو الشرك به باتباعهم شريعته فى جانب العبادات والشعائر واتباعهم شريعة غيره فى النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، وفى المعاملات والارتباطات ، والله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

ثم يحاكمهم إلى فطرتهم التى تعرف حقيقة الألوهية؛ وتلتجئ إلى إلهها الحق فى ساعة الشدة؛ ويرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب ؛ وكيف يخالفون عنها فى اليسر والرخاء .

إن الهول والكرب الذى ترتعد له الفرائص ليس مؤجلاً دائماً إلى يوم الحشر والحساب ، فهم يصادفون الهول فى ظلمات البر والبحر ، فلا يتوجهون عند الكرب إلا لله ؛ ولا ينجيهم من الكرب إلا الله ، ولكنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشرك عند اليسر والرخاء .

وهنا يواجههم ببأس الله الذى قد يأخذهم بعد النجاة ! فما هى مرة وتنتهى ، ثم يفلتون من القبضة كما يتصورون .

ولكن يضيف إلى ألوان العذاب الداخلة فى قدرة الله ؛ والتى قد يأخذ العباد بها متى شاء ؛ لوناً آخر بطيئاً طويلاً؛ لا ينهى أمرهم كله فى لحظة ؛ ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار ـ وهى صورة من العذاب المقيم الطويل المديد ؛ الذى يذوقونه بأيديهم ، ويجرعونه لأنفسهم ؛ إذ يجعلهم شيعاً وأحزاباً ، متداخلة لا يتميز بعضها عن بعض ، ولا يفاصل بعضها بعضاً ، فهى أبداً فى جدال وصراع ، وفى بلاء يصبه هذا الفريق على ذاك .

قال المهايمى : « قل للمشركين بعد النجاة الموعود فيها بالشكر : إنما أشركتم لأمنكم من الشدائد ، لكن لا وجه للأمان منها ؛ لاستمرار منشأ الخوف ، وهو القدرة الإلهية على أنواع الشدائد من الجهات كلها .. » .

ثم يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يفاصل قومه فيعلن إليهم أنه ليس عليهم بوكيل ؛ لأنهم كذبوا بما جاءهم به ـ وهو الحق ـ ومن ثم الفصل ما بينه وبين قومه ، وأمر أن يتركهم لمصيرهم الذى لابد آت ، وأمر أن يُعرض عنهم فلا يجالسهم متى رآهم يخوضون فى الدين ، ويتخذونه لعباً ولهواً ، ولا يوقرونه التوقير الواجب للدين .

والخطاب لرسول الله ﷺ يعطيه ويعطى المؤمنين من ورائه، لثقة التى تملأ القلب بالطمأنينة. الثقة بالحق ـ ولو كذب به قومه وأصروا على التكذيب ـ فما هم بالحكم فى هذا الأمر ، إنما كلمة الفصل فيه لله سبحانه . وهو يقرر أنه الحق . وأن لا قيمة ولا وزن لتكذيب القوم !

إنها الطمأنينة الواثقة بالحق ؛ الواثقة بنهاية الباطل مهما تبجح ، الواثقة بأخذ الله للمكذبين فى الأجل المرسوم ، الواثقة من أن كل نبأ إلى مستقر ؛ وكل حاضر إلى مصير ، وما أحوج أصحاب الدعوة إلى الله ـ فى مواجهة التكذيب من قومهم ؛ والجفوة من عشيرتهم ، والغربة فى أهلهم ، والأذى والشدة والتعب واللأواء ، ما أحوجهم إلى هذه الطمأنينة الواثقة التى يسكبها القرآن فى القلوب !

وينتقل السياق بعد الانتهاء من البلاغ ، ومواجهة التكذيب بهذه المفاصلة ، فإنه ﷺ مأمور بعد ذلك ألا يجالسهم ـ حتى للبلاغ والتذكير ـ إذا رآهم يخوضون فى آيات الله بغير توقير ؛ ويتحدثون عن الدين بغير ما ينبغى للدين من الجد والمهابة ؛ ويجعلون الله موضعاً للعب وللهو ؛ بالقول أو بالفعل ، حتى لا تكون مجالسته لهم ـ وهم على مثل هذه الحال ـ موافقة ضمنية على ماهم فيه ؛ أو قلة غيرة على الدين الذى لا يغار المسلم على حرمة كما يغار عليه ، فإذا أنساه الشيطان فجلس معهم ، ثم تذكر ، قام من فوره وفارق مجلسهم .

قال السيوطى فى الإكليل : « فى هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين ، وأهل اللغو ، ويستدل بها على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف ، فيعفى عما ارتكبه فى حال نسيانه ، ويندرج تحت ذلك مسائل كثيرة فى العبادات والتعليقات » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ النوم هو الموت الأصغر ، وفى اليقظة منه دليل على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على بعثنا بعد موتنا للحساب والجزاء .

٢ ـ لله ـ تعالى ـ ملائكة يحفظون الإنسان يسجلون عمله وقوله ، ويخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت عندما يحين أجله .

٣ ـ لجوء الناس عند الشدائد إلى ربهم وتضرعهم إليه بالدعاء ؛ ليخلصهم مما هم فيه من مخاوف ومحن ، دليل على أن الإيمان بالله وحده فطرة فى النفس البشرية .

٤ ـ لا منجى من الشدائد ولا منقذ من الكروب إلا الله سبحانه وتعالى .

٥ ـ عدم الجلوس مع المستهزئين بكلام الله أو المكذبين بالدين ، حتى يأخذوا فى كلام آخر فيه جد وصدق ، ومن جلس مع هؤلاء المكذبين ناسياً . فلا يقعد بعد التذكير مع هؤلاء الظالمين .

٦ ـ وجوب القيام احتجاجاً من أى مجلس يُعصى فيه الله ورسوله .

الجزء السابع — سورة الأنعام

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

١٣٦

معانى الكلمات :

غرتهم : خدعتهم وأطمعتهم بالباطل .

أن تبسل : تحبس فى النار أو الهلاك .

تعدل كل عدل : تفتد بكل فداء .

أبسلوا : حبسوا فى النار . **حميم** : ماء وصل إلى نهاية الحرارة . **استهوته** : أضلته .

الصور : البوق (القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل نفخة البعث)

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ بيان حرمة مجالسة الذين يستهزئون بالله وبآياته ، ويتخذون دينه لعباً ولهواً .

٢ ـ أن نعرف ضوابط معاملة ومجالسة الظالمين .

٣ ـ أن نوقن بأن هدى الله هو الهدى، وأن شريعته هى النجاة من الانحراف والضلال والتيه .

٤ ـ أن نسلم لرب العالمين فى أقوالنا وأفعالنا طائعين مأجورين .

المحتوى التربوى :

يتواصل السياق ليقرر أنه ليس هنالك تبعة مشتركة بين المتقين والمشركين ، فهما أمتان مختلفتان، وإن اتحدتا فى الجنس والقوم فهذه لا وزن لها فى ميزان الله ، ولا فى اعتبار الإسلام . إنما المتقون أمة ، والظالمون (أى المشركون) أمة ، وليس على المتقين شىء من تبعة الظالمين وحسابهم، ولكنهم إنما يقومون بتذكيرهم رجاء أن يتقوا مثلهم ، وينضموا إليهم ، وإلا فلا مشاركة فى شىء ، إذا لم تكن مشاركة فى عقيدة !

هذا دين الله وقوله ، ولمن شاء أن يقول غيره ، ولكن ليعلم أنه يخرج من دين الله كله إذ يقول ما يقول ! ويستمر السياق فى تقرير هذه المفاصلة ، وفى بيان الحدود التى تكون فيها المعاملة .

يقول صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : « ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ الآية : نقف من الآية أمام عدة أمور :

أولها : أن الرسول ﷺ ـ وينسحب الأمر على كل مسلم ـ مأمور أن يهمل شأن الذين يتخذون دينهم لعباً ولهواً ، وهذا يتم بالقول كما يتم بالفعل ، فالذى لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذه قاعدة حياته اعتقاداً وعبادة ، وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة وقانوناً ، إنما يتخذ دينه لعباً ولهواً، والمسلم مأمور بمفاصلة هؤلاء ومقاطعتهم إلا للذكرى، فهم الظالمون ـ أى المشركون ـ والكافرون الذين أبسلوا بما كسبوا ، فلهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون .

ثانيهاً : أن الرسول ﷺ ـ وينسحب الأمر على كل مسلم ـ مأمور بعد إهمال شأن هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ـ أن يقوم بتذكيرهم وتخويفهم من أن ترتهن نفوسهم بما كسبوا ، وأن يلاقوا الله ليس لهم من دونه ولى ينصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم ؛ كما أنه لا يقبل منهم فدية لتطلق نفوسهم بعد ارتهانها بما كسبت .

ثالثها : حدود مجالسة الظالمين ـ أى المشركين ـ والذين يتخذون دينهم لعباً ولهواً وقد سبق القول بأنها لمجرد التذكير والتحذير ، فليست لشىء وراء ذلك ـ متى سمع الخوض فى آيات الله ، أو ظهر اتخاذها لعباً ولهواً بالعمل بأية صورة .

ويقول صاحب الظلال : إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية فى الحدود التى بينها ، أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحظور؛ لأنه ـ فى ظاهره ـ إقرار للباطل، وشهادة ضد الحق ، وفيه تلبيس على الناس ، ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله . وفى هذه الحالة يكون النهى والمفارقة .

وتمضى الآيات ويأمر الله نبيه ﷺ :قل لهم يا محمد ماهم عليه من دعوة غير الله والاستعانة به، وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه ، وهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً ، فهم أعجز من النفع والضر . وكل حركة إنما تجرى بقدر من الله . فما لم يأذن به الله لا يكون ، ولا يكون إلا قدره وما جرى به قضاؤه من الأمور .

ويأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يقول لهم مستنكراً دعوة غير الله ، والاستعانة بغير الله ، والخضوع لغير الله ، وسخف هذا التصرف وهذا الاتجاه ، وسواء كان ذلك رداً على ما كان يقترحه المشركون على النبى ﷺ من مشاركتهم عبادة آلهتهم ليشاركوه عبادة ربه ! أو كان ذلك استنكارًا مبتدأ لما عليه المشركون، وإعلانًا للمفارقة والمفاصلة فيه من جانب النبى ﷺ والمؤمنين، فإن المؤدى فى النهاية واحد ؛ وهو استنكار هذا السخف الذى يرفضه العقل البشرى ذاته متى عرض له فى النور ، بعيداً عن الموروثات الراسبة ، وبعيداً كذلك عن العرف السائد فى البيئة !

ويجسم هذا السخف ويعرض له فى ضوء ما هدى الله المسلمين إليه من عبادته وحده ، واتخاذه وحده إلهاً ، والدينونة له وحده بلا شريك وإلا فهو ارتداد على الأعقاب ؛ ورجوع إلى الوراء ؛ بعد التقدم والارتقاء ، ويصور السياق من يتوزع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة

من العبيد ! ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال ، فيذهب ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ ، ولكن هناك ، من الجانب الآخر ، أصحاب له مهتدون ، يدعونه إلى الهدى ، وينادونه : ﴿ ٱئْتِنَا ﴾ وهو بين هذا الاستواء وهذا الدعاء ﴿ حَيْرَانَ ﴾ لا يدرى أين يتجه ، ولا أى الفريقين يجيب !

ويأتى التقرير الحاسم ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ ؛ وهنا **يقول صاحب الظلال** : لقد ذاقت البشرية من ويلات الضلال ـ وما تزال كلها تذوق ما هو حتمى فى تاريخ البشرية حين تنحرف عن هدى الله ، والذى يريد أن يتملى شقاء البشرية فى انحرافها عن هدى الله لا يحتاج أن ينقب ، فهو حوله فى كل أرض تراه الأعين وتلمسه الأيدى ؛ ويصرخ منه العقلاء فى كل مكان ، ومن ثم يستطرد السياق ؛ ليقرر ضرورة الاستسلام لله وحده ، وعبادته وحده ، ومخافته وتقواه .

لذا يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بأن يعلن لهم أن هدى الله هو الهدى ؛ وأننا ـ من ثم ـ أمرنا أن نسلم لرب العالمين ، وبعد إعلان الاستسلام لرب العالمين تجىء التكاليف التعبدية والشعورية ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ ؛ وهذا الاستسلام لرب العالمين ضرورة وواجب فهو الذى إليه تحشر الخلائق ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو السلطان القادر صاحب المشيئة المطلقة التى تعمل بكن فيكون ؛ قوله الحق فى هذا كله ، فأولى أن يستسلم له وحده من يشركون به ما لا ينفع ولا يضر من خلقه ، فالملك كله بما فيه له يوم ينفخ فى الصور ، فلا سلطان إلا سلطانه ولا إرادة إلا إرادته ، فأولى لمن يأبون الاستسلام فى الدنيا طائعين أن يستسلموا قبل أن يستسلموا لسلطانه المطلق يوم ينفخ فى الصور ، وهو عالم الغيب المحجوب ، كما يعلم هذا الكون المشهود ، وهو الذى يصرف أمور الكون الذى خلقه بالحكمة والخبرة فأولى أن يستسلموا لتوجيهه وشرعه عز وجل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على المؤمن أن يقوم بواجبه فى عظة وتذكير من يستهزئ بالدين بما يمكنه ، ولا يشترط معه فى شىء من ذلك .

٢ ـ القرآن خير واعظ ومذكر ، فعلى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يسلكوا طريقته الحكيمة فى التذكير والموعظة الحسنة مستشهدين بآياته الكريمة .

٣ ـ لا هدى إلا هدى الله ، والإعراض عنه ضلال وتيه وانحراف ، فلابد أن نسلم لرب العالمين . وإلا فهو ارتداد على الأعقاب وشقوة للعالمين .

٤ ـ لا سلطان إلا سلطان الله ، ولا إرادة إلا إرادته ، فأولى بنا أن نستسلم لله رب العالمين فى الدنيا ، طائعين مأجورين قبل أن نستسلم له فى الآخرة مُرغمين مأزورين .

الجزء السابع — سورة الأنعام

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

١٣٧

معانى الكلمات :

آزر : لقب والد إبراهيم أو اسم عمه .

ملكوت : ملك ، أو آيات .

جنّ عليه الليل : ستره بظلامه .

أفل : غاب وغرب تحت الأفق .

بازغاً : طالعاً من الأفق منتشر الضوء .

فطر السموات : أوجدها وأنشأها .

حنيفاً : مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق .

حاجه قومه : خاصموه فى التوحيد ، وجادلوه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتدبر العبر والعظات من قصة الخليل إبراهيم عليه السلام .

٢ ـ أن نحسن استخدام وسائل الإقناع بالأدلة المادية فى مجادلة الخصوم .

٣ ـ أن نتمسك بالحق ولا نجامل بالميل إلى الباطل مهما كان أنصاره أقوياء .

المحتوى التربوى :

تطلعنا هذه الآيات على الرحلة الشائقة مع فطرة إبراهيم عليه السلام الصادقة رحلة من نقطة الإيمان الفطرى إلى نقطة الإيمان الواعى ! الإيمان الذى يقوم على التكليف بالفرائض والشرائع والذى لا يكل الله ـ سبحانه ـ جمهرة الناس فيه إلى عقولهم وحدها . فيبينه لهم فى رسالات الرسل ، ويجعل الرسالة ـ لا الفطرة ولا العقل البشرى هى حجته عليهم ، وهى مناط الحساب والجزاء ، عدلاً منه ورحمة ، وخبرة ـ بحقيقة الإنسان وعلماً .

وترسم الآيات صورة لنفس إبراهيم ، وقد ساورها الشك ـ بل الإنكار الجازم ـ لما يعبد أبوه وقومه من الأصنام وقد باتت قضية العقيدة هى التى تشغل باله ، وتزحم عالمه . ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ وكان قومه يعبدون الكواكب والنجوم ، فلما أن يئس من أن يكون إلهه الحق ـ الذى يجده فى فطرته فى صورة غير مدركة ولا واعية صنماً من تلك الأصنام فلعله رجا أن يجده فى شيء مما يتوجه إليه قومه بالعبادة ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ فهو بنوره وبزوغه وارتفاعه أقرب ـ من الأصنام ـ إلى أن يكون ربّا ! ولكن لا ! إنه يكذب ظنه : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾

إنه يغيب ، يغيب عن الخلائق . فمن ذا يرعاها إذن ومن ذا يدبر أمرها ، إذا كان الرب يغيب ؟! لا ، إنه ليس ربًا ، فالرب لا يغيب !

والصلة بين الفطرة وإلهها هى صلة الحب ؛ والآصرة هى آصرة القلب ، وفطرة إبراهيم لا تحب الآفلين ، ولا تتخذ منهم إلهاً ، إن الإله الذى تحبه الفطرة ، لا يغيب ! ويتكرر المشهد مع القمر ، وهنا يحس إبراهيم أنه فى حاجة إلى العون من ربه الحق الذى يجده فى ضميره وفطرته ، ربه الذى يحبه ، ولكنه بعد لم يجده فى إدراكه ووعيه ، ويشعر أنه ضال مضيع إن لم يدركه ربه بهدايته . إن لم يمد إليه يده ويكشف له عن طريقه .

وتأتى التجربة الثالثة مع أضخم الأجرام المنظورة وأشدها ضوءًا وحرارة الشمس ، والشمس تطلع كل يوم وتغيب ، ولكنها اليوم تبدو لعينى إبراهيم عليه السلام كأنها خلق جديد ، إنه اليوم يرى الأشياء بكيانه المتطلع إلى إله يطمئن به وإليه ؛ ويستقر على قرار ثابت بعد الحيرة المقلقة والجهد الطويل ، ولكنها كذلك تغيب ، وهنا يقع التماس ، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق ، ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر وعلى العقل والوعى ، هنا يجد إبراهيم إلهه ولكنه لا يجده فى كوكب يلمع ، ولا فى قمر يطلع ، ولا فى شمس تسطع ، ولا يجده فيما تبصر العين ، ولا فيما يحسه الحس ، إنه يجده فى قلبه وفطرته ، وفى عقله ووعيه ، وفى الوجود كله من حوله ، إنه يجده خالقاً لكل ما تراه العيون ، ويحس الحس ، وتدركه العقول .

وعندئذ يجد فى نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه فى كل ما يعبدون من آلهة زائفة ؛ ويبرأ فى حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم ، وما هم عليه من الشرك ـ وهم لم يكونوا يجحدون الله البتة ، ولكنهم كانوا يشركون هذه الأرباب الزائفة ـ وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك

لقد انتهى إبراهيم إلى رؤية الله ـ سبحانه ـ فى ضميره وعقله وفى الوجود من حوله . وقد اطمأن قلبه واستراح باله ، وقد أحس بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه فى الطريق ، والآن يجىء قومه ليجادلوه فيما انتهى إليه من يقين ؛ وفيما انشرح له صدره من توحيد ؛ وليخوفوه آلهتهم التى تنكر لها أن تنزل به سوءًا ، وهو يواجههم فى يقينه الجازم ؛ وفى إيمانه الراسخ وفى رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذى هداه .

ولكن إبراهيم المؤمن الذى وجد الله فى قلبه وعقله وفى الوجود كله من حوله ، يواجههم مستنكراً فى طمأنينة ويقين ﴿ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ : أتجادلوننى فى الله ، وقد وجدته يأخذ بيدى ، ويفتح بصيرتى ، ويهدينى إليه ، ويعرفنى به ، لقد أخذ بيدى وقادنى فهو موجود ، فما جدالكم فى أمر أنا أجده فى نفسى ولا أطلب عليه الدليل. فهدايته لى إليه هى الدليل ؟!

ويؤكد أنه لا يخاف ما يشركون ، وكيف يخاف من وجد الله ؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف ؟ وكل قوة ـ غير قوة الله ـ هزيلة وكل سلطان ـ غير سلطان الله ـ لا يُخاف ؟ !

ولكن إبراهيم فى عمق إيمانه ، واستسلام وجدانه ، لا يريد أن يجزم بشىء إلا مرتكنًا إلى مشيئة الله المطلقة وإلى علمه ـ عز وجل ـ الشامل ، فهو يكل كل شىء إلى مشيئة الله وحمايته ورعايته ؛ ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئاً ، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته ، ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاءه الله ، ووسعه علمه الذى يسع كل شىء .

يقول صاحب الظلال : بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ الآية :

إنه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود . إنه إن كان أحد قميناً بالخوف فليس هو إبراهيم ـ وليس هو المؤمن الذى يضع يده فى يد الله ويمضى فى الطريق ـ وكيف يخاف آلهة عاجزة ـ كائنة ما كانت هذه الآلهة ، والتى تتبدى أحياناً فى صورة جبارين فى الأرض بطاشين ؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعفون ! ـ كيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة ، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطاناً ولا قوة من الأشياء والأحياء ؟ وأى الفريقين أحق بالأمن ؟ الذى يؤمن به ، ويكفر بالشركاء ، أم الذى يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة ، أى الفريقين أحق بالأمن ، لو كان لهم شئ من العلم والفهم ؟ ! هنا يتنزل الجواب من الملأ الأعلى ؛ ويقضى الله بحكمه فى هذه القضية : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله ، لا يخلطون بهذا الإيمان شركًا فى عبادة ولا طاعة ولا اتجاه هؤلاء لهم الأمن ، وهؤلاء هم المهتدون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فطرة المؤمن تدل على وجود الله الواحد الأحد ، وإيمانه بالله يقوم على التكليف الفرائضى والشرائع الورادة إليه عن طريق الرسل والرسالات .

٢ ـ الرسالة هى طريق المؤمن إلى معرفة الله عز وجل ، ليست الفطرة ولا العقل البشرى حجة الله ـ عز وجل ـ على خلقه ، بل نزول الرسالة هو مناط الحساب والجزاء .

٣ ـ لابد من معاملة الخصوم بالحجة والإقناع بالأدلة المادية الواضحة والبراهين القوية .

٤ ـ على الدعاة إلى الله التمسك بالحق وعدم مجاملة أحد بالميل إلى الباطل مهما كان أنصار هذا الباطل أقوياء .

٥ ـ الأحق بالأمن فى الدنيا والآخرة هم المؤمنون الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ـ أى شرك ـ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَاجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

معانى الكلمات :

لم يلبسوا : لم يخلطوا . **بظلم** : بشرك ـ بكفر . **اجتبيناهم** : اصطفيناهم للنبوة .

لحبط : لبطل وسقط . **الحكم** : الفصل بين الناس بالحق . **اقتده** : اقتد ، والهاء للسكت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحقق شرطى الأمن فى الدنيا والآخرة وهما الإيمان وعدم الشرك .

٢ ـ أن نبين فضل الأنبياء والرسل على العالمين .

٣ ـ أن نعرف الحكمة من إرسال الله للرسل وإنزال الكتب .

٤ ـ أن نعلم أن الشرك بالله يحبط العمل ويهلكه .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أن الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله ، لا يخلطون بهذاالإيمان شركا فى عبادة ولا طاعة ولا اتجاه ، هؤلاء لهم الأمن ، وهؤلاء هم المهتدون ، ثم يكشف الله لهم عن وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسىء إليه ، وواضح أنهم ما كانوا يجحدون وجود الله ؛ ولا أنه هو صاحب القوة والسلطان فى الكون ، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة . فلما واجههم إبراهيم ، بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة .لما واجههم بهذه الحجة التى آتاها الله له وألهمه إياها ، سقطت حجتهم ، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة ، وهكذا يرفع الله من يشاء درجات متصرفًا فى هذا بحكمته وعلمه . ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

بعد ذلك يعرض السياق موكب الإيمان الجليل ، يقوده ذلك الرهط الكريم من الرسل من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ يعرض السياق هذا الموكب ممتداً موصولاً ، ولا يراعى التسلسل التاريخى فى هذا العرض ؛ لأن المقصود هنا هو الموكب بجملته ، لا تسلسله التاريخى .

يقول صاحب الأساس : « ثم ذكر الله ما منّ به على إبراهيم من رزقه إسحاق بعد أن طعن فى السن، ومن بعده يعقوب بن إسحاق، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا إلى عبادة الله فى الأرض ، فعوض الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه وعلى دينه ؛ كإسحاق ويعقوب ، وكلا منّ الله عليه بالهداية الكاملة التى هى النبوة والرسالة ، مثل ما منّ الله على نوح عليه السلام من قبل بالهداية الكاملة ، والذرية الصالحة الباقية ، فكل من فى الأرض من الخلق ذريته ، وقد جعل الله من ذريته إبراهيم عليه السلام الأنبياء والرسل الكثيرين » .

وفى الآيات ذكر لسبعة عشر نبياً رسولاً ـ غير نوح وإبراهيم ـ وإشارة إلى آخرين ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ والتعقيبات على هذا الموكب ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .. ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .. ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وكلها تعقيبات تقرر إحسان هذا الرهط الكريم واصطفاءه من الله ، وهدايته إلى الطريق المستقيم .

ويقول صاحب الظلال : « وذكر هذا الرهط على النحو ، واستعراض هذا الموكب فى هذه الصورة ، كلمة تمهيد للتقريرات التى تليه ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ . وهذا تقرير لينابيع الهدى فى هذه الأرض . فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل . وينحصر المستيقن منه ، والذى يجب اتباعه ، فى هذا المصدر الواحد ، الذى يقرر الله ـ سبحانه أنه هو هدى الله ؛ وأنه هو الذى يهدى إليه من يختار من عباده، ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله ؛ وتوحيد المصدر الذى يستمدون منه هداه ، وأشركوا بالله فى الاعتقاد أو العبادة أو التلقى ، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم ، أى أن يذهب ضياعاً ، ويهلك كما تهلك الدابة التى ترعى نبتًا مسمومًا فتنتفخ ثم تموت ، وهذا هو الأصل اللغوى للحبوط !

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ ؛ وهذا هو التقرير الثانى ، فقرر فى الأول مصدر الهدى ، وقصره على هدى الله الذى جاءت به الرسل ، وقرر فى الثانى أن الرسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم ، هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة والحكم يجىء بمعنى الحكمة كما يجىء بمعنى السلطان كذلك ـ وكلا المعنيين محتمل فى الآية ، فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى ، والزبور مع داود ، والإنجيل مع عيسى ، وبعضهم آتاه الله الحكم كداود وسليمان ـ وكلهم أوتى السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله .

وأن الدين الذى جاؤوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور ، فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا ، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط . كما جاء فى الآيات الأخرى . وكلهم أوتى الحكمة وأوتى النبوة .. وأولئك هم الذين وكلهم الله بدينه ، يحملونه إلى الناس ،

ويقومون عليه ، ويؤمنون به ويحفظونه ، فإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة مشركو العرب : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ فإن دين الله غنى عنهم ؛ وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين !

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، وهو التقرير الثالث ، فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان ، هم الذين هداهم الله ، وهداهم الذى جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله ﷺ ومن آمن به . فهذا الذى وحده هو الذى يدعو إليه ويبشر به .. قائلاً لمن يدعوهم : ﴿ لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾ .. ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لا يُختص به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد ، إنه هدى الله لتذكير البشر كافة ومن ثم فلا أجر عليه يتقاضاه . وإنما أجره على الله !

وأما أخذ الأجرة على التلاوة ، ففى الصحيحين ، عن عبد الله بن مسعود فى قصة اللديغ من قوله ﷺ : « إن حق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله ، أصبتم اقتسموا ، واضربوا لى معكم سهما » .

قال العلامة الشوكانى : حديث : « أحق ما أخذتم عليه أجرا » عامٌ يصدق على التعليم ، وأخذ الأجرة على التلاوة لمن طلب من القارئ ذلك ، وأخذ الأجرة على الرقية ، وأخذ ما يدفع إلى القارئ من العطاء ، لأجل كونه قارئا ، ونحو ذلك ، فيخص من هذا العموم تعليم المكلف ، ويبقى ما عداه داخلا تحت العموم ، وبعض أفراد العام فيه أدلة خاصة تدل على جوازه كما دل العام على ذلك ، فمن تلك الأفراد ... تعليم المرأة فى مقابلة مهرها ... »

قال صاحب الأساس : بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ قالوا . ومعنى توكيلهم بها أنهم وفّقوا للإيمان بها ، والقيام بحقوقها ، كما يوكل الرجل بالشىء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه ، أقول : ومن الموكلين من أشار إليهم الرسول ﷺ بقوله : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ - الإيمان وعدم الظلم (أى الشرك) شرطان لتحقيق الأمن فى الدنيا والآخرة .

٢ - خير ما يعطى المرء فى هذه الحياة أن يوفقه الله إلى الهداية والتزام الطريق المستقيم .

٣ - أنبياء الله ورسله - عليهم السلام - هم خير المهتدين وأفضل الطائعين .

٤ - مشروعية جدال المبطلين والمشركين لإقامة الحجة عليهم لعلهم يهتدون .

٥ - أحق العباد بالأمن من الخوف من آمن بالله ولم يشرك به شيئاً .

٦ - الشرك محبط للعمل كالردة والكفر .

٧ - وجوب الاقتداء بالرسول ﷺ وأهل العلم والصلاح من هذه الأمة .

٨ - القرآن الكريم ذكرى لكل من يقرؤه أو يستمع إليه وهو شهيد حاضر القلب .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

معانى الكلمات :

ما قدروا الله : ما عرفوا الله . **قراطيس** : أوراقا مكتوبة مفرقة . **خوضهم** : باطلهم . **أم القرى** : مكة أى أهلها . **من حولها**:أهل المشارق والمغارب . **غمرات الموت** : سكراته وشدائده . **عذاب الهون** : الذل والخزى . **ما خولناكم** : ما أعطيناكم من متاع الدنيا

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف مقتضيات الإيمان ونتخلق بمظاهر الهداية والاستقامة .

٢ ـ أن نعظم الله ونقدره ونعرفه حق المعرفة عن طريق كتبه ورسله وآياته فى كتابه المنظور وهو الكون .

٣ ـ أن نتعظ بمصارع الطغاة والظالمين يوم القيامة ونحذر أن نكون منهم .

٤ ـ أن نعلم مقتضيات الشفاعة ونعمل لها قبل يوم القيامة .

المحتوى التربوى :

تندد هذه الآيات بمنكرى النبوات والرسالات ، وتصمهم بأنهم لا يقدرون الله قدره ، ولا يعرفون حكمة الله ورحمته وعدله.

وتقرر أن الرسالة الأخيرة إنما تجرى على سنة الرسالات قبلها؛ وأن الكتاب الأخير مصدق لما بين يديه من الكتب ؛ فلقد كان المشركون فى معرض العناد واللجاج يقولون : إن الله لم يرسل رسولًا من البشر ؛ ولم ينزل كتابًا يوحى به إلى بشر . بينما كان إلى جوارهم فى الجزيرة أهل الكتاب من اليهود ؛ ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب ، ولا أن الله أنزل التوراة على موسى عليه السلام إنما هم كانوا يقولون ذلك القول فى زحمة العناد واللجاج ، ليكذبوا برسالة محمد ﷺ لذلك يوجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم : ما أنزل الله على بشر من شىء .

كما يواجههم بالكتاب الذى جاء به موسى من قبل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ .

ولما كانت رسالة موسى معروفة بين العرب فى الجزيرة ، وكان أهل الكتاب معروفين هناك ، فقد أمر الله رسوله أن يواجه المشركين المنكرين لأصل الرسالة والوحى ؛ بتلك الحقيقة ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ فأمر الله ـ عز وجل ـ نبيه أن يسألهم من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس، مما يجعله اليهود صحائف يخفون بعضها ويظهرون بعضها قضاء للباناتهم من وراء هذا التلاعب الكريه !

كذلك واجههم بأن الله علمهم بما يقص عليهم من الحقائق والأخبار ما لم يكونوا يعلمون ؛ فكان حقاً عليهم أن يشكروا فضل الله ؛ ولا ينكروا أصله بإنكار أن الله نزل هذا العلم على رسوله وأوحى به إليه .

ولم يترك لهم أن يجيبوا على ذلك السؤال . إنما أمر رسول الله ﷺ أن يحسم القول معهم فى هذا الشأن؛وألا يجعله مجالاً لجدل لا يثيره إلا اللجاج : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

وتمضى الآيات تحكى شيئاً عن الكتاب الجديد ، الذى ينكر الجاحدون أن يكون الله نزله .فإذا هو حلقة مسبوقة جاءت قبلها حلقات ، فليس بدعاً من الكتب التى ينزلها الله على من يشاء من رسله الكرام ؛ إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل ، وأن ينزل عليهم الكتب . وهنا الكتاب الجديد الذى ينكرون تنزيله ، هو كتاب مبارك .. وصدق الله. فإنه والله لمبارك .

ويقول صاحب الظلال: فأما حكمة إنزال هذا الكتاب ، فلكى ينذر به الرسول ﷺ أهل مكة ـ أم القرى ـ وما حولها ، وليس المقصود ، كما يتصيد أعداء الإسلام من المستشرقين ، أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها. فهم يقتطعون هذه الآية من القرآن كله ، ليزعموا أن محمداً ﷺ ما كان يقصد فى أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها ، وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذى ما كان خياله يطمح فى أول الأمر إلى أوسع منه ؛ فتوسع فى الجزيرة كلها ، ثم همَّ أن يتخطاها لمصادفات لم يكن فى أول الأمر على علم بها ! وذلك بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته بها، وكذبوا ففى القرآن المكى وفى أوائل الدعوة قال الله ـ سبحانه ـ لرسوله ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ : ٢٨) ولعل الدعوة يومذاك كانت محصورة فى شعاب مكة يحيط بها الكرب والابتلاء !

وتعرض الآيات مشهد الظالمين الذين يفترون على الله الكذب ، أو يدعون أنهم أوحى إليهم ادعاء لا حقيقة له ، أو يزعمون أنهم مستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن . مشهد هؤلاء الظالمين ـ الذين لا يقاس إلى ظلمهم هذا الظلم هذا ظلم ـ وهم فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم إليهم بالعذاب ، ويطلبون أرواحهم والتأنيب يجبه وجوههم ، وقد تركوا كل شىء وراءهم وضل عنهم شركاؤهم .

والمشهد الذى ترسمه الآيات فى جزاء هؤلاء الظالمين مشهد مفزع مرعب مكروب ، الظالمون فى غمرات الموت وسكرته والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب وهم يطلبون : أرواحهم للخروج ! وهم يتابعون بالتأنيب ، جزاء استكبارهم ، وجزاء الكذب على الله .

ثم فى النهاية ، ذلك التوبيخ والتأنيب من الله تعالى ، الذى كذبوا عليه ، وهاهم أولاء بين يديه ، يواجههم فى موقف الكربة والضيق : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقد ند عنكم كل شىء ، وتفرق عنكم كل أحد ؛ وما عدتم تقدرون على شىء مما ملككم الله إياه ، وتركتم كل شىء من مال وزينة ، وأولاد ومتاع ، وجاه وسلطان . كله هناك متروك وراءكم ، ليس معكم شىء منه ، ولا تقدرون منه على قليل أو كثير ! ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاؤُا﴾ فأين ذهب الشركاء والشفعاء : تقطع كل شىء كل ما كان موصولاً ، كل سبب وكل حبل وغاب عنكم كل ما كنتم تدّعونه من شتى الدعاوى،ومنها أولئك الشركاء، وما لهم من شفاعة عند الله أو تأثير فى عالم الأسباب .

وهكذا عرض الله علينا ما يناله هؤلاء الظالمون من تقريع وتوبيخ ساعة موتهم ويوم بعثهم ، وما بعد ذلك من العذاب أشد ؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله حق الإيمان ، ولم يعظّموه حق التعظيم ، ولم يعرفوه حق المعرفة ، بحيث يؤمنون به، وبصفاته التى تقتضى إيماناً باليوم الآخر، وإيماناً بالرسُل ، وإيمانا بالوحى ، وبُعداً عن الكذب عليه أو تكذيب رسله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ من مقتضيات الإيمان بالله توحيده وخوفه وحده ، وأن من منن الله على من وحده أن يهديه ، وأن محمداً ﷺ مظهر من مظاهر استمرار التوحيد والهداية .

٢ ـ من تعظيم الله وكمال معرفته الإيمان بأنه ينزل وحياً ويرسل رسُلاً ، وأن محمداً ﷺ هو الذى يعظم الله حق التعظيم ويعرفه حقَّ المعرفة .

٣ ـ من لم يؤمن بالقرآن ، أو ادّعى على الله ما لم يتصف به ، أو ادّعى أن الله أنزل عليه ولم ينزل أظلم الخلق وأن هؤلاء الظالمين سيرون مغبة ظلمهم توبيخًا وتقريعًا،يوم يموتون،ويوم يبعثون .

٤ ـ فى يوم القيامة تنقطع العلاقات ، ولا ينفع الإنسان إلا ما قدم من عمل صالح فى هذه الدنيا .

٥ ـ انعدام الشفعاء يوم القيامة إلا ما قضت السنة الصحيحة من شفاعة النبى ﷺ ، والعلماء والشهداء بشروط هى : أن يأذن الله للشافع أن يشفع ، وأن يرضى عن المشفوع له .

الجزء السابع — سورة الأنعام

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

١٤٠

معانى الكلمات :

فالق الحب : شاقُّهُ عن النبات ، أو خالقه

فأنى تؤفكون: فكيف تُصرَفُون عن عبادته .

فالق الإصباح : شاقُّ ظلمته عن بياض النهار . **حسبانا** : وسيلة لحساب السنين والأيام . **مستقر**: فى الأصلاب . **مستودع** : فى الأرحام . **حباً متراكباً** : متراكما كسنابل الحنطة . **طَلعِهَا** : هو أول ما يخرج من ثمر النخل . **قنوان**:جمع قنو وهو عنقود البلح . **دانية** : قريبة أو متدلية .

وينعه : حال نضجه وإدراكه .

خرقوا له : اختلقوا وافتروا له ـ سبحانه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتدبر فى خلق الله ، ونتأمل فى مشاهد الكون من حولنا ، فإن ذلك يزيد الإيمان بالله .

٢ ـ أن نعرف قيمة العقل فى إدراك العقيدة الصحيحة .

٣ ـ أن نوقن أن الله ـ عز وجل ـ منزه عن الشريك والولد والشبيه .

٤ ـ أن نحرر التوحيد لله ـ عز وجل ـ ونقدسه وننزهه عن كل نقص .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات الرائعة الباهرة يأتى الحديث عن المعجزة التى لا يدرى سرها أحد ؛ فضلاً على أن يملك صنعها أحد ! معجزة الحياة ـ نشأة وحركة ـ وفى كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة والحياة الكامنة فى الحبة والنواة فى النبتة والشجرة ، سر مكنون ، لا يعلم حقيقته إلا الله ، ولا يعلم مصدره إلا الله .

ومنذ البدء أخرج الله الحى من الميت فقد كان هذا الكون ولم يكن هناك حياة ، ثم كانت الحياة ، أخرجها الله من الموات كيف ؟ لا ندرى ! وهى منذ ذلك الحين تخرج من الميت ؛ فتتحول الذرات الميتة فى كل لحظة ـ عن طريق الأحياء ـ إلى مواد عضوية حية تدخل فى كيان الأجسام

الحية ؛ وتتحول ـ وأصلها ذرات ميتة إلى خلايا حية والعكس كذلك ، ففى كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة إلى أن يتحول الكائن الحى كله ذات يوم إلى ذرات ميتة !

ويعقب الله على هذه المعجزة ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ ؛ ذلكم الله الذى يستحق الربوبية فيكم والرب هو المربى والموجه والسيد والحاكم ، ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا الله ، وفالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضًا ، وهو الذى جعل الليل للسكون ، وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتها مقدرة دوراتها ، مقدرًا ذلك كله بقدرته التى تهيمن على كل شىء ، وبعلمه الذى يحيط بكل شىء .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ تأتى هذه الآية تتمة لمشهد الفلك الدائر بشمسه وقمره ونجومه ، وتتمة لعرض المشهد الكونى الهائل الرائع مرتبطًا بحياة البشر ومصالحهم واهتماماتهم .

ويعود السياق فيلمس النفس البشرية ذاتها ، حيث تبدأ الحياة خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة . فنفسُ هى مستودع لهذه الخلية فى صلب الرجل ، ونفسُ هى مستقر لها فى رحم الأنثى ، ثم تأخذ الحياة فى النمو والانتشار ، فإذا أجناس وألوان وإذا شعوب وقبائل ؛ وإذا النماذج التى لا تُحصى ، والأنماط التى ما تزال تتنوع ما دامت الحياة .

ثم يمضى السياق إلى مشاهد الحياة المتفتحة فى جنبات الأرض ، تراها الأعين ، وتستجليها الحواس ، وتتدبرها القلوب ، وترى فيها بدائع صنع الله ، والسياق يعرضها ـ كما هى فى صفحة الكون ، ويلفت إليها النظر فى شتى أطوارها ، وشتى أشكالها ؛ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « ودور الماء الظاهر فى إنبات كل شىء دور واضح يعلمه البدائى والمتحضر ، ويعرفه الجاهل والعالم ، ولكن دور الماء فى الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذى يخاطب به القرآن الناس عامة ؛ فقد شارك الماء ابتداء ـ بتقدير الله فى جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات ، ثم ظل الماء يشارك فى إخصاب هذه التربة ، وذلك بإسقاط (النتروجين ـ الأزوت) من الجو كلما أبرق فاستخلصت الشرارة الكهربائية التى تقع فى الجو ، النتروجين الصالح فى الذوبان فى الماء يسقط مع المطر ؛ ليعيد الخصوبة إلى الأرض ، وهو السماد الذى قلد الإنسان القوانين الكونية فى صنعه » .

وعندما يبلغ السياق إلى هذا المقطع ؛ وقد عرض على القلب البشرى صفحة الوجود الحافلة بدلائل وجود الله ، ووحدانيته ، وقدرته ، وتدبيره ، وقد غمر الوجدان بتلك الظلال الكونية الموحية وقد وصل الضمير بقلب الوجود النابض فى كل حى ، الناطق ببديع صنع الخلاق ، عندما يبلغ إلى هذا المقطع يعرض شرك المشركين ، فإذا هو غريب فى هذا الجو المؤمن الموصول

بمبدع الوجود ويعرض أوهام المشركين ، فإذا هى سخف تشمئز منه القلوب والعقول . وسرعان ما يعقب عليها بالاستنكار .

وقد كان بعض مشركى العرب يعبدون الجن ، وهم لا يعرفون من هم الجن ! ولكنها أوهام الوثنية ! والنفس متى انحرفت عن التوحيد المطلق قيد شبر انساقت فى انحرافها إلى أى مدى ؛ وانفرجت المسافة بينها وبين نقطة الانحراف التى بدأت صغيرة لا تكاد تلحظ !

وهؤلاء المشركون كانوا على دين إسماعيل ، دين التوحيد الذى جاء به إبراهيم عليه السلام فى هذه المنطقة ، ولكنهم انحرفوا عن هذا التوحيد ، ولابد أن يكون الانحراف قد بدأ يسيرًا .

ثم انتهى إلى مثل هذا الانحراف الشنيع الذى يبلغ أن يجعل الجن شركاء لله وهم من خلقه ـ سبحانه .

ويواجه القرآن الكريم فريتهم هذه وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية ، ويناقشهم فى هذه التصورات بما يكشف عما فيها من هلهلة ، فيرد عليهم بأن الذى يبدع هذا الوجود إبداعاً من العدم ما تكون حاجته إلى الخلق ؟! والخلق إنما هو امتداد الفانين وعون الضعفاء ، ولذة من لا يبدعون ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر ، أن يكون للكائن صاحبة أنثى من جنسه ، فكيف يكون لله ولد ـ وليست له صاحبة ـ وهو سبحانه ـ فرد أحد ، ليس كمثله شىء ، فأنى يكون النسل بلا تزاوج ؟ كما يواجههم بعلم الله المطلق الذى لا تقابله منهم إلا أوهام وظنون : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ قال صهيب الرومى رضي الله عنه لامرأته وقد عاتبته فى كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب ، إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه ـ [رواه ابن أبى حاتم] .

٢ ـ قال ابن كثير : قال بعض السلف : من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله ـ سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها فى ظلمات البّر والبحر .

٣ ـ الدين الإسلامى يحترم العقل ،ويدعو إلى استخدامه فيما يعتنق الناس من مبادئ صالحة، وما يختارون من ألوان السلوك الرشيد .

٤ ـ الحث على البحث فى الطبيعة ، وخواص المادة ؛ للإفادة مما أودع الله فيها من خواص ومنافع ، ودراسة علم النبات ، والربط بينه وبين الإيمان .

٥ ـ إن العقيدة الصحيحة هى التى تنشأ عن الفهم والاقتناع ، لا عن مجرد التقليد والمحاكاة .

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

معانى الكلمات :

وكيل : رقيب . **لا تدركه الأبصار** : لا تحيط به ـ تعالى . **بصائر** : آيات وبراهين .

درست: قرأت وتعلمت من أهل الكتاب .

عدوًا : اعتداءً وظلمًا . **نذرهم** : نتركهم .

يعمهون : يتحيرون أو يعمون عن الرشد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف إلى الله بأسمائه وصفاته ونقدسه ـ عز وجل .

٢ ـ أن نوقن أن الله هو الإله الواحد المعبود بحق ، والمتصرف فى خلقه بما يريد .

٣ ـ ألا نتعرض للآخرين بالسب والتجريح حتى لا يسيئوا للدعوة ، ولا يعتدوا على ديننا ـ ظلماً وجهلاً .

٤ ـ أن نعلم أن الهداية جزاؤها خير لصاحبها ، والضلال شقوة على الكافرين .

المحتوى التربوى :

تمضى هذه الآيات وتقرر أن الله هو الذى خلق السموات والأرض وأبدعهما ، وخلق كل شىء والذى هو بكل شىء عليم ، هو ربنا ، لا الجنّ ولا غيرهم ، فهو الله لا إله إلا هو خالق كل شىء ، وهو الذى يستحق العبادة وحده ، فاعبدوه وحده ؛ إذ هو الحفيظ والرقيب والمدبّر لكل من سواه ، يرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار .

وهذا الإله العظيم لا تدركه الأبصار فى الدنيا ، ولا تحيط به لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فلا أحد يستطيع أن يحيط بكنه عظمته وجلاله على ما هو عليه ، أما هو فإنه يدرك الأبصار يراها ويحيط بها علماً على ما هى عليه ؛ لأنه خلقها ، إذ هو اللطيف الذى يعلم دقائق الأمور ومشكلاتها ، العليم بظواهر الأشياء وخفياتها .

وبعد أن قررت الآيات شرك من أشرك وردت عليهم الرد البليغ العجيب المدهش الذى فيه وصف الذات الإلهية مما يّدل على أن القرآن من عند الله ؛ إذ من يستطيع أن يصف الله هذا الوصف المدهش إلا هو ـ جل جلاله .

ثم إنه بعد هذا الرد والبلاغ يذكر الله ـ عز وجل ـ أنة بإنزاله هذا القرآن قد أعطى البشر البصائر كلها أى : البينات والحجج التى يرى بها الإنسان الأشياء على ماهى عليه ، فمن أبصر بها

وعلى ضوئها ، فمصلحة ذلك عائدة عليه ، ومن عمى عنها ولم ير بها فوبال ذلك عائد عليه ، ومحمد ﷺ مبلغ وما هو بحافظ ولا رقيب .

ثم بيّن ـ تعالى ـ أنه بمثل هذا البيان الرائع ، وهذا التقرير العظيم ، وهذه الحجة الواضحة ، يبيّن الآيات ، ويوضحها ويفسرها ، ويكررّها ، فأما الكافرون والمشركون والمنافقون ، فإنهم بدلاً من أن يؤمنوا يتّهمون الرسول ﷺ بأن هذا الكتاب أثر عن دراسته ومدارسته مع أهل الكتاب ، لا أثر عن نبوته والوحى إليه ، وأما العالمون فيؤمنون ، ويتضح لهم بهذا الإيمان الحقّ كله فى كل شىء نتيجة هذا التصريف للآيات بمثل هذا البيان والكمال .

وبعد هذا البيان يأتى أمر ونهى لرسول الله ﷺ ولأمته من بعده :

أما الأمر فهو : أن عليه ﷺ أن يتبع ما أنزل الله عليه بالاقتداء به واقتفاء أثره والعمل به ، وأن عليه أن يعرض عن المشركين بالعفو والصفح ،واحتمال الأذى حتى يفتح الله ثم يبيّن الله ـ تعالى ـ أن لله حكمة فى إضلال الضالين ، فإنه لو شاء لهدى الناس جميعاً ، ولو شاء لجمعهم على الهدى ، فله المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون،وإذا كان الأمر كذلك، فالله وحده هو الحفيظ على أقوالهم وأفعالهم ، وهو الوكيل على أمورهم وأرزاقهم وليس محمد ﷺ بوكيل ولا بحفيظ بل هو مبلغ فقط .

ثم نهى الله رسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، حتى لا يسبوا الله ـ ظلماً وجهلاً ، ثم بيّن ـ تعالى ـ أنه كما زّين لهؤلاء القوم حب أصنامهم المحاماة لها والانتصار ، كذلك زُيِّن لكل أمة ضالة من الأمم الخالية عملهم الذى كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره ، وإليه المعاد ، وسوف يُحاسب الجميع على أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

قال أبو السعود : « إن كل ما يظهر فى هذه النشأة من الأعيان والأعراض ، فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقة التى بها يظهر فى النشأة الآخرة ، فإن المعاصى سموم قاتلة ، قد برزت فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة ، كما نطقت به هذه الآية الكريمة ، وكذا الطاعات ، فإنها مع كونها الأحاسن ، قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ، فأعمال الكفر قد برزت لهم فى هذه النشاة بصورة مزينة تستحسنها الغواة وتستحبها الطغاة ، وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة ، فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا ؟ .. » .

ويخبر الله ـ تعالى ـ عن المشركين والكافرين أنهم يحلفون الأيمان المؤكدة لئن جاءتهم معجزة خارقة ليصدقُنّها ، وهذا يفيد أنهم يدّعون أنّ الآيات ليست كافية للإيمان ، أو أنها غير موجودة ، وهذا كذب وافتراء وتعنت منهم ، ولقد أمر الله رسوله أن يعلن أن أمر الآيات إلى الله ، وأن الآيات عنده كثيرة ، وما أنزل فيه كفاية ولكنهم متعنّتون ولذلك خاطب المؤمنين مبيّناً لهم أن الكافرين إذا جاءتهم الآيات التى يقترحونها فإنّهم لا يؤمنون .

يقول صاحب الظلال : بمناسبة هذا التوجيه لرسول الله ﷺ يحدد المجال الذى يتناوله اهتمام الرسول ﷺ وعمله ، كما يحدد هذا المجال لخلفائه وأصحاب الدعوة إلى دينه فى كل أرض وفى كل جيل : إن صاحب الدعوة لا يجوز أن يعلق قلبه وأمله وعمله بالمعرضين عن الدعوة ، المعاندين الذين لا تتفتح قلوبهم لدلائل الهدى وموجبات الإيمان ، إنما يجب أن يفرغ قلبه ، وأن يوجه أمله وعمله للذين سمعوا واستجابوا ، فهؤلاء فى حاجة إلى بناء كيانهم كله على القاعدة التى دخلوا الدين عليها ، قاعدة العقيدة ، وفى حاجة لإنشاء تصور لهم كامل عميق عن الوجود والحياة على أساس هذه العقيدة . وفى حاجة إلى بناء أخلاقهم وسلوكهم ؛ وبناء مجتمعهم الصغير على هذا الأساس نفسه ، وهذا كله يحتاج إلى الجهد ، ويستحق الجهد .

فأما الواقفون على الشق الآخر ، فجزاؤهم الإهمال والإعراض بعد الدعوة والبلاغ ، وحين ينمو الحق فى ذاته فإن الله يجرى سنته ، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . إن على الحق أن يوجد ومتى وجد الحق فى صورته الصادقة الكاملة ، فإن شأن الباطل هيّن ، وعمره كذلك قريب !

وأخيراً يختم هذا الدرس ، الذى استعرض فيه صفحة الوجود الحافلة بالآيات والخوارق فى كل لحظة من ليل ونهار يختمه بأن هؤلاء المشركين الذى يقسمون جهد أيمانهم أن لو جاءتهم آية ليؤمنن بها ، إن هذا القلب الذى لا يؤمن بآيات الله المبثوثة فى هذا الوجود هو قلب مقلوب ؛ والله الذى يعلم حقيقة هذه القلوب يعوقهم عن الإيمان ويذرهم فى طغيانهم ؛ لأنه يعلم منهم أنهم يستحقون جزاء التكذيب ، وهذه هى الحقيقة التى يجهلها أكثر الناس عن طبائع القلوب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الله ـ تعالى ـ هو الإله الواحد المعبود بحق ، وهو خالق كل شىء ، وهو المتصرف فى خلقه بما يريد .

٢ ـ أن الله ـ تعالى ـ يحيط علمه بكل شىء ، ولا يخفى عليه شىء ، ونحن لا نستطيع الإحاطة به ـ تعالى ـ لأنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

٣ ـ جزاء الهداية يعود على المهتدى ، وعقاب الضلالة يعود على الضال .

٤ ـ إن الذين يطلبون فى سذاجة أن يروا الله ، كالذين يطلبون فى سماجة دليلاً مادياً على الله ! هؤلاء لا يدركون ماذا يقولون .

٥ ـ على الداعية أن يكون دقيقاً جداً فى طرق الخطاب وفى مواقفه وفى مناقشته ، ففى كثير من الأحيان لا يؤدى التجريح المباشر والمواجهة به إلى خير فى نقل الإنسان من حالة إلى حالة أطيب وأكرم ، ووضع الأمور فى مواضعها هو الحكمة ، والحكمة معنى زائد على العلم ، ومعرفة الحكم الشرعى .

الجزء ٨ الحزب ١٥

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون (١١١) وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١١٢) ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون (١١٣) أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين (١١٤) وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم (١١٥) وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون (١١٦) إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١١٧) فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين (١١٨)

معانى الكلمات :

حشرنا : جمعنا . **قبلا** : مواجهة أو جماعة .

زخرف القول : القول الباطل . **لتصغى إليه** : لتميل إلى زخرف القول . **ليقترفوا** : ليفعلوا الذنوب . **الممترين** : الشاكين فى أنهم يعلمون ذلك . **كلمة ربك** : قرآنه .

يخرصون : يكذبون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الهداية والضلال بيد الله ـ عز وجل ـ فهو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

٢ ـ أن ندرك حكمة الله فى ترك الشياطين يكيدون لعباده فى كل وقت وحين .

٣ ـ أن نحذر التمويه والتغرير ، فإن أمضى سلاح للشياطين هو التزيين والتغرير .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق حديثه السابق الموصول فى نهاية الجزء السابع ؛ والمتعلق بما كان يقترحه مشركو العرب على رسول الله ﷺ من الخوارق التى يريدون أن يأتى لهم بها فيصدقوه ، وما كان من حلفهم بالله حلفا مكرراً مؤكداً أن لو جاءتهم هذه الآيات التى يطلبون إنهم ليؤمنون ! مما جعل بعض المسلمين أنفسهم يشتهون أن لو يجيبهم الله إلى ما يطلبون ! ويقترحون على رسول الله ﷺ أن يسأل ربه هذه الآيات التى يقترحها المقترحون .

ويقول محمد بن جرير الطبرى فى تفسير قوله ـ تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ .... الآية : « يقول ـ تعالى ذكره ـ لنبيه محمد ﷺ يا محمد آيس من فلاح هؤلاء المعادين بربهم الأوثان والأصنام ، القائلين لك : ﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عيانا ، وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك ، ودلالة على نبوتك ، وأخبروهم أنك محق فيما تقول ، وأن ما جئتهم به حق من عند الله ؛ وحشرنا عليهم كل شىء فجعلناهم لك قبلا ما آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك ـ إلا أن يشاء الله لمن شاء منهم ولكن أكثرهم يجهلون بعد ذلك تجىء آيتان فى سياق السورة ؛ هما من ناحية تكملة للمعانى والحقائق التى تستهدفها الفقرة

السابقة التى انتهينا من الحديث عنها ، ومن ناحية هما تمهيد للقضايا العقدية المتعلقة بالسلطان والشريعة والحاكمية .

يقول الله - تعالى - كذلك قدرنا أن يكون لكل نبى عدوهم شياطين الإنس والجن ، وقدرنا أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعوهم به ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى ، وقدرنا أن تصغى إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويرضوه ، ويقترفوا ما يقترفونه من العداوة للرسل وللحق ؛ ومن الضلال والفساد فى الأرض . كل ذلك إنما جرى بقدر الله ، وفق مشيئه ، ولو شاء ربك مافعلوه ، ولمضت مشيئته بغير هذا كله ؛ ولجرى قدره بغير هذا الذى كان . فليس شىء من هذا كله بالمصادفة ، وليس شىء من هذا كله كان بسلطان من البشر كذلك أو قدرة !

ويأمر الله نبيه ﷺ أن يدعهم وافتراءهم فإنه - عز وجل - من ورائهم قادر على أخذهم ، مدخر لهم جزاءهم ، ولتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، فهؤلاء يحصرون همهم كله فى الدنيا ، وهم يرون الشياطين فى هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبى ، وينالون بالأذى أتباع كل نبى ، ويزين بعضهم لبعض القول والفعل فيخضعون للشياطين ، معجبين بزخرفهم الباطل ، معجبين بسلطانهم الخادع . ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم والمعصية والفساد فى ظل ذلك الإيحاء ، وبسبب هذا الإصغاء .

يقول صاحب الظلال : « ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً ، إنه محاط بمشيئة الله وقدره ، لا يقدر الشياطين على شىء منه إلا بالقدر الذى يشاؤه الله وينفذه ويقدره . ومن هنا يبدو هذا الكيد - على ضخامته - تجمع قوى الشر العالمية كلها عليه ، مقيداً مغلولاً ! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط ، ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع - كما يحب الطغاة أن يلقوا فى روع من يعبدونهم من البشر ؛ ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم .. كلا ! إن إرادتهم مقيدة بمشيئته الله ، وما يضرون أولياء الله بشىء إلا بما أراده الله - فى حدود الابتلاء . ومرد الأمر كله لله .

ويأتى الحديث للقضية التى تعالجها السورة - قضية الحل والحرمة فيما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح ، وهى تأخذ أهميتها من ناحية تقرير المبدأ الإسلامى الأول : مبدأ حق الحاكمية المطلقة لله وحده ، ويأتى السؤال على لسان رسول الله ﷺ للاستنكار ، استنكار أن يبتغى حكما غير الله فى شأن من الشؤون على الإطلاق ، وتقرير الحاكمية لله فى الأمر كله ، ونفى أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالباً حكمه فى أمر الحياة كله .

ثم تفصيل لهذا الإنكار ، وللملابسات التى تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكرًا غريبًا ، إن الله لم يترك شيئاً غامضاً ؛ ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر ، يحكمونه فيما يعرض لهم من مشكلات الحياة : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ مُفَصَّلٗا ﴾ .

ولقد كانت هذه ملابسة حاضرة فى مكة ، وفى الجزيرة يخاطب الله بها المشركين سواء أقر أهل الكتاب بها وجهروا ـ أو كتموها وجحدوها ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ . وحين يقرر السياق أن هذا الكتاب أنزله الله مفصلا ؛ وأن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق يلتفت إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين به ، يهون عليه وعليهم شأن التكذيب والجدل الذى يجدونه من المشركين ؛ وشأن الكتمان والجحود الذى يجدونه من بعض أهل الكتاب ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ ويمضى السياق فى هذا الاتجاه ؛ يُقرر أن كلمة الله الفاصلة قد تمت ؛ وأنه لا مبدل لها بفعل الخلق ، بالغًا ما بلغ كيدهم : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الذى يسمع ما يقوله عباده ، ويعلم ما وراءه ، كما يعلم ما يصلح لهم ، وما يصلحهم .

ويحذر الرسول ﷺ أن يطيع الناس فى شىء يشيرون به عليه من عند أنفسهم ؛ مهما بلغت كثرتهم ؛ فالجاهلية هى الجاهلية مهما كثر أتباعها الضالون ، ثم قرر أن الذى يحكم على العباد بأن هذا مهتدٍ وهذا ضال هو الله وحده ؛ لأن الله وحده هو الذى يعلم حقيقة العباد ، وهو الذى يقرر ما هو الهدى وما هو الضلال .

وبعد هذا التمهيد التقريرى تجىء قضية الذبائح ، فيأمر الله نبيه وأمته أن تأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وهذا الذكر يقرر الوجهة ويحدد الاتجاه ، ويعلن إيمان الناس بطاعة هذا الأمر الصادر إليهم من الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبى ؛ ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء هم « شياطين » ! شياطين الإنس والجن، وأن بعضهم يخدع بعضاً ، ويضله كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله .

٢ ـ أن حكمة الله وقدرته هى التى اقتضت أن يترك الشياطين من الإنس والجن يكيدون لتمحيص أوليائه وابتلائهم ؛ ليخلصون من خط أنفسهم ويبيعونها بيعة واحدة لله ، على السراء وعلى الضراء سواء ، وفى المنشط والمكره سواء .

٣ ـ هوان الشياطين من الإنس والجن، وهوان كيدهم وأذاهم ، فما يستطيلون بقوة ذاتية هم ؛ وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم ، والمؤمن الذى يعلم أن ربه هو الذى يقدر ، وهو الذى يأذن ، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين ، مهما تبلغ قوتهم وسلطانهم المدَّعى .

٤ ـ من التضليل تحريم الكافرين ما أحل الله ، وتحليلهم ما حرمه ، فعلى المسلم أن يأكل مما ذكر اسم الله على ذبحه فذلك من الإيمان .

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

١٤٣

معانى الكلمات :

ذروا : تركوا . **يقترفون** : يفعلون من الذنوب أياً كانت . **إنه لفسق** : معصية وخروج عن الطاعة . **صغار** : هوان وذل عظيم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان سماحة ويسر الإسلام فيما شرعه الله على عباده من الحلال والحرام .

٢ ـ أن نعرف حكم أكل ما لم يذكر عليه اسم الله،ومتى تكون حالة الاضطرار والضرورة فى أكل ذبائح غير المسلمين ، وما لم يذكر عليه اسم الله .

٣ ـ أن نتجنب الجدال ، لأنه لا يأتى بخير .

٤ـ أن نعرف الفرق بين المؤمن والكافر.

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يسأل الله الذين أشركوا مالهم فى الامتناع من الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وقد جعله الله لهم حلالاً ؟ وقد بيَّن الحرام الذى لا يأكلونه إلا اضطراراً ؟ فانتهى بهذا البيان كل قول فى حله وحرمته ؛ وفى الأكل منه أو تركه ؟

ولما كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة ـ إذ ذاك فى البيئة ، حيث كان المشركون يمتنعون من ذبائح أحلها الله ، ويحلون ذبائح حرمها الله ـ ويزعمون أن هذا هو شرع الله ! فإن السياق يفصل فى أمر هؤلاء المشترعين المفترين على الله ، فيقرر أنهم إنما يشرعون بأهوائهم بغير علم ولا اتباع ، ويضلون الناس بما يشرعونه لهم من عند أنفسهم ، ويعتدون على ألوهية الله وحاكميته بمزاولتهم لخصائص الألوهية وهم عبيد .

ثم يأمرهم الله بأن يتركوا الإثم كله ـ ظاهره وخافيه ـ ومنه هذا الذى يزاولونه من إضلال الناس بالهوى وبغير علم، وحملهم على شرائع ليست من عند الله وافتراء أنها شريعة الله ! ويحذرهم مغبة هذا الإثم الذى يقترفونه ، ثم ينهى عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح التى كانوا يذكرون عليها أسماء آلهتهم ؛ أو ينحرونها للميسر ويستقسمونها بالأزلام ؛ أو من الميتة التى كانوا يجادلون المسلمين فى تحريمها ، يزعمون أن الله ذبحها ! فكيف يأكل المسلمون

مما ذبحوا بأيديهم ، ولا يأكلون مما ذبح الله ؟! وهو تصور من تصورات الجاهلية التى لا حد لسخفها وتهافتها فى جميع الجاهليات .

وينتقل السياق ليصور طبيعة الكفر والإيمان ؛ ويقرر عدة حقائق يعبر عنها بصورة واقعية ، ويعلق صاحب الظلال على ذلك قائلاً : « إن هذه العقيدة تنشئ فى القلب حياة بعد الموت ؛ وتطلق فيه نوراً بعد الظلمات . حياة يعيد بها تذوق كل شيء وتصوره ، وتقدير كل شيء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة ، ونوراً يبدو كل شيء تحت أشعته وفى مجاله جديداً ، كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذى نوره الإيمان .

والكفر انقطاع عن الحياة الأزلية الأبدية ، التى لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب ، فهو موت وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة فى الوجود كله ، فهو موت ، والإيمان اتصال ، واستمداد واستجابة، فهو حياة .

ويقول صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ ؛ وكذلك كان المسلمون قبل هذا الدين قبل أن ينفخ الإيمان فى أرواحهم فيحييها ، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف ، كانت قلوبهم مواتاً ، وكانت أرواحهم ظلاماً ، ثم إذا قلوبهم ينفخ عليها الإيمان فتهتز ، وإذا أرواحهم يشرف فيها النور فتضيء ، ويفيض منها النور فتمشى به بين الناس تهدى الضال ، وتلتقط الشارد ، وتطمئن الخائف ، وتحرر المستعبد، وتكشف معالم الطريق للبشر ، وتعلن فى الأرض ميلاد الإنسان الجديد ، الإنسان المتحرر المستنير ، الذى خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد ! أفمن نفخ الله فى روحه الحياة ، وأفاض على قلبه النور كمن حاله أنه فى الظلمات ، لا مخرج له منها ؟ إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان ! فما الذى يمسك بمن فى الظلمات والنور حوله يفيض ؟ ؟ » .

وجعل الله فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ؛ ليتم الابتلاء ، وينفذ القدر ؛ وتتحقق الحكمة ، ويمضى كل فيما هو ميسر له ، وينال كل جزاءه فى نهاية المطاف ، فهى سُنة جارية أن ينتدب فى كل قرية ـ نفرًا من أكابر المجرمين فيها ، يقفون موقف العداء من دين الله ، ذلك أن دين الله يبدأ من نقطة تجريد هؤلاء الأكابر من السلطان الذى يستطيلون به على الناس ، ومن الربوبية التى يتعبدون بها الناس ، ومن الحاكمية التى يستذلون بها الرقاب ، ويرد هذا كله إلى الله وحده ، رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس .

ويؤكد الله ـ عز وجل ـ أن المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم ، فالله وليهم فيها ، وهو حسبهم وهو يرد على الكائدين كيدهم ، فليطمئن المؤمنون ؛ ثم يكشف السياق القرآنى عن طبيعة الكبر فى نفوس أعداء رسل الله ودينه والكبر الذى يمنعهم من الإسلام؛خشية أن يرجعوا عباداً كسائر العباد ، فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع ، ويكبر عليهم

أن يؤمنوا للنبى فيسلموا ، وقد تعودوا أن يكونوا فى مقام الربوبية للأتباع ، وأن يشرعوا لهم فيقبلوا منهم التشريع ، وأن يأمروهم فيجدوا منهم الطاعة والخضوع . من أجل ذلك يقولون قولتهم النكراء : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ وقد قال الوليد بن المغيرة : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك ، لأنى أكبر منك سنا ، وأكثر منك مالاً ! وقال أبو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدًا ، إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه !

ويرد الله على قولتهم المنكرة أولاً بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكونى الخطير ، ويرد عليهم ثانياً بالتهديد والتحقير وسوء المصير . والله وحده ـ سبحانه ـ هو الذى يعلم أين يضع رسالته ، ويختار لها الذات التى تنتدب من بين ألوف الملايين ، ويقال لصاحبها : أنت منتدب لهذا الأمر الهائل الخطير . وقد جعلها ـ سبحانه ـ حيث علم ، واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم ، وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم حتى انتهت إلى محمد خير خلق الله وخاتم النبيين ﷺ .

الذين يتطلعون إلى مقام الرسالة ، أو يطلبون أن يؤتوا ما أوتى الرسول ؛ لأنهم يتخذون ذواتهم محورًا للوجود الكونى ، والرسل الذين يختارهم الله يهبون للرسالات أنفسهم ، وينسون فيها ذواتهم ويؤتونها من غير تطلع ولا ارتقاب .

ثم التهديد بالصغار والهوان على الله ، وبالعذاب الشديد المهين : ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن الإسلام دين يسر وسماحة ، فهو يراعى أصحاب الأعذار والضرورات ؛ فيبيح لهم عند الضرورة ما كان محرماً عليهم ، ولكن بقدر دفع الضرر فقط .

٢ ـ بيّن الله ـ تعالى ـ الحلال والحرام ، وفصله فى كتابه الكريم ، فلا يجوز للإنسان ـ مهما كانت مكانته ـ أن يشرع غير ما شرعه الله ، ولا أن يتدخل فيحل ما حرمه الله ، أو يحرم ما أحله الله .

٣ ـ أحل الله الذبائح التى يذكر عليها اسم الله ، وحرم منها ما ذبح لغير الله ، وما ذكر اسم غير اسم الله عليها .

٤ ـ كثرة جدال المشركين للمؤمنين ومعاندتهم ؛ اتباعاً منهم لوساوس الشياطين التى اتخذوها أولياء من دون الله .

٥ ـ المؤمن الذى اهتدى بالقرآن قلبه حى بالقرآن يرى بنور الله ـ تعالى ـ ويفرق بين الحق والباطل ، أما الكافر فهو ميت الإحساس ، مظلم الضمير ، أعمى البصيرة لا يميز بين الحق والباطل .

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

معانى الكلمات :

حرجاً : شديد الضيق . **يصعد فى السماء :** يحاول صعودها فلا يستطيعه . **الرجس :** العذاب أو الخذلان . **دار السلام :** الجنة .

استكثرتم من الإنس: من دعوتهم للضلال.

النار مثواكم : مأواكم ومستقركم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف سنة الله ـ تعالى ـ فى الهداية والإضلال .

٢ ـ بيان صعوبة وشدة ما يعانى الكافر إذا عُرض عليه الإيمان .

٣ ـ أن نعلم أن إرادة الله مطلقة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

٤ ـ أن نحذر الاغترار بالحياة الدنيا .

٥ ـ أن نعلم العلة من إرسال الرسل .

المحتوى التربوى :

تصور الآيات حالتى الهدى والإيمان فى داخل القلوب والنفوس ، فمن يقدر الله له الهداية ـ وفق سنته الجارية من هداية من يرغب فى الهدى ، ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء ـ ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ ؛ فيتسع له ؛ ويستقبله فى يسر ورغبة ، ويتفاعل معه ، ويطمئن إليه ، ويستروح به ويستريح له . ومن يقدر له الضلال ـ وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه : ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة فى قبوله .

يقول صاحب المنار بمناسبة هذه الآية : « هذا وصف لحال المستعد لهداية الإسلام بسلامة فطرته وطهارة نفسه من الخلقين الصادين عن إجابة دعوة الحق ، وهما الكبرياء والحسد وبتجليها ـ أى نفسه ـ بالهاديين إلى الحق والرشاد ، وهما استقلال الفكر الصاد عن تقليد الآباء والأجداد ، وقوة الإرادة الصارفة عن اتباع الرؤساء أو مجاراة الأنداد ، فمن كان كذلك كان أهلا بإرادة الله ـ تعالى ـ وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذى هو دين الفطرة ومهذبها ، فإذا ألقيت إليه وجد لها فى صدره انشراحًا واتساعًا بما يشعر به قلبه من السرور وداعية القبول ، وذلك أنه لا يجد مانعاً من

النظر الصحيح فيما ألقى إليه فيتأمله فتظهر له آياته ، وتتضح له دلالته فتتوجه إليه إرادته ، ويذعن له قلبه فتتبعه جوارحه ، وهذا هو النور الذى يفيض عليه من القرآن والذى يسير فيه باتباعه له ، فهذه الآية مقابلة لآية المثل الذى ضربه الله ـ تعالى ـ فى هذا السياق للمؤمنين والكافرين فى قوله ـ تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزمر : ٢٢) .

ثم يجىء التعقيب الأخير فى هذا المقطع يربط قضية التشريع وهى قضية الحاكمية بالإيمان، فهذه وتلك صراط الله المستقيم ، والخروج فى واحد منهما هو الخروج عن هذا الصراط المستقيم والاستقامة عليهما معا العقيدة والشريعة هى الاستقامة على الصراط المؤدى إلى دار الإسلام وولاية الله لعباده الذاكرين .

وقد فصل الله آياته وبينها ولكن الذين يتذكرون ولا ينسون ولا يغفلون هم الذين ينتفعون بهذا البيان وهذا التفصيل . فالقلب المؤمن قلب ذاكر لا يغفل ، وقلب منشرح مبسوط ، وقلب حى يستقبل ويستجيب ، والذين يتذكرون ، لهم دار السلام عند ربهم ، دار الطمأنينة والأمان ، مضمونة عند ربهم لا تضيع ، وهو وليهم وناصرهم وراعيهم وكافلهم ، ذلك بما كانوا يعملون .. فهو الجزاء على النجاح فى الابتلاء .

ويتواصل السياق القرآنى فى رسم مشاهده ، فيعرض الصفحة المقابلة فى المشهد على طريقة القرآن الغالبة فى عرض « مشاهد القيامة » ـ يعرض شياطين الإنس والجن ، الذين قضوا الحياة يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ـ غروراً وخداعاً وإضلالاً ؛ ويقف بعضهم بمساندة بعض عدوا لكل نبى ؛ ويوحى بعضهم إلى بعض ليجادلوا المؤمنين فيما شرعه الله لهم من الحلال والحرام ، يعرضهم فى مشهد حى ، حافل بالحوار والاعتراف والتأنيب والحكم والتعقيب .

فيسجل الله على الجن جريمة الاستكثار من الإنس ، وكانت الشياطين تستمتع بهؤلاء الأغرار الأغفال ويسخرونهم لتحقيق هدف إبليس فى عالم الإنس ، وهؤلاء الأغرار المستخفون كانوا يحسبون أنه كان استمتاعاً متبادلاً ، عندئذ يجىء الحكم الفاصل بالجزاء العادل أن النار مثابة ومأوى .

ويقول صاحب الظلال: بمثل هذا الذى قام بين الجن والإنس من ولاء ، وبمثل ما انتهى إليه هذا الولاء من مصير ، بمثل ذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ، نجعل بعضهم أولياء بعض ، بحكم ما بينهم من تشابه فى الطبع والحقيقة ، وبحكم ما ينتظرهم من وحدة فى المصير .

ويستأنف السياق شطر المشهد الأخير ويسألهم الله ـ عز وجل ـ سؤال التقرير والتسجيل والتأنيب والتوبيخ : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى

وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴾ .

ويتابع صاحب الظلال فيقول : وعلى أية حال فقد أدرك المسؤولون من الجن والإنس ، أن السؤال ليس على وجهه ، إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل ، كما أنه للتأنيب والتوبيخ فأخذوا فى الاعتراف الكامل ، وسجلوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه ، قالوا : ﴿ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ﴾ وهنا يتدخل المعقب على المشهد فيقول : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهو تعقيب لتقرير حالهم فى الدنيا ، فقد غرتهم هذه الحياة؛وقادهم الغرور إلى الكفر ثم هاهم أولاء يشهدون على أنفسهم به؛ حيث لا تُجدى المكابرة والإنكار ، فأى مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه فى هذا المأزق ، الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه ولا بكلمة الإنكار ! ولا بكلمة الدفاع !

وفى ختام هذا المشهد المروع الشاخص يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله ﷺ ومن وراءه من المؤمنين ؛ وإلى الناس أجمعين ؛ ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن ؛ وبإباحة هذا الحشد الحاشد إلى النار ، وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم ، تقص عليهم آيات الله ، وتنذرهم لقاء يومهم هذا ، ليعقب على هذا المشهد وما كان فيه ، بأن عذاب الله لا ينال أحدًا إلا بعد الإنذار وأن الله لا يأخذ العباد بظلمهم (أى بشركهم) إلا بعد أن ينبههم من غفلتهم ، وتقص عليهم الآيات ، وينذرهم المنذرون : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ كل شىء بإرادة الله ـ تعالى ـ ومشيئته ، وهو مطلع على قلب عبده ، عالم بسره وجهره ، فإذا مال العبد إلى الهداية يسرها الله له وشرح صدره للإيمان ، وإذا انصرف العبد عن نور الله جعل قلبه شديد الضيق لا ينفذ إليه نور الإيمان .

٢ ـ ليس للشيطان سلطان على عباد الله المؤمنين ، ولكنه يتسلط على الذين يعرضون عن الإيمان بالله ورسوله .

٣ ـ لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ، ولا ينزلهم جنة ولا نارًا ، فهو وحده المتصرف فى شؤون خلقه .

٤ ـ الله ـ تعالى ـ يولى الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولى المؤمن أين كان وحيث كان ، والكافر ولى الكافر كذلك ، والإيمان ليس بالتمنى ولا بالتحلى ، ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل .

٥ ـ من أعان ظالماً سلّطه الله على هلكته .

٦ ـ أرسل الله الرسل لإقامة الحجة على الناس ، وعدم إهلاكهم قبل الإرسال إليهم .

الجزء الثامن — سورة الأنعام

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ
أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا
تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ
نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ
فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ
سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ
لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ
شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

١٤٥

معانى الكلمات :

يستخلف : يتخذهم خلفاء . **بمعجزين** : لا تستطيعون الهرب من عذاب الله .

مكانتكم : غاية تمكنكم واستطاعتكم .

ذرأ : خلق . **الحرث** : الزرع

الأنعام : الإبل والبقر والضأن والماعز .

فذرهم : اتركهم . **يفترون**: يختلقون كذباً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الله غنيٌ عن العالمين ، فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

٢ ـ أن نفند تصورات الجاهلية الخاطئة ونحذر الوقوع فيها .

٣ ـ أن نحرر الولاء والطاعة لله فى التشريع والعادات والتقاليد .

٤ ـ أن نعرف حرمة الابتداع فى الدين وأثره السيئ على الإسلام والمسلمين .

المحتوى التربوى :

يُقرر المولى ـ عز وجل ـ حقيقة مهمة فى شأن الجزاء للمؤمنين وللشياطين سواء : فللمؤمنين درجات درجة فوق درجة ، وللشياطين درجات : درجة تحت درجة ! وفق الأعمال ، والأعمال مرصودة لا يغيب منها شىء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ .

على أن الله ـ سبحانه ـ إنما يرسل رسله رحمة بالعباد ، فهو غَنُى عنهم ؛ وعن إيمانهم به وعبادتهم له ، وإذا أحسنوا فإنما يحسنون لأنفسهم فى الدنيا والآخرة . كذلك تتجلى رحمته فى الإبقاء على الجيل العاصى الظالم المشرك ،وهو القادر على أن يهلكه ، وينشئ جيلاً آخر يستخلفه .

يقول صاحب الظلال : فلا ينسى الناس أنهم باقون برحمة الله؛ وأن بقاءهم مُعلق بمشيئة الله؛ وأن ما فى أيديهم من سلطان إنما خولهم الله إياه . فليس هو سلطانا أصيلا ؛ ولا وجودًا مختارًا ، فما لأحد فى نشأته ووجوده من يد ؛ وما لأحد فيما أعطيه من السلطان من قدره ، وذهابهم واستخلاف غيرهم هين على الله ، كما أنه أنشأهم من ذرية جيل آخرين . واستخلفوا هم من بعده بقدر من الله .

وفى تأكيد لا يقبل الشك يقول المولى ـ عز وجل ـ مهدداً الكافرين : إنكم فى يد الله وقبضته ، ورهن مشيئته وقدره . فلستم بمفلتين أو مستعصين ، ويوم الحشر الذى شاهدتم منه مشهداً منذ لحظة ينتظركم ؛ وإنه لآت لا ريب فيه ، ولن تفلتوا يومها ، ولن تعجزوا الله القوى المتين ؛ ويعقب هذا تهديد آخر ؛ تهديد الواثق من الحق الذى معه ؛ ومن القوة التى فى الحق ، والقوة التى وراء الحق ، والتهديد هذه المرة من الرسول ﷺ بأنه نافض يديه من أمرهم ؛ واثق مما هو عليه من الحق ، واثق من منهجه وطريقه ، واثق كذلك مما هم عليه من الضلال ، واثق من مصيرهم الذى هم إليه منتهون : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

فهذه هى القاعدة التى لا تتخلف ، إنه لا يفلح الظالمون ، الذين يتخذون من دون الله أولياء ، وليس من دون الله ولى ولا نصير ، والذين لا يتبعون هدى الله ، وليس وراءه إلا الضلال البعيد وإلا الخسران المبين .

وينتقل السياق ليصف تصورات الجاهلية وتقاليدها فى الحرث والأنعام ـ أن الله هو الذى أنشأ لهم هذه الزروع والأنعام ؛ فما من أحد غير الله يرزق الناس من الأرض والسماء ، ثم يذكر بعد هذا التقرير ما يفعلونه بما رزقهم . إذ يجعلون له منه ـ سبحانه ـ جزءا ، ويجعلون لأوثانهم وأصنامهم جزءا (وطبيعى أن سدنة الأوثان هم الذين ينتهى إليهم هذا الجزء الأخير) ثم هم بعد ذلك يجورون على الجزء الذى جعلوه لله . على النحو الذى تقرره الآية .

وعن قتادة قال : عمد ناس من أهل الضلالة فجزأوا من حروثهم ومواشيهم جزءًا لله وجزءًا لشركائهم ، وكانوا إذا خالط شىء مما جزؤوا لله فيما جزؤوا لشركائهم خلوه ، فإذا خالط شىء مما جزأوا لشركائهم فيما جزؤوا لله ، ردوه على شركائهم ، وكانوا إذا أصابتهم السنة (يعنى الجدب) استعانوا بما جزأوا لله وأقروا بما جزأوا لشركائهم . قال الله ، ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف فى أموالهم ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم وذلك ما كانوا يفعلونه من وأد البنات خشية الإملاق ـ أو خشية السبى والعار ـ ومن قتل بعض الأبناء فى النذر للآلهة كالذى روى عن عبد المطلب من نذره ذبح أحد ولده ، إن رزقه الله بعشرة منهم يحمونه ويمنعونه !

وظاهر أن هذا وذاك كان يوحى به عرف الجاهلية ، العرف الذى وضعه الناس للناس ، والشركاء المذكورون هنا هم شياطين الإنس والجن ؛ من الكهنة والسدنة والرؤساء من الإنس ، ومن القرناء الموسوسين من الجن ، بالتعاون والمولاة فيما بينهم .

والنص يصرح بالهدف الكامن وراء التزيين ، وذلك ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبسا غامضا لا يقفون منه على تصور واضح ، فأما الهلاك ، فيتمثل ابتداء فى قتلهم لأولادهم ، ويتمثل أخيرًا فى فساد الحياة الاجتماعية بحملتها ، وصيرورة الناس ما يشه شاة ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاؤوا وفق أهوائهم ومصالحهم ، حتى ليتحكمون فى أنفسهم وأولادهم

وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفرًا من الخضوع ؛ لأن التصورات الملتبسة بالدين والعقيدة ـ وما هى منها ـ بكل ثقلها وعمقها ، تتعاون مع العرف الاجتماعى المنبثق منها ، وتنشئ ثقلًا ساحقا لا تقف له جماهير الناس ما لم تعتصم منه بدين واضح .

يقول صاحب الظلال : « وهذه التصورات المبهمة الغامضة ؛ وهذا العرف الاجتماعى الذى ينبثق منها ، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق . لا ينحصر فى تلك الصور التى عرفتها الجاهلية القديمة. فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح فى الجاهليات الحديثة هذه العادات والتقاليد التى تكلف الناس العنت الشديد فى حياتهم ، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفراً . هذه الأزياء والمراسم التى تفرض نفسها على الناس فرضاً وتكلفهم أحياناً مالا يطيقون من النفقة ، وتأكل حياتهم واهتماماتهم ، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم ، ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها ، أزياء الصباح ، وأزياء بعد الظهر ، وأزياء المساء ، الأزياء القصيرة ، والأزياء الضيقة ، والأزياء المضحكة ! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف، إلى آخر هذا الاسترقاق المذل من الذى يصنعه، ومن الذى يقف وراءه ؟ تقف وراءه بيوت الأزياء . وتقف وراءه شركات الإنتاج ! ويقف وراءه المرابون فى بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها ! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها ! ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف ، إنما يقفون بالتصورات والقيم التى ينشئونها ، ويؤصلونها بنظريات وثقافات ، ويطلقونها تضغط على الناس فى صورة (عرف اجتماعى) فهم يعلمون أن النظريات وحدها لا تكفى ما لم تتمثل فى أنظمة حكم ، وأوضاع مجتمع ، وفى عرف غامض لا يناقشه الناس ؛ لأنه ملتبس عليهم متشابكة جذوره وفروعه !

إنه فعل الشياطين من الإنس والجن ، وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها ، وتتحد جذورها ومنابعها ، وتتماثل قوائمها وقواعدها : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله ـ سبحانه وتعالى ـ غنى عن العالمين ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

٢ ـ ما كلفنا الله ـ تعالى ـ به من العبادات والأعمال فيه الخير والسعادة لنا فى الدنيا والآخرة ، وفى طاعة الله ـ تعالى ـ الوصول إلى الكمال البشرى والخير العظيم .

٣ ـ وأد البنات من العادات الجاهلية التى زينها الشياطين للكافرين ، وقد أبطلها الإسلام وحذر منها ، ووضع البنات فى المكانة اللائقة بهن ، وأوصى بحسن تربيتهن ورعايتهن ، مما يؤكد عظمة هذا الدين وإنسانيته .

٤ ـ حرمة الابتداع فى الدين والتشريع المنافى لشرع الله ـ تعالى ـ وإن لم ينسب إلى الله ـ تعالى ـ .

وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

نصف الحزب ١٥

معانى الكلمات :

حرث : زرع . **حجر** : محرمة محجورة .

حرمت ظهورها : وهى البحائر والسوائب والحوامى أى الدواب التى كان يحرمها أهل الجاهلية . **معروشات** : محتاجة للتعريش كالعنب . **فرشاً** : ما يفرش للذبح مثل الغنم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ تفنيد قبائح المشركين وجرائمهم فى الأقوال والأفعال ، والرد عليها .

٢ ـ بيان ضلالة وخسران من يخالفون منهج الله ـ عز وجل .

٣ ـ أن نشكر الله على ما امتن به علينا من رزق ونعم .

٤ ـ ألا نتبع خطوات الشيطان فهو لنا عدو مبين .

المحتوى التربوى :

ما زال السياق فى التنديد بأفعال العادلين بربهم أصنامهم وأوثانهم ، فأخبر ـ تعالى ـ عما كانوا يبتدعونه من البدع ويشرعون من الشرائع بدون علم ولا هدى ولا كتاب مبين ، وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة ضروب من تشريع الجاهلية وأباطيلهم :

الأول : تحريمهم بعض الأنعام والحرث وجعلها لله وللآلهة التى يعبدونها مع الله .

الثانى : أنعام أى إبل حرموا ركوبها كالسائبة والحام .

الثالث : إبل لا يذكرون اسم الله عليها ، فلا يحجون عليها ولا يذكرون اسم الله عليها ، إن ركبوها بحال ولا إن حملوا عليها .

وقوله ـ تعالى ـ فى ختام الآية ﴿ افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴾ أى كذباً على الله تعالى ؛ لأنه تعالى ما حرم ذلك عليهم وإنما حرموه هم بأنفسهم ، وقالوا : حرمه الله علينا ؛ ولذا توعدهم الله تعالى على كذبهم هذا بقوله : ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ، ولم يقفوا عند هذا الحد من الافتراء بل زعموا أن الله شرع وحرم ما فى بطون بعض الأنعام على الإناث ، وجعلوها حلالاً للذكور خالصة لهم دون النساء ، فلا يشرب النساء من ألبانها ولا يأكلن لحوم أجنتها إن ذبحوها ولا ينتفعن بها

بحال ، اللهم إلا إن ولد الجنين ميتا ، فإنهم لا يحرمونه على النساء ولا يخصون به الذكور فيحل أكله للنساء والرجال معًا ؛ ولذا توعدهم بقوله : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أى سيثيبهم على هذا الكذب بما يستحقون من العذاب إنه حكيم فى قضائه عليم بعباده .

وأخبر الله ـ عز وجل ـ بخسران أولئك المشرعين وضلالهم وعدم هدايتهم بقوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا ﴾ .

يقول صاحب الظلال : خسروا الخسارة المطلقة ، خسروا فى الدنيا والآخرة، خسروا أنفسهم وأولادهم ، خسروا عقولهم وأرواحهم ، خسروا الكرامة التى جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره ؛ وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد ؛ حين أسلموها لحاكمية العبيد ! وقبل ذلك كله خسروا الهدى بخسارة العقيدة ، خسروا الخسارة المؤكدة ، وضلوا الضلال الذى لا هداية فيه ﴿ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ .

ويردهم الله إلى الحقيقة الأولية التى ضلوا عنها ، وهى أنه الخالق الرازق وهو الرب المالك ، الذى لا يجوز أن يُتصرف فى هذا المال إلا بإذنه ممثلاً فى شرعه ، وشرعه ممثل فيما جاء به رسوله من عنده ، لا فيما يدعى الأرباب المغتصبون لسلطان الله أنه شريعة الله !

فالله ـ سبحانه ـ هو الذى خلق الجنات ابتداء ـ فهو الذى أخرج الحياة من الموت ـ وهذه الجنات منها الإنسيات المعروشات التى يتعهدها الإنسان بالعرائش والحوائط ؛ ومنها البريات التى تنبت بذاتها ـ بقدر الله ـ وتنمو بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم .

وإن الله هو الذى أنشأ النخل والزرع مختلف الألوان والطعوم والأشكال . وإن الله هو الذى خلق الزيتون والرمان ، متنوع الصنوف متشابهًا وغير متشابه ، وإنه سبحانه هو الذى خلق هذه الأنعام وجعل منها « حمولة » عالية القوائم بعيدة عن الأرض حمالة الأثقال وجعل منها « فرشاً » صغيرة الأجسام قريبة من الأرض يتخذ من أصوافها وأشعارها الفرش .

إنه هو ـ سبحانه ـ الذى بث الحياة فى هذه الأرض ؛ ونوّعها هذا التنويع ؛ وجعلها مناسبة للوظائف التى تتطلبها حياة الناس فى الأرض ، فكيف يذهب الناس ـ فى مواجهة هذه الآيات وهذه الحقائق ـ إلى تحكيم غير الله فى شأن الزروع والأنعام والأموال ؟

ويقول صاحب الظلال : « إن المنهج القرآنى يكثر من عرض حقيقة الرزق الذى يختص الله بمنحه للناس ، ليتخذ منها برهانا على ضرورة إفراد الله ـ سبحانه ـ بالحاكمية فى حياة الناس . فإن الخالق الرازق الكافل وحده؛ هو الحقيق بأن تكون له الربوبية والحاكمية والسلطان وحده بلا جدال .

وهنا يحشد السياق مشاهد الزرع والإثمار ، ومشاهد الأنعام وما فيها من نعم الله ، يحشد هذه المؤثرات فى صدر قضية الحكم لله ، كما حشدها من قبل فى صدد قضية الألوهية فيدل على أن هذه وتلك قضية واحدة فى العقيدة الإسلامية .

وعندما يذكر الزروع والثمار يقول : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

والأمر بإيتاء حقه يوم حصاده هو الذى جعل الروايات تقول عن هذه الآية : إنها مدنية، ولكن هذه الآية مكية ؛ لأن السياق فى الجزء المكى من السورة لا يتصور تتابعه بدون هذه الآية، فإن ما بعدها ينقطع عما قبلها لو كانت تأخرت حتى نزلت فى المدينة ، وهذا الأمر بإيتاء حق الزرع يوم حصاده ، لا يتحتم أن يكون المقصود به الزكاة . وهناك روايات فى الآية أن المقصود هو الصدقة غير المحددة ، أما الزكاة بأنصبتها المحددة فقد حددتها السُنة بعد ذلك فى السنة الثانية من الهجرة .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ ينصرف إلى العطاء ، كما ينصرف إلى الأكل . فقد روى أنهم تباروا فى العطاء حتى أسرفوا ، فقال الله سبحانه : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

ويذكرهم أن هذا رزق الله وخلقه ، والشيطان لم يخلق شيئاً . فما بالهم يتبعونه فى رزق الله ، ثم يذكرهم أن الشيطان لهم عدو مبين ، فما بالهم يتبعون خطواته وهو العدو المبين ؟ !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة التسمية عند الذبح ، وعدم ذكر اسم غير اسم الله ـ تعالى ـ عليها .

٢ ـ ما ينذره بعض الناس اليوم من نذور للأولياء وإعطاؤهم شيئاً من الأنعام والحرث هو من عمل المشركين زيّنة الشيطان لبعض الناس .

٣ ـ حرمة قتل النفس لأى سبب كان ، وتحديد النسل اليوم وإلزام الأمة به من بعض الحكام من عمل أهل الجاهلية الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم كقتل البنات خشية العار ، وقتل الأولاد خشية الفقر .

٤ ـ نعم الله علينا كثيرة ، فيجب أن نشكره وأن نخرج زكاة أموالنا كل عام ، وزكاة زروعنا وثمارنا عند حصادها .

٥ ـ حرمة الإسراف فى المال بأن ننفقه فيما لا يعنى ، أو ينفقه كله ولا نترك منه شيئاً فإنما الصدقة عن فضل مال .

الجزء الثامن — سورة الأنعام

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ
قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ
أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ
عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ
فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ
مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ
فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا
كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا
ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

١٤٧

معانى الكلمات :

وصاكم الله بهذا : أمركم الله بهذا التحريم .

طاعم يطعمه : آكل ـ أيا كان ـ يأكله .

دمًا مسفوحًا : دمًا سائلاً مهراقًا .

رجس : قذر ، خبيث . **اضطر :** احتاج إلى أكله للضرورة . **غير باغ :** غير طالب للمحرم من أجل لذة **ولا عادٍ :** ولا زائد على قدر الضرورة .

ذى ظفر : ما له أصبع ـ دابة أو طيراً .

الحوايا : الأمعاء فيكون دهنها حلالاً .

ما اختلط بعظم : ألية الضأن ـ اللية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان عاقبة الافتراء على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بغير ما شرع .

٢ ـ أن نعرف حكم أكل المحرمات فى حالة الاضطرار .

٣ ـ أن نعرف الحكمة من تحريم بعض الأطعمة دون الأخرى .

٤ ـ أن نوقن أن بأس الله لا يرد عن المجرمين .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يأخذ السياق فى مواجهة دقيقة يتتبع بها مكامن الأوهام الجاهلية ، ليُلقى عليها الضوء ؛ ويستعرضها واحدًا واحدًا ، وجزئية جزئية ، فيكشف عن السخف الذى لا يمكن تعليله ولا الدفاع عنه ، والذى قد يخجل منه صاحبه نفسه ، حين يكشف له فى النور ؛ وحين يرى أن لا سند له فيه من علم ولا هدى ولا كتاب منير .

فهذه الأنعام التى يدور حولها الجدل ؛ والتى ذكرتها الآيات ، هى ثمانية أزواج ـ وكل من الذكر والأنثى يُطلق عليها لفظ زوج عندما يكون مع رفيقه ـ زوج من الضأن وزوج من المعز، فأى منها حرمه الله على أى من الناس ؟ أم إنه حرم أجنتها فى البطون ؟

﴿ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، فهذه الشؤون لا يفتى فيها بالظن ، ولا يقضى فيها بالحدس ، ولا يشرع فيها بغير سلطان معلوم ؛ وبقية الأزواج ذكر وأنثى من الإبل ؛ وذكر وأنثى

من البقر . فأيها كذلك حرم ؟ أم أجنتها هى التى حرمها الله على الناس ؟ ومن أين هذا التحريم ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ﴾ .

فحضرتم وشهدتم وصية الله لكم خاصة مستيقن بهذا التحريم ، فما ينبغى أن يكون هناك تحريم بغير أمر من الله مستقين ، لا يرجع فيه إلى الرجم والظنون . وبهذا يرد أمر التشريع كله إلى مصدر واحد .. وقد كانوا يزعمون أن الله هو الذى شرع هذا الذى يشرعونه لذلك يعالجهم بالتحذير والتهديد : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : إنه لا أحد أظلم ممن يفترى على الله شريعة لم يأذن بها ، ثم يقول : شريعة الله ! وهو يقصد أن يضل الناس بغير علم ، إنما هو يحيلهم إلى هدى أو ظن ، أولئك لن يهديهم الله ؛ فقد قطعوا ما بينهم وبين أسباب الهدى ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

وبعد أن كشف لهم عما فى معتقداتهم وتصوراتهم من وهن وسخف وهزال . وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس . وقد ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام التى يتصرفون فيها من عند أنفسهم ، أو بوحى شياطينهم وشركائهم . بينما هؤلاء لم يخلقوها لهم ، إنما الذى خلقها لهم هو الله ، الذى يجب أن تكون له وحدة الحاكمية فيما خلق وفيما رزق ، وفيما أعطى من الأموال للعباد .

يقرر لهم ما حرمه الله عليهم من هذا كله . ما حرمه الله حقاً عن بينة ووحى ، لا عن ظن ووهم . والله هو صاحب الحاكمية الشرعية ، الذى إذا حرم الشىء فهو حرام ، وإذا أحله فهو حلال ، بلا تدخل من البشر ولا مشاركة ، ولا تعقيب فى سلطان الحاكمية والتشريع ، وبالمناسبة يذكر ما حرمه الله على اليهود خاصة ، وأحله للمسلمين ، فقد كان عقوبة خاصة لليهود على ظلمهم وبعدهم عن شرع الله !

وهذا إعلان من الله ـ جل ثناؤه ـ للمشركين الذين جادلوا نبى الله وأصحابه فى تحريم الميتة بما جادلوهم به ، أن الذى جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذى حرمه الله ، وأن الذى زعموا أن الله حرمه حلال أحله الله ؛ وأنهم كذبة فى إضافتهم تحريمه إلى الله .

يقول أبو جعفر بن جرير الطبرى فى تأويل قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ : « إن معناه : فمن اضطر إلى أكل ما حرم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم خنزير ، أو ما أهل لغير الله به ، غير باغ فى أكله إياه تلذذاً ، لا لضرورة حالة من الجوع ؛ ولا عادٍ فى أكله بتجاوزه ما حدَّه الله وأباحه له من أكله ، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك ، لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه ، فلا حرج عليه فى أكله من ذلك

﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيما فعل من ذلك ، فساتر عليه ، بتركه عقوبته عليه ولو شاء عاقبه عليه ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه ، ولو شاء حرمه عليه ومنعه منه » .

فأما اليهود فقد حرم الله عليهم كل ذى ظفر من الحيوان ـ أى كل حيوان قدمه غير مشقوقة، وذلك كالإبل والنعام والأوز والبط ، وحرم كذلك شحم البقر والغنم ـ إلا شحم الظهر ، أو الدهن الملتف بالأمعاء ، أو ما اختلط منه بالعظم ، وكان ذلك عقوبة لهم على بغيهم بتجاوز أوامر الله وشرائعه .

والنص يبين سبب هذا التحريم ، وهو سبب خاص باليهود ، ويؤكد أن هذا هو الصدق ، لا ما يقولونه هم من أن إسرائيل ، وهو يعقوب جدهم ، هو الذى حرم هذا على نفسه فهم يتبعونه فيما حرم على نفسه ، لقد كان هذا مباحاً حلالاً ليعقوب ، ولكنه حرم عليهم بعد ما بغوا . فجازاهم الله بهذا الحرمان من الطيبات : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

فقل : ربكم ذو رحمة واسعة بنا ، وبمن كان مؤمناً من عباده ، وبغيرهم من خلقه . فرحمته ـ سبحانه ـ تسع المحسن والمسىء ؛ وهو لا يعجل على من استحق العقاب ؛ حلماً منه ورحمة فإن بعضهم قد يتوب إلى الله ، ولكن بأسه شديد لا يرد عن المجرمين إلا حلمه ، وما قدره من إمهالهم من أجل مرسوم،وهذا القول فيه من الإطماع فى الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالبأس، والله الذى خلق قلوب البشر ؛ يخاطبها بهذا وذاك ، لعلها تهتز وتتلقى وتستجيب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أهل الشرك والكفر ـ دائماً ـ يجادلون بالباطل ، ويفترون على الله الكذب .

٢ ـ حرم الله ـ تعالى ـ الشرك بجميع أنواعه ؛ فيجب أن نخص الله وحده بالعبادة ولا نشرك به أحداً .

٣ ـ ليس هناك أظلم ممن يفترى على الله الكذب فيحل ما حرمّ الله ويحرم ما أحل الله .

٤ ـ حرم الله ـ تعالى ـ على عباده من الأطعمة ما يضر بصحتهم ، وما يكون خبيثاً لا تستطيبه النفوس المستقيمة مثل الميتة والدم المسفوح والخنزير والكلب .

٥ ـ لا حرج على المضطر إذا أكل من المحرمات بقدر الضرورة إذا خشى على نفسه الهلاك .

٦ ـ عاقب الله اليهود فحرم عليهم بعض الأطعمة ؛ لأنهم بغوا وخالفوا أوامر الله .

٧ ـ إمهال الله ـ تعالى ـ المجرمين لا يدل على عدم عقوبتهم فإن بأس الله لا يُرد عن القوم المجرمين .

الجزء الثامن — سورة الأنعام

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

ربع الحزب ١٥

١٤٨

معانى الكلمات :

لا يرد بأسه : لا يدفع عذابه ونقمته .

تخرصون : تكذبون على الله ـ تعالى .

الحجة البالغة : بإرسال الرسل وإنزال الكتب . **هلم شهداءكم :** أحضروا .

اتل : اقرأ . **إملاق :** فقر . **الفواحش :** الذنوب القبيحة . **ما بطن :** ما خفى .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نوقن أن بأس الله لا يرد عن القوم المجرمين .

٢ ـ أن نقف عند حدود وصية النبى ﷺ فى الآيات ونلتزم بها .

٣ ـ أن نعلم أن تشريعات الإسلام جاءت لحماية المجتمع وسعادة الإنسان فى الدارين .

٤ ـ أن نعلم أن كمال العقل باجتناب المحرمات الخمسة الواردة فى الآيات .

المحتوى التربوى :

بعد أن واصل السياق تضييق الخناق على هؤلاء المجرمين الذين يفترون على الله الكذب ويحلون ما حرّم الله ويحرمون ما أحل الله ، وبعد ما سدّ الذرائع فى وجوههم ، يواجه مهربهم الأخير الذين يحيلون عليه شركهم وضلال تصوراتهم وتصرفاتهم ، إنهم يقولون : إنهم مجبرون لا مخيرون فيما اعتسفوا من شرك وضلال ، فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التى لا يعجزها شىء .

لقد واجه القرآن هذا الادعاء بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم ، وقد ذاق المكذبون من قبلهم بأس الله . وبأس الله ينتظر المكذبين الجدد ، ويصحح لهم منهج الفكر والنظر ، فالله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات ، وهذا ما يملكون أن يعلموه علما مستيقناً ، فأما مشيئة الله فهى غيب لا وسيلة لهم إليه ، فكيف يعلمونه ؟ وإذا لم يعلموه يقينًا فكيف يحيلون عليه : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : إن لله أوامر ونواهى معلومة علمًا قطعيًا ، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية ؛ ليمضوا وراء الحدس والخرص فى واد لا يعلمونه ؟

لقد جاء هذا الدين ليحقق واقعًا عمليًا ، تحدده أوامر ونواه حقيقية ، فالإحالة على المشيئة الغيبية دخول فى متاهة ، يرتادها العقل بلا دليل ، ومضيعة للجهد الذى ينبغى أن ينفق فى العمل الإيجابى الواقعى المشهود .

هذا هو فصل القول فى هذه القضية ، إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه . إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ؛ ليكيفوا أنفسهم على حسبها ، وهم حين يحاولون هذا يقرر الله ـ سبحانه ـ أنه يهديهم إليه ، ويشرح صدورهم للإسلام . وهذا حسبهم فى القضية التى تبدو عندئذ ـ فى واقعها العملى ـ يسيرة واضحة ، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته !

إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بنى آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى ، أو يقهرهم على الهدى ، أو يقذف بالهدى فى قلوبهم فيهتدوا بلا قهر ، ولكنه ـ سبحانه ـ شاء غير هذا ! شاء أن يبتلى بنى آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال ؛ ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى ، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال فى غيه وفى عمايته ، وجرت سنته بما شاء .

وأخيراً يوجه الله ـ سبحانه ـ رسوله ﷺ إلى مواجهة المشركين فى موقف الإشهاد على قضية التشريع ، كما واجههم من قبل فى موقف الإشهاد على قضية الألوهية فى أوائل السورة . حيث قال له : ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ الآية وهنا قال له : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ﴾ الآية .

ويصم الله الذين يزاولون حق الحاكمية والتشريع للناس بما لم يأذن به الله بأنهم يكذبون بآيات الله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون أى يجعلون له أنداداً تعدله . وحكم عليهم ـ سبحانه ـ بأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، فالذى يؤمن بالآخرة ، ويوقن أنه ملاق ربه يوم القيامة ، لا يمكن أن يعتدى على ألوهية الله ، ويدعى لنفسه حقه الذى يتفرد به ، وهو حق الحاكمية المطلقة فى حياة البشر . ممثلة هذه الحاكمية فى قضائه وقدره ، وفى شريعته وحكمه .

وبعد موقف الإشهاد ورفض ما يقررونه من المحرمات ، يلقى إليهم بالمقررات الإلهية التى تتضمن ما حرمه الله حقاً ، وسنجد إلى جانب ما حرمه بعض التكاليف الإيجابية التى لها مقابل محرم ، وهذه المحرمات تبدأ بالمحرم الأول ، وهو الشرك بالله ؛ لأن هذه هى القاعدة الأولى التى يجب أن تتقرر ؛ لتقوم عليها المحرمات والنواهى ، لمن استسلم لها وأسلم .

وبالنظر فى هذه الوصايا التى ترد فى هذا السياق بمناسبة الحديث عن تشريعات الأنعام والثمار وأوهام الجاهلية وتصوراتها وتصرفاتها ـ فإذا هى قوام الدين كله ، إنها قوام حياة الضمير

بالتوحيد ، وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة ، وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجرى فيه من معاملات ، وقوام حياة الإنسان وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات ، مرتبطة بعهد الله ، كما أنها بدئت بتوحيد الله .

يقول صاحب الظلال :« قل تعالوا أقض عليكم ما حرمه عليكم ربكم ـ لا ما تدعون أنتم أنه حرمه بزعمكم ـ ! لقد حرمه عليكم « ربكم» الذى له وحده حق الربوبية ـ وهى القوامة والتربية والتوجيه والحاكمية ـ وإذن فهو اختصاصه ، وموضع سلطانه . فالذى يحرم هو« الرب » والله هو وحده الذى يجب أن يكون ربا » .

إن الله قبل أن يوصى الناس أى وصية ، أوصاهم ألا يشركوا به شيئا ، فى موضع من السياق القرآنى يجدد المعنى بالشرك الذى تبدأ بالنهى عنه جميع الوصايا ! إنها القاعدة التى يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة ، وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذى ترجع إليه فى كافة الروابط ، فلا تظل مهباً لريح الشهوات والنزوات .

ثم يوصى بتدعيم رابطة الأسرة بأجيالها المتلاحقة فأوصى الأبناء بالآباء ؛ وربط الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة ، والارتباط بربوبيته المتفردة وقال لهم : إنه هو الذى يكفل لهم الرزق ، فلا يضيقوا بالتبعات تجاه الوالدين فى كِبَرهما ، ولا تجاه الأولاد فى ضعفهم ، ولا يخافوا الفقر والحاجة فالله يرزقهم جميعًا .

ووصاهم بالقاعدة التى تقوم عليها المجتمع كله ، وهى قاعدة النظافة والطهارة والعفة فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها ؛ فإنه لا يمكن قيام أسرة ، ولا استقامة مجتمع ، فى وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن إنه لابد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة ، وليقوم المجتمع والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع .

وينهى عن قتل النفس المفردة ، كما سبق ونهى عن قتل الجماعة بالزنا ، ومن قبلها قتل الفطرة بالشرك ، والمجتمع الذى تشيع فيه المقاتل والثارات ، مجتمع مهدد بالدمار ، ومن ثم جعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم أقصى العقوبات ؛ لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حرم الله ـ تعالى ـ الشرك بجميع أنواعه ، فيجب أن نخص الله وحده بالعبادة .

٢ ـ ضرورة الإحسان إلى الوالدين وحسن معاملتهما وطاعتهما فى غير معصية لله ـ تعالى ـ وتحريم قتل الأولاد بسبب الفقر وغيره تكريماً لإنسانية الإنسان .

٣ ـ تحريم قبائح الذنوب وكبائر المعاصى التى لا يفعلها عاقل سواء منها الظاهر أو الخفى .

٤ ـ تحريم قتل النفس والعدوان على نفوس الآخرين .

الجزء الثامن — سورة الأنعام

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

١٤٩

معانى الكلمات :

حتى يبلغ أشده : حتى يكبر ويصبح قادراً على التصرف السليم . **بالقسط** : بالعدل . **إلا وسعها** : إلا ما تستطيعه بلا مشقة مُعجزة . **صراطى**: طريقى . **السبل**:الطرق.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتجنب الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

٢ ـ أن ندفع مال اليتيم إليه إذا بلغ أشده .

٣ ـ أن نؤدى الحقوق إلى أهلها دون انتقاص منها .

٤ ـ أن نفى بالعهود مع الله ، ومع الناس ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه .

المحتوى التربوى :

قبل أن يمضى السياق فى بيان المحرمات والتكاليف ، يفصل بين هذا القسم والذى سبقه بإبراز وصية الله وأمره وتوجيهه ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وأردف بأدب جم من آداب هذا الدين وهو رعاية اليتيم وكفالته ؛ فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن لليتيم ، فيصونه وينميه ، حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند بلوغه أشده ـ أى اشتداد قوته الجسمية والعقلية ؛ ليحمى ماله ، ويُحسن القيام عليه وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضوًا نافعًا ؛ وسلمته حقه كاملاً .

ولأن المعاملات فى هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة ربط السياق القرآنى بين قواعد التعامل فى المال والتجارة والبيع والشراء ؛ وبين العقيدة للدلالة على طبيعة هذا الدين وتسويته بين العقيدة والشريعة ، وتسويته بين العقيدة والشريعة بين العبادة والمعاملة فجاء قوله ـ تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

ويرتفع الإسلام بالضمير البشرى ـ وقد ربطه بالله ابتداء ـ إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة فى الله ومراقبته،ويأخذ الإسلام بيد الضمير البشرى ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى من الاعتصام بالله وحده ، ومراقبه الله وحده ، اكتفاء به من مناصرة ذوى القربى ،

وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه ؛ وهو ـ سبحانه ـ أقرب إلى المرء من حبل الوريد ، لذا يُعقب على هذا الأمر ـ وعلى الوصايا السابقة ـ مذكراً بعهد الله : ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾ .

ومن عهد الله قولة الحق والعدل ولو كان ذا قربى ، ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط إلا بالحق . وقبل ذلك كله من عهد الله أى يشركوا به شيئاً ، فهذا هو العهد الأكبر المأخوذ على فطرة البشر ، بحكم خلقتها متصلة بمبدعها ، شاعرة بوجوده فى النواميس التى تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها .

ثم يجىء التعقيب القرآنى فى موضعه بعد التكاليف بالوصاة العشر ليكون الذكر ، والقلب الذاكر غير الغافل ، وهو يذكر عهد الله كله ، ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها .

يقول صاحب الظلال : « هذه القواعد الأساسية الواضحة التى تكاد تلخص العقيدة الإسلامية ، وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعهد الله ، ... هذه هى صراط الله المستقيم » .

وبعد فهذه هى صراط الله المستقيم ، صراط الله الذى ليس وراءه إلا السبل المتفرقة عن سبيله ، وتلك وصية الله لعباده بُغية التقوى ، فالتقوى هى مناط الاعتقاد والعمل ، والتقوى هى التى تفىء بالقلوب إلى السبيل .

وصراط الله المستقيم ممتد عبر الرسالات ، ومنه أقرب شريعة للإسلام ، شريعة موسى عليه السلام ؛ وقد أعطاه الله كتابا فصل فيه كل شىء ، وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بلقاء الله فى الآخرة . وتربط الآيات الكتاب الجديد المبارك ، الملتحم بالكتاب الذى أنزل على موسى ، المتضمن للعقيدة وللشريعة المطلوب اتباعها والتقوى فيها، رجاء أن ينال الناس ـ حين يتبعونها ـ رحمة الله فى الدنيا والآخرة : ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

ولقد نزل هذا الكتاب قطعاً لحجة العرب ، كى لا يقولوا : إنه لم يتنزل علينا كتاب كالذى تنزل على اليهود والنصارى ؛ ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكنا أهدى منهم ، فها هو ذا كتاب يتنزل عليهم ، ويقطع هذه الحجة عليهم ، فيستحق الذين يكذبون العذاب الأليم .

يقول صاحب الظلال : « لقد شاء الله ـ سبحانه ـ أن يرسل إلى قومهم بلسانهم حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة أرسل الله محمداً خاتم النبين للناس كافة . فهو آخر رسول من الله للبشر ، فناسب أن يكون رسولاً إليهم أجمعين ، والله يقطع الحجة على العرب أن يقولوا : إن كلا من موسى وعيسى إنما أرسلا إلى قومهما ، ونحن كنا غافلين عن دراستهم لكتابهم ، لا علم لنا به ولا اهتمام ، ولو جاء إلينا كتاب بلغتنا ، يخاطبنا وينذرنا لكنا أهدى من أهل الكتاب ، فقد جاءهم هذا الكتاب وجاءهم رسول منهم ـ وإن كان رسولاً للناس أجمعين ـ وجاءهم هذا الكتاب وجاءهم رسول منهم ، يحمل إليهم حقائق بينة كذلك لا لبس فيها ولا غموض . وهو هدى لما فيه من ضلال ، ورحمة لهم فى الدنيا والآخرة » .

فإذا كان ذلك فمن أشد ظلما ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها وهى تدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح ؟فمن أشد ظلما لنفسه وللناس بصده لنفسه، وللناس عن هذا الخير العظيم، وبإفساده فى الأرض بتصورات الجاهلية وتشرعاتها .. إن الذين يعرضون عن هذا الحق فى طبعهم آفة تميلهم عنه ؛ كالآفة التى تكون فى خف البعير فتجعله يصدف أن يميل بجسمه ولا يستقيم .. وهم مستحقون سوء العذاب بصدوفهم هذا وميلهم .

ويقول صاحب الأساس ، فى التشابه بين القرآن والتوراة : «قال كعب الأحبار» : إن هذه الآيات لأول شىء فى التوراة » أى : هذه الوصايا العشر مذكورة فى أوائل التوراة ، وقد تتبعت ما يسمّونه الآن بالتوراة فوجدت فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج وهو السفر الثانى من أسفار التوراة : « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ... » وهذا وما بعده يقابل ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ « أكرم أباك وأمك ... » وهذا يقابل : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ « لا تقتل » وهذا يقابل ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم﴾ . (ولا تقتلوا النفس ....) . « لا تَزْنِ » وهذا يقابل : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ « لا تسرق » وهذا يقابل : ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ . « لا تشهد على قريبك شهادة زور » وهذا يقابل : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ وفى الإصحاح الخامس من سفر التثنية هذه الفقرات :

« لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً صورة ما ، فما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من أسفل ، وما فى الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن ؛ لأنى أنا الرب إلهك إله غيور .. .. » . « لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً ، لأن الرب لا يبرّئ من نطق باسمه باطلاً ... » . « أكرم أباك وأمك أوصاك الرب إلهك » « لا تقتل ولا تزن ولا تسرق ولا تشهد على قريبك شهادة زور ولا تشته امرأة قريبك » .

ولو أننا نظرنا إلى هذه الوصايا فى التوراة ، لوجدناها تقابل بشكل ما الوصايا العشر فى القرآن ، مع الاختلاف فى محتوى بعض الألفاظ مما خالفت فيه شريعتنا شريعتهم بأمر الله ونسختها ؟ وهذا دليل على تواصل الرسالات وانتظامها سبيلاً وطريقاً مستقيمًا واحدًا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

٢ ـ وجوب رعاية مال اليتيم والمحافظة عليه حتى يبلغ أشده .

٣ ـ وجوب أداء الحقوق إلى أهلها من غير نقص فى كيل أو ميزان أو غيرهما .

٤ ـ وجوب الوفاء بالعهد مع الله ومع الناس والتحذير من نقض العهود ومخالفة الوعود .

٥ ـ دين الله واحد ، فقد دعا الأنبياء جميعًا إلى توحيد الله وفعل الخيرات والبعد عن الشر .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

معانى الكلمات :

يأتى ربك : إيتاء يليق بجلاله ـ تعالى .

شيعاً : فرقاً وأحزاباً فى الضلالة . **قيماً** : يقوم به أمر الناس . **نسكى** : عبادتى .

لا تزر وازرة : لا تحمل نفس آثمة .

وزر: الحمل الثقيل (الذنب) . **أبغى**:أريد ، وأقصد . **يبلوكم** : يختبركم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم المسلم أن الفرقة فى الدين مآلها الكفر والخسران المبين .

٢ ـ أن يستشعر المؤمن اتصاله بركب الأنبياء من لدن آدم ﷺ وحتى محمد خاتم الأنبياء .

٣ ـ أن يتوجه المسلم بكل ما فى حياته وما يسعى إليه فى مماته لله رب العالمين .

٤ ـ أن يدرك المؤمن قاعدة الحساب والجزاء فى الإسلام .

المحتوى التربوى :

بعد انقطاع المحجة بنزول القرآن ، لا يزال العرب يشركون ، ويشرعون من عند أنفسهم ، ويزعمونه شريعة الله ، بينما كتاب الله قائم وليس فيه هذا الذى يفترونه ، وما يزالون يطلبون الآيات والخوارق ليصدقوا بهذا الكتاب ويتبعوه ، ولو جاءتهم الآيات التى يطلبون أو بعضها لكان فيها القضاء الأخير كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ الآية إنه التهديد الواضح الحاسم ، فقد مضت سنة الله بأن يكون عذاب الاستئصال حتما إذا جاءت الخارقة ثم لم يؤمن بها المكذبون . والله ـ سبحانه ـ يقول لهم : إن ما طلبوه من الخوارق لو جاءهم بعضه لقُضى عليهم بعده وإنه يوم تأتى بعض آيات الله تكون الخاتمة التى لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل لنفس لم تؤمن من قبل ، ولم تكسب عملاً صالحاً فى إيمانها . فالعمل الصالح هو دائماً قرين الإيمان وترجمته فى ميزان الإسلام . بعد ذلك يلتفت السياق إلى رسول الله ﷺ ليفرده وحده بدينه وشريعته ومنهجه وطريقه عن كل الملل والنحل والشيع القائمة فى الأرض ـ بما فيها ملة المشركين العرب .

يقول صاحب الظلال : بمناسبة قوله ـ تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ إنه مفرق الطريق بين الرسول ﷺ ودينه وشريعته ومنهجه كله وبين سائر الملل والنحل ، سواء من المشركين الذين كانت تمزقهم أوهام الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وثاراتها ، شيعاً وفرقاً وقبائل وعشائر وبطونا . أو من اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللاً ونحلاً ومعسكرات ودولاً .

إن الدين عند الله الإسلام ، ورسول الله ﷺ ليس فى شىء ممن فرقوا الدين فلم يلتقوا فيه على الإسلام ، وإن الدين عند الله هو المنهج والشرع ، ورسول الله ﷺ ليس فى شىء ممن يتخذون غير منهج الله منهجًا ، وغير شريعة الله شرعًا . وفى ختام السورة ـ وختام الحديث الطويل عن قضية التشريع والحاكمية ـ يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ فى ظلاله : تجىء التسبيحة الندية الرخية ، فى إيقاع حبيب إلى النفس قريب : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الآيات » ويلمس فى كل آية أعماق القلب البشرى لمسات دقيقة عميقة فى مكان التوحيد ، توحيد الصراط والملة ، توحيد المتجه والحركة ، توحيد الإله والرب . توحيد العبودية والعبادة مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسننه ومقوماته .

وفى الآيات الإعلان الذى يوحى بالشكر ، ويشى بالثقة ، ويفيض باليقين ، والثقة بالصلة الهادية ، صلة الربوبية الموجهة المهيمنة الراعية ، والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذى لا التواء فيه ولا عوج : ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ ، وهو دين الله القديم منذ إبراهيم أبى هذه الأمة المسلمة المبارك المخلص المنيب : ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وكذلك فى الآيات التجرد الكامل لله ، بكل خالجة فى القلب وبكل حركة فى الحياة ، بالصلاة والاعتكاف ، وبالمحيا والممات ، بالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه ، وتمضى التسبيحة الندية بحلاوتها فى آفاق الكون تنقضى السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن؛ وتشتمل كل مخلوق مما يعلم الإنسان ومما يجهل ؛ وتجمع كل حادث وكل كائن فى السر والعلانية ثم تظللها كلها بربوبية الله الشاملة لكل كائن فى هذا الكون الهائل ؛ وتعبدها كلها لحاكمية الله المطلقة عقيدة وعبادة وشريعة بقوله ـ تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الآيات .

ونتساءل مع صاحب الظلال :

ـ أغير الله أبغى ربا يحكمنى ويصرف أمرى ويهيمن على ويقومنى ويوجهنى ؟ وأنا مأخوذ بنيتى وعملى محاسب على ما أكسبه من طاعة ومعصية ؟

ـ أغير الله أبغى ربا ، وهذا الكون كله فى قبضته ؛ وأنا وأنتم فى ربوبيته ؟

ـ أغير الله أبغى ربا ، وكل فرد مجزى بذنبه لا يحمله عنه غيره ؟ ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ .

ـ أغير الله أبغى ربا وإليه مرجعكم فيحاسبكم على ما كنتم تختلفون فيه ؟

ـ أغير الله أبغى ربا ، وهو الذى استخلف الناس فى الأرض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات فى العقل والجسم والرزق ، ليبتليهم أيشكرون أم يكفرون ؟

ـ أغير الله أبغى ربا ، وهو سريع العقاب ، غفور رحيم لمن تاب ؟

ـ أغير الله أبغى ربا ، فأجعل شرعه شرعاً ، وأمره أمراً ، وحكمه حكماً .

وهذه الدلائل والموحيات كلها حاضرة ؛ وكلها شاهدة ؛ وكلها هادية إلى أن الله وحده هو الرب الواحد المتفرد ؟

وكما يقول صاحب الظلال : إنها تسبيحة التوحيد الرضية الندية ؛ تتجلى من خلالها ذلك المشهد الباهر الرائع . مشهد الحقيقة الإيمانية ، كما هى فى قلب رسول الله ﷺ ـ وهو مشهد لا يعبر عن روعته وبهائه إلا التعبير القرآنى الفريد .

وهكذا حشدت هذه الصورة حشوداً عن حقيقة الألوهية بروعتها وبهائها وجلالها وجمالها، وحقيقة الكون والحياة ، وحقيقة النفس الإنسانية بأغوارها وأعماقها ، ومشاهد القيامة ومواقف الحشر ، ولحظات كربة وضيق ، ولحظات أمل واستبشار ، ولقطات من تاريخ الإنسان فى الأرض ، ولقطات من تاريخ الكون والحياة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

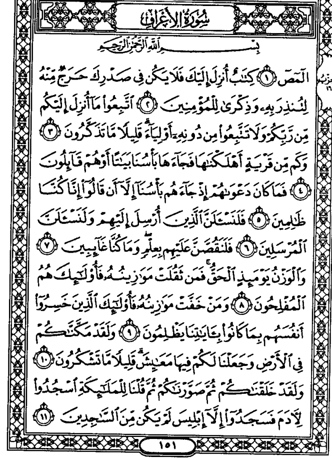
١ ـ الإسلام رسالة الاستقامة والهدى للبشرية جمعاء ، وهو دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام .

٢ ـ يجب أن نقصد الله بكل أقوالنا وأفعالنا ، وكل ما نعمله فنحيا عليه ، وما نسعى إليه فنموت عليه فيكون كله لله رب العالمين .

٣ ـ يجب أن نعتقد بأن الله ـ تعالى ـ وحده هو النافع الضار وهو القادر على كل شىء .

٤ ـ كل إنسان مسؤول عن نفسه ،وسيجازى بما عمل ،ولن تتحمل نفس ذنب نفس أخرى .

٥ ـ امتحن الله الناس بالغنى والفقر ، والخير والشر ، والسعيد من نجح فى امتحان الدنيا بالإيمان الصادق والعمل الصالح .



سورة الأعراف

معانى الكلمات :

حرج منه : ضيق من تبليغه خشية أن يكذبوك . **بأسنا** : عذابنا . **بياتاً** : ليلاً وهم نائمون . **قائلون** : مستريحون نصف النهار « القيلولة » . **دعواهم** : دعاؤهم وتضرعهم . **مكناكم** : جعلنا لكم مكانًا وقرارًا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن ندرك وظيفة الدين فى الحياة .

٢ ـ أن نوقن بسنن الله فى الكون وفاعليتها فى الحياة .

٣ ـ أن نستشعر المسؤولية أمام الله عز وجل ـ يوم القيامة .

٤ ـ أن نشكر الله على جزيل نعمه وعظيم إحسانه .

المحتوى التربوى :

بدأت هذه السورة بالحروف المعجزة ، التى تشير فى دلالة واضحة على أن هذا القرآن ليس من صنع البشر ، فقد كانت أمامهم الأحرف والكلمات التى صيغ منها ، فلم يستطيعوا أن يصوغوا منها قرآنا مثله ويبدأ السياق بتقرير حقيقة هامة ، وهى أن هذا القرآن كتاب أنزل للنبى ﷺ للإنذار به والتذكير ، كتاب للصدع بما فيه من الحق ولمواجهة الناس بما لا يحبون ؛ ولمجابهة عقائد وتقاليد وارتباطات ؛ ولمعارضة نظم وأوضاع ومجتمعات ، فالحرج فى طريقه كثير، والمشقة فى الإنذار به قائمة .

لقد جاء هذا الدين ليغير وجه العالم ، وليقيم عالماً آخر ، يقر فيه سلطان الله وحده ، ويبطل سلطان الطواغيت ، عالماً يعبد فيه الله وحده ـ بمعنى « العبادة » الشامل ـ ولا يعبد معه أحد من العبيد . عالماً يخرج الله فيه ـ من شاء ـ من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . عالماً يولد فيه « الإنسان » الحر الكريم النظيف ، المتحرر من شهوته وهواه ، تحرره من العبودية لغير الله .

جاء هذا الدين ليقيم قاعدة : « أشهد أن لا إله إلا الله » التى جاء بها كل نبى إلى قومه على مدار التاريخ البشرى ، وشهادة أن لا إله إلا الله ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا لله فى

حياة البشر ، كما أن له الحاكمية العليا فى نظام الكون سواء ، فهو المتحكم فى الكون والعباد بقضائه وقدره ، وهو المتحكم فى حياة العباد بمنهجه وشريعته ، وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن لله شريكاً فى خلق الكون وتدبيره وتصريفه ؛ ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلا لله وحده ، ولا يتلقى الشرائع والقوانين ، والقيم والموازين والعقائد والتصورات إلا من الله ، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعى حق الحاكمية فى شىء من هذا كله مع الله .

وفى الوقت الذى وجه الله ـ سبحانه ـ هذا التكليف إلى رسوله ﷺ ، وجه إلى قومه المخاطبين بهذا القرآن أول مرة الأمر باتباع ما أنزل فى هذا الكتاب والنهى عن اتباع الأولياء من دون الله .

ولأن هذا التغيير المطلوب أمر عظيم يعرض السياق مصارع الغابرين من المكذبين فى الدنيا ومصائرهم كذلك فى الآخرة فهى خير مذكر ، وخير منذر ، والقرى التى أهلكت بسبب تكذيبها كثيرة . أهلكت وهى غارة غافلة ، فى الليل وفى ساعة القيلولة حيث يسترخى الناس للنوم ويستسلمون للأمن ، ولم يكن لهؤلاء المأخوذين فى غرتهم إلا الاعتراف ! ولم يكن لهم دعوى يدعونها إلا الإقرار !

والإنسان يدعى كل شىء إلا الاعتراف والإقرار ! ولكنهم فى موقف لا يملكون أن يدعوا إلا هذه الدعوة ! ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .

وينتقل السياق من هذا المشهد المعروض فى الدنيا إلى ساحة الآخرة بلا توقف ولا فاصل؛ ليلحق عذاب الدنيا بعذاب الآخرة ؛ فإذا وقف هؤلاء الذين تعرضوا لبأس الله فى هذه الأرض وقفتهم هناك للسؤال والحساب والجزاء، فإنه لا يكتفى باعترافهم ذاك حين واجهوا بأس الله الذى أخذهم وهم غافلون : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ ولكنه السؤال والتشهير بهم على الملأ الحاشد فى ذلك اليوم المشهود ؛ حيث يسأل الذين جاءهم الرسل فيعترفون ، ويسأل الرسل فيجيبون .

ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شىء أحصاه الله ونسوه ! يقصه عليهم ـ سبحانه ـ بعلم فقد كان حاضرًا كل شىء . وما كان ـ سبحانه ـ غائباً عن شىء ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ فلا مجال للمغالطة فى الوزن ؛ ولا التلبيس فى الحكم ؛ ولا الجدل الذى يذهب بصحة الأحكام أو تبدل الموازين .

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فقد ثقلت فى ميزان الله الذى يزن بالحق . وجزاؤها إذن هو الفلاح ، وأى فلاح بعد النجاة من النار ، والعودة إلى الجنة فى نهاية الرحلة المديدة : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا ﴾ ، كانوا بآياتنا يظلمون فقد خفت فى ميزان الله الذى لا يظلم ولا يخطىء . وقد خسروا أنفسهم فماذا يكسبون بعد ؟ إن المرء ليحاول أن يجمع نفسه فإذا خسر ذات نفسه فما الذى يبقى له ؟

وبعد هذا المشهد المصور من ساحة الآخرة ، يبدأ السياق يقص بداية الرحلة الكبرى ، والتى يمهد لها بتمكين الله للجنس البشرى فى الأرض ، كحقيقة مطلقة ، وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً .

والله عز وجل هو الذى خلق الأرض والناس ، وهو الذى جعل الأرض مقرًا صالحًا لنشأته وهو الذى أودع فى هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ما يسمح بنشأة الإنسان وحياته ، وهو الذى نصبه سيد هذه المخلوقات جميعًا فى هذه الأرض ، وأعطاه القدرة على تطويعها واستخدامها .

إن الإنسان هو ابن هذه الأرض ، وربيب هذا الكون ، لقد أنشأه الله من هذه الأرض ، ومكنه فيها ، وجعل له فيها أرزاقًا ومعايش ، ولكن الناس قليلاً ما يشكرون .

بعد ذلك تبدأ القصة بأحداثها المثيرة ، تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان فى احتفال مهيب فى رحاب الملأ الأعلى ، يعلنه الملك ، زيادة فى الحفاوة والتكريم ، وتحتشد له الملائكة وفى زمرتهم وإن لم يكن منهم إبليس ـ وتشهده السموات والأرض ؛ وما خلق الله من شىء ، إنه أمر هائل وحدث عظيم فى تاريخ هذا الوجود .

وبعد هذا الإعلان عن ميلاد الإنسان من الذات العلية أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنسانى على الله ، كما تتمثل الطاعة المطلقة فى ذلك الخلق المسمى بالملائكة من عباد الله ، وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله ـ سبحانه ـ وعصاه وسنعلم : ما الذى حاك فى صدره فيما يلى من السياق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ سنن الله فى الكون لا تتبدل ولا تتغير ، وهو قادر على عقاب المكذبين إلى يوم الدين .

٢ ـ فى يوم القيامة يسأل الله الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته .

٣ ـ كل راع مسؤول عن رعيته وسيسأل عما استرعاه الله من رعية .

٤ ـ صحائف الأعمال توزن يوم القيامة بميزان له لسان وكفتان لينظر إليه الخلائق إظهار للعدل ، وقطعاً للمعذرة ، كما يُسأل الإنسان عن عمله فتعترف جوارحه .

٥ ـ نعم الله علينا كثيرة ، وقد مَنَّ الله وشرفنا بأن خلقنا فى أحسن صورة ، وأسجد لأبينا آدم الملائكة ، وهيأ لنا أسباب الحياة على الأرض ، وسخر لنا كل شىء فعلينا شكر المنعم بما أنعم .

الجزء الثامن — سورة الأعراف

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ
لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

١٥٢

معانى الكلمات :

ما منعك : ما دعاك وحملك .

الصاغرين : الأذلاء المهانين .

أنظرنى:أمهلنى فى الحياة.

المنظرين : الممهلين إلى وقت النفخة الأولى

فبما أغويتنى : فبما أضللتنى .

مذؤوما : محقرًا لعينًا .

مدحوراً : مطرودًا مبعدًا .

ما وُورِى عنهما : ما ستر وخفى .

سوءاتهما : عوراتهما .

قاسمهما : حلف لهما.

فدلاهما :فأنزلهما عن مرتبة الطاعة بخداع .

طفقا يخصفان : شرعا يلزقان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم قدر الإنسان عند الله، وتكريمه له ، وحفاوته به .

٢ ـ أن نعلم طبيعة المعركة والصراع بين بنى آدم والشيطان .

٣ ـ أن ندرك جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها واستمرارها وضراوتها .

٤ ـ أن نعلم عاقبة الكبر فى الآخرة وفضيلة التواضع فى الدنيا والآخرة .

٥ ـ أن نعلم أن المعصية سبب كشف العورات والحسنة من أسباب الستر .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق أحداث قصة الخليقة فى بدايتها الأولى ، ويصور فى مشهد ثلاثة نماذج من خلق الله : نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق (الملائكة) ، ونموذج العصيان المطلق ، والاستكبار المقيت (إبليس) ، ونموذج الطبيعة المزدوجة (الإنسان) .

والذى منع إبليس من السجود أنه جعل لنفسه رأيا مع النص ، وجعل لنفسه حقًّا فى أن يحكم لنفسه وفق ما يرى هو من سبب وعلة مع وجود الأمر ، والأصل كما يقول صاحب

الظلال :وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر ، ويبطل التفكر ، وتتعين الطاعة، ويتحتم التنفيذ .

لذا طرد من الجنة ، وطرد من رحمة الله ، وكُتب عليه الصغار ، ولكن الشرير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب ؛ ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم . ثم ليؤدى وظيفته وفق طبيعة الشر التى تمخضت فيه ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ... الآية ويتضح هنا الإصرار المطلق على الشر ، والتصميم المُطلق على الغواية ، لقد سأل إبليس ربه أن ينظره إلى يوم البعث ، وبعدها أعلن فى تبجح خبيث ـ وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل ـ أنه سيرد على تقدير الله له الغواية وإنزالها به ، بسبب معصيته وتبجحه ؛ بأن يغوى ذلك المخلوق الذى كرمه الله ، والذى بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده .

أقسم أنه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم ، يصد عنه كل من يهم منهم باجتيازه ـ والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حسّا ، فالله سبحانه جلّ عن التحيز ، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدى إلى رضا الله ـ وإنه سيأتى البشر من كل ناحية ﴿ مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة وهو مشهد حى شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر فى محاولته الدائبة لإغوائهم ، فلا يعرفون الله ولا يشكرونه . اللهم إلا القليل الذى يستجيب ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : لقد أجيب إبليس إلى ملتمسه ؛ لأن مشيئة الله ـ سبحانه ـ اقتضت أن يترك الكائن البشرى يشق طريقه ؛ بما ركب فى فطرته من استعداد للخير والشر ، وبما وهبه من عقل مرجح ؛ وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدى الرسل ، ومن الضبط والتقويم بهذا الدين .

كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية ؛ وأن يصطرع فى كيانه الخير والشر ؛ وأن ينتهى إلى إحدى النهايتين ، فتحق عليه سُنة الله وتتحقق مشيئته بالابتلاء ، سواء اهتدى أو ضل ، فعلى سنة الله الجارية ووفق مشيئته الطليقة ، تحقق الهدى أو الضلال .

وبعد ذلك يأتى مشهد آخر ينظر الله إلى آدم وزوجته بعد طرد إبليس من الجنة ، ليعهد إليهما ربهما بأمره فى حياتهما ؛ ولتبدأ تربيته لهما وإعدادهما لدورهما الأساسى ؛ ويحظر عليهما الأكل من شجرة معينة بعد أن أذن لهما بالمتاع الحلال ، ووصاهما بالامتناع عن المحظور . ولابد أن الحظر فى ذاته هو المقصود .

ولكن إبليس راح يداعب الشهوات فوسوس لهما ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوآتهما فهذا كان هدفه .. لقد كانت لهما سوآت ، ولكنها كانت مواراة عنهما لا يريانها ، وجاءهما من ناحية رغائبهما العميقة ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ .

ولما كان اللعين يعلم أن الله قد نهاهما عن هذه الشجرة ، وأن هذا النهى له ثقله فى نفوسهما وقوته ؛ فقد استعان على زعزعته ـ بتأمينهما من هذه الناحية ؛ فحلف لهما بالله إنه لهما ناصح وصاد فى نصحه .

ونسى آدم وزوجته أنه عدوهما الذى لا يمكن أن يدلهما على خير ! وأن الله أمرهما أمرًا عليهما طاعته سواء عرفا علته أم لم يعرفاها ! وأنه لا يكون شىء إلا بقدر من الله ، فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذى لا يبلى فلن ينالاه !

نسيا هذا كله واندفعا يستجيبان للإغراء ! وتمت الخدعة ، وآتت ثمرتها المرة ، لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته، فأنزلهما إلى مرتبة دنيا ، وشعرا الآن أن لهما سوآت، تكشفت لهما بعد أن كانت مواراة عنهما ، فراحا يجمعان من ورق الجنة ويضعان هذا الورق على سوآتهما ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ .

وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وإغفال النصيحة ؛ وأما هذا النداء العلوى يتكشف الجانب الآخر فى طبيعة هذا الكائن البشرى المتفرد ـ كما يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ فى ظلاله : إنه ينسى ويخطئ . إن فيه ضعفًا يدخل منه الشيطان . إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً ، ولكنه يدرك خطأه ، ويعرف زلته ؛ ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة ، إنه يثوب ويتوب ، ولا يلج كالشيطان فى المعصية . ولا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، صراع قديم وسيستمر إلى يوم القيامة .

٢ ـ الكبر والحسد مرضان من أخطر الأمراض النفسية التى تدمر صاحبها ، وتؤدى إلى كثير من أنواع الجرائم والإفساد .

أخرج الترمذى ، عن عمرو بن شعيب عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن فى جهنم يُقال له : بولس يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » .

٣ ـ إبليس اللعين عدو لآدم وذريته ، فعلينا أن نتخذه عدوًا حتى لا نتعرض لإغوائه وإضلاله .

٤ ـ المعصية من أهم أسباب كشف العورات ، والطاعة لله ورسوله سبيل إلى الستر فى الدنيا والآخرة .

٥ ـ إن العرى فطرة حيوانية ، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان ، وإن رؤية العرى جمالًا هو انتكاس فى الذوق البشرى قطعًا .

الجزء الثامن — سورة الأعراف

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

١٥٣

معانى الكلمات :

يوارى : يستر. **ريشاً** : مالاً أو لباس زينة .

لباس التقوى : الإيمان وثمرته .

لا يفتننكم : لا يخدعنكم . **قبيله** : جنوده وذريته . **أقيموا وجوهكم** : توجهوا إلى عبادته مستقيمين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان فضيلة التقوى والحياء وقبح العرىّ وحب الفاحشة .

٢ ـ أن نداوم الحذر ، ونضاعف اليقظة من عدونا الدائم إبليس لعنه الله .

٣ ـ أن ندرك مكانة الإنسان فى الوجود وضخامة الدور المنوط به وسعة الآفاق التى يتحرك فيه .

٤ ـ أن نستشعر كرامة ولاية الله للمؤمنين ، وتعاسة ولاية الشيطان للكافرين .

المحتوى التربوى :

وتمضى الآيات تكمل القصة الأولى لأبى البشر آدم عليه السلام وزوجه حواء ، حيث ندما وقالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ وتلك خصيصة « الإنسان » التى تصله بربه ، وتفتح له الأبواب إليه ، الاعتراف ، والندم ، والاستغفار ، والشعور بالضعف والاستعانة به ، وطلب رحمته . مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته ، وإلا كان من الخاسرين .

وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت ؛ وعرفها وذاق مرارتها واستعد بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة ـ لمزاولة اختصاصه فى الخلافة ؛ وللدخول فى المعركة التى لا تهدأ أبدًا مع عدوه ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ الآية ، لقد هبطوا جميعًا إلى الأرض ، آدم وزوجه ، وإبليس وقبيله . هبطوا ليصارع بعضهم بعضا ، ولتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين : إحداهما ممحضة للشر ، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر ؛ وليتم الابتلاء، ويجرى قدر الله بما شاء .

وكتب على آدم وذريته أن يستقروا فى الأرض ، ويمكنوا فيها ، ويستمتعوا بها فيها إلى حين وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا ؛ ثم يخرجوا منها فيبعثوا . ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو ناره ، فى نهاية الرحلة الكبرى .

ويعقب الله على هذه القصة بعدة نداءات لبنى آدم : أولها تشريعه لهم اللباس الذى يستر العورات المكشوفة ، ثم يكون زينة ـ بهذا الستر ـ وجمالاً ، بدل قبح العرى وشناعته ويصفه بأن خير ، لأنه لباس التقوى .

ويقول صاحب الظلال : فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة ، وبين التقوى . كلاهما لباس ، هذا يستر عورات القلب ويزينه ، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه ، وهما متلازمان . فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه ، ومن لا يستحيى من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العرى ، العرى من الحياء والتقوى ؛ والعرى من اللباس وكشف السوأة !

ويأتى النداء الثانى لبنى آدم ، فى وقفة التعقيب على قصة أبويهم ،وما جرى لهما مع الشيطان ؛ وعلى مشهد العرى الذى أوقفهما فيه عدوهما ، بسبب نسيانهما أمر ربهما والاستماع إلى وسوسة عدوهما ، وهذا النداء تحذير لبنى آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام فى الطليعة ، أن يستسلموا للشيطان ، فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد ؛ فيسلمهم إلى الفتنة ـ كما فعل مع أبويهم من قبل ، إذ أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما .

وزيادة فى التحذير ، واستثارة للحذر ، ينبئهم ربهم أن الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم ، وإذن فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية ، وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط ، وإلى مضاعفة اليقظة ، وإلى دوام الحذر ، كى لا يأخذهم على غرة .

ثم يأتى الإيقاع المؤثر الموحى بالتوقى ، إن الله قدر أن يجعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ويا ويل من كان عدوه وليًا ، إنه إذًا يسطير عليه ويستهويه ، ويقوده حيث شاء بلا عون ولا نصير ، ولا ولاية من الله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ويواجه القرآن المشركين بهذا الحقيقة الواقعه عندما يكونون فى ولاية الشيطان ؛ وهم يزاولون فاحشة التعرى فى الطواف ببيت الله الحرام وفيهم النساء ! ثم يزعمون أن الله أمرهم بها فقد كان أمر آبائهم بها ففعلوها ، ثم هم ورثوها عن آبائهم ففعلوها ! والله سبحانه ـ يأمر نبيه ـ ﷺ أن يواجههم بالتكذيب لهذا الافتراء على الله ، وبتقرير طبيعة شرع الله وكراهته للفاحشة ، فليس من شأنه سبحانه أن يأمر بها .

إن هؤلاء المشركين ـ على شركهم ـ لم يكونوا يتبجحون تبجح المجتمعات المعاصرة ، التى تقول : ما للدين وشؤون الحياة ، دع ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر ، بل كانوا يفترون الفرية ،

ويزعمون أنها من عند الله ، وقد يكون هذا ألأم وأخبث ، لأنها تخدع الذين فى قلوبهم بقية من عاطفة دينية ، ولكنها على كل حال أقل تبجحًا .

يقول صاحب الظلال : إن الله لا يأمر بالفحشاء إطلاقاً .. والفاحشة : كل ما يفحش أى يتجاوز الحد ـ والعرى من هذه الفاحشة، فالله لا يأمر به .وكيف يأمر الله بالاعتداء على حدوده؟ والمخالفة عن أمره بالستر والحياء والتقوى ؟ ومن الذى أعلمهم بأمر الله ذاك ؟ إن أوامر الله وشرائعه ليست بالادعاء ، إن أوامره وشرائعه واردة فى كتبه على رسله ، وبعد ذلك ينكر عليهم دعواهم فى أن الله أمر بهذه الفاحشة ، ويبين لهم أن أمر الله يجرى فى اتجاه مضاد ، لقد أمر الله بالعدل والاعتدال فى الأمور كلها لا بالفحش والتجاوز وأمر بالاستقامة على منهج الله فى العبادة والشعائر ، والاستمداد مما جاء فى كتابه على رسوله ﷺ ، ولم يجعل المسألة فوضى ، يقول كل إنسان فيها بهواه، ثم يزعم أنه من عند الله . وأمر بأن تكون الدينونة خالصة له، والعبودية كاملة: فلا يدين أحد لأحد لذاته ، ولا يخضع أحد لأمر أحد لذاته .

وعند هذا النداء يأتى التذكير والإنذار ؛ ويلوّح لهم بالمعاد إلى الله بعد انتهاء ماهم فيه من أجل مرسوم للابتلاء ، وبمشهدهم فى العودة وهم فريقان : الفريق الذى اتبع أمر الله . والفريق الذى اتبع أمر الشيطان . وكما بدأكم تعودون : فريقا هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

وهى نقطة عجيبة تجمع نقطة البدء فى الرحلة الكبرى ونقطة النهاية ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ وقد بدؤوا الرحلة فريقين : آدم وزوجه ، والشيطان وقبيله ، وكذلك سيعودون : الطائعون سيعودون فريقاً مع أبيهم آدم وأمهم حواء فهم المسلمون المؤمنون المتبعون لأمر الله ، والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله ، يملأ الله منهم جهنم ، بولائهم لإبليس وولايته لهم . وهم يحسبون أنهم مهتدون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ العداوة قائمة إلى يوم القيامة بين آدم وذريته وإبليس وجنوده وذريته ، وليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين ، وإنما يتولى أمور الذين لا يؤمنون بالله ورسوله .

٢ ـ لا يجوز أن نقلد الآباء والأجداد فى المعاصى وقبائح الذنوب ، وإنما نوجه أعمالنا لله سبحانه وتعالى .

٣ ـ ضرورة الاستقامة والمحافظة على الصلاة والإخلاص لله .

٤ ـ التجمل فى الملابس فطرة أودعها الله قلوب عباده ، ولا حرج فى ذلك ، وكذلك ستر العورات ، والتزين المباح ، ولكن أفضل اللباس وأبقاه هو لباس الإيمان والتقوى والأعمال الصالحة .

الجزء الثامن — سورة الأعراف

ربع الحزب ١٦

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

١٥٤

معانى الكلمات :

زينتكم : ما يتزين به من الثياب وغيرها .

لا تسرفوا : لا تجاوزوا الاعتدال .

الفواحش : الأمور القبيحة جداً .

بطن : خفى . **البغى** : الظلم .

سلطانا : دليلاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ ألا يحرم المسلم ما أحل الله من الزينة والطيبات من الرزق .

٢ ـ أن نتخذ الزينة والطيب عند الذهاب إلى كل عبادة .

٣ ـ ألا نتجاوز حد الاعتدال فى المأكل والملبس ، وما أحل الله .

٤ ـ أن نعلم أن الافتراء على الله بدون علم من أعظم المحرمات .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق مكررًا نداء المولى ـ عز وجل ـ إلى بنى آدم ليؤكد على الحقائق الأساسية للعقيدة،فى مواجهة ما عليه المشركون العرب فى الجاهلية،والنداء هنا إلى بنى آدم كافة أن يأخذوا زينتهم من اللباس الذى أنزله الله عليهم عند كل عبادة ، وكذلك ليتمتعوا بالطيبات من الطعام والشراب دون إسراف ، وقد ورد أنه كان هناك تحريم فى الطعام ، كالتحريم فى الثياب بطوافهم عرايا حول البيت ، وكان هذا من مبتدعات قريش كذلك .

ولا يكتفى السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد ، وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب ، بل يستنكر تحريم هذه الزينة التى أخرجها الله لعباده ، وتحريم الطيبات من الرزق ، فمن المستنكر أن يحرم أحد ـ برأيه ـ ما أخرجه الله للناس من الزينة أو من الطيبات . فتحريم شىء أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله .

ويتبع الاستنكار بتقرير أن هذه الزينة من اللباس ، وهذه الطيبات من الرزق ، هى حق للذين آمنوا بحكم إيمانهم بربهم الذى أخرجها لهم ـ ولئن كان سواهم يشاركهم فيها فى هذه الدنيا ، فهى خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها الذين كفروا ولن يكون الشأن كذلك ، ثم

تكون محرمة عليهم ؛ فما يخصهم الله فى الآخرة بشىء هو حرام ! والذين ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة هذا الدين هم الذين ينتفعون بهذا البيان .

فأما الذى حرمه الله حقاً ، فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس ، وليس هو الطيب من الطعام والشراب - فى غير سرف ولا مخيلة - إنما الذى حرمه الله حقًّا هو الذى يزاولونه فعلاً !

فالذى حرمه الله . الفواحش - ما ظهر منها وما بطن - من الأعمال المتجاوزة لحدود الله . والإثم وهو كل معصية لله على وجه الإجمال ، والظلم الذى يخالف الحق والعدل ، وإشراك ما لم يجعل الله به قوة ولا سلطاناً مع الله - سبحانه - فى خصائصه ، ومنه الذى كان واقعاً فى الجاهلية .

ويقول صاحب الظلال : ومن عجيب ما روى من حال المشركين الذين خوطبوا بهذه الآيات أول مرة ، ووجه إليهم هذا الاستنكار الوارد فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ ما رواه الكلبى قال : لما لبس المسلمون الثياب ، وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بها ، فنزلت الآية .

ويأتى نداء جديد لبنى آدم يناقش قضية التلقى والاتباع فى شعائر الدين وفى شرائعه ، وفى أمر الحياة كلها وأوضاعها ، وذلك لتحديد الجهة التى يتلقون منها ، إنها جهة الرسل المبلغين عن ربهم ، وعلى أساس الاستجابة أو عدمها للرسل يكون الحساب والجزاء .

وتعرض الآيات مشاهد حافلة بالحركة والتتابع ليوم القيامة مشهد الاحتضار ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ الحشر والحساب ومشهد الفصل والجزاء ؛ والحديث عن شأن المتقين والمستكبرين ؛ بعد الأجل المعلوم ، .ففى مشهد الاحتضار يتحدث عن الذين افتروا على الله الكذب بعد المعلوم .

فزعموا أن ما ورثوه عن آبائهم من التصورات والشعائر ، وما شرعوه هم لأنفسهم من التقاليد والأحكام ، أمرهم به الله ، والذين كذبوا بآيات الله التى جاءهم بها الرسل - وهى شرع الله المستيقن - وآثروا الظن والخرص على اليقين والعلم . وقد نالوا نصيبهم من متاع الدنيا الذى كتب لهم ، ومن فترة الابتلاء التى قدرها الله ، كما نالوا نصيبهم من آيات الله التى أرسل بها رسله وأبلغهم الرسل نصيبهم من الكتاب .

ويصف السياق مشهد أولئك الذين افتروا على الله كذباً وكذبواه بآياته ؛ وقد جاءتهم رسل ربهم من الملائكة يتوفونهم ، ويقبضون أرواحهم . فدار بين هؤلاء وهؤلاء حوار ﴿ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أين دعاويكم التى افتريتم على الله ؟ وأين آلهتكم التى توليتم فى الدنيا ، وفتنتم عما جاءكم من الله على لسان الرسل ؟ أين هى الآن فى اللحظة الحاسمة التى تسلب منكم فيها الحياة ؛ فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يؤخركم ساعة عن الميقات الذى أجله الله ؟

ويكون الجواب هو الجواب الوحيد ، الذى لا معدى عنه ، ولا مغالطة فيه : ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ غابوا عنه وتاهوا ! فلا نحن نعرف لهم مقرًا ، ولا هم يسلكون إلينا طريقًا ! .. ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ .

قال ابن القيم فى كتابه مدارج السالكين مفسراً قوله تعالى : ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ الآية ـ قال :

وأما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات تحريمًا وأعظمها إثمًا : ولهذا ذكر فى المرتبة الرابعة من المحرمات التى عليها الشرائع والأديان ، ولا تباح بحال ، بل لا تكون إلا محرمة ، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذى يباح فى حال دون حال ، فإن المحرمات نوعان : محرم لذاته لا يباح بحال ، ومحرم تحريمه عارض فى وقت دون وقت . قال الله تعالى فى المحرم لذاته : ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال ﴿ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال ﴿ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنًا ﴾ .

ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه ، فقال : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً ، فإنه يتضمن الكذب على الله ونسبته إلى ما لا يليق به وتغيير دينه وتبديله ، ونفى ما أثبته وإثبات ما نفاه ، وتحقيق ما أبطله ، وإبطال ما أحقه وعداوة من والاه، وموالاة من عاداه ، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه ، ووصفه بما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله ، فليس فى أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثماً ، وهو أصل الشرك والكفر ، وعليه أسست البدع والضلالات فكل بدعة مضلة فى الدين أساسها القول على الله بلا علم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحرص على الاعتدال فى المأكل والمشرب وعدم الإسراف ، وشكر الله على ما أنعم به علينا من الطيبات .

٢ ـ الدين الإسلامى يبيح التمتع بالحلال الطيب من الرزق فى المأكل والمشرب من غير تفاخر أو إسراف .

٣ ـ الشرك بالله ، والتجرؤ على القول فى الدين ، وعلى أحكامه ـ بغير علم ـ من أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثمًا .

٤ ـ الملائكة إذا توفت المشركين ، تفزعهم عند الموت ، وتقبض أرواحهم إلى النار ، وتوبخهم على إشراكهم .

الجزء الثامن — سورة الأعراف

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

١٥٥

معانى الكلمات :

ادّاركوا فيها : تلاحقوا فى النار . **أخراهم**: المتأخرون منزلة وهم الأتباع . **لأولاهم** : المتقدمين منزلة (الرؤساء والقادة) . **يلج** : يدخل . **سم الخياط** : ثقب الإبرة . **مهاد** : فراش أى مستقر . **غواش** : أغطية . **وسعها** : طاقتها . **غل** : حقد وعداوة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتدبر مشاهد يوم القيامة ، ونأخذ منها العبرة والعظة .

٢ ـ أن نعلم علم اليقين أن الدنيا دار ممر ، والآخرة دار مقر .

٣ ـ أن نوقن أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله وفضله .

٤ ـ أن نعمل عمل أهل الجنة ، لنفوز بها ، ونتجنب عمل أهل النار لننجو منها .

المحتوى التربوى :

تحتشد الآيات التالية عدة مشاهد ليوم القيامة ؛ وبعد مشهد الاحتضار يأتى مشهد هؤلاء المحتضرين فى النار ! وتسكت الآيات عما بينهما ، وتسقط الفترة بين الموت والبعث والحشر . وكأنما يؤخذ هؤلاء المحتضرون من الدار إلى النار !

ويقول لهم المولى عز وجل : انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن ؟ والإنس،هنا فى النار، أليس إبليس هو الذى عصى ربه ؟ وهو الذى أخرج آدم وزوجه من الجنة ؟ وهو الذى أغوى أبناءه ؟ وهو الذى أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم فى النار ؟ فادخلوا إذن جميعاً ، ادخلوا سابقين ولاحقين ، فكلكم أولياء ، وكلكم سواء .

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق فى الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ؛ ويملى متبوعُها لتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ فما أبأسها نهاية تلك التى يلعن فيها الابن أباه ، ويتنكر فيها الولى لمولاه ، وعندما يتلاحق آخرهم وأولهم ، ويجتمع قاصيهم بدانيهم ، يبدأ الخصام والجدال ، وتبدأ مهزلتهم ومأساتهم ! وتكشف الآيات عن الأصفياء والأولياء ، وهم متناكرون أعداء ؛

يتهم بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً فيقولون ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ فتأتيهم الاستجابة : ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وكأنما شملت المدعو عليهم بالداعين ، حينما سمعوا جواب الدعاء ، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة كلنا سواء ، فى هذا الجزاء : ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ! وبهذا ينتهى ذلك المشهد الأليم ؛ ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذى لن يتبدل ـ وذلك قبل عرض المشهد المقابل للمؤمنين فى دار النعيم .

فبعد أن ذكر ما تقول الملائكة للكافرين عند الموت ، وذكر ما يقول الله لهم يوم القيامة ، عاد السياق ليحدثنا عما يكون للكافر عند الموت ، وما يكون له يوم القيامة فلا يؤذن لهم فى صعود السماء ليدخلوا الجنة ، إذ هى فى السماء ، أو يصعد لهم عمل صالح ، ولا تنزل عليهم البركة ، أو لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين إلى السماء ، ولا يدخلون الجنة أبداً حتى يدخل الجمل فى ثقب الإبرة ؛ ومثل هذا الجزاء الفظيع ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أى الكافرين وجريمتهم التكذيب بآيات الله ، والاستكبار عنها .

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ أى فراش ؛ ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ أى أغطية ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر .

قال الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « ذكر الله تعالى للكافرين بآيات الله جزاءين :

الجزاء الأول : أنه لا تفتح لهم أبواب السماء ، أى أبواب الرحمة .

الجزاء الثانى : أنهم لا يدخلون الجنّة ، وأن ذلك مستحيل عليهم ، كاستحالة دخول الجمل فى سم الخياط » وذكر قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ثم تصور الآيات مشهد الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم ، والذين لم يكلفوا إلا طاقتهم ، هؤلاء يعودون إلى جنتهم ، فهم أصحابها ـ بإذن الله وفضله ـ ورثها لهم ـ برحمته ـ بعملهم الصالح مع الإيمان ، جزاء ما اتبعوا رسل الله ، وعصوا الشيطان ، وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم ، وعصوا وسوسة العدو اللئيم القديم إبليس ! .

ولولا رحمة الله ما كفى عملهم ـ فى حدود طاقتهم ـ وقد قال رسول الله ﷺ « لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » .

وليس هنالك تناقض ولا اختلاف بين قول الله سبحانه فى هذا الشأن ، وقول رسوله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى ، فلقد علم الله من بنى آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفى أعمالهم بحق الجنة،ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم فى الدنيا . فكتب على نفسه الرحمة؛

وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف ؛ وكتب لهم به الجنة ، فضلاً منه ورحمة ، فاستحقوها بعلمهم ولكن بهذه الرحمة ..

وبعد ، فإذا كان أولئك المفترون المكذبون المجرمون الظالمون الكافرون المشركون يتلاعنون فى النار ويتخاصمون ، وتغلى صدورهم بالأحقاد ، بعد أن كانوا أصفياء أولياء ، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة إخوان متحابون متصافون متوادون يرف عليهم السلام والولاء ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ .

قال القرطبى فى تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » : قال رسول الله ﷺ : « الغل على أبواب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين » ، وروى عن على ﷺ أنه قال : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ .

وإذا كان أهل النار يصطلون النار من تحتهم ومن فوقهم . فأهل الجنة تجرى من تحتهم الأنهار فترف على الجو كله أنسام ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنابز والخصام، فأهل الجنة يشتغلون بالحمد والاعتراف ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

وإذا كان أولئك ينادون بالتحقير والتأنيب ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ﴾ فإن أهل الجنة ينادون بالتأهيل لرضوان الله والتكريم ﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إنه التقابل التام بين أصحاب الجنة وأصحاب النار .

فلنقبل على الله بالعمل والإخلاص والمحبة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ، والبغض لأعدائه ، فلعلّ الله أن يوقفنا الموقف الأكرم فنكون من أهل الدرجات العلا وما ذلك على الله بعزيز، وإن أملنا به كبير ، ورجاءنا له لعظيم على تقصير فى العمل واتهام للنفس .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدنيا دار ابتلاء وعمل ، والآخرة دار حساب وجزاء .

٢ ـ لن ينفع أحدٌ أحداً يوم القيامة ، وسوف يلوم المقلدون رؤساءهم ، ويتبرأ الزعماء من أتباعهم ، ويستوون جميعاً فى العذاب ما داموا قد ضلوا عن الهدى والحق .

٣ ـ الله ـ تعالى ـ لا يستجيبُ دعاء الكافرين ، ولا يتقبل أعمالهم .

٤ ـ ليس فى الجنة حقد ، ولا غل ولا حسد ، وإنما نعيم وسعادة ورضا .

٥ ـ يجب أن نعمل أعمال أهل الجنة ؛ لنفوز بها ؛ وأن نتجنب أعمال أهل النار ؛ لننجو منها .

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾

نصف الحزب ١٦

١٥٦

معانى الكلمات :

فأذن مؤذن : فناد مناد . **يبغونها** : يريدونها .

بينهما حجاب : حاجز وهو سور بينهما .

الأعراف : أعالى هذا السور وشرفاته .

بسيماهم : بعلامتهم المميزة لهم .

أفيضوا علينا : صبوا أو ألقوا علينا .

ننساهم : يتركهم الله فى العذاب .

وما كانوا : وكما كانوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتدبر مواقف أهل الجنة وأهل النار الواردة فى الآيات .

٢ ـ أن نعلم أن الحسنات تنجى ، والسيئات تُردى .

٣ ـ أن نذكر دائماً الله عز وجل ـ فى كل حين ، وأن نلتزم بما أمر .

المحتوى التربوى :

تخبرنا الآيات أن أهل الجنة يخاطبون أهل النار على جهة التقريع والتوبيخ إذا استقروا فى منازلهم ، فيقولون لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قالوا: نعم فنادى مناد أن لعنة الله مستقرة على الظالمين، الذين صدوا الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه، وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبل معوجة غير مستقيمة ، وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة جاحدون ، يكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقابًا ، فهم شر الناس أقوالًا وأعمالًا، ولما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبّه أن بين الجنة والنار حجاباً : وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، وهو السور الذى وصفه الله فى سورة الحديد ﴿ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ (الحديد : ١٣) .

وهو الأعراف جمع عرف ، وفى الأصل : فكل مرتفع من الأرض تسميه العرب عرفاً ، **ويقول صاحب الأساس** وحاصل الكلام فى أهل الأعراف ، أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم هؤلاء أهل الأعراف يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه ،يحبون أهل الجنة ويطمعون أن يدخلوا الجنة ، وهم داخلوها إن شاء الله ، فإن الله ما جعل

الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم ، هؤلاء أصحاب الأعراف يحبون أهل الجنة كما رأينا ، وإذا رأوا أصحاب النار تعوذوا بالله أن يجعلهم معهم . وكما أن أهل الجنة يُقرِّعون أهل النار ، فإن أهل الأعراف يقرّعون أهل النار بسيماهم : ما أغنى عنكم جمعكم (أى كثرتكم) واستكباركم من عذاب الله شيئا بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال .

وعندما يقول أهل الأعراف ما يقولونه يقول الله لأهل التكبر والأموال : أى لأهل النار عن أهل الأعراف أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ، ثم يأمر بإدخال أهل الأعراف الجنة ، فما أكثر حسرة أهل النار .

يقول الزمخشرى : « يقال لأصحاب الأعراف : ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ، ويعرفوهم بسيماهم ، ويقولوا ما يقولون ، وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن التقدم والتأخر على حسبها ، وأن أحدًا لا يسبق عند الله إلا بسبقه فى العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السمعون فى حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التى إستوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع المسىء عن إساءته ، ويزيد المحسن فى إحسانه ، وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد ، حتى أقصر الناس عملا » .

ثم يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك ، ينادى الرجل أباه أو أمه فيقول له : قد احترقت فأفض علىّ من الماء فيقال لهم: أجيبوهم ، فيقولون : إن الله حرمهما على الكافرين بما كانوا يعملونه فى الدنيا باتخاذهم الدين لهوًا ولعبًا ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها ، عما أمروا به من العمل للآخرة ، ولذلك فإنهم يعاقبون يوم القيامة بأن يعاملهم الله معاملة المنسى من الخير ، ويتركهم فى النار كما تركوا أن يعملوا للقاء ربهم ويومهم هذا ، ولسبب جحودهم بآيات الله .

قال الشهاب : ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾ تمثيل شبه معاملته تعالى مع هؤلاء بالمعاملة مع من لا يعتد به ، ويلتفت إليه فينسى ، لأن النسيان لا يجوز على الله تعالى ، أى لأنه تعالى لا يشذ عن عمله شىء ، كما قال : ﴿فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ (طه : ٥٢) ، والنسيان يستعمل بمعنى الترك كثيرًا فى لسان العرب ، ويصح هنا أيضا ، فيكون استعارة تحقيقية أو مجازًا مرسلا ، وكذا نسيانهم لقاء الله أيضا ، لأنهم لم يكونوا ذاكرى الله حتى ينسوه ، فشبه عدم إخطارهم والقيامة ببالهم ، وقلة مبالاتهم . بحال من عرف شيئا ثم نسيه .. » .

روى عن ابن عباس أنه قال فى تفسير استجداء أهل النار لأهل الجنّة : ينادى الرجل أخاه فيقول : يا أخى ، أغثنى ، فإنى قد احترقت ، فأفض علىّ من الماء ، فيقال : أجبه ، فيقول : إن الله حرمهما على الكافرين . وعن ابن زيد فى الطلب قال : يستسقونهم ويستطعمونهم – وفى قوله « حرمهما » قال : طعام الجنة وشرابها ، وروى عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد والبيهقى فى

شعب الإيمان أن عبد الله بن عمر ﷺ شرب ماء بارداً فبكى فسئل ما يبكيك ؟ قال ذكرت آية فى كتاب الله ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (سبأ : ٥٤) ، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد ، وقد قال الله - عز وجل - أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .

ويقول صاحب المنار : وفيه أن الآية لا حصر فيها وفى الشعب والتفسير المأثور عنه أيضاً - أى عبد الله بن عمر - أنه سئل : أى الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة سقى الماء » ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا : ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ وروى أحمد عن سعد بن عبادة أن أمه ماتت ، فقال : يارسول الله أتصدق عليها ؟ قال : « نعم » قال فأى الصدقة أفضل ؟ قال : « سقى الماء » .

ومما روى فى شأن الأعراف ما روى عن حذيفة ، فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتُهم النار، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ، قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك ، فقال لهم : اذهبوا ، فادخلوا الجنة ، فإنى قد غفرت لكم .

قال الألوسى فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ ﴾ روى عن النبى ﷺ أنه قال : «أحد يحبنا ونحبه، وأنه يوم القيامة يمثل بين الجنة والنار، يُحبس عليه أقوام يعرفون كلا بسيماهم ، وهم - إن شاء الله تعالى - من أهل الجنة . وقيل : هو الصراط : روى ذلك عن الحسن بن المفضل .

حكى القرطبى وغيره فى أهل الأعراف اثنى عشر قولا ، وأقوى الأقوال ما ذكرنا ، ويشهد له الحديث المرسل الحسن عن عمرو بن جرير قال:سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: « هم آخر من يُفصل بينهم من العباد ، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد ، قال : أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائى، فارعوا فى الجنة حيث شئتم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ - تقرير مبدأ ثقل الحسنات ينجى من النار وخفتها تردى ، ومن استوت حسناته وسيئاته ينجو آخر من ينجو من دخول النار .

٢ - عدم إغناء المال والرجال أى إغناء لمن مات كافرًا مشركًا من أهل الظلم والفساد .

٣ - التحذير من الاغترار بالدنيا حتى ينسى العبد آخرته ، فلم يعد لها ما ينفعه فيها من الإيمان وصالح الأعمال .

٤ - حرم الله - تعالى - الجنة ، وما فيها من طعام وشراب على الكافرين .

٥ - من نسى لقاء الله فى الدنيا ترك فى العذاب يوم القيامة ، كأنه منسى ، فالجزاء من جنس العمل .

وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

معانى الكلمات :

يفترون : يكذبون . **يطلبه حثيثاً** : أى طلبا سريعاً . **تبارك الله** : تعظم وتنزه .

تضرعاً : تذللا وخشوعًا . **خفية** : سرًا فى قلوبكم . **بُشراً** : مبشرات برحمته وهى الأمطار . **أقلت سحابًا** : حملت غمامًا .

ثقالاً : مثقلة بحمل الماء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتأدب مع الله فى الدعاء ، فالدعاء مخ العبادة .

٢ ـ ألا نتعدى حدود الله ، ولا نفسد فى الأرض بعد إصلاحها .

٣ ـ ألا ندعو مع الله أحدًا ، فهذا شر أنواع الاعتداء فى الدعاء .

المحتوى التربوى :

بعد انتهاء ذلك الاستعراض الكبير ؛ يجىء التعقيب تذكيرًا بهذا اليوم ومشاهده ، وتحذيرًا من التكذيب بآيات الله ورسله ، ومن انتظار تأويل هذا الكتاب فهذا هو تأويله ، حيث لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة فى الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

نعود من هذه المشاهد إلى هذه الدنيا التى نحن فيها ! وقد قطعنا رحلة طويلة فى الذهاب والمجىء ! إنها رحلة الحياة كلها ، ورحلة الحشر والحساب والجزاء بعدها وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد من المنشأ إلى المعاد ، يأخذ السياق بأيدى البشر إلى رحلة أخرى فى ضمير الكون ، وفى صفحته المعروضة للأنظار فيعرض قصة خلق السموات والأرض بعد قصة خلق الإنسان، ويوجه الأبصار والبصائر إلى مكنونات هذا الكون وأسراره وإلى ظواهره وأحواله ـ إلى الليل الذى يطلب النهار فى ذلك الفلك الدوار ، وإلى الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله . وإلى الرياح الدائرة فى الجواء ، تُقل السحاب إلى البلد الميت بإذن الله ـ فإذا هو حى ، وإذا الموات يؤتى من كل الثمرات .

هذه السبحات فى ملكوت الله ، يرتادها السياق بعد قصة النشأة الإنسانية ؛ وبعد عرض التصورات الجاهلية والتقاليد التى يشرعها البشر لأنفسهم بلا إذن من الله ولا شرع ، يرتاد السياق هذه السبحات ليرد البشر لأنفسهم بلا إذن من الله ولا شرع ، يرتاد السياق هذه

السبحات ليرد البشر إلى ربهم ، الذى خلق هذا الوجود وسخره ، والذى يحكمه بنواميسه ويصرفه بقدره ، والذى له الخلق والأمر وحده .

يقول صاحب الظلال : فى ظل تلك المشاهد يدعوهم : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ ، ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إن إخلاص الدين لله ، وتقرير عبودية البشر له ، إن هى إلا فرع من إسلام الوجود كله ، وعبودية الوجود كله لسلطانه ، وهذا هو الإيحاء الذى يستهدف المنهج القرآنى تقريره وتعميقه فى القلب البشرى ، وأيما قلب أو عقل يتجه بوعى ويقظة إلى هذا الكون ونواميسه المتسترة ، وظواهره الناطقة بتلك النواميس المتسترة لابد أن يستشعر تأثيراً لا يروا سلطانه ؛ ولابد أن يهتز من أعماقه بالشعور القاهر بوجود المدبر صاحب الخلق والأمر .

ويقول صاحب الأساس : وفى هذا السياق يرشدنا تعالى بعد أن عرفنا على قدرته وعلمه إلى دعائه الذى فيه صلاحنا فى دنيانا وأخرانا ، ويرشدنا أن يكون هذا الدعاء على حال التذلل والاستكانة والخشوع بأن يجتمع فيه التضرع والخفية وقد فسر ابن جرير « تضرعًا » فقال : تذللًا واستكانة لطاعته وفسر « خفية » : بخشوع قلوبكم ، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهارًا مراءاة وقد بيّن تعالى أنه لا يحب المعتدين لا فى الدعاء ولا فى غيره ثم نهى عن الإفساد فى الأرض وخاصة بعد الإصلاح .

فإذا كانت الأمور سائرة على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان آخر ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل إليه خوفًا مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعًا فيما عنده من جزيل الثواب مبينًا أن رحمته مرصدة للمحسنين الذى يتبعون أوامره ويتركون زواجره .

يقول صاحب الظلال : فى ظل مشهد التضرع فى الدعاء ، وهيئة الخشوع والانكسار فيه لله ، ينهى عن الاعتداء على سلطان الله ، فيما يدعونه لأنفسهم ـ فى الجاهلية ـ من الحاكمية التى لاتكون إلا لله . كما ينهى عن الفساد فى الأرض بالهوى ، وقد أصلحها الله بالشريعة . والنفس التى تتضرع وتخشع خفية للقريب المجيب،لا تعتدى كذلك ولا تفسد فى الأرض بعد إصلاحها. فبين الانفعالين اتصال داخلى وثيق فى تكوين النفس والمشاعر . والمنهج القرآنى يتبع خلجات القلوب وانفعالات النفوس ، وهو منهج من خلق ، الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

ويقول صاحب المنار : روى عن الحسن البصرى أنه قال : إن كان الرجل قد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزور وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر

فيكون علانية أبدًا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم خفية إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا رضى فعله فقال :﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ (مريم) وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة .

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ فى الدعاء ، كما لا يحب ذلك فى سائر الأشياء ، والاعتداء تجاوز الحدود فيها ، وقد نهى عنه مطلقا ومقيدًا ، إلا ما كان انتصافًا من معتمد ظالم بمثل ظلمه والعفو عنه أفضل ، والاعتداء فى كل شىء يكون بحسبه وذلك أن لكل شىء حدًا من تجاوزه كان معتديا ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (البقرة : ٢٢٩) .

وبعد أن ذكر أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأرشد إلى دعائه على ما يشاء قدير ، يعود السياق ليعرفنا تعالى على ذاته من خلال عنايته ورعايته ورحمته بعباده ، ويذكرنا فى الوقت نفسه باليوم الآخر ، فأخبر أنه هو الذى يرسل الرياح مبشرات بين يدى المطر الذى هو مظهر من مظاهر رحمته العظمى بخلقه ، حتى إذا حملت الرياح سحابًا ثقالًا أى من كثرة ما تحمل من الماء يسوقه الله إلى أرض مجدبة ميتة لا نبات فيها فيخرج به من كل الثمرات ، فكما يحيى الله هذه الأرض بعد موتها كذلك يحيى الأجساد بعد صيرورتها رميما يوم القيامة ، فمن كان له قلب يتذكر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الله ـ تعالى ـ قادر على إخراج الموتى وإحيائهم للحساب والجزاء كما أحيا الأرض الميتة بالمطر فأخرجت النبات والثمار .

٢ ـ الدعاء من العبادة ، ويجب أن يتوجه الإنسان به إلى ربه فى ضراعة ومذلة وخشوع ، طامعًا فى ثوابه خائفًا من عقابه ، ولا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم ، وإنما يتأدب مع الله فى الدعاء دون استطالة على الله .

٣ ـ حرمة الإفساد فى الأرض بالشرك والمعاصى بعد أن أصلحها الله تعالى بالإسلام .

٤ ـ شر أنواع الاعتداء فى الدعاء التوجه فيه إلى غير الله ولو ليشفع له عنده ؛ لأن الحنيف من يدعو الله ـ تعالى ـ وحده ، فلا يدعو معه غيره كما قال ﴿ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الجن : ١٨) .

٥ ـ البشر سادة هذه الأرض ، وهم منها كالقلب من الجسد والعقل من النفس ، فإذا صلحوا صلح كل شىء ، وإذا فسدوا فسد كل شىء ، وأشد الفساد الكبر والعتو ، الداعيان إلى الظلم والعلوّ .

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ
إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ
رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ
هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

ربع الحزب ١٦

معانى الكلمات :

نكداً : قليلاً لا خير فيه . **نصرف الآيات** : نكررها بأساليب مختلفة . **قال الملأ** : السادة والرؤساء . **قوماً عمين** : عُمى القلوب عن الحق والإيمان . **سفاهة** : خفة عقل وضلالة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف الفرق بين المؤمن والكافر من أثرهما وطبيعة كل منهما .

٢ ـ أن ندرك وحدة الرسالات السماوية فى عقيدتها .

٣ ـ أن نعلم الهدف من الرسالات السماوية للبشر .

٤ ـ أن نعلم أن المعركة بين الحق والباطل ضرورية وحتمية لا مفر منها .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات فى حديثها المتصل عن أقطار الكون وأسرار الوجود ، فيضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر بالبلد الطيب ، والبلد الخبيث ، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه سريعًا وحسنًا وطيبًا ومباركًا ، وأما البلد الخبيث فإن نباته لا يخرج إلا خبيثًا لا خير فيه ، فكذلك المؤمن ينزل على قلبه القرآن فينمو إيمانه وينمو الخير فى قلبه ، وأما الكافر فلا يزيده الوحى إلا عنادًا ويختم الله بالتذكير أنه يصرف الآيات لقوم يشكرون .

والشكر ينبع من القلب الطيب ، ويدل على الاستقبال الطيب ، والانفعال الطيب ، ولهؤلاء الشاكرين الذين يحسنون التلقى والاستجابة تصرف الآيات : فهم الذين ينتفعون بها ، ويصلحون لها ، ويصلحون بها .

ثم تعرض الآيات رحلة موكب الإيمان الذى يواجه البشرية فى رحلتها الطويلة ، كلما التوت بها الطريق ؛ وكلما انحرفت عن صراط الله المستقيم ؛ وكلما تفرقت بها السبل تحت ضغط الشهوات ، التى يقودها الشيطان محاولاً إضلالها عن هدى السماء ، ومحاولاً أن ينفذ وعيده .

ويمضى بنى آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم ، فإذا موكب الرسل الكرام حداة الطريق يلوّحون للبشرية بالنور ، ويستروحون بها ريح الجنة ، ويحذرونها لفحات السموم ، ونزعات الشيطان الرجيم ، عدوها القديم .

ويعرض سياق الآيات سير هذا الموكب البشرى النبوى وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماماً عن معالم الطريق فيبدأ بنوح الذى دعا قومه إلى عبادة الله والالتزام برسالاته واتباع رسوله **يقول صاحب الظلال** : « إن دين الله منهج للحياة قاعدته أن يكون السلطان كله فى حياة الناس كلها لله ، وهذا هو معنى عبادة الله وحده ، ومعنى ألا يكون للناس إله غيره » .

ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الوحيدة ، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها فى إشفاق الأخ الناصح لإخوانه ، وفى صدق الرائد الناصح لأهله ، فهو يخاف عليهم عذاب يوم القيامة إذا لا قوا الله وهم مشركون به ، أو يوم نزول العذاب عليهم .

فكان موقفهم منه هو اتهامه بالضلال والتكذيب .

وينفى نوح عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه ، إنما هو رسول من رب العالمين يحمل لهم الرسالة ، ومعها النصح والأمانة ، ويعلم من الله ما لا يعلمون ، فهو موصول به ، وهم عنه محجوبون .

وكأنما القوم قد عجبوا أن يختار الله رسولا من البشر من بينهم ، يحمله رسالة إلى قومه ، وأن يجد هذا الرسول فى نفسه علما عن ربه لا يجده الآخرون ، ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة ، وهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى ليظفروا فى النهاية برحمة الله ولا شىء وراء ذلك لنوح ، ولا مصلحة ولا هدف إلا هذا الهدف السامى .

ولكن الفطرة حيسن تبلغ حدّا معينا من الفساد ، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر ، ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصح المخلص والنذير .. فبعماهم هذا كذبوا ، وبعماهم عوقبوا بالغرق ، وكانت النجاة لنوح ومن معه فى الفلك .

وتمضى عجلة التاريخ فإذا نحن أمام قوم عاد ، حيث أرسل إليهم الله تعالى نبيهم هودًا الذى دعا قومه إلى عبادة الله وتقواه وتذكرُّ نعم الله عليهم ، فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعا فى تحرج ولاحياء ، ولقد نفى عن نفسه السفاهة فى بساطة وصدق ، وبين لهم مصدر رسالته وأنه رسول من رب العالمين .

قال الزمخشرى : « ترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم ـ أدب حسن ... وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ... على ما يكون منهم » .

يقول صاحب الظلال : إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة ، ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة ، وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التى كانت عليها قبل أن تضل وتشرك فيهلك من يهلك ويحيا من يحيا ، والذين يحيون هم الذين آبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة . هم الذين علموا أن لهم إلها واحداً ، هم الذين سمعوا قول كل رسول ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾فهى حقيقة واحدة ، يقوم عليها الدين كله ، ويتعاقب بها الرسل على مدار التاريخ .

* إن كل رسول من الرسل ـ صلوات الله عليهم جميعاً ـ قد جاء إلى قومه ، بعد انحرافهم عن التوحيد الذى تركهم عليه رسولهم الذى سبقه . فبنو آدم الأوائل نشؤوا موحدين لرب العالمين ـ كما كانت عقيدة آدم وزوجه ـ ثم انحرفوا ـ حتى إذا جاء نوح ﷺ دعاهم إلى توحيد رب العالمين مرة أخرى .

ثم جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لرب العالمين ـ كما علمهم نوح ـ وبذراريهم . حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم .. حتى إذا جاء هود أهلك الله المكذبين بالريح العقيم .. ثم تكررت القصة .. وهكذا .. .

* إن هذا القصص يصور طبيعة الكفر فى نفوس البشر ؛ ويعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للإيمان ، ونموذجًا مكررًا للقلوب المستعدة للكفر أيضاً .. إن الذين آمنوا بكل رسول لم يكن فى قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام لله والطاعة لرسوله ، ولم يعجبوا أن يختار الله واحداً منهم ليبلغهم وينذرهم ، فأما الذين كفروا بكل رسول ، فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا على السلطان المغتصب فى أيديهم لله صاحب الخلق والأمر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المؤمن كثير النفع أينما وجد ، والكافر خبيث لا نفع فيه لأحد .

٢ ـ جميع الرسل دعوا أقوامهم إلى عبادة الله وحده ، وحذروهم من الشرك .

٣ ـ إن الرسل الكرام لا يدعون البشرية لأمر شاذ ، إنما يدعونها إلى الأصل الذى يقوم عليه الوجود كله وإلى الحقيقة المركوزة فى فطرة البشر ، وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله .

٤ ـ التركيز فى كل رسالة سماوية كان على أمر واحد : هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده ـ رب العالمين ـ ونزع السلطان كله من الطواغيت التى تدعيه ، وهو القاعدة التى لا يقوم شىء صالح بدونها فى حياة البشر .

٥ ـ على الدعاة مواجهة الباطل ، والصبر على خوض المعركة معه ، فإنها حتمية ، وانتظار فتح الله والدعاء بدعاء شعيب ﷺ ـ ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ .

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

معانى الكلمات :

بسطة : قوة وعظم جسم .**آلاء الله** : نعمة وفضله الكثير . **نذر** : نترك . **رجس**: عذاب أو غشاوة على القلوب .

غضب : لعن وطرد أو سخط .**قطعنا دابر**: أهلكنا آخرهم . **ناقة الله** : خلقها الله من صخر لا من أبوين . **آية** : معجزة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الرسل جميعاً دينهم واحد ورسالتهم واحدة ودعوتهم واحدة فربهم واحد ودينهم الإسلام وغايتهم هداية البشر .

٢ ـ أن نتخلق بخلق المرسلين من صبر ونصح وصدق وأمانة .

٣ ـ أن نتعظ بمصارع الهالكين ، ونستبشر بعاقبة المتقين .

المحتوى التربوى :

يبين السياق وظيفة الرسول وحاله عليه السلام فيها ، أى أبلغكم التكاليف الى أرسلت بها والحال أننى أنا لكم ناصح فيما أبلغكم إياه ، وأدعوكم إليه ؛ لأن فيه سعادتكم ، أمين على ما أقول فيه عن الله تعالى ، فإننى لا أكذب عليكم فكيف أكذب على ربى عز وجل .

وعجبوا كما عجب قوم نوح من قبل من تلك الرسالة ، فإذا هود يكرر لهم ما قاله نوح من قبل : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ، ويذكرهم بآلاء الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وزادهم فى الخلق قوة وبسطة ، ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ، ولا تتدبر ولا تتذكر تأخذها العزة بالإثم ، واختصروا الجدل ، واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصح ، ويهزأ بالإنذار ، **يقول صاحب الظلال** : « إنه مشهد بائس لاستعباد اواقع المألوف للقلوب والعقول ، هذا الاستعباد الذى يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصلية : حرية التدبر والنظر ، وحرية التفكير والاعتقاد، ويدعه عبدًا للعادة والتقليد، وعبدًا للعرف والمألوف ، وعبدًا لما تفرضه عليه أهؤاؤه أهواء العبيد من أمثاله ، ويغلق عليه كل باب للمعرفة ، وكل نافذة للنور » والمعنى كما **يقول صاحب المنار** : « أجئتنا لأجل أن نعبد الله

وحده على ما نحن عليه من الآثام ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا معه من الأولياء والشفعاء ، فنحقرهم ونمتهنم برميهم بالكفر ونحقر أوليانا وشفعاءنا عند الله بترك التوجه إليهم عند التوجه إليه ، وهم الوسيلة ، وهو المقصود بالدعاء والاستغاثة بهم ، والتعظيم لصورهم وتماثيلهم وقبورهم والنذر لهم ، وذبح القرابين عندهم ؟ وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا إلا بهم ولأجلهم ؟ استنكروا التوحيد واحتجوا عيه بما أبطله الشرع والعقل من التقليد واستعجلوا الوعيد » . ومن ثم كان الجواب حاسمًا وسريعًا فى رد الرسول : ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ .... الآية . فأبلغهم العاقبة التى أنبأه بها ربه ، والتى قد حقت عليهم فلم يعد عنها محيص ، إنه العذاب الذى لا دافع له ، وغضب الله المُصاحب له .

ولا يطول الانتظار فى السياق بعد أن بيّن لهم زيف ما يدّعون فيأتيهم الحق الكامل الذى لا يتخلف منه أحد ، وهو ما عبر عنه بقطع الدابر . والدابر هو آخر واحد فى الركب يتبع أدبار القوم !

وهكذا طويت صفحة من صفحات المكذبين وتحقق النذير مرة أخرى بعد إذ لم ينفع التذكير وتفتح صفحة أخرى ومشهد من مشاهد جولات الحق والباطل ، وصورة المصرع جديد من مصارع المكذبين قوم صالح فقد دعا قومه إلى عبادة الله وتذكر نعمه ، وأتاهم بالمعجزة الشاهدة على صحة رسالته وهى الناقة ؛ فأصروا على الكفر والاستكبار والصد عن سبيل الله عز وجل وقتلوا الناقة ، فعاقبهم الله بالزلزال والصيحة فماتوا أجمعين ، ونجى الله صالحاً والمؤمنين .

وسياق الآيات فى عرض قصة صالح ﷺ . يستعرض سريعًا الدعوة ، وعاقبة الإيمان بها ، وعاقبة التكذيب ، ولا يذكر تفصيل طلبهم للخارقة ، بل يعلن وجودها عقب الدعوة ، ولا يذكر تفصيلاً عن الناقة أكثر من أنها بينة من ربهم ، وأنها ناقة الله وفيها آية منه ، وكما **يقول صاحب الظلال** : نستلهم من هذا الإسناد أنها ناقة غير عادية ، أو أنها أخرجت لهم إخراجاً غير عادى ، مما يجعلها بينة من ربهم ، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى ، ويجعلها آية على صدق نبوته ، ويخبرهم صالح أنها ناقة الله ، فذروها تأكل فى أرض الله ، وإلا فهو النذير بسوء المصير .

قال صاحب المنار : « وفى البخارى عنه ﷺ أمرهم أن يستقوا منها ويهريقوا ما استقوا من غيرها من تلك الآبار » قال العلماء : وقد علمها بالوحى ، ولا يصح شىء يحتج به فى خلق الناقة من الصخرة أو من هضبة من الأرض كما روى عن أبى الطفيل .

قال ابن كثير : قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جديس بن عاثر ، وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم ﷺ وكانت ثمود بعد عاد ، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله ، ويقول صاحب الأساس فى التفسير : وعاثر المذكور فى النسب يسميه سفر التكوين « جاثر » والمساكن التى ذكرها ابن كثير لا زالت موجودة ، وهى تثير دهشة الناظر للجهد الذى

بذل فيها ولبقائها هذه الآلاف من السنين ، وكأنها الآن منحوتة ، والرحلة إليها سهلة ، وقد علمنا رسول الله كيف يكون أدب المسلم . إذ رأى ديار الظالمين الهالكين أو مَرَّ بها ، فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم » .

ويعلمنا ﷺ بمناسبة قصة ثمود ألا نسأل الله آية ، فقد روى الإمام أحمد عن جابر قال : لما مَرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الله الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت ـ يعنى الناقة ـ ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوماً ، ويشربون لبنها يومًا ، فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله ، فقالوا من هو يا رسول الله ؟ قال : « أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » ، وهذا الحديث على شرط مسلم .

يقول صاحب الظلال : لقد أرسل كل رسول من هؤلاء إلى قومه فقال : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾، وقال كل رسول لقومه : ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾، معبراً عن ثقل التبعة ؛ وخطورة ما يعلمه من عاقبة ماهم فيه من الجاهلية فى الدنيا والآخرة ورغبته فى هداية قومه ، وهو منهم وهم منه ، وفى كل مرة وقف « الملأ » من علية القوم . وكبرائهم فى وجه كلمة الحق هذه ؛ ورفضوا الاستسلام لله رب العالمين ، وأبوا أن تكون العبودية والدينونة لله وحده ـ وهى القضية التى قامت عليها الرسالات كلها ، وقام عليها دين الله كله ، وهنا يصدع كل رسول بالحق فى وجه الطاغوت ، ثم ينقسم قومه إلى أمتين متفاصلتين على أساس العقيدة ، وتنبتُّ وشيجة القومية ، ووشيجة القرابة العائلية ؛ لتقوم وشيجة العقيدة وحدها، وإذا « القوم » الواحد ، أمتان متفاصلتان لا قربى بينهما ولا علاقة ! وعندئذ يجيء الفتح ، ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالة ، ويأخذ المكذبين المستكبرين ، وينجى الطائعين المستسلمين . وما جرت سنة الله قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة ، وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم لله وحده . وقبل أن يثبتوا فى وجه الطاغوت بإيمانهم . وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم ، وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الله ـ تعالى ـ أرسل رسله بالحق ؛ ليرشدوا الناس إلى التوحيد ؛ وليخلصوهم من الشرك وطريق الشيطان الرجيم .

٢ ـ من صفات الرسل والدعاة إلى الله : التبليغ والنصح والصدق والأمانة .

٣ ـ يجب أن نتعظ بمن سبقنا من الأمم ، حتى لا نقع فيما وقعوا فيه فيصيبنا ما أصابهم.

الجزء الثامن — سورة الأعراف

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

١٦٠

معانى الكلمات :

بوأكم : أسكنكم وأنزلكم .

فى الأرض : الحجر بين الحجاز والشام .

آلاء الله : نعمة الله وفضله الكثير .

تعثوا : لا تفسدوا إفسادًا شديدًا .

الملأ : السادة من القوم . **عقرو الناقة** : قتلوها .**عتوا** : استكبروا .

الرجفة : الزلزلة الشديدة .

جاثمين: هامدين موتى لا حراك بهم .

تولى : انصرف وأعرض .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتخلق بأخلاق الرسل فى دعوة أقوامهم لله رب العالمين .

٢ ـ أن نعرف طبيعة طريق الدعوة إلى الله وننهض بأعباء الطريق .

٣ ـ أن نؤكد على ثوابت الفطرة فى الزواج ونقاوم الانحراف والشذوذ بكل صوره فى الحياة .

المحتوى التربوى :

وتمضى أحداث قصة صالح عليه السلام مع قومه وبعد عرض الآية ـ وهى الناقة ـ والإنذار بالعاقبة ، يأخذ صالح فى النصح لقومه بالتدبر والتذكر ، والنظر فى مصارع الغابرين ، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين الهالكين : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ الآية .

ويقول صاحب الظلال : ولا يذكر السياق هنا أين كان موطن ثمود ، ولكنه يذكر فى سورة أخرى أنهم كانوا فى الحجر ـ وهى بين الحجاز والشام ، ونلمح من تذكير صالح لهم أثر النعمة والتمكين فى الأرض لثمود ، كما نلمح طبيعة المكان الذى يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون فى السهل القصور ، وينحتون فى الجبال البيوت . فهى حضارة عمرانية واضحة المعالم فى هذا النص القصير ، وصالح يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد ، وإن لم يكونوا فى أرضهم ذاتها، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية فى التاريخ لحضارة عاد ، وأن سلطانهم امتداد خارج الحجر أيضاً .وبذلك صاروا خلفاء ممكنين فى الأرض، محكمين فيها، هو ينهاهم عن الانطلاق فى الأرض بالفساد،اغتراراً بالقوة والتمكين، وأمامهم العبرة ماثلة فى عاد الغابرين !

ويختصر السياق القصة فقد آمنت طائفة من قوم صالح ، واستكبرت طائفة والملأ آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان فى الأرض ، وترده إلى إله واحد هو رب العالمين ! ولابد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده ، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد !

فنرى الآيات تخبرنا بالملأ الذين استكبروا من قوم صالح وهم يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ، ولاستنكار إيمانهم به ، وللسخرية من تصديقهم له فى دعواه الرسالة من ربه ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً ! لقد سكب الإيمان بالله القوة فى قلوبهم ، والثقة فى نفوسهم ، والاطمئنان فى منطقهم .. فهم على يقين من منطقهم وأمرهم ، فماذا يُجدى التهديد والتخويف ، . ومن ثم يعلن المؤمنون ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ ، ويعلن الملأ المستكبرون ﴿ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ على الرغم من البينة التى جاءهم بها صالح ، والتى لا تدع ريبة لمستريب ، وأتبعوا القول بالعمل ، فاعتدوا على ناقة الله التى جاءتهم آية من عنده على صدق نبيه فى دعواه ، والتى حذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم .

ولكنه التبجح الذى يصاحب المعصية ، ويعبر عن العصيان ، والعتو الذى يظهر الكفر والتحدى باستعجال العذاب والاستهتار ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ويعالجهم الله بالعذاب الذى كانوا يستعجلون جزاء العتو والتبجح « فأخذتهم الرجفة » الذى يصاحبها الفزع ، وما أجدر العاتى أن يرتجف ويعجز ويجثم بلا حراك ، ويدعهم الله على هيئتهم ﴿ جَٰثِمِينَ ﴾ .

إنه التبجح الذى يصاحب المعصية ، ويعبر عن عصيانهم بقوله : ﴿ وَعَتَوْا۟ ﴾ لإبراز سمة التبجح فيها ، وليصور الشعور النفسى المصحاب لها ، والذى يعبر عنه كذلك التحدى باستعجال العذاب والاستهتار بالتدبر، ولا يستأنى السياق فى إعلان الخاتمة، ولا يفصل كذلك، فالرجفة تأخذهم ، وكما **قال صاحب النار** : « لنزول الصاعقة صيحة شديدة القوة والطغيان ، ترجف من وقعها الأفئدة ، وتضطرب أعصاب الأبدان » ، ثم لم يلبث القوم وقد وقعت الصاعقة بهم أن سقطوا مصعوقين ، وجثموا هامدين خامدين ، وأصبحوا إما بمعنى صاروا ، وإما بمعنى دخلوا فى وقت الصباح حال كونهم جاثمين .

والرجفة والجثوم ، جزاء مقابل للعتو والتبجح ، فالرجفة يصاحبها الفزع ، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك ، وما أجدر العاتى أن يرتجف ، وما أجدر المعتدى أن يعجز ، جزاء وفاقا فى المصير ، ويدعهم السياق على هيئتهم ﴿ جَٰثِمِينَ ﴾ ليرسم لنا مشهد صالح الذى كذبوه وتحدوه وقد تولى عنهم قائلاً : ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ

ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين .

ويفتح السياق صفحة جديدة ، ولا يراعى التسلسل الزمنى للأحداث والأمم والرسل ؛ لأنه يتحرى مصارع المكذبين معدداً : ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ فلم يتعرض السياق هنا لقصة إبراهيم عليه السلام ؛ لأنهم لم يهلكوا ؛ لأن إبراهيم عليه السلام لم يطلب من ربه هلاكهم ، بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله لذا قفز السياق مباشرة إلى قصة قوم لوط ليعرض لنا هلاكهم ويصور لنا انحرافهم ، فقد دعاهم إلى ترك إتيان الرجال وهى الفاحشة التى لم تعرفها البشرية قبلهم ، فكان موقف قومه تكذيبه وتهديده بالإخراج من قريتهم فعاقبهم الله فأمطر عليهم حجارة من السماء أهلكتهم وخسف بقراهم ، وأنجى الله لوطًا والمؤمنين .

ويبدو انحراف الفطرة واضحاً فى قصة قوم لوط ، حتى إن لوطا ليجابههم بأنهم بدعٌ دون خلق الله فيها ، وأنهم فى هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين ، وأنهم مسرفون فى تجاوز منهج الله الممثل فى الفطرة السوية ، ويدفعهم بالإسراف فى الطاقة التى وهبهم الله إياهم ، لأداء دورهم فى امتداد البشرية ونمو الحياة ، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها فى غيرموضع الإخصاب ، فهى مجرد « شهوة » شاذة ؛ لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة فى تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا وجدت نفس لذتها فى نقيض هذه السنة . فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطرى قبل أن يكون فساد الأخلاق . ولا فرق فى الحقيقة . فالأخلاق الإسلامية هى الأخلاق الفطرية ، بلا انحراف ولا فساد .

يقول صاحب الظلال : « إن الاعتقاد فى الله الواحد يقود إلى الإسلام لسننه وشرعه ، وقد شاءت سنة الله أن يخلق البشر ذكرًا وأنثى ، وأن يجعلها شقين للنفس الواحدة تتكامل بهما ، وأن يتم الامتداد فى هذا الجنس عن طريق النسل ، وأن يكون النسل من التقاء ذكر وأنثى ومن ثم ركبهما وفق هذه السنة صالحين للالتقاء ، صالحين للنسل عن طريث هذا الالتقاء ـ مجهزين عضويا ونفسيا لهذا الالتقاء وجعل اللذة التى لا ينالانها عندئذ عميقة ، والرغبة فى إتيانها أصلية ، وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله فى امتداد الحياة ، ثم لتكون هذه الرغبة الأصلية وتلك اللذة العميقة دافعا فى مقابل المتاعب التى يلقيانها بعد ذلك فى الذرية ... ثم لتكون كذلك ضمنا لبقائهما ملتصقين فى أسرة ..» .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على الدعاة إلى الله الصبر والثبات على الحق ، وتحمل الإيذاء فى سبيل الدعوة فهذا طريق الأنبياء والمرسلين .

٢ ـ على الدعاة إلى الله أن يرفقوا بالمدعوين ، ويصبروا على أذاهم ، ولا يدخروا جهداً فى هدايتهم ودعوتهم إلى الخير كما فعل أنبياء الله والدعاة المخلصون .

٣ ـ لذة الفطرة الصادقة تكون فى تحقيق سنة الله الطبيعية من عقد الزواج ، ووضع النطفة فى موضع الإخصاب ، وأداء الدور المطلوب فى امتداد البشر ونمو الحياة وما عدا ذلك فهو الشذوذ والانحراف والفساد وانتظار الهلاك .

الجزء الثامن — سورة الأعراف

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن
قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾
وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ
مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ
فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

١٦١

معانى الكلمات :

يتطهرون : يَدَّعُون الطَّهارة مما نأتى .

الغابرين : الباقين فى العذاب كأمثالها .

لا تبخسوا : لا تنقصوا . **صراط** : طريق .

تبغونها عوجًا : تطلبونها معوجة .

طائفة : جماعة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحذر الانحراف عن الفطرة السوية ومجاوزة الحد فى الحدود .

٢ ـ أن ننضبط فى معاملاتنا المالية مع الآخرين .

٣ ـ أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ولا نصد الناس عن سبيل الله .

٤ ـ ألا نسرف فى الأقوال والأفعال فهذا أصل كل شر وفساد .

المحتوى التربوى :

ونعود إلى قوم لوط مرة أخرى ، ويظهر لنا الانحراف فى فطرتهم من خلال جوابهم العجيب لنبيهم ، فهم يريدون أن يخرجوا من يتطهر من القرية إخراجًا ، ليبقى فيها الملوثون المدنسون ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : ولكن لماذا العجب ؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة ؟ أليست تطارد الذين يتطهرون ، فلا ينغمسون فى الوحل ، الذى تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية الحديثة وتسميه تقدمية وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة ـ أليست تطاردهم فى أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك ؛ ولا تطيق أن تراهم يتطهرون ؛ لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين ؟ ! إنه منطق الجاهلية فى كل حين .

قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) : « لم يثبت عنه ﷺ أن قضى فى اللواط بشىء ؛ لأن هذا لم تكن تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه ﷺ ، ولكن ثبت عنه أنه قال : « اقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أهل السنن الأربعة ، وإسناده صحيح ـ وقال الترمذى : حديث حسن ، وحكم به أبو بكر الصديق، وكتب به إلى خالد بعد مشاورة الصحابة ، وكان على كرم الله وجهه أشدهم فى ذلك » .

وتعرض الآيات خاتمة هؤلاء القوم بلا تفصيل ولا تطويل وكأنها رغبة من المولى عز وجل فى طى هذه الصفحة المخجلة من تاريخ البشرية ، فيقرر النجاة لمن تهددهم العصاة ، ويفصل من

الهلاك ، لأن صلتها كانت بالغابرين المهلكين من قومه فى المنهج والاعتقاد وقد أمطرهم الله مطرًا مهلكًا مع ما صاحبه من عواصف ، وكأنه لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذى كانوا فيه، والوحل الذى عاشوا وماتوا فيه ؟ بين القوم ، على أساس العقيدة والمنهج فامرأته وهى ألصق الناس به لم تنج من الهلاك !

وبعد طى هذه الصفحة المقيتة من تاريخ البشرية تأتى الصفحة الأخيرة من صحائف الأقوام المكذبة والضالة عن هدى السماء ، والمناوئة لسلطان الله فى الأرض ، صفحة مدين والنبى الصالح شعيب عليه السلام .

وثمة شىء نلاحظه فى هذه القصة من الإطالة ، بالقياس إلى نظائرها فى هذا الموضع ، وذلك لأنها تتضمن غير قضية العقيدة شيئًا عن المعاملات ، ولقد جاء يدعوهم لتوفية الكيل والميزان ، وينهاهم عن الإفساد فى الأرض والكف من قطع الطريق على الناس ، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذى ارتضوه .

وندرك من النهى أن قوم شعيب ، كانوا قوماً مشركين لا يعبدون الله وحده ، إنما يشركون معه عباده فى سلطانه ؛ وأنهم ما كانوا يرجعون فى معاملاتهم إلى شرع الله العادل ؛ إنما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل ـ ولعل شركهم إنما كان فى هذه الخصلة ، وأنهم لذلك كانوا سيئى المعاملة فى البيع والشراء ، كما كانوا مفسدين فى الأرض ، يقطعون الطريق على من سواهم ، ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم ويكرهون الاستقامة التى فى سبيل الله ؛ ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة ، لا تمضى على استقامتها كما هى فى منهج الله .

ويبدأ شعيب عليه السلام بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالألوهية ، وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان فى أمر الحياة كله ، ويستصحب فى دعوتهم إلى الدينونة لله وحده، وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم ، وترك الإفساد فى الأرض بالهوى بعد ما أصلحها الله بالشريعة ، يستصحب فى دعوتهم إلى هذا كله تذكيرهم بنعم الله عليهم ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ ، ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم﴿ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر ؛ فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم ، ولا يقعدوا لهم بكل صراط ، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل ، مهددين لهم موعدين ، وأن ينتظروا حكم الله بين الفريقين ، إن كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين .

يقول صاحب المنار : « إنه عليه السلام قد بدأ بدعوتهم إلى توحيد العبادة ؛ لأنه ركن الدين الأعظم الذى هدمته الوثنية ، وثنى بالأوامر والنواهى المتعلقة بما لهم الغالبة عليهم ، وأما هذا النهى عن قطعهم الطرق على من يغشى مجلسه عليه السلام ، ويسمع دعوته ويؤمن به فلم يؤخره ؛ لأن اقترافه دون اقتراف التطفيف فى الكيل والميزان وبخس الحقوق ، بل لأنه متأخر عنها فى الزمن ،

فالدعوة قد وجهت أولا إلى أقرب الناس إليه فى بلده ، ثم إلى الأقرب فالأقرب منهم ، وممن يزور أرضهم ، وقد كان الأقربون داراهم الأبعدين استجابة له فى الأكثر ، وتلك سنة الله فى الخلق ... والحاصل أنه نهاهم هنا عن ثلاثة أشياء :

أولها : تعودهم على الطرقات التى توصل إليه يخوفون من يجيئه ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته .

ثانيا : صدهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والإسلام والاستقامة على سبيل الله تعالى الموصلة إلى سعادة الدارين .

ثالثها : ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة ذات عوج بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها .. » .

لقد دعاهم إلى أعدل خطة ، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة .. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وترك كلَّ ما اعتنق من دين حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان فى الأرض وجود ممثل فى جماعة من الناس لا تدين للطاغوت ، إن وجود جماعة مسلمة فى الأرض ، لا تدين إلا لله ، ولا تعترف بسلطان إلا بسلطانه ، ولا تحكم فى حياتها شرعاً إلا شرعه ، ولا تتبع فى حياتها منهجاً إلا منهجه ، إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت حتى لو انعزلت هذه الجماعة على نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتى موعده .

ويقول صاحب الظلال : إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة ، حتى لو آثرت هى ألا تخوض معه المعركة ، إن وجود الحق فى ذاته يزعج الباطل ، وهذا الوجود ذاته هو الذى يفرض عليه المعركة مع الباطل ، إنه سنة الله لابد أن تجرى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لا ينفع الإنسان يوم القيامة حسب ولا نسب ، وإنما ينفعه إيمانه وعمله الصالح .

٢ ـ ضرورة توفية الكيل والميزان ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

٣ ـ الإسراف وعدم الاعتدال فى الأقوال والأفعال يتولد عنه كل شر وفساد .

٤ ـ الكفر والإجرام يحل رابطة الأخوة والقرابة بين أصحابه والبرآء منه .

٥ ـ حرمة الفساد فى الأرض بالمعصية بعد أن أصلحها الله بالإسلام ، وطهرها بشرائعه .

٦ ـ حرمة التطفيف فى الكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ويدخل فى ذلك الصناعات والحرف والمهن وما إلى ذلك .

٧ ـ حرمة الصد عن سبيل الله ، بمنع الناس من التدين والالتزام بالشريعة ظاهرًا أو باطنًا .

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم
بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا
كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ
عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ
أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ
بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ
ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

معانى الكلمات :

افتح : احكم واقض . **الرجفة** : الزلزلة الشديدة . **جاثمين**:هامدين . **لم يغنوا فيها** : لم يقيموا فى ديارهم متمتعين. **آسى**:أحزن . **يضرعون** : يتذللون ويخضعون . **عفوا** : كثروا وزادوا . **بغتة** : فجأة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الابتلاء سنة من سنن الدعوات .

٢ ـ أن نأخذ الزاد من جهاد وصبر الأنبياء والمرسلين .

٣ ـ أن نثق فى موعود الله بالنصر لدينه وللمؤمنين .

المحتوى التربوى :

تصف الآيات التبجح السافر من ملأ شعيب عليه السلام ، وإصرارهم على معركة لا تقبل المهانة ، أو التعايش وأعلنوها صريحة ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ ؛ إلا أن قوة العقيدة لا تتعلثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد .

لقد وقف شعيب عند النقطة التى لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة ، نقطة المسالمة والتعايش ـ على أن يترك لمن شاء أن يدخل فى العقيدة التى يشاء وأن يدين للسلطان الذى يشاء : فى انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين ـ وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ، تحت أى ضغط ، أو أى تهديد من الطواغيت ، وإلا تنازل كلية عن الحق الذى يمثله وخانه .

فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم،أو العودة فى ملتهم، صدع شعيب بالحق ، مستمسكاً بملته ، كارهاً أن يعود فى الملة الخاسرة التى أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصره الحق وأهله .

يقول صاحب الظلال : « إن الذى يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية التى لا يخلص فيها الدينونة والطاعة لله وحده ، والتى يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله .

إن الذى يعود إلى هذه الملة ـ بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهداه إلى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد ـ إنما يؤدى شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد فى ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت ! أو مؤداها ـ على الأقل ـ أن لملة الطاغوت حقاً فى الوجود ، وشرعية فى السلطان ؛ وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله وهى شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام شهادة الاعتراف براية الطغيان ، ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله فى الحياة !

إن إقامة الإمامة الصالحة فى أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة فى نظام الإسلام ، فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهى عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته فى قالب الإسلام ، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه فى انتزاع زمام الأمر من أيدى الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ، ويرجون حسابه ، ويقوم فى الأرض ذلك النظام الحق المرضى عند الله الذى به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها » .

لذلك قالها شعيب ﷺ مدوية حاسمة : ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ ؛ ويفوض الأمر لله رب العالمين ، فى مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه ، فالأمر موكول إلى هذه المشيئة ، وهو الذين آمنوا معه لا يعلمون أن ربهم وسع كل شىء علما ، فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم .

إنه أدب ولى الله مع الله ، الأدب الذى يلتزم به أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره، وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق . ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ .

وعندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم ، ليفتنوهم عن دينهم ، ولكن من سنة الله الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل ، ويقفان وجها لوجه فى مفاصلة كاملة تجرى سنة الله التى لا تتخلف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾.

ويرد الله ـ تعالى ـ على قولتهم : ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ وهى التى قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة ! فيقرر ـ فى تهكم واضح ـ أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيباً ، إنما كان من نصيب قوم آخرين﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ .

ويطوى صفحتهم مُشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال من رسولهم الذى كان أخاهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم وهلاكهم فى الغابرين .

ويختم المولى ـ عز وجل ـ قصص هذه الأمم المكذبة ببيان سنته التى جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين فى كل قرية وهى أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء ، لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله وتعرف حقيقة ألوهيته ، فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء وفتح عليهم الأبواب ، وتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون كل ذلك للابتلاء .

حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص ، وإلى الغفلة وقلة المبالاة وحسبوا أن الأمور تمضى جزافاً بلا قصد ولا غاية ، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء ، وأنه إنما أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل ؛ لأن الأمور تمضى هكذا بلا تدبير : ﴿ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ ! أخذهم الله بغتة ، وهم سادرون فى هذه الغفلة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ما يبتلى الله به عباده من المصائب والنكبات ، إنما هو بسبب بُعدهم عن الله وعن منهجه ، وبكثرة ذنوبهم ومعاصيهم .

٢ ـ على الدعاة الصبر والثبات على الحق مهما لاقوا من العناد والمكابرة والتهديد والتعذيب من الظالمين ، وليصبروا كما صبر أولو العزم من الرسل .

٣ ـ الله ـ عز وجل ـ ينصر دينه وينزل عقابه بأعدائه وأعداء دينه،وسينتصر هذا الدين ـ دائماً ـ ما نصره أهله . وسيعزه الله ما أعزه أهله وتمسكوا به .

٤ ـ دعوة الرسل جميعاً واحدة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ دعوة واحدة ودينهم دين واحد ، يدعو إلى عبادة الله وحده .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

١٦٣

معانى الكلمات :

لفتحنا عليهم : ليسرنا عليهم . **يأتيهم بأسنا** : ينزل بهم عذابنا . **بياتا** : ليلاً .

مكر الله : عقوبته واستدراجه . **نطبع** : نختم . **فظلموا بها** : فكفروا بالآيات .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعرف دلائل الإيمان ومقتضياته فى حياتنا .

٢ ـ أن نعرف أسباب البركة والرزق ونحرص على تحقيقها .

٣ ـ أن نفهم سنن الله الجارية فى هلاك الأمم والظالمين .

٤ ـ أن نحذر مكر الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن الطرف الثانى لسنة الله الجارية ، فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب ، واتقوا بدل الاستهتار ؛ ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، هكذا ، بركات من السماء والأرض مفتوحة بلا حساب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، وتظهر هنا حقيقة هامة جدًّا وهى أن العقيدة الإيمانية فى الله ، وتقواه ، ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة ، وعن خط تاريخ الإنسان ؛ إن الإيمان بالله وتقواه ، ليؤهلان بفضى من بركات السماء والأرض وعدا من الله ، ومن أوفى بعهده من الله ؟

يقول صاحب الظلال : « إن الإيمان بالله دليل على حيوية الفطرة ، وسلامة فى أجهزة الاستقبال الفطرية ، وصدق فى الإدراك الإنسانى ، وحيوية فى البنية البشرية ، والإيمان بالله قوة دافعة دافقة ، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها وتطلقها تستمد من قوة الله ، وتعمل لتحقيق مشيئته فى خلافة الأرض وعمارتها ، وفى دفع الفساد والفتنة عنها ، وفى ترقية الحياة ونمائها ، وهذه كذلك من مؤهلات النجاح فى الحياة الواقعية .

والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد ، وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله ، أقدر على الخلافة فى الأرض خلافة راشدة صاعدة . من العبيد للهوى ولبعضهم بعضاً !

شبهة والرد عليها : ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمماً ـ يقولون : إنهم مسلمون ـ مضيقاً عليهم فى الرزق ، لا يجدون إلا الجدب والمحق ! ويرى أمماً لا يؤمنون ولا يتقون ، مفتوحاً عليهم فى الرزق ، والقوة والنفوذ .. فيتساءل : وأين إذن السنة التى لا تتخلف ؟ ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال !

إن أولئك الذين يقولون : إنهم مسلمون ، لا مؤمنون ولا متقون ! إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققون فى واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله ! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم ، يتألهون عليهم ، ويشرعون لهم ـ سواء القوانين أو القيم والتقاليد ـ وما أولئك بالمؤمنين ، فالمؤمن لا يدع عبدًا من العبيد يتأله عليه ، ولا يجعل عبدًا من العبيد ربه الذى يصرف حياته بشرعه وأمره ، ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقاً ، دانت لهم الدنيا ، وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض ، وتحقق لهم وعد الله .

فأما أولئك المفتوح عليهم فى الرزق ، فهذه هى السنة ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ ! فهو الابتلاء بالنعمة الذى مَّر ذكره . وهو أخطر من الابتلاء بالشدة .

وفرق بينه وبين البركات التى يعدها الله لمن يؤمنون ويتقون . فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به ، وكان معه الصلاح والأمن والرضا والارتياح ، وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش فى شقوة ، مهددة فى أمنها ، مقطعة الأواصر بينها ، يسود الناس فيها القلق، وينتظرها الانحلال هى فى قوة بلا أمن ، وهو متاع بلا رضا ، وهى وفرة بلا صلاح وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد ، وهو الابتلاء الذى يعقبه النكال .

وبعد أن يقرر السياق القرآنى تلك السنة الجارية ، فى هذه اللحظة يتجه إلى الغافلين السادرين ، يوقظ فيهم مشاعر الترقب أن يأتيهم بأس الله فى أية لحظة من ليل أو نهار ، وهم سادرون فى النوم واللهو والمتاع .

ويؤكد على سنة أخرى وهى أنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسران ، وما يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون الخسران ! أفأمنوا مكر الله ؛ وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين ، الذين هلكوا بذنوبهم ، وجنت عليهم غفلتهم ؟ أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم ؟

يقول صاحب الظلال : « والله يعد الناس الأمن والطمأنينة والرضوان والفلاح فى الدنيا والآخرة إذا هم أرهفوا حساسيتهم به ، فهو يدعوهم إلى الأمن فى جوار الله لا فى جوار النعيم

المادى المغرى ، وإلى الثقة بقوة الله لا بقوتهم المادية الزائلة وإلى الركون إلى ما عند الله لا إلى ما يملكون من عرض الدنيا » .

إن سنة الله لا تتخلفُ ، ومشيئتُه لا تتوقفُ ، فما الذى يؤمنهُم أن يأخذهم الله بذنوبهم كما أخذ من قبلهم ؟

ثم تلمس الآيات الوجدان البشرى وتطلعه على العاقبة الشاملة لابتلاء تلك القرى وما تكشف عنه من حقائق عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان ، ثم طبيعة هؤلاء البشر الذين طبع الله على قلوبهم ، فلم تنفعهم البينات ، وظلوا يكذبون بعدها ، كما كذبوا قبلها ، ولم يؤمنوا بما كانوا قد كذبوا به من قبل أن تأتيهم البينة عليه ، وهذا يكشف عن طبيعة فيهم غالبة وهى ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴾ ومنحرفين عن دين الله ، وهذه ثمرة التقلب ونقض العهد ، واتباع الهوى .

ومن لم يمسك نفسه على عهده مع الله ، مستقيماً على طريقته ، مسترشداً بهداه ، فلابد أن تتفرق به السبل ، ولابد أن ينحرف ، ويضل سواء السبيل .

ثم ينتقل السياق ليتحدث عن قصة موسى ﷺ مع فرعون وملئه ، بعد تلك القرى وما حل بها وبالمكذبين من أهلها ، حيث توالت الأحداث ، وجاءت بعثة موسى ، ويعجل السياق بالعاقبة التى انتهوا إليها ـ فلقد ظلموا بآيات الله وكفروا وجحدوا بها ، ثم تبدأ القصة بالمشهد الأول بين الحق والباطل ، فيخاطب موسى ﷺ فرعون بالحقيقة التى جاء بها كل رسول قبله . حقيقة ربوبية الله الواحد للعالمين جميعًا .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : فى قوله تعالى : ﴿ فَظَلَمُواْ ﴾ : « الظلم يشمل ظلم الرعية ، ويشمل الظلم فى العقيدة بالشرك ، وإن الشرك لظلم عظيم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الإيمان بالله وتقواه ، واجتناب المعاصى سبيل إلى زيادة الخير وسعة الرزق .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ يمهل عباده ويستدرجهم بالنعمة حتى يهلكوا فى غفلتهم .

٣ ـ المؤمن يعمل الطاعات وهو مشفق خائف من عدم القبول ، والفاجر يعمل المعاصى وهو مطمئن آمن لا يخشى عاقبتها .

٤ ـ إذا أمنت الأمة مكر الله تهيأت للخسران وحل بها لا محالة .

٥ ـ علينا أن نعتبر بما أصاب الأولين ، ونخشى مصارع الطغاة والهالكين ، وذلك بترك ما كان سبباً لهلاكهم وبجهلنا سنن الله فى هلاك الأمم والظالمين .

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

معانى الكلمات :

حقيق : حريص . **مبين** : أمره ظاهر .

الملأ : الرؤساء .

أرجه : أخر أمر عقوبته .

حاشرين:جامعين . **استرهبوهم** : خوفوهم تخويفاً . **ما يأفكون** : ما يكذبونه .

صاغرين : مذلولين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على الدروس والعبر من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه .

٢ ـ أن نعرف الحكم فى السحر ومن يمارسه .

٣ ـ أن نعلم سنة الله فى مواجهة الحق للباطل .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون ، وقد جاءه يخبر برسالة ربه إليه ، وأنه ملزم ومأخوذ بقول الحق على ربه الذى أرسله ؛ فما كان الرسول الذى يعلم حقيقة الله ، ليقول عليه إلا الحق ، وهو قدره ؛ ويجد حقيقته ـ سبحانه فى نفسه ـ ثم أخبره أن معه الحجة القاطعة التى تشهد على أنه رسول الله ، وتدل على صدقة فيما جاء به .

وبناءً على ذلك فإنه يطلب منه أن يرسل معه بنى إسرائيل مطلقاً سراحهم من أسره وقهره ، تاركاً إياهم ليعبدوا ربهم ، وعندئذ أظهر فرعون تشككه وعدم تصديقه ورفضه لما طُلب منه ؛ وطلب من موسى إن كانت معه حجة أن يظهرها إن كان صادقًا فيما ادعى،وعندئذ أظهر موسى معجزتيه الرئيسيتين إلى فرعون: إلقاء العصا فتتحول حية عظيمة بإذن الله ، وإخراج يده من ثوبه بعد ما أدخلها فيه ، فإذا هى بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض يراها كل من نظر إليها .

ولما أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة عندئذ اتفق هو ومن حوله من بطانته على اعتبار أن ما صدر عن موسى سحر ، وأن الهدف من هذا السحر هو إخراج المصريين من أرضهم ، وتشاوروا فى أمرهم كيف يصنعون ، وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره ، وإخماد كلمته ، وظهور كذبه وافترائه ، وتخوفوا أن يستميل الناس فيما أظهره ، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم.

وقد استقر رأى الملأ من قوم فرعون ، على أن يرجئ فرعونُ موسى إلى موعد ، وأن يرسل فى أنحاء البلاد من يجمع له كبار السحرة ـ ذلك ليواجهوا سحر موسى ـ بزعمهم بسحر مثله ، وكان ذلك ، وجمع السحرة ، وتشارط السحرةُ فرعون : أنهم إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاءً جزيلًا ، فوعدهم ومنّاهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه المقربين .

فى قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ : « السحرة محترفون .. يحترفون السحرة كما يحترفون الكهانة ، والأجر هو هدف الاحتلاف فى هذا وذاك ! وخدمة سلطان بالباطل هى وظيفة المحترفين من رجال الدين ، وكلما انحرفت الأوضاع احتاج الظلمة إلى مداهنين لهم من رجال الدين يرسمون باسم الدين ظلمهم ، وهؤلاء الظلمة يعطونهم المال ويجعلونهم من المقربين .

ولقد اطمأن السحرة على الأجر ، واشرأبت أعناقهم إلى القرب من فرعون ، واستعدوا للحلبة ، وكانت المواجهة التى بدأت بالتخيير .

ويقول صاحب الظلال : ويبدو التحدى واضحاً فى تخييرهم لموسى ، وتبدو كذلك ثقتهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة، وفى الجانب الأخر تتجلى ثقة موسى ﷺ واستهانته بالتحدى : ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾ ، فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة وعظم الثقة الكامنة فى نفس موسى ﷺ .

وحدثت المفاجأة فإذا بالباطل ينتفش ، ويسر العيون ، ويسترهب القلوب ، وتخيل إلى الكثيرين أنه غالب ، وأنه جارف ، وأنه مُحيق ! ولكن ما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفثئ كالفقاعة ، وينكمش كالقنفد ، وينطفئ كشعلة الهشيم ، وإذا الحق راجح الوزن ، ثابت القواعد ، عميق الجذور ، عندئذ وقع واستقر وثبت الحق ، وذهب ما عداه فلم يعد له وجود ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

ولكن المفاجأة لم تختم بعد ، والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة أخرى ، فبعد اندحار الباطل وثبات الحق ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ ، ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال معلقاً على هذا المشهد : إنها صورة الحق فى الضمائر ، ونور الحق فى المشاعر ، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقى الحق والنور واليقين .. إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم ، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه . وهم أعرف الناس بالذى جاء به موسى إن كان من السحر والبشر ، أم من القدرة التى وراء مقدور البشر والسحر .

والعالم فى فنه هو أكثر الناس استعدادًا للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له ؛ لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة ، ممن لا يعرفون فى هذا الفن إلا القشور ، ومن هذا تحول السحرة عن التحدى السافر إلى التسليم المطلق ، الذى يجدون برهانه فى أنفسهم عن يقين .

ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر ؛ ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ؛ ولا كيف تلمسها حرارة اليقين . فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب ـ وهى بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبها كيف يشاء .

ومن ثم فوجئ فرعون بهذا الإيمان المفاجئ الذى لم يدرك دبيبه فى القلوب ولم يتابع خطوة فى النفوس ؛ ولم يفطن إلى مداخله فى شعاب الضمائر ، ثم هزته المفاجأة الخطيرة التى تزلزل العرش من تحته ، مفاجأة استسلام السحرة ، وهم من كهنة المعابد ـ لرب العالمين رب موسى وهارون . بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين ! والعرش والسلطان هما كل شيء فى حياة الطواغيت ، وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تحرج فى سبيل المحافظة على الطاغوت .

بمناسبة الكلام عن انقلاب عصا موسى ثعباناً قال الألوسى :

والآية من أقوى الأدلة على جواز انقلاب الشيء عن حقيقته كالنحاس إلى الذهب ، إذ لو كان ذلك تخييلاً لبطل الإعجاز ولم يكن لذكر ﴿ مُبِينٌ ﴾ فى قوله ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ فائدة .

وارتكاب غير الظاهر غير ظاهر ، ويدل كذلك ـ أيضاً ـ أنه لا مانع فى القدرة من توجه الأمر التكوينى إلى ما ذكر وتخصيص الإرادة له .

ويقول صاحب الأساس : « فى عصرنا استطاع علماء الكون أن يحوّلوا العنصر إلى عنصر آخر من خلال تغيير عدد الألكترونات والبروتونات فى الذرة ، فالقول باستحالة ذلك لم يعد وارداً ، أما موضوع السحر فلم يزل ولن يزال النقاش فيه قائماً ، والفارق بينه وبين المعجزة واضح ، فالسحر جزء من عالم الأسباب ، والمعجزة خرق لعالم الأسباب » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حرمة السحر وحرمة تعلمه ، ووجوب إقامة الحد على من ظهر عليه وعرف به .

٢ ـ من سنن الله الجارية : إذا التقى الحق والباطل فى أى ميدان فالغلبة والعاقبة للحق دائماً .

٣ ـ بطلان السحر وعدم فلاح أهله لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ (طه : ٦٩) .

٤ ـ على الدعاة ألا يغتروا بانتفاش الباطل ولا يرهبوا صولته فعاقبته إلى خسران وهزيمة، وعاقبة الحق إلى علو وانتصار .

٥ ـ القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، فالسحرة فى أول النهار كانوا كافرين ، وفى أوسطه مؤمنين ، وفى آخره كانوا شهداء بفضل الله رب العالمين .

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

معانى الكلمات :

ما تنقم منا : ما تنكر منا . **آيات ربنا** : معجزاته . **أفرغ علينا** : أفض علينا .

يذرك : يتركك .

نستحى نساءهم: نستبقى بناتهم للخدمة .

بالسنين : بالقحط والجدب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف قيمة الإيمان وأثره فى مواجهة الطغيان والعقبات .

٢ ـ أن ندرك أهمية الاستعانة بالله عند الشدائد .

٣ ـ أن نتزود من قصة السحرة مع فرعون بثبات الدعاة فى وجه الطغاة .

المحتوى التربوى :

ما زالت الآيات تواصل الحديث عن موسى عليه السلام وفرعون بعد أن تبين للسحرة الحق وسجدوا لله معلنين إيمانهم برب موسى وهارون ، فغضب فرعون ـ لعنه الله ـ وتوعد هؤلاء المؤمنين منذ لحظات بالانتقام ، لكنهم أصروا على الإيمان مهما يذوقوا من الآلام والمتاعب ، وطلبوا من الله أن يفيض عليهم بالصبر ، وأن يتوفاهم مسلمين .

يقول صاحب الظلال : « نقف .. أمام إدراك السحرة ـ بعد أشرق نور الإيمان فى قلوبهم ، وجعل لهم فرقانا فى تصورهم ـ أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هى معركة العقيدة ، وأنه لا ينتقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين ، فهذا الإيمان على هذا النحو يهدد عرش فرعون وملكه وسلطانه ، ويهدد مراكز الملأ من قومه وسلطانهم المستمد من سلطان فرعون .... وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضرورى لكل من يتصدى للدعوة إلى ربوبية الله وحده ، فهو وحده الذى أهل هؤلاء المؤمنين للاستهانة بما يلقونه فى سبيله .. ، إنهم يقدمون على الموت مستهينين ليقينهم بأنهم هم المؤمنون برب العالمين ، وأن عدوهم على دين غير دينهم ... وما يمكن أن يمضى المؤمنون فى طريق الدعوة إلى رب العالمين ـ على ما ينتظرهم فيها من العذيب والتنكيل ـ إلا بمثل هذا اليقين .. » .

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشى الفظيع : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : إنه التعذيب والتشويه والتنكيل .. وسيلة الطواغيت فى مواجهة الحق ، الذى لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان ، وعدة الباطل فى وجه الحق الصريح ، ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان تستعلى على قوة الأرض،وتستهين ببأس الطغاة؛ وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم ، إنها لا تقف لتسأل : ماذا ستأخذ وماذا ستدع ؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع ؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقى فى الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات ؟ لأن الأفق المشرق الوضىء أمامها هناك ، فهى لا تنظر إلى شىء فى الطريق، إنه الإيمان الذى لا يفزع ولا يتزعزع، كما أنه لا يخضع أو يخنع، الإيمان الذى يطمئن إلى النهاية فيرضاها ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره .

الذى يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت ، وأنها معركة العقيدة فى الصميم ، لا يداهن ولا يناور ، ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة ؛ لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ والذى يعرف أين يتجه فى المعركة ، وإلى من يتجه ؛ لا يطلب من خصمه السلامة والعافية ، إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

ولما عجز قوم موسى فى آياته ، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى ، وأوهموه أن تركه فساد فى الأرض ، وأنه عند ذلك أوعده ، وذلك من أدل الدليل على نبوة موسى ، لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح فى معجزته ، وقال الجشمىُّ : قال مشايخنا : إنْ العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن التى فى إيرادها إبطال أمر النبى ﷺ إلى القتال الذى لا يفيد ذلك ـ دلّ على عجزهم . وهكذا حال كل ضال مبتدع ، إذا أعيته الحجة ، عدل إلى التهديد والوعيد ، وتدل على أن عند الخوف من الظَّلَمة يجب الفزع إلى الله ـ تعالى ، والاستعانة به ، والصبر . ولا مفزع إلا فى هذين : وهو الانقطاع إلى الله ـ تعالى ـ بطلب المعونة فى الدفع ، واللطف له فى الصبر وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى ، وهى اتقاء الكبائر والمعاصى .

ونعود إلى السياق مرة أخرى **فيقول صاحب الأساس** : « وأمام هذا الطغيان الرهيب لم يكن موسى إلا أن أمر قومه ـ وهم المستضعفون ـ بالاستعانة بالله والصبر ـ وهكذا تمر لحظات صعبة على أهل الله ، ليس أمامهم إلا هذا ، ووعدهم موسى بالعاقبة ، وأن الدار ستصير لهم ولكنهم ـ وهم من هم فى اللجاج والمخالفة ـ قالوا شاكين متذمرين : إن هذا الأذى قد نزل بهم من قبل مجىء موسى ومن بعد ، فقال منبّهًا لهم عن حالهم الحاضر ، وما يصيرون إليه من مآلهم ﴿ عَسَىٰ

رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا تخصيص لهم على الصبر وحسن الرجاء ، وعلى العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم ، وبدأت العقوبات تتوالى على فرعون وقومه انتصارًا لموسى وقومه ، وعظة لفرعون وقومه ، وتلك سنة الله التى رأيناها من قبل ، أن يأخذ بالباساء والضراء ابتداءً من لم يؤمن برسله ، وهكذا فعل بفرعون وقومه ، ابتلاهم بالجوع والقحط ، فلا ثمر ولا زرع ؛ من أجل أن يتعظوا فكان موقفهم كموقف الأمم السابقة إذا جاءهم الخصب والسّعة ادعّوا أن هذا لهم حق ومستحق، وإن جاءهم الجدب والقحط ادعوا أن هذا بسبب موسى وقومه ، وما جاؤوا به ناسين أن هذا كله من عند الله ، ولكنهم جهلة بالله وسننه ؛ ومع ما ابتلاهم الله به ومع كل ما رأوا من الآيات » .

قال الجشمىّ : بمناسبة قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ قال : تدل الآية على أن الشدة والبؤس قد يكونان لطفاً وصلاحاً فى الدين ، لذلك قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « إنه ليس لأصحاب الدعوة إلى رب العالمين إلا ملاذ واحد ، وهو الملاذ الحصين الأمين ، وإلا ولىٌّ واحد وهو الولى القوى المتين ، وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولى القوى المتين . وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولى بالنصرة فى الوقت الذى يقدر بحكمته وعلمه وألا يعجلوا ، فهم لا يطلعون الغيب ، ولا يعلمون الخير » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ قوة الإيمان تتغلب على ما يلاقيه المؤمن من صنوف العذاب ، وألوان الأذى ، وبالإيمان يثبت فى وجه الطغاة .

٢ ـ الاستعانة بالله ، والصبر عند الشدائد زاد الدعاة ، وشأن المصلحين فى كل زمان ومكان .

٣ ـ على الدعاة المضطهدين الصبر حتى يأذن الولى بالنصرة فى الوقت الذى يقدره بحكمته وعلمه ، وألا يعجلوا ، فالنصر مع الصبر .

٤ ـ ما كاد أهل الشرك لأهل الإيمان إلا لتمسكهم بعقيدتهم ، ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (البروج : ٨) ، ولكن العاقبة فى نهاية الأمر للمتقين .

٥ ـ الابتلاء خط أصيل فى الدعوات ، والشدة والبؤس قد يكونا لطفاً وصلاحاً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، والابتلاء يظهر معادن أصحاب الدعوات ويمحص أتباع الرسالات ، ويختبر قوة الإيمان .

الجزء التاسع — سورة الأعراف

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

١٦٦

معانى الكلمات :

يطيروا : يتشاءموا . **طائرهم عند الله** : شؤمهم وعقابهم الموعود . **الطوفان** : الموت الجارف . **القمل** : القراد أو القمل المعروف . **الرجز** : العذاب .

ينكثون : ينقضون عهدهم . **دمرنا** : أهلكنا . **يعرشون** : يرفعون من الأبنية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نأخذ الفوائد من الشدائد التى مرت بها الأمم السابقة .

٢ ـ أن نعلم سنة الله فى المجرمين والمتكبرين فنحذر عواقبها .

٣ ـ أن نفقه طبيعة الطريق فى الدعوة وعدة الدعاة .

المحتوى التربوى :

تعقب الآيات على قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون ، وما فيها من عظات وعبر ، فتتحدث عما نزل بقوم فرعون من البلايا والمصائب والآيات ، وما ابتلاهم الله به من القحط والجدب والمجاعات ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم نتيجة إصرارهم على الكفر ، وتكذيبهم بآيات الله .

إن الكافرين يقفون من كل رسالة موقف المعاند مهما بدت أمامهم من الآيات الاضعة فكان ردّ آل فرعون على المعجزة:﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : فى ذلك : « هى حالة نفسية تصيب المتجرين حين يدمغهم الحق بينما هواهم ومصلحتهم فى جانب آخر غير جانب الحق والبينة والدليل ! » .

فلقد مضى فرعون وملؤه إذن فى جبروتهم ؛ ونفذ فرعون وعيدَه وتهديدَه ، فقتل الرجالَ واستحيى النساء ، ولقد مضى موسى وقومه يحتملون العذاب ، ويرجون نصر الله ، ويصبرون على الابتلاء ، وعندئذ عندما نستقرأ الموقف : إيمان يقابله كفر ، وطغيان يقابله صبر ، وقوة أرضية تتحدى إرادة الله ، عندئذ أخذت القوة الكبرى تتدخل سافرة بين الطغاة والصابرين .

فأخذ الله ـ عز وجل ـ آل فرعون بالجدب والقحط ونقص الثمرات ؛ ولم ينتبه آل فرعون إلى العلاقة بين كفرهم وفسقهم عن دين الله ، وبغيهم وظلمهم لعباد الله ، وبين أخذهم بالجدب ونقص الثمرات فى مصر التى تفيض بالخصب والعطاء ، ولا تنقص غلتها عن إعالة أهلها إلا لفسوق أهلها وأخذهم بالابتلاء لعلَّهم يتذكرون !

لم يتنبهوا لهذه الظاهرة التى شاءت رحمة الله بعباده أن تبرزها لأعينهم ، ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء حسبوها حقًا طبيعيًا لهم ! وإذا أصابتهم السيئة والجدب نسبوا هذا إلى شؤم موسى ومن معه عليهم .

وعقابًا لهم على هذا السلوك المقيت أرسل الله عليهم الطوفان فعم الصحراء ، وأتلف عُشبها، وكسر شجرها ، وتواصلت الرعود والبروق ونيران الصواعق فى جميع أرض مصر ، وجاء الجراد فأكل العشب والثمر ، مما تركه الطوفان ، وسلط القُمَّل على الناس والبهائم وصعدت من الأنهار والمناقع الضفادع فصارت مياه مصر جميعاً دماً عبيطاً ومات السمك فيها ، وأنتنت الأنهار ؛ ومع كل هذه الآيات المفصلات استكبروا عن الإيمان بالله ، فلم يؤمنوا لموسى وكانوا قومًا عاصين كافرين .

ولما وقع بهم العذاب المفصل ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ ، **قال الشهاب** : سميت النبوة عهدًا ؛ لأن الله عهد إكرام الأنبياء بها ، وعهدوا إليه تحمل أعبائها ، أو لأن لها حقوقًا تحفظ ، كما تحفظ العهود ، أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور من الله تعالى .

ثم تجيء الخاتمة ـ وفق سنة الله فى أخذ المكذبين ـ بعد الابتلاء بالضراء والسراء،وتقع الواقعة، ويدمر الله على فرعون وملئه ـ بعد إذا أمهلهم وأجلهم إلى أجل هم بالغوه ـ ويحقق وعده للمستضعفين الصابرين ، بعد إهلاك الطغاة المتجبرين ، فأغرقهم الله بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم ، وعدم تفكرهم ومبالاتهم بها .

قال الجشميُّ : تدل الآيات أنه تعالى أهلكهم بعد أن أزاح العلة بالآيات ، وتدل على أن ما أصابهم كان عقوبة وجزاء على فعلهم ، وتدل على قبح الاعتراض على آيات الله ، وتدل على وجوب النظر ، وتدل على أن النكث فعلهم والإعراض ، فلذلك عاقبهم عليهما .

وتمضى السنون وبعد عشرات السنوات من حادث إغراق فرعون بعد وفاة موسى عليه السلام وبعد التيه أربعين سنة ، يأتى البيان القرآنى بعرض صفحة جديدة فى حياة بنى إسرائيل وهى ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ فرفعهم الله من حضيض المذلة إلى أوج العزة ؛ لكمال لطفه تعالى بهم ، وعظيم أحسانه إليهم ، وبارك فى أقواتهم وأرزاقهم ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ .

قال الزمخشرى : وحسبك به حاثاً على الصبر ، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع ، وكلمة الله إليه ، ومن قابله بالصبر ، وانتظار النصر ، ضمن الله له الفرج .

وليس هذا فحسب ، بل دمر الله ما كانوا يعملون من العمارات وبناء القصور ، وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة فى السماء كصرح هامان .

قال القاسمى : قال الزمخشرى : وهذا آخر ما قص الله من نبأ فرعون والقبط ، وتكذيبهم بآيات الله : وظلمهم ومعاصيهم ، ثم أتبعه اقتصاص نبأ بنى إسرائيل ، وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مُلْكِةَ فرعون ، واستعباده ، ومعاينتهم الآيات العظام ، ومجاوزتهم البحر . مَن عبادة البقر ، وطلب رؤية الله جهرة ، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصى ، ليعلم حال الإنسان ، وأنه كما وصفه ﴿ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم : ٣٤) جهول نكود ، إلا من عصمه الله ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ : ١٣) وليسلى رسول الله ﷺ ما رأى من بنى إسرائيل المدينة .

ويقول صاحب تفسير المنار : والعبرة فى هذه الآيات أن يتفكر تالى القرآن فى تأثير الإيمان الوحى فى موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إذ تصديا لأعظم ملك فى أعظم دولة فى الأرض قاهرة لقومها ومعبدة لهم فى خدمتها منذ قرون كثيرة ، فدعواه إلى الرجوع عن الكفر والظلم والطغيان ، وما زالا يكافحانه بالحج والآيات البينات حتى أحظرهما الله تعالى به ، وأنقذا قد مهما من ظلمه وظلم قومه .

فجدير بالمؤمنين أن يفكروا فى وعد الله ـ تعالى للمؤمنين بالنصر كما وعد المرسلين إذا هم قاموا بما أمرهم تعالى به على ألسنتهم ـ وألا يستعظموا فى هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم ، فإن قوة الحق التى نصرها الله تعالى برجلين على أعظم الدول لا تغلب إذا نصرناها ونحن مئات الملايين والله تعالى يقول ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ (محمد : ٧) ـ ويقول ـ : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم : ٤٧) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الشدائد ترقق القلوب ، وتجلب الخشية إلا عند المتمردين الكفرة ، فإنهم يزدادون بالمحن تمردًا وكفرًا .

٢ ـ كثرة الشكر تزيد النعم ، والكفر بها يزيلها .

٣ ـ على الدعاة إلى الله ألا يستعظموا طغيان الطغاة ، ولا بطش الجبارين ، فقوة الحق تقهر الباطل ، والصبر طريق النصر ، والله وعد عباده المؤمنين قائلاً :(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

٤ ـ على الدعاة أن يصدعوا بدعوة الحق ، ولا يخشوا فى الله لومة لائم ؛ فموسى وهارون تصديا لفرعون وقومه وهم قوم جبارون ، فنصرهما الله ، وأورث قومها ديار الظالمين .

الجزء التاسع — سورة الأعراف

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

نصف الحزب ١٧

١٦٧

معانى الكلمات :

متبرٌ : مهلك مدمر . **أبغيكم إلها** : أطلب لكم إلها معبوداً .

يسومونكم : يذيقونكم . **تجلى ربه للجبل** : ظهر له شىء من نوره تعالى .

دكًا : مدكوكًا مفتتا . **صَعِقا** : مغشيًا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعرف كيف حجد بنو إسرائيل نعم الله عليهم فكان سبب هلاكهم .

٢ ـ أن نحذر الجهل بعظمة الله وجلاله ، لئلا نتعرض لسخط رب العالمين .

٣ ـ أن نتوب إلى الله فى كل وقت وكل حين ، ونعلن أننا من المؤمنين .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات تعرض صفحة جديدة من قصة موسى ﷺ مع قومه بنى إسرائيل ؛ بعد إذ أنجاهم الله من عدوهم؛ وأغرق فرعون وملأه ؛ ودمر ما كانوا يصنعون وما كانوا يعرشون ، وهنا لا يواجه موسى ﷺ فرعون وملئه ، ولكنه يواجه النفس البشرية ورواسب الجاهلية فى هذه النفس وطبائعها المتنوعة بين القسوة والجبن والضعف عن حمل التبعات من ناحية ، والخوف والتخفى والالتواء والتحايل والتبجح مع الذعر والتوقع الدائم للبلاء وكل خصال السوء ، وتلك طبيعة اليهود .

ويقول صاحب الظلال : لقد عاش بنو إسرائيل فى ظل الإرهاب ، وفى ظل الوثنية الفرعونية يقتل فرعون أبناءهم ويستحى نساءهم ، وعاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة على كل حال ، وفسدت نفوسهم وطبيعتهم وفطرتهم ، وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب ، وبالحقد والقسوة من جانب آخر ، ولم يستنقذهم من هذا الذل إلا الإسلام ، يوم جاءهم بالحرية فأطلقهم من العبودية للبشر بالعبودية لرب البشر .

ونعود إلى الآيات لتخبرنا عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ، عندما مروا على عُبَّاد أصنام إذ طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصنامًا يعبدونها كما يعبد هؤلاء أصنامهم ، فردّ عليهم واصفا إياهم بالجهل ، وأى جهل أعظم من الجهل بعظمه الله وجلاله ـ وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ـ ثم يبين لهم أن هذا الذى عليه هؤلاء هالك وعملهم باطل ، ثم ذكرهم موسى بنعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا إليه من العزة والاستعلاء على عدوهم ، والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره ، وما أكرمهم به من تفضيل على عالمى زمانهم ، فكيف يطلب لهم رباً غير الله ، وقد فعل لهم كل ذلك ؟

ذكرهم بأقرب الأشياء إليهم ؛ لأنها أقرب الحجج عليهم . وإلا فمثل موسى لا يطلب ربًّا سوى الله ، ولا يدعوهم إلى رب سوى الله . فضّلهم أو لم يفضلهم . أنجاهم من ظلم فرعون ، أو أبقاهم . فله الأمر من قبل ومن بعد.

قال القاسمى ، قال الجشمىُّ : تدل الآيات على أن هلاك الأعداء نعمة من الله يجب مقابلتها بالشكر ، وتدل على أن المحن فى الأولاد والأهل بمنزلة المحن فى النفس ، وتجرى مجراه انتهى .

ثم يقص الله ـ عز وجل ـ ما أتم به النعمة على موسى وقومه ، إذا أنزل عليهم الألواح فى خلوة موسى مع ربه على الطور . وماذا فعلوه من الانحراف الجديد خلال غيبته . فذكر تعالى ممتناً على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية ، بتكليمه موسى عليه السلام ، وإعطائه الألواح ، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم . فذكر أنه واعد موسى ثلاثين ليلة . ثم أمره ـ تعالى ـ أن يكمل بعشر ، فلما عزم موسى على الذهاب إلى الطور ، استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد . فلما جاء موسى لميقات الله وحصل له التكليم من الله .

سأل الله ـ تعالى ـ أن ينظر إليه ، فبين له أنه لا يمكن أن يراه فى الدنيا ، وعوضه عن الرؤية بأن أمره أن ينظر إلى الجبل فإذا رأى الجبل مستقرّا عند تجلى الله على الجبل فعندئذ يمكن أن يراه ، فلما تجلى الله تعالى ـ للجبل ساخ الجبل واندك وخر موسى مغشيا عليه ، فلما أفاق من صعقه بدأ يسبح الله وينزهه .

والتسبيح هنا يفيد التنزيه لله عن أن يراه أحد فى الدنيا ؛ ثم ثنى بالتوبة مما سأل . ثم أردف بالإعلان عن نفسه أنه أول المؤمنين من قومه .

قال صاحب المنار : أن موسى ﷺ لما نال فضيلة تكليم الله ـ تعالى ـ له بدون واسطة ، فسمع ما لم يكن ـ يسمع قبل ذلك ، وهو من الغيب الذى لا شبه له ، ولا نظير فى هذا العالم طلب من الرب ـ تبارك وتعالى ـ أن يمنحه شرف رؤيته ، وهو يعلم حتماً أنه ـ تعالى ـ ليس كمثله شىء فى

ذاته ولا فى صفاته التى منها كلامه ـ عز وجل ـ فكما أنه سمع كلاما ليس كمثله كلام بتخصيص ربانى ، استشرف لرؤية ذات ليس كمثله شىء من الذوات ، كما فهم من ترتيب السؤال على التكليم .

فلم يكن عقل موسى ـ وهو فى الذروة العليا من العقول البشرية ـ بدليل العقل والنقل ـ ما نعا شىء من هذا الطلب ، ولم يكن دينه وعلمه بالله تعالى وهما فى الذروة العليا أيضاً ما نعين له منه ، ولكن الله تعالى قال له : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ ولكى يخفف عليه ألم الرد وهو كليمه الذى قال له فى أول العهد بالوحى إليه ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ (طه : ٤١) أراه بعينيه ومجموع إدراكه من تجليه للجبل بما لا يعلمه سواه أن المانع من جهته هو لا من جانب الجود الربانى ، فنزه الله ،وسبحه، وتاب إليه من هذا الطلب ، فبشره الله ـ تعالى ـ بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه أى دون رؤيته فى الدنيا ، وأمره بأن يأخذ ما أعطاه ، ويكون من الشاكرين له .

قال صاحب (الانتصاف على الكشاف) : إنما سبح موسى لِمَا تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية فى الدنيا ، والله ـ تعالى ـ مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف فى خبره الحق وقوله الصدق . فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم ، سبح الله ، وقدس علمه وخبره عن الخلف ، وأما التوبة فى حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب ؛ لأن منصبهم الجليل ينبغى أن يكون منزهاً مبرأ من كل ما ينحط به ، ولا شك أن التوقف فى سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل . وقد ورد : (حسنات الأبرار ، سيئات المقربين) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ هلاك الأعداء نعمة تستوجب شكر الله ـ عز وجل ـ فالشكر يزيد المنَّ ، والكفر يكثر النقم من الله رب العالمين .

٢ ـ الجهل بعظمة الله تعالى وبما ينبغى تجاه المولى عز وجل من سمات الجاهلية وباعث على سخط رب العالمين .

٣ ـ رؤية الله محالة فى الدنيا ، وثابتة فى الجنة لعباده المتقين ، وممنوع منها الكافرين ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (المطففين) .

٤ ـ ينبغى على المسلم التوبة إلى الله فى كل حال ، فلقد كان النبى ﷺ يستغفر الله ـ عز وجل ـ فى المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة .

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

معانى الكلمات :

الألواح : ألواح التوراة . **سبيل الرشد** : طريق الهدى والصلاح . **حبطت** : بطلت .

عجلًا جسدًا: عجلًا أحمر من ذهب مجسد .

له خوار : له صوت كصوت البقر عندما يمر به الهواء . **سُقط فى أيديهم** : ندموا أشد الندم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعلم أن الهداية والرسالة اصطفاء من الله للبشر .

٢ ـ أن نعلم أن الواجب أن تؤخذ أوامر الله بقوة وعزم وجد .

٣ ـ أن نعلم أنه لا ينال الهداية ولا العلم حيى ولا مستكبر .

المحتوى التربوى :

تتواصل الآيات ويتلقى موسى رحمة الله مرة أخرى ؛ فإذا هو يتلقى من ربه البشرى ، بشرى الاصطفاء مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص ، وأمره الله ـ عز وجل ـ بأخذ ما آتاه، والشكر على الاصطفاء والعطاء ، وهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغى أن تُقابل به نعمة الله ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم قدوة للناس ؛ وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر استزادة من النعمة وإصلاحًا للقلب ، وتحرزًا من البطر ، واتصالًا بالله .

ثم يأتى الحديث عن الألواح التى حوت من كل شيء موعظة وتفصيلًا .

ويقول صاحب الظلال : « وتختلف الروايات والمفسرون فى شأن هذه الألواح ؛ ويصفها بعضهم أوصافًا مفصلة ـ نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التى تسربت إلى التفسير ، ولا نجد فى هذا كله شيئاً عن رسول الله ﷺ ، فنكتفى بالوقوف عند النص القرآنى الصادق ، ولا نتعداه » .

والأمر الإلهى الجليل لموسى عليه السلام أن يأخذ الألواح بقوة وعزم ، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بما فيها من التكاليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم والأصلح لحالهم ، والعقيدة أمر هائل عند الله ـ سبحانه ـ وفى حساب الكون ويجب أن يؤخذ بقوة ، وأن تكون له جديته فى النفس ، وصراحته وحسمه .

يقول صاحب المنار : « والعبرة التى يجب أن يتذكرها ويتدبرها كل قارئ لهذه الآية ... أن الكتاب الإلهى يجب يأخذه بقوة إرادة وجد عزيمة لتنفيذ ما هدى إليه من الإصلاح ، وتكوين الأمة تكوينا جديدًا صالحا ، ويتأكد ذلك فى الرسول المبلغ له ، والداعى إليه ، والمنفذ له بقوله وعمله ؛ ليكون لقومه فيه أسوة حسنة ، وتلك سنة الله تعالى فى سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية ، وإن لم تكن بهداية الدين ، والدين أحرج إلى القوة والعزيمة ؛ لأنه إصلاح للظاهر والباطن جميعا .

وقد أمر الله تعالى بنى إسرائيل بما أمر به رسولهم ﷺ من أخذ الكتاب أو ميثاق الكتاب بقوة أمرًا مقرونا بتهديدهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور بهم ... وقد أخذ سلفنا القرآن بقوة فسادوا به جميع الأمم ... إن من يأخذ القرآن بقوة يكون القرآن حجة له فيسعد به فى الدنيا والآخرة ، ومن لا يأخذه بقوة يكون حجة عليه فيشقى بالإعراض عنه وهجر هدايته فى الدنيا والآخرة » .

وفى مقابل أخذ هذا الأمر بقوة يعد الله مُوسى وقومه أن يمكن لهم فى الأرض ، ويورثهم دار الفاسقين عن دينه،وفى نهاية مشهد التكليم يجيء بيان لعاقبة الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق، ويعرضون عن آيات الله وتوجيهاته ، يتضمن تصويرًا دقيقًا لطبيعة هذا الصنف من الناس ، ويعلن المولى ـ عز وجل ـ عن مشيئته فى شأن أولئك الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ إنه سيصرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها .. آياته فى كتاب الكون المنظور ، وآياته فى كتبه المنزلة على رسله وذلك بسبب أنهم كذبوا بآياته وكانوا عنها غافلين .

قال بعض السلف : لا ينال العلم حيى ولا مستكبر وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدًا ، وقال ذو النون : وأبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن .

ونعود مرة أخرى للسياق فيقرر أن الله ـ عز وجل ـ لم يظلم هذا الصنف من الخلق بهذا الجزاء المردى المؤدى إلى الهلاك فى الدنيا والآخرة ، إنما هو الجزاء الحق لمن يكذب بآيات الله ويغفل عنها ، ويتكبر فى الأرض بغير الحق ، ويتجنب سبيل الرشد حيثما رآه ، ويهرع إلى سبيل الغى حيثما لاح له فإنَّه بعمله جوزى ، وبسلوكه أورد مورد الهلاك ، وإنه لجزاء كذلك أن تحبط وتهلك أعمال الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة .

وبينما كان موسى عليه السلام فى حضرة ربه ، فى ذلك الموقف الفريد ، الذى تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار ؛ وتدركه الأرواح وتحار فيه الأفكار ، كان قوم موسى من بعده يرتكبون وينتكسون ، ويتخذون لهم عجلًا جسدًا له خوار ـ لا حياة فيه ـ يعبدونه من دون الله !

وهذه هى طبيعة بنى إسرائيل التى ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوى عن الطريق ، فلقد بادروا نبيهم من قبل أن يجعل لهم إلهًا يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم ! فصدهم نبيهم عن ذلك الخاطر وردهم ردًا شديدًا . فلما خلوا إلى أنفسهم ، ورأوا عجلاً جسداً من الذهب لا حياة فيه كما تفيد كلمة جسد ، صنعه لهم السامرى ـ رجل من السامرة ـ كما سيجىء تفصيل قصته فى سورة طه واستطاع أن يجعله بهيئة بحيث يخرج صوتا كصوت خوار الثيران .

وهل أظلم ممن يعبد خلقاً من صنع أيدى البشر . والله خلقهم وما يصنعون ؟ ! وتقول الأحداث : إن هارون عليه السلام كان فيهم ـ فلم يملك لهم ردًا عن هذا الضلال السخيف . وكان فيهم بعض عقلائهم فلم يملكوا زمام الجماهير الضالة المتدافعة على العجل ـ الجسد وبخاصة أنه من الذهب معبود إسرائيل الأصيل !

وكما يقول صاحب الظلال : وأخيرًا هدأت الهيجة ، وانكشفت الحقيقة ، وتبين السخف وجاءت نوبة الندم والإقرار ، فسقط فى أيديهم وانعدمت الحيلة فى دفع ما هو بصدده من أمر ، ولما رأى بنو إسرائيل أنهم صاروا بهذه النكسة ـ إلى موقف لا يملكون دفعه ، فقد وقع منهم وانتهى ! قالوا : ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ قال الزمخشرى : من شأن من اشتد ندمه وحسرته ، أن يعض يده غمًا ، فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها .

وقال الفارسىُّ : ضربوا أكفهم على أكفهم من الندم ، فإن صح ذلك فهو إذاً من السقوط .

وأقسموا إنه لا يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة ربهم التى وسعت كل شىء ، قائلين : لئن لم يرحمنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جريمتنا ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾لسعادة الدنيا وهى الحرية والاستقلال فى أرض الموعد ، ولسعادة الآخرة وهى دار الكرامة والرضوان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدعوة إلى الله ، واقتفاء أثر المرسلين والانضمام إلى موكب الهداة والمخلصين اصطفاء من الله رب العالمين يستوجب الشكر بغية الثبات والاستزادة .

٢ ـ على الدعاة أن يأخذوا تكاليف الدعوة بعزم وقوة ؛ ليكونوا قدوة فى الإيمان والأعمال الصالحات .

٣ ـ التكبر على الله وعدم طاعته سبيل إلى الذل والجهل ، وكما قال بعض السلف : « لا ينال العلم حيى ولا مستكبر »

ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني
من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس
أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا
يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم
الظالمين ﴿١٥٠﴾ قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في
رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴿١٥١﴾ إن الذين اتخذوا
العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا
وكذلك نجزي المفترين ﴿١٥٢﴾ والذين عملوا السيئات ثم
تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم
﴿١٥٣﴾ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي
نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴿١٥٤﴾ واختار
موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة
قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل
السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي
من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴿١٥٥﴾

معانى الكلمات :

أسفا : حزينا أو شديد الغضب . **فلا تشمت** : فلا تسعد الأعداء . **الرجفة** : الصاعقة . **فتنتك** : محنتك وابتلاؤك .

سكت : هدأ وسكن . **أعجلتم** : هل سبقتم بعبادة العجل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الغضب مذموم إلا لدين الله ، فإنه ضرورة حتى يستقيم أمر الدين .

٢ ـ أن نعلم أن الابتداع فى الدين سبب الذلة فى الدنيا ،والعذاب فى الآخرة.

٣ ـ أن نلتزم بآداب الدعاء مع الله فى البدء والختام .

المحتوى التربوى :

تورد هذه الآيات مشهدًا جديدًا بين موسى وقومه ، فعلى حين كان موسى بين يدى ربه فى مشهد جليل ، لا يدرى ما أحدث القوم بعده ، إلا أن ينبئه ربه بارتكاسة قومه فى حمأة الضلالة بعبادتهم العجل فعاد إلى قومه غضبان أسفا ، يبدو انفعال الغضب فى قوله وفعله ، وحق لموسى أن يغضب ، فالمفاجأة قاسية ، فبينما هو يرتقى بهم ويتلقى وحى الهداية ، ليرفع من قدرهم ، ويصلهم بهدى السماء ، يرتكسون هم فى حمأة الضلالة على عِجْلَ ، تركهم على الهدى فخلفوه بالضلال ، وتركهم على العبادة فخلفوه بعبادة عجل جسد له خوار !

ويسألهم متعجبًا أستعجلتم قضاء الله وعقابه ؟ وألقى الألواح التى كانت تحمل كلمات ربه . وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه ، وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه ، وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب !

وتحكى الآيات أن هارون استجاش فى نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ؛ ليسكن منه الغضب ، ويكشف له عن طبيعة موقفه ، وأنه لم يأل جهدًا فى نصيحة القوم ومحاولة هدايتهم . ويستجيش وجدان الأخوة الناصرة المعينة ، حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون ، ويقرر له أنه لم يضل معهم ولم يكفر كفرانهم .

عندئذ تهدأ ثائرة موسى ﷺ ويتوجه إلى الله يطلب منه المغفرة له ولأخيه ، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين.

قال القاسمي : « **قال الزمخشري** : لما اعتذر إليه أخوه ، وذكر له شماتة الأعداء قال : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾ ليرضى أخاه ، ويظهر لأهل الشماته رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم ، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ولأخيه أن عسى فَرّط فى حسن الخلافة ، وطلب ألا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما فى الدنيا والآخرة . **قال الجشميُّ** : وتدل الآية على أن الأمر بالمعروف قد يسقط فى حال الخوف على النفس ، وفى الحال الذى يُعلم أنه لا ينفع لذلك قال هارون ﴿ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾. وتدل على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود فى الدين ».

ثم يقرر الله أن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، فمن افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرسالة على كتفيه كما قال الحسن البصرى : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هملجت بهم البغال ، وطقطقت بهم البراذين .

ذلك مع قيام القاعدة الدائمة : إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته ، وبنو إسرائيل ارتكبوا الخطيئة بعد الخطيئة ، وسامحهم الله المرة بعد المرة ، حتى انتهوا إلى الغضب الدائم واللعنة الأخيرة وهذا جزاء كل المغترين إلى يوم الدين .

يقول صاحب الظلال : « إذا بدا فى فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون فى الأرض (يعنى بنى إسرائيل) ويستعلون بنفوذهم على الأمميين ... ، وأنهم يستذلون بعض عباد الله ويطردونهم من أرضهم وديارهم فى وحشية ، والدول الضالة تساندهم وتؤيدهم إلى آخر ما نراه فى هذا الزمان ، فليس هذا بناقض لوعيد الله لهم ... إنما هم يستطيلون على الناس فى فلسطين مثلا لأن الناس لم يعد لهم دين ... إنهم يتفرقون ويتجمعون تحت رايات قومية جنسية ، ولا يتجمعون تحت راية العقيدة الإسلامية ، وهم من ثم يخيبون ويغشلون .. . ولكن هذا كله لن يدوم ستجىء الصحوة من هذه الغيبوبة » .

ثم نبه ـ تعالى ـ عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل التوبة من أى ذنب كان ، ولو كفراً .

ونعود ثانية بعد التعقيب على مصير الذين اتخذوا العجل وافتروا على الله ، إلى استئناف القصة ، فإذا نحن أمام مشهد جديد يصور هدوء موسى ﷺ وسكوت الغضب عنه وأخذه الألواح التى كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه ، ويقرر السياق مرة أخرى أن هذه الألواح فيها هدى ورحمة لمن يخشون ربهم ويرهبونه .

وتمضى الآيات لتحكى لنا مشهدًا جديدًا وهو مشهد موسى وسبعين من قومه مختارين للقاء ربه .

ويقول صاحب الظلال : وتختلف الروايات فى سبب هذا الميقات وبها كان لإعلان التوبة ، وطلب المغفرة لبنى إسرائيل مما وقعوا فيه من الكفر والخطيئة ـ وفى سورة البقرة أن التكفير الذى فرض على بنى إسرائيل هو : أن يقتلوا أنفسهم ، فيقتل المطيع منهم من عصى ؛ وقد فعلوا حتى أذن الله لهم بالكف عن ذلك وقبل كفارتهم ـ وهؤلاء السبعون كانوا من خيرتهم .

ومع هذا فما الذى كان هؤلاء المختارين ؟ لقد أخذتهم الرجفة فصعقوا ذلك أنهم كما ورد فى السورة الأخرى طلبوا إلى موسى أن يروا الله جهرة ، ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض فى الألواح . وهى شاهدة بطبيعة بنى إسرائيل التى تشمل خيارهم وشرارهم ، ولا يتفاوتون فيها إلا بمقدار . وأعجب شىء أن يقولوها فى مقام التوبة والاستغفار !

فأما موسى ـ عليه السلام ـ فقد توجه إلى ربه ، يتوسل إليه ، ويطلب المغفرة والرحمة ، ويعلن الخضوع والاعتراف بالقدرة، والتسليم المطلق يقدمه بين يدى دعائه لربه أن يكشف عن القوم غضبه ، وأن يرد عنهم فتنته ، وألا يهلكهم بفعلة السفهاء منهم .

ويقول صاحب الظلال : « وهكذا قدم موسى عليه السلام لطلب المغفرة والرحمة بالتسليم لله والاعتراف بحكمة ابتلائه ، وختمه بإعلان الرجعة إلى الله والالتجاء إلى رحابه فكان دعاؤه نموذجاً لأدب العبد الصالح فى حق الرب الكريم ونموذجاً لأدب الدعاء فى البدء والختام » .

ويقول ابن القيم فى إغاثة اللهفان : « إن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل ، حتى عبد قومهم العجل ، ولم ينكروا عليهم يقول موسى . إنهم قد تقدم منهم ما يقتضى هلاكهم ؛ ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ، ولم تهلكهم ، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل ، ثم قال نبى الله : ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ قال ابن الأنبارى وغيره : هذا استفهام على معنى الجحد أى لست تفعل ذلك . والسفهاء هنا عبدة العجل» .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الذين يعملون القبائح والآثام ، ثم يتوبون ويرجعون إلى الله نادمين مداومين على الإيمان والإخلاص فيه يغفر الله لهم ويقبل توبتهم ؛ لأن الله غفور رحيم .

٢ ـ الغضب لله ولدينه ضرورة حتى يستقيم أمر الدين ، وإلا فهو مذموم .

٣ ـ على الدعاة ـ دائمًا ـ اللجوء إلى الله ، وطلب المغفرة منه ، والتسليم المطلق بقدرته والالتزام بآداب الدعاء فى البدء والختام .

٤ ـ كتب الله الذل والصغار على بنى إسرائيل فى الدنيا جزاء ضلالهم وكذبهم على الله .

۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

معانى الكلمات :

هدنا إليك : تبنا ورجعنا إليك .

الأغلال : التكاليف الشاقة .

إصرهم : عهدهم بالعمل بها فى التوراة .

به يعدلون : يحكمون بالحق .

عزروه : عظموه ووقروه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف صفات المتقين الذين سينالون رحمة الله فى الآخرة .

٢ ـ أن نعلم أن رسالة الإسلام وشريعته أسهل وأيسر الشرائع .

٣ ـ أن نعرف حقيقة هذا الدين ، وواجبنا تجاه تكاليفه وأوامره .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يجىء الجواب لموسى عليه السلام تقريرًا لطلاقة المشيئة، التى تضع الناموس اختياراً ، وتجريه اختياراً : وإن كانت لا تجريه إلا بالعدل والحق على سبيل الاختيار أيضًا ، لأن العدل صفة من صفاته ـ تعالى ـ لا تتخلف فى كل ما تجرى به مشيئته ؛ لأنه هكذا أراد ، فالعذاب يصيب به من يستحق عنده العذاب ، وبذلك تجرى مشيئته ، أما رحمته فقد وسعت كل شىء ؛ وهى تنال من يستحقها عنده كذلك ، ولا تجرى مشيئته ـ سبحانه ـ بالعذاب ، أو بالرحمة جزافاً ، أو مصادفة ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال الجشمى : تدل الآية على حسن سؤال نعيم الدنيا كما يحسن سؤال نعيم الآخرة ، وتدل على أن الواجب على الداعى أن يقرن بدعائه التوبة والإخلاص؛ لذلك قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ ، وتدل على أنه تعالى ينعم على البر والفاجر ، ويخص بالثواب المؤمن فلذلك فصل ، وتدل على أن الرحمة لا تنال بمجرد بالإيمان الذى هو التصديق حتى ينضم إليه الطاعات » .

وقال أبو منصور : « ما من أحد مسلم وكافر إلا وعليه من آثار رحمته فى هذه الدنيا ، بها يتعيشون ويؤاخون ، ويوادون ، وفيها ينقلبون ، لكنها للمؤمنين خاصة فى الآخرة ، لا حظ للكافر فيها ، وذلك قوله : ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أى : معصية الله والخلاف له » .

ويطلع الله نبيه موسى على طرف من الغيب المقبل ، إذ يطلعه على نبأ الملة الأخيرة التى سيكتب الله لها رحمته التى وسعت كل شىء ؛ **ويقول صاحب الظلال** : وإنه لنبأ عظيم ، يشهد بأن بنى إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبى الأمى ، على يدى نبيهم موسى ونبيهم عيسى ـ عليهما السلام ـ منذ أمد بعيد جاءهم الخبر اليقين ببعثه ، وبصفاته ، وبمنهج رسالته ، وبخصائص ملته فهو « النبى الأمى » وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهو يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، وهو يضع عمن يؤمنون به من بنى إسرائيل الأثقال والأغلال التى علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم ، فيرفعها عنهم النبى الأمى حين يؤمنون به ، وأتباع هذا النبى يتقون ربهم ، ويخرجون زكاة أموالهم ، ويؤمنون بآيات الله ، وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبى الأمى ، ويعظمونه ويوقرونه ، وينصرونه ويؤيدونه ، ويتبعون النور الهادى الذى معه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وبذلك البلاغ المبكر لبنى إسرائيل ـ على يد نبيهم موسى عليه السلام كشف لله ـ سبحانه ـ عن مستقبل دينه ، وعن حامل رايته ، وعن طريق أتباعه ومحن مستقر رحمته ، فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة ،بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين »

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى عليه السلام والسبعين المختارين من قومه فى ميقات ربه ـ يكشف كذلك عن مدى جريمة بنى إسرائيل فى استقبالهم لهذا النبى الأمى وللدين الذى جاء به، وفيه التخفيف عنهم والتيسير ، إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين !

قال القاسمى : **قال الجشمىُّ** : تدل الآية ـ السابقة ـ على أن شريعته أسهل الشرائع ، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان فى الأمم الماضية . وذلك نعمة عظيمة على هذه الأمة ، وتدل على وجوب تعظيم الرسول ، ونصره بالجهاد ، ونصرته بنصرة دينه ، وكل أمر يؤدى إلى توهين ما يتصل بذلك ، لأن جميع ذلك من باب النُصرة . وهذا لا يختص بعصره فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التكليف . ولعل الجهاد بالبيان ، وإيراد الحجة ، ووضع الكتب فيه ، وحلّ شبه المخالفين ، يزيد فى كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف ، ولهذا قلنا : (منازل العلماء فى ذلك أعظم المنازل» أ . هـ .

وقبل أن يمضى السياق إلى مشهد جديد من مشاهد القصة ، يقف عند هذا البلاغ المبكر ، يوجه الخطاب إلى النبى الأمى ﷺ يأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعًا ، تصديقًا لوعد الله القديم ؛ فرسالة الإسلام هى الرسالة الأخيرة ، الشاملة ، التى لا تختص بقوم ، ولا أرض ، ولا جيل ، ويؤمر النبى ﷺ أن يعرف الناس جميعًا بربهم الحق ـ سبحانه ؛ فالرسول ﷺ رسول الناس جميعًا من ربهم الذى يملك هذا الوجود كله ـ وهم من هذا الوجود ـ والذى يتفرد بالألوهية وحده ، فالكل له عبيد ، والذى تتجلى قدرته وألوهيته فى أنه الذى يحيى ويميت ، والذى يملك

الوجود كله ، والذى له الألوهية على الخلائق وحده ، والذى يملك الحياة والموت للناس جميعًا ، وهو الذى يستحق أن يدين الناس بدينه الذى يبلغه إليهم رسوله فهو تعريف للناس بحقيقة ربهم ، لتقوم على هذا التعريف عبوديتهم له ، وطاعتهم لرسوله .

ويقول صاحب المنار : « وبعد أن أمرهم بالإيمان أمرهم بالإسلام فقال ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى : واتبعوه بالإذعان الفعلى لكل ما جاءكم به من أمر الدين فعلاً وتركا ، رجاء اهتدائكم بالإيمان وباتباعه لما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة ، فثمرة الإيمان والإسلام اهتداء صاحبهما ووصوله بالفعل لسعادة الدارين ، ودليله الفعلى فى الدنيا أنه ما آمن من قوم نبى إلا وكانوا بعد الإيمان به خيراً مما كانوا قبله من هناء المعيشة والعزة والكرامة فى دنياهم ، وليس هناك رجاء فى أن يهتدى الناس بما يدعوهم إليه ﷺ إلا ـ باتباعه فيه ، ولا يكفى أن يؤمنوا به فى قلوبهم ما لم يتبع الإيمان العملى .

ويقول صاحب الظلال : « إن هذا الدين يعلن عن طبيعته وعن حقيقته فى كل مناسبة ، إنه ليس مجرد عقيدة تستكن فى الضمير ، كما أنه كذلك ليس مجرد شعائر تؤدى وطقوس إنما هو الاتباع الكامل لرسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وفيما يشرعه ويسنه . والرسول لم يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله فحسب ، ولم يأمرهم كذلك بالشعائر التعبدية فحسب ، ولكنه أبلغهم شريعة الله فى قوله وفعله . ولا رجاء فى أن يهتدى الناس إلا إذا اتبعوه فى هذا كله ، فهذا هو دين الله ، وليس لهذا الدين من صورة أخرى إلا هذه الصورة التى تشير إليها هذه اللفتة : ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله .

ولو كان الأمر فى هذا الدين أمر اعتقاد وكفى ، لكان فى قوله : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الكفاية ! .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إذا لم يأخذ الصالحون على أيدى المفسدين ، ولم يمنعوا الظالمين من ظلمهم ؛ أوشك الله أن يعمهم جميعًا بعقاب من عنده .

٢ ـ ينال رحمة ـ الله ـ تعالى ـ المتقون من عباده ، والذين يخرجون زكاة أموالهم ؛ ويكثرون من الصدقات ، ويحرصون على الإيمان بآيات الله ، وعلى اتباع الرسول مع توقيره ونصرته واتباع النور الذى أنزل معه ، ويفوزون كذلك بالفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ الإسلام دين يسر وسماحة ، وقد خفف الله ـ تعالى ـ عن هذه الأمة كثيرًا من التكاليف الشاقة التى كلف الله بها من كان قبلهم .

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ
فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ
حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ
لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

١٧١

معانى الكلمات :

قطعناهم : فرقناهم . **أسباطاً** : جماعات .

فانبجست : فانفجرت . **الغمام** : السحاب الأبيض . **المن** : مادة صمغية حلوة كالعسل . **السلوى** : طائر يسمى السُّمانى .

قولوا حطة : سألتنا حط ذنوبنا عنا .

حاضرة البحر : قريبة من البحر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف طبائع اليهود وحيلهم لنحذرهم ولا نقلدهم .

٢ ـ ألا نستحل محارم الله بأدنى الحيل لئلا نتعرض لغضبه وعذابه .

٣ ـ أن نقابل نعم الله بالشكر ولا نكفرها كما فعلت بنو إسرائيل .

المحتوى التربوى :

نواصل مع الآيات مشهدًا جديدًا من أحداث قصة موسى عليه السلام ، حيث تحوطهم رعاية الله فبعد أن كفروا وعبدوا العجل ، ثم كفروا عن الخطيئة كما أمرهم الله ، تاب عليهم ، وبعد أن طلبوا رؤية الله جهرة ، فأخذتهم الرجفة ، ثم استجاب الله لدعاء موسى فأحياهم تتجلى هذه الرعاية فى تنظيمهم حسب فروعهم فى اثنتى عشرة أمة ـ أى جماعة كبيرة ـ ترجع كل جماعة منها إلى حفيد من حفداء جدهم يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ وقد كانوا محتفظين بأنسابهم على الطريقة القبلية

وتبدو هذه الرعاية الإلهية فى تخصيص عين تشرب منها كل جماعة وتعيينها لهم ، فلا يعتدى بعضهم على بعض ، وتبدو فى تظليل الغمام لهم من شمس هذه الصحراء المحرقة ؛ وإنزال المن والسلوى ، وتيسيره لهم ضماناً لطعامهم بعد ضمان شرابهم ، وكذلك فى إباحة كل هذه الطيبات لهم ، حيث لم يكن قد حرّم الله عليهم بعد شيئا بسبب عصيانهم.

والرعاية واضحة فى هذا كله ؛ ولكن هذه الطبيعة ما تزال بعد عصية على الهدى والاستقامة كما يبدو من ختام الآيات : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

قال صاحب المنار : « وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ، ولكن كان دأبهم ظلم أنفسهم دون ربهم الذى لا يناله تأثير أحد بظلم ولا غيره ، فكانوا يجنون على أنفسهم بكفر النعم والجحود وغيرها آنا بعد آن وجيلا بعد جيل ، كما هو مبين فى القرآن بالإجمال وفى التوراة بالتفصيل ، فتقديم أنفسهم على يظلمون المفيد لقصر ظلمهم عليها ، إنما هو لبيان أن كفرهم بنعمه ـ تعالى يضرهم ولا يضره » .

وننظر كيف تلقى بنو إسرائيل رعاية الله لهم بالظلم والتبديل فلقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل ، وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل ، ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم ، ثم هاهم أولاء يؤمرون بدخول قرية بعينها ـ أى مدينة كبيرة ـ لا يعين القرآن اسمها ـ لأنه لا يزيد فى مغزى القصة شيئاً ـ وتباح لهم خيراتها جميعًا ، على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها ؛ وعلى أن يدخلوا بابها سجداً ، إعلانًا للخضوع لله فى ساعة النصر والاستعلاء ـ وذلك كما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عام الفتح ساجداً على ظهر دابته ـ وفى مقابل طاعة الأمر يعدهم الله أن يغفر لهم خطيئاتهم ، وأن يزيد للمحسنين فى حسناتهم ، فإذا فريق منهم يبدلون صيغة الدعاء التى أمروا بها ، ويبدلون الهيئة التى كلفوا أن يدخلوا عليها .. لماذا ؟ تلبية للانحراف الذى يلوى نفوسهم عن الاستقامة . ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ .

عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذابًا .. السماء التى تنزل عليهم منها المن والسلوى وظللهم فيها الغمام !

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ وهكذا كان ظلم فريق منهم ـ أى : كفرهم ـ ظلماً لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله ، وتتكرر معهم المعصية والخطيئة ، ولكنهم هذه المرة لا يخالفون الأمر جهرة ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها ! ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه ؛ لأن الصبر على الابتلاء يحتاج إلى طبيعة متماسكة فى تملك الارتفاع عن الأهواء والأطماع .

قال صاحب المنار : « إن الله تعالى أنزل القرآن هدى وموعظة ، وجعل قصص الرسل فيه عبرة وتذكرة ، لا تاريخ شعوب ومدائن ، ولا تحقيق وقائع ومواقع ، والعبرة فى هذه القصة أن نتقى الظلم والفسق ، ونعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها فى الدنيا قبل الآخرة ، وأنه قد عاقب بنى إسرائيل بظلمهم ، ولم يمل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل ، وكثرة وجود الأنبياء فيهم » .

ويأمر الله ـ سبحانه ـ رسوله ﷺ أن يسأل اليهود عن واقعة القرية التى كانت حاضرة البحر ، وهى معلومة لهم فى تاريخ أسلافهم ؛ وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال ، ويذكرهم بعصيانهم القديم ، وما جره على فريق منهم من المسخ فى الدنيا ؟ وما جره عليهم جميعاً

من كتابة الذل عليهم والغضب أبداً .. اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبى ، فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

ولا يذكر اسم القرية التى كانت حاضرة البحر ؛ فهى معروفة للمخاطبين ! فأما الواقعة ذاتها فقد كان أبطالها جماعة من بنى إسرائيل يسكنون مدينة ساحلية ، وكان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة يتخذونه عيدًا للعبادة ؟ ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش فجعل لهم السبت، ثم كان الابتلاء ليربيهم الله ، ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع ؛ وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع .

وكان ذلك ضرورياً لبنى إسرائيل الذين تخلخلت شخصياتهم وطباعهم بسبب الذل الذى عاشوا فيه طويلاً ، ولابد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية لتعتاد الصمود والثبات . فضلاً على أن هذا ضرورى لكل من يحملون دعوة الله ؛ ويؤهلون لأمانة الخلافة فى الأرض ، وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء ..فلم يصمدا له ، واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى ! ثم ظل هو الاختبار الذى لابد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف فى الأرض ، إنما يختلف شكل الابتلاء ولا تتغير فحواه !

ولم يصمد فريق من بنى إسرائيل ـ فى هذه المرة ـ للابتلاء الذى كتبه الله عليهم بسبب ما تكرر قبل ذلك من فسوقهم وانحرافهم . لقد جعلت الحيتان فى يوم السبت تتراءى لهم على الساحل ، قريبة المأخذ ، سهلة الصيد ، فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التى قطعوها على أنفسهم ! فإذا مضى السبت ، وجاءتهم أيام الحل . لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة . كما كانوا يجدونها يوم الحرم !وهذا ما أمر رسول الله ﷺ أن يذكرهم به،ويذكرهم ماذا فعلوا وماذا لاقوا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ألا نستغرب رفض اليهود لدعوة الله ، فلقد كانت تأتيهم الآيات والبراهين والنعم جهارًا واضحات وكانوا يكفرون بالله ورسوله ، ويتحايلون على شرع الله .

٢ ـ الإشعار لهذه الأمة بألا تظلم نفسها بمعصية ربها ، وترك شكره ، وعدم تنفيذ أوامره ، كما فعلت بنو إسرائيل مع نعم الله وآياته . فعن أبى هريرة ﷺ ـ بإسناد جيد : أن رسول الله ﷺ قال : « لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » .

٣ ـ مجىء قصة القرية التى كانت حاضرة البحر درس لمن خالف أمر الله بحيلة من الحيل، فإذا فهمنا هذا الدرس على ضوء محور السورة نفهم أن هدى الله المنزل يجب أن يطبق بقوة ، فليس الله كغيره ، ولا أمر الله كأمر غيره .

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤)
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
(١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ
(١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ
ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ
وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ
أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٧٠)

١٧٢

معانى الكلمات :

معذرة إلى ربكم : نعظكم اعتذاراً إلى الله .

بئيس : شديد .

عتوا : استكبروا .

تأذن ربك : أعلم وعزم .

يسومهم : يذيقهم .

خلف : بدل سوء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وضوابطه .

٢ ـ أن ندرك أن ابتلاء الله لعباده رحمة وتذكير ووقاية من النسيان والاغترار .

٣ ـ أن نعطى قضية الآخرة والتقوى الأولوية فى حياتنا فهما أساس العقيدة فى الحياة .

المحتوى التربوى :

وتمضى الآيات تواصل قصة القرية التى كانت حاضرة البحر ؛ حيث راح فريق من سكان القرية يحتالون على السبت الذى حرم عليهم الصيد فيه ، وروى أنهم كانوا يقيمون الحواجز على السمك ويحوّطون عليه فى يوم السبت ؛ حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه ؛ وقالوا : إنهم لم يصطادوه فى السبت ، فقد كان فى الماء ـ وراء الحواجز ، غير مصيد !

وراح فريق منهم آخر يرى ما يفعلون من الاحتيال على الله ! فيحذر الفريق العاصى مغبة احتياله ! وينكر عليه ما يزاوله من الاحتيال ! بينما يمضى فريق آخر ثالث يقول للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر : ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة ، وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه ؟ وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب ؟

فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم ، ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم بعد ما كتب الله الهلاك عليهم أو العذاب الشديد ؛ بما اقترفوه من انتهاك لحرمات الله : ﴿ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ . فهو واجب لله نؤديه ـ واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتخويف من انتهاك الحرمات ، لنبلغ إلى الله عذرنا ، ويعلم أن قد أدينا واجبنا . ثم لعل النصح يؤثر فى تلك القلوب العاصية فيثير فيها وجدان التقوى .

وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم : أمة عاصية محتالة ، وأمة تقف فى وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة ، وأمة تدع المنكر وأهله ، وتقف موقف الإنكار السلبى ولا تدفعه بعمل إيجابى .

فلما لم يجد النصح ، ولم تنفع العظة ، وسدر السادرون فى غيهم ، حقت كلمة الله ، وتحققت نذره ، فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء فى فجوة من السوء ، وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد ، فأما الفرقة الثالثة ـ أو الأمة الثالثة ـ فقد سكت النص عنها ... ربما تهوينا لشأنها .. وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب ـ إذ إنها قعدت عن الإنكار الإيجابى، وقفت عند حدود الإنكار السلبى، فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب .

ثم كان العذاب البئيس جزاء العصاة المحتالين ، جزاء إمعانهم فى المعصية ، التى يعتبرها النص كفرًا ، وجرت كلمة الله التى يجرى بها الخلق والتكوين ابتداء ، « كن» فصاروا قردة خاسئين ، ثم كانت اللعنة الأبدية على الجميع ـ إلا الذين يؤمنون بالنبى الأمى ويتبعونه ـ بما انتهى إليه أمرهم بعد فترة من المعصية التى لا تنتهى ؛ وصدرت المشيئة الإلهية بالحكم الذى لا راد له ولا معقب عليه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ .

فهو إذْنُ الأبد الذى تحقق منذ صدوره ؛ فبعث الله على اليهود فى فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب ، والذى سيظل نافذًا فى عمومه ، فيبعث الله عليهم بين أونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب . وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا فى الأرض وبغوا ، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة ، الناكثة العاصية ، التى لا تخرج عن معصية إلا لتقع فى معصية ؛ ولاتثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف .

ثم تمضى خطوات القصة مع خطوات التاريخ ، من بعد موسى وخلفائه مع الأجيال التالية فى بنى إسرائيل إلى الجيل الذى كان يواجه الرسول ﷺ والجماعة المسلمة فى المدينة ، فتحكى الآيات أن اليهود تفرقوا فى الأرض ، جماعات مختلفة المذاهب والتصورات ، مختلفة المشارب والمسالك ، فكان منهم الصالحون وكان منهم من هم دون الصلاح ، وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات . تارة بالنعماء وتارة بالبأساء ، لعلهم يرجعون إلى ربهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويستقيمون على طريقهم .

ويقول صاحب الظلال : والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد ، وتذكير دائم لهم ، ووقاية من النسيان المؤدى إلى الاغترار والبوار .

ثم تتحدث الآيات عن خلف جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى ، ويصفهم السياق بأنهم ورثوا الكتاب ودرسوه ، ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم . شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ ، وكلما رأوا عرضًا من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا

عليه ، ثم تأولوا وقالوا : ﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ، وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد .

ويسأل الله ـ عز وجل ـ سؤال استنكار : ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله فى الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص ، وألا يخبروا عن الله إلا بالحق .. فما بالهم يقولون سيغفر لنا ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا ؟ ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيد غفرانه لهم ، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقًا ؛ ويقلعون عن المعصية فعلاً ؛ وليس هذا حالهم ؟ فهم يعودون كلما رأوا عرضًا من أعراض الحياة الدنيا ، وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه !

ويقول صاحب الظلال : « بلى ! ولكن الدراسة لا تجدى ما لم تخالط القلوب وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيدة، إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التى تنيلهم عرض الحياة الدنيا ، وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة ، ولا يأخذونه عقيدة ؛ ولا يتقون الله ولا يرهبونه ؟ !

ولأن قضية الآخرة ، وقضية التقوى قضيتان أساسيتان فى العقيدة وفى الحياة ، يحيل السياق القرآنى المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى ـ عرض الحياة الدنيا ـ إلى العقل : ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

ولو كان العقل هو الذى يحكم لا الهوى ،ولو كان العلم الحق لا الجهالة التى تسمى العلم هو الذى يقضى لكانت الدار الآخرة خيرًا من عرض هذا الأدنى ، ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعاً .

والتمسك بالكتاب فى جد وقوة وصرامة ، وإقامة الصلاة ـ أى شعائر العبادة ـ هما طرفا المنهج الربانى لصلاح الحياة ، وتشير الآية إلى هذه الحقيقة : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملاً ، وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذى لا يضيع الله أجره على المصلحين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر طاعة لله ـ تعالى ـ وأخذاً على يد المفسدين ، وتطهيرًا للمجتمع من ظلمهم وشرورهم ، وحتى ينتشر الخير ويعم السلام والأمن .

٢ ـ إذا أدى المصلحون دورهم وتمادى المفسدون فى إفسادهم ؛ فإن عقاب الله ـ تعالى ـ ينزل بالمفسدين وحدهم.

٣ ـ حرص اليهود على متاع الدنيا ، والوصول إليه بشتى الطرق ولو أدى بهم إلى ارتكاب المعاصى والذنوب .

٤ ـ ضرورة التمسك بما أنزل الله ، والمحافظة على الصلوات والإصلاح فى الأرض .

۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

معانى الكلمات :

نتقنا الجبل : رفعناه .

كأنه ظلة : كأنه سقف مرفوع .

انسلخ منها : كفر بها .

الغاوين : الضالين .

أخلد إلى الأرض : ركن إليها .

تحمل عليه : تشدد عليه وتمنعه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التوحيد حقيقة مركوزة فى فطرة كل البشر .

٢ ـ أن نعرف الحكمة من إرسال الرسل بالرسالات .

٣ ـ أن نسخر العلم فى التعريف بالله ـ عز وجل ـ وطاعته وحسن عبادته .

المحتوى التربوى :

تحكى الآيات كيف أخذ الله على بنى إسرائيل الميثاق ، فلقد أُخذ فى ظرف لا يُنسى ! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق ؛ فأعطوه فى ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس ، ولقد أمروا فى ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية ، وأن يستمسكوا به فى شدة وصرامة ، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا فى ميثاقهم الوثيق ،وأن يظلوا ذاكرين لما فيه ، لعل قلوبهم تخشع وتتقى ، وتظل موصولة بالله لا تنساه !

ولكن إسرائيل هى إسرائيل ! نقضت الميثاق ، ونسيت الله ، ولجت فى المعصية ، حتى استحقت غضب الله ولعنته وحق عليها القول ، بعدما اختارها الله على العالمين فى زمانها ، وأفاء عليها من عطاياه . فلم تشكر النعمة ، ولم ترع العهد ، ولم تذكر الميثاق ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم تتحدث الآيات عن قصة العهد الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم ؛ أخرج ابن جرير وغيره ـ بإسناده ـ عن ابن عباس قال : « مسح ربك ظهر آدم ، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ مواثيقهم ، وأشهدهم على أنفسهم : « ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » على أن هناك تفسيراً لهذا النص بأن العهد الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم هو عهد الفطرة .. فقد أنشأهم

مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده ، وأودع هذا فطرتهم فهى تنشأ عليه ، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها ، ويميل بها عن فطرتها .

وقال ابن كثير فى التفسير : قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد .

وعقب المولى - عز وجل - على هذا الإشهاد بأنه أخذه حتى لا يكون هناك سبيل إلى أن يقول أحد : إنه غفل عن كتاب الله الهادى إلى التوحيد ، وعن رسالات الله التى دعت إلى هذا التوحيد، أو يقول : إننى خرجت إلى هذا الوجود ، فوجدت آبائى قد أشركوا فلم يكن أمامى سبيل لمعرفة التوحيد ، إنما ضل آبائى فضللت ، فهم المسؤولون وحدهم ولست بالمسؤول ! ومن ثم جاء هذا التعقيب على هذه الشهادة : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « ولكن الله - سبحانه - رحمة منه بعباده ، لما يعلمه من أن فى استعدادهم أن يضلوا إذا أضلوا ، وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الانحراف - بفعل شياطين الجن والإنس ؛ الذين يعتمدون على ما فى التكوين البشرى من نقاط ضعف !

ومن رحمة من الله بعبادة قدر ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا ؛ كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به، حتى يرسل إليهم الرسل ، ويفصل لهم الآيات ، لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف ، واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات ولو كان الله يعلم أن الفطر والعقول تكفى وحدها للهدى دون رسل ولا رسالات ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ عباده بها ، ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هى الرسالة » .

وكمثل للانحراف عن سوء الفطرة ، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها ، ذلك الذى آتاه الله آياته ، فكانت فى متناول نظره وفكره ؛ ولكنه انسلخ منها ، وتعرى عنها ولصق بالأرض ، واتبع هواه فلم يستمسك بالميثاق الأول ، ولا بالآيات الهادية ؛ فاستولى عليه الشيطان ؛ وأمسى مطروداً من حمى الله، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار .

يقول صاحب الظلال : « إنه مشهد من المشاهد العجيبة .. إنسان يؤتيه الله آياته ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع ولكن هاهو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه ؛ فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه ويتجرد من الغطاء الواقى ، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم، فيصبح غرضًا للشيطان لايقيه منه واق ، ولا يحميه منه حام فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه ، ثم إذا نحن أولا أمام مشهد مفزع بائس نكدٍ .. إذا نحن بهذا المخلوق ، لاصقًا بالأرض ، ملوثًا بالطين . ثم إذا هو مُسخ فى هيئة كلب ، يلهث إن طورد ، ويلهث إن لم يطارد ، فإذا انتهى مشهد اللهاث الذى

لا ينقطع سمع التعليق المرهوب الموحى : ﴿ سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

قال صاحب المنار : « إن من شأن من أوتى آيات الله تعالى أنه ترتقى نفسه ، وترتفع فى مراقى الكمال درجته لما فيها من الهداية والإرشاد والذكرى ، وإنما يكون ذلك لمن أخذ هذه الآيات وتلقاها بهذه النية : « وإنما لكل امرئ مانوى » وأما من لم ينو ذلك ، ولم تتوجه إليه نفسه ، وإنما تلقى الآيات الإلهية اتفاقا بغير قصد ، أو بنية كسب المال والجاه ، ووجد مع ذلك فى نفسه ما يصرفه عن الاهتداء بها فلن يستفيد منها ، وأسرع به أن ينسلخ منها ، فهو يقول لوشئنا لرفعناه بها لأنها فى نفسها هدى ونور ، ولكن تعارض المقتضى والمانع وهو إخلاءه إلى الأرض واتباع هواه .

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها ، ويعلن غيرها ، ويستخدمه علمه فى التحريفات المقصودة ، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل ، يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدى على سلطان الله وحرماته فى الأرض جميعًا .

إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله ؛ فلم ينتفع بهذا العلم ؛ ولم يستقم على طريق الإيمان ، وانسلخ من نعمة الله. ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان ، ولينتهى إلى المسخ فى مرتبة الحيوان ، ويعقب السياق على هذا المثل بأن الهدى هدى الله ، فمن هداه الله فهو المهتدى حقاً ؛ ومن أضله الله فهو الخاسر الذى لا يربح شيئاً .

قال أبو السعود : « لما أمر النبى ﷺ بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ؛ ليتفكروا فيه ويتركوا ماهم عليه من الإخلاء إلى الضلالة ، ويهتدوا إلى الحق ـ عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل ، وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية فى حصول الاهتداء من غير تأثير لها فيه ، سوى كونها دواعى إلى صرف العبد اختياره نحو تحصيله .. » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ توحيد الله ـ تعالى ـ وإفراده بالعبودية فطرة فى النفس البشرية ، فطر الله الناس عليها منذ أن كانوا ذرات فى أصلاب آبائهم من آدم عليه السلام .

٢ ـ يجب أن ندعو الله دائماً بالخير ونتجنب الدعاء بالشر والإثم وقطيعة الأرحام .

٣ ـ يجب أن نحذر من الشيطان ووساوسه ، ومن الغرور بزينة الدنيا ومتعها ، ومن النفس الأمارة بالسوء وملذاتها .

٤ ـ العلم الذى لا يؤدى إلى طاعة الله ، علم بارد لا يعصم من الهوى ، ولا يرفع من ثقلة الشهوات شيئاً ، ولا يدفع الشيطان ، بل ربما ذلل له الطريق وعبدها .

الجزء التاسع | سورة الأعراف

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

١٧٤

معانى الكلمات :

ذرأنا : خلقنا . **يلحدون** : ينحرفون إلى الباطل . **أملى لهم** : أمهلهم . **جِنَّة**: جنون . **طغيانهم** : تجاوزهم للحد . **يعمهون** : يتحيرون . **أيان مرساها** : متى وقوعها . **لا يجليها** : لا يظهرها . **ثقلت** : عَظُمت لشدتها . **حفى عنها** : باحث عنها عالم بها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

٢ ـ أن نعلم منزلة العلماء والدعاة إلى الله فى هذا الدين .

٣ ـ أن نستشعر أهمية المبادرة بالتوبة قبل مجىء الأجل .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يبين الله ـ عز وجل ـ أنه خلق للنار أهلها ـ وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأهل النار هؤلاء المهيأون لدخولها ، قلوبهم لا تفقه لحق ولا تعقله ، وأعينهم لا تبصر الآيات ، وأسماعهم لا تسمع الموعظة ، فهم لا يسمعون الحق ولا يعوونه ، ولا يبصرون الهدى ، كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا فى ما يقيتها ، بل هم أضل من الدواب ؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا ناداها ودعاها وإن لم تفقه كلامه ، ولأنها تفعل ما خلقت له ، إما بطبعها وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به ، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده .

قال أبو السعود : « المراد بهؤلاء الذين ذُرِئوا لجهنم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ، لكن لا بطريق الجبر ، من غير أن يكون من قبلهم ما يؤدى إلى ذلك ، بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبدًا ، بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ، ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر ، فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيًّا بها » .

ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه إذ ليس للأنعام قوة تحصيل تلك الكمالات، ودفع تلك النقائص ، وهم مع نالهم عن تلك القوة قد خلوا عن الكمالات، وعن دفع أضدادها، فكانوا أردأ حالا منها لنقصدهم مع وجود قوة الكمال فيهم ، وأيضا الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره وهؤلاء أكثرهم معاند فيقدم على النار .

وهؤلاء هم أهل الغفلة عن الله وآياته ودينه وشريعته ،ولكى لا نكون كهؤلاء الغافلين عن آيات الله التى تدل على أسمائه الحسنى .

ذكرنا الله ـ عز وجل ـ بأن له الأسماء الحسنى ، وأمرنا أن نسميه بها ، وأن نترك الملحدين بأسمائه ، بالإعراض عنهم ، وانتظار ما أعد الله لهم من عذاب جزاء أعمالهم .

ونعود مرة أخرى للسياق فيأمر الله بإهمال المنحرفين ـ الذين كانوا يتمثلون فى المشركين الذين كانوا يواجهون دعوة الإسلام بالشرك ـ الذين يلحدون فى أسماء الله ويحرفونها ، ثم يمضى السياق يفصل صنوف الخلق .. بعدما ذكر منهم من قبل أولئك الذين ذرأهم الله لجهنم ، ومنهم هؤلاء الذين يلحدون فى أسماء الله ويحرفونها ، ثم إن منهم أمة يستمسكون بالحق ، ويدعون الناس إليه ، ويحكمون به ولا ينحرفون عنه ، وأمة ـ على الضد ـ ينكرون الحق ويكذبون بآيات الله ! فأما الأولون فيقرر وجودهم فى الأرض وجودًا ثابتًا لاشك فيه ، وهم حراس على الحق حين ينحرف عنه المنحرفون ، ويزيغ عنه الزائغون ؛ وحين يكذب الناس بالحق وينبذونه يبقون هم عليه صامدين .

يقول صاحب الظلال : إن صفة هذه الأمة ـ التى لا ينقطع وجودها من الأرض أيًا كان عددها ـ أنهم لا يهدون بالحق ، فهم دعاة إلى الحق لا يسكتون عن الدعوة به ، وإليه ، ولا يتقوقعون على أنفسهم ولا ينزوون بالحق الذى يعرفونه ، ولكنهم يهدون به غيرهم ، فلهم قيادة فيمن حولهم من الضالين عن هذا الحق ، المتنكرين لذلك العهد ، وولهم عمل إيجابى لا يقتصر على معرفة الحق ، إنما يتجاوزه إلى الهداية به والدعوة إليه والقيادة باسمه ، فيتجاوزون معرفة الحق والهداية به إلى تحقيق هذا الحق فى حياة الناس والحكم به بينهم ، تحقيقا للعدل الذى لا يقوم إلا بالحكم بهذا الحق .

والذين يلحدون فى هذا الدين يجدون مشقة فى تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلبة ، وهم من أجل ذلك يوجهون إليه جهودًا لا تكل ، وحملات لا تنقطع .. وهم يصورون الإسلام الذى يحكم الحياة حادثا تاريخيا مضى ولا تمكن إعادته ، ولكن طبيعة هذا الدين الواضحة الصلبة ما تزال صامدة لهذه المعركة الضارية ، والأمة المسلمة القائمة على هذا الحق ـ على قلة العدد وضعف العدة ـ ما تزال صامدة لعمليات السحق الوحشية والله غالب على أمره » .

لذا واجه القرآن الكريم قومًا من المكذبين بآيات الله فى مكة بتهديد رعيب : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ .

ولقد كان الملأ من قريش يعلمون أنهم كاذبون ! وقد تضافرت الروايات على أنهم كانوا يعرفون الحق فى أمر رسول الله ﷺ ، وأنهم ما كانوا يملكون أن يمنعوا أنفسهم عن الاستماع لهذا القرآن والتأثر به أعمق التأثرمثل قصة الأخنس بن شريق ، وأبى سفيان بن حرب ، وعمرو بن هشام فى الاستماع لهذا القرآن خلسة ، ليالى ثلاثاً ، وما وجدوه فى أنفسهم منه معروفة .

والقرآن يدعوهم إلى التفكر والتدبر فى أمر صاحبهم هذا المعروف لهم ماضيه كله ، المكشوف لهم أمره كله أفهذا به جنة ؟ أفهذا قول مجنون وفعل مجنون ؟ كلا لا اختلاط فى عقله ولا فى قوله إنما هو منذر مفصح مبين .

ويدعوهم للنظر فى ملك الله وسلطانه فى السموات والأرض ، وفيما خلق من شىء فيهما ، ليتدبّروا ذلك ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ومن فعله لا ينبغى أن تكون العبادة والدين الخالص إلا لله . فيجب أن يؤمنوا به ، ويصدقوا رسوله ، ويعترفوا بالله وآياته ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله ، وأليم عقابه .

ويبين الله ـ عز وجل ـ أن الأمر أمره ، فإن من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولا يضل الله إلا من يستحق الضلال ، فذلك الذى يتركه الله متخبطًا فى ظلمات الضلال ، ثم يبين لنا سخف هؤلاء إذ يتركون التفكير فيما ينبغى ، ويتركون العمل فيما ينبغى ، ويسألون عما لا تقدم أو تؤخر معرفته ، فهم يسألون عن الساعة عن وقت وقوعها وهم فى الأصل مكذبون ، فسؤالهم فى الحقيقة استبعاد لوقوعها وتكذيب بوجودها ومع أنهم مستبعدون ومكذبون فهم يتساءلون عن محطها ، وأول وقتها ، يسألون الرسول ﷺ عن ذلك كأنه من المتكلفين لمعرفة ما لم يرد الله أن يعرِّفه عليه ، وهنا يأمر الله رسوله ﷺ أن يجيبهم جوابين الجواب الأول : أن الساعة لا يعرف علمها أحد إلا الله . والجواب الثانى : أنه لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا بل هو مفوِّض أموره كلها إلى الله ، وهو تحت مشيئته ، وأنه لا يعلم المستقبل ولا اطّلاع له على شىء منه ، إلا بما أطلعه الله عليه .

إن أمر الساعة من الأمور التى لا يعلمها إلا الله عز وجل لم يطلع عليها ملك مقرب أو نبى مرسل ، وفى إخفاء وقتها رحمته بالمؤمنين حتى يكونوا متأهبين كل وقت ، إذ لو علم الإنسان وقت لكسلت النفس عن الطاعة وعن القيام بالتكاليف الربانية ، ولكنّ الله جلا وعلا جعل لكل إنسانٍ ساعته وهى لحظة الموت .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله له الأسماء الحسنى ، فلا يجوز أن نسميه بما لا يليق به من كمال وجلال ، ولا بما لم يسم به نفسه .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ يمهل الظالمين استدراجًا لهم ولا يهملهم ، بل يأخذهم بعذاب شديد .

٣ ـ يجب المبادرة بالتوبة قبل أن يأتى الأجل ، فلا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً .

٤ ـ علم الساعة وما يحدث فيها من الأمور الغيبية التى لا يعلمها إلا الله ، ولم يطلع عليها ملكا مقربًا ، ولا نبيًا مرسلًا ، ولا أحدا من خلقه .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

معانى الكلمات :

تغشاها : جامعها .

فمرت به : فاستمرت بغير تعب .

أثقلت : صارت ذات ثقل كبير.

صالـحًا: ولدًا سليمًا .

جعلا له شركاء : بتسمية ولديهما عبد الحارث بوسوسة إبليس .

يبطشون : يأخذون الأشياء بشدة أو يعتدون بها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن ندرك خطورة الكلمة ومدلولها الحقيقى ونحذر عند قولها .

٢ ـ أن نوقن أن الغيب لا يعلمه إلا الله ولم يطلع الله عليه أحدًا سواه .

٣ـ أن نعتقد تمام الاعتقاد أنه لا سلطان فوق سلطان الله فلا معبود بحق سواه .

المحتوى التربوى :

توضح الآيات أن الرسول ﷺ وهو من هو . وقربه من ربه هو قربه ، مأمور أن يعلن للناس أنه أمام الغيب بشر من البشر ، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ؛ لأنه لا يطلع على الغيب ، ولا يعرف الغايات قبل المذاهب ؛ ولا يرى مآل أفعاله ، ومن ثم لا يملك أن يختار عاقبة فعله . بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيرًا أقدم ، وإن رآها سوءًا أحجم . إنما هو يعمل ، والعاقبة تجىء كما قدر الله فى غيبه المكنون .

والرسول ﷺ نذير وبشير للناس أجمعين ، ولكن الذين «يؤمنون» هم الذين ينتفعون بما معه من النذارة والبشارة ، فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه ، وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذى جاء به ، ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها ، كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين .

يقول صاحب الظلال : إن الكلمة لا تعطى مدلولها الحقيقى إلا للقلب المفتوح لها والعقل الذى يستشرفها ويتقبلها ، وإن هذا القرآن لا يفتح كنوزه ، ولا يكشف أسراره ولا يعطى ثماره ، إلا لقوم يؤمنون ، ولقد ورد عن بعض صحابة رسول الله ﷺ : كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن ، وهذا الإيمان هو الذى كان يجعلهم يتذوقون القرآن ذلك التذوق ، ويدركون معانيه وأهدافه ذلك الإدراك ، ويصنعون به تلك الخوارق التى صنعوها فى أقصر وقت من الزمان .

وتتحدث الآيات عن جولة جديدة فى قضية التوحيد ، لتصوير خطوات الانحراف من التوحيد إلى الشرك فى النفس ، فيذكرهم أنه هو الذى خلق جميع الناس من آدم وأنه خلق منه زوجه حواء . وأنه خلق منهما كل الأزواج ، وأن هؤلاء الأزواج إذا مارسوا ما خلقه الله فيهم وما هيأهم له مما فيه بقاء الجنس أنهم فى شوقهم إلى الولد، وفى حالة رهبهم من مسخه أو خطره، كانوا يطلبون من الله ويعدون الله من أنفسهم الشكر ، فإذا ما أعطاهما الله ما أرادا قابلاه بالشرك، وتعالى الله أن يكون له شريك فى ملكه وسلطانه وفى ألوهيته وربوبيته .

قال القاسمى : « هذه الآية سيقت توبيخا للمشركين فى جنايتهم بالشرك ، ونقضهم ميثاقهم فى جريهم على خلاف ما يعاهدون الله عليه ، وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم به عليهم من الخلق من نفس واحدة ، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن ، ثم إنشائه إياهم بعد الغشيان ، متدرجين فى أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة ، ثم بين إعطاءهم المواثيق إن آتاهم ما يطلبون ، وولد لهم ما يشتهون ليكونن من الشاكرين ، ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم هذه النعم التى امتن سبحانه بها عليهم ، ونقضهم ميثاقهم فى إفراده بالشكر ، حيث أشركوا معه غيره فى ذلك » .

فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ يقول صاحب الظلال : « الأصل فى التقاء الزوجين هو السكن والاستقرار ليظل هذا هو المحضن الأمين ، الذى يخرج منه الجيل البشرى الذى يحمل تراث التمدن البشرى ، ولم يُجعل شقاقًا ونزاعًا بين الاختصاصات والوظائف فلكلٍ من الزوجين مهام حددها الإسلام » .

ويقرر السياق أن الذى يخلق هو الذى يستحق أن يعبد ! وآلهتهم المدعاة ـ كلها ـ لا تخلق شيئًا بل هى تُخلق ! فكيف يشركون بها ؟ كيف يجعلون لها شريكًا مع الله فى نفوسهم وفى أولادهم . وإن الذى يملك أن ينصر عباده بقوته ويحميهم هو الذى ينبغى أن يعبد فالقوة والقهر والسلطان هى خصائص الألوهية وموجبات العبادة والعبودية . وآلهتهم المدعاة ـ كلها ـ لا قوة لها ولا سلطان ، فهم لا يستطيعون نصرهم ، ولا نصر أنفسهم فكيف يجعلون لها شريكاً مع الله فى نفوسهم وفى أولادهم .

يقول صاحب الظلال : « وما علمنا أن العرب فى وثنيتهم كانوا يشركون بآلهة من البشر ـ بمعنى أنهم يعتقدون بألوهيتهم أو يقدمون الشعائر التعبدية لهم ـ إنما كانوا يشركون بأمثال هؤلاء من ناحية أنهم يتلقون منهم الشرائع الاجتماعية والأحكام فى النزاعات ـ أى الحاكمية الأرضية . وأن القرآن يعبر عن هذا بالشرك ، ويسوى بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء ، وهذا هو الاعتبار الإسلامى لهذا اللون من الشرك ، فهو شرك كشرك الاعتقاد والشعائر لا فرق بينه وبينه ، كما اعتبر الذين يتقلبون الشرائع والأحكام من الأحبار والرهبان مشركين ، مع أنهم لم يكونوا يعتقدون بألوهيتهم ولم يكونوا يقدمون لهم الشعائر كذلك ، فكله شرك وخروج عن التوحيد الذى يقوم عليه دين الله ، والذى تعبر عنه شهادة أن لاإله إلا الله » .

ثم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتحدى هؤلاء المشركين بأن تستطيع آلهتهم أن تكيده ، شيئاً ثم أمره أن يعلن أن الله الذى أنزل عليه الكتاب هو يتولاه ويتولى الصالحين .

ويقول صاحب المنار ـ تعليقاً على قوله ـ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ـ والحق الذى لا معدل عنه أن الدعاء هنا هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع الموجه إلى من يعتقد الداعى أن له سلطانا يمكنه أن يجيبه إلى ما طلبه بذاته أو يحمله للرب الخالق على ذلك بحيث يجيب دعاء الداعى لأجله .

يقول الله تعالى : إن الذين تدعونهم من دون الله هم عباد لله أمثالكم فى كونهم مخلوقين لله تعالى خاضعين لسننه فى خلقه ، وإذا كانوا أمثالكم امتنع عقلاً أن تطلبوا منهم ما لا تستطيعون نيله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم لكم فيما يتوقف على التعاون فى اتخاذ الأسباب له ، وإنما يدعى لما وراء الأسباب المشتركة بين الخلق والرب الخالق المسخر للأسباب الذى تخضع لإرادته الأسباب وهو لا يخضع لها ، ولا لإرادة أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها .

وهذه المماثلة إنما تظهر فيمن يدعى عن دون الله تعالى من الملائكة أو الأنبياء أو الصلحاء ، دون ما اتخذ لهم تذكير ا بهم من التماثيل أو القبور أو الأصنام ، وقد صار بعض هذه المذكرات يقصد لذاته ، جهلا بما كانت اتخذت لأجله ، وفى هذه الحالة تدخل فى المماثلة بطريقة تنزيلها منزلة ما وضعت لأجله » .

وفى خاتمة سياق هذه الآيات يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المرزوئين بعقولهم ، المحتقرين لنعم الله تعالى عليهم ، نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء وزعمتم أنهم فيكم شفعاء ، ثم تعانوا على كيدى جميعًا ، وأجمعوا مكركم الخفى لإيقاع الضر بى سريعاً ، فلا تنظرون أى لا تؤخرونى ساعة من نهار ، بعد إحكام المكر الكبّار ، وحكمة مطالبتهم بهذا أن العقائد والتقاليد الموروثة تتغلغل فى أعماق الوجدان ، حتى يتضاءل دونها كل برهان ، ويظل صاحبها مع ظهور الدليل على بطلانها يتوهم أنها تضر وتنفع ، وتقرب من الله وتشفع فطالبهم بأمر عملى يستل هذا الوهم من أعماق قلوبهم ، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء نداء استغاثة واستنجاد لإبطال دعوة الداعى إلى الكفر بها . وإثبات العجز لها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله ـ تعالى ـ هو الضار النافع ولا يملك أحد لنفسه من دون الله نفعًا ولا ضرًا .

٢ ـ خلق الله الجنس البشرى من ذكر وأنثى ، وجعل بينهما الأنس والمودة والرحمة ؛ لينشأ فى ظلهما ورعايتهما النسل الصالح .

٣ ـ الأبوان مسؤولان عن حسن تربية أبنائهما وتنشئتهما على الدين .

٤ ـ التنديد بالشرك والمشركين ، وبيان جهل المشركين وسفههم ؛ إذ يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يجيب ولا ينفع .

٥ ـ أن نعتقد تمام الاعتقاد أنه لا سلطان ولا قوة فوق سلطان الله ، فلا معبود بحق سواه فينبغى أن نفرده بالإخلاص والتوحيد وخالص الاعتقاد .

إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

سجدة

معانى الكلمات :

ينزغنك : يصرفنك .

نزغ : وسوسة أو صارف .

مسهم طائف : أصابتهم وسوسة ما .

لا يقصرون : لا يكفون عن إغوائهم .

اجتبيتها : اخترعتها من عندك .

بالغدو والآصال : فى أوائل النهار وآخره .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نأخذ بالعفو ونأمر بالعرف ونعرض عن الجاهلين .

٢ ـ أن نعلم آداب الاستماع إلى القرآن وتلاوته .

٣ ـ أن نلتزم بأوامر القرآن فى التعامل مع المشركين والجاهلين والمعاندين .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يوجه الله سبحانه رسوله ﷺ أن يتحدى المشركين ويتحدى آلهتهم العاجزة ـ كلها ، ويعلن عن عقيدته الناصعة فى تولى الله ـ وحده ـ له : وقال لهم : ألا يألوا جهدًا فى جمع كيدهم وكيد آلهتهم ؛ بلا إمهال ولا إنظار ! وقالها فى لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذى يرتكن إليه ، ويحتمى به من كيدهم جميعاً ، فأعلن أنه يرتكن إلى الله .. الذى نزل الكتاب ..

ويقول صاحب الظلال معلقاً على هذا التحدى وهذا الإعلان : إنها لكلمة صاحب الدعوة إلى الله ـ بعد رسول الله ﷺ فى كل مكان وفى كل زمان : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ .. ﴿ إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ إنه لابد لصاحب الدعوة أن يتجرد من أسناد الأرض ، وأن يستهين كذلك بأسناد الأرض ؛ إنها فى ذاتها واهية واهنة ، مهما بدت قوية قادرة ... وصاحب الدعوة إلى الله يرتكن إلى الله . فما هذه الأولياء والأسناد الأخرى إذن ؟ وما تساوى فى حسه ؛ حتى لو قدرت على أذاه ، إنما تقدر على أذاه بإذن ربه الذى يتولاه . لا عجزًا من ربه عن حمايته من أذاها ـ سبحانه وتعالى ـ ولا تخلياً منه سبحانه عن نصرة أوليائه .. ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص والتدريب ، واستدراجًا لعباده الطالحين للإعذار والإمهال والكيد المتين ! وعلى ذلك أمثلة كثيرة منها .

إن أبا بكر ﷺ كان يردد ، والمشركون يتناولونه بالأذى ؛ ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه ، حتى تركوه وما يعرف له فم من عين ! كان يردد طوال

هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلت الأرض بعد رسول الله ﷺ : « رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! .... » كان يعرف فى قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه ! لقد كان واثقًا أن ربه لا يعجز عن التدمير على أعدائه ؛ كما كان واثقاً أن ربه لا يتخلى عن أوليائه !

وبعد هذا الإعلان تجىء عدة توجيهات من الله سبحانه إلى أوليائه . رسول الله ﷺ ، والذين آمنوا معه ، وهم بعد فى مكة ، فيدعو صاحب الدعوة إلى السماحة واليسر ، والأمر بالواضح من الخير الذى تعرفه فطرة البشر فى بساطتها ، بغير تعقيد ولا تشديد ، والإعراض عن الجاهلين فلا يؤاخذهم ، ولا يجادلهم ، ولا يحفل بهم .

يقول صاحب الظلال فى أمر الله لرسوله ﷺ أن يأخذ العفو ، ويأمر بالعرف : « خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس فى المعاشرة والصحبة ، ولا تطلب كل أولئك فى المعاملات الشخصية لا فى العقيدة الدينية ولا فى الواجبات الشرعية فليس فى عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضى والتسامح » .

ولكن فى الأخذ والعطاء والصحبة والجوار ، وبذلك تمضى الحياة سهلة لينة ، فالإغضاء عن الضعف البشرى ، والعطف عليه والسماحة معه واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء ورسول الله ﷺ راع وهاد ومعلم ومرب ، فهو أولى الناس بالسماحة واليسر والإغضاء . وكذلك كان رسول الله ﷺ لم يغضب لنفسه قط ، فإذا كان فى دين الله لم يقم لغضبه شىء ! .. وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله ﷺ فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضى سعة الصدر ، وسماحة طبع ، ويسرًا وتيسيرًا فى غير تهاون ولا تفريط فى دين الله .

ويقول القاسمى : بمناسبة هذه الآية أيضا يقول بعض العلماء : إن سر الشريعة فى الطباع والعادات ، هو تأييد المستحسن ومحو المستقبح . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ فإن المعروف ما عرفته الطباع السليمة واستحسنته ، والمنكر ما أنكرته واستقبحته، ذلك لأن غاية الشريعة راحة الخلق على حال ونظام معقولين ، فلا يصح الحكم بتوحيد العادات فى كل البلاد . أ هـ .

فإذا تجاوزوا الحد وأثاروا غضبه بالعناد والصد . ونفخ الشيطان فى هذا الغضب ، فليستعذ بالله ليهدأ ويطمئن ويصبر .

ثم يعرفه طبيعة أولئك الجاهلين ، والوسوسة التى وراءهم والتى تمدهم فى الغى والضلال، ويذكر طرفًا من سلوكهم مع رسول الله ﷺ وطلبهم الخوارق .

والسياق هنا يحكى بعض أقوالهم الدالة على جهلهم بحقيقة الرسالة وطبيعة الرسول فهم يطلبون الآيات ، وإذا لم تأتهم الآية قالوا : لولا ألححت على ربك حتى ينزلها أو هلا فعلتها أنت نفسك ؟ ألست نبيا ؟ ! ، فهم لم يكونوا يدركون طبيعة الرسول ووظيفته ، كذلك لم يكونوا يعرفون أدبه مع ربه ، وأنه يتلقى منه ما يعطيه ، ولا يقدم بين يدى ربه ولا يقترح عليه ، ولا يأتى كذلك الشىء من عند نفسه ، والله يأمره أن يبين لهم أنه ليس بمفتعل للآيات ولا يملك إلا ما يوحيه إليه ربه .

كذلك يؤمر رسول الله ﷺ أن يبين لهم ما فى هذا القرآن الذى جاءهم به، وأنه بصائر تهدى ، ورحمة تفيض لمن يؤمن به ، ويغتنم هذا الخير العميم .

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هذان وصفان وصف الله تعالى آياته وأخصها القرآن ، ففيه أمران جليلان ذا شأن فى الرسالات الإلهية :

أولها : فيه هدى يهدى إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم ، فهو يبين الهدى من الضلالة ، والنور من الظلمات بما اشتمل عليه ، وبدلالته الذاتية ، وبإعجازه ، وبأنه يهدى إلى الطيب من القول ، ويهدى إلى الصراط الحميد .

وثانيهما : إن فيه الرحمة بما اشتمل عليه من شريعة حكيمة تصلح أمور الناس ، وتذهب عنها الفساد ، فهى بما شرعت من النظم فى الأسرة ، ومعاملات بين الناس ، ومنع لأكل أموالهم بينهم بالباطل، وإن هذه الهداية وتلك الرحمة لقوم من شأنهم الإيمان؛ ولذا قال تعالى:﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فوصفهم بالجملة التى يتصدرها الفعل المضارع للدلالة على إيمانهم المستمر ، المتجدد آنابعد آن على وجه الدوام » .

يقول صاحب الظلال : « إن العبادة والذكر عنصر أساسى فى منهج الدين ، إنه منهج حركة واقعية لتغيير الواقع البشرى ، وهذا التغيير يحتاج إلى جهد طويل ، وطاقة صاحب الدعوة محدودة ، ولا قبل له بمواجهة هذه المشقة دون زاده يسمده من ربه » .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى ما أوحاه إليه ربه من القرآن ، يجيء توجيه المؤمنين إلى أدب الاستماع لهذا القرآن ؛ وأدب ذكر الله ؛ مع التنبيه إلى مداومة هذا الذكر ، وعدم الغفلة عنه ، فإن الملائكة الذين لا يخطئون يذكرون ويسبحون ويسجدون ، فما أولى البشر الخطائين ألا يغفلوا عن الذكر والتسبيح والسجود » .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة » قال ابن كثير : تفرد به الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الإسلام دينُ يسرٍ وسماحة يأمر بالتزام الأخلاق الكريمة ومن أرقاها العفو عمن ظلم وإعطاء من حرم ، وصلة من قطع .

٢ ـ وجوب الاستعاذة بالله عند الشعور بالوسوسة أو الغضب أو تزيين الباطل .

٣ ـ فضيلة التقوى هى فعل الفرائض وترك المحرمات .

٤ ـ شؤم أخوة الشياطين حيث لا يقصر صاحبها بمد الشياطين له عن الغى الذى هو الشر والفساد .

٥ ـ عدم التمادى مع الجاهلين السفهاء حتى لا ينتقص قدر الإنسان ، وإنما يعرض عنهم ولا يجاريهم فى سفاهتهم .

٦ ـ ضرورة الإنصات وحسن الاستماع إلى القرآن الكريم من غير أن يحدث ضوضاء ولا تشويشًا مع حضور القلب وتدبر آيات الله ، ودوام ذكر الله ـ تعالى ـ والإخلاص له فى العبادة .

الجزء التاسع — سورة الأنفال

سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله
وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم
مؤمنين (١) إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت
قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم
يتوكلون (٢) الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم
ينفقون (٣) أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند
ربهم ومغفرة ورزق كريم (٤) كما أخرجك ربك
من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون (٥)
يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت
وهم ينظرون (٦) وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها
لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم
ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين
(٧) ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون (٨)

١٧٧

سورة الأنفال

معانى الكلمات :

الأنفال : الغنائم .

لله وللرسول : حكمها مفوض لله ورسوله

وجلت : رقت هيبة .

إحدى الطائفتين : العير (القافلة) أو النصر فى المعركة .

ذات الشوكة : الحرب .

يقطع دابر الكافرين : يستأصلهم عن آخرهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف سبب نزول الآيات ، وحكم الله فى الأنفال .

٢ ـ أن نعرف صفات المؤمنين التى وردت فى الآيات ونتخلق بها .

٣ ـ أن ندرك شروط النصر الواردة فى الآيات ونأخذ بها .

المحتوى التربوى :

تعالج هذه الآيات الأولى من السورة ؛ بيان حكم الله فى الأنفال .. المغانم التى يغنمها المسلمون فى جهادهم فى سبيل الله .. بعد ما ثار بين أهل بدر من الجدال حول تقسيمها ، فردهم الله إلى حكمه فيها ؛ كما ردهم إلى تقواه وطاعته وطاعة رسوله ؛ واستجاش فى قلوبهم وجدان الإيمان والتقوى ، ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا لأنفسهم من العير والغنيمة ، وما أراده الله لهم من النصر والعزة .

قال ابن كثير فى التفسير : روى أبو داود والنسائى وابن جرير وابن مردويه ـ واللفظ له ـ وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا » فتسارع فى ذلك شبان القوم وبقى الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغانم جاؤوا يطلبون الذى جُعل لهم ، فقال الشيوخ : لا

تستأثروا علينا ، فإنا كنا ردءًا لكم ، لو انكشفتم لفئتم إلينا . فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ .. إلى قوله : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « ولقد يدهش الإنسان حين يرى أهل بدر يتكلمون فى الغنائم ؛ وهم إما من المهاجرين السابقين الذين تركوا وراءهم كل شىء ، وهاجروا إلى الله بعقيدتهم ، لا يلوون على شىء من أعراض هذه الحياة الدنيا ؛ وإما من الأنصار الذين آووا المهاجرين ، وشاركوهم ديارهم وأموالهم ، لا يبخلون بشىء من أعراض هذه الحياة الدنيا أو كما قال فيهم ربهم : ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر : ٩) .

لقد كانت الأنفال مرتبطة فى الوقت ذاته بحسن البلاء فى المعركة ؛ وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء ؛ وكان الناس ـ يومئذ ـ حريصين على هذه الشهادة من رسول الله ﷺ ومن الله سبحانه وتعالى ، فى أول وقعة يشفى فيها صدورهم من المشركين ، ولقد غطى هذا الحرص وغلب على أمر آخر نسيه من تكلموا فى الأنفال حتى ذكرهم الله به، وردهم إليه .. ذلك هو ضرورة السماحة فيما بينهم فى التعامل ، والصلاح بين قلوبهم فى المشاعر ؛ حتى أحسوا ذلك فى مثل ما قاله عبادة بن الصامت ﷺ : « فينا أصحاب بدر ـ نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله ﷺ .. » .

ولقد أخذهم الله سبحانه بالتربية الربانية قولاً وعملاً ونزع أمر الأنفال كله منهم ورده إلى رسول الله ﷺ حتى أنزل حكمه فى قسمة الغنائم بجملتها ، فلم يعد الأمر حقاً لهم يتنازعون عليه ؛ إنما أصبح فضلاً من الله عليهم ، يقسمه رسول الله بينهم كما علمه ربه .

لقد كان الهتاف لهذه القلوب التى تنازعت على الأنفال ، هو الهتاف بتقوى الله . وسبحان خالق القلوب العليم بأسرار القلوب .. إنه لا يرد القلب البشرى عن الشعور بأعراض الحياة الدنيا ، والنزاع عليها ـ وإن كان هذا النزاع متلبسًا هنا بمعنى الشهادة بحسن البلاء إلا استجاشة الشعور بتقوى الله وخوفه وتلمس رضاه فى الدنيا والآخرة . إن قلبًا لا يتعلق بالله يخشى غضبه ويتلمس رضاه،لا يملك أن يتخلص من ثقلة الأعراض ،ولا يملك أن يرف شاعراً بالانطلاق !

إن التقوى زمام هذه القلوب الذى يمكن أن تُقاد منه طائعة ذلولة فى يسر وفى هوادة .. وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينها . وبهذا الزمام يقودها إلى طاعة الله ورسوله وأول الطاعة هنا طاعته فى حكمه الذى قضاه فى الأنفال ، وهذه هى الترجمة الحقيقية للإيمان ، فلابد للإيمان من صورة عملية واقعية يتجلى فيها ، يثبت وجوده .

وهؤلاء المؤمنون لهم صفات كما ذكرت الآيات وكان السلف يعرفون من هذه الآيات أن من لم يجد فى نفسه وعمله هذه الصفات لم يجد الإيمان ، ولم يكن مؤمناً أصلاً .

جاء فى تفسير ابن كثير : قال على بن طلحة عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ « قال : المنافقون : لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا (أى عن أعين الناس) ولا يؤدون زكاة أموالهم . فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين . ثم وصف الله المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه . ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ يقول : زادتهم تصديقاً ، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يقول : لا يرجون غيره .

يقول صاحب الظلال : « والقلب المؤمن يجد فى آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً ، وما ينتهى به إلى الاطمئنان .. إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشرى بلا وساطة ، ولا يحول بينه وبينه شىء إلا الكفر الذى يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه ؛ فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن ، ووجد فى إيقاعاته المتكرره زيادة فى الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان .. وكما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيده إيمانًا ، فإن القلب المؤمن هو الذى يدرك هذه الإيقاعات التى تزيده إيماناً .. لذلك يتكرر فى القرآن تقرير هذه الحقيقة فى أمثال قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (الحجر) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الروم : ٣٧) » ومن ذلك قول أحد الصحابة ـ رضوان الله عليهم : كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن .. » .

فى الحكمة من فرضية القتال **يقول صاحب الأساس** : « الحق لايثبت بلا قتال ، والباطل لا يضمحل بلا قتال ، والكافرون لا يستأصلون إلا بجهاد ، وإذا كان الأمر كذلك فالخير كل الخير فى القتال ، والشر كل الشر فى النكوص عما فرضه الله من جهاد » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ للنصر بريقه ومسؤولياته ، والأمة المجاهدة تنهض بهذه المسؤوليات ، ولا تنخدع ببريق النصر .

٢ ـ من واجب من يحرصون على المغانم أن يسارعوا إلى العمل والكفاح ، وليعلموا أن تقوى الله وإصلاح ذات البين مقدم على كل شىء .

٣ ـ المؤمنون حقًا لا تستعبدهم المطامع المادية ، ولا يثيرون الفتن ، ويحسنون الصلة بالله ، ويقدمون خير الجماعة ومصلحتها على خير أنفسهم ومصلحتها ، ويؤدون ما عليهم من حقوق الله والمجتمع .

٤ ـ الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى.

٥ ـ القرآن كتاب هداية أنزله الله ليربى به النفوس ويقوى به العزائم ويمحصها من كل ضعف أو هوان .

الجزء التاسع — سورة الأنفال

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

١٧٨

معانى الكلمات :

تستغيثوا ربكم : تطلبون منه النجدة .

مردفين : يتبع بعضهم بعضًا .

رجز الشيطان : وسوسته بالخوف .

يربط على قلوبكم : يقويها باليقين .

فاضربوا فوق الأعناق : اضربوهم فى مواطن القتل من الرقاب .

كل بنان : الأطراف .

شاقوا : خالفوا وعصوا .

متحرفاً : مظهراً للفرار خدعة للعدو ليتمكن منهم .

متحيزاً : منضماً إلى مجموعة ليقاتل العدو .

مأواه : مصيره .

بئس المصير : ذم شديد لهذه النهاية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أهمية الدعاء إلى الله وقت الرخاء والشدة والإلحاح منه فهو مخ العبادة .

٢ ـ أن نعتقد ونثق أن النصر بيد الله . والله ينصر من ينصره .

٣ ـ أن نعتقد أن الجهاد هو السبيل للعزة والكرامة فى الدنيا والآخرة وعلينا أن نعدَّ له عدته .

٤ ـ أن نعرف حكم الفرار من مواجهة الأعداء فى المعركة .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يمضى السياق فى استحضار جو المعركة وملابساتها ومواقفها ، حيث يتجلى كيف كانت حالهم ، وكيف دبر الله لهم ، وكيف كان النصر وليد تدبير الله أصلاً .. والتعبير القرآنى الفريد يعيد تمثيل الموقف بمشاهده وحوادثه وانفعالاته ، ليعيشوه مرة أخرى .. ليروا أبعاده الحقيقية حيث تشعر العصبة المسلمة بقيمتها فى ميزان الله ، وقيمة أقدارها وأعمالها وحركتها بهذا الدين ومقامها الأعلى .

فأما قصة الاستغاثة فلقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون ، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين .

ويقول صاحب الظلال : ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين فى ميزان الله ؛ إلا أن الله سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سببًا ينشىء نتيجة ، إنما يرد الأمر كله إليه ـ سبحانه ـ تصحيحاً لعقيدة المسلم وتصوره فهذه الاستجابة ، وهذا المدد ، وهذا الإخبار به ..

كل ذلك لم يكن إلا بشرى ، ولتطمئن به القلوب . أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ولا يكون .. هذه هى الحقيقة الاعتقادية التى يقررها السياق القرآنى هنا ، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلاً ..

لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا ما فى طوقهم فلا يستبقوا منه بقية ؛ وأن يغالبوا الهزة الأولى التى أصابت بعضهم فى مواجهة الخطر الواقعى ، وأن يمضوا فى طاعة أمر الله ، واثقين بنصر الله .. كان حسبهم هذا لينتهى دورهم ويجيء دور القدرة التى تصرفهم وتدبرهم ..وما عدا هذا فكان بشارة مطمئنة ، وتثبيتًا للقلوب فى مراجعة الخطر الواقعى .. وإنه لحسب العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت فى المعركة .

ثم يجيء النصر من عند الله وحده . حيث لا يملك النصر غيره . وهو « العزيز » القادر الغالب على أمره . وهو « الحكيم » الذى يحل كل أمر محله .

أما قصة النعاس الذى غشى المسلمين قبل المعركة ، فهى قصة حالة نفسية عجيبة ، لا تكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة فى مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه ولم يتخذوا له عدته ، فإذا النعاس يغشاهم ، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم ؛ والطمأنينة تفيض على قلوبهم .

وأما قصة الماء فهى قصة مدد آخر من أمداد الله للعصبة المسلمة ، قبيل المعركة ، فلقد أمطر الله عليهم مطرًا شديدًا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم وأمد الله نبيه ﷺ بألف من الملائكة ، فكان جبريل فى خمسمائة مجنبة ، وميكائيل فى خمسمائة مجنبة » .. ولقد كان ذلك قبل أن ينفذ رسول الله ﷺ ما أشار به الحباب بن المنذر من النزول على ماء بدر ، وتغوير ما وراءها من القُلُب .

ويتم المدد الروحى بالمدد المادى ، وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطهارة ؛ وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال : ذلك إلى ما أوحى الله به إلى الملائكة من تثبيت الذين آمنوا ؛ وإلى ما وعد به من إلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا ؛ إلى ما أمر به الملائكة من الاشتراك الفعلى فى المعركة .

وفى نهاية هذا الاستعراض ، يجيء التقرير الموضح لما وراء المعركة كلها . وراء النصر فيها والهزيمة .

ويقول صاحب الظلال : « إنها ليست فلتة عارضة ، ولا مصادفة عابرة ، أن ينصر الله العصبة المسلمة ، وأن يسلط على أعدائها الرعب والملائكة مع العصبة المسلمة إنما ذلك ؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله ، فاتخذوا لهم شقًا غير شق الله ورسوله ، ووقفوا موقف الخلف والمشاقة هذا، يصدون عن سبيل الله ، ويحولون دون منهج الله للحياة .

وفى نهاية المشهد يتوجه بالخطاب إلى أولئك الذين شاقوا الله ورسوله .. إن هذا الذى حل بكم فى الدنيا من الرعب والهزيمة ليس نهاية المطاف ، فنهاية الأمر هو العذاب الذى لا يقاس إلى ما ذقتم من الرعب والهزيمة ومن الضرب فوق الأعناق ومن ضرب كل بنان !

والآن .. وبعد أن أعاد عليهم مشاهد الغزوة كاملة ، وأراهم يد الله فيها وتدبيره وعونه ومدده ، وعلموا منها أنهم لم يكونوا فيها سوى ستارًا لقدر الله وقدرته . الآن يجيء الأمر للذين آمنوا ـ بصفتهم هذه ـ أن يثبتوا إذا لقوا الذين كفروا ؛ وألا يولوهم الأدبار من الهزيمة والفرار ، ما دام النصر والهزيمة موكولين إلى إرادة فوق إرادة الناس وإلى أسباب غير الأسباب الظاهرة التى يراها الناس .

وما دام أن الله هو الذى يدبر أمر المعركة ـ كما يدبر الأمر كله ـ وهو الذى يقتل الكافرين بأيدى المؤمنين ؛ وهو الذى ينجح الرمية حين ترمى ـ وإنما المؤمنون ستار للقدرة يريد الله أن يجعل لهم ثواب الجهاد والبلاء فيه ـ وهو الذى يلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ويوهن تدبيرهم ويذيقهم العذاب فى الدنيا والآخرة ؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله .

ويقول صاحب الظلال : « وقد وردت بعض الأقوال فى اعتبار هذا الحكم خاصاً بأهل بدر ، أو بالقتال الذى يكون الرسول ﷺ حاضره .. ولكن الجمهور على أنها عامة ، وأن التولى يوم الزحف كبيرة من السبع الموبقات كما روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات .... ـ ذكر منهن ـ التولى يوم الزحف ، ... ... الحديث » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ اللجوء إلى الله ـ تعالى ـ فى الشدائد والإلحاح فى الدعاء ، فإن يحب أن يسمع صوت عبده بالدعاء ولا يعجل بعجلة أحدكم .

٢ ـ لله ـ تعالى ـ جنود لا يعلمها إلا هو ، والنصر بيده وحده ؛ فعلى الدعاة ، أن يكونوا مع الله بإيمانهم وعملهم ، وثقتهم به ، ليكون معهم ، يؤيدهم بنصره ويعزهم بعزته .

٣ ـ فى الجهاد حياة الأمة وعزتها ، فمن واجب الأمة أن تحرص عليه ، وأن تأخذ بأسبابه ، وأن تجيب داعى الدين والوطن إذا دعاها لما يحييها من المسارعة إليه ، والصبر على مكارهه .

٤ ـ الفرار من مواجهة الأعداء فى المعركة ، خوفًا من الموت ، جبن لا يليق بالمسلم ، ومن الموبقات التى أمر الله أن نجتنبها .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ
وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ
تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

ربع الحزب ١٨

١٧٩

معانى الكلمات :

ليبلى المؤمنين : لينعم عليهم بالنصر والأجر .

موهن : مُضعف .

كيد الكافرين : حِيَلهم

تستفتحوا : تطلبوا النصر لأهدى الفئتين .

فئتكم : جماعتكم .

ولا تتولوا عنه : ولا تتراجعوا عن طاعة الرسول ونصرته .

الصم:الذين أصموا آذانهم عن سماع الحق.

البكم : الذين لا ينطقون بالحق .

فتنة : ذنبًا شديدًا كتفريق الكلمة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نفقه موازين النصر والغلبة فى ضوء سنن الله الجارية من الآيات .

٢ ـ أن نعلم أن طاعة الله ورسوله سبيلنا إلى العزة والسيادة فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ أن نستجيب لله ولرسوله فيما يدعونا إليه وندعو الناس إلى ذلك .

٤ ـ أن نعرف أهمية وضرورة الأمر بالمعروف والنهى من المنكر .

المحتوى التربوى :

بعد أن حذر الله من التولى يوم الزحف ، يمضى السياق ليكشف لهم عن يد الله وهى تدير المعركة من ورائهم ، وتقتل لهم أعداءهم ، وترمى لهم وتصيب .. وهم ينالون أجر البلاء ؛ لأن الله يريد أن يتفضل عليهم بحسن البلاء ، ليثيبهم عليه من فضله وهو الذى وهبهم إياه .

وتذهب الروايات المأثورة إلى تفسير الرمى هنا بأنه رمية الحصى التى حثاها رسول الله ﷺ فى وجوه الكفار ، وهو يقول : « شاهت الوجوه . شاهت الوجوه » فأصابت المشركين ممن كتب

عليهم القتل فى علم الله .. ولكن دلالة الآية أعم . فهى تمثل تدبير الله للأمر كله من وراء الحركة الظاهرة للنبى ﷺ والعصبة المسلمة معه ؛ ولذلك تلاها قول الله تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ : أى ليرزقهم من عنده أن يبلوا البلاء الحسن الذى ينالون عليه الأجر ، بعد أن يكتب لهم به النصر ، فهو الفضل المضاعف أولًا وأخيرًا .

ويتصل السياق هنا بكل ملابسات المعركة .. فإذا كان الله هو الذى قتل المشركين ، وهو الذى رماهم ، وهو الذى أبلى المؤمنين فيها ذلك البلاء الحسن، وهو الذى أوهن كيد الكافرين .. فما النزاع والاختلاف إذن فى الأنفال ، والمعركة كلها أديرت بتدبير الله وتقديره ، وليس لهم فيها إلا أن كانوا ستارًا لهذا التدبير والتقدير ؟ !

ويتجه الخطاب إلى الكافرين ، أولئك الذين استفتحوا قبيل المعركة ، فدعوا الله أن يجعل الدائرة على أضل الفريقين وآتاهما بما لا يُعرف وأقطعهما للرحم ـ كما كان دعاء أبى جهل وهو استفتاحه : أى طلبه الفتح من الله والفصل ـ فدارت الدائرة على المشركين !

ثم يرغبهم الله فى الانتهاء عما هم فيه من الشرك والكفر والحرب للمسلمين ، والمشاقة لله ورسوله ومع الترغيب والترهيب ﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ ﴾ والعاقبة معروفة ، لا يغيرها تجمع ولا تبدلها كثرة ، وماذا تفعل الكثرة إذا كان الله فى جانب المؤمنين .

والمعركة على هذا النحو لن تكون متكافئة أبداً ؛ لأن المؤمنين ـ ومعهم الله عز وجل ـ سيكونون فى صف ؛ والكفار ـ وليس معهم إلا ناس من البشر من أمثالهم ـ سيكونون فى الصف الآخر ، والمعركة على هذا النحو مقررة المصير !

ثم يعود السياق إلى الهتاف للذين آمنوا ـ بعد أن ذكرهم أن الله معهم .. يعود إليهم ليهتف بهم إلى طاعة الله ورسوله ، ويحذرهم التولى عنه ، والتشبه بأولئك الذين يسمعون آيات الله تُتلى عليهم فكأنهم لم يسمعوها .. أولئك الصم البكم وإن كانت لهم آذان تسمع الأصوات ، وألسنة تنطلق بالكلمات أولئك الذين هم شر الدواب التى تدب على هذه الأرض ؛ لأنهم لا يهتدون بما يسمعون .

ومرة أخرى يتكرر الهتاف للذين آمنوا . الهتاف بهم ليستجيبوا لله والرسول ، مع الترغيب فى الاستجابة والترهيب من الإعراض ، والتذكير بنعمة الله عليهم حين استجابوا لله وللرسول .

فرسول الله ﷺ إنما يدعوهم إلى ما يحييهم .. إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة وبكل معانيها فهو يدعوهم إلى عقيدة تحيى القلوب والعقول وتطلقها من الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة ، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات سواء .

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله ، تعلن تحرر الإنسان وتكريمه بصدورها عن الله وحده ؛ ويدعوهم إلى منهج للحياة وللفكر وللتصور ، ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم ، والثقة بدينهم وبربهم ، ويدعوهم إلى الجهاد فى سبيل الله ، لتقرير ألوهية الله ـ سبحانه ـ فى الأرض ، وفى حياة الناس ، ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله ـ سبحانه ـ وحاكميته وسلطانه ؛ حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده ؛ وعندئذ يكون الدين كله لله ، حتى إذا أصابهم الموت فى هذا الجهاد كان لهم فى الشهادة حياة .

ذلك مجمل ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ وهو دعوة إلى الحياة بكل معانى الحياة ؛ ثم يحذرهم القعود عن الجهاد ، وعن تلبية دعوة الحياة ، والتراخى فى تغيير المنكر فى أية صورة كان .

ويقول صاحب الظلال : « وأظلم الظلم نبذ شريعة الله ومنهجه للحياة ولا تقف فى وجه الظالمين ؛ ولا تأخذ الطريق على المفسدين .. جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين .. فالإسلام منهج تكافلى إيجابى لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد والمنكر يشيع (فضلا على أن يروا دين الله لا يتبع ، بل أن يروا ألوهية الله تنكر وتقوم ألوهية العبيد مقامها !) وهم ساكتون . ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة ؛ لأنهم هم فى ذاتهم صالحون طيبون !

قال القاسمى : روى الإمام أحمد عن جرير أن رسول الله ﷺ قال : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى هم أعز وأكثر مما يعملون ، ثم لم يغيّروه ، إلا عمهم الله بعقاب » ؛ وعن ابن عباس . « أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم ، فيعمهم الله بالعذاب » ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أى : لمن يخالف أوامره .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ النصر من عند الله ينعم به على المؤمنين ليضعف به كيد الكافرين ، ولا يمنع ذلك من الأخذ بالأسباب .

٢ ـ طاعة الله ورسوله سبيل المؤمنين إلى العزة والسيادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة .

٣ ـ على الدعاة أن يحذروا أن يحول الله بينهم وبين قلوبهم إن هم قصروا فى الأخذ بكتاب الله عز وجل ، والاستجابه لمنهجة وتشريعه بإقرار حكمه وشرعه وجهاد أعدائه .

٤ ـ وجوب وضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ لأن العذاب يصيب الذين ظلموا والذين لم يظلموا ؛ لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه ، والذى لم يظلم يهلك لعدم منعه الظالم عن ظلمه ، ولسكوته على الباطل حتى يصيبه شره .

الجزء التاسع — سورة الأنفال

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
(٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا
اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ
أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)

١٨٠

معانى الكلمات :

الناس : الكفار

آواكم : حماكم .

لا تخونوا الله والرسول : بالتظاهر بالطاعة، وإخفاء المعصية .

فتنة : ابتلاء ومحنة .

فرقاناً : نورًا وهداية .

ليثبتوك : يقيدوك ويحبسوك .

يمكرون : يدبرون لك المكائد .

ويمكر الله : يعاملهم معاملة الماكرين ، ويبطل كيدهم .

أساطير الأولين : أقاصيص وأكاذيب السابقين فى كتبهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحذر فتنة الأموال والأولاد فإن مهلكة .

٢ ـ أن نحذر خيانة الأمانة ، لسوء عاقبتها فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ أن نعرف فضل الاستغفار ونحرص عليه دائماً .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يذكر القرآن العصبة المسلمة ـ التى كانت تخاطب بهذا القرآن أول مرة ـ بما كان من ضعفها وقلة عددها ، وبما كان من الأذى الذى ينالها ، والخوف الذى يظللها . وكيف آواها الله بدينه هذا وأعزها ورزقها رزقًا طيبًا .. فلا تقعد إذن عن الحياة التى يدعو إليها رسول الله . ولا عن تكاليف هذه الحياة ، التى أعزها بها الله ، وأعطاها وحماها .

يقول القرآن لهذه الفئة : اذكروا هذا لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحييكم ، واذكروه كى لا تقعدوا عن مكافحة الظلم فى كل صوره وأشكاله . اذكروا أيام الضعف والخوف ، قبل أن يوجهكم الله إلى قتال المشركين ، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة فأنتم

كارهون .. ثم انظروا كيف صرتم بعد الدعوة المحيية التى انقلبتم بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين . يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم لشكره فتؤجروا على شكركم لفضله !

ثم يتكرر الهتاف مرة أخرى للذين آمنوا ـ إن الأموال والأولاد قد تقعد الناس عن الاستجابة خوفاً وبخلاً والحياة التى يدعوكم إليها الرسول ﷺ حياة كريمة ، لابد لها من تكاليف ، ولابد لها من تضحيات . لذلك يعالج ؛ لذلك يعالج القرآن هذا الحرص بالتنبيه إلى فتنة الأموال والأولاد ـ فهى موضع ابتلاء واختبار وامتحان ـ وبالتحذير من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان ؛ ومن التخلف عن دعوة الجهاد ؛ وعن التكاليف المنبثقة من الأمانة والعهد والبيعة . واعتبار هذا التخلف خيانة لله والرسول ، وخيانة للأمانات التى تضطلع بها الأمة المسلمة فى الأرض ، وهى إعلاء كلمة الله وتقرير ألوهيته وحده للعباد ، والوصاية على البشرية بالحق والعدل .

ومع هذا التحذير التذكير بما عند الله من أجر عظيم يرجح الأموال والأولاد ، التى قد تُقعد الناس عن التضحية والجهاد .

يقول صاحب الظلال : كذلك يحذر الله ـ العصبة المسلمة التى آمنت به وأعلنت هذا الإيمان ـ يحذر خيانة الأمانة التى حملتها يوم بايعت رسول الله ﷺ على الإسلام، فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان ، وليس مجرد عبارات وأدعيات . إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاكل ، إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله ؛ وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق ؛ ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته ، ورد الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء؛ وتأمين الحق والعدل للناس جميعًا ؛ وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت ؛ وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله .. وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها ، وخاس بعهده الذى عاهد الله عليه ، ونقض بيعته التى بايع بها رسوله » .

ويأتى الهتاف الأخير للذين آمنوا ـ فى هذا المقطع من السورة ـ هو الهتاف بالتقوى ، فما تنهض القلوب بهذه الأعباء الثقال ، إلا وهى على بينة من أمرها ونور يكشف الشبهات ويزيل الوساوس ، ويثبت الأقدام على الطريق الشائك الطويل . وما يكون لها هذا الفرقان إلا بحساسية التقوى وإلا بنور الله . هذا هو زاد القلوب وزاد المغفرة للخطايا والزاد المطمئن الذى يسكب الهدوء والقرار وزاد الأمل فى فضل الله العظيم ، يوم تنفد الأزواد وتقصر الأعمال .

ويمضى السياق يصور موقف المشركين وهم يبيتون لرسول الله ﷺ قبيل الهجرة ويتآمرون . وهم يُعرضون عما معه من الآيات ويزعمون أنهم قادرون على الإتيان بمثلها لو يشاؤون ! وهم يعاندون ويلج بهم العناد حتى ليستعجلون العذاب ـ إن كان هذا هو الحق من عند الله ـ بدلاً من أن يفيئوا إليه ويهتدوا به !

ثم يمضى السياق يصف العجب العجاب من عناد المشركين فى وجه الحق الذى يغالبهم فيغلبهم ، فإذا الكبرياء يصدهم عن الاستسلام له والإذعان لسلطانه ، وإذا بهم يتمنون على الله - إن كان هذا هو الحق من عنده - أن يمطر عليهم حجارة من السماء ، أو أن يأتيهم بعذاب أليم . بدلاً من أن يسألوا الله أن يرزقهم اتباع هذا الحق والوقوف فى صفه .

وهو دعاء غريب ؛ يصور حالة من العناد الجامح الذى يؤثر الهلاك على الإذعان للحق، حتى ولو كان حقاً ؛ ويعلق صاحب الظلال - رحمه الله - قائلاً : إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق ، وأن يهديها إليه ، دون أن تجد فى هذا غضاضة . ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة ، تأخذها العزة بالإثم ، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب ، على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحًا لا ريب فيه .. وبمثل هذا العناد كان المشركون فى مكة يواجهون دعوة رسول الله ﷺ ولكن هذه الدعوة هى التى انتصرت فى النهاية فى وجه هذا العناد الجامح الشموس !

ويعقب السياق على هذا العناد ، وعلى هذا الادعاء ، بأنهم مع استحقاقهم لإمطار الحجارة عليهم من السماء وللعذاب الأليم الذى طلبوه - إن كان هذا هو الحق من عنده - وإنه للحق . مع هذا فإن الله قد أمسك عنهم عذاب الاستئصال الذى أخذ به المكذبين قبلهم ؛ لأن رسول الله ﷺ بينهم ، ولا يزال يدعوهم إلى الهدى . والله لا يعذبهم عذاب الاستئصال والرسول فيهم . كما أنه لا يعذبهم هذا العذاب على معاصيهم إذا كانوا يستغفرون منها ؛ وليس تأخير العذاب عنهم لمجرد أنهم أهل هذا البيت فهم ليسوا بأولياء هذا البيت إنما أولياؤه المتقون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ - الهجرة درس خالد للتخطيط ، واليقظة ، والصبر ، واحتمال الآلام فى سبيل القيم والمثل الكريمة .

٢ - الأموال والأولاد فتنة يجب الحذر منها ، بل وتوجيهها لخدمة الإسلام .

٣ - من ثمرات التقوى تكفير السيئات وغفران الذنوب ، والفرقان وهو نور فى القلب يفرق به المؤمن بين الأمور المتشابهات والتى خفى فيها وجه الحق والخير .

٤ - تحريم الخيانة مطلقاً وأسوؤها ما كان خيانة لله ولرسوله .

٥ - التذكير بنعم الله تعالى على العبد ليجد العبد فى نفسه داعية الشكر فيشكر .

٦ - فضيلة الاستغفار وأنه ينجى من عذاب الدنيا والآخرة .

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ
فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ
كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ
انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

معانى الكلمات :

يصدون عن المسجد الحرام : يمنعون المسلمين من زيارته .

مكاء : صفير .

تصدية : تصفيقًا .

ليميز : يفرق .

يركمه جميعًا : يجمعه ملقى بعضه على بعض .

ما قد سلف : ما قد مضى من الذنوب .

مضت سنة الأولين : عادة الله وعقابه للمكذبين .

فتنة : شرك وبلاء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أهمية التوبة ونتعهد أنفسنا بها دائماً بشروطها الشرعية .

٢ ـ أن نتعظ من عاقبة الكافرين الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله .

٣ ـ أن نعلم أن الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة ونُعدَّ له عدته .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات ـ وبعد أن ضمن لهم السلامة من العذاب ماداموا يستغفرون ، إلا أنه لا يمنع العذاب عنه ما يدعونه من أنهم ورثة إبراهيم وسدنة بيت الله الحرام ، فهذه ليست سوى دعوة لا أساس لها من الواقع ، إنهم ليسوا أولياء هذا البيت ولا أصحابه ، إنهم أعداء هذا البيت وغاصبوه ! إن بيت الله ليس تركة يرثها الخلف عن السلف ، إنه بيت الله يرثه أولياء الله المتقون لله ، ومثله دعواهم أنهم ورثة إبراهيم عليه السلام الذى بناه لله ، فإذا هم يصدون عنه أولياءه الحقيقيين المؤمنين بدين إبراهيم ! .

إنهم ليسوا أولياء لهذا البيت ، وإن كانوا يصلون عنده صلاتهم ، فما هذه بصلاة ! إنما كانت صفيرًا بالأفواه وتصفيقًا بالأيدى ، وهرجًا ومرجًا لا وقار فيه ، ولا استشعارًا ـ لحرمة البيت ، ولا خشوع لهيبة الله .

ليس هذا فحسب ، بل إن الكفار ينفقون أموالهم ليتعاونوا على الصد عن سبيل الله ، هكذا فعلوا يوم بدر ، وهكذا ظلوا بعد بدر يستعدون للوقعة التالية ، والله ينذرهم بالخيبة فيما يبغون وبالحسرة على ما ينفقون ، ويعدهم الهزيمة فى الدنيا وعذاب جهنم فى الآخرة .

ويقول صاحب الظلال : وليس هذا الذى حدث قبل بدر وبعدها إلا نموذجًا من الأسلوب التقليدى لأعداء هذا الدين ، إنهم ينفقون أموالهم ، ويبذلون جهودهم ، ويستنفدون كيدهم ، فى الصد عن سبيل الله ، وفى إقامة العقبات فى وجه هذا الدين ، وفى حرب العصبة المسلمة فى كل أرض وفى كل حين .

إن المعركة لن تكف . وأعداء هذا الدين لن يدعوه فى راحة . ولن يتركوا أولياء هذا الدين فى أمن ، وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية ، وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم قدرة الجاهلية على العدوان ؛ ثم الإعلاء راية الله حتى لا يجرؤ عليها الطاغوت .

والله ـ سبحانه ـ ينذر الكفار الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله بأنها ستعود عليهم بالحسرة ، إنهم سينفقونها لتضيع فى النهاية ، وليغلبوا هم وينتصر الحق فى هذه الدنيا ، وسيحشرون فى الآخرة إلى جهنم ، فتتم الحسرة الكبرى .

ويقول صاحب الظلال : إن هذا المال الذى ينفق يؤلب الباطل ويملى له فى العدوان ؛ فيقابله الحق بالكفاح والجهاد ، وبالحركة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة ، وفى هذا الاحتكاك المرير ، تنكشف الطباع ، ويتميز الحق من الباطل ، ويظهر الصامدون الصابرون المثابرون الذين يستحقون نصر الله ، لأنهم أهل لحمل أمانته ، والقيام عليها ، وعدم التفريط فيها تحت ضغط الفتنة والمحنة، عند ذلك يجمع الله الخبيث على الخبيث، فيلقى به فى جهنم، وتلك غاية الخسران .

وعندما يصل السياق إلى هذا التقرير الحاسم ، عن مصير الكفر المتعاون ، ونهاية الخبث المتراكم ، ويتجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ لينذر الكافرين إنذاره الأخير ، ويتجه بالخطاب كذلك إلى الفئة المسلمة يأمرها بالقتال حتى لا تكون فى الأرض فتنة،وحتى يكون الدين كله لله ، ويطمئن الفئة المؤمنة المجاهدة إلى أن الله مولاها ونصيرها ، فلا غالب لها من الناس بحرب ولا بكيد ، والله وليها الناصر المعين .

وفى الإنذار الأخير للذين كفروا يتيح الله ـ عز وجل ـ لهم الفرصة لينتهوا عما هم فيه من الكفر ، ومن التجمع لحرب الإسلام وأهله ، ومن إنفاق الأموال للصد عن سبيل الله ، والطريق أمامهم مفتوح ليتوبوا عن هذا كله ويرجعوا إلى الله ، ولهم عندئذ أن يغفر لهم ما قد سلف فالإسلام يجبُّ ما قبله ، ويدخله الإنسان بريئاً من كل ما كان قبله كما ولدته أمه .

فأما إن هم عادوا ـ بعد هذا البيان ـ إلى ما هم فيه من الكفر والعدوان ، فإن سنة الله فى الأولين لا تتخلف ، ولقد مضت سنة الله أن يعذب المكذبين بعد التبليغ والتبيين ؛ وأن يرزق أولياءه النصر والعز والتمكين وهذه السنة ماضية لا تتخلف ، وللذين كفروا أن يختاروا وهم على مفرق الطريق !

وبذلك ينتهى الحديث مع الذين كفروا ويتجه السياق إلى الذين آمنوا : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ ... الآية ؛ وهذه حدود الجهاد فى سبيل الله فى كل زمان، لا فى ذلك الزمان ،ومع أن النصوص المتعلقة بالجهاد فى هذه السورة، وبقوانين الحرب والسلام، ليست هى النصوص النهائية ، فقد نزلت النصوص الأخيرة فى هذا الباب فى سورة براءة التى نزلت فى السنة التاسعة .

ولكى يكون الدين كله لله ، **يقول صاحب الظلال** : ولابد لتحقيق هذا الهدف الضخم من أمرين أساسيين :

أولهما : دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين ، ويعلنون تحررهم من حاكمية الإنسان ، ويرجعون بعبوديتهم لله وحده ، ويخرجون من العبودية للعبيد فى جميع الصور والأشكال، وهذا لا يتم إلا بوجود عصبة مؤمنة ذات تجمع حركى تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام ، وتنفذه فى عالم الواقع ، وتجاهد كل طاغوت يعتدى بالأذى والفتنة على معتنقى هذا الدين .

ثانيهما : تحطيم كل قوة فى الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر ـ فى صورة من الصور ، وذلك لضمان الهدف الأول ، ولإعلان ألوهية الله وحدها فى الأرض كلها ، بحيث لا تكون هناك دينونة إلا لله وحده ـ فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان الله ـ وليس مجرد الاعتقاد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ باب التوبة مفتوح حتى أمام الكافرين إن هم رجعوا عن كفرهم وضلالهم ، وعدوانهم للرسل قبل الله توبتهم .

٢ ـ كل من حارب الله وعادى رسوله ، فإن عاقبته هى عاقبة الأمم السابقة التى أصابها الهلاك بسبب كفرها وإثمها .

٣ ـ إذا كان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فلينفق الذين آمنوا أموالهم ليهدوا الناس إلى سبيل الله حتى لا تكون أموالهم حسرة عليهم مثل الكافرين .

٤ ـ الجهاد فى سبيل فريضة ماضية ليوم القيامة لدفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين ، ولتحطيم كل قوة فى الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر .

واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول
ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن
كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان
يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴿٤١﴾ إذ
أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب
أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد
ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك من
هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله
لسميع عليم ﴿٤٢﴾ إذ يريكهم الله في منامك قليلا
ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر
ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ﴿٤٣﴾ وإذ
يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم
في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله
ترجع الأمور ﴿٤٤﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة
فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴿٤٥﴾

معانى الكلمات :

ابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله .

يوم الفرقان : يوم بدر .

الجمعان : المسلمون والكفار .

بالعدوة الدنيا : بجانب الوادى الأقرب للمدينة .

العدوة القصوى : البعيدة عنها وفيها تجمع الكفار .

الركب : عير قريش .

بينة : علم .

تنازعتم فى الأمر : اختلفتم فيه .

لقيتم فئة : حاربتم جماعة .

تفلحون : تفوزون بتأييد الله ونصره .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أهمية الإيمان كزاد وكطاقة موجهة تنبثق عنها الأفعال .

٢ ـ أن ندرس أسباب النصر وعوامله ونأخذ بها فى حياتنا .

٣ ـ أن نستكمل دراسة وتحليل غزوة بدر من خلال سياق الآيات .

المحتوى التربوى :

هذه الآيات تعطى نموذجًا واضحًا للتقريرات الجازمة فى السورة ؛ فلقد نزع الله ملكية الغنيمة ممن يجمعونها فى المعركة ؛ وردها إلى الله والرسول ـ فى أول السورة ـ ليخلص الأمر كله لله والرسول؛ وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض؛وليسلموا أمرهم كله ـ أوله وآخره ـ لله ربهم وللرسول قائدهم؛ وليخوضوا المعركة لله وفى سبيل الله ، وتحت راية الله، طاعة لله ، يحكمونه فى أرواحهم ، ويحكمونه فى أموالهم ويحكمونه فى أمرهم كله بلا تعقيب ولا اعتراض ، فهذا هو الإيمان ، كما قال لهم فى مطلع السورة وهو ينتزع منهم ملكية الغنيمة ويردها إلى الله ورسوله .

حتى إذا استسلموا لأمر الله ، وارتضوا حكمه ذاك ، فاستقر فيهم مدلول الإيمان . عاد ليرد على أربعة أخماس الغنيمة ، ويستبقى على الأصل ـ لله والرسول ـ يتصرف فيه رسول الله ﷺ وينفق منه على من يعولهم فى الجماعة المسلمة من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، عاد ليرد عليهم الأخماس الأربعة ، وقد استقر فى نفوسهم أنهم لا يملكونها ابتداء بحق الغزو والفتح ، فهم إنما يغزون لله ويفتحون لدين الله ، إنما هم يستحقون بمنح الله لهم إياها ؛ كما أنه هو الذى يمنحهم النصر من عنده ؛ ويدبر أمر المعركة وأمرهم كله ، وعاد كذلك ليذكرهم بأن الاستسلام لهذا الأمر الجديد هو الإيمان ، هو شرط الإيمان ومقتضى الإيمان .

يقول صاحب الظلال : لقد كانت غزوة بدر ـ التى بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده ـ فرقانًا بين الحق والباطل فعلاً ، ولكنه الحق الأصيل الذى قامت عليه السموات والأرض ، وقامت عليه فطرة الأشياء والأحياء ، الحق الذى يتمثل فى تفرد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير ؛ وفى عبودية الكون كله . وكانت فرقانا بين عهدين فى تاريخ الحركة الإسلامية : عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار .

وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، وكانت فرقاناً بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة ، فجرت كل عوامل النصر الظاهرية فى صف المشركين ؛ وكل عوامل الهزيمة الظاهرية فى صف العصبة المؤمنة ، لتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد ، فيتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية ، لا لمجرد السلاح والعتاد ؛ وأن أصحاب العقيدة الحقة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ، لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة ؛ وأن هذا ليس كلامًا يقال ، إنما هو واقع متحقق للعيان .

ويتواصل السياق ليواصل رسم مشاهد المعركة ويقرر أن الذين خرجوا للمعركة من المسلمين ، إنما خرجوا يريدون عير أبى سفيان واغتنام القافلة ، فأراد الله لهم غير ما أرادوا . أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبى سفيان (غير ذات الشوكة) وأن يلاقوا نفير أبى جهل (ذات الشوكة) وأن تكون معركة وقتال وأسر ؛ ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة ! وقال لهم الله سبحانه ـ إنه صنع هذا ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ ﴾ .

ولقد كان من تدبير الله فى المعركة أن يرى رسول الله ﷺ الكافرين فى الرؤيا فى منامه قليلاً لا قوة لهم ولا وزن ، فينبئ أصحابه برؤياه ، فيستبشروا بها ويتشجعوا على خوض المعركة ، ثم يخبر الله هنا لم أراهم لنبيه قليلاً ـ فلقد علم ـ سبحانه ـ أنه لو أراهم له كثيرًا ، لَفَتَّ ذلك فى قلوب القلة التى معه ، وقد خرجت على غير استعداد ولا توقع لقتال ، ولضعفوا عن لقاء عدوهم ،

وتنازعوا فيما بينهم على ملاقاتهم : فريق يرى أن يقاتلهم ، وفريق يرى تجنب الالتحام بهم ، وهذا النزاع فى هذا الظرف هو أبأس ما يصيب جيشاً يواجه عدواً !

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ ..ولقد كان ـ سبحانه ـ يعلم بذوات الصدور، فلطف بالعصبة المسلمة أن يعرضها لما يعلمه من ضعفها فى ذلك الموقف ، فأرى نبيه المشركين فى رؤيا ه قليلاً ، ولم يرهم إياه كثيرًا .

وحينما التقى الجمعان وجهًا لوجه ، تكررت الرؤيا النبوية الصادقة ، فى صورة عيانية من الجانبين ، وكان هذا من التدبير الذى يذكرهم الله به ، عند استعراض المعركة وأحداثها وما وراءها ، ولقد كان هذا التدبير الإلهى ما أغرى الفريقين بخوض المعركة ، والمؤمنون يرون أعداءهم قليلاً ـ لأنهم يرونهم بعين الحقيقة ! ـ والمشركون يرونهم قليلاً ـ وهم يرونهم بعين الظاهر ـ ومن وراء الحقيقتين اللتين رأى كل فريق منهما صاحبه بها تحققت غاية التدبير الإلهى ؛ ووقع الأمر الذى جرى به قضاؤه .. ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ .

وإذا كان الأمر كذلك ، التدبير تدبير الله ، والنصر من عند الله ، والكثرة العددية ليست هى التى تكفل النصر ، والعدة المادية ليست هى التى تقرر مصير المعركة ، فليثبت الذين آمنوا إذن حين يلقون الذين كفروا ؛ وليتزودوا بالعدة الحقيقية للمعركة ؛ وليأخذوا بالأسباب الموصولة ، بصاحب التدبير والتقدير ، وصاحب العون والمدد ، وصاحب القوة والسلطان ، وليجتنبوا أسباب الهزيمة التى هزمت الكفار على كثرة العدد وكثرة العدة ، وليتجردوا من البطر والكبرياء والباطل ، وليحترزوا من خداع الشيطان ، الذى أهلك أولئك الكفار، وليتوكلوا على الله وحده فهو العزيز الحكيم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التذكير بالإيمان ، إذ هو الطاقة الموجهة باعتبار أن المؤمن حى بإيمانه يقدر على الفعل والترك ، والكافر ميت فلا يكلف .

٢ ـ مرد الأمور نجاحًا وإخفاقًا لله تعالى ليس لأحد فيها تأثير إلا بإذنه .

٣ ـ ليس النصر بكثرة العدد ولا بقوة السلاح ، وإنما بإرادة الله ـ تعالى ـ وقوة الإيمان .

٤ ـ للقوة المعنوية أثرها فى الاستماتة فى القتال ، وإحراز النصر .

٥ ـ من أسباب النصر وعوامله: الثبات وذكر الله تعالى ، وطاعة الله ورسوله ، وطاعة القيادة، وترك النزاع والخلاف ، والتحلى بالصبر والإخلاص .

الجزء العاشر — سورة الأنفال

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

١٨٣

معانى الكلمات :

فتفشلوا : يصيبكم الجبن والخوف .

تذهب ريحكم: تضعف قوتكم أو دولتكم.

بطرا : طغيانا وتكبراً .

رئاء الناس : للتظاهر أمام الناس .

زين لهم الشيطان أعمالهم : وسوس إليهم بحسن أعمالهم فى عيونهم .

جار لكم : معين وناصر لكم .

نكص على عقبيه : فرّ وبطل كيده .

أدبارهم : ظهورهم .

ما قدمت أيديكم : ما ارتكبتم من الكفر والمعاصى .

كدأب آل فرعون : شأن الكفار وعادتهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعى وندرك أسباب وموازين النصر والقوة بالآيات ، ونأخذ بها .

٢ ـ أن نحذر المنافقين ودورهم فى خلخلة الصف المسلم .

٣ ـ أن نتعظ بمصارع السابقين من الهالكين الذين كذبوا بآيات الله ورسوله .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يتوجه المولى عز وجل بنداء الذين آمنوا ـ فى سلسلة النداءات المتكررة للعصبة المسلمة فى السورة، وتوجيههم إلى الثبات عند لقاء الأعداء ، وإلى التزود بزاد النصر ، والتأهب بأهبته فهذه هى عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو ، والاتصال بالله بالذكر ، والطاعة لله والرسول وتجنب النزاع والشقاق . والصبر على تكاليف المعركة ، والحذر من البطر والرئاء والبغى .

ويقول صاحب الظلال : « فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر ، فأثبت الفريقين أغلبهما ، وما يُدرى الذين آمنوا أن عدوهم يعانى أشد مما يعانون ؛ وأنه يألم كما يألمون ، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون ؛ فلا مدد له من رجاء فى الله يثبت أقدامه وقلبه ! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى

فسينخذل عدوهم وينهار؛وما الذى يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر ؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا ، وهو حريص على هذه الحياة التى لا أمل له وراءها ، ولا حياة له بعدها ، ولا حياة له سواها ؟ !

وأما ذكر الله كثيرًا عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن ، كما أنه التعليم المطرد الذى استقر فى قلوب العصبة المؤمنة ، وحكاه عنها القرآن الكريم فى تاريخ الأمة المسلمة فى موكب الإيمان التاريخى ، ومما حكاه القرآن الكريم عن الفئة القليلة المؤمنة من بنى إسرائيل ، وهى تواجه جالوت وجنوده : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٥٠) .

ومما حكاه أيضاً عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ فى مواجهة المعركة ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ (آل عمران) .

يقول صاحب الظلال : « إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدى وظائف شتى : إنه الاتصال بالقوة التى لا تغلب ؛ والثقة بالله الذى ينصر أولياءه ، وهو فى الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها ، فهى معركة لله ، لتقرير ألوهيته فى الأرض ، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية ؛ وإذن فهى معركة لتكون كلمة الله هى العليا ؛ لا للسيطرة ، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصى أو القومى كما أنه توكيد لهذا الواجب ـ واجب ذكر الله فى أحرج الساعات وأشد المواقف » .

ويتواصل السياق محذرًا الفئة المؤمنة أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعاجب بقوتها ! وتستخدم نعمة القوة التى أعطاها الله لها فى غير ما أرادها ، والعصبة المؤمنة إنما تخرج للقتال فى سبيل الله ، وقريش كانت تمثل صورة الخروج من أجل الكبر والخيلاء والبطر ، فقال أبو جهل : « لا والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم ثلاثاً ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا ، فلن تزال العرب تهابنا أبدًا » ..

ويصور السياق وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بهذا الخروج الذى نالهم منه ما نالهم من الذل والخيبة والانكسار ، وقال لهم الشيطان بما ألقاه فى هواجسهم : ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ، فأنتم أعز نفراً وأعظم بأساً ،وإنى مع هذا جار لكم؛وقال البيضاوى فى تفسيره : أوهمهم أن اتباعهم إياه ، فيما يظنون أنها قربات ، مجير لهم ، حتى قالوا : اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين ، ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ وتولى إلى الوراء ، ثم زاد على

هذا ما يدل على براءته منهم ، وتركه إياهم وشأنهم ، وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة .

وبعد ، فإنه بينما كان الشيطان يخدع المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله ، ويشجعهم على الخروج ، ثم يتركهم لمصيرهم البائس ، كان المنافقون والذين فى قلوبهم ضعف ، يظنون بالعصبة المؤمنة الظنون ، وهم يرونها تواجه جحافل المشركين وهى قليلة العدد ضعيفة العدة ؛ ويرون ، بقلوبهم المدخولة ونظرتهم إلى الظواهر المادية الخادعة ـ أن المؤمنين أوردوا أنفسهم موارد التهلكة ، مخدوعين بدينهم ظانين أنه ينصرهم أو يقيهم .

ويقول صاحب الظلال : « والعصبة المسلمة فى كل مكان وزمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان العقيدة ؛ وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه ، وأن ترى بنور الله وهداه ، وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة ، وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله ، وأن تلقى بالها دائماً إلى تعليم الله سبحانه للمؤمنين : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

وأخيراً يعرض السياق القرآنى مشهدًا من مشاهد التدخل الإلهى فى المعركة ، والملأ الأعلى من الملائكة ـ بأمر الله وإذنه ـ يشارك فى أخذ الذين كفروا بالتعذيب والتأنيب ؛ والملائكة يقبضون أرواحهم فى صورة منكرة ، ويؤذونهم أذى مهيناً ـ جزاء على البطر والاستكبار ، ويذكرونهم فى أشدّ اللحظات ضيقا وحرجًا سوء أعمالهم ، وبسوء مآلهم وفاقاً لا يظلمهم الله فيه شيئاً ، ويقرر السياق فى إثر عرض هذا المشهد أن أخذ الكفار بتكذيبهم سنة ماضية : ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وأنه كذلك أخذ فرعون وملأه ، وكذلك يأخذ كل من يفعل فعله ويشرك شركه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ من موازين النصر طاعة الله ورسوله ، وأوامر القادة وأولى الأمر ، والبعد عن التنازع والاختلاف ، والصبر على مكاره القتال ، وعدم الكبر والغرور ، وعدم التظاهر أمام الناس بالأعمال .

٢ ـ الإسلام دين السلام ، ولكنه السلام العزيز البعيد عن الضعف والاستسلام .

٣ ـ الحرب النفسية من وسائل القتال ، ولها أثرها الفعال فى نتائجه ، فمن واجب الأمة المسلمة الأخذ بها ، واعتمادها فى مواجهة العدو ، والحذر منها على الجبهة الداخلية وحذر كيد المنافقين والأعداء .

٤ ـ وجوب التوكل على الله،والاعتماد عليه مهما كانت دعاوى المبطلين والمثبطين والمنهزمين .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

ربع الحزب ١٩

معانى الكلمات :

شر الدواب : أسوأ من دب على الأرض .

تثقفنهم فى الحرب : تلتقين بهم .

فشرد بهم من خلفهم : ففرق وخوف بهم من وراءهم .

انبذ إليهم : اطرح عهدهم .

سبقوا : أفلتوا من يد الله ومن عذابه .

ترهبون : تخوفون .

آخرين من دونهم : أعداء غيرهم كاليهود.

يوف إليكم : تنالوا جزاءه كاملاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم سنة الله فى المنع والعطاء .

٢ ـ أن نلتزم بأحكام الإسلام فى التعامل مع الأعداء .

٣ ـ أن نعلم بالمقصود بإعداد القوة والحكمة من إعدادها .

٤ ـ أن ندرك طبيعة ومفهوم السلام وحتى ومتى ومن نسالم .

المحتوى التربوى :

تقرر هذه الآيات فى بدايتها عدل الله فى معاملة العباد ؛ فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التى لم يقدروها ، ولم يشكروها .

ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنسانى أكبر تكريم ، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجرى عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ؛ ويجعل التغيير القدرى فى حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعى فى قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم ، وأوضاعهم التى يختارونها لأنفسهم .

ومن الجانب الثالث يُلقى تبعة عظيمة ـ تقابل التكريم العظيم ـ على هذا الكائن . فهو يملك أن يستبقى نعمة الله عليه ، ويملك أن يزاد عليها ، إذا هو عرف فشكر ؛ كما يملك أن يزيل هذه النعمة إذا هو أنكر وبطر ، وانحرفت نواياهم فانحرفت خطاه .

وتصور هذه الآيات حقيقة أخرى ؛ حقيقة التلازم بين العمل والجزاء فى حياة هذا الكائن ونشاطه ؛ وتصور عدل الله المطلق ، فى جعل هذا التلازم سنة من سننه يجرى بها قدره ، ولا يظلم فيها عبد من عبيده .

ثم تناقش الآيات التالية الكثير من قواعد التعامل مع المعسكرات المتنوعة فى السلم والحرب؛ والتنظيمات الداخلية بالمجتمع الإسلامى وعلاقتها بالمنظمات الخارجية ؛ ونظرة الإسلام إلى العهود والمواثيق فى شتى الأحوال ، ومن بين هذه القواعد والأحكام التى وردت فى السياق القرآنى :

* أن الذين يعاهدون المعسكر الإسلامى ، ثم يخلفون عهدهم معه هم شر الدواب ، ومن ثم ينبغى أن يؤدبهم المعسكر الإسلامى تأديبًا يلحظ فيه الإرهاب الذى يشردهم ويشرد من وراءهم ممن تراودهم نية نقض العهد أو نية مهاجمة المعسكر الإسلامى ، والملاحظ أنه بعد نزول هذه الآيات عندما غدرت قريش ببنى خزاعة ، ناقضة عهد الحديبية ، باغتهم رسول الله ﷺ وفتح مكة ، ولأن الضربة القاصمة تحتاج إلى جرأة ، ولأن الإعلام بإلغاء المعاهدات قد يتسبب عنه ما يفوت على المسلمين فرصة المفاجأة ، فقد أعلمنا الله أن الكافرين مهما بلغوا من القوة فإنهم فى قدرته وقبضته فلا يعجزونه ، فلا يبالى المسلمون إذن إلا بتطبيق أمر الله .

* أن المعاهدين الذين تخشى القيادة الإسلامية منهم نقض العهد والخيانة ؛ فإن لهذه القيادة أن تنبذ إليهم عهدهم ، وتعلنهم بإلغائه ومن ثم تصبح فى حل من قتالهم وتأديبهم وإرهاب من وراءهم من أمثالهم .

* أنه يجب على المعسكر الإسلامى إعداد العدة دائمًا واستكمال القوة بأقصى الحدود الممكنة ، لتكون القوة المهتدية هى القوة العليا فى الأرض ؛ التى ترهبها جميع القوى المبطلة ؛ والتى تتسامع بها هذه القوى فى أرجاء الأرض ، فتهاب أولًا أن تهاجم دار الإسلام ؛ وتستسلم كذلك لسلطان الله فلا تمنع داعية إلى الإسلام فى أرضها من الدعوة ، ولا تصد أحدًا من أهلها عن الاستجابة ، ولا تدعى حق الحاكمية وتعبيد الناس ، حتى يكون الدين كله لله .

* أنه إذا جنح فريق من غير المسلمين إلى مسالمة المعسكر الإسلامى وموادعته وعدم الوقوف فى وجهه ، فإن القيادة الإسلامية تقبل منهم المسالمة ، وتعاهدهم عليها ، فإن أضمروا الخديعة ولم يبد فى الظاهر ما يدل عليها ، ترك أمرهم إلى الله ، وهو يكفى المسلمين شر الخادعين .

يقول صاحب الظلال : هذه الآيات كانت تواجه حالة قائمة بالفعل فى حياة الجماعة المسلمة، عند نشأة الدولة المسلمة بالمدينة ؛ وتزود القيادة المسلمة بالأحكام التى تواجه بها هذه الحالة .

وهى تمثل إحدى قواعد العلاقات الخارجية بين المعسكر المسلم وما حوله من المعسكرات الأخرى ، ولم تدخل عليها إلا تكملات وتعديلات جانبية فيما بعد ؛ ولكنها ظلت إحدى القواعد الأساسية فى المعاملات الإسلامية الدولية .

إنها تقرر إمكان إقامة عهود تعايش بين المعسكرات المختلفة ؛ ما أمكن أن تُضاف هذه العهود من النكث بها ؛ مع إعطاء هذه العهود الاحترام الكامل والجدية الحقيقية ، فأما إذا اتخذ الفريق الآخر هذه العهود ستارًا يدبر من ورائه الخيانة والغدر ، ويستعد للمبادأة والشر ؛ فإن للقيادة المسلمة أن نبذ هذه العهود ، وتعلن الفريق الآخر بهذا النبذ ، وتصبح مطلقة اليد فى اختيار وقت الضربة التالية للخائنين الغادرين ، على أن تكون هذه الضربة من العنف والشدة بحيث ترهب كل من تحدثه نفسه بالتعرض للمجتمع المسلم سرًا أو جهرًا !

فأما الذين يسالمون المعسكر الإسلامى ؛ ويريدون عدم التعرض للدعوة الإسلامية ، أو الحيلولة دون وصولها إلى كل سمع ؛ فإن للقيادة المسلمة أن توادعهم ما دام ظاهرهم يدل على أنهم يجنحون إلى السلم ويريدونها .

فى قوله تعالى : ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ﴾ **يقول الشيخ محمد أبو زهرة صاحب زهرة التفاسير** : « خصت الخيل بالذكر لأنها كانت قوة الحرب ، وهى رمز القوة ، ولقد قال النبى ﷺ : الخيل ثلاثة لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر ، فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله ، ورجل ربطها تغنيا وتعففا . ولم ينس حق الله فى رقابها ، ولا فى ظهورها فهى له ستر ، ورجل ربطها فخر ورياء فهى له وزر » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ سنة الله فى خلقه أن ينعم عليهم ، ويتركهم لاختيارهم ، فإن شكروه على نعمة ، أبقاها وزادها ، وإن جحدوا وكفروا بها ، بدل حالهم وسلبهم ما أنعم به عليهم .

٢ ـ إعداد القوة القاهرة فى كل وقت والتأهب دائماً لقتال الأعداء ، والإفادة من الوسائل الحديثة التى تدخل ضمن إطار القوى والردع ، وذلك من أقوى ما يُساعد الأمة على أن تعيش فى أمان ، وفى ظل حياة كريمة .

٣ ـ ليست الحرب فى الإسلام للعدوان ولا للتعدى وإنما لحماية الدين وصيانة الوطن .

٤ ـ القوة واعدادها يشمل كل ما يرهب الأعداء ماديًا ومعنويًا .

٥ ـ قبول السلام ـ إن مال إليه الأعداء ـ إذا كان من منطلق القوة ، وليس سلاماً يقوم على الخذلان والتنازلات .

الجزء العاشر سورة الأنفال

وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴿٦٢﴾ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴿٦٣﴾ يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴿٦٤﴾ يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴿٦٥﴾ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴿٦٦﴾ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴿٦٧﴾ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴿٦٨﴾ فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم ﴿٦٩﴾

١٨٥

معانى الكلمات :

حسبك الله : كافيك غدرهم وشرهم .

أيدك بنصره : قواك به .

ألف بين قلوبهم : جمعها ووحد وجهتها .

حرّض : شجع وحُض .

لا يفقهون : يجهلون دين الله وما وراءه من هدى ونور .

يُثخن فى الأرض : يبالغ فى قتل الكفار .

عرض الدنيا : المراد النفع السهل بقبول الفداء .

مما غنمتم : مما أخذتم من فداء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أهمية جمع القلوب على الدعوة ، ووحدة الصف المسلم فى مواجهة الأعداء .

٢ ـ أن نلجأ دائماً إلى حسب الله وقوته ، ونفّر من حولنا إلى حوله عز وجل فى كل وقت وحين .

٣ ـ أن نعرف أهمية الشورى فى قيام الدولة الإسلامية .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات تقرير قواعد التعامل مع المعسكرات والتنظيمات المختلفة ، ومن هذه القواعد أن المعسكر الإسلامى يجب أن يكون همه ابتداء القضاء على قوة الطاغوت بتحطيم كل أسباب القوة . فإذا كان أسر المقاتلين وفداؤهم لا يُحقق هذه الغاية ، فإن هذا الإجراء يستبعد ، ذلك أنه لا يكون للرسل وأتباعهم أسرى إلا بعد أن يثخنوا فى الأرض ، فيدمروا قوة عدوهم ، ويستعلوا هم فى الأرض ويتمكنوا بقوتهم ؛ وعندئذ لا يكون هناك من بأس فى أخذ الأسرى وفدائهم ، أما قبل ذلك ، فالتقتيل فى المعركة أولى وأجدى .

والغنائم حل للمسلمين فى المعركة من أموال المشركين ، كما أحل لهم أن يأخذوا فدية الأسرى بعد أن يثخنوا فى الأرض ، ويتمكنوا فيها ويخضدوا شوكة عدوهم ويحطموها ، والأسرى فى المعسكر المسلم ينبغى أن يرغبوا فى الإسلام ، بوعد الله لهم أن يعطيهم خيرًا مما أخذ منهم أول مرة .

وأول ما تطرح الآيات ما يطمئن رسول الله ﷺ والعصبة المسلمة من ورائه ، إلى ولاية الله ـ سبحانه ـ له ولها ؛ وهو حسبه وحسبها ؛ ثم يأمره بتحريض المؤمنين على القتال فى سبيل الله ، فهم أكفاء لعشرة أمثالهم ممن لا يفقهون فقههم ، وهم على الأقل أكفاء لمثليهم فى أضعف الحالات .

ويقول صاحب الظلال:ويقف الفكر ليستعرض القوة التى لا راد لها، ولا معقب عليها ـ قوة الله القوى العزيز ـ وأمامها تلك القوة الضئيلة العاجزة الهزيلة ـ التى تتصدى لكتائب الله ـ فإذا الفرق شاسع ، والبون بعيد ، وإذا هى معركة مضمونة العاقبة معروفة النهاية ، مقررة المصير ، وهذا كله يتضمنه قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .. ومن ثم يأتى الأمر بتحريض المؤمنين على القتال ـ فى سبيل الله ـ وقد تهيأت كل نفس ، واستعد كل قلب وشد كل عصب ، وتحفز كل عرق ؛ وانسكبت فى القلوب الطمأنينة والثقة واليقين .

ومن التحريض على القتال ـ ينتقل السياق إلى بيان حكم الأسرى ـ بمناسبة تصرف الرسول ﷺ والمسلمين فى أسرى بدر وإلى الحديث إلى هؤلاء الأسرى وترغيبهم فى الإيمان وما وراءه من حسن العوض عما فاتهم وعما لحقهم من الخسارة فى الموقعة .

قال القاسمى ـ فى محاسن التأويل ـ : فى الآيات السابقة مسائل :

الأولى : ما قاله الزمخشرى رحمه الله تعالى : أن التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة ؛ لأن العرب لما فيهم من الحمية والعصبة ، والانطواء على الضغينة فى أدنى شىء ، وإلقائه بين أعينهم ، إلى أن ينتقموا ، لا يكاد يأتلف منهم قلبان .

ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله ﷺ ، واتحدوا وأنشؤوا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من ألفتهم ، وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحاب والتوادّ ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت ، وكلفهم من الحب فى الله ، والبغض فى الله ، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقلبها كما يشاء ، ويصنع فيها ما أراد وقيل : هم الأوس والخزرج .

الثانية : مشروعية الحضّ على القتال ، والمبالغة فى الحث عليه ، وقد كان النبى ﷺ يحرض أصحابه عند صفهم ، ومواجهة العدو ، كما قال لهم يوم بدر ، حين أقبل المشركون فى عَددَهم وعُددَهم : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام : عرضها

السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ « نعم» ! فقال بخ بخ. فقال : « ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ » قال : رجاء أن أكون من اهلها . قال : « فإنك من أهلها » . فتقدم الرجل ، فكسر جفن سيفه ، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم ألقى بقيتهن من يده ، وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن ، إنها لحياة طويلة ؛ ثم تقدم فقاتل حتى قتل ﷺ .

الثالثة : ذهب الأكثرون إلى أن قوله تعالى ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا ﴾ شرط فى معنى الأمر بوجوب مصابرة الواحد للعشرة . أى بألا يفرّ منهم .

وروى البخارى عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ شق ذلك على المسلمين ، فنزلت ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ الآية ـ فلما خفف الله عنهم من العدة، نقص عنهم الصبر ، بقدر ما خفف عنهم .

وبمناسبة قوله تعالى . ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

يقول صاحب الأساس : عن الإمام أحمد عن أنس ﷺ قال : استشار النبى ﷺ الناس فى الأسارى يوم بدر فقال : « إن الله قد أمكنكم منهم » فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال :« يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس » فقام عمر فقال : يارسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، ثم عاد النبى ﷺ فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق ﷺ فقال: يارسول الله نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء قال : فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغمّ ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء ، قال : وأنزل الله عز وجل : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وحدة الأمة ، وجمع القلوب على الدعوة ضرورة من ضرورات النصر على الأعداء .

٢ ـ الإيمان والهدف النبيل من مقومات النصر على الأعداء .

٣ ـ الشورى من النظم الإسلامية الهامة ، ومنظومة هامة من منظومات الدولة الإسلامية التى لا تقوم بدونها .

٤ ـ من اجتهد فأصاب ، فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر ، والله ـ تعالى ـ لا يعاقب مجتهدًا على خطئه .

الجزء العاشر — سورة الأنفال

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

١٨٦

معانى الكلمات :

خيرًا : إيمانًا وإخلاصًا .

فأمكن منهم : فأقدرك عليهم ومكنك من هزيمتهم فى بدر .

آووا : الأنصار الذين جعلوا ديارهم مأوى للمهاجرين .

ولايتهم : الولاية عليهم .

استنصروكم : طلبوا معاونتكم .

ميثاق : عهد .

كريم : خالص لا منَّة فيه .

أولو الأرحام : الأقارب .

أَولى : أحق بالميراث من الأجانب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف طبيعة العلاقات فى المجتمع المسلم وبينه وبين المجتمعات الأخرى .

٢ ـ أن نعلم سمو ومكانة رابطة الدين على ما سواها من الروابط .

٣ ـ أن نحرر الولاء والحب للمؤمنين ، وكذلك البراء من الكفار فى المنافقين .

٤ ـ أن نُعلى من شأن إخوة الدين ونحرص عليها وندعمها .

المحتوى التربوى :

تمثل هذه الآيات خاتمة الأنفال ، فتبين طبيعة العلاقات فى المجتمع المسلم ، وطبيعة العلاقات بينه وبين المجتمعات الأخرى ، وبيان الأحكام المنظمة لهذه العلاقات وتلك ؛ ومنه تتبين طبيعة المجتمع المسلم ذاته ؛ والقاعدة التى ينطلق عليها والتى يقوم عليها كذلك ..

إنها ليست علاقة الدم ، ولا علاقات الأرض ، ولا علاقات الجنس ، ولا علاقات التاريخ واللغة .. ليست هى القرابة ، وليست الوطنية ولا القومية ولا المصالح الاقتصادية ، إنما هى علاقة العقيدة ، والقيادة والتنظيم الحركى .

فالذين آمنوا وهاجروا إلى دار الهجرة والإسلام متجردين من كل ما يمسكهم بأرضهم وديارهم وقومهم ومصالحهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ؛ والذين آووهم ونصروهم ، وانقادوا معهم لعقيدتهم وقيادتهم فى تجمع حركى واحد ، أولئك بعضهم أولياء بعض .

والذين آمنوا ولم يهاجروا ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية ؛ لأنهم لم يتجردوا بعد للعقيدة ، ولم يدينوا بعد للقيادة ؛ ولم يلتزموا بعد بتعليمات التجمع الحركى الواحد .

وفى داخل هذا التجمع الحركى الواحد تعتبر قرابة الدم أولى فى الميراث وغيره ، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض كذلك ، هذه هى الخطوط الرئيسية فى العلاقات والارتباطات داخل المجتمع المسلم ، كما تصورها هذه النصوص الحاسمة فى خواتيم سورة الأنفال .

ويقول صاحب الظلال : والولاية بين المسلمين فى إبان نشأة المجتمع المسلم إلى يوم بدر ، كانت ولاية توارث وتكافل فى الديات ، وولاية نصرة وأخوة قامت مقام علاقات الدم والنسب والقرابة ، حتى إذا وجدت الدولة ، ومكن الله لها بيوم الفرقان فى بدر بقيت الولاية والنصرة ، ورد الله الميراث والتكافل فى الديات إلى قرابة الدم داخل المجتمع المسلم .

فأما الهجرة التى يشير إليها النص ويجعلها شرطًا لتلك الولاية ـ العامة والخاصة ـ فهى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام ـ لمن استطاع ، فأما الذين يملكون الهجرة ولم يهاجروا ، استمساكاً بمصالح أو قربات مع المشركين ، فهؤلاء ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية ، كما كان الشأن فى جماعات من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا لمثل هذه الملابسات .

وكذلك بعض أفراد فى مكة من القادرين على الهجرة ، وهؤلاء وأولئك أوجب الله على المسلمين نصرهم ـ إن استنصروهم فى الدين خاصة ـ على شرط ألا يكون الاعتداء عليهم من قوم بينهم وبين المجتمع المسلم عهد ؛ لأن عهود المجتمع المسلم وخطته الحركية أولى بالرعاية !

قال ابن كثير : لما تآخوا ـ أى المهاجرين والأنصار ـ كانوا يتوارثون بذلك إرثًا مقدمًا على القرابة ، حتى نسخ الله ذلك بالمواريث ثبت ذلك فى (صحيح البخارى) عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد .

قال الخفاجىّ : فكان المهاجرىّ يرثه أخوه الأنصارى ، إن لم يكن له بالمدينة ولىّ مهاجرىّ ، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجرىّ ، واستمر أمرهم على ذلك إلى فتح مكة ، ثم توارثوا بالنسب بعد ، إذ لم تكن هجرة .

و(الولىّ) القريب والناصر ، لأن أصله القرب المكانىّ ، ثم جعل للمعنوىّ ، كالنسب والدين والنصرة . فقد جعل ﷺ فى أول الإسلام التناصر الدينى أخوّة ، وأثبت لها أحكام الأخوة

الحقيقية من التوارث ، فلا وجه لما قيل : إن هذا التفسير لا تساعده اللغة ، فالولاية على هذا ، الوراثة المسببة عن القرابة الحكمية . انتهى .

ويقول صاحب الأساس بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ .

يروى ابن كثير ما رواه الإمام أحمد عن بريدة بن الحصيب الأسلمى ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش ، أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيراً . وقال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، وإذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكفّ عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكفّ عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم ، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم، وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » أخرجه مسلم .

فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ **يقول الشيخ محمد أبو زهرة صاحب زهرة التفاسير** : « النبى ﷺ يقول « جاهدوا المشركين بأنفسهم وأموالكم وألسنتكم ، ولا شك أن الجهاد بالسان له مقامه » .

ومن جهاد المنافقين ألا يبش لهم ، حتى يطمعوا فى خداعه ، ويقول ابن مسعود : يستنكر أفعالهم بيده ، فإن لم يستطع فبالفهرار وجهه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا ولاية لمسلم على كافر ، ولا على مسلم تحت سلطان الكافرين ، كما أنه لا ولاية لكافر على مسلم .

٢ ـ الكفار مهما تعددت مللهم ، فهم ملة واحدة ، وبعضهم أولياء بعض .

٣ ـ إبطال الإسلام لتوارث غير الأقارب بعد أن صارت الدعوة قوية ، وجعل التوارث بين الأقارب فقط .

٤ ـ المرء مع من أحب ، فعلى المسلم أن يُحرر ولاءه للمؤمنين،وبغضه للكافرين لقوله ﷺ : « من أحب قوماً فهو منهم» وفى رواية « وحُشر معهم » .

٥ ـ أخوة العقيدة ووشيجة الدين أسمى الروابط ؛ لأنها خالصة لله وفى سبيل الله ، وأصحابها على منابر من نور يوم القيامة ؛ لأنهم تحابوا بجلال الله .

سورة التوبة

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)

١٨٧

سورة التوبة

معانى الكلمات :

براءة من الله : تبرؤ وتباعد وأصل من الله .

فسيحوا : سيروا آمنين .

غير معجزى الله : غير فائتين من عذابه بالهرب .

أذان : إعلام .

لم يظاهروا : لم يعاونوا .

انسلخ : انقضت الأشهر .

احصروهم : احبسوهم .

كل مرصد : كل طريق وممر .

استجارك : استأمنك .

مأمنه : دار قومه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف سبب نزول هذه الآيات من السورة .

٢ ـ أن نقف على طبيعة التشريعات النهائية للعلاقات الدولية كما جاءت بها الآيات .

٣ ـ أن نعلم أحكام القتال الواردة فى الآيات .

المحتوى التربوى :

هذه السورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن ، إن لم تكن هى آخر ما نزل من القرآن ، ومن ثم ، فقد تضمنت أحكامًا نهائية فى العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم فى الأرض ، كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته ، وتحديد قيمه ومقاماته ، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته ، وواقع كل طائفة منه وصفًا دقيقًا مبينًا .

وهذا المقطع من سياق السورة نزل متأخرًا عن بقيتها ؛ وإن كان قد جاء ترتيبه فى مقدماتها، وهو أمر توقيفى منه ﷺ ؛ وهو يتضمن إنهاء العهود التى كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين ، سواء كان هذا الإنهاء بعد أربعة أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة ، أو الناكثين

لعهودهم ؛ أو كان بعد انتهاء الأجل لمن كانت لهم عهود مقيدة ، ولم ينقصوا المسلمين شيئاً ، ولم يظاهروا عليهم أحدًا ، فعلى الجملة كانت النتيجة الأخيرة هى إنهاء العهود مع المشركين فى الجزيرة العربية ؛ وإنهاء مبدأ التعاقد أصلاً مع المشركين بعد ذلك ، بالبراءة المطلقة من المشركين ، وباستنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله .

وقد ذكر الإمام البغوى فى تفسيره أن المفسرين قالوا : إنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك أرجف المنافقون ، وأخذ المشركون ينقضون عهودهم ، فأنزل الله الآيات بالنسبة لهؤلاء مع إمهالهم أربعة أشهر ، إن كانت مدة عهدهم أقل ، أو قصرها على أربعة أشهر إن كانت أكثر .

وذكر الإمام الطبرى ـ بعد استعراضه الأقوال فى تفسير مطلع السورة : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : لأجل الذى جعله الله لأهل العهد من المشركين ، وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله : ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله ﷺ ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته .

فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه ، فإن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : اقتضت أن تفتتح السورة بهذا الإعلان العام ببراءة الله ورسوله من المشركين ، وأن يتكرر إعلان البراءة من الله ورسوله بعد آية واحدة بنفس القوة ونفس النغمة العالية ؛ حتى لا يبقى لقلب مؤمن أن يبقى على صلة مع قوم يبرأ الله منهم ويبرأ رسوله ؛ واقتضت تطمين المؤمنين وتخويف المشركين بأن الله مخزى الكافرين ، وأن الذين يتولون لا يعجزون الله ولا يفلتون من عذابه ؛ واقتضت استنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ـ إلا الذين عاهدتم ثم استقاموا فيستقام لهم مدة عهدهم ما استقاموا عليه ـ مع تذكير المؤمنين بأن المشركين لا يرقبون فيهم عهدًا ، ولا يتذممون من فعله لو أنهم قدروا عليهم ، وتصوير كفرهم ، وكذبهم فيما يظهرونه لهم أحيانًا من مودة بسبب قوتهم .

ومع إعلان البراءة المطلقة وهذه القرارات الحاسمة يجيء الترغيب فى الهداية والترهيب من الضلالة وهذا يشير إلى طبيعة المنهج الإسلامى ، إنه منهج هداية قبل كل شىء فهو يتيح للمشركين هذه المهلة لا لمجرد أنه لا يجب أن يباغتهم ويفتك بهم متى قدر ـ كما كان الشأن فى العلاقات الدولية ولا يزال ! ، ولكنه كان يمهلهم هذه المهلة للتروى والتدبر ، واختيار الطريق الأقوم ؛ ويرغبهم فى التوبة عن الشرك والرجوع إلى الله ، ويرهبهم من التولى ، وييئسهم من

جدواه ، وينذرهم بالعذاب الأليم فى الآخرة فوق الخزى فى الدنيا ، ويوقع فى قلوبهم الزلزلة التى ترجها رجاً لعل الركام الذى ران على الفطرة أن ينفض عنها ، فتسمع وتستجيب !

ثم هو طمأنة للصف المسلم ، ولكل ما فى قلوب بعضه من مخاوف ومن تردد وتهيب ومن تحرج وتوقع ، فالأمر قد صار فيه من الله قضاء ، والمصير قد تقرر من قبل الابتداء ! ولقد حدث ما ذكره ابن القيم من أن هؤلاء الذين استثناهم الله وأمر بالوفاء لهم بعهودهم قد دخلوا فى الإسلام قبل أن تنقضى مدتهم ، بل حدث أن الآخرين الذين ينقضون عهودهم وغيرهم ممن أمهلوا أربعة أشهر يسيحون فيها فى الأرض ، لم يسيحوا فى الأرض وإنما اختاروا الإسلام أيضاً !

لقد علم الله ـ سبحانه ـ وهو ينقل بيده خُطا هذه الدعوة ، أن الأوان قد آن لهذه الضربة الأخيرة ؛ وأن الظروف كانت قد تهيأت والأرض كانت قد مهدت ؛ وأنها تجىء فى أوانها المناسب، وفق واقع الأمر الظاهر ، وفق قدر الله المضمر المغيب فكان هذا الذى كان .

يقول صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ : لقد كانت هنالك وراءهم اثنان وعشرون سنة من الدعوة والبيان؛ ومن إيذائهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم ، ومن حرب للمسلمين وتأليب على دولتهم .. ثم من سماحة لهذا الدين ، ورسوله وأهله معهم .. وإنه لتاريخ طويل ، ومع هذا كله ، فلقد كان الإسلام يفتح لهم ذراعيه؛ فيأمر الله نبيه والمسلمين الذين أوذوا وفتنوا وحوربوا وشردوا وقتلوا ، كان يأمرهم أن يكفوا عن المشركين إن هم اختاروا التوبة إلى الله ، والتزموا شعائر الإسلام التى تدل على اعتناقهم هذا الدين واستسلامهم له وقيامهم بفرائضه . وذلك أن الله لا يرد تائبًا مهما تكن خطاياه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا غدر فى الإسلام ، ولا إكراه فى الدين ، ولكن عزة وقوة ، وسماحة ووضوح .

٢ ـ إنهاء مبدأ التعاقد أصلاً مع المشركين بعد ذلك ، ببراءة الله ورسوله المطلقة من المشركين ، وباستنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله .

٣ ـ الإسلام منهج هداية قبل كل شىء ، وعندما يلجأ إلى الحرب والقتال يكون قد استنفد كل وسائل الحرب ، ويعلن خصمه فى إباء وشرف بإعلانها دون غدر .

٤ ـ الإسلام يصون ذمته فمن طلب الأمن من المشركين بلغه ، حتى يبلغ دار قومه دون غدر أو إكراه .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

معانى الكلمات :

فما استقاموا لكم : فما أقاموا على العهد معكم .

يظهروا عليكم : يظفروا بكم .

لا يرقبوا : لا يرعوا .

إلًّا : رحمًا أو قرابة أو حلفا وعهدا .

ذمة : عهدًا وأمانًا وحقًا .

اشتروا : ابتاعوا .

نكثوا : نقضوا .

أئمة : رؤساء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية .

١ ـ أن يعلم المسلم شيئاً من أخلاق المشركين .

٢ ـ أن يشعر المسلم بقيمة حفظ العهود .

٣ ـ أن يكون المسلم وفياً بالعهود .

المحتوى التربوى :

لما انتهى فى مجموعة الآيات السابقة إلى تقرير الأحكام النهائية الأخيرة بين المجتمع المسلم والباقين من المشركين فى الجزيرة ، وهى تعنى إنهاء حالة التعاهد والمهادنة معهم جميعاً .. بعضهم بعد مهلة أربعة أشهر ، وبعضهم بعد انتهاء مدتهم . حيث يؤول الأمر بعد هذه الأحكام إلى حالتين اثنتين : توبة وإقامة للصلاة وإيتاء للزكاة ـ أى دخول فى الإسلام وأداء لفرائضه ـ أو قتال وحصار وأسر و إرصاد .

لما انتهى إلى الأمر بإنهاء حالة التعاقد على ذلك الوجه أخذ فى هذه المجموعة الجديدة من الآيات يقرر عن طريق الاستفهام الاستنكارى ـ أنه لا ينبغى أن يكون للمشركين عهد عند الله

وعند رسوله ، وقيد هذا الإطلاق فى نبذ هذه العهود بالوفاء بعهود من استقاموا على عهودهم إلى مدتهم . وهى دقة بالغة فى صياغة النصوص فى هذه العلاقات والمعاملات .

ويبين الله سبحانه وتعالى استبعاد أن يوفى المشركون بعهودهم ، أو على الأقل بيّن أنه لا يصح للنبى ﷺ ومن معه أن ينتظروا الوفاء من المشركين ؛ لأنهم خانوا الله ورسوله ، ومن يخن الله ورسوله فهو قد استمرأ النفاق ، والنفاق والوفاء بالعهد نقيضان لا يجتمعان ، فكيف يتوقع عند الله ورسوله أن يفوا بعهدهم لهما، وإذا كانوا كذلك فليس من المعقول أن يوفى الله تعالى لهم بعهد؛ لأن العهود توجب حقوقا وواجبات متبادلة ، فمن توقع عدم الوفاء وتأكد له النكث فى العهد ، فليس عليه وفاء .

واستنكار مبدأ التعاهد لأسبابه التاريخية والواقعية ، بعد استنكاره لأسبابه العقدية والإيمانية فهم لا يعاهدونكم إلا فى حال عجزهم عن التغلب عليكم ، ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيل فى غير مراعاة لعهد قائم بينهم وبينكم ، وفى غير ذمة يرعونها لكم ؛ أو فى غير تحرج ولا تذمم من فعل يأتونه معكم ! فهم لا يرعون عهدًا ، ولا يقفون كذلك عند حد فى التنكيل بكم، وإذا كانوا اليوم ـ وأنتم أقوياء ـ يرضونكم بأفواههم بالقول اللين والتظاهر بالوفاء بالعهد ، فإن قلوبهم تنغل عليكم بالحقد ، وتأبى أن تقيم على العهد ؛ فما بهم من وفاء لكم ولا ود ! والسبب فى ذلك هو أن : ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وهذا هو السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين عليكم ، وإضمار عدم الوفاء بعهودكم ، والانطلاق فى التنكيل بكم ـ لو قدروا ـ عن كل تحرج ومن كل تذمم .. إنه الفسوق عن دين الله ، والخروج عن هداه ، فلقد آثروا على آيات الله التى جاءتهم ثمنا قليلا من عرض هذه الحياة الدنيا يستمسكون به ويخافون فوته ، وقد كانوا يخافون أن يضيع عليهم الإسلام شيئا من مصالحهم ، أو أن يكلفهم شيئا من أموالهم ، فصدوا عن سبيل الله بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات الله ، صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم أما فعلهم هذا فهو الفعل السيئ الذى يقرر الله سوءه الأصيل .

ثم إنهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاصكم، ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم، إنهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ، ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم ، إنهم يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التى أنتم عليها ؛ للإيمان ذاته » .

وتعرض الآيات صفات أخرى للمشركين فى قوله ـ تعالى : ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ فصفة الاعتداء أصيله فى الكافرين ، تبدأ من نقطة كرههم للإيمان

ذاته وصدودهم عنه ، وتنتهى بالوقوف فى وجهه ، وتربصهم بالمؤمنين ، وعدم مراعاته لعهد معهم ولا صلة ، إذا هم ظهروا منهم ، وأمنوا بأسهم وقوتهم وعندئذ يفعلون الأفاعيل غير مراعين لعهد قائم ، ولا متحرجين ولا متذممين من منكر يأتونه وهم آمنون .

وتسوق الآيات المنهج الذى يجب أن يتبعه المؤمنون فى مواجهة المشركين بأن الركون إليهم لا يتم إلا بدخول هؤلاء المشركين فى الإسلام ، وتوبتهم عما مضى من الشرك والاعتداء ، أما من ينكث عهده مع المسلمين ويطعن فى الإسلام فيجب مواجهته وهذا ما يلفت الانتباه لوجوب تقوية المعسكر المسلم حتى نرهب الأعداء .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « استنبط الفقهاء من هذه الآية بأن الذمى أو الحربى إذا طعن فى الإسلام يقتل ... وقد كان الصحابة يقتلون من يسب النبى ﷺ ولو بالتعريض .. » .

إن هذه الأحكام هى أمر إلهى يزيد إدراكنا لها ذلك التاريخ الطويل من الواقع العملى ، بالإضافة إلى طبيعة المعركة المحتومة بين منهج الله الذى يخرج الناس من العبودية للعباد ويردهم إلى عبادة الله وحده ، وبين منهج الجاهلية التى تعبد الناس للعبيد ، ويواجهه المنهج الحركى الإسلامى بتوجيه من الله ـ سبحانه ، بهذا الحسم الصريح :

الآيات ترشد المؤمنين أن معارك المسلمين ليست مع أهل الكتاب فقط ، بل إن معارك المسلمين مع الوثنيين وصلت لذروتها فى كثير من الفترات قديمًا ضد المشركين لأنبياء الله : نوح، وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى وعيسى عليهم السلام صلوات الله وسلامه ومعاداة المشركين لرسول الله محمد ﷺ ، ثم مذابح مشركى التتار مع المسلمين ، ولم ولن ينتهى صراع المشركين واليهود مع المسلمين ، ويبين ذلك قوله ـ تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (المائدة) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ التحذير من الغدر والخيانة .

٢ ـ مشروعية القتال فى الإسلام لرد العدوان وتأمين العقيدة وحماية المسلمين .

٣ ـ استبعاد أن يكون هناك عهد موثوق للمشركين .

٤ ـ وجوب إتمام العهد إلى المدة المحددة لمن لم يكن نقض عهده من المشركين أو غيرهم .

الجزء العاشر — سورة التوبة

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ
غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
(١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ
وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ
أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧)
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ
أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)

نصف الحزب ١٩

١٨٩

معانى الكلمات :

غيظ قلوبهم : غضبها وحزنها الشديد .

ولما يعلم : ولم يعلم حتى وقت التكلم (أى لم يظهر منهم) .

وليجة : أعوانًا وحاشية وأصحاب سر وأولياء .

حبطت أعمالهم : بطلت وذهبت أجورها لكفرهم .

يعمر مساجد الله : يُعَمّرها بالذكر والعبادة.

فعسى : فيرجى .

سقاية الحاج : سقى الحجيج الماء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم مشروعية قتال المشركين والحكمة من التحريض عليه .

٢ ـ أن نعرف المقصود بعمارة مساجد الله ومن أحق الناس بعمارتها .

٣ ـ دحض دعاوى المشركين بأحقية عمارة مساجد الله .

٤ ـ بيان أهمية الإخلاص والتقوى فى كل عمل .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يستجيش مشاعر المؤمنين بتلك الذكريات والوقائع والأحداث ، وهم يتذكرون مبادأة المشركين لهم بالعداء والقتال ـ بطرًا وطغيانًا ـ وفى غمرة هذه الأحداث يحرض المؤمنين على القتال قائلاً لهم : قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته، وأداة مشيئته ، فيعذبهم بأيديكم، ويخزهم بالهزيمة وهم يتخايلون بالقوة ، وينصركم عليهم ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون يشفها من غيظها المكظوم ، بانتصار الحق كاملاً ، وهزيمة الباطل ، وتشريد المبطلين .

وليس هذا وحده ولكنَّ خيراً آخر يُنتظر وثواباً آخر يُنال : فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان ، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين ينصرون ، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم ، ويرون آثار الإيمان فى مواقفهم ـ وهذا ما كان فعلاً ـ وعندئذٍ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم ، وأجر هداية الضالين بأيديهم ؛ وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين .

يقول صاحب الظلال : « إن بروز قوة الإسلام وتقريرها يستهوى قلوبًا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف ، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ . وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة ، مرهوبة الجانب ، عزيزة الجناب .

على أن الله ـ سبحانه ـ وهو يربى الجماعة المسلمة بالمنهج القرآنى الفريد لم يكن يعدها وهى فى مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة ، إلا وعدًا واحدًا وهو الجنة ، ولم يكن يأمرها إلا أمرًا واحدًا هو هو الصبر ، فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب ، آتاها الله النصر ، وجعل يحرضها عليه ويشفى صدورها به .ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها ولكن لدينه وكلمته، وإن هى إلا ستار لقدرته .

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة ، وأن تنبذ عهود المشركين كافة ، وأن يقف المسلمون إزاءهم صفًا ، لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا والخبايا ، ولإزالة الأستار التى يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة ، والأعذار التى يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب ، ومن يوادونهم لآصرة من قربى أو مصلحة ، لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير ، وإعلان المفاصلة للجميع ، لينكشف الذين يخبئون فى قلوبهم خبيئة ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة ، يلجون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين ، فى ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة .

وإنه لمن مصلحة الجماعة ، ومن مصلحة العقيدة ، أن تهتك الأستار وتكشف الولائج ، وتعرف المداخل ، فيمتاز المكافحون المخلصون ، ويُكشف المدارون الملتوون ، ويعرف كلا الفريقين على حقيقته ، وإن كان يعلمهم من قبل .

وبعد البراءة والإعلان لم يبق عذر ولا حجة لمن لا يقاتل المشركين ؛ ولم يعد هناك تردد فى حرمانهم زيارة البيت أو عمارته ، وقد كانوا يقومون بها فى الجاهلية ، وهنا ينكر السياق على المشركين أن يكون لهم الحق فى أن يعمروا بيوت الله ، فهو حق خالص للمؤمنين بالله ، القائمين بفرائضه وما كانت عمارة البيت فى الجاهلية وسقاية الحاج لتغير من هذه القاعدة ؛ لأن العبادة تعبير عن العقيدة ، فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة ، وأداء الشعائر وعمارة المساجد ليست

بشىء ما لم تعمر القلوب بالاعتقاد الإيمانى الصحيح ، وبالعمل الواقع الصريح ، وبالتجرد لله فى العمل والعبادة على السواء .

هذه هى القاعدة فى استحقاق عمارة بيوت الله ، وفى تقويم العبادات والشعائر على السواء فما يجوز أن يسوى الذين كانوا يعمرون الكعبة ويسقون الحجيج فى الجاهلية ، وعقيدتهم ليست خالصة لله ، ولا نصيب لهم من عمل أو جهاد ، لا يجوز أن يسوى هؤلاء ـ لمجرد عمارتهم للبيت وخدمتهم للحجيج ـ بالذين آمنوا إيمانًا صحيحًا ، وجاهدوا فى سبيل الله وإعلان كلمته .

وميزان الله هو الميزان وتقديره هو التقدير : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المشركين الذين لا يدينون دين الله الحق ، ولا يخلصون عقيدتهم من الشرك ، ولو كانوا يعمرون البيت ويسقون الحجيج ، وينتهى هذا المعنى بتقرير فضل المؤمنين المهاجرين المجاهدين ، وما ينتظرهم من رحمة ورضوان ، ومن نعيم مُقيم وأجر عظيم .

ويقول صاحب الظلال : وأفعل التفضيل هنا فى قوله :﴿ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ليس على وجهه ، فهو لايعنى أن للآخرين درجة أقل ، إنما هو التفضيل المطلق ، فالآخرون : ﴿ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِى ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين فى درجة ولا نعيم .

يقول صاحب الأساس : بمناسبة قوله : ﴿ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يقول : وعلى الرواية التى تفيد أن الخطاب للمسلمين يمكن أن نستخرج من الآية معنى تكمّله نصوص كثيرة : إن هناك حسنات وهناك سيئات ، ولقد أعطى الشارع للسيئات أحجاماً ، كما أعطى للحسنات أحجامًا ، فالشرك أكبر من الربا ، والربا أكبر من الزنا ، والتوحيد أعظم من الصلاة ، والجهاد أفضل من مجاورة المسجد الحرام وهكذا ...

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الكفر والشرك يبطلان جميع الأعمال ـ الفاضلة ـ فلا يكون لأصحابها جزاء عند الله يوم القيامة .

٢ ـ عمارة المساجد جدير بها أهل الإيمان الذين يعظمون حرمات الله .

٣ ـ عمارة المساجد تشمل بناءها ، وإصلاحها والإقامة فيها ، ولزومها للعبادة من صلاة وذكر ومدارسة للقرآن وتعليم وتعلّم ، واعتكاف وغير ذلك من الأمور المعنوية .

٤ ـ وجوب الإخلاص لله فى القول والعمل .

الجزء العاشر — سورة التوبة

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾

١٩٠

معانى الكلمات :

مقيم : دائم .

أولياء : أصدقاء وأحباب .

استحبوا : اختاروا .

عشيرتكم : أقرباؤكم .

اقترفتموها : اكتسبتموها .

كسادها : بوارها .

فتربصوا : فانتظروا .

الفاسقين : الخارجين عن دين الله .

بما رحبت : مع رحبها أى وسعها .

وليتم مدبرين : انهزمتم

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف قدر العقيدة ونتجرد لها مما سواها من الصلات .

٢ ـ أن نعتبر بموازين النصر والهزيمة من الآيات .

٣ ـ أن نتعلم كيف نحب رسول الله ﷺ ونؤثر العقيدة على ما سواها .

المحتوى التربوى :

تمضى هذه الآيات فى خطاها المباركة فى تجريد المشاعر والصلات فى قلوب الجماعة المؤمنة ، وتمحيصها لله ولدين الله؛ فيدعو إلى تخليصها من وشائج القربى والمصلحة واللذة ، ويجمع كل لذائذ البشر ، وكل وشائج الحياة ، فيضعها فى كفة ، ويضع حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله فى الكفة الأخرى ، ويدع للمسلمين الخيار .

ويقول صاحب الظلال : إن هذه العقيدة لا تحتمل لها فى القلب شريكاً ؛ فإما تجرد لها ، وإما انسلاخ منها ، وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ، ولا أن يترهبن ويزهد فى طيبات الحياة .. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هى المسيطرة والحاكمة ، وهى المحركة

والدافعة . فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة ؛ على أن يكون مستعداً لنبذها كلها فى اللحظة التى تتعارض مع مطالب العقيدة .

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع ، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الدنيا ، فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته ، فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة وبالزوج والعشيرة ؛ ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ؛ ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق ـ فى غير سرف ولا مخيلة بل إن المتاع بها حينئذ لمستُحب ، باعتباره لونًا من ألوان الشكر لله الذى أنعم بها ليتمتع بها عباده، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب .

ولا يكتفى السياق بتقرير المبدأ ، بل يأخذ فى استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ، ليضعها كلها فى كفة ، ويضع العقيدة ومقتضياتها فى الكفة الأخرى : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة « وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج » والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها) .

وفى الكفة الأخرى :حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله ـ الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته. الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب، وما يتبعه من تضييق وحرمان ، وما يتبعه من جراح واستشهاد ، وهو ـ بعد هذا كله ـ « الجهاد فى سبيل الله» مجرداً من الصيت والذكر والظهور : مجرداً من المباهاة والفخر والخيلاء ، مجرداً من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشارتهم بصاحبه ، وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب .

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، إنما تطالب به الجماعة المسلمة والدولة المسلمة فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة فى الله ومقتضيات الجهاد فى سبيل الله .

وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف ، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه ـ فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها ـ وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال ، وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها ، لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولذة الرجاء فى رضوان الله ، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط ، والخلاص من ثقلة اللحم والدم ، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء ، فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففى التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة فى الخلاص والفكاك .

ويذكرهم الله باستعراض صفحة من الواقع الذى عاشه المسلمون إذ ذاك منذ قريب المواطن التى نصرهم الله فيها ، ولم تكن لهم قوة ولا عُدة ، ويوم حنين الذى هزموا فيه بكثرتهم ثم

نصرهم الله بقوته ، يوم أن انضم إلى جيش الفتح ألفان فقط من الطلقاء ! يوم أن غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة فى العدد والعتاد ليعلم المؤمنون أن التجرد لله ، وتوثيق الصلة به هى عدة النصر التى لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة فى العدد والعتاد ، وحين يخذلهم المال والإخوان والأولاد .

ويقول صاحب الظلال : ولقد كان نصر الله لهم فى المواطن الكثيرة قريبًا من ذاكرتهم لا يحتاج إلى أكثر من الإشارة . فأما وقعة حنين فكانت بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جيشه الذى جاء معه للفتح ، وكانت الكرة للمسلمين فى أول الأمر ، ثم دارت رحى القتال وتبدل النصر إلى انكسار ـ بسبب الإعجاب بالكثرة وحين غفلوا عن سبب النصر الأول ، فردهم الله بالهزيمة فى أول المعركة إليه ، ثم نصرهم بالقلة المؤمنة التى ثبتت مع رسول الله ﷺ والتصقت به .

والسياق يعرض المعركة هنا ؛ ليعرض نتائج الانشغال عن الله ، والاعتماد على قوة غير قوته ، ليكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية ، وهى أن الكثرة العددية ليست بشىء ، إنما هى القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة .

وإن الكثرة لتكون أحيانًا سببًا فى الهزيمة ، لأن بعض الداخلين فيها ، التائهين فى غمارها ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التى ينساقون فى تيارها ، تتزلزل أقدامهم وترتجف فى ساعة الشدة ؛ فيشيعون الاضطراب والهزيمة فى الصفوف ، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون فى توثيق صلتهم بالله ، انشغالًا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر فى الحياة .لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة، لا بالزبد الذى يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذى تذروه الرياح .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ العبرة فى المعارك ليست بقوة السلاح ولا بكثرة العدد ، وإنما بالإيمان الصادق والثبات والإخلاص لله .

٢ ـ لثبات القائد وشجاعته أثر عظيم فى تحقيق النصر ، والاغترار بالقوة والكثرة من أسباب الهزيمة .

٣ ـ حب أصحاب الرسول ﷺ له ، وشجاعة القائد النادرة ، وفضل الله عليه وعلى المؤمنين من أسباب النصر.

الجزء العاشر سورة التوبة

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن
شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ
﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى
ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ
يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ
ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ
مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

١٩١

معانى الكلمات :

نجس : قذر ، لخبث باطنهم وفساد عقيدتهم .

خفتم عيلة : خفتم فقرًا .

الذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى .

عن يد : منقادين أو عن قهر وقوة .

صاغرون : أذلاء .

يضاهئون : يشابهون فى الكفر .

أنى يؤفكون ؟ : كيف يصرفون عن الحق .

أحبارهم : علماء اليهود .

رهبانهم : متعبدى النصارى .

أربابًا:معبودات أطاعوهم كما يطاع الرب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان العلة من وجوب قتال أهل الكفر والعدوان .

٢ ـ أن نقف على الأحكام والتعديلات النهائية فى معاملة أهل الكتاب .

٣ ـ أن ننزه الله ـ عز وجل ـ عن الولد والند والشريك وعن مشابهة خلقه .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات ، ينهى السياق القول فى شأن المشركين ، ويلقى الكلمة الباقية فيهم إلى يوم الدين بأنهم نجس ، ويجسم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم ، فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس ، يستقذره الحس ، ويتطهر منه المتطهرون ! وهو النجس المعنوى لا الحسى فى الحقيقة ، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها ، إنما هى طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم .

ولهذا النجس أمر ـ عز وجل ـ ألا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وتلك غاية فى تحريم وجودهم بالمسجد الحرام ، حتى لينصبّ النهى على مجرد القرب منه !

ولكن الموسم الاقتصادى الذى ينتظره أهل مكة ؛ والتجارة التى يعيش عليها معظم الظاهرين فى الجزيرة ؛ ورحلة الشتاء والصيف التى تكاد تقوم عليها الحياة ، إنها كلها ستتعرض للضياع بمنع المشركين من الحج ، وبإعلان الجهاد العام على المشركين كافة .. نعم ! ولكنها العقيدة ، والله يريد أن تخلص القلوب كلها للعقيدة .

وبعد ذلك ، فالله هو المتكفل بأمر الرزق من وراء الأسباب المعهودة المألوفة . وحين يشاء الله يستبدل أسبابًا بأسباب ؛ وحين يشاء يغلق بابًا ويفتح الأبواب ، يدبر الأمر كله عن علم وعن حكمة ، وعن تقدير وحساب .

ويقول صاحب المنار : بمناسبة قوله ـ تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ؛ يقول : وأما الغنى من فضل الله فهو أعم مما ورد فى الروايات معينا ومبهما ، فقد أغنى الله المؤمنين من العرب السابقين إلى الإسلام ، ثم من سائر المسلمين جميع أنواع الغنى ، فتح لهم البلاد ، وسخر لهم العباد ، فكثرت الغنائم والخراج ، ومهد لهم سبل الملك والملك ، وبسط لهم فى الرزق ، من أمارة وتجارة وزراعة وصناعة ، وكان نصيب مكة نفسها من ذلك عظيماً بكثرة الحاج وأمن طرق التجارة .

وقيد هذا الغنى بقوله : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ للدلالة على أن هذا الوعد إنما يكون مستقبلاً لا فى الحال ، وعلى أنه واسع بسعة فضله ـ تعالى ـ وغيب لا يخطر لهم أكثره ببال وقد صدق وعده به فكان من معجزات القرآن .

ثم ينتقل السياق لتقرير الأحكام النهائية فى العلاقات بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب ، وتحوى هذه الأحكام بعض التعديلات الأساسية فى القواعد التى كانت تقوم عليها العلاقات من قبل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب ـ وبخاصة النصارى منهم ـ فلقد كانت وقعت المواقع قبل ذلك مع اليهود ؛ ولكن حتى هذا الوقت لم يكن قد وقع منها شىء مع النصارى .

والتعديل البارز فى هذه الأحكام الجديدة هو الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة إلا على هذا الأساس . أساس إعطاء الجزية ، وفى هذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمى المعاهد ؛ ويقوم السلام بينهم وبين المسلمين ، فأما إذا هم اقتنعوا بالإسلام عقيدة فاعتنقوه فهم من المسلمين .

يقول صاحب الظلال : وهذا التعديل الأخير فى قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لا يفهم على طبيعته إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومناهج

الجاهلية من ناحية . ثم لطبيعة المنهج الحركى الإسلامى ، ومراحله المتعددة ، ووسائله المتجددة المكافئة للواقع البشرى المتغير من الناحية الأخرى .

ومن أجل هذا يحدد السياق القرآنى فى هذا المقطع من السورة طبيعة هذه العلاقات ، حدد حقيقة ما عليه أهل الكتاب ؛ ونص على أنه شرك وكفر وباطل والنصوص تقرر :

أولًا : أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .

ثانياً : أنهم لا يحرمون ما حرّم الله ورسوله .

ثالثاً : أنهم لا يدينون دين الله .

رابعاً : أن اليهود منهم قالوا : عزير ابن الله ، وأن النصارى منهم قالت : المسيح ابن الله تعالى الله سبحانه عن قولهم علواً كبيراً ، وأنهم فى هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل الوثنيين الإغريق أو الوثنيين الرومان .

خامساً : أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، كما اتخذوا المسيح رباً ، وأنهم بهذا خالفوا عما أمروا به من توحيد الله والدينونة له وحده ، وأنهم لهذا مشركون !

سادساً : أنهم محاربون لدين الله يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وأنهم لهذا كافرون !

سابعاً: أن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل،ويصدون عن سبيل الله .

وعلى أساس هذه الأوصاف وهذا التحديد لحقيقة ما عليه أهل الكتاب ، قرر الأحكام النهائية التى تقوم عليها العلاقات بينهم وبين المؤمنين بدين الله ، والقائمين على منهج الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ باب التوبة مفتوح أمام الكافرين إذا أسلموا وتركوا ما عليه من الكفر والضلال ، ورحمة الله تشملهم فالإسلام يجبّ ما قَبْله .

٢ ـ وجوب قتال أهل الكفر والعدوان الذين رفضوا الدخول فى دين الله والتنعم فى ظلاله الوارفة وأحكامه العادلة .

٣ ـ الأمر بدعوة أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ إلى الدخول فى الإسلام ، فإن رفضوا لم نقاتلهم ، وإنما يدفعون الجزية فإن رفضوا دفع الجزية ، قوتلوا حتى يرجعوا إلى دين الله ، ويرضوا بحكمه منقادين خاضعين .

٤ ـ فساد عقيدة أهل الكتاب فى نسبة الولد إلى الله ، والله ـ تعالى ـ منزه عن الشريك وعن مشابهة خلقه .

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

معانى الكلمات :

نور الله : شرعه وبراهينه .

بأفواههم : بأقوالهم فيه .

يتم : يظهر .

يظهره : يعليه .

على الدين كله : على جميع الأديان المخالفة له .

يأكلون : يأخذون .

بشرهم : أخبرهم وأنذرهم .

تكوى : تحرق .

كتاب الله : اللوح المحفوظ .

الدين القيم : الدين المستقيم ملة إبراهيم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف حقيقة أهل الكتاب وطبيعة موقفهم من دين الله .

٢ ـ أن نعرف عاقبة الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها .

٣ ـ أن نعظم حرمة الأشهر الحرم ، ونلتزم بأوامر الله فيها .

المحتوى التربوى :

تمضى هذه الآيات فى تحريض المؤمنين على القتال ، وذلك لأن أهل الكتب لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق ، وعبادة أرباب من دون الله وعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر ـ وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر ـ إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق ، ويريدون إطفاء نور الله فى الأرض المتمثل فى هذا الدين ، وفى الدعوة التى تنطلق به فى الأرض ، وفى المنهج الذى يُصوغ على وفقه حياة البشر فهم ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ فهم محاربون لنور الله . وسواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن ، أو بما يحرضون به أتباعهم

وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله ، والوقوف سدًا فى وجهه ـ كما كان هو الواقع الذى تواجهه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ .

ولكن أنى لهم ذلك والله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وسنته فى ذلك الوعد الحق لا تتبدل ولا تتغير ، فى إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون .

وكما يقول صاحب الظلال : هو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا ، فيدفعهم هذا إلى المضى فى الطريق على المشقة واللأواء فى الطريق ؛ وعلى الكيد والحرب من الكافرين كما أنه يتضمن فى ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان !

ثم يخطو السياق الخطوة الأخيرة فى هذا المقطع من السورة ، مصورًا كيف أن أهل الكتاب لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، بعد ما أشار إلى هذه الحقيقة فى قوله ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، التى فسرها رسول الله ﷺ بأنهم « أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم » فبين أنهم إذن لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، إنما يحرمون ما حرمه عليهم الأحبار والرهبان !

وتستطرد الآيات فى بيان حقيقة أهل الكتاب ، فهؤلاء الأحبار والرهبان يجعلون من أنفسهم ويجعلهم قومهم أربابًا تتبع وتطاع ، وهم فيما يشرعون يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

منها ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال لصالح من يملكون المال أو السلطان .

ومنها ما يأخذونه ويجمعونه من أموال الناس لمحاربة دين الحق ؛ وقد كان الرهبان والأساقفة والبابوات يجمعون مئات الملايين فى الحروب الصليبية ، وما يزالون يجمعونها للتبشير والاستشراق للصد عن سبيل الله .

ويصور القرآن الكريم عذابهم فى الآخرة بما كنزوا ، وعذاب كل من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها فى سبيل الله ؛ ويرسم تفاصيل هذا المشهد المرعب ـ كما ورد بالآيات .

يحذر صاحب الظلا من نظرات البعض لأهل الكتاب دين بقوله : « إن تعرية أهل الكتاب من شبهة أنهم على دين الله ، ألزم وأشد ضرورة من بيان حال المشركين الصريحين فى شركهم الشاهدين على أنفسهم بالكفر بظاهر عقائدهم وشعائرهم .

ثم يستطرد السياق فى إزالة المعوقات التى كانت قائمة فى طريق النفرة إلى جهاد الروم وحلفائهم من نصارى العرب فى شمال الجزيرة،ذلك أن الاستنفار لهذه الغزوة ـ تبوك ـ كان فى رجب من الأشهر الحُرم، ولكن كانت هناك مُلابسة واقعة ، وهى أن رجباً لهذا العام لم يكن فى

موعده الحقيقى ! وكذلك بسبب « النسىء» الذى سيرد فى الآية التى تلى هذه الآية ! فكأن رجبًا كان فى جمادى الآخرة . وسر هذا الاضطراب كله هو اضطراب الجاهلية فى تقاليدها فتارة يقدمون الشهور ، وتارة أخرى يقدمونها حسب أهوائهم ووفق مصالحهم .

والنص هنا يرد معيار الزمن ، وتحديد دورانه إلى طبيعة الكون التى فطره الله عليها . وإلى أصل الخلقة خلقة السموات والأرض ، ويشير إلى أن هناك دورة زمنية ثابتة ، مقسمة إلى اثنى عشر شهراً يستدل على ثباتها بثبات عدة الأشهر فلا تزيد فى دورة وتنقص فى دورة ، وأن ذلك فى كتاب الله ـ أى فى ناموسه الذى أقام عليه نظام هذا الكون ، فهى ثابتة على نظامها ؛ لا تتخلف ولا تتعرض للنقص والزيادة ؛ لأنها تتم وفق قانون ثابت .

وهذا من سمت هذا الدين القيم الأصيل الذى تقوم به السموات والأرض ، منذ أن خلق الله السموات والأرض ، ويأمر المؤمنين ألا يظلموا أنفسهم فى هذه الأشهر الحرم التى يتصل تحريمها بناموس كونى تقوم عليه السموات والأرض ، ذلك الناموس هو أن الله هو المشرع للناس كما أنه هو المشرع للكون .. لا تظلموا أنفسكم بإحلال حرمتها التى أرادها الله لتكون فترة أمان وواحة سلام ؛ فتخالفوا عن إرادة الله .

وفى هذه المخالفة ظلم للأنفس بتعريضها لعذاب الله فى الآخرة ، وتعريضها للخوف والقلق فى الأرض ، حين تستحيل كلها جحيماً حربية، لا هدنة فيها ولا سلام .

ويأمرهم بقتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كذلك فى غير الأشهر الحرم ، ما لم يبدأ المشركون بالقتال فيتعين رد الاعتداء فى تلك الأشهر ؛ لأن القتال من جانب واحد يضعف القوة الخيرة ، المنوط بها حفظ الحرمات ، ووقف القوة الشريرة المعتدية ويشيع الفساد فى الأرض ، والفوضى فى النواميس ، فرد الاعتداء فى هذه الحالة وسيلة لحفظ الأشهر الحُرم،فلا يُعتدى عليها ولا تهان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التحذير من أهل الكتاب وموالاتهم ، وبيان أنهم كالمشركين يسعون لإطفاء نور الله .

٢ ـ أن المستقبل للإسلام ، رغم كيد القائدين من الكفار والفاسقين ، فهو وعد الله الأكيد .

٣ ـ التحذير من علماء السوء ، وعُباد الضلال فى كل زمان ومكان .

٤ ـ الإسلام لا يحارب الادخار ، بل يدعوا إليه ولكن علينا أن نخرج زكاة أموالنا وننفق منها فى سبيل الله .

٥ ـ الجزاء من جنس العمل ، فمن كنز مالاً ولم ينفقه فى وجوه الخير ، عُذب به يوم القيامة .

٦ ـ تعظيم حرمة الأشهر الحُرم ، وتحريم القتال فيها إلا إذا اعتدى علينا فيها .

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

١٩٣

معانى الكلمات :

النسىء: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر .

ليواطئوا : ليوافقوا .

عدة : عدد .

انفروا : اخرجوا للقتال « فى غزوة تبوك » .

اثاقلتم : تباطأتم وملتم عن الجهاد .

ثانى اثنين : أحد اثنين والآخر أبو بكر الصديق ﷺ

سكينته : هدوء النفس واطمئنانها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نلتزم بما أمر به الشرع دون تحريم الحلال أو تحليل الحرام .

٢ ـ أن نحذر الكفر والفسق ؛ لأنهما حائل دون هداية الله وتوفيقه .

٣ ـ بيان أهمية الجهاد فى الإسلام ووجوب النفرة فى سبيل الله .

٤ ـ بيان حقارة الدنيا وضآلتها أمام الآخرة .

المحتوى التربوى :

قررت الآيات السابقة أن النصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمات الله ، وأن يحلوا ما حرم الله ، وأن يحرفوا نواميس الله ، فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة ، ولا يتخوفوا من الجهاد الشامل ، فهو جهاد فى سبيل الله يقفون فيه عند حدوده وآدابه ، ويتوجهون به إلى الله يراقبونه فى السر والعلانية ، فلهم النصر ؛ لأن الله معهم ، ومن كان الله معه فهو المنصور بلا جدال .

ثم تأتى آية النسىء وفيها قال مجاهد ﷺ : كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول : أيها الناس : إنى لا أعاب ولا أخاب ، ولا مرد لما أقول . إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله : ﴿ لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ قال : يعنى الأربعة ، فيحلوا ما حرم الله تأخير هذا الشهر الحرام .

وما يفعلوه هذا إنما هو زيادة فى الكفر ـ كفر مزاولة التشريع إلى جانب كفر الاعتقاد ، ويخدعون بما فيه من تلاعب وتحريف وتأويل ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ﴾ فإذا هم يرون السوء حسناً ، ويرون قبح الانحراف جمالاً ، ولا يدركون ما هم فيه من ضلال ولجاج فى الكفر بهذه الأعمال : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ الذين ستروا قلوبهم عن الهدى ، وستروا دلائل الهدى عن قلوبهم ، فاستحقوا بذلك أن يتركهم الله لما هم فيه من ظلام وضلال .

ثم ينتقل السياق لعتاب المتخلفين والتهديد بعاقبة التثاقل عن الجهاد فى سبيل الله ، والتذكير لهم بما كان من نصر الله لرسوله ، قبل أن يكون معه منهم أحد ، وبقدرته على إعادة هذا النصر بدونهم ، فلا ينالهم عندئذ إلا إثم التخلف والتقصير .

يقول صاحب الظلال : « إن النفرة للجهاد فى سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم ؛ وتحقيق للمعنى العلوى فى الإنسان ، وتغليب لعنصر الشوق المجنح فى كيانه على عنصر القيد والضرورة ، وتطلع إلى الخلود الممتد ، وخلاص من الفناء المحدود ، وما يحجم ذو عقيدة فى الله عن النفرة للجهاد فى سبيله ، إلا وفى هذه العقيدة دخل ، وفى إيمان صاحبها بها وهن ، لذلك يقول الرسول ﷺ : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من شعب النفاق » فالنفاق ـ وهو دخل فى العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال ـ هو الذى يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد فى سبيل الله ـ خشية الموت أو الفقر ، والآجال بيد الله ، والرزق من عند الله وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل .

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد : بالعذاب ـ عذاب الذلة ـ التى تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون فى الكفاح فى الجهاد ؛ ويقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء . وما من أمة تركت الجهاد وإلا ضرب الله عليها الذل ، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء .. » .

﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يقومون على العقيدة ، ويؤدون ثمن العزة ، ويستعلون على أعداء الله ولا يقام وزن للقاعدين ولا يقدمون ولا يؤخرون فى الحساب ولا يعجز الله شيئًا أن يذهب بكم ؛ ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخى الذى يعلمونه ، على نصره الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء .

ذلك حين ضاقت قريش رسول الله ﷺ ذرعاً ، كما تضيق القوة الغاشمة ـ دائماً ـ بكلمة الحق، لا تملك لها دفعًا ولا تطيق عليها صبرًا ، فائتمرت به ، وقررت أن تتخلص منه فأطلعه الله على ما ائتمرت ، وأوحى إليه بالخروج ، فخرج وحيدًا إلا من صاحبه الصدّيق ، لا جيش ولا عدة ، وأعداؤه كثر ، وقوتهم إلى قوته ظاهرة .

والقوم على إثرهما يتعقبون ، والصديق ﷺ يجزع ـ لا على نفسه ولكن على صاحبه ـ أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب ، يقول له : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه والرسول ﷺ وقد أنزل الله سكينته على ـ قلبه ـ يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »

ثم ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلها فى جانب ، والرسول ﷺ مع صاحبه منها كان مجرداً منها ؟ وكان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس ، وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار .

فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ تنبيه لمن يستثقل الجهاد ويقعد عن نصرة الله ورسوله ، وتوجيه لمن يخشى قلة العدد فالله نصر رسوله وصاحبه وحولهما جمعٌ غفير من المشركين وهما محصوران ؛ بل وأنزل جنودًا تقيهما سطوة وبأس المشركين .

يقول صاحب المنار : « ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ ﴾ سمى أتباع الرسول أصحابًا تواضعًا من رسول الله ﷺ وتربية لهم على احترام جميع أفراد الأمة ومعاملتهم بالعدل والمساواة » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حرمة الاحتيال على الشرع بالفتاوى الباطلة لإحلال الحرام ، وأن هذا الاحتيال ما هو إلا زيادة فى الإثم .

٢ ـ حرمان أهل الكفر والفسق من هداية الله ـ تعالى ـ وتوفيقه لما هو حق وخير حالاً ومالاً .

٣ ـ وجوب الخروج إلى الجهاد إذا دعا الإمام بالدعوة العامة ، وهو ما يعرف بالتعبئة العامة أو النفير العام .

٤ ـ وجوب نصرة رسول الله فى دينه وفى أمته وفى سنته .

انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم
في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿٤١﴾
لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت
عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا
معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴿٤٢﴾
عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين
صدقوا وتعلم الكاذبين ﴿٤٣﴾ لا يستأذنك الذين
يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم
وأنفسهم والله عليم بالمتقين ﴿٤٤﴾ إنما يستأذنك الذين
لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم
في ريبهم يترددون ﴿٤٥﴾ ۞ ولو أرادوا الخروج
لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم
وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴿٤٦﴾ لو خرجوا فيكم
ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم
الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴿٤٧﴾

ربع الحزب ٢٠

معانى الكلمات :

خفافاً وثقالاً : على أية حالة كنتم .

عرضًا قريبًا : مغنمًا سهل المأخذ .

سفراً قاصداً : وسطاً بين القريب والبعيد .

الشقة : المسافة التى تقطع بمشقة .

ارتابت : شكت .

يترددون : يتحيرون .

فثبطهم : فحبسهم وعوقهم عن الخروج معكم .

خبالاً : شرًا وفسادًا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف فضيلة الإيمان والتقوى فى تنمية روح الجهاد .

٢ ـ أن نحذر إشاعات الأعداء وقت السلم والحرب .

٣ ـ أن نعلم صفات المنافقين كما وردت بالآيات ؛ لنحذرها ونحذرهم ونؤمن الصف من شرورهم .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات وبعد أن وضع الله موازينه للنصر والغلبة ، وجعل كلمته هى العليا يدعو الفئة المؤمنة إلى النفرة العامة ، لا يعوقهم معوق ، ولا يقعد بهم طارئ إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير فى هذه الأرض وفى الدار الآخرة ؛ فطلب منهم أن ينفروا فى كل حال ، ويجاهدوا بالنفوس والأموال وألا يتلمسوا الحجج والمعاذير ، وألا يخضعوا للعوائق والتعللات .

وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير ، فنفروا والعوائق فى طريقهم ، والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعذار، ففتح الله عليهم القلوب والأرضين ، وأعزّ بهم كلمة الله ، وأعزهم بكلمة الله وحقق على أيديهم ما يُعد خارقة فى تاريخ الفتوح .

قرأ أبو طلحة ﷺ سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال : أرى ربنا استنفرنا ـ شيوخًا وشبابًا ، جهزونى يا بنى فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه بها.

يقول صاحب الظلال : « وبمثل هذا الجد فى أخذ كلمات الله انطلق الإسلام فى الأرض ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وتمت تلك الخارقة فى تلك الفتوح التحريرية الفريدة .

ثم ينتقل السياق ليتحدث عن الطوائف التى ظهرت عليها أعراض الضعف فى الصف ـ وبخاصة جماعة المنافقين ، الذين اندسوا فى صفوف المسلمين باسم الإسلام، بعد أن غلب وظهر ، فرأى هؤلاء أن حب السلامة وحب الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤوسهم للإسلام ، وأن يكيدوا له داخل الصفوف بعد أن عز عليهم أن يكيدوا له خارج الصفوف .ويصور القرآن حالهم قائلاً: لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض ، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك ! ولكنها الشقة البعيدة التى تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة، ولكنه الجهد الخطر الذى تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة . ولكنه الأفق العالى الذى تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة .

ثم صرف الله ـ تعالى ـ الخطاب عن المتخلفين ، ووجّه إلى رسول الله ﷺ معدّداً لما صدر عنهم من الهنات قولاً وفعلاً ، مبيناً لدناءة هممهم فى هذا الخطب ، قال ـ تعالى ـ لنبيه ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ ؛ وهو الكذب المصاحب للضعف أبداً ، وما يكذب إلا الضعفاء، وبهذا الحلف وبهذا الكذب ، الذى يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس، والله يعلم الحق ، ويكشفه للناس ، فيهلك الكاذب فى الدنيا بكذبه ، ويهلك فى الآخرة يوم لا يجدى النكران .

ثم يتلطف الله ـ عز وجل ـ برسوله ﷺ ، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب ، فلقد تدارى المتخلفون خلف إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود حين قدموا له المعاذير وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم فى هذه المعاذير ، وكانوا سيتخلفون عن الركب حتى ولو لم يأذن لهم ، فعندئذ تتكشف حقيقتهم ، ويسقط عنهم ثوب النفاق ، ويظهرون للناس على طبيعتهم ، ولا يتوارون خلف إذن الرسول .

وإذا لم يكن ذلك فإن القرآن يتولى كشفهم، ويقرر القواعد التى يمتاز بها المؤمنون والمنافقون. فالذين يؤمنون بالله ، ويعتقدون بيوم الجزاء ، لا ينتظرون أن يؤذن لهم فى أداء فريضة الجهاد ، ولا يتلكؤون فى تلبية داعى النفرة فى سبيل الله بالأموال والأرواح ، بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله ، طاعة لأمره ، ويقيناً بلقائه ، وثقة . بجزائه ، وابتغاء لرضاه ، وإنهم

ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم ـ فضلاً عن الإذن لهم . إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكؤون ويتلمسون المعاذير ، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التى يتظاهرون بها ، وهم يرتابون فيها ويترددون .

ولقد كان أولئك المتخلفون ذوى قدرة على الخروج ، لديهم وسائله ، وعندهم عدته ، وقد كان فيهم عبد الله بن أبى ابن سلول ، وكان فيهم الجد بن قيس وكانوا أشرافاً فى قومهم أثرياء ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ ﴾ لما يعلمه من طبيعتهم ونفاقهم ، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين كما سيجىء .

﴿ فَثَبَّطَهُمۡ ﴾ ولم يبعث فيهم الهمة للخروج ، وتخلفوا مع العجائز والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون الغزو ، ولا ينبعثون للجهاد وهذا مكانهم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية ؛ وكان ذلك خيرًا للدعوة وخيرًا للمسلمين ؛ لأن القلوب الحائرة تبعث الخور والضعف فى الصفوف ، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ؛ ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطراباً وفوضى ؛ ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل ، وفى المسلمين من يسمع لهم فى ذلك الحين . ولكن الله الذى يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين ، كفى المؤمنين الفتنة ، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ مشروعية الحرب الاجتماعية التى تحشد لها جميع القوى والقدرات والإمكانات البشرية والمادية عندما تستلزم الضرورة ذلك ، كما حدث فى غزوة «تبوك» .

٢ ـ المنافقون فى كل زمان ومكان يريدون المغنم السهل ، ويحدثون الفتنة لتفرقة الصف وتمزيق الشمل .

٣ ـ عدم الاستماع إلى إذاعات الأعداء الكاذبة وما يشيعونه من أمن أو خوف لا فى سلم ولا فى حرب .

٤ ـ فضيلة الإيمان والتقوى إذ صاحبهما لا يمكنه أن يتخلف عن الجهاد بالنفس والمال .

٥ ـ خطر الشك فى العقيدة وأنه سبب الحيرة والتردد ، وصاحبه لا يقدر على الجهاد لا بالمال ولا بالنفس .

٦ ـ سوابق الشر تحول بين صاحبها وبين فعل الخير .

٧ ـ تدبير الله ـ تعالى ـ لأوليائه خير تدبير ، فلذا وجب الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم به .

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ
سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ
ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ
أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ
أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ
إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

معانى الكلمات :

قلبوا لك الأمور : دبروا لك الحيل والمكايد .

ولا تفتنى : ولا توقعنى فى الإثم .

قد أخذنا أمرنا من قبل : قد احتطنا لأنفسنا من قبل .

مولانا : ناصرنا ومتولى أمورنا .

هل تربصون بنا : ما تنتظرون بنا .

الحسنيين : النصر أو الشهادة .

كرهاً : مكرهين .

كسالى : متثاقلون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حقيقة المنافقين ووجوب الحذر منهم .

٢ ـ أن نعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

٣ ـ أن نحسن إخراج الصدقات ونقصد بالإنفاق وجه الله ـ تعالى .

٤ ـ أن نقوم إلى الصلاة متى سمعنا النداء دون تهاون أو تكاسل .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق فضح وكشف المنافقين وإن ماضيهم ليشهد بدخل نفوسهم،وسوء طويتهم ، فلقد وقفوا فى وجه الرسول ﷺ وبذلوا ما فى طوقهم ، حتى غلبوا على أمرهم فاستسلموا وفى القلب ما فيه ، لذا وصفهم الله ـ عز وجل : ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ وكان ذلك عند مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة ، قبل أن يظهره الله على أعدائه ، ثم جاء الحق وانتصرت كلمة الله ، فحنوا لها رؤوسهم وهم كارهون ، وظلوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين .

ثم يأخذ السياق فى عرض نماذج منهم ومن معاذيرهم المفتراة ؛ ثم يكشف عما تنطوى عليه صدورهم من التربص بالرسول ﷺ والمسلمين ، ومنهم الجد بن قيس الذى قال للرسول ﷺ : أو ائذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجبًا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسوله الله ﷺ وقال : قد أذنت لك « بمثل هذه المعاذير كان المنافقون يعتذرون والرد عليهم» : ﴿ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

ويصفهم القرآن بأنهم لا يريدون بالرسول خيرًا ولا بالمسلمين ، وإنهم ليسوؤهم أن يجد الرسول والمسلمون خيرًا، وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما ينزل بهم من مشقة ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بالنجاة وبما أصاب المسلمين من بلاء .

والله قد كتب للمؤمنين النصرة ووعدهم به فى النهاية ، فمهما يصبهم من شدة ، ومهما يلاقوا من ابتلاء ، فهو إعداد للنصر الموعود ؛ ليناله المؤمنون عن بينة ، وبعد تمحيص ، وبوسائله التى اقتضتها سنة الله ، نصرًا عزيزًا لا رخيصًا ، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء ، صابرة على كل تضحية ، والله هو الناصر وهو المعين .

والاعتقاد بقدر الله ، والتوكل الكامل على الله ، لا ينفيان اتخاذ العدة بما فى الطوق فذلك أمر الله الصريح ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال : ٦٠) ومن يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله ، ومن لا يأخذ بالأسباب ، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التى لا تحابى أحداً ، ولا تراعى خاطر إنسان !

على أن المؤمن أمره كله خير . سواء نال النصر أو نال الشهادة . والكافر أمره كله شر سواء أصابه عذاب الله المباشر أو على أيدى المؤمنين .

يقول صاحب الظلال : فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين ؟ إنها الحسنى على كل حال النصر الذى تعلو به كلمة الله ، فهو جزاؤهم فى هذه الأرض ، أو الشهادة فى سبيل الحق عليا الدرجات عند الله . وماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين ؟ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين؛ أو يبطش المؤمنون بهم كما وقع من قبل للمشركين ﴿ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ والعاقبة معروفة ، والعاقبة للمتقين .

ولقد كان بعض هؤلاء المعتذرين المتخلفين المتربصين ، قد عرض ماله ، وهو يعتذر عن الجهاد ؛ ذلك ليمسك العصا من الوسط على طريقة المنافقين فى كل زمان ومكان ، فرد الله عليهم مناورتهم ، وكلف رسوله أن يعلن أن إنفاقهم غير مقبول عند الله ؛ لأنهم إنما ينفقون عن رياء

وخوف ، لا عن إيمان وثقة ، وسواء بذلوه عن رضا منهم بوصفه ذريعة يخدعون بها المسلمين ، أو عن كره خوفًا من انكشاف أمرهم ، فهو فى الحالتين مردود ، لا ثواب له ولا يحسب لهم عند الله .

إنها صورة المنافقين فى كل آن ، خوف ومداراة ، وقلب منحرف وضمير مدخول، ومظاهر خالية من الروح ، وتظاهر بغير ما يكنه الضمير .

ويقول صاحب الظلال فى قوله تعالى فى وصف المنافقين : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ : فهم يأتونها مظهراً بلا حقيقة ، ولا يقيمونها إقامة واستقامة ؛ يأتونها كسالى لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير ، إنما يدفعون إليها دفعًا ، فيحسون أنهم عليها مسخرون ! وكذلك ينفقون ما ينفقون كارهين مكرهين ، وما كان الله ليقبل هذه الحركات الظاهرة التى لا تحدو إليها العقيدة ، ولا يصاحبها شعور دافع ، فالباعث هو عمدة العمل ، والنية هى مقياسه الصحيح .

ويواصل صاحب الظلال قوله : ولقد كان هؤلاء المنفقون وهم كارهون ذوى مال وذوى أولاد ، وذوى جاه فى قومهم وشرف ، ولكن هذا كله ليس بشىء عند الله ، وكذلك يجب ألا يكون شيئًا عند الرسول والمؤمنين . فما هى بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنؤوا بها ، إنما هى فتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ المنافقون أشد خطرًا على المسلمين من الكافرين ؛ لأنهم يدبرون المكائد فى الخفاء للمسلمين .

٢ ـ كل ما يصيبنا من خير أو شر ، أو خوف أو رجاء ، أو شدة أو رخاء مُقدر علينا ، مكتوب عند الله ـ تعالى ـ والله هو ناصرنا وحافظنا ، فلنفوض الأمر إليه ـ دائماً ـ ، ولنحسن التوكل عليه .

٣ ـ الله ـ تعالى ـ طيب لا يقبل من الصدقات والنفقات إلا ما كان طيبا ، وما أُنفق عن إيمان وإخلاص لله .

٤ ـ بيان أن المؤمنين بين خيارين فى جهادهم : النصر أو الشهادة .

٥ ـ مشروعية القول الذى يغيظ العدو ويحزنه .

٦ ـ حرمة التكاسل عن الصلاة وأن ذلك من صفات المنافقين .

الجزء العاشر — سورة التوبة

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾
وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ
قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ
أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ
فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا
هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ
لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ
فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ
ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ
لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

نصف الحزب ٢٠

١٩٦

معانى الكلمات :

تزهق أنفسهم : تخرج أرواحهم .

يفرقون : يخافون منكم فينافقونكم .

يجمحون : يسرعون فى الدخول فيه .

يلمزك : يعيبك ويطعن عليك .

فى الرقاب : فى عتق الأرقاء والأسرى .

الغارمين : المدينين الذين لا يجدون ما يسدون به ديونهم .

فى سبيل الله : فى الغزو والجهاد .

ابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله .

هو أذن : يسمع كل ما يقال له ويصدقه .

أذن خير لكم:يسمع الخير ولا يسمع الشر.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان صفات المنافقين ، وعدم الاغترار بهم ولا بأموالهم فإنها فتنة .

٢ ـ أن نعرف الآداب التى ينبغى أن نتخلق بها مع الله ورسوله وتشريعه .

٣ ـ بيان فرضية الزكاة ومعرفة مصارفها الشرعية .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يصحح المولى ـ عز وجل ـ المفاهيم للفئة المؤمنة فى نظرتهم لهؤلاء المنافقين، فلقد كانوا ذوى مال وذوى أولاد ، وذوى جاه فى قومهم وشرف ، ولكن هذا كله ليس بشىء عند الله ، وكذلك يجب ألا يكون شيئاً عند الرسول والمؤمنين . فما هى بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنؤوا بها ، إنما هى الفتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها .

ويقول صاحب الظلال:« إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده، حين يوفقه إلى الشكر على النعمة ، والإصلاح بها فى الأرض ، والتوجه بها إلى الله فإذا هو مطمئن الضمير ، ساكن النفس ، واثق من المصير ، كلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخراً ، وكلما أصيب فى ماله أو بنيه احتسب ، فإذا السكينة النفسية تغمره ، والأمل فى الله يسرى عنه .

وقد تكون نقمة يصيب الله بها عبدًا من عباده ؛ لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل ، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيمًا ، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه ، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى ، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا ويشقى بهم إذا صحوا . وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب !

وهؤلاء الذين كانوا على عهد الرسول ﷺ وأمثالهم فى كل زمان ، يملكون الأموال ويرزقون الأولاد ، يعجب الناس ظاهرها ، وهى لهم عذاب على نحو من الأنحاء . عذاب فى الحياة الدنيا وهم ـ بما علم الله من دخيلتهم ـ صائرون إلى الهاوية . هاوية الموت على الكفر ـ والعياذ بالله من هذا المصير .

ويتحدث السياق فاضحاً هؤلاء المنافقين الذين كانوا يدسون أنفسهم فى الصف المسلم ، لا عن إيمان واعتقاد ، ولكن عن خوف وتقية ، وعن طمع ورهب ، ثم يحلفون أنهم من المسلمين ، أسلموا اقتناعًا ، وآمنوا اعتقادًا ، فهذه السورة تفضحهم وتكشفهم على حقيقتهم ، فهى الفاضحة التى تكشف رداء المداراة وتمزق ثوب النفاق .

وهم كذلك جبناء متطلعون ـ دائماً ـ إلى مخبأ يحتمون به ، ويأمنون فيه ، فهم لا يحبون النور إنهم مذعورون مطاردون يطاردهم الفزع الداخلى والجبن الروحى .

ومنهم من يلمز النبى ﷺ فى توزيع الصدقات ، ويتهم عدالته فى التوزيع ؛ وهو المعصوم ذو الخلق العظيم ، ومنهم من يقول : هو أذن يستمع لكل قائل ، ويصدق كل ما يقال ، وهو النبى الفطن البصير المفكر .

ومنهم من يتخفى بالقولة الكافرة الفاجرة ، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف ليبرئ نفسه من تبعة ما قال ، ومنهم من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة تفضح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين .

وهؤلاء المنافقون الذين يلمزون الرسول ﷺ بالقول ، ويعيبون عدالته فى توزيع الصدقات ، ويدعون أنه ﷺ يحابى فى قسمتها . هم لا يقولون ذلك غضبًا للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولا غيرة على الدين ، إنما يقولونه لحساب ذواتهم وأطماعهم ، وحماسة لمنفعتهم وأنانيتهم : ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ ﴾ ولم يبالوا بالحق والعدل والدين ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ !

وبمناسبة هذه الأخلاق السيئة التى يبوء بها المنافقون يرسم السياق الطريق اللائق بالمؤمنين الصادقين ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : فهذا هو أدب النفس وأدب اللسان وأدب الإيمان : الرضا بقسمة الله ورسوله ، رضا التسليم والاقتناع لا رضا القهر والغلب ، والاكتفاء بالله ، والله كاف عبده . والرجاء فى فضل الله ورسوله والرغبة فى الله خالصة من كل كسب مادى ومن كل طمع دنيوى . ذلك أدب الإيمان الصحيح الذى ينضح به قلب المؤمن . وإن كانت لا تعرفه قلوب المنافقين ، الذين لم تخالط بشاشة الإيمان أرواحهم ، ولم يشرق فى قلوبهم نور اليقين .

وبعد بيان هذا الأدب اللائق فى حق الله وحق رسوله ـ تطوعاً ورضا وإسلامًا ـ يقرر أن الأمر ـ مع ذلك ـ ليس أمر الرسول ، إنما هو أمر الله وفريضته وقسمته ، وما الرسول فيها إلا منفذ الفريضة المقسومة من رب العالمين ، فهذه الصدقات ـ أى الزكاة ـ تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله ، وترد على الفقراء فريضة من الله . وهى محصورة فى طوائف من الناس يعينهم القرآن ، وليست متروكة لاختيار أحد ، حتى ولا اختيار الرسول .

وبذلك تأخذ الزكاة مكانها فى شريعة الله ، ومكانها فى النظام الإسلامى ، لا تطوعًا ولا تفضلاً ممن فرضت عليهم . فهى فريضة محتمة ، ولا منحة ولا جزافاً من القاسم الموزع ، فهى فريضة معلومة . إنها إحدى فرائض الإسلام تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدى بها خدمة اجتماعية محددة ، وهى ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذة من الآخذ ، كلا فما قام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ، ولن يقوم !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ يتصف المنافقون بأخس الصفات ، ولا يجوز الإعجاب بما عندهم من مال أو أولاد ، فإنما هى فتنة واستدراج لهم إلى عذاب الله .

٢ ـ من صفات المنافقين عدم تحمل المسؤولية ، والطعن فى الدين ، وفى شخصية الرسول ﷺ وتصرفات القيادة ، والفرح بالغنائم إن أخذوا منها نصيباً وافراً ، وعدم التسليم لله أو الرغبة فى ثوابه .

٣ ـ مصارف الزكاة ثمانية لا يجوز صرفها فى غير تلك المصارف ، كما لا يجوز منع صنف من هذه الأصناف إذا وجد .

٤ ـ ذم الصالحين والطعن فيهم ظاهرة دالة على فساد القلوب والنيات .

٥ ـ وعيد الله الشديد فى الدنيا والآخرة لمن يؤذى الرسول ﷺ أو يسىء إليه بأى شكل من الأشكال ، حال حياته وبعد مماته .

الجزء العاشر — سورة التوبة

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾

١٩٧

معانى الكلمات :

من يحادد الله : من يخالفه ويعاديه .

تنبئهم : تخبرهم .

مُخْرِجُ : مظهر ومبرز .

نخوض ونلعب : نتلهى بالحديث .

يقبضون أيديهم : يبخلون فلا يبسطون أيديهم فى خير وطاعة .

فنسيهم : فلم يوفقهم ولم يهدهم .

هى حسبهم : هى كافيتهم عقاباً على كفرهم .

مقيم : دائم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نخالف المنافقين فى سلوكهم ونحذرهم ولا نواليهم فإن بعضهم من بعض .

٢ ـ أن نعلم أن الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف من علامات المنافقين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من سيماء المؤمنين .

٣ ـ أن نقصد بكل أقوالنا وأعمالنا وجه الله ـ عز وجل ـ ورضاه فالمنافقون يعملون رئاء الناس

المحتوى التربوى :

يواصل السياق فضحه للمنافقين فهم يحلفون بالله للمؤمنين ليرضوهم ، على طريقة المنافقين فى كل زمان ، الذين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من وراء الظهور ؛ ثم يجنبون عن المواجهة ، ويضعفون عن المصارحة ، فيتضاءلون ويتخاذلون للناس ليرضوهم ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

فماذا يكون الناس ؟ وماذا تبلغ قوتهم ؟ ولكن الذى لا يؤمن بالله عادة ولا يعنو له ، يعنو لإنسان مثله ويخشاه ؛ ولقد كان خيرًا أن يعنو لله الذى يتساوى أمامه الجميع ، ولا يذل من يخضع له ، إنما يذل من يخضع لعباده ، ولا يصغر من يخشاه ، إنما يصغر من يعرضون عنه فيخشون من دونه من عباد الله .

إنهم يخشون عباد الله فيحلفون لهم ليرضوهم ، ولينفوا ما بلغهم عنهم . فكيف لا يخشون خالق العباد ، وهم يؤذون رسوله ، ويحاربون دينه ، فإنما يحاربون الله ، تعالى الله أن يقصده أحدٌ بحرب ! إنما هو تفظيع ما يرتكبون من إثم ، وتجسيم ما يقارفون من خطيئة ، وتخويف من يؤذون رسول الله ، ويكيدون لدينه فى الخفاء .

وإنهم لأجبن من أن يواجهوا الرسول ﷺ والذين معه ، وإنهم ليخشون أن يكشف الله سترهم وأن يطلع رسول الله ﷺ على علة نواياهم ، ويحذر القرآن المنافقين أن ينزل الله قرآنا يكشف خبيئتهم ، ويتحدث عما فى قلوبهم ، فينكشف للناس ما يخبئونه .

وقد وردت عدة روايات عن حوادث معينة فى سبب نزول هذه الآيات منها : ما أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : « بينما رسول الله ﷺ فى غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناس من المنافقين فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات . فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك . فقال النبى ﷺ :» واحسبوا علىَّ هؤلاء الركب » فأتاهم فقال : قلتم كذا قلتم كذا. قالوا : يانبى الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون .

يقول صاحب الظلال : « إنما كنا نخوض ونلعب » كأن هذه المسائل الكبرى التى يتصدون لها ، وهى ذات صلة وثيقة بأصل العقيدة كأن هذه المسائل مما يخاض فيه ويلعب : ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

لذلك ، لعظم الجريمة ، يجبههم بأنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إيمانهم الذى أظهروه ، وينذرهم بالعذاب ، الذى إن تخلف عن بعضهم لمسارعته إلى التوبة وإلى الإيمان الصحيح ، فإنه لن يُصرف عن بعضهم الذى ظل على نفاقه واستهزائه بآيات الله ورسوله ، وبعقيدته ودينه .

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من استعراض تلك النماذج من أقوال المنافقين وأعمالهم وتصوراتهم ، يعمد إلى تقرير حقيقة المنافقين بصفة عامة ، وعرض الصفات الرئيسية التى تميزهم عن المؤمنين الصادقين وتحديد العذاب الذى ينتظرهم أجمعين .

فهم من طينة وطبيعة واحدة وكل أفعالهم فى كل زمان ومكان تنبع من معين واحد . سوء الطوية ولؤم السريرة ، والغمز والدس ، والضعف عن المواجهة ، والجبن عن المصارحة . تلك سماتهم الأصيلة ، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف والبخل بالمال إلا أن يبذلوه

رثاء الناس ، إنهم ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة ، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويدارونهم ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ الله فلا وزن ولا اعتبار لهم ، وإنهم لكذلك فى الدنيا بين الناس ، وإنهم لكذلك فى الآخرة عند الله ، ما يحسب الناس حساباً إلا للرجال الأقوياء الصرحاء ، الذين يجهرون بآرائهم ، ويقفون خلف عقائدهم ؛ ويواجهون الدنيا بأفكارهم ، ويحاربون أو يسالمون فى وضح النهار ، أولئك ينسون الناس ليذكروا إله الناس ، فلا يخشون فى الحق لومة لائم ، وأولئك يذكرهم الله فيذكرهم الناس ويحسبون حسابهم .

وهم بوصفهم هذا فاسقون خارجون عن الإيمان ، منحرفون عن الطريق ، وقد وعدهم الله مصيراً كمصير الكفار : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ﴾ وفيها كفايتهم وهى كفاء إجرامهم وهم كذلك مطرودون من رحمة الله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

قال القاسمى : قال الشهاب : ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ أنهم لا يذكرونه ولا يطيعونه ؛ لأن الذكر له مستلزم لإطاعته ، فجعل النسيان مجازاً عن الترك ، وهو كناية عن ترك الطاعة ، ونسيان الله منع لطفه وفضله عنهم . وقال النحرير : جعل النسيان مجازاً لاستحالة حقيقته عليه ـ تعالى ، وامتناع المؤاخذة على نسيان البشر .

ويقول صاحب الأساس بمناسبة قوله ـ تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾: أى كأنهم نفس واحدة ، وفيه نفى أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيب لهم فى ادّعائهم أنهم من المسلمين، فإذا رأيت إنساناً مستور الحال يوالى منافقاً مكشوف النفاق فاعلم أنه مظنة النفاق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المؤمن يعمل ـ دائماً ـ لإرضاء الله ورسوله ، والمنافق يحاول إرضاء الناس ، ولو بالحلف الكاذب ؛ لعدم إيمانه .

٢ ـ كفر من استهزأ بالله أو آياته أو رسوله .

٣ ـ الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف علامة النفاق وظاهرة الكفر ، وانتكاس الفطرة .

٤ ـ إذا رأيت إنساناً مستور الحال يوالى منافقاً مكشوف النفاق فاعلم أنه مظنة النفاق .

٥ ـ لا يُقبل اعتذار من كفر بأى وجه وإنما التوبة أو السيف كُفراً .

الجزء العاشر — سورة التوبة

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

١٩٨

معانى الكلمات :

فاستمتعوا بخلاقهم : فتمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا .

خضتم : دخلتم فى الباطل .

حبطت أعمالهم: بطلت وذهبت أجورها

المؤتفكات : المنقلبات (قرى لوط) .

أولياء : أصدقاء ونصراء .

بالمعروف : بكل ما استحسنه الشرع وأمر به .

المنكر : كل ما استقبحه الشرع ونهى عنه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتبر بمن سبقنا من الأمم التى كذبت رسلهم فحل بهم العذاب .

٢ ـ أن نتعاون على البر والتقوى وكل ما يرضى المولى ـ عز وجل .

٣ ـ أن نؤدى حقوق الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين من النصيحة والتعاون على البر والنصرة .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن أن هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة للمنافقين ، ليست جديدة ، ففى تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال ، ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز ، ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة ، بعدما استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم فى هذه الأرض . وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فلم يغن عنهم من ذلك كله شيء .

والقرآن يذكر القوم بما كان من أسلافهم ، ويبصرهم بأنهم يسلكون طريقهم ، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم لعلهم يهتدون . **ويتحدث صاحب الظلال** عن هذه الفتنة فيقول : « إنها الفتنة بالقوة ، والفتنة بالأموال والأولاد ، فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يفتنون

بالقوة العارضة التى تخول لهم فى الأرض . لأنهم يخشون من هو أقوى ، فينفقون قوتهم فى طاعته وإعلاء كلمته . وهم لا يفتنون بالأموال والأولاد ؛ لأنهم يذكرون من أنعم عليهم بالأموال والأولاد ، فيحرصون على شكر نعمته ، وتوجيه أموالهم وأولادهم إلى طاعته . وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطرون ويفجرون فى الأرض، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .

وكذلك بطلت أعمالهم بطلاناً أساسياً ؛ لأنها كالنبتة بلا جذور ، لا تستقر ولا تنمو ولا تزدهر ، ولذا فهم خسروا كل شىء على وجه الاجمال بلا تحديد ولا تفصيل ، ويتعجب القرآن من هؤلاء الذين يستمتعون غير شاعرين، ويسيرون فى طريق الهلكى ولا يتعظون ..هؤلاء ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ممن ساروا فى نفس الطريق ؟ ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وقد غمرهم الطوفان وطواهم اليم فى تيار الفناء المرهوب ﴿ وَعَادٍ ﴾ وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية ، ﴿ وَثَمُودَ ﴾ وقد أخذتهم الصحية ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وقد أهلك طاغيتهم المتجبر وأنجى إبراهيم ، ﴿ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ ﴾ وقد أصابتهم الرجفة وخنقتهم الظلة ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾ قرى قوم لوط وقد قطع الله دابرهم إلا الأقلين .. ألم يأتهم نبأ هؤلاء الذين ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فكذبوا بها ، فأخذهم الله بذنوبهم .

يقول صاحب الظلال : « إن النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر ، وتعميها النعمة فلا تنظر ، وما تنفع عظات الماضى ولا عبره إلا من تنفتح بصائرهم لإدراك سنة الله التى لا تتخلف ، ولا تتوقف ، ولا تحابى أحداً من الناس ، وإن كثيراً ممن يبتليهم الله بالقوة وبالنعمة لتغشى أبصارهم وبصائرهم غشاوة ، فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم ، ولا يستشعرون مصير البغاة الطغاة من الغابرين . عندئذ تحق عليهم كلمة الله ، وعندئذ تجرى فيهم سنة الله ، وعندئذ يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وهم فى نعمائهم يتقلبون ، وبقوتهم يتخايلون ، والله من ورائهم محيط . إنها الغفلة والعمى والجهالة نراها تصاحب القوة والنعمة والرخاء ، نراها فى كل زمان وفى كل مكان إلا من رحم الله من عباده الصالحين .

وفى مقابل المنافقين والكفار ، يقف المؤمنون الصادقون . طبيعة غير الطبيعة ، وسلوكاً غير السلوك ومصيراً غير المصير فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض لكن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف . وطبيعة النفاق تأبى هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم . إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل ، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة ، على ما يبدو بينهم من تشابه فى الطبيعة والخلق والسلوك . وإن

طبيعة المؤمن هى طبيعة الأمة المؤمنة . طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل والتضامن فى تحقيق الخير ودفع الشر . فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهم كذلك ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الصلة التى تربطهم بالله . ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ الفريضة التى تربط بين الجماعة المسلمة وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن .

يقول صاحب الظلال : « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من تكاليف الأمة الخيرة ، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، وبكل ما فى طريقها من أشواك ، وكل هذا متعب شاق ، ولكنه كذلك ضرورى لإقامة المجتمع الصالح وصيانته .

وكذلك من صفات المؤمنين التى وردت فى الآيات أنهم « يطيعون الله ورسوله » فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله ، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله ، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله ، وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم ، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد المستقيم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ والرحمة لا تكون فى الآخرة وحدها ، إنما تكون فى هذه الأرض أولاً ورحمة الله تشمل الفرد الذى ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح . رحمة الله فى اطمئنان القلب ، وفى الاتصال بالله وفى الرعاية والحماية من الفتن والأحداث ورحمة الله فى صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ضرورة الاعتبار بمن سبق من الأمم الذين كذبوا رسلهم فحل بهم العذاب .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن هم الذين يظلمون أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصى .

٣ ـ المؤمنون والمؤمنات أخوة فى الدين يتناصرون ويتعاونون ، من أهم صفاتهم التى استحقوا بها رحمة الله وجناته ونعيمه ورضوانه .

أ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ب - أداء الصلاة على الوجه الأكمل .

جـ - إعطاء الزكاة إلى مستحقيها ، ابتغاء وجه الله .

د - طاعة الله ورسوله فى كل أمر ونهى .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

ربع الحزب ٢٠

معانى الكلمات :

أغلظ عليهم : شدد عليهم ولا ترفق بهم .

ما نقموا : ما كرهوا .

لنصدقن : لنتصدقن .

تولوا : أعرضوا عن طاعة الله .

فأعقبهم : فجعل مصيرهم .

نجواه: ما يتحدثون به سراً طعنا فى الدين .

يلمزون : يعيبون .

بجهدهم : طاقتهم ووسعهم .

سخر الله منهم:أهانهم وأذلهم جزاء وفاقاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف خطر المنافقين على الصف الإسلامى ونحذرهم .

٢ ـ أن نلتزم بأوامر الشرع فى معاملة أهل النفاق .

٣ ـ أن نتحرى صدق النية وإخلاصها فى كل قول وعمل .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات وبعد أن بين الله ـ عز وجل ـ صفة المؤمنين الصادقين وصفة المنافقين الذين يدّعون الإيمان ، يأمر الله نبيه أن يجاهد الكفار والمنافقين ، ويقرر القرآن الكريم أن هؤلاء قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بأمر خيبهم الله فيه ، وهو من وحى الكفر الذى صاروا إليه . ويعجب من نقمتهم على رسول الله ﷺ وما كان لهم من بعثته إلا الخير والغنى ويرغبهم فى التوبة ويخوفهم التمادى فى الكفر والنفاق .

وفى الأمر بقتال الكفار والمنافقين **يقول صاحب الظلال** : هذه الآية لها معناها وقيمتها فى ضرورة حماية المحضن الذى تتم فيه الوقاية من النار ، فلا تترك هذه العناصر المفسدة التى تهاجم المعسكر الإسلامى وهم الكفار ، أو تهاجمه كما كان المنافقون يفعلون » .

لقد كان الرسول ﷺ لاين المنافقين كثيراً ، وأغضى عنهم كثيراً ، وصفح عنهم كثيراً فها هو ذا يبلغ الحلم غايته ، وتبلغ السماحة أجلها ، ويأمره ربه أن يبدأ معهم خطة جديدة ويلحقهم بالكافرين فى النص ، ويكلفه جهاد هؤلاء وهؤلاء جهاداً عنيفاً غليظاً لا رحمة فيه ولا هوادة .

إن للين مواضعه وللشدة مواضعها . فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة ؛ وإذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع ، وللحركة مقتضياتها ، وللمنهج مراحله ، واللين فى بعض الأحيان قد يؤذى ، والمطاولة قد تضر .

يقول صاحب الظلال : وقد اختلف فى الجهاد والغلظة على المنافقين ؛ أتكون بالسيف كما روى عن على ـ كرم الله وجهه ـ واختاره ابن جرير ـ رحمه الله ـ أم تكون فى المعاملة والمواجهة وكشف خبيئاتهم للأنظار كما روى عن ابن عباس ﷺ والذى وقع أن رسول الله ﷺ لم يقتل المنافقين .

ويكشف السياق القرآنى خبيئة نفوسهم ودخيلتهم فى همهم بخيانة الرسول ﷺ وقتله ، ثم يعقب على هذا التعجيب من أمرهم بعد كشف خبيئاتهم بالحكم الفاصل ـ فاتحاً لهم باب التوبة على مصراعيه ، فمن شاء لنفسه الخير فليدلف إلى الباب المفتوح ومن أراد أن يمضى فى طريقه الأعوج ، فالعاقبة كذلك معروفة : العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، وانعدام الناصر المعين فى هذه الأرض ، ولمن شاء أن يختار ، وهو وحده هو الملوم .

فى قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾ توضيح بأن هؤلاء المنافقين كان يحلفون كلما انكشف أمرهم ، **وقد ذكر صاحب الظلال** ذلك فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ (المنافقون : ٢) يقول : « كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم ، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم » .

ثم يمضى السياق فى عرض نماذج من المنافقين وأحوالهم وأقوالهم من قبل الغزوة وفى ثناياها . فمن المنافقين من عاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه ، ليبذلن الصدقة ، وليصلحن العمل ، ولكن هذا العهد إنما كان فى وقت فقره وحسرته . وفى وقت الرجاء والطمع فلما أن استجاب الله له ورزقه من فضله نسى عهده ، وتنكر لوعده ، وأدركه الشح والبخل فقبض يده ، وتولى معرضاً عن الوفاء بما عاهد فكان هذا النكث بالعهد مع الكذب على الله فيه سبباً فى التمكين للنفاق فى قلبه ، والموت مع هذا النفاق ، ولقاء الله به .

والنفس البشرية ضعيفة شحيحة ، إلا من عصم الله ؛ ولا تطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان ، وترتفع على ضرورات الأرض ، وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب ، لأنها تؤمل فى رضوان من الله أكبر . والقلب المؤمن يطمئن بالإيمان ، فلا يخشى الفقر بسبب الإنفاق ، لأنه يثق بأن ما عند الناس ينفد وما عند الله باق ، وهذا الاطمئنان يدفع به إلى انفاق المال فى

سبيل الله تطوعاً ورضا وتطهراً ، وهو آمن مغبته ، فحتى لو فقد المال وافتقر منه ، فإنه له عوض أعظم عند الله .

فأما حين يقفر القلب من الإيمان الصحيح ، فالشح الفطرى يهيج فى نفسه كلما دعا إلى نفقة أو صدقة ، والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل . ثم يبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار ، والذى يعاهد الله ثم يخلف العهد ، والذى يكذب على الله فلا يفى بما وعد ، لا يسلم قلبه من النفاق : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان» .

فلا جرم يعقب إخلاف العهد والكذب على الله نفاقاً دائماً فى قلوب تلك الطائفة التى تشير إليها الآية : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ وجهل هؤلاء المنافقون أن الله مطلع على السرائر ، عالم بما يدور بينهم من أحاديث، يحسبونها سراً بينهم ؛ لأنهم يتناجون بها فى خفية عن الناس ؟ وأن الله يعلم الغيب الخافى المستور، فيعلم حقيقة النوايا فى الصدور ، ولقد كان مقتضى علمهم بهذا ، ألا يستخفوا عن الله بنية ، وألا تحدثهم نفوسهم بإخلاف ما عاهدوا الله عليه ، والكذب عليه فى إعطاء العهود .

وتعرض الآيات نموذجاً جديداً للنفاق وأهله ، ومن قبل أخبرنا الله عن المنافقين بأنهم (يقبضون أيديهم) ، وبعد ذكر هذا النموذج ذكر الله ـ عز وجل ـ صفة أخرى من صفاتهم وهى أنه لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم فى جميع الأحوال ، حتى المتصدقون لا يسلمون منهم ، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بشىء يسير قالوا : إن الله لغنى عن صدقة هذا .

فلا يسلم من تجريحهم أحد من الخيرين ، ذلك وهم قاعدون متخلفون منقبضو الأيدى شحيحو الأنفس ومن ثم يجبههم الرد الحاسم ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المنافقون خطر شديد على الإسلام والمسلمين فى كل أمة وفى كل وقت .

٢ ـ ضرورة الوفاء بالوعد ، والصدق مع الله ـ تعالى .

٣ ـ الله ـ تعالى ـ لا يقبل من الصدقات إلا ما كان عن طيب نفس ، ومن غير رياء أو حب للظهور والتفاخر .

٤ ـ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أسرار عباده وأحوالهم ، ولا يخفى عليه شىء مما فى صدورهم، ومما يتحدثون به بينهم ، وسيجازى كل إنسان على ما عمل أو قال .

٥ ـ ليست العبرة فى قبول الصدقات بكثرتها ولا بقلتها ، وإنما بإخلاص النية لله فيها .

الجزء العاشر — سورة التوبة

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا
جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن
تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا
مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ
عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ
(٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا
أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ
أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦)

٢٠٠

معانى الكلمات :

خلاف رسول الله : بعد خروجه ، أو لأجل مخالفته .

الخالفين : المتخلفين عن الجهاد .

لا تنفروا : لا تخرجوا للجهاد .

لا تقم على قبره : لا تقف على قبره للدفن أو الزيارة .

أولو الطول منهم : أصحاب الغنى .

ذرنا : اتركنا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف علامات النفاق ونحذر الوقوع فيها .

٢ ـ أن ندرك قيمة الجهاد فى سبيل الله وطبائع المجاهدين .

٣ ـ ألا نفرح بترك الطاعة وفواتها فإنها شؤم على صاحبها .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يخبر الله تعالى رسول ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم رسول الله ﷺ سبعين مرة ، فلن يغفر الله لهم ؛ بسبب كفرهم بالله ورسوله ، ولأن سنة الله أنه لا يهدى القوم الفاسقين .

ويبدو أن الرسول ﷺ كان يستغفر للمخطئين عسى أن يتوب الله عليهم . فأما هؤلاء فقد أخبرنا بأن مصيرهم قد تقرر ، فلا رجعة فيه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ . أولئك الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد ترجى لهم أوبة، وفسدت قلوبهم فلم يعد يُرجى لها صلاح .

قال الزمخشرى : « فإن قلت : كيفَ خفى على أفصح الخلق وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته أن الاستغفار لا يجدى ، قلت : لم يخف عليه ولكنه فعل ما فعل إظهارًا لغاية رحمته ورأفته على من إليه ، وهو كقول إبراهيم ﷺ : ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (إبراهيم) وهذا باعث على رحمة بعضهم بعضًا » .

وتتحدث الآيات مرة عن المتخلفين عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ويستمر السياق يصور لنا المنافقين فى أحوالهم وأقوالهم ، وفى سياق الأمر بالنفير وموقفهم منه . وبعد هذه الجولات الطويلة ، تأتى الآن صورتان للتخلف عن النفير : صورة التخلف المنافق ، وصورة التخلف الاضطرارى للمؤمنين، فأما التخلف المنافق فتخلف يرافقه فرح ، وكراهية للجهاد فى سبيل الله، ومحاولة لتثبيط عن النفير ، وأشر وبطر ، ومن ثم فإن هؤلاء لا يستحقون شرف الجهاد ، ولا يستحقون كرامة الصلاة عليهم إذا ماتوا .

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض ، ثقلة الحرص على الراحة ، والشح بالنفقة ، وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان ، هؤلاء المخلفون الذين فرحوا بالسلامة والراحة ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ وتركوا المجاهدين يلاقوا الحر والجهد وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال ! ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ﴾ وهى قولة المسترخى الناعم الذى لا يصلح لشىء مما يصلح له الرجال .

ويقول صاحب الظلال : « إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة ، وطراوة الإرادة ، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب ، وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز ، وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات . ولكن هذه الصفوف تظل فى طريقها المملوء بالعقبات والأشواك ، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة فى الإنسان ، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التى لا تليق بالرجال » .

وهؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد ـ فى ساعة العسرة ـ وتخلفوا عن الركب فى أول مرة، هؤلاء لا يصلحون لكفاح ، ولا يرجون لجهاد ، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضى ، ولا أن يُتاح لهم شرف الجهاد الذى تخلوا عنه راضين .

لذا أمر الله ـ عز وجل ـ نبيه ﷺ أن يقول لهم : ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : إن الدعوات فى حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد فى الكفاح الطويل الشاق ،والصف الذى يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد؛ لأنهم

يخذلونه فى ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب . فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيدا عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة . والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف فى ساعة الشدة ، ثم يعودون إليه فى ساعة الرخاء ، جناية على الصف كله ، وعلى الدعوة التى يكافح فى سبيلها كفاحه المرير .

هذا هو الطريق الذى رسمه الله ـ تعالى ـ لنبيه الكريم ، وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبداً، فليعرف أصحابها فى كل زمان وفى كل مكان ذلك الطريق ، وكما أمر الله رسوله ﷺ بألا يسمح للمتخلفين فى ساعة العسرة أن يعودوا فينتظموا فى الصفوف ، كذلك أمره ألا يخلع عليهم أى ظلال من ظلال التكريم .

فأمره ألا يصلى على أحد مات أبداً وألا يقوم على قبره ، فالصلاة والقيام تكريم ، والجماعة المسلمة يجب ألا تبذل هذا التكريم لمن يتخلف عن الصف فى ساعة الجهاد ؛ لتبقى له قيمته ، ولتظل قيم الرجال منوطة بما يبذلون فى سبيل الله ،وبما يصبرون على البذل ، ويثبتون على الجهد ، ويخلصون أنفسهم وأموالهم لله لا يتخلفون بها فى ساعة الشدة ، ثم يعودون فى الصف مكرمين !

فلا تكريم ظاهر يناله المنافقون فى أعين الجماعة ، ولا تكريم باطن فى عالم الضمير : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ . فلا يقام لهم وزن لأموالهم وأولادهم ؛ لأن الإعجاب بها نوع من التكريم الشعورى لهم ، وهم لا يستحقونه لا فى الظاهر ولا فى الشعور ، إنما هو الاحتقار والإهمال لهم ولما يملكون .

وتظهر طبيعة النفاق والضعف والاستخذاء ، وخطة الالتواء والتخلف والرضا بالدون ، فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولو الطول ، الذين يملكون كل وسائل الجهاد والبذل ، جاءوا لا يتقدمون الصفوف كما تقتضيهم المقدرة التى وهبها الله لهم ، وشكر النعمة التى أعطاها الله إياهم ، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء لا يذودون عن حرمة ، ولا يدفعون عن سكن دون أن يستشعروا ما فى هذه القعدة الذليلة من صغار وهوان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تحمل الشدائد فى الدنيا فى سبيل الله يكون سبباً فى النجاة من شدائد الآخرة وأهوالها .

٢ ـ من علامات النفاق الفرح بطاعة غير الله وكراهية طاعة الله ورسوله .

٣ ـ تعمد ترك الطاعة قد يسبب الحرمان منها .

٤ ـ كراهة الصلاة على أهل الفسق دون الكفر .

٥ ـ حرمة غسل الكافر والقيام على دفنه والدعاء له .

الجزء العاشر — سورة التوبة

رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)

٢٠١

معانى الكلمات :

الخوالف : النساء المتخلفات عن الجهاد .

طُبع : خُتم .

المفلحون : الفائزون .

المعذرون : المعتذرون بالأعذار الكاذبة .

الضعفاء : كالشيوخ .

حرج : إثم أو ذنب .

تولوا : انصرفوا .

تفيض من الدمع : تمتلئ بالدمع فتصبه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان فضل الجهاد وأهميته وأجر المجاهدين .

٢ ـ بيان حرمة التخلف عن الجهاد بدون عذر شرعى أو إذن من الإمام .

٣ ـ بيان يسر الإسلام وسماحته لأهل الأعذار فى عدم المشاركة فى الجهاد .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق يصف الاستخذاء والذل عند المنافقين الذين لو أدركوا ما فى الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم وما فى التخلف من ضعف ومهانة وفناء ذميم ، لما رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، ويتحدث صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ عن هؤلاء الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف أنهم يدفعون ضريبة الذل : « وإن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة . وإن ضريبة الذل لأفدح فى كثير من الأحايين ، وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق ، فتختار الذل والمهانة ـ هرباً من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة مفزعة قلقلة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة ، إنهم يؤدون

ضريبة الذل كاملة ، يؤدونها من نفوسهم ، ويؤدونها من أقدارهم ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم ، وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون » .

ومن هؤلاء .. أولئك الذين ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ وهم طراز آخر غير ذلك الطراز .. ﴿ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ فنهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا واجب الإيمان ؛ وعملوا للعزة التى لا تُنال بالقعود ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾ ، خيرات الدنيا والآخرة ، فى الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية ، وفى الآخرة لهم الجزاء الأوفى .

ولهم رضوان الله الكريم ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الفلاح فى الدنيا بالعيش الكريم ، والفلاح فى الآخرة بالأجر العظيم . ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

فأما الأولون فهم ذوو الأعذار الحقيقية ، فلهم عذرهم ـ إن استأذنوا فى التخلف ، وأما الآخرون فقعدوا بلا عذر . قعدوا كاذبين على الله والرسول ، وهؤلاء ينتظر الذين كفروا منهم عذاب أليم . أما الذين يتوبون ولا يكفرون فمسكوت عنهم ، لعل لهم مصيراً غير هذا المصير .

وأخيراً يحدد التبعة ، فليس الخروج ضربة لازب على من يطيقون ومن لا يطيقون ، فالإسلام دين اليسر ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، والذين عجزوا عن النفرة لا تثريب عليهم ولا مؤاخذة لهم ؛ لأنهم معذورون ، فليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلة فى تكوينهم ، أو لشيخوخة تقعدهم ؛ ولا على المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهد ؛ ولا على المعدمين الذين لا يجدون ما يتزودون به ، ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة فى الميدان ، وقلوبهم مخلصة لله ورسوله ، لا يغشون ولا يخدعون ، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه ـ دون القتال ـ من حراسة أو صيانة أو قيام على النساء والذرية فى دار الإسلام ، أو أعمال أخرى تعود بالنفع على المسلمين . ليس عليهم جناح ، وهم يحسنون بقدر ما يستطيعون ، فلا جناح على المحسنين ، إنما الجناح على المسيئين .

إنه الجهاد بمفهومه الشامل وهو نابع من شمولية الإسلام ، فليس الإسلام طقوسًا وشعائر فهذا ما يريده أعداء الإسلام وأذنابهم ، من فصله عن حياة الأمة .

ولا جناح كذلك على القادرين على الحرب ، ولكنهم لا يجدون الرواحل التى تحملهم إلى أرض المعركة ، فإذا حرموا المشاركة فيها لهذا السبب،ألمت نفوسهم حتى لتفيض أعينهم بالدمع؛ لأنهم لم يجدوا ما ينفقون .

قد أشار الأستاذ **الشيخ محمد أبو زهرة** إلى قوة وعزيمة بعض هؤلاء الضعفاء بقوله : « وإنه يجب أن ننبه أن بعض الضعفاء الذين رفع عنهم الحرج بسبب ضعفهم ، لم يرضوا بأن يكونوا قاعدين ، وإخوانهم يجاهدون ، بل ذهبوا وجاهدوا ، وتقدم أحدهم وهو أعرج ، قال : لا بد أن أكون بعرجى فى الجنة ولم يتراخ ، ولم يرض بالقعود ، وذهب بعضهم وهو يهادى بين رجلين ، حتى وصل إلى الصف ليموت مجاهدًا ـ ﷺ».

ويقول صاحب الظلال : « وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة فى الجهاد ، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه ، وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين فى عهد الرسول ﷺ تختلف الروايات فى تعيين أسمائهم ، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة .

روى العوفى ، عن ابن عباس : « وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المازنى ، فقالوا : يا رسول الله احملنا، فقال لهم : « والله لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وهم يبكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه ، وقال مجاهد . نزلت فى بنى مقرن من مزينة .

وبمثل هذه الروح انتصر الإسلام ، وبمثل هذه الروح عزت كلمته ، فلننظر أين نحن من هؤلاء ، ولننظر أين روحنا من تلك العصبة ، ثم لنطلب النصر والعزة ـ إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر ـ وإلا فلنسدد ولنقارب والله المستعان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ذم المتخلفين عن الجهاد مع القدرة عليه مع وجود الغنى والسعة جبناً وإيثاراً للراحة .

٢ ـ فضل الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال ، وعظمة ثواب المجاهدين فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ الجهاد شرف عظيم لا يناله إلا ذوو الهمم العالية ، ويُحرم منه أهل النفاق وأهل الأعذار لأتفه الأسباب .

٤ ـ حرمة الاستئذان للتخلف عن الجهاد مع القدرة عليه .

٥ ـ حرمة التخلف عن الجهاد بدون إذن من الإمام .

٦ ـ يسر الإسلام وسماحته فى قبول أعذار أصحاب الأعذار وإعفاء المرضى والضعاف وكبار السن ، والعمى والعرج ونحوهم ، ومن لا يقدر على التجهيز للحرب ، أو الخروج لها بسبب فقره كما حدث للبكائين .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٢٠٢

معانى الكلمات :

لن نؤمن لكم : لن نصدقكم .

نبأنا الله : أخبرنا .

انقلبتم : رجعتم .

رجس : قذر لخبث باطنهم .

الأعراب : أهل البدو .

أجدر : أحق وأولى .

مغرماً : غرامة وخسراناً .

يتربص بكم الدوائر : ينتظر أن تنزل بكم المصائب .

صلوات الرسول : دعواته واستغفاره للمنفقين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف صفات المنافقين الواردة فى الآيات ، ونحذر الوقوع فيها عند التعامل مع أوامر الله ـ عز وجل .

٢ ـ أن نقصد بكل قول وعمل رضا الله ـ عز وجل ـ لا رضا الناس .

٣ ـ أن نعرف فضل الإنفاق فى سبيل الله ، ونتحرى فى إنفاقنا وجه الله ـ عز وجل ـ وابتغاء المثوبة .

المحتوى التربوى :

فى الآيات السابقة رفع الله ـ عز وجل ـ الحرج عن الضعفاء ، والمرضى ، والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ، ولا يجد لهم الرسول ﷺ ما يحملهم عليه إلى أرض المعركة ، ووضع السبيل والجناح والحرج على الذين يستأذنون رسول الله ﷺ فى القعود وهم أغنياء قادرون ، لا يقعدهم عذر حقيقى عن الخروج ، والجناح والحرج على هؤلاء القادرين الذين يرضون أن يقعدوا قعدة الخوالف فى الدور .

ويمضى السياق يصف حال هؤلاء الأغنياء القادرين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، ووراء حب الدعة وإيثار السلامة ، وسقوط الهمة ، وذلة النفس ، وانحناء الهامة هروب من المواجهة المصارحة لذا ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ وهذا من إنباء الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين بما سيكون من أمر هؤلاء المتخلفين من المنافقين بعد الرجوع من الغزوة . مما يدل على أن هذه الآيات نزلت فى أثناء العودة وقبل الوصول إلى المدينة .

يعتذرون إليكم عن تخلفهم وقعودهم ؛ ذلك لخجلهم من الظهور بفعلتهم هذه عارية ، ومن الكشف عن أسبابها الحقيقية ، وهى ضعف الإيمان ، وإيثار السلامة ، والإشفاق من الجهاد ؛ وأمر الله ـ عز وجل ـ نبيه أن يرد عليهم ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ ! فلا جدوى للقول ولا معول على الكلام ، ولكن اعملوا فإن صدق عملكم ما تقولون فذاك ، وإلا فلا ثقة بالقول ولا ائتمان ولا اطمئنان .

والله ـ عز وجل ـ لا تخفى عليه الأعمال ولا النوايا المخبوءة وراءها ، ورسول الله ﷺ سيزن قولكم بعملكم وعلى أساسه يكون التعامل معكم فى المجتمع المسلم ، ولن ينتهى الأمر ـ على كل حال ـ بما يجرى فى هذه الأرض فى فترة الحياة الدنيا ، فوراء ذلك حساب وجزاء ، يقومان على علم الله المطلق بالظواهر والسرائر .

ويأتى إنباء آخر من الله ـ سبحانه ـ لنبيه ﷺ ، عما سيكون من أمر القوم عندما يعود إليهم هو والمؤمنون معه سالمين آمنين ، وكان المنافقون قد ظنوا أنهم لا يعودون من لقاء الروم ! فقد علم الله وأخبر نبيه أنهم سيؤكدون معاذيرهم بالحلف بالله ؛ لعل المسلمين يعرضون عن فعلتهم وتخلفهم ـ عفواً وصفحاً ، ولا يحاسبونهم عليها ويجازونهم بها .

ثم يوجهه ربه إلى الإعراض عنهم فعلاً ـ لكن لا بمعنى العفو والصفح ، إنما بمعنى الإهمال والاجتناب ؛ معللاً ذلك بأنهم دنس يتجنب ويتوقى .

ثم يمضى السياق بعد بيان جزائهم ينبئ عما سيقع من هؤلاء القاعدين بعد عودة المجاهدين، فهم سيطلبون من المسلمين ابتداء أن يعرضوا عن فعلتهم ـ صفحاً وعفواً ، ثم يتدرجون من هذا إلى طلب رضا المسلمين عنهم ليضمنوا السلامة فى المجتمع المسلم بهذا الرضا ولكن الله ـ سبحانه ـ يقرر أنهم فسقوا عن دين الله بهذا القعود الناشئ عن النفاق ؛ وأن الله لايرضى عن القوم الفاسقين ، حتى ولو استطاعوا أن يحلفوا ويعتذروا حتى يرضى عنهم المسلمون .

وينتقل السياق لبيان تصنيف المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت ـ إبان غزوة تبوك ـ وبدأ بتصنيف الأعراب ـ وهم البدو ـ وقد كانت قبائل منهم حول المدينة ، وكانت لهم أدوار فى الهجوم على دار الإسلام فى المدينة قبل إسلامهم ، فلما أسلموا كانوا بوجه عام داخلين فى الفتنين

اللتين ورد وصفهما فى هذه الآيات ، والوصف هنا تقرير قاعدة كلية عن طبيعة الأعراب ، فالشأن فى البدو أن يكونوا أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

وروى الإمام أحمد ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ : قال : « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » . وبعد هذا الوصف الرئيسى العام للأعراب يجىء التصنيف حسبما أحدث الإيمان فى النفوس من أثر ، ومن أنشأه كذلك من فروق بين القلوب التى خالطتها بشاشة الإيمان ، والقلوب التى بقيت على ما فيها من كفر ونفاق ، فمن الأعراب من ينفق ماله فى الزكاة ، وفى غزوات المسلمين ؛ تظاهراً بالإسلام ، ليستمتع بمزايا الحياة فى المجتمع المسلم ومداراة للمسلمين وهم أصحاب السلطان اليوم فى الجزيرة ! وهو يعد ما ينفقه غرامة وخسارة ويتربص بهم الدوائر ، ويتمنى ألا يعودوا من غزاة سالمين ! وهنا يعاجلهم السياق بدعاء من الله ـ سبحانه ـ عليهم ؛ ﴿ عَلَيْهِمْ دَآيِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ ؛ وهناك فريق آخر خالط قلبه بشاشة الإيمان فآمن بالله واليوم الآخر وذلك باعث الإنفاق لديه ، لا الخوف من الناس ، ولا الملق للغالبين ، ولا حساب الربح والخسارة فى دنيا الناس ، وهذا الفريق المؤمن بالله واليوم الآخر يبتغى بما ينفق أن يكون قربى إلى الله ، ويتطلب صلوات الرسول (أى دعواته) الدالة على رضاه ﷺ ، المقبولة عند الله ، وهو يدعو بها للمؤمنين بالله واليوم الآخر ، المنفقين ابتغاء القربى من الله ورضاه .

لذلك يبادر السياق فيقرر لهم أنها قربى مقبولة عند الله ، ويبشرهم بحسن العاقبة وعداً من الله حقاً ، فيقبل التوبة والنفقة ، ويغفر ما كان من ذنب ، ويرحم من يبتغون الرحمة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ من إعجاز القرآن الكريم إخباره المؤمنين بأحوال المنافقين وأعمالهم وما فى نفوسهم .

٢ ـ المنافقون يفضلون رضا الناس على رضا الله ـ تعالى ـ ويؤكدون كلامهم الكاذب بالحلف بأغلظ الأيمان .

٣ ـ الأعراب منهم المنافقون ومنهم المؤمنون ، والمنافقون والكافرون منهم أشد وأعظم نفاقاً وكفراً من غيرهم .

٤ ـ فضل النفقة فى سبيل الله والإخلاص فيها لله ـ تعالى .

٥ ـ حرمة الرضا على الفاسق المجاهر بفسقه ، إذ يجب بُغضه فكيف يُرضى عنه ويُحب ؟

٦ ـ مشروعية الاعتذار على شرط أن يكون المرء صادقاً فى اعتذاره .

الجزء الحادى عشر — سورة التوبة

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ
اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ
مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ
عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ
اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

٢٠٣

معانى الكلمات :

أعد لهم : هيأ لهم .

الأعراب : أهل البادية .

مردوا على النفاق : مرنوا عليه ودربوا به .

عسى : يُرجى ويُتوقع .

تزكيهم بها : تنمى بها حسناتهم .

صلِّ عليهم : ادع لهم واستغفر لهم .

سكن لهم : طمأنينة ورحمة لهم .

الغيب : ما احتجب عن الأبصار والعقول.

الشهادة : الحضور والشهود .

وآخرون مرجون : وآخرون من المتخلفين مؤخرون لا يُقطع لهم بتوبة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل السابقين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ونوقر ذكرهم وسيرتهم فى قلوبنا .

٢ ـ ألا نحكم على الناس بالباطن فنحن لا نعلمه ، ولا يعلم أحد من الغيب إلا ما علمه الله ـ عز وجل .

٣ ـ أن ندرك أهمية الصدقة فى قبول التوبة ومغفرة الذنوب .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات وبعد تصنيف الأعراب ـ على وجه الإجمال ـ يستطرد السياق فى تصنيف المجتمع كله .. حاضره وباديه .. إلى أربع طبقات إيمانية : السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، والمنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة ومن الأعراب ، والذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ،. والذين أرجئ الحكم فى أمرهم حتى يقضى الله فيهم بقضائه .

والظاهر أن هذا التصنيف قد نزلت به هذه الآيات بعد العودة من تبوك ؛ وبعد اعتذار من اعتذر من المنافقين المتخلفين ومن المؤمنين المتخلفين كذلك ، سواء من اعتذر صادقاً ، ومن ربط نفسه بسارية المسجد حتى يطلق وثاقه رسول الله ﷺ ، ومن لم يعتذر بشىء ـ راجياً أن يقبل الله توبته بصدقه ، وهم الثلاثة الذين خلفوا ، فلم يحكم فى شأنهم بشىء حتى تاب الله عليهم وقبل توبتهم ـ كما سيجىء ـ وكان مجموع هؤلاء يمثل صنوف الناس من حول الدعوة ، وفى الجزيرة عقب غزوة تبوك .

وكان الله ـ سبحانه ـ يكشف أرض الحركة كلها وما عليها ومن عليها لرسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين قبل أن ينطلق إلى الأرض كلها بإعلانه العام بالعبودية لله وحده والدينونة له وحده ، وتحرير الإنسان فى الأرض من العبودية للعباد فى شتى الصور والأشكال .

والطبقة الأولى بمجموعاتها الثلاث : « السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم فى الجزيرة بعد الفتح ، والسابقون من المهاجرين هم الذين هاجروا قبل بدر ، وكذلك السابقون من الأنصار . أما الذين اتبعوهم بإحسان ـ الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعاً إبان غزوة تبوك ، فهم الذين اتبعوا طريقهم ، وآمنوا إيمانهم ، وأبلوا بلاءهم بعد ذلك ، وارتفعوا إلى مستواهم الإيمانى وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم فى فترة الشدة قبل بدر ، وهى أشد الفترات طبعاً . ويتحدث صاحب الظلال عن هذا التمايز الإيمانى فى صفوف المجتمع المسلم قائلاً : « نعم إنه كانت فى هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقدية ذاتها ، فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها فى الحركة وسبقها وثباتها .. تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . وتميز أهل بدر ، وتميز أصحاب بيعة الرضوان فى الحديبية ، ثم تميز ـ بصفة عامة ـ الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، والأوضاع العملية فى المجتمع المسلم ، تؤكد هذه الأقدار التى أنشأتها الحركة بالعقيدة ، وتنص عليها ... » .

ذلك مستوى .. وفى مقابلة مستوى ﴿ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ الذين سبق الحديث والكشف عنهم عامة سواء من منافقى المدينة ، أو منافقى الأعراب ، ولكن الحديث هنا عن صنف خاص حذق النفاق ومرن عليه ولجّ فيه ومرد حتى ليخفى أمره على رسول الله ﷺ مع كل فراسته وتجربته ، والله يؤمن رسوله والمؤمنين من كيدهم ، وينذر هؤلاء المنافقين بأنه ـ سبحانه ـ لن يدعهم ، فسيعذبهم عذاباً مضاعفاً فى الدنيا والآخرة .

وبين المستويين المتقابلين ، مستويان بين بين ـ أولهما : من اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، قيل : نزلت فى أبى لبابة وأصحابه ، وهؤلاء حسم أمرهم بأن أطلق وثاقهم

الرسول ﷺ وعذرهم بعد نزول هذه الآيات ، وقبل الله توبتهم ، وأمر النبى ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة؛ ويدعوهم لتهدأ نفوسهم وتطمئن بتوبة الله عليهم لما علم حسن وصدق توبتهم ، ويوجه الحديث إلى المتخلفين التائبين بأن محك الصدق فى توبتهم هو العمل الظاهر الذى يراه الله ورسوله والمؤمنون . فأما فى الآخرة فمردهم إلى عالم الغيب والشهادة الذى يعلم فعل الجوارح وكوامن الصدور. وأن الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف، ولكنه العمل الذى يعقب الندم والتوبة، فيصدق أو يكذب تلك المشاعر النفسية ويعمقها أو يكتسحها بعد أن تكون !

والفريق الأخير هو الذى لم يثبت فى أمره ، وقد وكل أمره إلى ربه : وهم القسم الآخر من المتخلفين من غزوة تبوك ـ غير المنافقين والمعتذرين والمخطئين التائبين ، وهذا القسم لم يكن حتى نزول هذه الآيات قد بُت فى أمره بشىء .

وكان أمرهم موكولاً إلى الله ، لم يعلموه ولم يعلمه الناس بعد ، وقد روى أن هذه الآية نزلت فى الثلاثة الذين خلفوا - أى أجل إعلان توبتهم والقضاء فى أمرهم ؛ وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، الذين قعدوا عن غزوة تبوك ـ كسلاً وميلاً إلى الدعة واسترواحاً للظلال فى حر الهاجرة ! ثم كان لهم شأن مع رسول الله ﷺ سيأتى تفصيله فى موضعه من السورة .

ولما كان أمرهم مرجأ ، فإننا نحب أن نرجئ الحديث فيه حتى يجىء فى موضعه ـ إن شاء الله تعالى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فضل المهاجرين مع النبى ﷺ من مكة إلى المدينة ـ وبخاصة السابقون منهم إلى الإسلام ، وفضل الأنصار من أهل المدينة ـ وبخاصة السابقون منها إلى الإسلام أيضا ، وفضل كل من اتبعوهم بإحسان .

٢ ـ نعيم الدنيا لا يمنع نعيم الآخرة ، وكذلك عذاب الدنيا لا يمنع عذاب الآخرة .

٣ ـ الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف ، ولكنه العمل الذى يعقب الندم والتوبة ، فيصدق أو يكذب تلك المشاعر النفسية ويعمقها أو يكتسحها بعد أن تكون .

٤ ـ علم ما فى القلوب إلى الله ـ تعالى ـ فلا يعلم أحد من الغيب إلا ما علَّمه الله ـ عز وجل .

٥ ـ الرجاء لأهل التوحيد الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئًا بأن يغفر الله لهم ويرحمهم .

٦ ـ الصدقة تكفر الذنوب وتطهر الأرواح من رذيلة الشُّح والبخل .

الجزء الحادي عشر — سورة التوبة

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

٢٠٤

معانى الكلمات :

ضرارًا : إيقاع الضرر والإيذاء بغيرهم .

وكفرا : أى الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام ؛ لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق .

إرصادًا : ترقبًا وانتظاراً .

على شفا جرف : على حرف بئر لم تبن بالحجارة .

هار : هائر متصدع أو متهدم .

فانهار به : فسقط البنيان بالبانى .

ريبة : شكا ونفاقاً .

تقطع قلوبهم : تتقطع وتتفرق أجزاءً بالموت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية:

١ ـ أن نعرف فضل الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله .

٢ ـ أن نشكر لله فضله ـ تعالى ـ ومنه على أن وهبنا أرواحنا وأموالنا ثم اشتراها منا .

٣ ـ أن نستشعر طبيعة وحقيقة البيعة مع الله ونلتزم بالوفاء بها .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات فى بدايتها عن مسجد الضرار وهى قصة بارزة فى غزوة تبوك ، لذلك أفردت المنافقين الذين قاموا بها من بين سائر المنافقين ، وخصص لهم حديثاً مستقلًا بعد انتهاء الاستعراض العام لطوائف الناس فى المجتمع المسلم ـ حينذاك .

ولا مجال لسرد القصة كما وردت فى تفسير ابن كثير ، ولكن نقول : إن هذا المسجد - مسجد الضرار - الذى اتخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين ، لا يراد به إلا الإضرار - بالمسلمين ، وإلا الكفر بالله ، وإلا ستر المتآمرين على الجماعة المسلمة ، الكائدين لها فى الظلام . هذا المسجد ما يزال يتخذ فى صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التى يتخذها أعداء هذا الدين ، تتخذ فى صورة نشاط ظاهره الإسلام وباطنه لسحق الإسلام وتتخذ فى صورة أوضاع

ترفع لافتة الدين عليها ؛ لتترس وراءها وهى ترمى هذا الدين ، يتخذ فى صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتحذرهم إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق ! وتتخذ فى صور شتى كثيرة .

ويقول صاحب الظلال ـ معلقًا على عاقبة مسجد الضرار : « لقد انهار الجرف المنهار انهار ببناء الضرار الذى أقيم عليه ، انهار به فى نار جهنم وبئس القرار ! ولكن ركام البناء بقى فى قلوب بناته ، بقى فيها ﴿ رِيبَةً ﴾ وشكاً وقلقاً وحيرة ، وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر . إلا أن تتقطع وتسقط هى الأخرى من الصدور .

مما سبق يتبين لنا أن القرآن الكريم كان يعمل فى قيادة المجتمع المسلم ، وفى توجيهه ، وفى توعيته،وفى إعداده لمهمته الضخمة من خلال كشفه لطبيعة المجتمع من حول المؤمنين بكل فئاته، وتصنيفه لطبقاته الإيمانية وكشفه للمنافقين بكل أصنافهم ، وبما كادوه من مكائد ومؤامرات للدعوة ولرجالها .

وينتقل السياق ليرسم بقية الأحكام النهائية فى طبيعة العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره ، تبدأ من تحديد العلاقة بين المسلم وربه ، وتحديد طبيعة ، «الإسلام» الذى أعلنه ، ومن بيان تكاليف هذا الدين ، ومنهج الحركة به فى مجالاته الكثيرة .

ويقول صاحب الظلال معلقا على بداية هذه الأحكام : إن الدخول فى الإسلام صفقة بين متبايعين .. الله - سبحانه - فيها هو المشترى ، والمؤمن فيها هو البائع . فهى بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شىء فى نفسه ولا فى ماله يحتجزه دون الله - سبحانه ـ ودون سبيله ؛ لتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله لله ، فقد باع المؤمن لله فى تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم ، هو الجنة : وهو ثمن لا تعدله السلعة ولكنه فضل الله ومنّه .

والذين باعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة ، ذات صفات مميزة .. منها ما يختص بذوات أنفسهم فى تعاملها المباشر مع الله فى الشعور والشعائر ؛ ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة فى أعناقهم من العمل خارج ذواتهم ، لتحقيق دين الله فى الأرض من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقيام على حدود الله فى أنفسهم وفى سواهم .

وحقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها الله كرمًا منه وفضلاً وسماحة - أن الله - سبحانه – قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم ، فلم يعد لهم منها شىء ، لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها فى سبيله ، لم يعد لهم خيار فى أن يبذلوا أو يمسكوا .. كلا .. إنها صفقة مشتراه ، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء ، وفق ما يفرض ما يحدد ، وليس للبائع فيها من شىء سوى أن يمضى فى الطريق المرسوم ، لا يتلفت ولا يتحير ، ولا يناقش ولا يجادل ، ولا يقول إلا

الطاعة والعمل والاستسلام والثمن : هو الجنة ، والطريق : هو الجهاد والقتل والقتال،والنهاية : هى النصر أو الاستشهاد .

من بايع على هذا . من أمضى عقد الصفقة .من ارتضى الثمن ووفى . فهو المؤمن .

فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا ، ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنًا ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال ، ولكنه كرّم هذا الإنسان فجعله مريدًا؛ وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده ؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة .. شر البهيمة ..﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأنفال) كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة – بلا شك – ولكنها فى عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه ، والجهاد بيعة معقودة بعنق كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله ، إنها السنة الجارية التى لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها : ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ (البقرة : ٢٥١) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الجهاد فى سبيل الله فريضة ، والتخلف عنه معصية تستوجب التوبة .

٢ـ النفاق مرض اجتماعى ندد به المنهج القرآنى فى سور كثيرة .مثل : النساء – التوبة – المنافقون - الأحزاب .. وغيرها ، وقف القرآن موقفاً صلباً منه .

٣ ـ أهمية المسجد فى الدعوة إلى الله ، وكيفية الاستفادة منه بما يعود بالخير والنفع على المسلمين فى أمور دينهم ودنياهم ، وتفعيل دوره كما كان فى زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ومن بعدهم حتى أسقطت الخلافة .

٤ ـ لا يصلح الاغترار بأقوال أهل النفاق فإنها كذب كلها .

٥ ـ التحذير من الظلم والإسراف فيه ، فإنه يحرم صاحبه هداية الله فيهلك وهو ظالم فيخسر دنيا وأخرى .

٦ ـ على المؤمن أن يشعر نفسه أن بدنه وماله لله ـ تعالى ـ وأن عليه رعايتها وحفظها حتى ترفع راية الجهاد ، فيقدم نفسه وماله إذ هما وديعة الله ـ تعالى ـ عنده .

التَّٰٓئِبُونَ الْعَٰبِدُونَ الْحَٰمِدُونَ السَّٰٓئِحُونَ الرَّٰكِعُونَ السَّٰجِدُونَ الْأَٰمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

٢٠٥

معانى الكلمات :

السائحون : الغزاة المجاهدون .

لحدود الله : لأوامره ونواهيه.

أولى القربى : ذوى قرابة .

موعدة وعدها إياه : أى وعد تقدم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له .

أواه : كثير التأوه ـ خوفاً وحسرة .

ساعة العسرة : وقت الشدة والضيق فى غزوة تبوك .

يزيغ : يميل إلى التخلف عن الجهاد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية:

١ ـ أن نسعى جاهدين للاتصاف بصفات المؤمنين التى وردت بالآيات .

٢ ـ أن نحرر الولاء لله بطاعته واللجوء إليه بالتوكل عليه .

٣ ـ أن نفى بالوعود والعهود .

٤ ـ أن نعتقد أن الله لا يضل عباده قبل أن يبين لهم ما يجب عليهم عمله أو اتقاؤه .

المحتوى التربوى :

تستكمل الآيات الحديث عن هذه البيعة التى ختمها الله بوعد معروف مشهور مؤكد مكرور، إنه وعد بالجنة لمن يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وهو بهذا الوعد لا يدع مجالاً للشك فى أصالة عنصر الجهاد فى سبيل الله فى طبيعة هذا المنهج الربانى ، وهذا الوعد ثابت فى التوراة والإنجيل والقرآن ، فهذا إذن هو القول الفصل الذى ليس بعده لقائل مقال !

إن الجهاد فى سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال : إنها هو قمة تقوم على قاعدة من الإيهان المتمثل فى مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال . والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة والذين تتمثل

فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة فهم التائبون مما أسلفوا ، العائدون إلى الله مستغفرين ، والتوبة شعور بالندم على ما مضى، وتوجه إلى الله فيما بقى ، وكف عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك ، فهى طهارة وزكاة ، وتوجه وإصلاح .

وهم العابدون المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة وبالعبودية ـ إقراراً بالربوبية . هذه صفة ثابتة فى نفوسهم تترجمها الشعائر كما يترجمها التوجه إلى الله وحده بكل عمل وبكل قول وبكل طاعة وبكل اتباع . فهى إقرار بالألوهية والربوبية لله فى صورة عملية واقعية ، وكذلك هم الحامدون الذين تنطوى قلوبهم على الاعتراف للمنعم بما أنعم ؛ وتلهج ألسنتهم بحمد الله فى السراء والضراء فى السراء للشكر على ظاهر النعمة ، وفى الضراء للشعور بما فى الابتلاء من الرحمة ، وليس الحمد هو الحمد فى السراء وحدها ولكن الحمد فى الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن الله الرحيم العادل ما كان ليبتلى المؤمن إلا لخير يعلمه ، مهما خفى على العباد إدراكه .

وهم ﴿ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ﴾ المتفكرون فى خلق الله وسننه ، فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر فى ملكوت الله على هذا النحو الذى ينتهى بالإنابة إلى الله ، وإدراك الحق الذى يقوم عليه الخلق ، لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر فى مجرد التأمل والاعتبار ، ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك ، وهم كذلك ﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ﴾ الذين يقيمون الصلاة ويقومون بها كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ، وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم . وهم ﴿ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ لتقرير ألوهية الله وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم وهو المعروف الأكبر ، ومواجهة الطاغوت الذى يعبد الناس لغير الله وهو المنكر الأكبر ، وبعد ذلك كله هم ﴿ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ وهو القيام على حدود الله لتنفيذها فى النفس وفى الناس ومقاومة من يضيعها أو يعتدى عليها، وهذه هى الجماعة المؤمنة التى عقد الله معها بيعته وبايعها على الجنة ، واشترى منها الأنفس والأموال ، لتمضى مع سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسله ورسالاته .فقتال فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وقتل لأعداء الله الذين يحادّون الله ، أو استشهاد فى المعركة التى لا تفتر بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والجاهلية ، وبين الشريعة والطاغوت ، وبين الهدى والضلال .

وينتقل السياق ليقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا تلك البيعة وبين من لم يدخلوا معهم فيها - ولو كانوا أولى قربى - بعدما اختلفت الوجهتان واختلفت العاقبتان فى الدنيا والآخرة ، والظاهر أن بعض المسلمين كانوا يستغفرون لآبائهم المشركين ويطلبون إلى رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، فنزلت الآيات تقرر أن فى هذا الاستغفار بقية من تعلق بقرابات الدم ، فى غير صلة بالله ، لذلك ما كان للنبى ، والذين آمنوا أن يفعلوه ، ولما كان لهم قطعاً وليس من شأنهم أصلاً .

ويقول صاحب الظلال : إن العقيدة هى العروة الكبرى التى تلتقى فيها سائر الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية .فإذا انبتت وشيجة العقيدة انبتت الأواصر الأخرى من جذورها، فلا لقاء بعد ذلك فى نسب ، ولا لقاء بعد ذلك فى صهر ، ولا لقاء بعد ذلك قوم ولا أرض أو لا إيمان ، فلا صلة إذن يمكن أن تقام بين إنسان وإنسان » .

فلا أسوة بإبراهيم فى استغفاره لأبيه ، فإنما كان استغفار إبراهيم لأبيه ، لسبب وعده له أن يستغفر له الله لعله يهديه فلما أن مات أبوه على الشرك ، وتبين إبراهيم أن أباه عدو لله لا رجاء فى هداه ، وتبرأ منه « وقطع صلته به » .

والله لا يحاسب الناس إلا على ما بين لهم أن يتقوه ويحذروه ولا يأتوه ، وليس من شأنه أن يذهب بهدى قوم بعد إذ هداهم ويكلهم إلى الضلال لمجرد الفعل ، ما لم يكن هذا الفعل مما نهاهم عنه قبلاً .. ذلك أن الإنسان قاصر والله هو العليم بكل شىء ومنه البيان والتعليم . ولما كانت تلك طبيعة البيعة ، كان التخلف عن الجهاد للقادرين - أياً كانت الأسباب - أمراً مستنكراً عظيماً ، ثم تبين الآيات فيما يلى فضل الله ورحمته بالمؤمنين إذ يتجاوز عما بدا من التردد والتخلف من المؤمنين المخلصين ، ويتوب الله عليهم فيما وقع منهم من أخطاء صغرت أم كبرت ، وتوبة الله على النبى ﷺ تفهم بالرجوع إلى ما كان فى أحداث الغزوة بجملتها ، والظاهر أنها متعلقة بما سبق أن قال الله عنه لنبيه : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ مع تنبيهه إلى أن الأولى كان هو التريث حتى يتبين النبى الصادقين فى أعذارهم من الكاذبين المتمحلين !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المؤمن أن يتعاهد نفسه ؛ ليرى هل هو متصف بهذه الصفات التسع أولا ، فإن رأى نقصاً كمله ، وإن رأى كمالاً حمد الله ـ تعالى ـ عليه وحفظه وحافظ على .

٢ ـ لن ينفع الإنسان يوم القيامة قرابة ولا نسب ، ولا مال ولا جاه .. إلخ وإنما ينفعه إيمانه وعمله الصالح .

٣ ـ لا يجوز الاستغفار – لمن مات على الشرك ؛ لأن الله لا يغفر أن يُشرك به ، فلذا لا يطلب منه شىء أخبر أنه لا يفعله .

٤ ـ وجوب الوفاء بالوعود والعهود .

٥ ـ ليس من سنة الله ـ تعالى ـ أن يضل عباده قبل أن يبين لهم ما يجب عليهم عمله أو اتقاؤه .

٦ ـ ليس للعبد من دون الله من ولى يتولاه ولا نصير ينصره ، ولذا وجبت ولاية الله بطاعته واللجوء إليه بالتوكل عليه .

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

معانى الكلمات :

خُلفوا: تخلفوا عن غزوة «تبوك» بلا عذر .

بما رحبت : مع رحبها وسعتها .

ليتوبوا : ليداوموا على التوبة .

لا يرغبوا بأنفسهم : لا يترفعوا بها ولا يصرفوها .

نصب : أى تعب .

مخمصة : أية مجاعة .

ولا يطؤون موطئاً : ولا يدوسون مكاناً .

يغيظ الكفار : يغضبهم

نيلاً : شيئًا من قتل أو أسر أو غنيمة .

لينفروا كافة : ليخرجوا إلى الجهاد جميعاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نلتزم بالصدق ـ قولاً وفعلاً ـ وإن بدا فيه الهلكة فعاقبته نجاة .

٢ ـ أن نعرف فضل وثواب المجاهدين فى سبيل الله ونقتفى أثرهم .

٣ ـ أن نعلم فضل طلب العلم ، والتفقه فى الدين ، والدعوة إلى الله .

المحتوى التربوى :

يتناول السياق قصة الثلاثة الذين تخلفوا غزوة تبوك وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، وبالعودة إلى القصة ـ كما وردت عند كتاب السير ـ تصف وقائع الغزوة والندب إليهم ، وتخلف المنافقين عنها ، وصدق الثلاثة الذين سبقت الإشارة إليهم من دون الثمانين منافقاً ، وموقف الرسول ﷺ وأمره باعتزالهم ، والنهى عن محادثاتهم ، واعتزال نسائهم أيضا مدة خمسين ليلة ثم يجىء الفرج - بعد أن ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ ـ يجىء الفرج ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ؛ ليتوبوا توبة عامة عن كل ما مضى ، ولينيبوا إلى الله إنابة كاملة فى كل ما سيأتى .

وفى ظل قصة التوبة على الذين ترددوا والذين تخلفوا ؛ وفى ظل عنصر الصدق البادى فى قصة الثلاثة الذين خلفوا ، يجيء الهتاف للذين آمنوا جميعاً أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين فى إيمانهم من أهل السابقة ، ويجيء التنديد بتخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ، مع الوعد بالجزاء السخى للمجاهدين .

يقول صاحب الظلال : « إن أهل المدينة هم الذين تبنوا هذه الدعوة وهذه الحركة ، فهم أهلها الأقربون ، وهم بها ولها ، وهم الذين آووا رسول الله ﷺ وبايعوه ، وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مجتمع الجزيرة كله ، وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت ؛ وباتت تؤلف الحزام الخارجى للقاعدة ، فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ فى الحر أو البرد ، فى الشدة أو الرخاء . فى اليسر أو العسر ؛ ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها ، فإنه لا يحق لأهل المدينة ـ أصحاب الدعوة ، ومن حولهم من الأعراب ، وهم قريبون من شخص رسول الله ﷺ ولا عذر لهم فى ألا يكونوا قد علموا ، أن يشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ﷺ . ومن أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين ، الذين لم يتخلفوا ، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف ، ولم يتزلزل إيمانهم فى العسرة ولم يتزعزع ، وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين اتبعوهم بإحسان .

ثم يمضى السياق بعد هذا الهتاف ـ مستنكراً مبدأ التخلف عن رسول الله ، وفى التعبير تأنيب خفى ، فما يؤنب أحداً صاحب رسول الله ﷺ بأوجع من أن يقال عنه : إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله ، وهو معه وهو صاحبه !

وإنها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة فى كل جيل ، فما كان المؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله فى سبيل هذه الدعوة ، وهو يزعم أنه صاحب الدعوة ، وأنه يتأسى فيها برسول الله ﷺ ؛ إنه الواجب الذى يوجبه الحياء من رسول الله فضلاً على الأمر الصادر من الله — ومع هذا فالجزاء عليه ما أسخاه !

إنه على الظمأ جزاء ، وعلى النصب جزاء ، وعلى الجوع جزاء ، وعلى كل موطئ يغيظ الكفار جزاء وعلى كل نيل من العدو جزاء . يكتب به للمجاهد عمل صالح ، ويحسب من المحسنين الذين لا يضيع لهم الله أجراً ، وإنه على النفقة الصغيرة أو الكبيرة أجر ، وعلى الخطوات لقطع الوادى أجر أجر ـ كأحسن ما يعمل المجاهد فى الحياة .

ويقول صاحب الظلال : « ألا والله ، إن الله ليجزل لنا العطاء ، وإنها والله للسماحة فى الأجر والسخاء. وإنه كما يخجل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول الله ﷺ من الشدة واللأواء . فى سبيل هذه الدعوة التى نحن فيها خلفاء ، وعليها بعده آمناء !

ويبدو أن تنزل القرآن فى هذه السورة بالنكير على المتخلفين ؛ والتنديد بالتخلف ـ وبخاصة من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ؛ قد جعل الناس يتزاحمون فى المدينة ليكونوا رهن إشارة رسول الله ﷺ وبخاصة من القبائل المحيطة بالمدينة . مما اقتضى بيان حدود النفير العام ، فقد اتسعت رقعة الأرض الإسلامية حتى كادت الجزيرة كلها تدين للإسلام ، وكثر عدد الرجال المستعدين للجهاد ، وقد بلغ من عددهم - بعد تخلف المتخلفين فى تبوك ـ نحواً من ثلاثين ألفاً ، الأمر الذى لم يتهيأ من قبل فى غزوة من غزوات المسلمين وقد آن أن تتوزع الجهود ، فى الجهاد وفى عمارة الأرض ، وفى التجارة ، وفى غيرها من شؤون الحياة التى تقوم بها أمة ناشئة ؛ وهى تختلف عن مطالب القبيلة الساذجة ، وعن حاجات المجتمع القبلى الأولية . لذا نزلت الآية ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ﴾ تبين هذه الحدود فى جلاء ، ولقد وردت روايات متعددة فى تفسير هذه الآية ، وتحديد الفرقة التى تتفقه فى الدين وتنذر قومها إذا رجعت إليهم ، والذى يستقيم عندنا فى تفسير الآية : أن المؤمنين لا ينفرون كافة ، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة - على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون - لتتفقه هذه الطائفة فى الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة ؛ وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم ، بما رأته وما فقهته من هذا الدين فى أثناء الجهاد والحركة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب مقاطعة كل من يسىء إلى عقيدته أو مجتمعه الصغير والكبير ـ وخصوصًا فى أوقات المحن والشدائد .

٢ ـ التزام الصدق ، ولو بدا فيه الهلكة ، وإيثاره على الكذب ففى الصدق منجاة .

٣ ـ للمجاهدين ثواب عظيم وأجر على كل جهد يبذلونه إذا أحسنوا العمل وأخلصوا النية لله.

٤ ـ فينبغى أن يكون غرض المعلم الإرشاد والإنذار ، وغرض المتعلم اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار .

٥ ـ وجوب التقوى والصدق فى النيات والأقوال والأحوال والأعمال .

٦ ـ حاجة الأمة إلى الجهاد والمجاهدين ـ كحاجتها إلى العلم والعلماء سواء بسواء .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ
وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ
إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا
إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوۡنَ
أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ
لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ
سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ
ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ
﴿١٢٧﴾ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ
عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ
رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سُورَةُ يُونُسَ

معانى الكلمات :

الذين يلونكم : الأقرب فالأقرب منهم .

غلظة : شدة وحمية وصبراً .

الذين فى قلوبهم مرض : المنافقون . والمراد بالمرض : النفاق .

فزادتهم رجساً إلى رجسهم : فزادتهم شكاً ونفاقاً إلى نفاقهم .

يفتنون : يختبرون .

من أنفسكم : من جنسكم وعربى مثلكم .

عزيز عليه ما عنتم : يصعب عليه ما يشق على أمته .

فإن تولوا : فإن أعرضوا عن الإيمان .

حسبى الله : يكفينى الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية استمرارية الجهاد لنشر الإسلام فى ربوع الدنيا .

٢ ـ أن نعلم آداب التعامل مع آيات الله وأوامره .

٣ ـ أن نفقه حركة هذا الدين وضوابطه المرحلية حسب زمنية التشريع.

المحتوى التربوى :

بعد بيان حدود النفير العام يورد السياق القرآنى للآيات خطة الحركة الجهادية ومداها كذلك وهما الخطة والمدى اللذان سار عليها رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده بصفة عامة ، فلم تشذ عنها إلا حالات كانت لها مقتضيات واقعة . فأما الخطة الجهادية التى تشير إليها الآية فى قوله ـ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ ﴾ .

فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية ، تواجه من « دار الإسلام » ويجاورونها ، مرحلة فمرحلة . فلما أسلمت الجزيرة العربية - أو كادت ـ ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة - كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم ، ثم كان انسياح

الجيوش الإسلامية فى بلاد الروم ، وفى بلاد فارس ، فلم يتركوا وراءهم جيوبًا ؛ ووحدت الرقعة الإسلامية ، ووصلت حدودها ، فإذا هى كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء ، متماسكة الأطراف ؛ ثم لم يأتها الوهن فيها بعد إلا من تمزقها ، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس القوميات !

وهى خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم ـ وما يزالون يعملون وستظل هذه الشعوب التى جعل منها الإسلام « أمة واحدة » فى « دار الإسلام » المتصلة الحدود ـ وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان . ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها ، وإلى رايته الواحدة ؛ وإلا أن تتبع خُطا رسول الله ﷺ وتدرك أسرار القيادة الربانية التى كفلت لها النصر والعز والتمكين .

يقول صاحب الظلال : « إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين ، الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة ، إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق وحفظ ما فى متون الكتب . والتعامل مع النصوص فى غير حركة لا يؤهل لفقه هذا الدين ، ولم يكن مؤهلاً له فى يوم من الأيام !

وتشير الآيات إلى أن أول المقصودين بالآية كانوا هم الروم ، وهم أهل كتاب ، ولكن لقد سبق فى السورة تقرير كفرهم الاعتقادى والعملى ، بما فى عقيدتهم من انحراف ، وبما واقعهم من تحكيم شرائع العبيد .

وهذه لفتة لابد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين فى الحركة تجاه أهل الكتاب ، المنحرفين عن كتابهم ، المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم ! وهى قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون - راضين - إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة الله ـ كتابه ، فى أى زمان وفى أى مكان !

ثم لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة ، وعقب على هذا الأمر بقوله : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ولهذا التعقيب دلالته ، والتقوى هنا .. التقوى التى يحب الله أهلها .. هى التقوى التى تنطلق فى الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار ، وتقاتلهم فى «غلظة » أى بلا هوادة ، ولا تميع ولا تراجع ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولكنه ينبغى أن نعرف ـ وأن يعرف الناس جميعًا ـ أنها الغلظة مع الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم - فى حدود الآداب العامة لهذا الدين - وليست هى الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب ! إنه قتال يسبقه إعلان ، وتخيير بين : قبول الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو القتال ويسبقه نبذ العهد ـ إن كان هناك عهد فى حالة الخوف من الخيانة - (والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين

يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ؛ولا عهد فى غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين فى حالتهم هذه هو الحكم المرحلى الذى كان فى حالة تشبه الحالة التى هم فيها » .

وقبيل ختام السورة التى تكلمت طويلاً عن المنافقين ، تجىء آيات تصور طريقة المنافقين فى تلقى آيات الله وفى استقبال تكاليف هذه العقيدة التى يتظاهرون بها كاذبين ، وإلى جانبها صورة الذين آمنوا وتلقيهم لهذا القرآن الكريم .

فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة فزادتهم إيماناً قد خفقت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيماناً ، وقد استشعروا عناية ربهم فى إنزال آياته عليهم فزادتهم إيماناً وأما الذين فى قلوبهم مرض ، الذين فى قلوبهم رجس من النفاق ، فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون ، وهو نبأ من الله صادق ، وقضاء منه ـ سبحانه ـ مُحقق .

وقبل أن يعرض السياق صورة استجابتهم الثانية يسأل مستنكرًا حال هؤلاء المنافقين الذين لا يعظهم الابتلاء ، ولا يردهم الامتحان ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ وتختم السورة بآيتين ورد أنهما مكيتان ، وورد أنهما مدنيتان ، ونحن نأخذ بهذا الأخير تتحدث إحداهما عن الصلة بين الرسول وقومه ، وعن حرصه عليهم ورحمته بهم ، الآية الثانية توجيه للرسول ﷺ أن يعتمد على ربه وحده حين يتولى عنه من يتولى ، فهو وليه وناصره وكافيه

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ النفاق صفة ذميمة لا ينبغى أن يتصف بها المؤمن ، بل يجب أن يكون ظاهره كباطنه .

٢ ـ المبادرة بالتوبة ، وتذكر نعم الله ـ دائماً ، وحمده وشكره عليها .

٣ ـ احترام وتوقير مجالس القرآن الكريم ، والانتفاع بما فيها من آداب فيها سعادة الفرد والمجتمع .

٤ ـ الإسلام دين السماحة واليسر ، وقد كان الرسول ﷺ مثالا حياً لهذه الأخلاق بما يتصف به من رأفة ورحمة ، وحرص على هداية المؤمنين وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

٥ ـ وجوب الجهاد واستمراريته إلى ألا تبقى فتنة أو شرك أو اضطهاد لمؤمن ، ويكون الدين والحكم كلاهما لله تعالى .

٦ ـ مريض القلب يزداد مرضاً ، وصحيحه يزداد صحة سنة من سنن الله فى العباد .

٧ ـ جواز الفرح بالإيمان والاستبشار بالعمل الصالح .

فهرس الموضوعات